

THE INTERNATIONAL BESTSELLER

JAMES CLAVELL

جیمس کلایوئل



SHOGUN

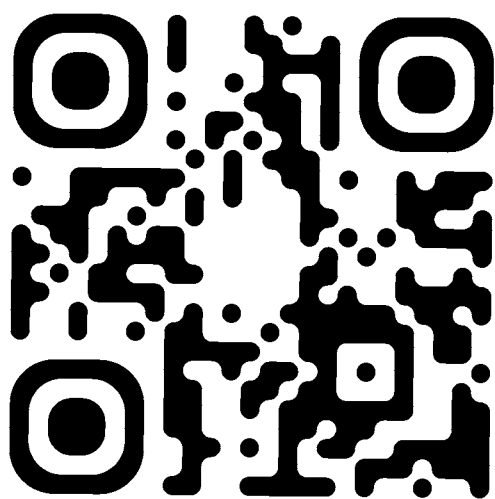
شوغون



مكتبة

ترجمة: محمد عاطف

將軍 SHŌGUN
شوجن



سجل في مكتبة

اضغط! الصفحة

SCAN QR



للنشر والتوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

● تأليف: جيمس كلافل

● ترجمة: عهد عاطف

● تحرير: أحمد حسين

● تدقيق لغوي: نرمين عياد

● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

● رقم الإيداع: 2024/32644 م

● الترخيم الدولي: 9-493-992-977-978

● العنوان الأصلي: SHŌGUN

● العنوان العربي: شُوجُن 1

● حقوق النشر:

Copyright @ 1975 by James Clavell

● الطبعة الأولى: يناير / 2025 م

● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

8 8 2025

مكتبة
t.me/soramnqraa

THE INTERNATIONAL BESTSELLER
JAMES CLAVELL
چیمس کلایل

مکتبہ
t.me/soramnqraa

1
將軍 SH Ō G U N
شوجن



ترجمة: عهد عاطف



مقدمة مكتبة

t.me/soramnqraa

لقد مزقته العاصفة حتى شعر بلدغتها في أعماقه، وتيقن حينها أنه إن لم تطأ أقدامهم اليابسة خلال ثلاثة أيام فسيكون الموت مصيرهم جميعاً. فكر: كم راح ضحية لهذه الرحلة؟ أنا الربان الرئيسي لأسطولٍ من الأموات. لم يتبق سوى سفينة واحدة فقط من أصل خمس، وثمانية وعشرون رجلاً من طاقم كان يضم مائة وسبعة، والآن لا يقوى على المشي سوى عشرة منهم، والبقية يصارعون الموت ومن ضمنهم قائد الأسطول. لا طعام لدينا، والماء كالعدم، وما تبقى منه فهو آسن ملوث.

كان اسمه جون بلاكتورن، وكان وحيداً على سطح السفينة باستثناء مراقب الدقل المائل -سلامون الأبكم- الذي تقوقع في جنب آمن من الريح، يبحث أمامه في البحر.

مالت السفينة بفعل ريح عاصفة مفاجئة، فتمسك بلاكتورن بذراع كرسي القيادة المُقيد جوار الدفة على سطح مؤخرة السفينة حتى استقامت على حالها، وأخشابها تتن. كانت تلك «إيراسموس»، سفينة تجارية حربية صُنعت في نوتردام تزن مائتين وستين طناً، ذات ثلاثة صواري، مسلحة بعشرين مدفعاً، وهي الناجية الوحيدة من أولى قوافل الاستكشاف التي أرسلت من هولندا لتُغير على أعدائها في العالم الجديد. كانوا أولى السفن الهولندية التي كشفت أسرار مضيق ماجلان. أربعمئة وستة وتسعون رجلاً، جميعهم مُتطوعون، هولنديون إلا ثلاثة إنجليز: اثنان من الربانة وضابط. كانت أوامرهم نهب ممتلكات الإسبان والبرتغاليين في العالم الجديد وإحراقها، وفتح امتيازات تجارية دائمة، واكتشاف جزر جديدة في المحيط الهادئ تصلح قواعد دائمة لهم، والمطالبة بتلك الأراضي لهولندا، والعودة إلى الوطن خلال ثلاث سنوات.

لأكثر من أربعة عقود، كانت هولندا البروتستانتية تخوض حرباً ضد إسبانيا الكاثوليكية، تكافح بكل ما تملك لتحرر نفسها من نير سادتها الإسبان المكروهين. ورغم تسميتها أحياناً بهولندا أو الأراضي المنخفضة، فإن هذه

البلاد ظلت قانونيًا جزءًا من الإمبراطورية الإسبانية. أما إنجلترا حليفهم الوحيدة وأولى دول العالم المسيحي التي قطعت علاقتها بالكرسي الرسولي في روما وأصبحت بروتستانتية منذ نحو سبعين عامًا، فقد كانت هي الأخرى في حالة حرب مع إسبانيا على مدى الأعوام العشرين الماضية، وقد تحالفت علانية مع الهولنديين منذ عقد من الزمان.

اشتدت الرياح أكثر فأكثر ومالت السفينة. كانت تبحر بأشعة عارية ما عدا أشعة العواصف العلوية. ورغم ذلك، فقد جرها المد والعاصفة بقوة نحو الأفق المظلم.

قال بلاكتورن لنفسه: يوجد مزيدٌ من العاصفة هناك، ومزيدٌ من الشعاب المرجانية والمياه الضحلة. وبحرٌ مجهول. جيد. لقد واجهت البحر طوال حياتي وخرجت من المواجهة منتصرًا في كل مرة. وسأنتصر دائمًا.

أول ربان إنجليزي يجتاز مضيق ماجلان على الإطلاق. نعم، الأول. وأول ربان على الإطلاق يبحر في هذه المياه الآسيوية، باستثناء بعض الأوغاد البرتغاليين أو الإسبان اللقطاء الذين ما زالوا يعتقدون أنهم يملكون العالم. أول رجل إنجليزي في هذه البحار...

كثيرٌ من المرات الأولى. نعم. وكثيرٌ من الضحايا لتحقيق ذلك.

تذوق بلاكتورن الرياح مجددًا واستنشقتها، لكن لا يوجد أي أثر لليابسة. جال ببصره في المحيط فوجده قاتمًا رماديًا وهائجًا. لم يلحظ حتى قشرة من الطحالب أو بقعة لون تشير إلى وجود رمال قريبة. رأى من بعيد عند مؤخر السفينة ناحية اليمين قمة شعاب مرجانية أخرى، لكن هذا لم يفده بشيء. لقد رافقهم تهديد النتوءات الصخرية البحرية لأشهر، دون أي مظهر لليابسة. فكر: هذا المحيط لا نهاية له. جيد، هذا ما دُرِّبَ عليه، الإبحار في بحر مجهول ورسم خريطته والعودة إلى الوطن مرة أخرى. كم يومًا مضى على مغادرة الوطن؟ عامٌ وأحد عشر شهرًا ويومان. آخر موضع رسوًا فيه كان تشيلي، بعد مائة وثلاثة وثلاثين يومًا، عبر المحيط الذي أبحر فيه ماجلان لأول مرة قبل ثمانين عامًا ويسمى المحيط الهادئ.

أنهك الجوع بلاكتورن، واشتد ألم فمه وجسده من داء الإسقربوط. أجبر عينيه على التأكد من مسار البوصلة، وحث عقله على حساب موقع تقريبي. ففورَ تدوين الخريطة على دفتره -دليله البحري- سيأمن في هذه البقعة الصغيرة من المحيط. وإذا كان آمنًا، فتكون سفينته آمنة، وعندها قد يعثران

معًا على بلاد اليابان، أو حتى الملك المسيحي الكاهن يوحنا وإمبراطوريته الذهبية التي تروي الأساطير أنها تقع إلى الشمال من كاثاي، أينما كانت تقع كاثاي.

ومع نصيبي من الثروات، سأبحر غربًا مجددًا عائدًا إلى الوطن، أول ربان إنجليزي على الإطلاق يبحر طوافًا بالكرة الأرضية، ولن أغادر موطني مجددًا. أبدًا. أقسم بحياة ابني.

منعه هبوب الريح من التفكير العاثر وأبقاه يقظًا. سيكون النوم الآن حماقة. فكر: لن تستيقظ أبدًا من هذا النوم. ثم مدد ذراعيه لتخفيف تشنج عضلات ظهره، وأحكم إغلاق رداءه حوله. رأى أنَّ الأشرطة مشدودة وعجلة القيادة مثبتة بإحكام. كان مراقب القيدوم يقظًا. لذلك استقر بصبر وصلَّى من أجل رؤية اليابسة.

- انزل إلى الأسفل يا ربان. سأتولى أنا المراقبة إن سمحت لي بذلك.

كان المساعد الثالث هندريك سبكس يجر نفسه صعودًا على السلم، وجهه مكفهرًا بالإعياء، وعيناه غائرتان، وبشرته مبقعة وشاحبة. اتكأ بثقل على صندوق البوصلة ليثبت نفسه، وتقيأ قليلًا. وقال: «يا يسوع المبارك، اللعنة على اليوم الذي غادرت فيه هولندا».

- أين رفيقك يا هندريك؟

- في فراشه. لا يستطيع الخروج من فراشه المليء بالقذارة. ولن يخرج... ليس قبل يوم القيامة.

- وماذا عن قائد الأسطول؟

بصق هندريك قائلًا: «يئن طلبًا للطعام والماء. أخبرته أنني سأشوي له دجاجًا مسمنًا وأقدمه له على طبق فضي مع قارورة من البراندي لتساعده على الهضم. هذا القذر الأحمق».

- اصمت.

- سأصمت يا ربان. لكنه أحمق، وسنموت جميعًا بسببه.

تقيأ الفتى وبصق بلغمًا مبقعًا متعدد الألوان وأكمل: «يا يسوع المبارك، ساعدني».

- انزل إلى الأسفل وعُد عند الفجر.

خفض هندريك نفسه بألم على كرسي القيادة الآخر قائلاً: «تفوح رائحة الموت في الأسفل. سأتولى أنا المراقبة إن أذنتَ لي بذلك. ما المسار؟».

- أينما تأخذنا الرياح.

- وأين موضع رسو الياينة الذي وعدتنا به؟ أين بلاد اليابان... أنا أسأل أين هي؟

- أمامنا.

- دائماً أمامنا! يا للهول، لم يكن ضمن أوامرنا الإبحار نحو المجهول. كان ينبغي أن نكون في الوطن الآن، سالمين وبطوننا ممتلئة، لا نطارده شرر القديس إلمو.

- انزل إلى الأسفل أو اصمت.

عبس هندريك وأدار بصره بعيداً عن الرجل ذي اللحية الطويلة. أراد أن يسأله: أين نحن الآن؟ لماذا لا يُسمح لي برؤية الدليل السري؟ لكنه كان يعلم أن المرء لا يطرح مثل هذه الأسئلة على ربان، وبخاصة هذا الربان. ورغم ذلك فقد فكر: أتمنى لو كنتُ أتمتع بنفس القوة والعافية كما حين غادرت هولندا، حينها لما انتظرتُ لحظة. لكنني الآن قد اقتلعت عينيك الرماديتين المزرقتين وسحقت تلك الابتسامة الساخرة المزعجة عن وجهك وألقيت بك إلى الجحيم الذي تستحقه. حينئذٍ، كنتُ لأصبح أنا الربان الرئيسي، وكانت السفينة لتُدار على يد رجل هولندي -وليس أجنبيّاً- وكانت الأسرار ستظل آمنة بيننا. لأن الحرب ستنتشب قريباً بيننا وبينكم أنتم الإنجليز. فنحن نريد الشيء نفسه: السيطرة على البحار، والتحكم بجميع طرق التجارة، والهيمنة على العالم الجديد، وخنق إسبانيا.

تمتم هندريك فجأة: «ربما لا وجود لبلاد اليابان؟ إنها مجرد أسطورة ملعونة».

- هي موجودة بالفعل. بين خطيّ عرض ثلاثين وأربعين شمالاً. الآن اصمت أو انزل إلى الأسفل.

تمتم هندريك وأرعى جفنيه تاركاً نفسه تنجرف في النوم: «تفوح رائحة الموت في الأسفل يا ربان».

تحرك بلاكثورن في كرسي القيادة الخاص به، وكان جسمه يؤلمه أكثر اليوم. فكر: أنت أكثر حظاً من معظمهم، أكثر حظاً من هندريك. لا، ليس أكثر

حظًا بل أكثر حرصًا. حافظت على فاكهتك بينما أكلها الآخرون بلا مبالاة رغم تحذيراتك. لذلك فإن داء الإسقربوط لديك في مراحله الأولى بينما يعاني الآخرون نزيفًا مستمرًا، وأمعائهم مسهلة، وأعينهم ملتبهة ودامعة، وأسنانهم تتخلخل أو تتساقط من أفواههم. لماذا لا يتعلم الرجال أبدًا؟

كان يعلم أن الجميع يهابه، حتى قائد الأسطول نفسه، وأن معظمهم يكونون له الكراهية. لكن هذا أمر طبيعي، فهو الربان الذي يتولى القيادة في عرض البحر وهو من يضع المسار ويُسيّر السفينة، وهو من يُوصلهم من ميناء إلى آخر.

تُعد أي رحلة بحرية في هذه الأيام محفوفة بالأخطار، ذلك لأن الخرائط الملاحية القليلة الموجودة غامضة للغاية بحيث لا تجدي فائدة تذكر. ولا توجد طريقة لتحديد خطوط الطول بدقة مطلقة بتاتًا.

قال معلمه المسن ألبان كارادوك من قبل: «اعثر على طريقة لتحديد خط الطول، وستصبح أغنى رجل في العالم. ستمنحك الملكة -حماها الرب- عشرة آلاف جنيه ولقب الدوق الملكي مقابل حل هذا اللغز. وسيعرض عليك البرتغاليون أكلو الروث أكثر سفينة حربية ذهبية. والإسبان اللقطاء سيعرضون عليك ضعف ذلك. بعيدًا عن اليابسة، ستكون دائمًا تائهًا يا فتى». توقف كارادوك وهز رأسه بحزن نحوه كعادته: «أنت تائه يا فتى. ما لم...».

صاح بلاكثورن بفرح، مدركًا أنه قد أتقن دروسه جيدًا: «ما لم تملك دليلًا بحريًا».

كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا حينها، وقد تتلمذ بالفعل لمدة عام على يد ألبان كارادوك، الربان وباني السفن الذي أصبح بمنزلة الأب الذي فقده، والذي لم يضره قط ولكن علّمه هو والفتية الآخرين أسرار بناء السفن والطبيعة الخاصة للبحر.

كان الدليل البحري عبارة عن كتاب صغير يحتوي على الملاحظات التفصيلية لربان سبق له الذهاب لخوض تلك التجربة. يُسجل به مسارات البوصلة المغناطيسية بين الموانئ والألسنة، والرؤوس والأخايد. ويُسجل به سبر وعمق ولون الماء وطبيعة قاع البحر. ويُسجل به كيفية الوصول إلى هناك وكيفية العودة: كم يومًا تستغرق السفينة للوصول عن طريق مسار خاص، ونمط الرياح وهباتها واتجاهاتها، والتيارات المتوقعة ومصدرها، وأوقات العواصف والرياح الموسمية، وأين تُصلح السفينة وأين تُزود بالمياه.

وأماكن وجود الأصدقاء والأعداء، والمياه الضحلة والشعاب المرجانية والمد والجزر والملاذات. باختصار كل ما هو ضروري لرحلة آمنة.

امتلك الإنجليز والهولنديون والفرنسيون دلائل بحرية للملاحة خاصة بمياههم، أما بالنسبة لمياه بقية أنحاء العالم فلم يجوبها على نحو واسع سوى قباطنة البرتغال وإسبانيا، وكانت هاتان الدولتان تعتبران جميع الدلائل البحرية غاية في السرية. الدلائل التي تكشف عن الطرق المؤدية إلى العالم الجديد أو التي تكشف أسرار مضيق ماجلان ورأس الرجاء الصالح -وهما اكتشافان يُنسبان إلى البرتغاليين- وبالتالي اعتبر البرتغاليين والإسبان الطرق المؤدية إلى آسيا كنوزًا وطنية يقومون بحمايتها، ويطمح إليها أعداؤهم الهولنديون والإنجليز بالشراسة نفسها.

ولكن قيمة الدليل البحري كانت تتوقف على الربان الذي كتبه، والكاتب الذي نسخه بخط اليد، وآلة الطباعة النادرة جدًا التي طبعته، أو العالم الذي ترجمه. وعليه، فقد تتضمن الدلائل البحرية تلك أخطاء، وقد يكون حتى بعضها مقصودًا. فلا يتيقن الربان حتى يخوض تلك البحار بنفسه. مرة واحدة على الأقل.

في عرض البحر، كان ربان السفينة هو القائد والمرشد الوحيد، والحَكَم الفصل في كل ما يتعلق بالسفينة وطاقمها. وحده يُصدر الأوامر من سطح مؤخرة السفينة.

قال بلاكثورن لنفسه: هذا نبيذ قوي، جرعة واحدة لن تُمَحَي من ذاكرتك أبدًا، ستظل تتحرق شوقًا إليها دائمًا، وستظل حاجة ماسة لك. هذه أحد الأمور التي ستبقيك على قيد الحياة حين يموت الآخرون.

نهض بلاكثورن وقضى حاجته في مصرف المياه. لاحقًا نفدت الرمال من الساعة الرملية الموضوعة بجوار صندوق البوصلة، فأعاد قلبها ودق جرس السفينة.

- هل تقدر على البقاء مستيقظًا يا هندريك؟

- نعم. نعم، أعتقد ذلك.

- سأرسل شخصًا ليحل محل مراقب القيدوم. تأكد من وقوفه في مواجهة الريح وليس في جنب آمن. سيساعد ذلك على بقاءه يقظًا ومتيقظًا.

للحظة، راودته فكرة أن يُدِر السفينة باتجاه الريح ويوقف السفينة في عرض البحر طوال الليل، إلا أنه تراجع عن قراره، ونزل على السلم، وفتح باب السطح العلوي للسفينة. يقود السلم إلى أماكن إقامة البحارة. تمتد المقصورة بعرض السفينة وتحتوي على أسرة وأماكن للأسرة القماشية المعلقة تكفي لمائة وعشرين رجلًا. أحاطه الدفء وشعر بالامتنان لذلك، وتجاهل الرائحة الكريهة الدائمة المنبعثة من بطن السفينة بالأسفل. لم يتحرك أيُّ من الرجال الذين يفوق عددهم العشرين من أسرته.

قال باللغة الهولندية، وهي لغة التواصل المشتركة في الأراضي المنخفضة، والتي يتحدثها بطلاقة، إلى جانب البرتغالية والإسبانية واللاتينية: «اصعد إلى صارية المقدمة يا ماتسوكر».

- أنا على حافة الموت.

قال الرجل القصير ذو الملامح الحادة وتوغل أكثر في سريره مضيئًا: «أنا مريض. انظر، أفقدني داء الإسقربوط جميع أسناني. ساعدنا يا يسوع، سنهلك جميعًا! لولاك لكنا جميعًا في ديارنا الآن، سالمين. أنا تاجر ولستُ بحارًا. لست جزءًا من الطاقم... خذ شخصًا آخر. يوهان هناك...».

صرخ الرجل بأعلى صوته بينما انتشل بلاكتورن جسده بقوة من السرير وألقاه بقوة على الباب. ملأ الدم فمه وأصابه الذهول. ركلة وحشية في خاصرته أخرجته من ذهوله.

- اصعد إلى صارية المقدمة وابقَ هناك حتى تموت أو نرسو على اليابسة. فتح الرجل الباب وفر هاربًا بأسى.

نظر بلاكتورن إلى الآخرين، وبادلوه النظر. قال: «كيف تشعر يا يوهان؟».

- بخير يا ربان. ربما سأعيش.

كان يوهان فينك في الثالثة والأربعين، كبير المدفعية ونائب رئيس البحارة، أكبر رجل على متن السفينة. كان أصلع بلا أسنان، بشرته بلون خشب البلوط العتيق وقويًا بالقدر نفسه. أبحر قبل ست سنوات مع بلاكتورن في رحلة البحث المشؤومة عن الممر الشمالي الشرقي، وكان كل رجل يعرف قيمة الآخر.

- في مثل عمرك، يكون معظم الرجال قد فارقوا الحياة بالفعل، لذا فأنت متقدم علينا جميعًا.

كان بلاكتورن في السادسة والثلاثين من عمره.

ابتسم فينك بكآبة: «إنه بسبب شراب البراندي يا ربان، والفحشاء والحياة المقدسة التي عشتها».

لم يضحك أحد. ثم أشار أحدهم إلى سرير: «يا ربان، لقد مات رئيس البحارة».

- إذن أخرجوا الجثة إلى صارية المقدمة، اغسلوها وأغلقوا عينيها. أنت وأنت وأنت!

خرج الرجال بسرعة من أسرتهم، وسحبوا وحملوا الجثة معًا من المقصورة.

- تولّ المراقبة وقت الفجر يا فينك. وأنت يا جينسيل راقب القيدوم.

- حسنًا يا سيدي.

عاد بلاكتورن إلى سطح السفينة.

تأكد بلاكتورن من بقاء هندريك مستيقظًا وأن السفينة تسير على نحو سليم. تعثر سلامون المراقب المنهك أمامه، وهو أشبه بالموتى أكثر من الأحياء، وكانت عيناه منتفختين ومحمّرتين من وطأة الرياح. عبر بلاكتورن الممر حتى الباب الآخر ونزل إلى الأسفل. يقود الممر إلى المقصورة الكبرى في المؤخرة، وهي مقصورة قائد الأسطول ومخزن الذخيرة. أما مقصورته الخاصة فكانت على يمين السفينة، بينما كانت الأخرى، على يسار السفينة، مخصصة عادةً لمساعدى الربان الثلاثة. الآن يتشاركها باكوس فان نيك التاجر الرئيسي، وهندريك المساعد الثالث، والصبي كروك. لقد كانوا جميعًا مرضى للغاية.

دخل بلاكتورن إلى المقصورة الكبرى. كان قائد الأسطول بولاس سبيلبرجين مُستلقياً شبه فاقد الوعي في سريره. لقد كان رجلًا قصيرًا وقمحي اللون، وكان سمينًا عادةً، أما الآن فقد نحل جسمه كثيرًا، وكان جلد بطنه مترهلًا بطيات واضحة. أخرج بلاكتورن قارورة ماء من درج سري وساعده على شرب القليل منها.

قال سبيلبرجين بضعف: «شكرًا. أين اليايسة... أين اليايسة؟».

- أمامنا.

أجابه ولم يعد يصدق ذلك، ثم أخفى قارورة الماء وأغلق أذنيه عن تأوهات القبطان وخرج، وقد عاد كرهه له مجددًا.

منذ عام تقريبًا وصلوا إلى تيبيرا ديل فويجو، وكانت الرياح مواتية للدخول إلى ممر ماجلان المجهول. لكن القبطان أمر بالرسو للبحث عن الذهب والكنوز.

- يا إلهي، انظر إلى الشاطئ يا قائد. لا توجد كنوز في تلك الأرض القاحلة.
- تقول الأساطير إنها غنية بالذهب ويمكننا المطالبة بالأرض لصالح هولندا المجيدة.

- يسيطر الإسبان على المنطقة منذ خمسين عامًا.

- ربما... ولكن ربما ليسوا في هذه المنطقة الجنوبية يا ربان.

- في هذا الجنوب تنعكس الفصول، مايو ويونيو ويوليو وأغسطس هي فصول شتاء قارس هنا. يقول الدليل البحري إن التوقيت حاسم لعبور المضيق. ستتغير الرياح بعد أسابيع قليلة، ثم سيتعين علينا البقاء هنا، ونعيش الشتاء لشهور.

- كم أسبوعًا يا ربان؟

- يقول الدليل البحري إنها ثمانية أسابيع. لكن الفصول لا تبقى كما هي...

- إذن سنستكشف المكان لمدة أسبوعين. هذا سيعطينا متسعًا من الوقت، وبعد ذلك إذا لزم الأمر، سنتجه شمالًا مرة أخرى وننهب بضع بلدات أخرى، حسنًا يا سادة؟

- يجب أن نحاول الآن يا قائد. لدى الإسبان عدد قليل جدًا من السفن الحربية في المحيط الهادئ. أما هنا فالبحار تعج بهم وهم يبحثون عنا. أقول إننا يجب أن نواصل الإبحار الآن.

ولكن قائد الأسطول تجاوزه في الأمر وعرض المسألة للتصويت على باقي القباطنة - وليس على باقي الربابنة، أحدهم إنجليزي وثلاثة هولنديين - وقد قادوا الغارات عديمة الجدوى على اليابسة.

تغيرت الرياح في وقت مبكر من ذلك العام واضطروا إلى المكوث شتاء هناك، حيث كان قائد الأسطول يخشى التوجه شمالًا بسبب الأساطيل

الإسبانية. لقد مضى أربعة أشهر قبل أن يتمكنوا من الإبحار. بحلول ذلك الوقت مات مائة وستة وخمسون رجلاً في الأسطول جوعاً وبرداً وإعياءً، وكانوا يأكلون جلد العجل الذي يغطي الحبال. وقد فرقت العواصف الشديدة داخل المضيق الأسطول. كانت سفينة إيراسموس هي السفينة الوحيدة التي وصلت إلى نقطة الالتقاء قبالة تشيلي. لقد انتظروا الآخرين لمدة شهر ثم أبحروا نحو المجهول مع اقتراب الإسبان. كانت تشيلي هي آخر نقطة في الدليل البحري السري.

عاد بلاكتورن سيراً على طول الممر وفتح قفل باب مقصورته الخاصة وأعاد غلقه خلفه. كانت المقصورة منخفضة السقف صغيرة ومنظمة، وكان عليه أن ينحني وهو يعبر ليجلس إلى مكتبه. فتح درجاً وفكّ غلاف آخر تفاحة من التفاحات التي كان يخزنها بعناية منذ أن كان في جزيرة سانتا ماريا قبالة تشيلي. كانت مشوّهة وصغيرة، وقد بدأ العفن يغزو جزءاً منها. قطع ربعاً منها فظهرت بعض اليرقات. وأكلها كلها، ملتزماً بالأسطورة البحرية القديمة التي تقول بأن يرقات التفاح فعالة في مكافحة داء الإسقربوط تماماً مثل الفاكهة نفسها، وأن فركها على اللثة يساعد على منع تساقط الأسنان. مضغ الفاكهة برفق لأن أسنانه كانت تؤلمه ولثته كانت ملتهبة ومؤلمة، ثم ارتشف الماء من قربة النبيذ فوجد طعمه عكراً. ثم لف ما تبقى من التفاحة وأخفاها.

رأى فأراً يسرع أسفل الظلال التي يلقيها قنديل الزيت المعلق فوق رأسه. أصدرت أخشاب السفينة أصوات صرير. ويوجد حشد من الصراصير على الأرض.

أنا منهك. أنا منهك للغاية.

ألقي نظرةً على سريريه. طويل وضيق، وفراشه المصنوع من القش يدعوه إلى النوم.

أنا منهك للغاية.

همس جانبه الشيطاني: نمّ لساعةٍ واحدة فقط، حتى عشر دقائق... وستصبح متيقظاً طوال الأسبوع. لم تنعم سوى بساعات قليلة من النوم لعدة أيام، ومعظمها في العراء تحت البرد. يجب أن تنام. نمّ. إنهم يعتمدون عليك... قال بصوت عالٍ: «لن أنام، سأنام غداً».

وأجبر يده على فتح صندوقه وإخراج دليله البحري. رأى أن الآخر -البرتغالي- آمن ولم يمسه سوء، وهذا أسعده. أخذ ريشة نظيفة وبدأ يكتب: «21 أبريل 1600. الساعة الخامسة. وقت الغسق. مضى 133 يومًا منذ مغادرتنا جزيرة سانتا ماريا في تشيلي، على خط عرض 32 درجة شمالًا. البحر لا يزال هائجًا والرياح قوية والسفينة مُجهزة كما كانت من قبل. لون البحر رمادي مخضر باهت لا قرار له. ما زلنا نبحر أمام الرياح على مسار 270 درجة، ننحرف إلى الشمال الغربي ونقطع المسافة بسرعة، نحو فرسخين، كل فرسخ يساوي خمسة كيلومترات في الساعة. رُصدت شعاب مرجانية كبيرة على شكل مثلث في منتصف الساعة باتجاه الشمال الشرقي بالشمال على بعد نصف فرسخ.

توفي ثلاثة رجال ليلًا بسبب داء الإسقربوط. يورس صانع الشراع، ورايس المدفعي، والمساعد الثاني ديهان. وبعد تسليم أرواحهم للرب، وبما أن قائد الأسطول ما زال مريضًا، أُلقيت بهم في البحر دون أكفان، لأنه لم يوجد مَنْ يصنعها لهم. توفي اليوم رئيس البحارة ريكلف.

لم أستطع تحديد ميلان الشمس ظهر اليوم، وهذا بسبب الغيوم مجددًا. لكنني أقدر أننا ما زلنا في المسار الصحيح وأن وصولنا إلى اليابان يجب أن يكون قريبًا....».

- ولكن متى سيحدث ذلك؟

وجه سؤاله للقنديل البحري المعلق فوق رأسه والذي يتأرجح مع ميل السفينة. قال لنفسه للمرة المليون: كيف تُصنع خريطة؟ يجب أن تكون هناك طريقة. كيف يُحدّد خط الطول؟ يجب أن تكون هناك طريقة. كيف نحافظ على الخضراوات طازجة؟ ما هو الإسقربوط...؟

قال ألبان كارادوك: «يقولون إنه زحار ناتج عن البحر يا فتى».

لقد كان رجلًا ذا بطن ضخم وقلب كبير ولحية رمادية متشابكة.

- ولكن هل يمكنك أن تغلي الخضراوات وتحفظ بالمرق؟

- إنها تفسد يا فتى. لم يكتشف أحد طريقة لتخزينها.

- يقولون إن فرانسيس دريك سيبحر قريبًا.

- لا. لا يمكنك الذهاب يا فتى.

- أنا تقريبًا في الرابعة عشرة. لقد سمحت لتيمة ووات بالتوقيع للذهاب معه وهو يحتاج إلى ربانة متدربين.
- إنهم في السادسة عشرة. أنت فقط في الثالثة عشرة.
- يُقال إنه سيحاول المرور عبر مضيق ماجلان، ثم يمضي صاعدًا على طول الساحل إلى المنطقة غير المستكشفة -إلى كاليفورنيا- للعثور على مضيق أنيان الذي يربط المحيط الهادئ بالمحيط الأطلسي. من كاليفورنيا وصولًا إلى نيوفاوندلاند، ثم إلى الممر الشمالي الغربي أخيرًا...
- الممر الشمالي الغربي المزعوم يا فتى. لم يثبت أحد صحة هذه الأسطورة بعد.
- سيثبتها هو. لقد أصبح الآن أميرًا «قائد الأسطول البحري» وسنصبح أول سفينة إنجليزية تعبر مضيق ماجلان، والأولى في المحيط الهادئ، والأولى... لن أحصل أبدًا على فرصة أخرى كهذه.
- بلى، ستحصل عليها، وهو لن يجتاز طريق ماجلان السري أبدًا إلا إذا تمكن من سرقة دليل بحري أو أسر ربانًا برتغاليًا ليرشده عبره. كم مرة يجب أن أخبرك أنه يجب أن يتحلى الربان بالصبر. تعلم الصبر يا فتى. أمامك الكثير لتت...

مكتبة

t.me/soramnqraa

- أرجوك!
- لا.
- لماذا؟
- لأنه سيرحل لعامين أو ثلاثة أعوام، وربما أكثر. سيقطات الضعفاء والصغار على بقايا الطعام وقطرات الماء. ولن تعود سوى سفينته من بين السفن الخمس التي ستبحر. لن تنجو أبدًا يا فتى.
- إذن سأشارك للصعود إلى سفينته فقط. أنا قوي. سأأخذني معه.
- اسمع يا فتى، كنتُ مع دريك في سفينته جوديث، التي تزن خمسين طنًا، في سان خوان دي أولوا عندما قاتلنا نحن والأميرال هوكينز -كان في سفينة مينيون- وشققنا طريقنا خارج الميناء عبر الإسبان الأوغاد. كنا نتاجر بالعبيد من غينيا إلى البر الرئيسي الإسباني، لكن لم يكن لدينا ترخيص إسباني للتجارة وخدعوا هوكينز وحاصروا أسطولنا.

كانت لديهم ثلاث عشرة سفينة عظيمة، ونحن ستة. أغرقنا ثلاثًا من سفنهم، وأغرقوا هم سفن السنونو والملاك والقافلة ويسوع لوبيك. نعم لقد قاتل دريك حتى خرجنا من الفخ وأعادنا إلى الوطن. لم يبق سوى أحد عشر رجلًا على متن السفينة ليرووا القصة. كان لدى هوكينز خمسة عشر رجلًا من أصل أربعمئة وثمانية بحارة شجعان. إن دريك بلا رحمة يا فتى. هو يريد المجد والذهب، ولكن لنفسه فقط، والكثير من الرجال ماتوا إثباتًا لذلك.

- لكنني لن أموت. سأكون واحدًا من...

- لا. أنت لم تتدرب سوى لاثني عشر عامًا. أمامك عشر سنوات أخرى ثم تصبح حرًا. ولكن حتى ذلك الوقت، حتى عام 1588، ستتعلم كيفية بناء السفن وكيفية قيادتها، ستطيع أوامر ألبان كارادوك صانع السفن والربان وعضو بيت الثالث، وإلا فلن تحصل على رخصة أبدًا. ومن دون الرخصة، لن تقود أي سفينة في المياه الإنجليزية أبدًا، ولن تقود سطح أي سفينة إنجليزية في أي مياه لأن هذا كان قانون الملك الصالح هنري -رحم الرب روحه-. وكان قانون ماري تيودور العاهرة العظيمة -لعنة الرب على روحها-. إنه قانون الملكة -فلتحكم إلى الأبد-. إنه قانون إنجلترا، وأفضل قانون بحري وُضع على الإطلاق.

تذكر بلاكتورن كم كره سيده آنذاك، وكره بيت الثالث، الاحتكار الذي أنشئ بأمر الملك هنري الثامن عام 1514 لتدريب وإجازة جميع السادة والربابنة الإنجليز، وكره الاثني عشر عامًا التي قضاهما أشبه بالعبد، وهو يعلم أنه دونها لن يحصل أبدًا على الشيء الوحيد الذي يريده في العالم. وكان نغمه أشد على كارادوك عندما عاد دريك محققًا مجددًا أبدًا، مع سفينته جولدن هند الشراعية ذات حمولة المائة طن، عاد بأعجوبة إلى إنجلترا بعد اختفائه لمدة ثلاث سنوات. كانت سفينته أول سفينة إنجليزية تطوف حول العالم، وأحضرت معها أغنى غنائم نهب عرفتها تلك الشواطئ على الإطلاق: مليون ونصف جنيه إسترليني من الذهب والفضة والتوابل والأواني.

لم يُطفئ نار غضب بلاكتورن غرق أربع سفن من أصل خمسة، ومصرع ثمانية من كل عشرة رجال. وفقدان تيم ووات، ولا حقيقة استعانة دريك بمُرشد برتغالي أسير ليقوده عبر مضيق ماجلان إلى المحيط الهادئ. وكذلك لم يتأثر إعجاب الشعب به بعد حقيقة إعدامه أحد الضباط، ولا تجريده القس

فليتشر من صلاحياته، ولا فشله في العثور على الممر الشمالي الغربي. بل على العكس، استحوذت الملكة على نصف الكنوز ونصّبتة فارسًا. أما النبلاء والتجار الذين مولوا البعثة، فتلقوا أرباحًا تفوق ثلاثة أضعاف رأس المال الذي استثمروه، بل وتوسلوا إلى دريك لتمويل رحلته القرصانية القادمة. وتهافت جميع البحارة على الإبحار معه لأنه عاد بالغنائم، وعاد لموطنه، وأصبح من القلة المحظوظين الذين نجوا أثرياء للأبد بحصتهم من الغنائم.

أخبر بلاكتورن نفسه: كان بإمكانني النجاة أيضًا. وكان نصيبي من الكنز حينها ليُحقق لي...

- احترسووا، توجد صخور أمامنا.

شعر بدويّ صرخة قبل حتى أن تلتقطها أذناه، ثم سمع الصرخة مجددًا مختلطة بالعاصفة.

انطلق خارج المقصورة وصعد السلم إلى سطح مؤخرة السفينة، وقلبه يخفق بشدة وحلقه جاف. لقد حل ظلام دامس الآن، وكان المطر يهطل بغزارة، فشعر بفرحة عابرة، إذ علم أن مصارف الأمطار المصنوعة من الأشعرة، والتي أعدت قبل عدة أسابيع، ستفيض قريبًا. فتح فمه أسفل المطر شبه الأفقي وتذوق عذوبته، ثم أدار ظهره للعاصفة.

رأى أن هندريك قد شلّه الرعب. أما ماتسوكر مراقب القيدوم فقد انكمش بجانب مقدمة السفينة وهو يصرخ بكلام غير مترابط ويشير إلى الأمام. ثم نظر هو أيضًا إلى ما أمام السفينة.

كانت الشعاب المرجانية على بُعد نحو مائة وأربعة وثمانين مترًا فقط، صخور سوداء ضخمة كأنها مخالب يضربها البحر الجائع. امتد خط الأمواج المتكسر إلى اليسار واليمين، متقطعًا على فترات. كانت العاصفة تقتلع مساحات شاسعة من رذاذ الماء وتقذفها في سواد الليل. انقطع حبل الصاري الأمامي، وجُرف الشراع الأعلى. اهتز الصاري في مكانه ولكنه صمد، والبحر يقود السفينة بلا هواده نحو حتفها.

صاح بلاكتورن ودق جرس السفينة بعنف: «فليصعد الجميع على سطح السفينة».

أيقظ صوت الجرس الصاخب هندريك من ذهوله، وصرخ بالهولندية: «لقد هلكنا، ساعدنا يا يسوع».

- نادر البحارة إلى السطح أيها الوغد! لقد كنت نائمًا. كلاكما كنتما نائمين! دفعه بلاكتورن بقوة نحو السلم، وتمسك بعجلة القيادة، وأزاح الجزء الوافي عن عجلة القيادة، وتأهب ثم أدار العجلة بقوة إلى اليسار.

بذل كل قوته بينما اخترقت دفة السفينة التيار الجارف. ارتعدت السفينة بأكملها. ثم بدأ قيود السفينة بالتأرجح بسرعة متزايدة مع هبوب الريح، وسرعان ما أصبحوا في عرض البحر يواجهون أمواجه ورياحه مباشرة. انتفخت أشعة الصواري العليا وحاولت بشجاعة تحمل وزن السفينة، وتعرضت جميع الحبال للضغط الهائل. ارتفع الموج التالي عاليًا فوقهم وهم يمهدون طريقهم بموازة الصخور، عندما رأى بلاكتورن الموج صرخ محذرًا الرجال الذين كانوا قادمين من مقدمة السفينة، وتمسك بعجلة القيادة بكل قوته.

ضرب البحر السفينة فأرقدما على جنبها حتى ظن بلاكتورن أنهم قد يغرقون، ولكنها نفضت نفسها ككلب صيد مبتلّ وتأرجحت خارج المنخفض. تدفق الماء بعيدًا عبر مجاري تصريف المياه، وشهق بلاكتورن بحثًا عن الهواء. رأى أن جثة رئيس البحارة التي وُضعت على السطح للدفن غداً قد اختفت وأن الموج التالي قادم بقوة أكبر. أمسك الموج بهندريك ورفعته وهو يلهث ويتخبط فوق حافة السفينة وإلى البحر. وهدر موج آخر عاصف عبر السطح، فتعلق بلاكتورن بذراع واحدة حول عجلة القيادة وممر الماء من جانبه. الآن كان هندريك على بعد خمسة وأربعين مترًا يسارًا. جرّه التيار الخلفي إلى جانب السفينة مرة أخرى، ثم ألقاه موج عاتٍ هائل عاليًا فوق السفينة، وأمسكه هناك للحظة وهو يصرخ، ثم جرفه بعيدًا وحطمه على صخرة حادة ثم ابتلعتة الأمواج.

تقدمت السفينة في البحر محاولةً شق طريقها. انقطع حبل صارية آخر، وتأرجحت البكرة وحبال الشراع بعنف حتى تشابكت مع الحبال الأخرى.

جرّ فينك ورجل آخر نفسيهما إلى مؤخرة السفينة واتكأ على عجلة القيادة للمساعدة، تمكن بلاكتورن من رؤية الشعاب المرجانية الزاحفة في الجانب الأيمن بقرّب الآن. كان يوجد مزيد من النتوءات الصخرية أمام السفينة وإلى جانبها الأيسر، ولكنه رأى فجوات هنا وهناك.

- اصعد إلى أعلى يا فينك. إلى أشعة المقدمة.

صعد فينك وبحاران خطوة بخطوة إلى أشرعة صارية المقدمة بينما انحنى آخرون في الأسفل على الحبال لمساعدتهم.
صاح بلاكتورن: «احترسوا من الأمواج أمامكم».

اجتاح البحر سطح السفينة وأخذ رجلًا آخر معه وأعاد جثة رئيس البحارة على متن السفينة مرة أخرى. ارتفعت مقدمة السفينة خارج الماء ثم انغرزت مجددًا وهي تجلب مزيدًا من الماء على متن السفينة. لعن فينك والرجال الآخرون وهم يصارعون لإخراج الشراع من حباله، فجأة انفتح الشراع، وصدر عنه صوت كالمدافع بينما ملأه الريح، وتمايلت السفينة.

علق فينك ومساعدوه هناك، يتأرجحون فوق البحر، ثم بدؤوا يهبطون.
صرخ فينك: «شعاب مرجانية... أمانا».

أكمل بلاكتورن والرجل الآخر لف عجلة القيادة نحو اليمين. ترددت السفينة للحظة ثم انعطفت وأصدرت صريرًا كالأنين حين لامست الصخور التي كانت بالكاد تظهر فوق الماء جانب السفينة. ولكن كانت الضربة مائلة فتفتتت مقدمة الصخرة. صمدت عوارض السفينة وبدأ الرجال على متن السفينة يتنفسون الصعداء مرة أخرى.

رأى بلاكتورن منفذًا في الشعاب أمامه وألجأ السفينة إليه. الآن كانت الرياح أقوى والبحر أكثر اضطرابًا. انحرفت السفينة مع هبة من الريح وخرجت عجلة القيادة عن سيطرتهم. أمسكوها معًا وأعادوا ضبط مسارها، لكنها تمايلت ودارت بثمانية. غمر البحر سطح السفينة واقتحم مقدمة السفينة، محطمًا رجلًا على الحاجز، فأصبح سطح السفينة بأكمله مغمورًا بالمياه مثل الذي يعلوه.

صرخ بلاكتورن بينما رأى رجلان يذهبان إلى الأسفل: «شغلوا مضخات المياه».

كانت الأمطار تجلد وجهه. وحاول مقاومة الألم ليرى بوضوح. انطفأ ضوء صندوق البوصلة ومصباح المؤخرة منذ وقتٍ طويل. ثم مع هبة أخرى قوية دفعت السفينة بعيدًا عن مسارها المحدد، انزلق البحار وفلتت دفة القيادة مجددًا من قبضتهم. صرخ الرجل عندما ضربته دفة القيادة على جانب رأسه فسقط فاقدًا للوعي تحت رحمة البحر. رفعه بلاكتورن وأمسكه حتى

اجتازتهم الموجة الهائجة. ثم رأى أن الرجل قد مات فأجلسه بلاكثورن في كرسي القيادة، فجرفت الموجة التالية جثته من سطح المؤخرة.

كان الممر عبر الشعاب يبعد ثلاثة أقطاب باتجاه الريح، وبغض النظر عن محاولاته المتكررة لم يستطع بلاكثورن إحراز تقدم. بحث بيأس عن ممر آخر لكنه كان يعلم أنه لا يوجد، لذلك خفف شد الشراع من الريح للحظة لكسب السرعة، ثم أدار دفة السفينة بقوة باتجاه الريح مرة أخرى. اكتسبت السفينة القليل من السرعة وتمكنت من الحفاظ على مسارها.

ارتفع صوت صرير مخيف عندما خدش هيكل السفينة بقوة بنتوءات الصخور الحادة للأسفل. وتخيل الجميع على متن السفينة أنهم رأوا خشب البلوط يتفكك وتفيض السفينة بمياه البحر. تمايلت السفينة إلى الأمام خارج السيطرة الآن.

صاح بلاكثورن طلبًا للمساعدة ولكن لم يسمعه أحد لذلك أكمل صراعه مع دفة القيادة وحده أمام البحر. أطيح جانبًا فجأة لكنه تحسس طريقه وعاد للتشبث بها مجددًا، متسائلًا في ذهنه الذي يزداد ضبابية حول كيفية صمود دفة القيادة لكل هذا الوقت.

عند عنق الممر أصبح البحر دوامة هائجة تدفعها العاصفة وتحاصرها الصخور. ضربت أمواج عاتية الشعاب، ثم تراجعت لتتلاطم مع الموجة القادمة حتى تصارعت الأمواج فيما بينها وهاجمت من كل صوب. انجذبت السفينة إلى الدوامة بعشوائية وعجز.

صاح بلاكثورن غاضبًا: «عليك اللعنة يا عاصفة! أبعدي أياديك القذرة عن سفينتي!».

دارت دفة القيادة مجددًا وأطاحت به بعيدًا ومالت السفينة على جانبها بطريقة تسبب الغثيان. اصطدم الدقل المائل بالصخرة فانفصل بعيدًا مع جزء من حبال الأشرعة. ثم أعادت السفينة نفسها إلى وضعها المستقيم. كان صاري المقدمة ينحني كالقوس حتى انكسر. هجم رجال السفينة على الحبال بالفؤوس ليقطعوها ويبعدوها بينما كانت السفينة تترنح أسفل القناة الهائجة. تمكنوا من قطع الصاري وتحريره فسقط في البحر وذهب رجل واحد معه حيث تشابك في الفوضى. صاح الرجل وهو محاصر ولكن لم يوجد شيء يمكنهم فعله وشاهدوا الرجل والصاري يظهران ويختفيان جنبًا إلى جنب حتى لم يظهرًا مرة أخرى.

نظر فينك والآخرين الباقيون إلى مؤخرة السفينة ورأوا بلاكتورن يتحدى العاصفة كالمجنون. رسموا إشارة الصليب على أنفسهم وضاعفوا صلواتهم، وبعضهم يبكي من الخوف ويتمسكون بالحياة بكل ما أوتوا من قوة.

اتسع المضيق للحظة وتباطأت السفينة، لكن ضاق مجددًا بشكل يندر بالسوء وبدأت الصخور كأنها تزداد لتفوقهم ارتفاعًا. ارتد التيار من أحد الجوانب أخذًا السفينة معه، فأدارها على جانبها مجددًا وألقاها لتلقى حتفها. توقف بلاكتورن عن لعن العاصفة وحارب لإدارة الدفة إلى اليسار وتعلق بها، وعضلاته مشدودة من قوة ضغطه. لكن كلا السفينة والبحر لم يستجيبا لدفة القيادة.

شهق وقوته تتلاشى سريعًا: «انعطفي يا لعينة. ساعدوني».

ازداد هيجان البحر وشعر بأن قلبه يكاد ينفجر ولكنه ظل يجاهد نفسه لمجابهة البحر. حاول إبقاء عينيه ثابتتين ولكن بصره اختل، حيث كانت الألوان مشوشة وتتلاشى. كانت السفينة عالقة تمامًا في عنق المضيق، ولكن في تلك اللحظة خدش طمي المياه الضحلة أسفل السفينة. أدى الاصطدام إلى دوران رأس السفينة. وغرزت الدفة في البحر. ثم اجتمع الريح والبحر للمساعدة فقلبًاها معًا باتجاه الريح وأسرعت عبر المضيق إلى بر الأمان. إلى الخليج خلفها.

الكتاب الأول



الفصل الأول

استيقظ بلاكتورن فجأة من نومه. خالجه الشك لحظة بأنه يحلم، إذ وجد نفسه على اليابسة في غرفة بدت غريبة. كانت الغرفة ضيقة لكنها نظيفة ومغطاة ببساطٍ ناعم الملمس. كان ممدداً على لحاف سميك وآخر ملقى فوقه. كان السقف مصنوعاً من خشب شجرة الأرز المصقول، والجدران مكسوة بقضبانٍ مربعة منه، مغطاة بورق معتم يُخفف الضوء قليلاً. كانت توجد بجواره صينية قرمزية اللون تحمل أوعية صغيرة. احتوى أحدها على خضراوات مطبوخة باردة التهمها بنهم دون أن يُعير طعمها اللانزع اهتماماً يُذكر. بينما احتوى الآخر على حساء السمك وتجرجعه كله. وآخر كان مليئاً بعصيدة دسمة من القمح أو الشعير، التي أكلها سريعاً بيديه. كان الماء الموضوع في القرعة غريبة الشكل دافئاً وله طعم غريب، مرير قليلاً ولكنه لذيد.

حينئذٍ وقع بصره على صليب معلق.

فكر شاعرًا بالذعر: هذا منزل إسباني أو برتغالي على الأرجح. هل أنا في اليابان؟ أم في كاثاي؟

فجأة انزلق لوح خشبي من الحائط وانفتح جانباً. كانت امرأة في منتصف العمر ممتلئة الجسد وذات وجه مستدير جاثية على ركبتها بجوار الباب، انحنت له وابتسمت. جلدها يميل إلى اللون الذهبي، وعيناها سوداوان وضيقتان، وشعرها الأسود الطويل مربوطٌ بإحكام على رأسها. ترتدي ثوباً رمادياً من الحرير وجوارب بيضاء قصيرة ذات نعل سميك وحزاماً عريضاً أرجوانياً حول خصرها.

قالت: «Goshujinsama, gokibun wa ikaga desu ka?».

انتظرتُ بينما كان يحدق إليها بتعابير وجهٍ فارغ، ثم كررت كلامها.

سأل: «هل هذه اليابان؟ اليابان؟ أم كاثاي؟».

حدقت إليه باستغراب وقالت شيئاً آخر لم يفهمه. ثم أدرك أنه عارٍ تمامًا. لم تكن ملابسه في أي مكان بالغرفة. أشار إليها بلغة الإشارة أنه يريد ارتداء ملابسه. ثم أشار إلى أوعية الطعام فأدركت أنه لا يزال جائعًا. ابتسمت وانحنى ثم أغلقت الباب.

استلقى على ظهره منهكًا، والشعور الغريب والمثير للغثيان بثبات الأرض جعل رأسه يدور. حاول أن يجمع شتات نفسه بجهد. ثم فكر: أتذكر أنني أخرجت المرساة مع فينك. أعتقد أنه كان فينك. كنا في خليج واصطدمت السفينة بمياه ضحلة وتوقفت. كنا نسمع أمواج البحر تتلاطم على الشاطئ ولكن كل شيء كان آمنًا. كانت توجد أنوار على الشاطئ ثم وجدت نفسي في مقصورتى ثم عمّ الظلام. لا أتذكر أي شيء آخر. ثم رأيت أنوارًا تخرق الظلام وسمعت أصواتًا غريبة. كنت أتحدث الإنجليزية، ثم البرتغالية. كان أحد السكان الأصليين يتحدث القليل من البرتغالية. أم هل كان برتغاليًا؟ لا، أعتقد أنه كان من السكان الأصليين. هل سألته أين نحن؟ لا أتذكر. ثم عدنا إلى الشعاب مرة أخرى وعادت الموجة الكبيرة مجددًا وحملت بعيدًا إلى البحر وغرقت -كانت المياه شديدة البرودة- لا، كان البحر دافئًا ويشبه سريرًا حريريًا سميكًا. لا بد أنهم حملوني إلى الشاطئ ووضعوني هنا.

قال بصوت عالٍ: «لا بد أنه هذا السرير الذي شعرت أنه ناعم ودافئ للغاية. لم أنم على الحرير من قبل».

استسلم للإرهاق الذي يثقله ونام بلا أحلام.

عندما استيقظ وجد مزيدًا من الطعام في أوعية فخارية وكانت ملابسه مطوية بعناية بجانبه. لقد غُسلت وكُويت ورُممت بخياطة دقيقة رائعة الصنع. ولكن خنجره كان مفقودًا وكذلك مفاتيحه.

فكر: يجب أن أحصل على خنجر بسرعة، أو مسدس.

تحول بصره صوب الصليب. ورغم الخوف الذي يعتريه، فإن حماسه قد اشتد. فطوال حياته كان قد سمع بحكايات يتداولها الربابنة والبحارة عن الثروات الخرافية للإمبراطورية السرية للبرتغال في الشرق، وكيف أنهم الآن قد جعلوا الوثنيين يعتنقون الكاثوليكية وبالتالي أخضعوهم تحت سيطرتهم، حيث كان الذهب بخس الثمن، والزمرد والياقوت والألماس وفيرة مثل الحصى على الشاطئ.

قال لنفسه: إذا كان الجزء الخاص بالكاثوليكية صحيحًا، ربما يكون الباقي صحيحًا أيضًا. عن الثروات. نعم. لكن كلما تسلحتُ بسرعة وعدت إلى سفينتي إيراسموس ووقفتُ خلف مدفعها، كان ذلك أفضل.

التهم الطعام وارتدى ملابسه ثم وقف وقدماه ترتجفان، يشعر بالغربة في المكان كما كان يشعر دائمًا على اليابسة. كان حذاؤه مفقودًا. اتجه نحو الباب وهو يترنح قليلًا، ومدَّ يده ليثبت نفسه، لكن الأعواد الخشبية المربعة لم تتحمل وزنه فتحطمت وتمزق الورق. استقام على قدميه. كانت المرأة المذهولة في الممر تحديق إليه.

- أنا آسف.

قال وهو يشعر بعدم الارتياح بسبب إخفاقه. لقد دُنس نقاء الغرفة بطريقة ما.

- أين حذائي؟

حدقت إليه المرأة باستغراب. لذا سألها مرة أخرى بصبر باستخدام لغة الإشارة، فسارعت إلى الممر، ثم جثت وفتحت بابًا آخر من الألواح وأشارت إليه بالدخول. كانت الأصوات قريبة، وكذلك صوت المياه الجارية. دخل من الباب ليجد نفسه في غرفة أخرى، هي الأخرى تكاد تكون خالية. كانت تؤدي إلى شرفة خارجية بها درجات تؤدي إلى حديقة صغيرة محاطة بجدار عالٍ. بجانب هذا المدخل الرئيسي، كانت هناك امرأتان عجوزتان وثلاثة أطفال يرتدون أردية قرمزية، ورجل عجوز من الواضح أنه بستاني، يحمل بيده مجرفة. انحنى الجميع في الحال بجدية وأبقوا رؤوسهم منخفضة.

ولدهشته رأى بلاكثورن أن الرجل العجوز كان عاريًا تمامًا عدا عن لباس داخلي قصير ضيق بالكاد يغطي جسده السفلي.

خاطبهم بلاكثورن، إذ لم يكن يدري ماذا يقول: «صباح الخير».

بقوا بلا حراك واستمروا في الانحناء.

حار بلاكثورن في أمرهم، وحقق إليهم للحظات، ثم انحنى لهم بإحراج. حينها انتصب الجميع وابتسموا نحوه. انحنى الرجل العجوز مرة أخرى وعاد إلى العمل في الحديقة. حلق إليه الأطفال ثم انطلقوا يركضون بعيدًا وهم يضحكون. اختفت المرأتان العجوزتان في أعماق المنزل. لكنه كان يشعر بأعينهم عليه.

رأى حذاءه موضوعاً أسفل الدرجات. ولكن قبل أن يتمكن من التقاطه،
جثت المرأة على ركبتها -الأمر الذي أخرجها- وساعدته على انتعاله.
قال: «شكراً لك».

فكر للحظة ثم أشار إلى نفسه قائلاً اسمه بوضوح: «بلاكثورن، بلاكثورن».
ثم أشار إليها: «ما اسمك؟».
حدقت إليه وهي لا تفهم مقصده.

ردد بلاكثورن بوضوح مشيراً إلى نفسه: «بلاك ثورن». ثم أشار إليها
مجدداً: «ما اسمك؟».

عبست، ثم أشارت إلى نفسها بإدراك وهي تقول: «أونا! أونا!».
ردد بفخر شديد بنفسه كما كانت هي بنفسها: «أونا، أونا».
أومات برأسها بسعادة: «أونا».

لم تكن الحديقة تشبه شيئاً رآه من قبل، شلال صغير وجدول وجسر
صغير وممرات من الحصى مشذبة وصخور وزهور وشجيرات. فكر: إنها
نظيفة وأنيقة جداً.
قال: «مذهلة».

رددت بينما تحاول المساعدة: «ملهلة؟».

قال: «لا شيء».

ثم أشار إليها لتغادر بجهل عما سيفعله غير ذلك. انحنى باحترام وأدب
وغادرت.

جلس بلاكثورن تحت أشعة الشمس الدافئة متكئاً على أحد الأعمدة. شعر
بالضعف الشديد، وشاهد الرجل العجوز يتخلص من الأعشاب في حديقة
خالية من الأعشاب بالفعل. أتساءل أين الآخرون. هل لا يزال قائد الأسطول
على قيد الحياة؟ كم يوماً كنت نائماً؟ أستطيع تذكر الاستيقاظ والأكل والنوم
مجدداً، وكان الأكل غير مرضٍ مثل الأحلام.

مر الأطفال بسرعة يلاحقون بعضهم بعضاً وقد أحسَّ بخجل تجاههم
بسبب عري البستاني فحينما ينحني الرجل أو يتوقف يمكن رؤية كل شيء
وكان مدهوشاً لأن الأطفال لا يبدو أنهم يلاحظون. رأى أسقفاً من القرميد
والقش لمبانٍ أخرى فوق الجدار وجبال عالية بعيدة. شعر بنسيم عليل

يكتسح السماء ويحافظ على السحب المتراكمة وهي تتقدم. كان النحل يبحث عن الطعام وكان يومًا ربيعياً جميلاً. توسل جسده لمزيد من النوم لكنه أجبر نفسه على النهوض وذهب إلى باب الحديقة. ابتسم البستاني وانحنى وانطلق لفتح الباب وانحنى ثم أغلقه خلفه.

تقع القرية حول الميناء الهلالي الذي يواجه الشرق. يوجد نحو مائتي منزل لم يسبق له رؤية مثيل لها تتناثر عند بداية الجبل الذي ينسكب باتجاه الشاطئ. توجد في الأعلى حقول مدرجة وطرق ترابية تؤدي إلى الشمال والجنوب. وتوجد في الأسفل واجهة بحرية مرصوفة بالحجارة ومنحدر حجري يصل من الشاطئ إلى البحر. يوجد أيضًا ميناء آمن جيد ورصيف حجري ورجال ونساء ينظفون الأسماك ويصنعون الشباك، وكان يُصنع قارب ذو تصميم فريد على الجانب الشمالي. كانت توجد جزر بعيدة في عرض البحر إلى الشرق وإلى الجنوب. لا بد أن الشعاب موجودة هناك أو خلف الأفق.

كان يرسو عديدٌ من القوارب ذات الأشكال الجذابة في الميناء، معظمها قوارب صيد، بعضها بشرع واحد كبير، والبعض الآخر يُجذّف، المجذفون واقفون يدفعون ضد البحر، ليسوا جالسين يشدون كما كان سيفعل هو. كانت تتجه بضعة قوارب نحو البحر، وأخرى تقترب من رصيف الميناء الخشبي، أما سفينة إيراسموس فقد كانت ترسو بعناية على بعد خمسة وأربعين مترًا من الشاطئ، في مياه جيدة، ومتصل بها ثلاثة حبال في المقدمة. سأل نفسه: مَنْ فعل ذلك؟ كانت توجد قوارب إلى جانب سفينته، ورأى رجالًا من السكان الأصليين على متنها. لكن ليس أحدًا من رجاله. أين يمكن أن يكونوا؟

نظر حول القرية وأدرك أن العديد من الناس يراقبونه. انحنوا جميعًا عندما رأوا أنه قد لاحظهم، بادلهم الانحناء رغم شعوره بعدم الارتياح. عاد النشاط السعيد مجددًا وكانوا يمرون ذهابًا وإيابًا، يتوقفون ويتجادلون وينحنى بعضهم لبعض وكأنهم غير منتبهين له، كانوا أشبه ما يكونون بفراشات متعددة الألوان. لكنه شعر بأن الأعين تراقبه من كل نافذة وباب وهو يتجه نحو الشاطئ.

سأل نفسه: ما الغريب فيهم حقًا؟ ليس مظهرهم وتصرفاتهم فحسب. أدرك بدهشة: بل أنهم لا يملكون أسلحة! لا سيوف ولا بنادق! لماذا إذن؟

اصطفت على جانبي الشارع الضيق متاجر مفتوحة تعرض بضائع غريبة وبالات من القماش. أراضي المتاجر مرتفعة والباعة والزبائن يجثون أو

يجلسون القرفصاء على أرضيات خشبية نظيفة. لاحظ أن معظمهم ينتعلون أخفافاً أو نعالاً مصنوعة من البوص، وبعضهم يلبسون نفس الجوارب البيضاء ذات النعل السميك الذي ينقسم بين إبهام القدم والإصبع المجاورة لتثبيت حلقات النعال، لكنهم كانوا يخلعون الخفاف والنعال ويتركونها في الخارج على التراب. أما حفاة الأقدام فقد كانوا يغسلون أقدامهم وينتعلون نعالاً داخلياً نظيفاً كان ينتظرهم. قال لنفسه مذهولاً: إنه أمر منطقي تماماً إذا فكرت فيه ملياً.

ثم رأى الرجل الأصلع يقترب فانتابه خوف شديد تسلل من عقله إلى معدته. كان الكاهن بلا شك برتغالياً أو إسبانياً، ورغم أن رداءه الفضفاض برتقالي اللون، لا يوجد مجال للشك في المسبحة والصليب على حزامه، أو شعور العداء الجلي على وجهه. كان رداؤه متسخاً بآثار السفر، وحذاؤه على الطراز الأوروبي ملطخاً بالوحل. ينظر إلى سفينة إيراسموس في المرفأ، وأدرك بلاكتورن أنه سيميزها بلا شك بأنها سفينة هولندية أو إنجليزية، حديثة العهد بمعظم البحار، أصغر وأسرع سفينة تجارية مقاتلة مصممة ومحسنة على غرار السفن الإنجليزية الخاصة التي أحدثت دماراً كبيراً في البر الرئيسي الإسباني. كان مع الكاهن عشرة من السكان الأصليين، ذوو الشعر الأسود والأعين السوداء، أحدهم يرتدي مثله باستثناء أنه ينتعل نعالاً بإصبع. أما الآخرون فكانوا يرتدون أردية ملونة أو سراويل فضفاضة، أو مجرد لباس داخلي. لكن لم يكن أيُّ منهم مسلحاً.

رغب بلاكتورن في الفرار ما دام يوجد متسع من الوقت، لكنه أدرك أنه لا يملك القوة الكافية ولا يوجد مكان للاختباء. كان طوله وبنيته ولون عينيه تجعله غريباً تماماً في هذا العالم. ألصق ظهره بالحائط.

سأل الكاهن بالبرتغالية: «من أنت؟».

كان رجلاً ممتلئاً قوي البنية داكن البشرة في منتصف العشرينات من عمره، وله لحية طويلة.

بادله بلاكتورن التحديق: «من أنت؟».

- تلك سفينة هولندية خاصة. أنت هولندي هرطوقي. أنتم قراصنة. ليرحمكم الرب!

- لسنا قراصنة. نحن تجار مسالمون، إلا مع أعدائنا. أنا ربان تلك السفينة. من أنت؟

- الأب سيباستياو. كيف وصلت إلى هنا؟ كيف؟

- لقد جرفنا التيار إلى الشاطئ. ما هذا المكان؟ هل هو اليابان؟

قال الكاهن بلا صبر: «نعم إنها اليابان، نيبون».

ثم التفت إلى أحد الرجال الذي كان أكبر سنًا من الباقيين، قصيرًا ونحيلًا ذا عضلات قوية وأيدي مُتخشنة، قمة رأسه حلقة وشعره ممشط إلى الخلف في ضفيرة رفيعة لونها رمادي كحاجبيه. تحدث إليه الكاهن باليابانية بتلعثم وأشار إلى بلاكتورن. صُدِمَ الجميع، ورسم أحدهم إشارة الصليب الواقية.

- إن الهولنديين هراطقة ومتمردون وقراصنة. ما اسمك؟

- هل هذه مستوطنة برتغالية؟

كانت عينا الكاهن قاسيتين ومحتقنتين بالدماء، قال: «يقول رئيس القرية إنه أبلغ السلطات عنك. لقد لحقت بك خطايك. أين باقي طاقمك؟».

- لقد جُرفنا عن مسارنا. نحن نحتاج فقط إلى الطعام والماء والوقت لإصلاح سفينتنا. ثم سنغادر. يمكننا دفع ثمن كل شيء...»

- أين باقي أفراد طاقمك؟

- لا أعلم. على متن السفينة. أفترض أنهم على متن السفينة.

استجوب الكاهن رئيس القرية مجددًا، فأجابه وأشار إلى الطرف الآخر من القرية، شارحًا الأمر بالتفصيل. التفت الكاهن إلى بلاكتورن وقال: «إنهم يصلبون المجرمين هنا يا ربان. أنت ستلقى حتفك. إن الدايميو قادم مع الساموراي التابعين له. فليرحمك الرب».

- ما هو الدايميو؟

- زعيم إقطاعي. يملك هذه المقاطعة بأكملها. كيف وصلت إلى هنا؟

- وماذا عن الساموراي؟

قال الكاهن بانزعاج متزايد: «محاربون -جنود- أعضاء في طبقة المحاربين. من أين أتيت ومن أنت؟».

قال بلاكتورن لإرباكه: «لا أعرف لهجتك، هل أنت إسباني؟».

ثار الكاهن، آخذًا الطعم: «أنا برتغالي، أخبرتك أنني الأب سيباستياو من البرتغال. أين تعلمت اللغة البرتغالية بهذه الدقة؟».

قال بلاكتورن مستهزئًا: «لكن البرتغال وإسبانيا هما نفس البلد الآن، لديكما نفس الملك».

- نحن بلد مستقل وشعب مختلف. لطالما كنا كذلك. نرفع علمنا الخاص. ممتلكاتنا الخارجية منفصلة. نعم، منفصلة تمامًا. وافق الملك فيليب على ذلك عندما سرق بلدي.

سيطر الأب سيباستياو على غضبه بصعوبة بالغة، وكانت أصابعه ترتجف بينما تابع: «لقد استولى على بلدي بالقوة العسكرية قبل عشرين عامًا، جنوده وذلك الطاغية الإسباني اللعين، دوق ألبا، سحقوا ملكنا الحقيقي. هراء! والآن يحكم ابن فيليب، لكنه ليس ملكنا الحقيقي أيضًا. قريبًا سيكون لدينا ملكنا المستقل مجددًا». ثم أضاف بلهجة مسمومة: «أنت تعلم أن هذه هي الحقيقة. ما فعله الشيطان ألبا ببلدك فعله ببلدي أيضًا».

- هذا كذب. كان ألبا وباءً على هولندا لكنه لم يقهرهم قط. ما زالوا أحرارًا. سيظلون كذلك دائمًا. أما في البرتغال، فقد حطم جيشًا صغيرًا واحدًا واستسلمت البلاد بأكملها. بلا شجاعة. بإمكانكم طرد الإسبانيين إذا أردتم، لكنكم لن تفعلوا ذلك أبدًا. لا شرف لديكم ولا شجاعة. لا شيء سوى حرق الأبرياء باسم الرب.

زمجر الكاهن: «لعنك الرب في نار الجحيم إلى الأبد، الشيطان يمشي بيننا وسيُقضى عليه. سيُقضى على الهراطقة. أنت ملعون أمام الرب».

شعر بلاكتورن بالرعب الديني يغزو أعماقه رغمًا عنه. قال: «ليس للكهنة سلطة على الرب، ولا ينطقون بلسانه. لقد تحررنا من قيودكم الخائفة، وسنظل كذلك».

لم يمض سوى أربعين عامًا على تولي الملكة اللعينة ماري تيودور عرش إنجلترا، وزوجها فيليب الثاني ملك إسبانيا، فيليب الظالم. أعادت ابنة هنري الثامن المتعصبة دينيًا القساوسة الكاثوليكيين ومحاكم التفتيش ومحاكمات الهرطقة وسلطة البابا الأجنبي إلى إنجلترا من جديد، نقضًا لإصلاحات والدها التاريخية التي قيدت نفوذ كنيسة روما في إنجلترا، وذلك ضد إرادة الغالبية.

حكمت لمدة خمس سنوات، وانشطرت المملكة بفعل الكراهية والخوف والدماء. لكنها ماتت وتوجت إليزابيث ملكة في الرابعة والعشرين من عمرها. امتلاً بلاكثورن بالدهشة والإعجاب العميق عندما فكر في إليزابيث. فقد خاضت معارك ضارية مع العالم لمدة أربعين عامًا. تفوقت على الباباوات والإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا وإسبانيا معًا. وتعرضت للحرمان الكنسي والبصق عليها والسب في الخارج، لكنها قادتنا إلى بر الأمان، وأصبحنا آمنين وأقوياء ومستقلين.

قال بلاكثورن للكهان: «نحن أحرار، وأنتم هالكون. لدينا الآن مدارسنا الخاصة، وكتبنا الخاصة، وإنجيلنا الخاص، وكنيستنا الخاصة. أنتم الإسبان جميعكم سواء. حثالة! وأنتم الرهبان سواء. عبدة أوثن».

رفع الكاهن صليبه ووضع درعًا بينه وبين بلاكثورن وقال: «يا إلهي، احمنا من هذا الشر! أنا لست إسبانيًا، أقول لك إنني برتغالي. ولست راهبًا. أنا أخ من جمعية اليسوعيين».

- آه، واحد منهم. يسوعي.

- نعم. فليرحم الرب روحك!

صاح الأب سيباستياو شيئًا باليابانية، واندفع الرجال نحو بلاكثورن. ارتد إلى الوراء مستندًا إلى الحائط ووجهه ضربة قوية لأحد الرجال، لكن الآخرين هاجموه وشعر بالاختناق.

- Nanigoto da؟

فجأة، توقف الشجار.

وقف شاب على بعد سبعة أمتار. كان يرتدي سروالًا يصل إلى أسفل الركبة ونعالًا وكيمونو خفيفًا وسيفين موضوعين في غمدهما مثبتين في حزامه. أحدهما يشبه الخنجر. والآخر سيف قتال ذو حدين، طويل ومنحني قليلًا. كانت يده اليمنى موضوعة بإهمال على مقبضه.

- Nanigoto da؟

سأل بحدة وعندما لم يجبه أحدٌ على الفور صاح مجددًا: «Nanigoto da؟».

جثا اليابانيون على رُكبهم، ورؤوسهم منكسة في التراب. وحده الكاهن بقي واقفاً. انحنى وبدأ يشرح بتلعثم، لكن الشاب قاطعه باحتقار وأشار إلى رئيس القرية قائلاً: «مورا».

حافظ مورا رئيس القرية على انحناء رأسه وشرع في الشرح بسرعة. أشار عدة مرات إلى بلاكتورن، ومرة إلى السفينة، ومرتين إلى الكاهن. الآن لا يوجد أي حركة في الشارع. كل من كان موجوداً كان جائئاً على ركبتيه ومنحنياً للأسفل. انتهى رئيس القرية. استجوبه الرجل المسلح بغطرسة للحظة فأجابه باحترام وبسرعة. ثم قال الجندي شيئاً لرئيس القرية وأشار بازدياء واضح إلى الكاهن، ثم إلى بلاكتورن، وفَسَّر الرجل ذو الشعر الرمادي الأمر للكاهن ببساطة أكبر فاحمراً وجهه.

الرجل الذي كان أقصر وأصغر بكثير من بلاكتورن، وجهه الوسيم به بعض الحبوب، حدق إلى الكاهن وقال:

«Onushi ittai doko kara kitanoda Doko no kuni no monoda?».

قال الكاهن متوترًا: «يقول كاسيجي أومي سان: من أين أتيت وما جنسيتك؟».

سأل بلاكتورن، خائفًا من السيوف رغمًا عنه: «هل السيد أومي سان هو الدايميو؟».

- لا. إنه ساموراي، الساموراي المسؤول عن القرية. لقبه كاسيجي، وأومي هو اسمه. هنا يضعون ألقابهم دائمًا في المقدمة. «سان» تعني «سيد نبيل»، وتضيفها إلى جميع الأسماء كاحترام. من الأفضل أن تتعلم الأدب بسرعة وتتصرف باحترام. هنا لا يتسامحون مع قلة الأدب. ثم ارتفع صوته قليلًا وقال: «أجب بسرعة».

- أمستردام. أنا إنجليزي.
صدمة الأب سيباستياو كانت واضحة. قال للساموراي: «إنجليزي. إنجلترا».

وبدأ في الشرح لكن أومي قاطعه بغير صبر وقال مجموعة من الكلمات بسرعة.

- يسأل أومي سان عما إذا كنت القائد. قال رئيس القرية بأنه يوجد عدد قليل فقط منكم أنتم الهراطقة على قيد الحياة وأغلبكم مرضى. هل يوجد قائد أسطول؟

أجاب بلاكتورن رغم أن قائد الأسطول سيكون هو المسؤول الحقيقي فور رسوهم على الشاطئ: «أنا القائد. أنا المسؤول».

وهو يعلم أن قائد الأسطول سبيلبرجين ليس مسؤولاً عن شيء، سواء على البر أو البحر، حتى عندما يكون سليماً ومعافى.

قال الساموراي مجموعة كلمات سريعة: «يقول أومي سان: لأنك القائد سيُسمح لك بالتنقل بحرية في القرية أينما تشاء، حتى يصل سيده. سيده هو الدايميو، سيقدر مصيرك. ويُسمح لك إلى ذلك الحين بالعيش كضيف في منزل رئيس القرية والذهاب والمجيء كما يحلو لك. لكن لا يُسمح لك بمغادرة القرية. سيظل طاقمك في منزلهم ولا يُسمح لهم بمغادرته. هل تفهم؟».

- نعم. أين طاقمي؟

أشار الأب سيباستياو بغموض إلى مجموعة من المنازل بالقرب من الميناء، منزعاً بوضوح من قرار أومي وسرعته: «هناك! استمتع بحريتك يا قرصان. لقد لحق بك شرك...».

سأل أومي بلاكتورن مباشرة: «Wakarimasu ka?».

- يقول: هل تفهم؟

- ما هي كلمة «نعم» باليابانية؟

قال الأب سيباستياو للساموراي: «Wakarimasu».

لَوَّح لهم أومي بازدرأ لليبعدوا. انحنوا جميعاً باستثناء رجل واحد نهض عمداً دون أن ينحني.

بسرعة خاطفة صنع السيف القاتل قوساً فضياً وطار رأس الرجل عن كتفيه وغمرت الدماء الأرض. ارتعش الجسد عدة مرات ثم سكن. تراجع الكاهن خطوة إلى الوراء بغير قصد. لم يتحرك أي شخص آخر في الشارع. ظلت رؤوسهم منخفضة وثابتة. وخيمت الصدمة على بلاكتورن.

وضع أومي قدمه بلا مبالاة على الجثة.

قال وهو يلوح لهم لليبعدوا: «Ikinasai».

انحنى الرجال أمامه مجدداً حتى لامسوا الأرض برؤوسهم. ثم نهضوا وغادروا بلا تأثر. بدأ الشارع يخلو من المارة، وكذلك المتاجر.

حدق الأب سيباستياو في الجثة، رسم إشارة الصليب فوقها بجدية وقال باللاتينية: «باسم الأب والابن والروح القدس» ثم أعاد التحديق نحو الساموراي دون خوف الآن.

استقر طرف السيف اللامع على الجثة: «Ikinasai».

استدار الكاهن مبتعداً بكرامة بعد لحظة طويلة. راقبه أومي باهتمام، ثم ألقى نظرة على بلاكتورن. تحرك بلاكتورن إلى الوراء، ثم عندما ابتعد بما فيه الكفاية، سرعان ما استدار حول الزاوية واختفى.

انفجر أومي في ضحك هستيري. كان الشارع خالياً الآن. وعندما أنهك من الضحك، أمسك سيفه بكلتا يديه وبدأ يقطع الجثة بمنهجية إلى أشلاء صغيرة.

كان بلاكتورن على متن قارب صغير، والملاح يجدف بسعادة باتجاه إيراسموس. لم يواجه صعوبة في الحصول على القارب، وكان يستطيع رؤية رجال على سطح السفينة الرئيسي. كانوا جميعهم ساموراي. البعض منهم يرتدون صدریات من الفولاذ ولكن معظمهم يرتدون كيمونو بسيط، الاسم الذي يطلق على الأردية، ويحملون سيفين. كانوا جميعاً يصففون شعورهم بالطريقة نفسها: الجزء العلوي من الرأس حلق والشعر الخلفي والجانبى مجمع في ضفيرة ومُدهن بالزيت، ثم يُطوى فوق الرأس ويُربط بإحكام. يُسمح فقط للساموراي بهذه التصفيفة، وهي إلزامية لهم. فقط الساموراي يستطيعون حمل السيوف - السيف القاتل الطويل ذو الحدين والسيف القصير الشبيه بالخنجر - وكان حمل السيوف إلزامياً لهم.

اصطف الساموراي على جانبي سفينته يراقبونه.

صعد على السلم إلى السطح بينما يغمره شعور بعدم الارتياح. اقترب منه ساموراي يرتدي ملابس أكثر تفصيلاً من الآخرين، وانحنى. تعلم بلاكتورن الدرس جيداً فرد التحية بانحناءة مماثلة، فابتسم الجميع على متن السفينة بؤدً. كان لا يزال يشعر بالرعب من حادثة القتل المفاجئة في الشارع، ولم تُخفف ابتساماتهم قلقه. اتجه نحو مدخل المقصورة وتوقف فجأة. علّق شريط عريض من الحرير الأحمر عبر المدخل، وبالقرب منه لافتة صغيرة

مكتوب عليها بحروف غريبة وملتوية. تردد وتفقد الباب الآخر، لكنه كان مغلقاً أيضاً بشريط مشابه، وثُبَّتْ لافتة مشابهة على الجدار.

مدّ بلاكتورن يده لإزالة الحبر.

- Hotté oké.

لتوضيح الأمر تمامًا، هز الساموراي رأسه ولم يعد يتسم.

- لكن هذه سفينتي وأريد...

كتم بلاكتورن قلقه وعيناه مصوبتان ناحية السيفين. فكر: يجب أن أنزل إلى الأسفل، يجب أن أحصل على دليلي البحري والدليل السري. يا إلهي، إذا عُثِرَ عليها ومُنِحَت للكهنة أو اليابانيين، فسينتهي أمرنا. ستديننا أي محكمة في العالم - خارج إنجلترا وهولندا - كقراصنة بوجود تلك الأدلة. يحتوي دليلي البحري على التواريخ والأماكن ومقادير الغنائم التي استولينا عليها، وعدد القتلى في رحلاتنا الثلاث في الأمريكتين والرحلة في إفريقيا الإسبانية، وعدد الكنائس التي نُهبَت، وكيف أحرقنا المدن والسفن. والدليل البحري البرتغالي! هذا حُكْمٌ إعدامنا، لأنه بالطبع مسروق. على الأقل اشتريناه من خائن برتغالي، وبموجب قانونهم، أي أجنبي يُقبض عليه وبحوزته أي دليل بحري خاص بهم، ناهيك بواحد يحدد طريق مضيق ماجلان، يُعدم في الحال. وإذا عُثِرَ على الدليل البحري على متن سفينة معادية، فيجب حرق السفينة وإعدام جميع من على متنها بلا رحمة.

سأل أحد الساموراي: «Nan no yoda».

سأل بلاكتورن بتلك اللغة: «هل تتحدث البرتغالية؟».

هز الرجل كتفيه وقال باليابانية: «لا أفهم».

تقدم آخر وتحدث باحترام مع القائد الذي أوماً بالموافقة.

قال هذا الساموراي ببرتغالية ذات لهجة قوية: «صديق برتغالي».

فتح أعلى الكيمونو الخاص به وأظهر صليباً خشبياً صغيراً معلقاً حول عنقه.

أشار إلى نفسه مبتسمًا: «أنا مسيحي». ثم أشار إلى بلاكتورن: «أنت مسيحي؟».

تردد بلاكتورن ثم أوماً: «مسيحي».

- برتغالي؟

- إنجليزي.

تحدث الرجل مع القائد، ثم هز كلاهما أكتافهما ونظرا إليه مجدداً:
«برتغالي؟».

هز بلاكتورن رأسه، غير راغب في مخالفتها بأي شيء: «أصدقائي؟
أين؟».

أشار الساموراي إلى الطرف الشرقي للقرية: «أصدقاء».

قال بلاكتورن ذلك بعدة طرق وبإشارات حتى فهموا: «هذه سفينتي. أريد
النزول إلى الأسفل».

قالوا بحزم مشيرين إلى اللافتة وابتسموا: «Ah, so desu! Kinjiru».

كان من الواضح جداً أنه لا يُسمح له بالنزول إلى الأسفل. فكر بلاكتورن
بضيق: لا بد أن كلمة «Kinjiru» تعني «ممنوع». حسناً، فليذهب كل هذا إلى
الجحيم! كسر مقبض الباب وفتحه قليلاً.

- Kinjiru.

أدير بقوة ليووجه الساموراي. كانت سيوفهم نصف مستلة من أغمادها.
انتظر الرجلان بلا حراك حتى يتخذ قراره. بينما راقبه الآخرون على سطح
السفينة ببرود.

أدرك بلاكتورن أنه لا يملك خياراً سوى التراجع، لذلك هز كتفيه وابتعد
وتفقد الحبال والسفينة بأفضل ما يستطيع. كانت الأشرعة البالية مطوية
ومربوطة في مكانها. لكن كانت طرق الربط مختلفة عن أي شيء رآه على
الإطلاق، لذلك افترض أن اليابانيين قد أمّنوا السفينة. بدأ بالنزول على السلم
وتوقف فجأة. شعر بنفسه يتصبب عرقاً وهو يرى الجميع يحدقون إليه
بغضب، وفكر: يا إلهي كيف لي أن أكون بذلك الغباء. انحنى بأدب وعلى الفور
اختفى العداء وانحنى الجميع وابتسموا مجدداً. لكنه لا يزال يشعر بالعرق
يتصبب على ظهره، وكان يكره كل شيء يخص اليابانيين وتمنى لو كان هو
وطاقمه على متن السفينة، مسلحين وفي عرض البحر.

قال فينك، وابتسامته العريضة الخالية من الأسنان تعكس دناءة واضحة: «أقسم بالرب يا ربان أظن أنك مخطئ تمامًا، إذا استطعت تحمّل الطعام السيئ الذي يقدمونه هنا، فإنني أجزم بأن هذا أفضل مكان وطأت قدمي عليه على الإطلاق. لقد قضيت ثلاث ليالٍ مع امرأتين، وهما نشيطتان للغاية. مستعدتان لفعل أي شيء إذا أريتهما الطريقة».

قال ماتسوكو ووجهه النحيل يرتعش: «هذا صحيح. ولكن لا يمكنك القيام بأي شيء دون لحوم أو براندي. على الأقل ليس لفترة طويلة. أنا منهك، ولم أستطع فعل ذلك سوى مرة واحدة، لن يفهم اللقطاء ذوو البشرة الصفراء أننا بحاجة إلى اللحوم والبيرة والخبز. والبراندي أو النبيذ أيضًا».

- هذا أسوأ شيء، يا إلهي، أنا مستعد للتنازل عن كل مملكتي مقابل بعض الخمر.

كان باكوس فان نيك مثقلًا باليأس. اقترب ووقف بالقرب من بلاكثورن وحقق إليه. كان ضعيف البصر وفقد نظارته الأخيرة في العاصفة. لكن حتى معهما دائمًا يقف بالقرب قدر الإمكان. لقد كان كبير التجار وأمين الصندوق وممثل شركة الهند الشرقية الهولندية التي مولت الرحلة. أكمل: «نحن على الشاطئ وأمنين ولكنني لم أشرب شيئًا بعد. ولا حتى قطرة جميلة، أمر فظيع. هل حصلت على أي شراب يا ربان؟».

لم يكن بلاكثورن يطيق اقتراب أي شخص منه، لكن باكوس صديقًا يكاد يكون كافيًا لذلك لم يبتعد: «لا، فقط ماء ساخن فيه أعشاب».

- هم ببساطة لن يفهموا متعة الخمر. لا نشرب شيئًا سوى الماء الساخن والأعشاب... فليساعدنا الرب. افترض أنه لا يوجد خمر في البلاد بأكملها؟ (ارتفعا حاجباه): قدّم لي معروفًا كبيرًا يا ربان، هل يمكنك طلب بعض الخمر؟

وجد بلاكثورن المنزل الذي حُصّص لهم على الطرف الشرقي للقرية. سمح له الحارس الساموراي بالمرور، لكن أكد رجاله أنهم هم أنفسهم لا يستطيعون الخروج من بوابة الحديقة. كان المنزل متعدد الغرف مثل منزله، ولكنه أكبر ويخدمه العديد من الخدم من مختلف الأعمار، رجالًا ونساءً.

يوجد أحد عشر رجلًا من رجاله على قيد الحياة. ونقل اليابانيون الموتى بعيدًا. وبدأت كميات وفيرة من الخضار الطازج تقضي على داء الإسقربوط،

وجميع الرجال تقريبًا باستثناء اثنين يتعافون بسرعة. هذان الاثنان يعانيان النزيف الداخلي واضطرابًا في أمعائهما. حاول فينك معالجتهمما بالفصد لكن هذا لم يُجدِ نفعًا. توقع موتهمما بحلول الليل. كان قائد الأسطول في غرفة أخرى ولا يزال مريضًا جدًّا.

قال سونك الطباخ ضاحكًا، وهو رجل صغير ممتلئ الجسد: «الأمور جيدة هنا كما يقول يوهان يا ربان، باستثناء الطعام وعدم وجود خمر. ولا توجد مشكلة مع السكان الأصليين ما دمت لا تنتعل حذاءك داخل المنزل. فإن ذلك يثير غضب الأوغاد الصغار ذوي البشرة الصفراء».

قال بلاكتورن: «انصتوا، يوجد كاهن هنا. يسوعي».

- يا يسوع المسيح.

توقفوا عن المزاح كليًا حين أخبرهم بلاكتورن عن وجود كاهن وعن حادثة القتل.

- لماذا قطع رأسه يا ربان؟

- لا أعلم.

- من الأفضل أن نعود إلى السفينة. إذا قبض علينا الرهبان الكاثوليك على الشاطئ...

خيم الخوف على الغرفة. راقب سلامون الأبكم بلاكتورن بعينيه، وتحرك فمه وكاد يخرج منه فقاعة بلغم.

قال بلاكتورن بلطف مجيبًا عن سؤاله الصامت: «لا يا سلامون، لم أخطئ، لقد قال إنه يسوعي».

قال فينك: «يا يسوع، سواء كان يسوعيًا أو دومينيكيًا أو أيًا كان، لا يوجد فرق. من الأفضل أن نعود إلى السفينة يا ربان، فلتسأل ذلك الساموراي، حسنًا؟».

قال يان روبير. لقد كان أحد المغامرين التجار، شابًا حادَّ البصر بجبهة عريضة وأنفٍ دقيق: «نحن في كنف الرب، سيحميننا من عبدة الشيطان».

نظر فينك إلى بلاكتورن مجددًا: «ماذا عن البرتغاليين يا ربان؟ هل رأيت أيًا منهم في الجوار؟».

- لا، لم يكن هناك أي أثرٍ لهم في القرية.

قال ميتسوكر معبرًا عن قلق الجميع: «سيهرعون إلى هنا حالما يعرفون بوجودنا».

تأوه الفتى كروك.

لعق جينسيل شفتيه الجافتين قائلاً: «نعم، وإذا كان يوجد كاهن واحد، فلا بد من وجود آخرين، وعندها لن يكون جنودهم الكونكستادور الملعونون بعيدين أبدًا».

أضاف فينك بقلق: «هذا صحيح، فهم يتكاثرون كالقمل».

تمتم أحدهم: «يا يسوع المسيح، رهبان كاثوليك وكونكستادور».

سأل فان نيك: «لكن نحن في اليابان يا ربان؟ هل أخبرك ذلك؟».

- نعم. لماذا؟

اقترب فان نيك وخفض صوته: «إذا كان يوجد كهنة هنا، وكان بعض السكان الأصليين كاثوليكين، فربما يكون الجزء الآخر صحيحًا... عن الثروات والذهب والفضة والأحجار الكريمة». ساد صمت مفاجئ عليهم: «هل رأيت أي شيء يا ربان؟ أي ذهب؟ أي مجوهرات يرتديها السكان الأصليون، أو ذهب؟». فكر بلاكتورن للحظة: «لا، لا شيء على الإطلاق. لا أذكر أنني رأيت أي شيء. لا عقود ولا خرز ولا أساور. انصتوا، يوجد شيء آخر يجب أن أخبركم إياه. لقد صعدت على متن إيراسموس لكنها كانت مغلقة بإحكام».

أخبرهم ما حدث، فزاد قلقهم.

- يا يسوع، إذا لم نستطع العودة إلى السفينة وكان يوجد على الشاطئ كهنة ورهبان كاثوليك... فيجب أن نغادر هذا المكان. (بدأ صوت ماتسوكر يرتجف): ماذا سنفعل يا ربان؟ سيحرقوننا! الكونكستادور... هؤلاء الأوغاد سيغرزون سيوفهم...

صاح يان روبر بثقة: «نحن في كنف الرب، سيحمينا من أعداء المسيح. هذا وعده. لا يوجد شيء يدعو للخوف».

قال بلاكتورن: «بالطريقة التي زمجر بها الساموراي أومي سان على الكاهن، أنا متأكد أنه يكرهه. هذا جيد، أليس كذلك؟ ما أود معرفته هو لماذا لم يكن الكاهن يرتدي ثيابه المعتادة. لماذا البرتقالي؟ لم أرَ ذلك من قبل». قال فان نيك: «بلى، هذا غريب».

رفع بلاكتورن رأسه ونظر إليه: «ربما نفوذهم هنا ليس قويًا. هذا يمكن أن يساعدنا كثيرًا».

سأل جينسيل: «ماذا نفعل يا ربان؟».

- تحلّوا بالصبر وانتظروا حتى يأتي زعيمهم، هذا الدايميو. سيسمح لنا بالمغادرة. لماذا لن يفعل؟ لم نتسبب لهم بأي أذى. لدينا بضائع للتجارة. نحن لسنا قراصنة، ليس لدينا ما نخاف منه.

قال فان نيك لتشجيع نفسه أكثر من غيره: «هذا صحيح جدًا، ولا تنس أن الربان قال إن المتوحشين ليسوا جميعًا كهنة كاثوليك. نعم. من الجيد أن الساموراي يكره الكاهن. ولا يوجد سوى الساموراي من يحملون السلاح. هذا ليس سيئًا للغاية، أليس كذلك؟ فقط احذروا من الساموراي واستعيدوا أسلحتنا... هذه هي الخطة. سنكون على متن السفينة قبل أن تدركوا ذلك».

سأل يان روبر: «ماذا سيحدث إذا كان هذا الدايميو كاثوليكيًا؟».

لم يجبه أحد. ثم قال جينسيل: «يا ربان، الرجل الذي يحمل السيف؟ لقد قطع الرجل الآخر إلى أشلاء، بعد أن بتر رأسه؟».

- نعم.

- يا إلهي! إنهم همج مجانين.

كان جينسيل شابًا طويل القامة ووسيمًا ذا ذراعين قصيرتين وساقين مقوستين جدًا. لقد أفقده داء الإسقربوط كل أسنانه. واصل كلامه: «بعد أن بتر رأسه، هل ابتعد الآخرون ببساطة؟ دون أن يقولوا شيئًا؟».

- نعم.

- يا يسوع المسيح، قتلوا رجلًا أعزل هكذا ببساطة؟ لماذا فعل ذلك؟ لماذا قتله؟

- لا أعلم يا جينسيل. لكنك لم تشهد مثل هذه السرعة من قبل. في لحظة كان السيف في غمده، وفي اللحظة التالية كان رأس الرجل يتدحرج.

- احمنا يا إلهي.

تمتم فان نيك: «يا إلهي الحبيب، إذا لم نتمكن من العودة إلى السفينة... اللعنة على تلك العاصفة، أشعر بالعجز الشديد من دون نظارتي».

سأل جينسيل: «كم عدد الساموراي الذين كانوا على متن السفينة يا ربان؟».

- اثنان وعشرون على سطح السفينة. لكن يوجد مزيدٌ على الشاطئ.
- سيحل غضب الرب على الوثنيين وعلى الخطاة وسيحرقون في الجحيم إلى الأبد.

قال بلاكثورن ونبرة صوته تحمل حدة، بينما شعر بخوف من عقاب الرب يجتاح الغرفة. لقد كان متعبًا للغاية وأراد النوم: «أود أن أتأكد من ذلك يا يان روبر».

- يمكنك التأكد يا ربان ، نعم أنا متأكد. أُولِي أن تُفتح عيناك على حقيقة الرب. أن تدرك أننا هنا فقط بسببك... ما تبقى منا.
- قال بلاكثورن بغضب: «ماذا؟».

- لماذا أقنعت قائد الأسطول بمحاولة الوصول إلى اليابان؟ لم يكن ذلك من ضمن أوامرنّا. كان من المفترض أن ننهب العالم الجديد، ونشن الحرب في صميم دار العدو، ثم نعود إلى الوطن.
- كانت توجد سفن إسبانية جنوبنا وشمالنا ولا مكان آخر للفرار. هل فقدت ذاكرتك مع دهائك؟ كان علينا الإبحار غربًا فقد كانت فرصتنا الوحيدة.

- لم أرَ سفن العدو قط يا ربان. لم يرَ أيُّ منا.
- قال فان نيك بضجر: «بربك يا يان. فعل الربان ما يراه الأفضل. بالطبع كان الإسبان هناك».

- بصق فينك وقال: «نعم هذه هي الحقيقة، وكنا على بعد ألف فرسخ من حلفائنا وفي مياه العدو، بحق الرب. هذه هي حقيقة الرب... وحقيقة الرب أننا عرضنا الأمر للتصويت. ووافقنا جميعًا».
- أنا لم أوافق.

- قال سونك: «لم يسألني أحد».
- يا يسوع المسيح.

قال فان نيك محاولًا تخفيف التوتر: «اهدأ يا يوهان، نحن أول من وصل إلى اليابان. هل تتذكر كل القصص، أليس كذلك؟ سنصبح أغنياء إذا حافظنا

على صوابنا. لدينا سلع تجارية ويوجد ذهب هنا، على الأقل يجب أن يكون. أين يمكننا بيع بضائعنا في مكان غير هنا؟ ليس هناك في العالم الجديد، بينما نكون مُطاردين ومُضايقين! كانوا يطاردوننا وكان الإسبان يعرفون أننا خارج سانتا ماريا. اضطررنا إلى مغادرة تشيلي ولم يوجد مهرب للعودة عبر المضيق، كانوا يتربصون بنا، بالطبع! لا، كانت هذه فرصتنا الوحيدة وفكرة جيدة. سنستبدل بضائعنا بالتوابل والذهب والفضة، أليس كذلك؟ فكر في الربح... مضاعف بالآلاف، هذا أمر معتاد. نحن في جزر التوابل. أنت تعرف ثراء اليابان وكاثاي، لقد سمعت عنها منذ زمن. كلنا سمعنا. لماذا إذن اشتركنا جميعاً في الرحلة للمجيء إلى هنا؟ سنصبح أغنياء، ستري».

- نحن رجال ميتون مثل كل الآخرين. نحن في أرض الشيطان.

قال فينك بحنق: «أغلق فمك يا روبر. لقد فعل الربان الصواب. ليس خطأه أن مات الآخرون، ليس خطأه. يموت الرجال دائماً في مثل هذه الرحلات». كانت عينا يان روبر مشتعلتين وبؤبؤهما صغيرين: «نعم، غفر الرب لأرواحهم. أخي كان أحدهم».

حدق بلاكتورن إلى عيني المتعصب، كان يكره يان روبر. يسأل نفسه في داخله عما إذا كان قد أبحر غرباً حقاً لتجنب سفن العدو. أم لأنه كان أول ربان إنجليزي يجتاز المضيق، الأول في الموقع، جاهزاً وقادرًا على الانطلاق غرباً وبالتالي أول من يملك فرصة الإبحار حول العالم؟

هسهس يان روبر: «ألم يمت الآخرون بسبب طموحك يا ربان؟ سيعاقبك الرب».

كانت كلمات بلاكتورن هادئة ونهائية: «اصمت الآن».

بادله يان روبر التحديق بالوجه الجامد نفسه، لكنه أطبق فمه.

جلس بلاكتورن بإرهاق على الأرض واتكأ على إحدى القوائم: «جيد».

- ماذا علينا أن نفعل يا ربان؟

- انتظر وكن مستعداً. سيأتي رئيسهم قريباً، عندها سنحسم كل شيء.

كان فينك ينظر إلى الخارج إلى الحديقة نحو الساموراي الذي جلس بلا حراك على عقبيه بجانب البوابة: «انظر إلى ذلك الوغد. يجلس هناك لساعات بلا حراك ولا يقول شيئاً، ولا حتى يعبث بأنفه».

قال فينك: «لكنه لم يسبب أي مشكلة على الإطلاق يا يوهان. لم يفعل شيئاً على الإطلاق».

- نعم، لكن كل ما فعلناه هو النوم والفاحشة وتناول الطعام السيئ.

قال جينسيل بهدوء: «يا ربان، إنه رجل واحد فقط ونحن عشرة».

أجاب بلاكثورن بقلق: «لقد فكرت في ذلك. لكننا لسنا لائقين بما فيه الكفاية بعد. سيستغرق الأمر أسبوعاً حتى يزول داء الإسقربوط، كما أنه يوجد الكثير منهم على متن السفينة. لا أريد أن أواجه حتى واحداً دون رمح أو بندقية. هل توجد حراسة ليلًا؟».

سأل فان نيك: «نعم. يغيرون الحرس ثلاث أو أربع مرات. هل رأى أي شخص حارساً نائماً؟».

هزوا رؤوسهم.

قال يان روبر: «يمكننا أن نصبح على متن السفينة الليلة، بمساعدة الرب سنتغلب على الوثنيين ونستولي على السفينة».

قال فينك باشمئزاز: «نظّف أذنيك اللعينتين. لقد أخبرك الربان للتو، ألا تستمع؟».

وافق بيترزون المدفعي: «هذا صحيح، توقف عن مضايقة فينك العجوز». تقلصت عينا يان روبر أكثر: «تأمل لروحك يا يوهان فينك. وأنت أيضاً يا هانس بيترزون. إن يوم القيامة يقترب».

ابتعد وجلس على الشرفة.

كسر فان نيك الصمت: «كل شيء سيكون على ما يرام. ستري».

قال الفتى كروك بصوت مرتجف: «إن روبر محق. الجشع هو من وضعنا هنا، إنها عقوبة الرب بأن...».

- توقف!

ارتجف الصبي: «حسنًا يا ربان. آسف، لكن... حسنًا...».

كان ماكسيميليان كروك أصغرهم، يبلغ من العمر ستة عشر عاماً فقط، وقد اشترك في الرحلة لأن والده كان قبطاناً لإحدى السفن وكانوا سيصنعون ثروتهم. لكنه رأى والده يموت ميتة شنيعة عندما نهبوا مدينة سانتا ماجدالينا الإسبانية في الأرجنتين. كانت الغنيمة جيدة وكان قد رأى ما هو الاغتصاب

وقد جربه بنفسه، يكره نفسه ويشعر بالغثيان من رائحة الدم والقتل. في وقت لاحق رأى المزيد من أصدقائه يموتون وأصبحت السفن الخمس سفينة واحدة والآن يشعر أنه أكبر الموجودين: «آسف. أنا آسف».

سأل بلاكتورن: «كم مضى على رسونا يا باكوس؟».

اقترب فان نيك مجددًا وجلس القرفصاء: «مضى ثلاثة أيام، لا أتذكر وصولنا بوضوح ولكن عندما استيقظت كان الهمج في كل مكان على متن السفينة. رغم أنهم كانوا مهذبين ولطفاء. قدموا لنا الطعام والماء الساخن. وأخذوا جثث الموتى وألقوا المراسي. لا أتذكر الكثير ولكنني أعتقد أنهم جرّونا إلى مرسى آمن. كنت تهذي عندما حملوك إلى الشاطئ. أردنا إبقاءك معنا لكنهم لم يسمحوا لنا. تحدث أحدهم ببضع كلمات من البرتغالية. بدا أنه الزعيم، وكان شعره أشيب. لم يفهم كلمة «ربان رئيسي» ولكنه عرف «قبطان». كان من الواضح جدًا أنه يريد أن يكون قبطاننا في مكان مختلف عنا، لكنه قال إننا لا يجب أن نقلق لأنك ستكون بخير. ونحن أيضًا. ثم قادنا إلى هنا، حملونا في الغالب، وقال إننا يجب أن نبقى بالداخل حتى يصل قائده. لم نكن نريد السماح لهم بأخذك لكن لم يوجد شيء يمكننا فعله. هل ستسأل الزعيم عن الخمر أو البراندي يا ربان؟». لعق فان نيك شفثيه بعطش ثم أضاف: «الآن بعدما فكرت في الأمر، لقد ذكر كلمة «دايميو» أيضًا. ماذا سيحدث عندما يصل الدايميو؟».

- هل يملك أحدكم خنجرًا أو مسدسًا؟

قال فان نيك بينما يحك في قمل رأسه بشروء: «لا».

- لقد أخذوا جميع ملابسنا لتنظيفها واحتفظوا بالأسلحة. لم أفكر في الأمر حينها. أخذوا مفاتيحي أيضًا، وكذلك مسدسي. كانت جميع مفاتيحي في حلقة واحدة. خزينة السفينة وصندوق السفينة والمخزن.

- كل شيء مقفل بإحكام على متن السفينة. لا داعي للقلق بشأن ذلك.

- لا أطيق أن أكون بلا مفاتيحي. هذا يجعلني متوترًا للغاية. اللعنة على عيني، أريد حقًا شرب البراندي الآن. أو حتى قارورة من الجعة.

سأل سونك مخاطبًا نفسه: «يا إلهي! لقد قطعه الساميري إلى أشلاء،

أليس كذلك؟».

قال جينسيل: «اصمت حبًّا بالرب. إنه «ساموراي». أنت وحدك تكفي لزيادة قلقنا».

قال فينك: «آمل ألا يأتي ذلك الكاهن اللعين إلى هنا».

كان فان نيك لا يزال يحاول أن يبدو واثقًا: «نحن بأمان في كنف الرب، سيُطلق سراحنا عندما يأتي الدايميو. سنستعيد سفينتنا وبنادقنا. سترى. سنبيع كل بضائعنا وسنعود إلى هولندا أغنياء وآمنين بعد أن أبحرنا حول العالم، أول هولنديين يجوبون العالم على الإطلاق. سيذهب الكاثوليك إلى الجحيم وهذه هي نهاية الأمر».

قال فينك: «لا، ليست كذلك. الكاثوليك يصيبونني بالقشعريرة. لا أستطيع التوقف عن الشعور بذلك. وأيضًا التفكير بالكونكستادور. هل تعتقد أنهم سيكونون هنا مسلحين بالقوة يا ربان؟».

- لا أعلم. ربما! أتمنى لو كانت كل السرية هنا.

قال فينك: «هؤلاء المساكين، على الأقل نحن أحياء».

قال ماتسوكر: «ربما عادوا إلى الوطن. ربما عادوا عند مضيق ماجلان عندما فرقنا العواصف».

قال بلاكثورن: «آمل أن تكون على حق، ولكن أعتقد أنهم فقدوا مع جميع أفراد الطاقم».

ارتعد جينسيل: «على الأقل نحن أحياء».

- مع وجود الكاثوليك هنا، وهؤلاء الوثنيين بمزاجهم اللعين، ما قيمة حياتنا؟

قال بيترزون: «اللعة على اليوم الذي غادرت فيه هولندا، اللعة على كل الخمر! لو لم أكن سكيرًا لعينًا لكنت لا أزال مطأطيء الرأس في أمستردام مع امرأتي العجوز».

- إلغن ما تشاء يا بيترزون. ولكن لا تلعن الخمر. إنها روح الحياة.

أظهر فينك امتعاضه: «أقول إننا في مأزق شديد، والوضع يزداد سوءًا، بسرعة فائقة».

قال ماتسوكر، لقد بدا كالنمس ولكن بلا أسنان: «لم أكن أعتقد قط أننا سنصل إلى اليابسة، قط. وبالأخص اليابان. الكاثوليك الكريهين! لن نغادر

هذا المكان أحياء، أتمنى لو كنا نملك بعض البنادق. يا لها من عملية رسو فاسدة! لم أقصد شيئاً يا ربان». قال بسرعة عندما نظر إليه بلاكتورن: «مجرد سوء حظ، هذا كل شيء».

لاحقاً قدم الخدم لهم الطعام مجدداً. وكان طعاماً لا يتغير، يتكوّن من خضار -مطهي ونيء- مع قليل من الخل وحساء السمك وعصيدة القمح أو الشعير. وكانوا جميعاً يرفضون قطع السمك النيئة الصغيرة، ويطلبون اللحوم والخمر. ولكن لم يفهم مرادهم، ثم غادر بلاكتورن حين غربت الشمس. فقد سئم من مخاوفهم وأحقادهم وبذاءاتهم. وأخبرهم أنه سيعود بعد الفجر.

كانت الأسواق مزدحمة في الشوارع الضيقة. وجد بلاكتورن شارعاً وباب منزله. وقد جُرّفت بقايا الدماء عن الأرض واختفت الجثة. فكر: يبدو الأمر وكأنه كان كله حلمًا. انفتح باب الحديقة قبل أن يمد يده إليه.

البستاني العجوز الذي لا يزال يرتدي لباساً داخلياً رغم البرد الذي يحمله النسيم، قد ابتسم وانحنى: «Konbanwa».

قال بلاكتورن بغير تفكير: «مرحباً».

صعد الدرجات، ثم توقف متذكراً حذائه. فنزعه ومشى حافياً إلى الشرفة ثم إلى الغرفة. وعبرها إلى ممرٍ لكنه لم يجد غرفته. نادى: «أونا».

ظهرت عجوز: «نعم؟».

- أين أونا؟

عبرت العجوز وأشارت إلى نفسها: «أونا!».

قال بلاكتورن بغضب: «حُبّاً بالرب، أين غرفتي؟ وأين أونا؟».

فتح باباً آخر مغلقاً. كان يوجد أربعة يابانيين جالسين على الأرض حول مائدة منخفضة يأكلون. وتعرف على واحدٍ منهم على أنه الرجل ذو الشعر الرمادي، رئيس القرية الذي كان برفقة الكاهن. فانحنوا جميعاً. قال وأغلق الباب: «أسف».

نادى: «أونا».

فكرت العجوز للحظة ثم أشارت له. فتبعها إلى ممرٍ آخر. وفتحت باباً. تعرف على غرفته من الصليب. وقد فُرشت الألفحة بعناية بالفعل.

قال مرتاحًا: «شكرًا لك، الآن استدعي أونا».

انصرفت العجوز بهدوء. جلس ورأسه وجسمه يؤلمانه، وتمنى لو كان يوجد كرسي، وتساءل أين يحتفظون بهم عادةً. كيف يصعد على متن السفينة؟ كيف يحصل على بعض البنادق؟ لا بد من وجود طريقة ما. عاد صوت وقع الأقدام وظهرت ثلاث نساء؛ العجوز وفتاة صغيرة ممتلئة الوجه والسيدة في منتصف العمر.

أشارت العجوز إلى الفتاة التي بدت خائفة قليلًا وقالت: «أونا».

قال بلاكتورن بضيق وهو ينهض وأشار بغضبٍ نحو المرأة التي في منتصف العمر: «لا، هذه هي أونا، بحق الرب! ألا تعرفين اسمكِ؟ أنا جائع يا أونا. هل يمكنني الحصول على بعض الطعام؟».

مسد بطنه محاكيًا الجوع. فتبادلن النظرات فيما بينهما. ثم استهجنَت المرأة التي في متوسط العمر وقالت شيئًا ما أضحك الأخريين، ثم اتجهت نحو السرير وشرعت في خلع ملابسها. أما الأخريان فقد جثمنا على الأرض، وأعينهما واسعة تترقب بانتظار.

فزع بلاكتورن: «ماذا تفعلين؟».

فأجابت وهي تضع حزامها العريض جانبًا وتفتح الكيمونو الخاص بها: «Ishimasho».

كان صدرها مسطحًا ومترهلًا وبطنها ضخماً.

كان من الواضح تمامًا أنها ستصعد إلى السرير. فhez رأسه وأخبرها أن تلبس ثيابها وأمسك بذراعها فبدأن جميعهن بالثرثرة والإيماءات وكان يزداد غضب المرأة شيئًا فشيئًا. نزعت تنورتها الداخلية الطويلة وأصبحت عارية، وحاولت العودة إلى السرير.

توقفت ثرثرتهن وانحنين جميعًا حين أقبل رئيس القرية بهدوء من الممر. سأل: «Nanda? Nanda?».

فسرت العجوز له ما حدث. فسأل بالبرتغالية بلهجة قوية يصعب فهمها، وهو يشير إلى المرأة العارية: «أتريد هذه المرأة؟».

- لا. لا، بالطبع لا. أردتُ فقط أن تحضر لي أونا بعض الطعام.

وأشار بلاكتورن إليها بصبر يكاد ينفد: «أونا».

- أونا تعني «امرأة».

ثم أشار الياباني إليهن: «هذه أونا... هذه أونا... وهذه أونا. هل تريد امرأة؟».

هز بلاكتورن رأسه بإرهاق: «لا، لا، شكرًا لك. لقد ارتكبت خطأ. أنا آسف، ما اسمها؟».

- عذراً؟

- ما اسمها؟

قال: «اسمها هاكو. هاكو».

- هاكو؟

- نعم، هاكو.

- أنا آسف يا هاكو سان. اعتقدت أن «أونا» هو اسمك.

فسر الرجل الأمر لهاكو وبدأت مستاءة. لكنه قال شيئاً فنظرن جميعهن إلى بلاكتورن وضحكن فيما بينهن وهن يغطين أفواههن ثم غادرن. انصرفت هاكو عارية وهي تحمل الكيمونو على ذراعها بكل كبرياء.

قال بلاكتورن غاضباً من غبائه: «شكرًا لك».

- هذا منزلي. اسمي مورا.

- مورا سان. أنا بلاكتورن.

- عذراً؟

- اسمي بلاكتورن.

- آه، بير-راك-فون.

حاول مورا نطق الاسم عدة مرات لكنه لم يفلح. وفي النهاية استسلم واستمر في تأمل العملاق أمامه. هذا أول أجنبي يراه على الإطلاق منذ سنوات عديدة مضت باستثناء الأب سيياستياو والكاهن الآخر. فكر: لكن على أي حال، إن الكهنة ذوو شعر داكن وأعين داكنة وطول عادي. أما هذا الرجل فهو طويل القامة وشعره ولحيته ذهبيان، وله عينان زرقاوان وبشرة شاحبة جدًا حيث كانت مغطاة، وحمراء حيث كانت معرضة للشمس. مدهش! كنت أعتقد أن كل الرجال لديهم شعر أسود وأعين داكنة. نحن جميعًا كذلك. الصينيون كذلك، أليست الصين هي العالم كله باستثناء أرض البرتغاليين

الهمج الجنوبيين؟ مدهش! ولماذا يكره الأب سياستياو هذا الرجل كثيرا؟ هل لأنه يعبد الشيطان؟ لا أظن ذلك، لأن الأب سياستياو يستطيع طرد الشيطان إذا أراد. إي، لم أر الأب الفاضل بهذا الغضب من قبل. إطلاقاً. مدهش.

هل العينان الزرقاوان والشعر الذهبي علامة من علامات الشيطان؟

نظر مورا إلى بلاكتورن وتذكر كيف حاول استجوابه على متن السفينة، ثم عندما فقد هذا القبطان الوعي، قرر أن يأخذه إلى منزله لأنه القائد ويجب أن ينال معاملة خاصة. لقد وضعوه على اللحاف ونزعوا ملابسه، بدافع الفضول أكثر من أي شيء آخر.

قالت سايكو، والدّة مورا: «إن جسده لا مثيل له بالتأكيد، أليس كذلك؟ أتساءل كيف سيبدو في ظروف أخرى؟».

أجابها: «ضخم».

ضحكوا جميعاً، والدته وزوجته وأصدقائه وخدمه والطبيب.

قالت زوجته نيجي: «أتوقع أن نساءهم كذلك، لا بد أنهن ممتلئات البدن بالقدر نفسه».

قالت والدته: «هراء يا ابنتي، يمكن للعديد من محظياتنا أن يتكيفن بكل سرور مع ما يلزم». هزت رأسها متعجبة: «لم أر شيئاً كهذا طوال حياتي. غريب جداً، أليس كذلك؟».

كانوا قد غسلوا جسده، ولم يفق من غيبوبته بعد. رأى الطبيب أنه من غير الحكمة أن يغسلوه كلياً حتى يستفيق. قال بحكمة متأنية: «ربما يجب أن نتذكر يا مورا سان أننا لا نعرف حقيقة هذا الهمجي حقاً. عذراً ولكننا ربما قد نقتله عن طريق الخطأ. من الواضح أنه في أقصى درجات إعيائه. يجب أن نتحلّى بالصبر».

سأل مورا: «ولكن ماذا عن القمل في شعره؟».

- يجب أن يبقوا في الوقت الحالي. على حد علمي أن جميع الهمج لديهم قمل. عذراً ولكنني أنصح بالصبر.

قالت زوجته: «ألا تعتقد أنه بإمكاننا على الأقل غسل شعره بالغسل؟ سنكون حذرين للغاية. أنا متأكدة أن السيدة ستشرف على جهودنا البائسة. هذا سيساعد الهمجي ويحافظ على نظافة منزلنا».

قالت والدته بصفة نهائية: «أوافقك الرأي. يمكنكِ غسل شعره».

الآن ألقى مورا نظرةً على بلاكتورن دون قصد. ثم تذكر ما قاله لهم الكاهن عن هؤلاء الشيطانيين والقراصنة. فكر: فليحمننا الرب من هذا الشر. لو كنت أعلم أنه بهذا السوء لما أحضرته إلى منزلي قط. قال لنفسه: لا، أنت ملزمٌ بمعاملته كضيفٍ خاصٍّ حتى يصدر أومي سان أمرًا آخر. لكنك كنت حكيمًا بإرسال رسالة إلى الكاهن وأخرى إلى أومي سان على الفور. حكيمٌ جدًا. أنت رئيس القرية، لقد حميت القرية وأنت وحدك مسؤولٌ.

نعم. وسوف يحمّلك أومي سان المسؤولية عن الموتى هذا الصباح ووقاحة الرجل الميت، منطقي تمامًا.

كان قد حذر صديقه الصياد عشرات المرات: «لا تكن غبيًا يا تامازاكي. أنت تخاطر بسمعة القرية الجيدة، أليس كذلك؟ توقف عن تعصبك. ليس أمام أومي سان خيار سوى الاستهزاء بالمسيحيين. ألا يكره الدايميو المسيحيين؟ ماذا يمكن لأومي سان أن يفعل غير ذلك؟».

كان تامازاكي يجيب دائمًا برسمية: «لا شيء، أتفق معك يا مورا سان، المعذرة ولكن من المفترض أن البوذيين يتمتعون بتسامح أكبر، أليس كذلك؟ ألا يتبع كلاهما زن «البوذي»؟».

كان الزن البوذي يركز على ضبط النفس، إذ يعتمد بشكل كبير على المساعدة الذاتية والتأمل للوصول إلى التنوير. ينتمي معظم الساموراي إلى طائفة الزن البوذية، لأنها تتماشى مع طباع المحارب الفخور الباحث عن الموت، بل ويبدو أنها صُممت خصيصًا له.

- نعم، البوذية تعلّم التسامح. ولكن كم مرة يجب أن أذكرك بأنهم من الساموراي، ونحن هنا في جزر إيزو وليست جزيرة كيوشو، وحتى لو كنا في كيوشو، فأنت المخطئ على الدوام. أليس كذلك؟

- بلى. أرجو المعذرة، أعلم أنني مخطئ. ولكن أحيانًا أشعر أنني لا أستطيع العيش مع عاري الداخلي عندما يتناول أومي سان على الإيمان الحقيقي.

والآن أنت يا تامازاكي قد لقيت حتفك بفعل اختيارك لأنك أسأت الأدب إلى أومي سان بعدم انحنائك لمجرد قوله «... هذا الكاهن الكريه للدين الأجنبي». رغم أن الكاهن كريه الرائحة بالفعل والإيمان الحقيقي أجنبي. يا صديقي

المسكين، لن تطعم هذه الحقيقة عائلتك الآن ولن تزيل وصمة العار عن قريتي.

باركي صديقي القديم يا مريم وامنحيه نعيم جنتك.

قال مورا لنفسه: توقع الكثير من المتاعب من أومي سان. وإذا لم يكن ذلك سيئاً بما فيه الكفاية، فإن الدايميو الآن قادم إلينا.

كان قلق دائم يلتهمه كلما فكر في زعيمه الإقطاعي كاسيجي يابو، دايميو جزر إيزو، وعم أومي سان، قسوة الرجل وانعدام شرفه، والطريقة التي يخدع بها جميع القرى ويحرمها من نصيبها الشرعي من صيدها ومحاصيلها، وثقل حكمه الجائر. سأل مورا نفسه: عندما تندلع الحرب، إلى أي جانب سيعلن يابو ولأه، جانب الزعيم إيشيدو أم الزعيم توراناغا؟ نحن محاصرون بين العمالق ورهن إشارتهما.

شمالاً يحكم توراناغا، أعظم قائد على قيد الحياة، وزعيم الكانتو والمقاطعات الثماني، الدايميو الأهم في البلاد والقائد العام لجيوش الشرق، أما في الغرب المناطق الخاصة بالزعيم إيشيدو، زعيم قلعة أوساكا وغازي كوريا وحامي الوريث والقائد العام لجيوش الغرب. وفي الشمال يقع طريق توكايدو، الطريق الساحلي العظيم الذي يربط إيدو (عاصمة توراناغا) بأوساكا (عاصمة إيشيدو)، يبلغ طوله أربعمئة واثنين وثمانين كيلومتراً غرباً حيث يجب أن تسير جيوشهما.

من سينتصر في الحرب؟

لا أحد.

لأن الحرب ستبتلع الإمبراطورية مجدداً، وستنحل التحالفات وستتقاتل المقاطعات فيما بينها إلى أن تصل الأمور إلى قتال قرية ضد أخرى كما كان عليه الحال دائماً. باستثناء السنوات العشر الأخيرة. فعلى مدى السنوات العشر الماضية وبشكل لا يصدق، ساد سلام خالٍ من الحروب في جميع أنحاء الإمبراطورية، لأول مرة في التاريخ.

فكر مورا: بدأت أعتقد السلام.

لكن الرجل الذي صنع السلام مات. لقد مات الجندي الفلاح منذ عام واحد، الذي أصبح ساموراي ثم قائداً ثم أعظم قائد على الإطلاق وأخيراً أصبح التايكو، الزعيم الحامي المطلق لليابان، وابنه البالغ من العمر سبع سنوات

صغير جدًا على أن يرث السلطة العليا. إذن فالصبي -مثلنا- رهينة بين العمالقة. وأصبحت الحرب حتمية. الآن لم يعد بإمكان التايكو نفسه حماية ابنه الحبيب أو سلالته أو ميراثه أو إمبراطوريته.

لعله قدر محتوم. أخضع التايكو الأرض وأوجد السلام وأجبر جميع الداييميو في البلاد على الخنوع كفلاحين أمامه وأعاد ترتيب الإقطاعات لتناسب نزواته -فرفع شأن البعض وعزل البعض الآخر- ثم مات. لقد كان عملاقًا بين أقزام. ولكن ربما كان من الصواب أن تموت كل إنجازاته وعظمته معه. أليس الإنسان مجرد زهرة تذورها الرياح، ولا شيء حقيقي خالد سوى الجبال والبحار والنجوم وأرض الآلهة هذه؟

نحن جميعًا محاصرون وهذه حقيقة، ستُشن الحرب قريبًا وهذه حقيقة، يابو وحده سيقدر مَنْ سنوالي وهذه حقيقة، ستظل القرية دائمًا قرية لأن حقول الأرز تفيض بالخيرات والبحر وفير وهذه حقيقة أخيرة.

حس مورا ذهنه على التفكير في القرصان الهمجي أمامه. فكر: أنت شيطان أرسل ليعذبنا، ولم تجلب لنا سوى المتاعب منذ وصولك. لماذا لم تختَر قرية أخرى؟

سأل محاولًا المساعدة: «هل يريد قبطان سان امرأة؟».

بناءً على اقتراحه، قام مجلس القرية بترتيبات جسدية للهمج الآخرين، وذلك من باب الأدب وكمجرد وسيلة بسيطة لإبقائهم مشغولين حتى وصول السلطات. ولكي تستمتع القرية بالقصص اللاحقة عن العلاقات أكثر من تعويضها عن المال الذي أنفقوه.

- امرأة؟

كرر سؤاله، بافتراضه الطبيعي، بما أن القرصان واقف على قدميه، فهو على الأرجح راغب بأن يكون على بطنه أيضًا، وأن «رمحه المقدس» موضوع في غمده استعدادًا للنوم، وعلى أي حال، فقد أُجريت كافة الإجراءات اللازمة. - لا.

كان كل ما يريد بلاكتورن فعله هو النوم. ولكن بما أنه أدرك حاجته إلى كسب ود هذا الرجل، فقد أجبر نفسه على الابتسام وأشار إلى الصليب: «أنت مسيحي؟».

أومأ مورا: «مسيحي».

- أنا مسيحي.
- الأب يقول لا. لست مسيحيًا.
- أنا مسيحي ولستُ كاثوليكيًا. لكني ما زلت مسيحيًا.
- لكن مورا لم يستطع فهم ذلك. ولم توجد أي طريقة ليشرح بلاكثورن الأمر أكثر، بغض النظر عن مدى محاولاته.
- أتريد امرأة؟
- الـ... الديمو... متى سيأتي؟
- ديمو؟ لا أفهم.
- ديمو... آه، أقصد دايميو.
- هز مورا كتفيه: «آه، دايميو. نعم. دايميو. يأتي الدايميو عندما يأتي. نِم. النظافة أولاً. رجاء».
- ماذا؟
- النظافة. الاستحمام، رجاء.
- لا أفهم.
- اقترب مورا منه وجعد أنفه بنفور.
- نتن، سيئ. مثل كل البرتغاليين. استحم. هذا بيت نظيف.
- غضب بلاكثورن: «سأستحم متى أريد وأنا لست نتنًا. الجميع يعلم أن الاستحمام خطرٌ، هل تريدني أن أُصاب بالزحار؟ هل تعتقد أنني أحمق بلا عقل؟ اخرج من هنا واطركني لأنام».
- أمر مورا: «استحم».
- لقد صدمه غضب الهمجي الصريح وقمة سوء أخلاقه. لم يكن الأمر مجرد رائحة الهمجي الكريهة، التي كانت لا تُطاق حقًا، ولكن أيضًا أنه لم يستحم بصورة لائقة منذ ثلاثة أيام على حد علمه. وبالطبع سترفض المحظية البقاء معه، بغض النظر عن المبلغ المدفوع. فكر مدهوشًا: هؤلاء الأجانب القذرون. مدهش. يا لها من عادات قذرة. لا يهم، أنا مسؤول عنك. سيتم تعليمك الأدب. ستستحم كإنسان طبيعي، وستعرف أُمي ما تريد معرفته: «استحم».
- قال بلاكثورن بغضب وأشار إليه بيده لينصرف: «اخرج الآن قبل أن أقطعك إلى أشلاء».

ساد صمت للحظة ثم ظهر اليابانيون الثلاثة الآخرون برفقة ثلاث من النساء. أوضح مورا الأمر بإيجاز، ثم قال لبلاكثورن بلهجة قاطعة: «استحم. رجاءً».

- اخرج.

تقدم مورا إلى الغرفة وحيداً. مد بلاكثورن ذراعه إلى الأمام، لا يريد إيذاء الرجل وإنما لإبعاده. فجأة، أطلق بلاكثورن زئيراً مكتوماً. بطريقة ما وجّه مورا ضربة لمرفقه بجانب يده، والآن تتدلى ذراع بلاكثورن إلى أسفل مشلولة للحظات. غضب بلاكثورن، فاندفع نحوه. لكن الغرفة دارت به ووجد نفسه ممدداً على وجهه، وشعر بألم آخر حاد ومُشلل ينغرز في ظهره، فأصبح عاجزاً عن الحركة: «بحق الرب...».

حاول النهوض لكن ساقيه خارتا تحته. ثم مد مورا إصبعه الصغيرة الصلبة كالحديد بتأنٍ، ولمس بها نقطة عصب دقيقة في عنق بلاكثورن. ثم أصابه ألم حاد.

- يا إلهي.

- استحم؟ رجاءً؟

- حسناً، حسناً.

شهق بلاكثورن من خلال آلامه الحادة، مذهولاً لإخضاعه بسهولة بالغة من قبل رجلٍ نحيف كهذا، والآن يرقد عاجزاً كأى طفل، مُهياً لأن تُذبح رقبتة. مضت سنوات عديدة منذ تعلم مورا فنون الجودو والكاراتيه، كما أتقن القتال بالسيف والرمح. يعود ذلك إلى زمنٍ كان فيه محارباً يقاتل تحت راية ناكامورا، القائد الفلاح، التايكو، قبل أن يصبح التايكو حاكماً مطلقاً. حين كان بوسع الفلاحين أن يصبحوا ساموراي ويمكن للساموراي أن يصبحوا فلاحين، أو حرفيين بل وحتى تجاراً بسطاء، ومن ثم يصبحون مقاتلين مجدداً. فكر مورا بتشتت وهو ينظر إلى العملاق الممدد أمامه: غريبٌ حقاً، أن أول ما قام به التايكو تقريباً بعد أن استحوذ على السلطة المطلقة هو إصدار أمر بمنع الفلاحين من أن يصبحوا ساموراي وتسليم أسلحتهم على الفور. لقد حرّم التايكو عليهم حمل السلاح إلى الأبد وأقام نظام الطبقات الثابت الذي يتحكم الآن بحياة الجميع في كافة أرجاء الإمبراطورية: الساموراي في أعلى الهرم، ثم الفلاحون تليهم طبقة الحرفيين، يليهم التجار، ثم الممثلون، والمنبوذون واللصوص، وأخيراً في أسفل السلم الإيتا، الوحوش، أولئك الذين يتعاملون

مع الجثث ودباغة الجلود والحيوانات النافقة، وهم أيضًا جلاو الدولة والذين يقومون بالوسم والتشويه. وبالطبع كان الهمج خارج نطاق هذا التصنيف.

- عذرًا يا قبطان.

انحنى مورا باحترام وهو يشعر بالخجل لخسارة الهمجي لماء وجهه لأنه كان مستقلقيًا ويئن كطفل رضيع. فكر: نعم، أنا آسف ولكن كان لا بد من حدوث ذلك. لقد استفزرتني أكثر من اللازم، حتى بالنسبة لهمجي. أنت تصرخ كالمجنون وأزعجت والدتي وعكرت هدوء منزلي وأزعجت الخدم، وقد اضطرت زوجتي إلى استبدال باب الشوجي الذي حطمته. لم أستطع السماح بتصرفاتك الفظة الواضحة أن تمر مرور الكرام. أو السماح لك بمخالفة رغباتي في منزلي الخاص. إنه حقًا لمصلحتك أنت. ثم إن الأمر أيضًا ليس سيئًا للغاية لأنكم أيها الهمج ليس لديكم حقًا ماء وجه تخسرونه. باستثناء الكهنة... فهم مختلفون. لا تزال رائحتهم كريهة لكنهم مُختارون من قبل الرب الآب لذلك يتمتعون بمكانة عظيمة. أما أنت... أنت كاذب وكذلك قرصان. بلا شرف. يا له من أمر مدهش! تزعم بأنك مسيحي! لسوء الحظ هذا لن يفيدك على الإطلاق. فإن الدايميو يكره الإيمان الحقيقي والهمج ويتسامح معهم فقط لأنه مضطر إلى ذلك. لكنك لست برتغاليًا ولا مسيحيًا، وبالتالي لا تحظى بحماية القانون، أليس كذلك؟ لذلك رغم أنك رجل ميت -أو على الأقل مشوه- فمن واجبي أن أراك تلقى مصيرك وأنت نظيف: «الاستحمام جيد جدًا».

ساعد الرجال الآخرين على حمل بلاكثورن الذي لا يزال مذهولًا عبر المنزل إلى الحديقة، على طول ممرٍ مسقوفٍ كان يعتز به كثيرًا، وصولًا إلى حمام المنزل. وتبعته النساء.

لقد أصبحت تلك التجربة إحدى أعظم تجارب حياته. لقد عرف حينها أنه سيسرد ويعيد سرد القصة على أصدقائه المذهولين أمام براميل من الساكي الحار -وهو اسم شراب النبيذ الوطني لليابان- إلى رفاقه المسنين والصيادين والقرويين وأبنائه الذين هم أيضًا لن يصدقوه في البداية. لكنهم بدورهم سيروونها لأبنائهم، وسيبقى اسم مورا الصياد حيًا إلى الأبد في قرية أنجيرو الواقعة في مقاطعة إيزو على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة الرئيسية هونشو. كل ذلك لأنه -مورا الصياد- حالفه الحظ بأن يكون رئيس القرية في السنة الأولى بعد وفاة التايكو، وبالتالي أصبح مسؤولًا مؤقتًا عن قائد الهمج الغرباء الذين جاؤوا من البحر الشرقي.

الفصل الثاني

قال الأب سيباستياو: «يرغب الدايميو كاسيجي يابو زعيم مقاطعة إيزو في معرفة من تكون، ومن أين أتيت، وكيف وصلت إلى هنا، وما هي أعمال القرصنة التي ارتكبتها».

- أظن أخبرك أننا لسنا قراصنة.

كان الصباح صافياً ودافئاً وكان بلاكتورن جاثياً أمام المنصة في ساحة القرية، ورأسه لا يزال يؤلمه من الضربة. قال لنفسه: حافظ على هدوئك وركز، أنت أمام محكمة ستحدد مصير حياتنا. أنت المتحدث الوحيد ولا يوجد خيار آخر. هذا اليسوعي معادٍ لنا وهو المترجم الوحيد المتاح ولن يكون بإمكانك معرفة ما سيقوله بالضبط لكنك على يقين تام أنه لن يساعدك... كاد يسمع صوت ألبان كارادوك العجوز يقول: «استجمع شتات نفسك يا فتى. عندما تشتد العاصفة ويصبح البحر أعنف، فهذا هو الوقت الذي تحتاج فيه إلى ذكائك الحاد. هذا ما يبقي على حياتك وعلى سلامة سفينتك... إذا كنت الربان. استجمع شتات نفسك واستخرج شيئاً إيجابياً من كل يوم مهما كان سيئاً...». فكر بلاكتورن بأسى: لا يوجد شيء إيجابي في هذا اليوم. لماذا أسمع صوت ألبان بوضوح شديد؟

قال: «أخبر الدايميو أولاً أننا في حالة حرب، وأننا أعداء. أخبره أن إنجلترا وهولندا في حرب مع إسبانيا والبرتغال».

- أحذرك مجدداً أن تتحدث ببساطة وألا تحاول تحريف الحقائق. هولندا -أو هولاند أو زيلاند أو الجمهورية المتحدة، أو أيّاً كان ما تسمونها يا أيها الهولنديون المتمردون القذرون- هي مقاطعة صغيرة متمردة تابعة للإمبراطورية الإسبانية. أنت إذن لست سوى قائد مجموعة من المتمردين الخونة ضد ملكهم الشرعي.

- إن إنجلترا في حرب وهولندا قد انفصلت...

لم يكمل بلاكتورن جملته لأن الكاهن لم يعد يستمع إليه بل كان يترجم على الفور.

كان الدايميو يجلس على المنصة، قصيرًا ومُمتلئ الجسم ومهيّبًا. كان جاثيًا براحةً، وكعبا رجليه مطويين تحته بإحكام، يحيط به أربعة ملازمين أحدهم كاسيجي أومي، ابن أخيه وتابعه. كانوا جميعًا يرتدون الكيمونو الحريري وفوقه جِباب مزخرفة بأحزمة عريضة تُثبتهم عند الخصر وتُحمل على أكتافهم الضخمة. وبالطبع السيوف التي لا تفارقهم.

كان مورا جاثيًا على تراب الساحة. لقد كان القروي الوحيد الحاضر والمتفرجون الآخرون الوحيدون هم الساموراي الخمسين الذين أتوا مع الدايميو. جلسوا في صفوف منظمة يخيم عليهم الصمت. تجمع أفراد طاقم السفينة خلف بلاكتورن وكانوا جاثين على رُكبهم مثله، والحراس بالقرب منهم. لقد اضطروا إلى حمل قائد الأسطول معهم عندما استدعوه، رغم أنه كان مريضًا بشدة. سُمح له بالاستلقاء على الأرض في التراب وهو لا يزال في غيبوبة شبه كاملة. انحنى بلاكتورن معهم جميعًا عندما دخلوا أمام الدايميو، لكن هذا لم يكن كافيًا. أجبرهم الساموراي على الجثو على رُكبهم ودفعوا رؤوسهم في التراب على غرار معاملة الفلاحين. حاول بلاكتورن المقاومة وصاح على الكاهن لكي يوضح له أن هذه ليست عادتهم، وأنه القائد ومبعوث بلدهم ويجب معاملته على هذا النحو. لكن قبضة الرمح أطاحت به. تحفز رجاله لشن هجوم اندفاعي، لكنه صرخ عليهم بالتوقف والجثو ولحسن الحظ أطاعوه. تفوه الدايميو بشيء غير مفهوم، وفسره الكاهن على أنه تحذير له ليقول الحقيقة وبسرعة. طلب بلاكتورن كرسياً لكن الكاهن قال إن اليابانيين لا يستخدمون الكراسي ولا يوجد منها في اليابان.

كان بلاكتورن يركز على الكاهن وهو يتحدث إلى الدايميو، باحثًا عن خيط يخرجهم من هذا المأزق.

فكر: ينم وجه الدايميو عن غطرسة وقسوة. أراهن على أنه وغد حقًا. يبدو أن الكاهن لا يتحدث اليابانية بطلاقة. آه، هل ترى ذلك؟ الغضب ونفاد الصبر باديان على وجهه. هل طلب الدايميو كلمة أخرى، كلمة أوضح؟ أعتقد ذلك. لماذا يرتدي اليسوعي ثوبًا برتقالي اللون؟ هل الدايميو كاثوليكي؟ انظر، يتعامل اليسوعي باحترام شديد ويتصبب عرقًا غزيرًا. أراهن أن الدايميو ليس كاثوليكيًا. كن دقيقًا! ربما ليس كاثوليكيًا. على أي حال لن تتلقى أي رحمة

منه. كيف يمكنك استغلال هذا الوجد القاسي؟ كيف تتحدث معه مباشرة؟ كيف ستتعامل مع الكاهن؟ كيف ستشكك في مصداقيته؟ ما هو الطعم؟ هيا، فكر! أنت تعرف ما يكفي عن اليسوعيين...

- يقول الدايميو: تعجل وأجب عن أسئلته.

- نعم. بالطبع، أنا آسف. اسمي جون بلاكتورن. أنا إنجليزي، ربان رئيسي لأسطول هولندي. ميناؤنا الرئيسي هو أمستردام.

- أسطول؟ أي أسطول؟ أنت تكذب. لا يوجد أسطول. لماذا سيكون رجل إنجليزي رباناً لسفينة هولندية؟

- ستعرف كل شيء في وقته المناسب. ترجم ما قلته أولاً رجاءً.

- لماذا أنت ربان لسفينة قراصنة هولندية؟ أسرع!

قرر بلاكتورن المخاطرة. تغير صوته فجأة وأصبح أكثر حدة وقد اخترق دفة الصباح: «بحقك! ترجم ما قلته أولاً يا إسباني، الآن».

احمر وجه الكاهن: «أنا برتغالي. لقد أخبرتك من قبل. أجب عن السؤال».

- أنا هنا لأتحدث إلى الدايميو وليس إليك. ترجم ما قلته يا لقيط.

رأى بلاكتورن أن القس قد احمر وجهه أكثر فأكثر وشعر أن هذا لم يمر مرور الكرام على الدايميو. حذر نفسه: انتبه، هذا الوجد الأصفر سيقطعك إلى أشلاء أسرع من سرب من أسماك القرش إذا تجاوزت حدودك. انحنى بلاكتورن عمداً أمام المنصة وشعر بالعرق البارد يبدأ يتكون على جبهته وهو يلزم نفسه بخبطه بشكل لا رجوع فيه: «أخبر الزعيم الدايميو».

علم الأب سيباستياو أن تدريبه يجعله يتحمل إهانات القرصان ومخططة الواضح لتشيويه سمعته أمام الدايميو، لكنه لأول مرة لم يستطع التحمل وشعر بالضيق. عندما أحضر رسول مورا أخبار السفينة إلى بعثته في المقاطعة المجاورة، صدمته التدايعات. فكر: لا يمكن أن تكون هولندية أو إنجليزية. لم يسبق أن رأيت سفينة هرطوقية في المحيط الهادئ باستثناء سفن دريك القرصان الشيطاني، ولم تصل إحداها إلى هنا في آسيا. فقد كانت الطرق سرية ومحروسة. على الفور استعد للرحيل وأرسل رسالة عاجلة عن طريق الحمام الزاجل إلى رئيسه في أوساكا، متمنياً لو استطاع استشارته أولاً، مدركاً أنه كان صغيراً شاباً، وكاد يكون مبتدئاً وجديداً في اليابان، لم يمض عامان على وصوله هنا، ولم يُرسم كاهناً بعد، وبالتالي غير مؤهل للتعامل

مع هذه الحالة الطارئة. هرع إلى أنجيرو، أملاً ومتضرعاً أن تكون الأخبار غير صحيحة. لكن السفينة كانت هولندية والربان إنجليزياً، وكل كرهه للبدع الشيطانية للوثر وكالفن وهنري الثامن وابنته اللعينة إليزابيث، قد سيطر على تفكيره. ولا يزال يسيطر على حكمه.

سمع الدايميو يقول: «ترجم ما قاله القرصان يا كاهن».

يا أم الرب ساعديني لأعمل بمشيئتك. ساعديني لأكون قوياً أمام الدايميو وامنحيني القدرة على تحدث اللغات، ودعيني أهديه إلى الإيمان الحقيقي. جمع الأب سيباستياو شتات تفكيره وبدأ يتحدث بثقة أكبر.

استمع بلاكثورن باهتمام، محاولاً انتقاء الكلمات ومعانيها. استخدم الأب كلمة «إنجلترا» و«بلاكثورن» وأشار إلى السفينة التي كانت راسية بهدوء في الميناء.

قال الأب سيباستياو: «كيف وصلت إلى هنا؟».

- عبر مضيق ماجلان. هذا هو اليوم الثالث والثلاثون بعد المئة منذ ذلك الحين. أخبر الدايميو...

- أنت تكذب. إن مضيق ماجلان سرّي. لقد أتيت عبر إفريقيا والهند. سيتعين عليك قول الحقيقة في النهاية. إنهم يستخدمون التعذيب هنا.

- كان المضيق سرّياً. باعنا شخص برتغالي دليل بحري. لقد خانكم واحد من أهلكم مقابل القليل من ذهب يهودا. أنتم جميعاً حمقى! الآن جميع السفن الحربية الإنجليزية - والسفن الحربية الهولندية - تعرف الطريق إلى المحيط الهادئ. يوجد أسطول مكون من عشرين سفينة إنجليزية حربية خطية تحمل كل منها ستين مدفعاً يهاجم مانिला الآن. إمبراطوريتك انتهت.

- أنت تكذب.

فكر بلاكثورن: نعم. عالمًا أنه لا توجد طريقة لإثبات كذبه إلا بالذهاب إلى مانिला: «سيتسبب هذا الأسطول في إلحاق الضرر بممراتكم البحرية ويسحق مستعمراتكم. من المتوقع وصول أسطول هولندي آخر إلى هنا خلال أسبوع تقريباً. لقد عاد الخنزير الإسباني البرتغالي إلى حظيرته. وقائد اليسوعيين أمثالك سيذهب إلى الجحيم حيث ينتمي».

ابتعد وانحنى باحترام أمام الدايميو.

- لعنة الرب عليك وعلى فمك القذر.

انفجر الدايميو باليابانية: «ما الذي يقوله هذا الرجل؟».

تكلم الكاهن بسرعة أكبر وبصوت أعلى، وقال «ماجلان» و«مانिला»، لكن بلاكتورن شعر بأن الدايميو ورجاله لم يفهموا الأمر بوضوح.

بدأ يابو يضيق ذرعًا من هذا الاستجواب. نظر إلى الميناء، إلى السفينة التي سيطرت على تفكيره منذ أن تلقى رسالة أومي السرية، وتساءل مجددًا عما إذا كانت هذه السفينة هي الهدية التي يرجوها من الآلهة.

سأل هذا الصباح فور وصوله، متلطفًا بالوحد ومنهكًا للغاية: «هل فحصت البضائع بعد يا أومي سان؟».

- لا يا سيدي. رأيت أنه من الأفضل إغلاق السفينة حتى تصل أنت شخصيًا، لكن المخازن مليئة بالصناديق والبالات. أمل أنني فعلت الصواب. ها هي جميع مفاتيحهم. لقد صادرتهم.

- جيد.

لقد أتى يابو من إيدو، عاصمة توراناغا التي تبعد أكثر من مائة ميل، على عجل وبسرعة تامة وعلى مسؤولية شخصية جسيمة، وكان من الضروري أن يعود بسرعة. استغرقت الرحلة يومين تقريبًا عبر الطرق الوعرة وأنهار الينابيع المتدفقة، قطع جزءًا من الطريق على ظهور الخيل وجزءًا بالهوج: «سأذهب إلى السفينة على الفور».

قال أومي ضاحكًا: «يجب أن ترى الغرباء يا سيدي، إنهم مذهلون. معظمهم لديهم أعين زرقاء -مثل قطط السيامي- وشعر ذهبي. لكن أفضل خبر على الإطلاق هو أنهم قراصنة...».

أخبره أومي عن الكاهن وما رواه الكاهن عن هؤلاء القراصنة وما قاله القرصان وماذا حدث، وتضاعف حماسه. كان يابو قد كبح صبره على صعود السفينة وكسر الأقفال. بدلًا من ذلك، استحم وغَيَّرَ ملابسه وأمر بإحضار الهمج أمامه.

قال بصوت حاد، بالكاد يفهم يابانية الكاهن السيئة: «أنت يا كاهن، لماذا هو غاضب منك إلى هذا الحد؟».

- إنه قرصان شرير يعبد الشيطان.

انحنى يابو نحو أومي، الرجل الذي كان يجلس على يساره: «هل تفهم ما يقوله يا ابن أخي؟ هل يكذب؟ ماذا تعتقد؟».

- لا أعلم يا زعيم. من يعلم حقًا ما هي معتقدات هؤلاء الهمج؟ أتخيل أن الكاهن يعتقد أن القرصان يعبد الشيطان. بالطبع هذا كله هراء.

استدار يابو إلى الكاهن بكره. تمنى لو أنه يستطيع صلبه اليوم ويمحي المسيحية من أراضيه إلى الأبد. لكنه لم يستطع. رغم أن له ولجميع الدايميو الآخرين سلطة مطلقة في أراضيه، فإنهم ما زالوا يخضعون للسلطة العليا لمجلس الوصاية، المجلس العسكري الحاكم الذي عينه التايكو وصيًا قانونيًا على ابنه، كما أنهم يخضعون أيضًا للمراسيم التي أصدرها التايكو في حياته، والتي لا تزال جميعها سارية المفعول قانونيًا. تناول أحد هذه المراسيم الذي صدر قبل سنوات أمور الهمج البرتغاليين وأمر بحمايتهم جميعًا، وبالتالي يجب التسامح مع دينهم والسماح لكهننتهم بالتبشير والتنصير ضمن حدود المعقول: «أنت يا كاهن! ماذا قال القرصان أيضًا؟ ماذا كان يقول لك؟ أسرع! هل فقدت قدرتك على الكلام؟».

- القرصان يقول أشياء سيئة. سيئة. عن مزيد من المراكب الحربية... كثيرة.

- ماذا تقصد بـ«المراكب الحربية»؟

- عذرًا يا سيدي، لا أفهم.

- لا معنى لـ«المراكب الحربية»، أليس كذلك؟

- آه! يقول القرصان أن سفن حربية أخرى في مانيلا، في الفلبين.

- هل تفهم ما يتحدث عنه يا أومي سان؟

- لا يا سيدي. لهجته مروعة، إنها تقريبًا لغة لا معنى لها. هل يقول إنه

يوجد مزيد من سفن القراصنة شرق اليابان؟

- أنت يا كاهن! هل سفن القراصنة هذه قبالة سواحلنا؟ شرقًا؟ أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي. لكنني أعتقد أنه يكذب. يقول إنها في مانيلا.

- أنا لا أفهمك. أين تقع مانيلا؟

- شرقًا. تبعد رحلة عدة أيام.

- إذا جاءت أي سفن قراصنة إلى هنا، سنرحب بهم ترحيبًا حارًا، أينما كانت تقع مانيلا.
- عفواً، لا أفهم.

قال يابو وقد نفذ صبره تمامًا: «لا تهتم».

لقد قرر بالفعل إعدام الغرباء، وكان يستمتع بهذا الاحتمال. من الواضح أن هؤلاء الرجال لا يدخلون ضمن مرسوم التايكو الذي نص على «الهمج البرتغاليين»، وعلى أي حال فهم قراصنة. لطالما كان يكنُّ يابو الضغينة للهمج، راثحتهم النتنه وأساليبهم القذرة وعاداتهم الغذائية المقززة التي تعتمد على أكل اللحوم، ودينهم الغبي وغرورهم وتصرفاتهم البغيضة. علاوة على ذلك، شعر بالخزي كما شعر كل دايميو، بسبب سيطرتهم على أرض الآلهة. سادت حالة حرب بين الصين واليابان لقرون. حيث لم تسمح الصين بأي تجارة. كان قماش الحرير الصيني ضروريًا لتحمل الصيف الياباني الطويل الحار والرطب. لعدة أجيال، لم يكن يصل إلى اليابان سوى كميات قليلة جدًا من الحرير المهرب، وكان متاحًا بتكلفة باهظة. بعد ذلك وقبل نحو ستين عامًا وصل الهمج لأول مرة. منحهم إمبراطور الصين في بكين قاعدة دائمة صغيرة في ماكاو جنوب الصين ووافق على تجارة الحرير مقابل الفضة، التي كانت تتوافر بوفرة في اليابان. سرعان ما ازدهرت التجارة وكتلتا الدولتين. أصبح الوسطاء البرتغاليون أثرياء، وسرعان ما أصبح كهنتهم -اليسوعيون في الغالب- ضروريين للتجارة. وحدهم الكهنة تمكنوا من تعلُّم التحدث بالصينية واليابانية، وبالتالي يمكنهم العمل كمفاوضين ومترجمين. ومع ازدهار التجارة، أصبح الكهنة أكثر أهمية. الآن أصبحت التجارة السنوية ضخمة وتؤثر في حياة كل ساموراي. لذلك كان يتعين التسامح مع الكهنة وانتشار دينهم وإلا فإن الأجانب سيبحرون بعيدًا وستتوقف التجارة.

والآن يوجد عددٌ من الدايميو المسيحيين المهمين جدًا ومئات الآلاف من معتنقي المسيحية، معظمهم في كيوشو، الجزيرة الجنوبية الأقرب إلى الصين التي تضم ميناء ناجازاكي البرتغالي. فكر يابو: نعم، يجب أن نتحمل الكهنة والبرتغاليين، ولكن ليس هؤلاء الهمج الجدد، ذوي الشعر الذهبي الغريب والأعين الزرقاء. لقد ملأته الحماسة. الآن يمكنه أخيرًا إرضاء فضوله حول مدى تحمل الهمجي للتعذيب حتى يموت. وكان لديه أحد عشر رجلًا، إحدى عشرة

تجربة مختلفة، ليجرب بهم. لم يسأل نفسه قط لماذا يسعده ألم الآخرين. لقد علم فقط أنه يفعل، وبالتالي فهو شيء يجب السعي وراءه والتمتع به.

قال يابو: «هذه السفينة أجنبية وليست برتغالية، وعلى متنها قراصنة، تُصادر مع كل ما تحتويه. وجميع القراصنة محكوم عليهم بالموت الفوري...».

فغر فاه بدهشة وهو يرى قائد القراصنة يندفع فجأة نحو الكاهن وينتزع الصليب الخشبي من حزامه، ويحطمه ويلقي القطع على الأرض، ثم يصرخ شيئاً بصوت عالٍ. جثا القرصان على الفور وانحنى أمامه بينما تقدم الحراس إلى الأمام وسيوفهم مرفوعة.

- توقفوا! لا تقتلوه.

دُهِش يابو من حقيقة أنه يمكن أن يتجرأ أي شخص على التصرف أمامه بهذه الوقاحة: «هؤلاء الهمج لا يُصدقون!».

قال أومي وعقله مليء بالأسئلة التي يثيرها مثل هذا الفعل: «نعم».

كان الكاهن لا يزال جاثياً ويحرق إلى قطع الصليب. شاهدوه وهو يمد يده المرتجفة ويرفع الخشب المكسور. قال شيئاً للقرصان بصوت منخفض ولطيف تقريباً. أغمض عينيه وشبك أصابعه وبدأت شفتاه تتحركان ببطء. كان قائد القراصنة ينظر إليهم بلا حراك، وعيناه الزرقاوان الشاحبتان لا ترمشان مثل عيني قِطْ أمام طاقمه الجامح.

قال يابو وازداد صوته حدة وهو يفكر في المتعة التي وعد نفسه بها: «أريد الصعود إلى متن السفينة أولاً يا أومي سان. ثم سنبدأ. أريد أن أبدأ بالرجل ذي الشعر الأحمر في نهاية الصف، الرجل القصير».

انحنى أومي مقترباً منه وخفض صوته المتحمس: «عفوًا ولكن هذا لم يحدث من قبل يا سيدي. ليس منذ أن أتى الهمج البرتغاليون إلى هنا. أليس الصليب رمزهم المقدس؟ ألا يكونون دائماً متواضعين تجاه كهنتهم؟ ألا يركعون لهم علانية؟ تمامًا مثل مسيحيينا؟ أليس للكهنة سيطرة تامة عليهم؟».

- تطرق إلى صلب الموضوع.

- نحن جميعاً نكره البرتغاليين يا سيدي. باستثناء المسيحيين بيننا، أليس كذلك؟ ربما يكون هؤلاء الهمج أكثر قيمة لك أحياناً من موتى.

- كيف؟

- لأنهم فريدون من نوعهم. إنهم معادون للمسيحية! ربما يستطيع رجل حكيم أن يجد طريقة لاستخدام كراهيتهم -أو عدم تدينهم- لمصلحتنا. إنهم ملكيتك لتتصرف بهم كما تشاء. أليس كذلك؟

فكر يابو: بلى، وأنا أريد تعذيبهم، ولكن يمكنك التمتع بذلك في أي وقت تشاء. استمع إلى أومي. إنه مستشار جيد. ولكن هل يمكن الوثوق به الآن؟ هل لديه سبب خفي لقول هذا؟ فكر.

- إن أيكوا جيكيو مسيحي.

سمع ابن أخيه يقول مشيرًا إلى عدوه اللدود -أحد أقارب إيشيدو وحلفائه- الذي يوجد على حدوده الغربية. أضاف أومي بلباقة: «أليس لهذا الكاهن القذر موطن هناك؟ ربما يستطيع هؤلاء الهمج منحك المفتاح لفتح مقاطعة إيكوا بأكملها. ربما مقاطعة إيشيدو أيضًا. وربما حتى مقاطعة الزعيم توراناغا».

تفحص يابو وجه أومي محاولًا استكشاف ما يدور في ذهنه. ثم حول نظره إلى السفينة. لم يعد يشك الآن في أنها أرسلت من قبل الآلهة. نعم. ولكن هل كانت نعمة أم نقمة؟

قرر تأجيل متعته الشخصية من أجل ضمان أمن عشيرته: «أتفق معك. ولكن أولًا أخضع هؤلاء القراصنة. علّمهم الأدب. وبخاصة ذلك الرجل».

تمتم فينك: «يا إلهي، لا أريد الموت».

قال فان نيك: «يجب أن نتلو صلاة».

- لقد تلونا صلاة للتو.

- ربما من الأفضل أن نتلو صلاة أخرى. يا أبانا الذي في السموات، أتمنى لو كانت لدي جرعة من البراندي.

حُشر الرجال في قبو عميق، وهو واحد من عديد من الأقبية التي يستخدمها الصيادون لتخزين الأسماك المجففة تحت أشعة الشمس. طردهم الساموراي من الساحة، نزولًا عبر سلم، والآن أصبحوا محبوسين تحت الأرض. يبلغ طول القبو نحو أربعة أمتار تمامًا مثل عرضه وعمقه ثلاثة أمتار، مع أرضية وجدران ترابية. السقف مصنوع من ألواح خشبية وفوقها طبقة من التراب مع باب مخفي مثبت في الأعلى.

- ابتعد عن قدمي أيها القرد اللعين!

قال بيترزون بود: «اصمت يا لعين. مهلاً يا فينك، تحرك قليلاً للأعلى، يا أيها العجوز الخرف عديم الأسنان، لديك مساحة أكبر من أي شخص آخر، بحق الرب، أتمنى لو كانت لدي بيرة باردة، تحرك».

- لا أستطيع يا بيترزون. نحن في مكان ضيق كجحر الأرنب هنا.

قال ماتسوكر: «هذا بسبب قائد الأسطول. لديه كل المساحة. ادفعه قليلاً. أيقظه».

- ماذا يحدث؟ اتركوني وشأني. ما الأمر؟ أنا مريض، أحتاج إلى الاستلقاء. أين نحن؟

- اتركوه وشأنه. إنه مريض. هيا يا ماتسوكر، تحرك!

جر فينك ماتسوكر بغضب إلى أعلى ودفعه ضد الحائط. لا يوجد متسع كافٍ لهم جميعاً للاستلقاء، أو حتى الجلوس براحة، في الوقت نفسه كان قائد الأسطول بولس سبيلبرجين، مستلقياً بكل طوله تحت فتحة الباب حيث يوجد أفضل تهوية، ورأسه موضوعٌ على عباءته الملفوفة. كان بلاكتورن يتكئ على إحدى الزاويا ويحدق إلى فتحة الباب. تركه الطاقم وشأنه وابتعدوا عنه بحذر قدر الإمكان، مدركين من خبرتهم الطويلة بمزاجه والعنف الكامن والمتفجر الذي يتربص دائماً تحت سلوكه الخارجي الهادئ.

فقد ماتسوكر أعصابه ولكم فينك بقبضته في فخذيه: «اتركني وشأني وإلا فسأقتلك أيها الوغد».

هاجمه فينك، لكن بلاكتورن أمسك بهما وضرب رأسيهما بالحائط.

قال بهدوء: «اصمتوا جميعاً. (فعلوا ما أمرهم به): سنتناوب. مجموعة تنام، ومجموعة تجلس، ومجموعة تقف. سيستلقي سبيلبرجين حتى يشفى. تلك الزاوية هي المرحاض».

قسمهم بلاكتورن إلى مجموعات. أصبح الوضع أكثر احتمالاً عندما أعادوا ترتيب أنفسهم.

فكر بلاكتورن: يجب أن نخرج من هنا في غضون يوم أو سنصبح ضعفاء للغاية. عندما يعيدون السلم لإعطائنا طعاماً أو ماء. يجب أن يكون ذلك الليلة أو ليلة الغد. لماذا وضعونا هنا؟ نحن لا نشكل أي تهديد لهم. يمكننا مساعدة

الدايميو، هل سيفهم؟ كانت هذه طريقتي الوحيدة لإخباره أن الكاهن هو عدونا الحقيقي. هل سيفهم؟ لقد فهم الكاهن.

لقد قال الأب سيباستياو بهدوء شديد: «ربما يغفر الرب لك تدنيسك للمقدسات، لكنني لن أفعل. لن أستريح أبدًا حتى تُدمر أنت وشرك».

كان العرق يتصبب على خديه وذقنه. مسحه بذهن شارد، وأذناه متأهبتان للصوت الصادر من القبو كما هو الحال عندما كان على متن السفينة نائمًا، أو خارج الخدمة وشاردًا؛ فقط بما يكفي لمحاولة سماع الخطر قبل وقوعه.

يجب أن نخرج ونستولي على السفينة. أتساءل عما تفعله فيليسيستي والأطفال. لنز، تيودور يبلغ من العمر سبع سنوات الآن وإليزابيث... نحن على بعد عام واحد وأحد عشر شهرًا وستة أيام من أمستردام، نضيف سبعة وثلاثين يومًا للتزويد بالمؤن والمجيء من تشاتام إلى هناك، ونضيف أخيرًا الأحد عشر يومًا بعد ولادتها قبل الإبحار من تشاتام. هذا هو عمرها بالضبط إذا كان كل شيء على ما يرام. يجب أن يكون كل شيء على ما يرام. ستقوم فيليسيستي بالطبخ والحراسة والتنظيف والدردشة بينما يكبر الأطفال، أقوياء وشجعان مثل أمهم. سيكون من الرائع العودة إلى الوطن مرة أخرى، والمشي معًا على طول الشاطئ وفي الغابات والمروج والجمال الذي تتميز به إنجلترا. درب نفسه على مر السنين على التفكير فيهم كشخصيات في مسرحية، أشخاص تحبهم وتضحى من أجلهم، المسرحية التي لا تنتهي أبدًا. وإلا فإن ألم البعد سيكون لا يطاق. بالكاد استطاع أن يحسب أيام وجوده في المنزل خلال الأحد عشر عامًا من الزواج. فكر: قليلة جدًا، جدًا. كان أخبرها من قبل: «إنها حياة صعبة للمرأة يا فيليسيستي». فردت عليه: «كل الحيوانات صعبة للمرأة». كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا حينها، وكانت طويلة وشعرها طويل و... حذرت أذناه.

كان الرجال يجلسون أو يتكئون أو يحاولون النوم. كان فينك وبيترزون صديقين حميمين يتحدثان بهدوء. كان فان نيك يحدق إلى الفضاء مع الآخرين. وكان سيلبرجين نصف نائم، واعتقد بلاكثورن أن الرجل كان أقوى مما يظن الجميع.

خيم صمت مفاجئ عندما سمعوا خطوات في الأعلى. توقفت الخطوات. ثم سمعوا أصواتًا مكتومة باللغة القاسية ذات النطق الغريب. ظن بلاكثورن أنه

يتعرف على صوت الساموراي، أومي سان؟ نعم، هذا كان اسمه. لكنه لم يكن متأكدًا. توقفت الأصوات واختفت الخطوات بعد لحظة.
قال سونك: «هل تعتقد أنهم سيُطعموننا يا ربان؟»
- نعم.

قال بيترزون: «أريد شرابًا. بيرة باردة، بحق الرب».
قال فينك: «اصمت، أنت تكفي لجعلنا نتصب عرقًا».
كان بلاكتورن مدرِّكًا لقميصه المبتل والرائحة الكريهة. أريد أن أستحم بحق الرب. فكر وابتسم فجأة متذكرًا.

كان مورا والآخرون قد حملوه إلى الغرفة الدافئة في ذلك اليوم ووضعوه على مقعد حجري، وكانت أطرافه لا تزال مخدرة وبطيئة الحركة. وبدأن النساء الثلاث بقيادة العجوز في خلع ملابسه وكان قد حاول إيقافهن، لكن في كل مرة يتحرك، كان أحد الرجال يطعنه في عصب ما ويجعله عاجزًا، وبغض النظر عن مدى غضبه ولعنه، فإنهن واصلن خلع ملابسه حتى أصبح عاريًا. لم يكن الأمر أنه يخجل من الظهور عاريًا أمام امرأة، بل لأن خلع الملابس كان يتم دائمًا على انفراد وهذا هو العرف. ولم يكن يحب أن تُخلع ملابسه من قبل أي شخص، ناهيك بهؤلاء السكان الأصليين الهمج. لكن أن تُخلع ملابسه علنًا كطفل عاجز، ويُغسل في كل مكان مثل طفل بالماء الدافئ والصابون المعطر بينما كن يتحدثن وبيتسمن وهو مستلقٍ على ظهره، كان ذلك أكثر من اللازم. ثم خرج جسده عن سيطرته وبقدر ما حاول منع حدوث ذلك، كلما ازداد الأمر سوءًا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، لكن النساء لم يعتقدن ذلك. اتسعت أعينهن وبدأ هو يحمر خجلًا. يا إلهي لا يمكنني أن أحمر خجلًا، لكنه فعل ويبدو أن هذا زاد الأمر سوءًا، وصفقت المرأة العجوز بيديها بدهشة وقالت شيئًا أومأ له جميعًا وهزت رأسها بذهول وقالت شيئًا آخر أومأ له أكثر.

قال مورا بجدية كبيرة: «يا قبطان سان، إن أومي سان تشكر، لقد منحتها أفضل أيام حياتها، والآن يمكنها أن تموت وهي سعيدة».

وانحنى الجميع معًا، ثم هو بنفسه أدرك مدى طرافة الموقف وانفجر ضاحكًا. صُدموا في البداية، ثم انضموا إليه بالضحك أيضًا، واستنزف ضحكه قوته قليلًا. شعرت العجوز بالحزن قليلًا وأخبرته بذلك، مما جعله يضحك أكثر وكذلك الآخرون. بعد ذلك وضعوه برفق في حوض الاستحمام الكبير ذي

المياه الساخنة، وسرعان ما لم يعد يستطيع تحمّل درجة الحرارة، فأخرجوه وأجلسوه على المقعد مرة أخرى وهو يلهث. جففته النساء، ثم أتى رجل عجوز أعمى. لم يكن بلاكثورن يعرف شيئاً عن التدليك. في البداية حاول مقاومة لمساته، ولكن بعد ذلك سحرته مهارته وسرعان ما أصبح يصدر أصوات استرخاء مثل الهرة عندما وجدت تلك الأصابع عقد عضلاته وفكّت سريان الدم أو الطاقة التي كانت تكمن تحت الجلد والعضلات والأوتار.

ثم ساعده على الخلود إلى الفراش وهو يشعر بضعف غريب، ونصفه نائم، وكانت الفتاة موجودة. كانت صبورة معه، وبعد أن نام واستعاد قوته، عاملها برفق رغم مرور وقت طويل.

لم يسأل بلاكثورن عن اسمها، وفي الصباح عندما أيقظه مورا من النوم وهو متوتر وخائف للغاية، كانت قد اختفت.

تنهد بلاكثورن وفكر: الحياة عجيبة.

في القبو، كان سبيلبرجين يشكو مجدداً، وكان ماتسوكر يعتني برأسه ويثن، ليس من الألم ولكن من الخوف، وكان الفتى كروك على وشك الانهيار، وقال يان روبر: «ما الذي يدعو للابتسام يا ربان؟».

- اذهب إلى الجحيم.

قال فان نيك بحذر، معلناً عما كان يدور في أذهانهم جميعاً: «مع كامل احترامي لك يا ربان، ولكن كان من غير الحكمة أن تهاجم الكاهن أمام ذلك الأصفر اللعين».

كان هناك نوع من الإجماع على رأيه ولكن بتحفظ.

- لو لم تفعل ذلك، لا أعتقد أننا كنا سنصبح في هذه الفوضى اللعينة.

لم يقترب فان نيك من بلاكثورن: «كل ما كان عليك فعله هو خفض رأسك في التراب عندما يكون الزعيم الحقيّر موجوداً وعندها سيكونون مثل الحملان الوديع». انتظر ردًا لكن بلاكثورن لم يرد، بل التفت مرة أخرى إلى فتحة الباب. كان الأمر كأن شيئاً لم يُقل. ازداد قلقهم.

رفع بولس سبيلبرجين نفسه على مرفقه بصعوبة: «عمّ تتحدث يا باكوس؟».

ذهب فان نيك إليه وشرح له عن الكاهن والصليب وما حدث ولماذا هم هنا، وكانت عيناه تؤلّمانه اليوم أكثر من أي وقت مضى.

قال سبيلبرجين: «نعم، كان ذلك خطرًا يا ربان. نعم، أقول إنه خطأ تمامًا. أعطني بعض الماء. الآن لن يمنحنا اليسوعيون أي راحة على الإطلاق».

قال يان روبر: «كان يجب أن تكسر رقبتك يا ربان. اليسوعيون لن يمنحونا السلام على أي حال، إنهم حشرات قذرة، ونحن هنا في هذه الحفرة النتنة كعقاب من الرب».

قال سبيلبرجين: «هذا كلام فارغ يا روبر، نحن هنا لأن...».

- إنه عقاب من الرب! كان يجب أن نحرق كل الكنائس في سانتا ماجدالينا، ليست اثنتين فقط. كان يجب أن نفعل ذلك. إنها بؤر الشيطان!

ضرب سبيلبرجين ذبابة بضعف: «كانت القوات الإسبانية تتجمع وكانوا متفوقين علينا عددًا بخمس عشرة سفينة مقابل واحدة. أعطني بعض الماء! نهبنا المدينة وحصلنا على الغنائم وفررنا أنوفهم في التراب. لو بقينا لكنا قد قُتلنا. بحق الرب فليعطني أحكم ماء. كنا جميعًا سنقتل لو لم ننسحب...».

- ما الذي يهم إذا كنت تقوم بخدمة الرب؟ لقد خذلناه.

قال فان نيك محاولًا تهدئة روبر، لأنه كان رجلًا صالِحًا رغم تعصبه، وتاجرًا ذكيًا وابن شريكه: «ربما نحن هنا لنخدم الرب. ربما يمكننا أن نظهر للسكان الأصليين هنا أخطاء طرقهم الكاثوليكية. ربما يمكننا جعلهم يعتنقون الإيمان الحقيقي».

قال سبيلبرجين. وكان لا يزال يشعر بالضعف لكن قوته كانت تعود تدريجيًا: «صحيح تمامًا، أعتقد أنك كان يجب أن تستشير باكوس يا ربان. فهو التاجر الرئيسي بعد كل شيء. إنه بارع جدًا في التفاوض مع الهمج. قلت لكم أعطوني الماء».

زاد ضيق فان نيك: «لا يوجد ماء يا بولس. لم يقدموا لنا طعامًا ولا ماء. ليس لدينا حتى وعاء للتبول فيه».

- إذن لتطلب وعاء، وبعض الماء. يا إلهي، أنا ظمآن. اطلب الماء، أنت! سأل فينك: «أنا؟».

- نعم أنت.

نظر فينك إلى بلاكتورن لكن بلاكتورن كان يراقب فتحة الباب غير واع، لذلك وقف فينك تحت الفتحة وصاح: «مرحبًا! أنتم في الأعلى! أعطونا ماءً لعينًا، نريد الطعام والماء».

ليس هناك جواب. لذا صرخ مرة أخرى. لا جواب. بدأ الآخرون يشاركونه الصراخ تدريجياً. الكل باستثناء بلاكثورن. سرعان ما تسرب الرعب والغثيان الناتجان عن احتجازهم في مكان ضيق إلى أصواتهم وبدؤوا يعوون مثل الذئاب.

فُتِح الباب. نظر أومي إليهم. وبجانبه مورا والكاهن.

سرعان ما عادوا جميعاً للصراخ: «ماء! وطعام، بحق الرب، أخرجونا من هنا».

أشار أومي إلى مورا الذي أوماً برأسه وغادر. بعد لحظة عاد مورا ومعه صياد آخر يحملان برميلاً كبيراً بينهما. أفرغا محتوياته -بقايا أسماك متعفنة ومياه بحر- على رؤوس السجناء.

تفرق الرجال في القبو محاولين الهرب، لكن لم ينجح أحد. كان سبيلبرجين يختنق وكاد يغرق. انزلق بعض الرجال وتعرضوا للدهس. لم يتحرك بلاكثورن من الزاوية. لقد حرق فقط إلى أومي بكُره.

ثم بدأ أومي بالكلام. ساد صمت ثقيل الآن، يقطعه فقط السعال وتقيؤ سبيلبرجين. عندما انتهى أومي، اقترب الكاهن بقلق إلى الفتحة.

- هذه هي أوامر كاسيجي أومي: ستبدؤون في التصرف كبشر محترمين. لن تصدروا أي ضوضاء أخرى. ولكن إذا فعلتم، فسيُسكب خمسة براميل في المرة القادمة في القبو. ثم عشرة، ثم عشرون. ستزودون بالطعام والماء مرتين في اليوم. وعندما تتعلمون كيف تتصرفون سيُسمح لكم بالصعود إلى عالم البشر. لقد عفا الزعيم يابو عن حياتكم جميعاً بفضل، بشرط أن تخدموه بإخلاص. باستثناء واحد. سيموت واحد منكم عند الغسق. عليكم أن تختاروا من سيكون. لكن أنت... (أشار إلى بلاكثورن): لا يجب أن تكون أنت المختار.

تنفس الكاهن بعمق وهو يشعر بعدم الارتياح، وانحنى قليلاً للساموراي ثم تراجع للخلف.

ألقي أومي نظرة إلى أسفل الحفرة. رأى عيني بلاكثورن وشعر بالكراهية التي يكنّها له. فكر أنه سيحتاج إلى الكثير لقهر إرادة هذا الرجل. لا يهم. يوجد متسعٌ من الوقت. أغلق الباب بقوة.

الفصل الثالث

استلقى يابو في الحمام الساخن، يغمره الارتياح والثقة على نحو لم يسبق له مثيل في حياته. كشفت السفينة عن ثرائها، وهذا الثراء منحه قوة لم يكن يحلم بها.

لقد أمر قائلاً: «أريد أن يُنقل كل شيء إلى الشاطئ غداً. أعدوا تغليف البنادق في صناديقها. وغطوا كل شيء بالشباك أو الخيش لإخفائه».

فكر يابو منتشياً: خمسمائة بندقية، مع كمية من البارود والرصاص تفوق ما يمتلكه توراناغا في جميع المقاطعات الثماني. وعشرون مدفعاً، وخمسة آلاف قذيفة مدفع مع وفرة من الذخيرة. وصناديق مليئة بالسهام النارية. كلها من أفضل جودة أوروبية: «ستوفر الحمالين يا مورا. وأنت يا إيجوراشي سان، أريد كل هذه الأسلحة، بما في ذلك المدافع، في قصري في ميشيما على الفور، بسرية. ستكون أنت المسؤول».

- حسناً يا سيدي.

كانوا في عنبر السفينة الرئيسي، وقد حرق الجميع إليه بفاه مفتوح: إيجوراشي، الرجل الطويل النحيل ذو العين الواحدة، وهو كبير موظفيه، وزوكيموتو أمين المخازن لديه، بالإضافة إلى عشرة قرويين ملطخين بالعرق فتحوا الصناديق تحت إشراف مورا، وحرسه الشخصي المكون من أربعة من الساموراي. كان يعلم أنهم لا يفهمون نشوته أو الحاجة إلى السرية. فكر: جيد.

عندما اكتشف البرتغاليون اليابان لأول مرة عام 1542، عرفوهم على البنادق والبارود. وخلال ثمانية عشر شهراً كان اليابانيون يصنعونها. الجودة لم تقارب الجودة الأوروبية على الإطلاق، لكن هذا لم يهم لأن البنادق كانت تُعتبر مجرد تقنية جديدة، وكانت تُستخدم فقط للصيد لوقت طويل، وحتى للصيد كانت الأقواس أكثر دقة. والأهم من ذلك أيضاً أن الحرب اليابانية كانت

تقريبًا طقسية؛ قتال فردي وجهًا لوجه، حيث يُعد السيف هو السلاح الأكثر شرفًا. كان استخدام البنادق يُعتبر جُبْنًا وغير مشرّف، ويتعارض تمامًا مع شريعة الساموراي، (البوشيدو) مذهب المحارب، الذي يلزم الساموراي بالقتال بشرف والعيش بشرف والموت بشرف، كما تشمل هذه الشريعة الولاء الذي لا يتزعزع ولا يرقى إليه شك لزعيمه الإقطاعي، وألا يخافوا الموت، بل وحتى أن يسعوا إليه في سبيل خدمته، وأن يفخروا باسمهم ويحافظوا عليه دون تشويه.

لسنوات عديدة كانت لدى يابو نظرية سرية. فكر بانتشاء: أخيرًا، يمكنك توسيعها ووضعها موضع التنفيذ: خمسمائة ساموراي مختار، مسلحون بالبنادق ولكن مدربون كوحدة، يقودون قواتك النظامية المكونة من اثني عشر ألف جندي، بدعم من عشرين مدفعًا تُستخدم بطريقة خاصة من قبل رجال خاصين، ومدربين أيضًا كوحدة. استراتيجية جديدة لعهد جديد، يمكن أن تكون البنادق حاسمة في الحرب القادمة.

كانت أشباح أسلافه تسأله دائمًا: ماذا عن مبادئ البوشيدو؟

كان هو دائمًا يسألهم في المقابل: ماذا عن مبادئ البوشيدو؟
لم يجيبوا عن سؤاله قط.

لم يكن يابو يتصور في أحلامه الأكثر جنونًا أنه سيقدر يومًا ما على امتلاك خمسمائة بندقية. ولكن الآن أصبحت ملكًا له دون مقابل، وهو الوحيد الذي يعرف كيفية استخدامها. ولكن إلى جانب من سيستخدمها؟ هل يوالي توراناغا أم إيشيدو؟ أم عليه أن ينتظر، وربما يصبح هو المنتصر النهائي؟

- ستسافر ليلاً وتلتزم بأقصى درجات السرية يا إيجوراشي سان.

- حسنًا يا زعيم.

- يجب أن يظل هذا سرًا يا مورا، وإلا ستُمحى القرية من الوجود.

- لن يُقال شيء يا زعيم. أستطيع التحدث نيابةً عن قريتي. لكن لا أستطيع التحدث نيابةً عن الرحلة أو عن القرى الأخرى. من يدري أين يوجد الجواسيس؟ لكننا لن نقول شيئًا.

بعد ذلك توجه يابو إلى غرفة المؤن. كانت تحتوي على ما افترض أنه غنائم قراصنة: أطباق وأكواب وشمعدانات وحُلي من الفضة والذهب، وبعض

اللوحات الدينية بإطارات مزخرفة. كما يوجد صندوق يحتوي على ملابس نسائية مطرزة بإتقان بخيوط ذهبية وأحجار ملونة. قال زوكيموتو: «سأذيب الفضة والذهب وأصنع منها سبائك وأضعها في الخزانة».

كان رجلًا أنيقًا ودقيقًا في الأربعينيات من عمره وليس ساموراي. قبل سنوات، كان راهبًا محاربًا بوذيًا، لكن قضى التايكو على ديره في حملة لتطهير البلاد من بعض الأديرة والطوائف البوذية المقاتلة المتشددة التي لم تعترف بسيادته المطلقة. استخدم زوكيموتو الرشوة ليخرج من الموت المحتوم في ذلك الوقت وأصبح بائعًا متجولًا، ثم تحول في النهاية إلى تاجر صغير للأرز. انضم قبل عشر سنوات إلى إدارة المؤن الخاصة بيابو، وأصبح الآن لا غنى عنه: «أما بالنسبة للملابس، فربما يكون للخيوط الذهبية والأحجار الكريمة قيمة. سأقوم بعد أن تأذن لي بتعبئتها وإرسالها إلى ناجازاكي مع أي شيء آخر يمكنني إنقاذه. قد يدفع الهمج ثمنًا جيدًا مقابل هذه الأشياء التافهة».

كان ميناء ناجازاكي الواقع على الساحل الجنوبي لأقصى جزيرة كيوشو الجنوبية، الميناء التجاري القانوني وسوق تجارة البرتغاليين.

- جيد. ماذا عن البضائع الموجودة في عنبر السفينة الآخر؟

- كلها تحتوي على قماش ثقيل. عديمة الفائدة بالنسبة لنا يا سيدي، ولا قيمة سوقية لها على الإطلاق. ولكن هذا يمكن أن يرضيك.

فتح زوكيموتو صندوق السفينة.

احتوى الصندوق على عشرين ألف قطعة نقدية فضية مسكوكة. كانت عملات إسبانية ذهبية من أفضل جودة.

تحرك يابو في حوض استحمامه. مسح العرق من وجهه ورقبته بالمنشفة البيضاء الصغيرة، وانغمس أعمق في الماء الساخن المعطر. قال لنفسه: إذا أخبرني أيُّ عرَّاف قبل ثلاثة أيام أن كل هذا سيحدث، لكنت قطعت لسانه وجعلته يأكله لتفوهه بهذه الأكاذيب المستحيلة.

قبل ثلاثة أيام كان يابو في إيدو، عاصمة توراناغا. وصلتته رسالة أومي عند الغسق. كان من الواضح أنه يجب التحقق من السفينة على الفور، لكن توراناغا كان لا يزال في أوساكا للمواجهة الأخيرة مع القائد الزعيم إيشيدو،

وفي غيابه دعا يابو وجميع الدايميو المجاورين الودودين للانتظار حتى عودته. لم يكن من الممكن رفض مثل هذه الدعوة دون عواقب وخيمة. عرف يابو أن وجوده هو والدايميو المستقلين الآخرين وعائلاتهم لم يكن سوى حماية إضافية لسلامة تورانا، ورغم أنه بالطبع لم يُستخدم هذا المصطلح مطلقاً، فإنهم كانوا بمنزلة رهائن لضمان عودة تورانا الآمنة من قلعة العدو الحصينة في أوساكا حيث كان الاجتماع يُعقد. كان تورانا رئيساً لمجلس الوصاية الذي عينه التايكو على فراش الموت لحكم الإمبراطورية حتى يبلغ ابنه ذو السنوات السبع سن الرشد. وكان المجلس يتكون من خمسة أوصياء، جميعهم من الدايميو البارزين، لكن فقط تورانا وإيشيدو من كانا يملكان سلطة حقيقية.

فكر يابو ملياً في كل أسباب الذهاب إلى أنجيرو، والأخطار المترتبة على ذلك، وأسباب البقاء. ثم أرسل لطلب زوجته وخليلته المفضلة. كانت الخلية هي عشيقة رسمية قانونية. يمكن للرجل أن يكون له أي عدد يشاء من الخليلات، ولكن زوجة واحدة فقط في الوقت نفسه.

- أرسل ابن أخي أومي للتو رسالة سرية تفيد بأن سفينة همجية قد رست على شاطئ أنجيرو.

سألت زوجته بحماس: «هل هي من السفن السوداء؟».

كانت هذه السفن التجارية الضخمة الغنية جداً التي تبحر سنوياً مع الرياح الموسمية بين ناجازاكي ومستعمرة البرتغاليين في ماكاو التي تقع على بُعد قرابة ألف وستمائة كيلومتر جنوباً على البر الرئيسي للصين.

- لا. لكنها قد تكون غنية. سأغادر على الفور. قل لي إنني مرضت ولا يجب إزعاجي لأي سبب من الأسباب. وسأعود بعد خمسة أيام.

حذرت زوجته: «هذا أمر غاية في الخطورة. لقد أصدر الزعيم تورانا أوامر صريحة لنا بالبقاء. أنا متأكدة أنه سيتوصل إلى حل وسط آخر مع إيشيدو، وهو قوي جداً بحيث لا يمكن إغضابه يا سيدي، لا يمكننا أبداً أن نضمن عدم شك أحدهم بالحقيقة، يوجد جواسيس في كل مكان. إذا عاد تورانا ووجدك قد غادرت، فسيُساء تفسير غيابك. سيسمم أعداؤك عقله ضدك».

وأضافت خليلته: «نعم، أرجو المَعذرة، لكن يجب أن تصغي إلى السيدة زوجتك. فهي محقة. لن يصدق الزعيم توراناغا أبدًا أنك عصيته لمجرد الذهاب لرؤية سفينة همجية. أرسل شخصًا آخر رجاءً».

- ولكن هذه ليست سفينة همجية عادية. إنها ليست برتغالية. استمع لي. يقول أومي إنها من دولة مختلفة. هؤلاء الرجال يتحدثون لغة مختلفة فيما بينهم ولديهم أعين زرقاء وشعر ذهبي.

قالت زوجته: «لقد جن أومي سان أو أنه شرب الكثير من الساكي».

- هذا أمر مهم للغاية بحيث لا يمكن المزاح بشأنه، بالنسبة له ولك.

انحنت زوجته واعتذرت وقالت إنه محق تمامًا في تصحيحها، لكن التعليق لم يكن مزاحًا. لقد كانت امرأة نحيفة صغيرة تكبره بعشر سنوات، أنجبت له طفلًا كل عام لمدة ثماني سنوات حتى جف رحمها. ومن بين هؤلاء، خمسة ذكور. أصبح ثلاثة منهم محاربين وماتوا بشجاعة في حرب الصين. أصبح آخر كاهنًا بوذيًا، والآخر الذي يبلغ الآن التاسعة عشرة، فهو يكرهه.

زوجته السيدة يوريكو كانت المرأة الوحيدة التي يخاف منها، والمرأة الوحيدة التي كان يقدرها على الإطلاق - باستثناء والدته المتوفاة الآن - وكانت تحكم منزله بسلطة هائلة.

قالت: «أرجو أن تعذرني مجددًا ولكن هل يذكر أومي سان تفاصيل البضائع؟».

- لا. لم يفحصها يا يوريكو سان. يقول إنه أغلق السفينة على الفور لأنها كانت غريبة للغاية. لم تصل إلى اليابان سفينة غير برتغالية قط، أليس كذلك؟ يقول أيضًا إنها سفينة حربية. بها عشرون مدفعًا.

- حسنًا. إذن يجب أن يذهب شخص ما على الفور.

- سأذهب بنفسِي.

- أرجوك أعد التفكير. أرسل ميزونو. إن أخاك ذكيًا وحكيمًا. أتوسل إليك ألا تذهب.

- ميزونو ضعيف ولا يمكن الوثوق به.

قالت بحدة: «إذن، أوْمَرُه بأن يقوم بالسيبوكو ولتنتهِ الأمور على هذا النحو».

السيبوكو أو ما يُسمى أحياناً بالهारा كيري هو الانتحار الطقسي عن طريق قطع الأحشاء وكانت الطريقة الوحيدة التي يستطيع الساموراي من خلالها التكفير عن العار أو الخطيئة أو الذنب بشرف، وكان الامتياز الوحيد لطبقة الساموراي. جميع الساموراي -النساء وكذلك الرجال- كانوا مستعدين منذ الصغر، إما للفعل نفسه وإما للمشاركة في الاحتفال كمساعد (ثانٍ). كانت النساء ينتحرن بطريقة السيبوكو فقط باستخدام سكين لقطع الحلق. قال يابو لزوجته: «لاحقاً، ليس الآن».

- إذن أرسل زوكيموتو. هو بالتأكيد موثوق به.

- لو لم يأمر الزعيم توراناغا جميع الزوجات والخيلات بالبقاء هنا أيضاً، لأرسلتك أنت. لكن هذا سيكون غاية في الخطورة. يجب أن أذهب. ليس لدي خيار. أنت تخبريني أن خزينتي فارغة يا يوريكو سان. وتضيفين إنني لم أعد أملك أي رصيد لدى المرابين القذرين. ويقول زوكيموتو إننا نحصل على الحد الأقصى للضرائب من الفلاحين. يجب أن أحصل على مزيد من الخيول والعتاد والأسلحة ومزيد من الساموراي. ربما توفر السفينة الوسيلة لذلك.

- كانت أوامر الزعيم توراناغا واضحة تماماً يا سيدي. إذا عاد ووجد...

- نعم. إذا عاد يا سيدتي. ما زلت أعتقد أنه وضع نفسه في فخ. يمتلك الزعيم إيشيدو ثمانين ألف ساموراي داخل وحول قلعة أوساكا وحدها. أن يذهب توراناغا إلى هناك مع بضع مئات من الرجال كان فعل مجنون.

قالت بثقة: «إنه أذكى من أن يخاطر بنفسه دون داع».

- لو كنت إيشيدو وأمكنني الإمساك به، لقتلته على الفور.

قالت يوريكو: «نعم. لكن والده الوريث لا تزال رهينة في أيدي حتى يعود توراناغا. لن يجرؤ القائد الزعيم إيشيدو على المساس بتوراناغا حتى تعود بأمان إلى أوساكا».

- سأقتله. فلا يهم سواء كانت السيدة أوتشيبا على قيد الحياة أم لا. فإن الوريث آمن في أوساكا. وستكون الخلافة مؤكدة مع مقتل توراناغا. فهو التهديد الحقيقي الوحيد للوريث، الوحيد الذي لديه فرصة لاستخدام مجلس الوصاية والاستيلاء على سلطة التايكو وقتل الصبي.

قالت خليلته: «معدرةً يا سيدي، ولكن ربما يستطيع الزعيم إيشيدو أن يأخذ الأوصياء الثلاثة الآخرين من مجلس الوصاية معه ويعزل الزعيم توراناغا عن منصبه، وتنتهي بذلك قصة توراناغا، أليس كذلك؟».

- نعم يا سيدتي، لو استطاع إيشيدو تحقيق ذلك لكان قد فعل، لكنني لا أعتقد أنه يستطيع ذلك -بعد- ولا يستطيع توراناغا أيضًا. لقد اختار التايكو الأوصياء الخمسة بذكاء شديد. فهم يحتقرون بعضهم بعضًا لدرجة يصعب عليهم تقريبًا الاتفاق على أي شيء.

أقسم الدايملو العظماء الخمس علنًا قبل تولي السلطة بالولاء الأبدي للتايكو الراحل وابنه وذريته إلى الأبد. كما أدوا قسمًا علنيًا مقدسًا بالموافقة على الحكم بالإجماع في المجلس، وتعهدوا بتسليم المملكة سليمة إلى يايمون عندما يبلغ سن الرشد في عيد ميلاده الخامس عشر: «الحكم بالإجماع يعني أنه لا يمكن تغيير أي شيء حقًا حتى يرث يايمون العرش».

- ولكن في يوم من الأيام يا سيدي، سيتحالف أربعة من الأوصياء ضد واحد -بدافع الغيرة أو الخوف أو الطموح- أليس كذلك؟ سيحرف الأربعة وأمر التايكو بما يكفي لإشعال حرب، أليس كذلك؟

- بلى. لكنها ستكون حربًا صغيرة يا سيدتي، والخاسر منهم سيُسحق دائمًا وتُقسم أراضيهِ من قبل المنتصرين، الذين سيضطرون بعد ذلك إلى تعيين وصي خامس، ومع مرور الوقت، سيصبح الأمر أربعة ضد واحد ومرة أخرى سيُسحق الواحد وتُصادر أراضيهِ. كل ذلك كما خطط التايكو. مشكلتي الوحيدة هي تحديد من سيكون هذا الواحد هذه المرة... إيشيدو أم توراناغا؟

- سيكون توراناغا هو المعزول.

- لماذا؟

- الآخرون يخافونه كثيرًا لأنهم جميعًا يعلمون أنه يطمح سرًا لأن يصبح شُوجِن، بغض النظر عن مدى إنكاره لذلك.

الشُوجِن هو أعلى رتبة يمكن أن يحققها إنسان في اليابان. شُوجِن يعني الدكتاتور العسكري الأعلى. لا يمكن إلا لدايميو واحد في المرة أن يمتلك اللقب. وكان سمو الإمبراطور ابن السماء الإلهي الذي يعيش في عزلة مع العائلات الإمبراطورية في كيوتو، هو الوحيد الذي يستطيع منح اللقب.

ومع حصول المرء على لقب شُوجَن تأتي القوة المطلقة: ختم الإمبراطور وتفويضه. يحكم الشُوجَن باسم الإمبراطور. كل القوة كانت مستمدة من الإمبراطور لأنه كان ينحدر مباشرة من الآلهة. لذلك فإن أي دايملو يعارض الشُوجَن يعتبر متمرّدًا تلقائيًا على العرش، ويصبح منبوذًا على الفور وتُصادر جميع أراضيّه.

كان الإمبراطور الحاكم يُعبد كإله لأنه ينحدر من سلالة لا تنقطع من إلهة الشمس أماتيراسو أوميكامي، وهي إحدى أبناء الإلهين إزاناجي وإزانامي، اللذين شكّلَا جزر اليابان من السماء. وبحق إلهي، امتلك الإمبراطور الحاكم كل الأراضي وحكم وأطيع دون مناقشة. ولكن من الناحية العملية، ولأكثر من ستة قرون، كانت القوة الحقيقية تكمن وراء العرش.

حدث انشقاق قبل ستة قرون عندما قامت اثنتان من عائلات الساموراي الثلاث الكبرى المتنافسة وشبه الملكية، مينووارا وفوجيموتو وتاكاشيما، بدعم مطالبات متنازعة بالعرش وأغرقتا المملكة في حرب أهلية. بعد ستين عامًا، انتصرت عائلة مينووارا على عائلة تاكاشيما، بينما أثرت عائلة فوجيموتو -التي ظلت محايدة- البقاء مكتوفة الأيدي.

ومنذ ذلك الحين، سيطر كل الشُوجَن من مينووارا على المملكة وهم يحرسون حكمها بغيرة، سيطر شُوجَن مينووارا على المملكة، وأعلنوا توريث منصب الشُوجَن، وبدؤوا بتزويج بعض بناتهم من السلالة الإمبراطورية. بقي الإمبراطور والبلاط الإمبراطوري بأكمله معزولين تمامًا في قصور وحدائق مسورة في المنطقة الصغيرة بالعاصمة كيوتو، وغالبًا يعانون فقرًا مدقعًا، وكانت أنشطتهم تقتصر دائمًا على ممارسة طقوس الشنتو، الديانة القديمة للروحانية في اليابان، والاهتمامات الفكرية مثل الخط والرسم والفلسفة والشعر.

كان من السهل السيطرة على بلاط ابن السماء لأنه رغم امتلاكه لكل الأراضي، فإنه لم يكن لديه أي دخل. فقط الدايملو والساموراي هم من لديهم دخل وحق فرض الضرائب. وهكذا رغم أن جميع أفراد البلاط الإمبراطوري كانوا أعلى رتبة من جميع الساموراي، فإنهم كانوا يعيشون على راتب يُمنح للبلاط وفقًا لتقدير الشُوجَن، أو الكوامباكو -رئيس المستشارين المدنيين- أو المجلس العسكري الحاكم في ذلك الوقت. وكان القليل منهم سخيًا. بل

إن بعض الأباطرة اضطروا إلى مقايضة تواقيعهم مقابل الطعام. وفي مرات عديدة لم يوجد مال يكفي لتتويج إمبراطور جديد.

فقد كل الشُّوجَن من مينووارا سُلطتهم في النهاية لصالح آخرين، لنسل عائلتي تاكاشيما أو فوجيموتو. ومع استمرار الحروب الأهلية بلا هوادة على مر القرون، أصبح الإمبراطور ألعوبة بيد الدايميو الأقوى الذي تمكن من الاستيلاء على كيوتو فعلياً. في اللحظة التي ينتصر فيها الفاتح الجديد لكيوتو ويقضي على الشُّوجَن الحاكم وسلالته، يجب أن يتوجّه -بشرط أن يكون من عائلة مينووارا أو تاكاشيما أو فوجيموتو- بتواضع إلى العرش ويقسم الولاء للإمبراطور الضعيف، ويطلب منه بتواضع أن يمنحه رتبة الشُّوجَن الشاغرة الآن. بعد ذلك سيحاول مثل أسلافه، توسيع حُكمه انطلاقاً من كيوتو حتى يُطيح به آخر بدوره. كان الأباطرة يتزوجون ويتنازلون عن العرش أو يعتلون العرش بناءً على رغبة الشُّوجَن. ولكن نسل الإمبراطور الحاكم ظل دائماً مصوناً وغير منقطع.

لذلك كان الشُّوجَن يتمتع بالقوة المطلقة. إلى أن تتم الإطاحة به.

خُلع العديد من الشُّوجَن على مر القرون حيث انقسمت المملكة إلى فصائل أصغر فأصغر. خلال الأعوام المائة الماضية، لم يمتلك أي دايميو القوة الكافية ليصبح الشُّوجَن. قبل اثني عشر عاماً، كان القائد الفلاح ناكامورا يمتلك القوة وحصل على تفويض من الإمبراطور الحالي، جو نيجو. ولكن لم يكن من الممكن منح ناكامورا رتبة الشُّوجَن بغض النظر عن مدى رغبته في ذلك، لأنه وُلد فلاحاً. كان عليه أن يكتفي باللقب المدني الأقل أهمية، وهو (كوامباكو) المستشار الرئيسي، ولاحقاً عندما تخلى عن هذا اللقب لابنه الرضيع يامون -مع الاحتفاظ بكل السلطة كما جرت العادة- كان عليه أن يكتفي بلقب التايكو. بحسب العرف التاريخي، لم يكن يحق إلا لأحفاد العائلات القديمة شبه الإلهية المترامية الأطراف، مينووارا وتاكاشيما وفوجيموتو، حمل لقب الشُّوجَن.

وكان توراناغا ينحدر من عائلة مينووارا. أما يابو فيمكنه أن يعزو نسبه إلى فرع غامض وهامشي من عائلة تاكاشيما، وهي صلة كافية إذا تمكن من الوصول إلى السلطة العليا.

قال يابو: «بالطبع يا سيدتي، يريد توراناغا أن يصبح شُّوجَن، لكنه لن يحقق ذلك أبداً. فإن الأوصياء الآخرين يكرهونه ويهابونه. إنهم يُضعِفون

نفوذه كما خطط التايكو الراحل». انحنى للأمام وهدق إلى زوجته باهتمام: «قلت إن تورانا جا سيخسر أمام إيشيدو؟».

- نعم سيُعزل. ولكن في النهاية لا أعتقد أنه سيخسر يا سيدي. أتوسل إليك ألا تعصي الزعيم تورانا جا، ولا تغادر إيدو لمجرد فحص السفينة الهمجية، مهما كانت غريبة كما يقول أومي سان. أرجوك أرسل زوكيموتو إلى أنجيرو.

- وماذا إذا كانت السفينة تحمل سبائك ثمينة؟ فضة أو ذهب؟ هل ستنتقن بزوكيموتو أو بأي من ضباطنا بهذا الأمر؟
قالت زوجته: «لا».

لذلك تسلل خفية من إيدو تلك الليلة، ومعه خمسون رجلاً فقط، والآن أصبح يملك ثروة وقوة تفوق أحلامه. وأسرى فريدين، أحدهم سيموت الليلة. لقد رتب ليستقبل محظية وفتى في وقت لاحق. سيعود إلى إيدو عند فجر الغد. ويحلول غروب الشمس غداً، ستبدأ البنادق والسبائك رحلتها السرية.

فكر بانتشاء: البنادق! البنادق والخطة معاً سيمنحاني القوة لجعل إيشيدو أو تورانا جا يفوز... أيهما اخترت. بعد ذلك سأصبح وصياً بدلاً من الخاسر، أليس كذلك؟ ثم الوصي الأقوى. لماذا لا أصبح شوجن أيضاً؟ نعم. كل شيء ممكن الآن.

استسلم يابو لأحلامه الجميلة: كيف أستخدم عشرين ألف قطعة فضية؟ يمكنني إعادة بناء برج القلعة. وشراء خيول خاصة للمدافع. وتوسيع شبكة تجسسنا. ماذا عن إيكافا جيكيو؟ هل ستكون ألف قطعة فضية كافية لإغراء طباحين إيكافا جيكيو بتسميمه؟ أكثر من كافية! خمسمائة، حتى مئة في الأيدي المناسبة ستكون كافية. لكن في أيادي من؟

كانت شمس بعد الظهيرة تتسلل بزاوية عبر النافذة الصغيرة في الجدران الحجرية. وكانت مياه الحمام شديدة الحرارة ويسخنها موقد حطب مشعل في الجدار الخارجي. كان هذا منزل أومي ويقع على تلة صغيرة تطل على القرية والميناء. وكانت الحديقة داخل أسواره أنيقة وهادئة وجميلة.

فُتح باب الحمام. انحنى الرجل الأعشى وقال: «أرسلني إليك كاسيجي أومي سان يا سيدي. أنا سوو، المسؤول عن تدليكه».
كان طويل القامة ونحيفاً جداً ومسنأً، ووجهه مجعداً.

- جيد.

لطالما كان يابو يعاني رعبَ فقدان البصر. لطالما كانت تراوده أحلامٌ بالاستيقاظ في الظلام، بينما يعلم يقيناً بوجود ضوء الشمس ويشعر بدفئه لكنه لا يراه، ويفتح فمه للصراخ، مدرّكاً أنه من العار الصراخ، لكنه يصرخ على أي حال. ثم يستيقظ وعرقه يتصبب.

لكن رعب فقدان النظر هذا بدا وكأنه يزيد من متعة يابو وهو يُدلك على يد الرجل الكفيف.

كان يرى الندبة المتعرجة على صدغ الرجل الأيمن والشق العميق في الجمجمة أسفلها. قال لنفسه: هذا جرح سيف. هل تسبب هذا في فقدانه البصر؟ هل كان ساموراي سابقاً؟ لمن؟ هل هو جاسوس؟

عرف يابو أن حراسه لا بد أنهم فتشوا الرجل بعناية شديدة قبل السماح له بالدخول، لذلك لم يكن يخشى وجود سلاح مُخبأ. كان سيفه الطويل الثمين الذي صنعه صانع السيوف الرئيسي موراساما في متناول يده. شاهد الرجل العجوز يخلع الكيمونو القطني ويعلقه دون البحث عن المشجب. كان يوجد مزيدٌ من ندوب سيوف أخرى على صدره. وكان لباسه الداخلي نظيفاً جداً. جثا الرجل منتظراً بصبر.

خرج يابو من حوض الاستحمام عندما استعد ومدد جسده على المقعد الحجري. جفف الرجل العجوز يابو بعناية، ووضع زيتاً معطراً على يديه، وبدأ في تدليك عضلات رقبة وظهر الدايميو.

بدأ التوتر يزول مع تحرك الأصابع القوية على جسد يابو، وفحصها بعمق ومهارة مدهشة. قال بعد فترة: «هذا جيد. جيد جداً».

قال سوو: «شكراً لك يا يابو ساما».

ساما تعني «زعيم»، وهي آداب إلزامية عند مخاطبة شخص أعلى مكانة.

- هل خدمت أومي سان لفترة طويلة؟

- ثلاث سنوات يا سيدي. إنه لطيف جداً مع رجل عجوز مثلي.

- وقبل ذلك؟

- تجولت من قرية إلى أخرى. بضعة أيام هنا، ونصف سنة هناك، مثل فراشة على نسمة الصيف.

كان صوت سوو مهدئًا مثل يديه. لقد قرر أن الداييمو يريد منه الحديث وانتظر بفارغ الصبر السؤال التالي ليبدأ بالسرد. جزء من مهاراته كان معرفة ما هو مطلوب ومتى. في بعض الأحيان كانت أذناه تخبرانه بذلك، لكن في الغالب كانت أصابعه هي التي تبدو أنها تفتح سر عقل الرجل أو المرأة. كانت أصابعه تخبره بالحذر من هذا الرجل، فهو خطر ومتقلب، يبلغ من العمر قرابة الأربعين، فارس جيد ومحارب بالسيف ممتاز. كما أن كبده متضرر وسيموت في غضون عامين. ربما سيقتله شرب الساكي والمنشطات الجنسية التقليدية: «أنت قوي بالنسبة لعمرك يا يابو ساما».

- وأنت أيضًا. كم عمرك يا سوو؟

ضحك الرجل العجوز لكن أصابعه لم تتوقف قط: «أنا أكبر رجل في العالم... في عالمي. كل من عرفته ماتوا منذ زمن بعيد. ربما أبلغ أكثر من ثمانين عامًا... لست متأكدًا. لقد خدمت الزعيم يوشي تشيكييتادا، جد الزعيم توراناغا، عندما كانت إقطاعية العشيرة لا تزيد على حجم هذه القرية. كنت حتى في المعسكر في يوم اغتياله».

حافظ يابو على استرخاء جسده عمدًا بجهد لكن عقله أصبح أكثر يقظة وبدأ بالاستماع باهتمام شديد.

- كان ذلك يومًا قاتمًا يا يابو ساما. لا أعلم كم كان عمري، لكن صوتي لم يكن تغير بعد حينها. كان القاتل هو أوباتا هيرو، ابن أقوى حلفائه. ربما تعرف القصة، كيف قطع الشاب رأس الزعيم تشيكييتادا بضربة واحدة من سيفه. كانت شفرة من صنع موراساما، وهذا ما بدأ الخرافة بأن جميع شفرات موراساما تجلب النحس لعشيرة يوشي.

سأل يابو نفسه: هل يخبرني هذا بسبب سيف موراساما الخاص بي؟ كثير من الناس يعلمون أنني أمتلك واحدًا. أم أنه مجرد رجل عجوز يتذكر يومًا مميزًا في حياة طويلة؟ سأل متظاهرًا بعدم الاهتمام لاختبار سوو: «كيف كان جد توراناغا؟».

- طويل القامة يا يابو ساما. أطول منك وأكثر نحافة بكثير عندما عرفته. كان يبلغ الخامسة والعشرين من عمره يوم وفاته. (لان صوت سوو): يا يابو ساما، لقد كان محاربًا في الثانية عشرة من عمره وأصبح زعيمًا الإقطاعي في الخامسة عشرة عندما قُتل والده في مناوشة. في ذلك الوقت كان الزعيم تشيكييتادا متزوجًا وأنجب بالفعل ابنًا. لقد كان من

المؤسف أن يموت. كان أوباتا هيرو صديقه وكذلك تابعه، وكان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا آنذاك، لكن شخصًا ما قد سمم عقل الشاب أوباتا، قائلًا إن تشيكيثادا كان يخطط لقتل والده غدراً. بالطبع كان كل ذلك كذبًا لكن هذا لم يُعد تشيكيثادا لقيادتنا. جثا الشاب أوباتا أمام الجثمان وانحنى ثلاث مرات. قال إنه فعل ذلك من باب الاحترام لوالده، والآن يرغب في التكفير عن إهانته لنا وعشيرتنا من خلال السيبوكو. أُذِن له بذلك. أولاً غسل رأس تشيكيثادا بيديه ووضعه في مكان مقدس. ثم شق نفسه ومات بشجاعة، وبمراسم عظيمة، حيث قام أحد رجالنا بدور المساعد له وأزال رأسه بضربة واحدة. في وقت لاحق جاء والده لجمع رأس ابنه وسيف الموراساما. ساءت الأمور بالنسبة لنا. فقد احتُجز الابن الوحيد للزعيم تشيكيثادا كرهينة في مكان ما، ومر جزء عشيرتنا بأوقات عصيبة. كان هذا...

- أنت تكذب يا عجوز. لم تكن موجودًا هناك قط.

التفت يابو وراح يحدق إلى الرجل الذي تجمد مكانه على الفور: «حُطِّم السيف ودُمِّر بعد وفاة أوباتا».

- لا يا يابو ساما. هذه مجرد أسطورة. لقد رأيت والده يأتي ويأخذ الرأس والسيف. مَنْ ذا الذي يريد تدمير تحفة فنية كهذه؟ كان ذلك لِيُعتَبَر تدنيًا للمقدسات. لقد أخذه أبوه معه.

- ماذا فعل به إذن؟

- لا أحد يعلم. قال البعض إنه ألقاه في البحر لأنه كان يحب ويحترم سيدنا تشيكيثادا كأخ له. وقال آخرون إنه دفنه وإن السيف ينتظر حفيده، يوشي توراناغا.

- ماذا تعتقد أنت أنه فعل به؟

- ألقاه في البحر.

- هل رأيت ذلك بنفسك؟

- لا.

استلقى يابو مجددًا وشرعت أصابع سوو بعملها. ساوره شعور غريب من فكرة أن شخصًا آخر يعلم أن السيف لم يُحطَّم. أخبر نفسه: يجب أن تقتل سوو. لماذا؟ كيف يمكن لرجل أعمى أن يتعرف على السيف؟ إنه مثل أي

مكتبة

t.me/soramnqraa

سيف موراساما آخر، وقد غُيِّرَ المقبض والغمد عدة مرات على مر السنين. لا يجب لأحد أن يعلم أن سيفك هو السيف الذي انتقل من يد إلى أخرى بسرية تامة مع تنامي قوة توراناغا. لماذا تقتل سوو إذن؟ إن حقيقة أنه على قيد الحياة قد أضافت بعض التشويق والإثارة. لقد تحفزت. اتركه على قيد الحياة، يمكنك قتله في أي وقت. بالسيف.

أرضت هذه الفكرة يابو بينما سمح لنفسه بالانغماس والاسترخاء مجددًا، وهو يشعر براحة كبيرة. وعد نفسه أنه في يوم ما قريب، سيصبح قويًا بما يكفي ليحمل سيف موراساما الخاص به أمام توراناغا. وربما يومًا ما سيخبره قصة سيفه.

سأل راغبًا في أن يهدئه صوت الرجل العجوز: «ماذا حدث بعد ذلك؟».

- لقد سقطنا حينها في براثن البؤس. تلك كانت سنة المجاعة الكبرى، وبعد موت سيدي، أصبحت رونيًا.

كان الرونين جنودًا أو سادة سابقين فقدوا أراضيهم أو أسيادهم، وأُجبروا على التجوال في البلاد، إما بسبب جلبهم للعار وإما موت أسيادهم، إلى أن يقبل سيد آخر بخدماتهم. لقد كان من الصعب على الرونين العثور على عمل جديد. كان الطعام شحيحًا، وكان كل رجل تقريبًا جنديًا، وكان من النادر الثقة بالغرباء. معظم عصابات اللصوص والقراصنة الذين أفسدوا الأرض والساحل كانوا من الرونين. أكمل: «كانت تلك السنة سيئة جدًا وكذلك السنة التي تلتها. لقد حاربتُ من أجل أيًا كان، معركة هنا ومناوشة هناك. وكان الطعام هو أجري. ثم سمعتُ أنه يوجد طعامٌ وفيرٌ في كيوشو، لذلك بدأت رحلتي غربًا. وفي ذلك الشتاء وجدتُ ملاذًا لي. تمكنتُ من العملِ حارسًا في دير بوذي. لقد حاربتُ من أجلهم لمدة نصف عام، ودافعتُ عن الدير وحقول الأرز الخاصة بهم من اللصوص. كان الدير قريبًا من أوساكا، وفي ذلك الوقت -قبل فترة طويلة من قيام التايكو بتدمير معظمهم- كان اللصوص يكثرون مثل البعوض في المستنقعات. في يوم من الأيام تعرضنا لكمين وتُرِكَتُ لأموت. وجدني بعض الرهبان وعالجوا جرحي. لكنهم لم يستطيعوا أن يردوا لي بصري».

كانت أنامله تتحسس بعمق أكبر: «وضعوني تحت رعاية راهب أعمى علمني فن التدليك وكيف أرى من جديد بأصابعي. والآن تخبرني أصابعي بأكثر مما كانت عينايتي تخبرانني في السابق، على ما أعتقد. آخر شيء أستطيع تذكر رؤيته بعيني كان فم اللص الواسع وأسنانه المتعفنة، والسيف

يلمع كقوسٍ براقٍ، وبعد الضربة، ورائحة الزهور. لقد رأيتُ العطر بكل ألوانه يا يابو ساما. لقد كان ذلك منذ زمن بعيد، قبل زمن مجيء الهمج إلى أرضنا -منذ خمسين أو ستين عامًا- لكنني رأيتُ ألوان العطر. لقد رأيتُ النيرفانا على ما أعتقد، ولفترة وجيزة رأيت وجه بوذا. إن العمى ثمنٌ زهيدٌ لمثل هذه الهبة، أليس كذلك؟».

لم يأتِ أيُّ رد. لم يتوقع سوو أيُّ رد. كان يابو نائمًا كما هو مخطط له. سأل سوو بصمتٍ مستمتعًا كأني رجل عجوز: هل أعجبتك قصتي يا يابو ساما؟ كل ما قاله كان صحيحًا باستثناء شيء واحد. لم يكن الدير بالقرب من أوساكا بل كان عبر حدودك الغربية. أما اسم الراهب؟ سو، عم عدوك إيكواو جيكيو. فكر: يمكنني كسر رقبتك بسهولة بالغة. سيكون ذلك خدمة لأومي سان. سيكون ذلك نعمة للقرية. وسيكون ذلك ردًا للجميل ولو بجزء بسيط على عطية راعي. هل أفعل ذلك الآن؟ أم لاحقًا؟

رفع سبيلبرجين حزم قش الأرز وهو يشير بوجهه المشدود: «من يريد أن يختار أولًا؟».

لم يأتِ أي رد. بدا بلاكتورن نائمًا، يتكئ على الزاوية التي لم يتحرك منها. كان الوقت يقترب من الغروب.

بح صوت سبيلبرجين وهو يقول: «يجب على أحدكم أن يختار أولًا. هيا، ليس لدينا متسع من الوقت».

لقد أعطوهم الطعامَ وبرميلَ ماءٍ وبرميلًا آخر لقضاء الحاجة. ولكن لم يُعطَ لهم ما يغسلون به بقايا السمك العفن أو ينظفون أنفسهم. وسرعان ما اجتاحت الذباب المكان. كان الهواء عفناً والأرض موحلة كالمخاط. معظم الرجال كانوا عراة الصدور، يتصببون عرقًا من شدة الحرارة ومن الخوف.

نظر سبيلبرجين إلى وجوههم واحدًا تلو الآخر. ثم استقر نظره على بلاكتورن: «لماذا... لماذا استبعدوك؟ لماذا؟».

فُتحت العينان الجليديتان: «للمرة الأخيرة؛ أنا لا أعلم».

- هذا ليس عدلاً. ليس عدلاً إطلاقاً.

عاد بلاكتورن إلى تأملاته. لا بد أنه يوجد طريقة للخروج من هنا. لا بد أنه يوجد طريقة للوصول إلى السفينة. هذا الوغد سيقتلنا جميعًا في النهاية،

- أنا متأكد كمثّل تأكدي بحقيقة وجود نجم الشمال. لا يوجد الكثير من الوقت، وقد استبعدوني لأن لديهم خطة شريرة تحديدًا لي.
- عندما أغلق الباب، نظروا جميعًا إليّ، وقال أحدهم: «ماذا سنفعل؟».
- أجابه: «لا أعلم».
- لماذا لم يختاروك أيضًا؟
- لا أعلم.
- تأوه أحدهم: «ليُساعدنا الرب».
- أمر بلاكثورن: «نظفوا هذه القذارة. اجمعوا الأوساخ وألقوها هناك».
- لا نملك مماسح أو...
- استخدموا أيديكم.
- اتبعوا أوامره بلا تردد، وساعدهم بلاكثورن بنفسه في تنظيف قائد الأسطول قدر المستطاع: «ستتعافى الآن».
- سأل سبيلبرجين: «ولكن كيف... كيف سنختار أحدها؟».
- لن نختار. سنقاتلهم.
- بماذا؟
- هل تود أن تُقاد كخروف إلى الجزار؟ هل ستفعل؟
- لا تتحامق! هم لا يريدونني... لن يكون من اللائق أن أكون أنا المختار.
- سأل فينك: «لماذا؟».
- أنا قائد الأسطول.
- قال فينك بسخرية: «مع كامل احترامي يا سيدي، ربما يتوجب عليك التطوع. إنه منصبك الذي يقتضي التطوع».
- قال بيترزون: «اقتراح جيد للغاية. أنا أؤيد هذا الاقتراح».
- كان هناك قبول عام وفكر الجميع: يا إلهي، أي شخص آخر غيري.
- بدأ سبيلبرجين يصدر الأوامر بعصبية، لكنه رأى أعين البحارة عديمة الرحمة، فتوقف وحقق إلى الأرض بغثيان. ثم قال: «لا. لا... لن يكون من العدل أن يتطوع أحد. سنقوم... سنقوم بسحب القرعة. سيقان القش، واحد

منهم أقصر من الآخرين. سنضع أيدينا... سنضع أنفسنا بين يدي الرب. أنت يا ربان، ستمسك بالسيقان».

- لن أفعل. لن أشارك في هذا. أقول لكم إننا يجب أن نقاتل.

- سيقتلوننا جميعًا. لقد سمعت ما قاله الساموراي: سيعفو عن حياتنا... باستثناء واحد.

مسح سبيلبرجين العرق عن وجهه، فارتفعت سحابة من الذباب ثم استقرت مرة أخرى: «أعطوني بعض الماء. من الأفضل أن يموت واحد من أن نموت جميعًا».

غمّس فان نيك اليقطينة في البرميل وأعطاهما لسبيلبرجين وقال: «نحن عشرة. بما في ذلك أنت يا بولس. إن الاحتمالات جيدة».

- جيدة جدًا... إلا إذا كنت أنت المختار. (نظر فينك إلى بلاكتورن): هل يمكننا محاربة هذه السيوف؟

- هل يمكنك الذهاب بخنوع إلى المعذب إذا وقع عليك الاختيار؟
- لا أعلم.

قال فان نيك: «سنسحب القرعة. سندع الرب يقرر».

قال بلاكتورن: «مسكين الرب! كم من الحماقات يُلام عليها ظلمًا». صاح أحدهم: «وإلا فكيف نختار؟».

- لن نختار.

قال فان نيك: «سنفعل كما يقول بولس، إنه قائد الأسطول. سنسحب سيقان القش. إنه أفضل حلّ للجميع. لنصوّت. هل الجميع موافق؟».

أجمعوا كلهم على الموافقة. باستثناء فينك: «أنا أؤيد الربان. فلتذهب تلك السيقان إلى الجحيم».

في النهاية، أقنعوا فينك بالاقتراع. قاد يان روبر -الكالفيني المتشدد- الصلوات. كسر سبيلبرجين سيقان القش العشرة إلى نصفين بدقة، ثم قصّر واحدة منهم قليلًا.

فان نيك وبيترزون وسونك وماتسوكر وجينسيل ويان روبر ولامون وماكسيميليان كروك وفينك.

قال مجددًا: «من يريد أن يختار أولًا؟».

ارتفع صوت ماتسوكر مبحوحًا بالرعب: «ولكن كيف... كيف نعلم أن من يختار القشة الخاطئة، القشة القصيرة هو مَنْ سيذهب؟ كيف نعلم ذلك؟».

رد الفتى كروك: «لا نعلم، على وجه اليقين. يجب أن نعلم على وجه اليقين».

قال يان روبر: «هذا سهل. لنتعاهد أننا سنفعل ذلك باسم الرب. باسمه. لـ... لنموت من أجل الآخرين باسمه. عندئذ لن يكون هناك قلق. خروف الرب المختار سيذهب مباشرة إلى مجد الخلود الأبدي».

وافق الجميع.

- هيا يا فينك، افعل كما قال روبر.

كانت شفتا فينك مشققتين: «حسنًا، إذا... إذا كنت أنا المختار... أقسم بالرب إنني سأذهب معهم إذا... إذا اخترت القشة الخاطئة. باسم الرب.

حذا الجميع حذوه. كان ماتسوكر في حالة من الخوف الشديد لدرجة أنه كان بحاجة إلى تحفيز قبل أن يغرق مرة أخرى في مستنقع كابوسه الحي.

اختار سونك أولاً. ثم جاء دور بيترزون. تلاه يان روبر، وبعده سلامون وكروك. شعر سبيلبرجين وكأنه يموت بسرعة لأنهم اتفقوا على أنه لن يختار، وستكون قشته هي الأخيرة، والآن أصبحت الاحتمالات ضده بشكل فظيع.

نجا جينسيل. تبقى أربعة.

كان ماتسوكر يبكي بحرقة علانية، ولكنه دفع فينك جانبًا وسحب قشة وبالكاد صدق أنها لم تكن القصيرة.

كانت يد سبيلبرجين ترتجف، وساعده الفتى كروك على تثبيت ذراعه. سال سائل قذر لم ينتبه إليه أحد على طول ساقه.

كان فان نيك يسأل نفسه بيأس: أي قشة آخذ؟ أعني يا إلهي! كان بالكاد يستطيع رؤية سيقان القش بسبب ضباب قصر نظره. لو استطعت أن أرى فقط، ربما ستكون لدي فكرة عن أي قشة يجب أن أختار. أي واحدة إذن؟

اختار فان نيك قشة وقربها من عينيه ليرى حظه بوضوح. لكن القشة لم تكن قصيرة.

شاهد فينك أصابعه تختار القشة ما قبل الأخيرة وسقطت على الأرض، لكن الجميع رأوا أنها الأقصر حتى الآن. فتح سبيلبرجين يده المشدودة بقوة، ورأى الجميع أن القشة الأخيرة طويلة. فقد سبيلبرجين الوعي.

كانوا جميعًا يحدقون إلى فينك. نظر إليهم بحسرة، لم يرهم حقًا. هز كتفيه جزئيًا وابتسم جزئيًا وهش الذباب بلا وعي. ثم انهار أرضًا. فسحوا له المجال، وابتعدوا عنه وكأنه مُصاب بالجدام.

انحنى بلاكثورن في الوحل بجانب سبيلبرجين.

سأل فان نيك بصوت بالكاد يُسمع: «هل مات؟».

صعق فينك الجميع بضحكة هستيرية، ثم هدأت فجأةً بالسرعة نفسها التي بدأت بها وقال: «أنا... أنا الميت. أنا الميت».

قال يان روبر بثقة: «لا تخف. أنت المختار من قبل الرب. أنت في كنف الرب».

قال فان نيك: «نعم، لا تخف».

- هذا كلام سهل الآن، أليس كذلك؟

جال ببصره على وجوه الرجال، لكن لم يستطع أحد أن يبادل نظراته. وحده بلاكثورن لم يصرف النظر بعيدًا.

قال بهدوء: «أحضر لي الماء يا فينك. اذهب إلى البرميل وأحضر القربة واملأها بالماء. اذهب».

حدق إليه فينك مليًا. ثم أخذ اليقطينة وملأها بالماء وأعطاه إياها. تمت وهو يرتجف: «يا إلهي، يا ربان ماذا سأفعل؟».

- لنساعد بولس أولًا يا فينك، افعل ما أقوله، هل سيكون بخير؟

كتم فينك آلامه الداخلية مستعينًا بهدوء بلاكثورن. كان نبض سبيلبرجين ضعيفًا للغاية. استمع فينك لنبضات قلبه، ورفع جفنيه، وراقب حالته للحظة: «لا أعلم يا ربان. يا إلهي، لا أستطيع التفكير بوضوح. أعتقد أن قلبه بخير. يحتاج إلى عملية فصد، ولكن... ليس لدي وسيلة لفعل لذلك... أنا... لا أستطيع التركيز... أعطني...».

توقف عن الكلام من الإرهاق وجلس متكئًا على الحائط. واجتاحته رعشة قوية.

فُتِح الباب.

وقف أومي شامخًا في الأفق، وقد صبغت أشعة الشمس الأفلة كيمونوه باللون الأحمر الدامي.

الفصل الرابع

حاول فينك تحريك ساقيه لكنه لم يستطع. لقد واجه الموت مرات عديدة في حياته، لكن لم يسبق له أن واجهه بهذا الخنوع. وحُكم عليه بذلك بفعل القش. صرخ عقله: لماذا أنا؟ لستُ أسوأ منهم، بل أفضل من معظمهم. يا إلهي في السماوات، لماذا أنا؟

أنزل سلم. وأشار أومي إلى الرجل المختار أن يصعد بسرعة. وقال باليابانية: «أسرع».

كان فان نيك ويان روبر يصلّيان بصمت وأعينهما مغلقة. لم يُطق بيترزون المشاهدة. وكان بلاكتورن يحدّق إلى أومي ورجاله. صاح أومي مرة أخرى: «أسرع».

حاول فينك الوقوف مجددًا: «ساعدوني، فليساعدني أحدكم على النهوض». انحنى بيترزون الذي كان أقرب إليه، ووضع يده تحت ذراع فينك وساعده على الوقوف. بعد ذلك، وصل بلاكتورن إلى أسفل السلم، وقد ثبّت قدميه بحزم في الوحل اللزج.

- Kinjiru.

صرخ مستخدمًا الكلمة التي سمعها في السفينة. علا صوت شهيق في القبو. وقبضت يد أومي على سيفه، وتحرك باتجاه السلم. على الفور قام بلاكتورن بإمالاته، متحديًا أومي أن يطاءً عليه بقدمه.

قال مجددًا: «Kinjiru».

توقف أومي.

سأل سبيلبرجين بلهجة خائفة، تمامًا كحال البقية: «ما الذي يحدث؟».

- أخبرته أنه ممنوع. لن يمشي أي فرد من طاقمي نحو حتفه دون قتال.

- ولكن... لكننا اتفقنا!

- أنا لم أوافق.

- هل جننت؟!

همس فينك: «لا بأس يا ريان. لقد اتفقنا وكان الأمر عادلاً. هذه مشيئة الرب. أنا ذاهب... إنه...».

تلمس طريقه حتى وصل إلى أسفل السلم، لكن وقف بلاكتورن بعناد في طريقه مواجهًا أومي.

- لن تذهب دون قتال. لن يذهب أحد.

- ابتعد عن السلم يا ريان، هذا أمرٌ لك بالابتعاد.

تحرك سبيلبرجين بارتجاف ليصل إلى زاوية بعيدة قدر الإمكان عن الباب. علا صوته بحدة: «يا ريان!».

لكن بلاكتورن لم يكن يستمع: «استعدوا».

تراجع أومي خطوة إلى الوراء وأصدر أوامر بحدة لرجاله. بدأ أحد الساموراي على الفور يليه اثنان آخران بالنزول على الدرجات، وسيوفهم مسلولة. حرك بلاكتورن السلم وتصدى للرجل الأول، متفادياً ضربة سيفه العنيفة، محاولاً خنقه حتى الموت.

- ساعدوني، هيا! من أجل حياتكم.

غير بلاكتورن قبضته لسحب الرجل من الدرجات، وتحمل بألم شديد بينما طعنه الرجل الثاني من أسفل. استعاد فينك وعيه من ذهوله وألقى بنفسه على الساموراي في حالة من الاهتياج. اعترض الضربة التي كانت ستبتر معصم بلاكتورن، وأمسك بذراع السيف المرتجفة، ثم وجه لكمة قوية بقبضته الأخرى إلى فخذ الرجل. شقق الساموراي وركله بوحشية. لم يبدُ أن فينك قد لاحظ الضربة. صعد على الدرجات وصارع الرجل للاستحواذ على سيفه، وأخذت أظفاره تخدش عيني الرجل. أعاق ضيق المكان وبلاكتورن الساموراي الآخرين، لكن ركلة من أحدهم أصابت فينك في وجهه فتراجع. حاول الساموراي الموجود على السلم توجيه ضربة نحو بلاكتورن، لكنه أخطأ التصويب، ثم اندفع جميع أفراد الطاقم ناحية السلم.

ضرب كروك بقبضته بقوة على مشط قدم الساموراي فسمع صوت كسر عظمة صغيرة. تمكن الرجل من إلقاء سيفه خارج الحفرة - حرصاً على عدم تسليح العدو - وتدحرج بقوة على الوحل. انقض فينك وبيترزون عليه. قاوم

الرجل بعنف بينما هرع آخرون لمواجهة الساموراي المهاجمين. التقط بلاكتورن خنجر الياباني المحاصر وبدأ يصعد السلم، وتبعه كروك ويان روبر وسلامون. انسحب الساموراي الاثنان ووقفوا عند المدخل، وسيوفهما القاتلة مستعدة للقتال. أدرك بلاكتورن أن خنجره لا يفيد أمام السيوف. ومع ذلك هاجم، والآخرون يدعمونه من كثب. في اللحظة التي ظهر رأسه فوق الأرض، تحرك أحد السيوف نحوه، لكنه أخطأه بشعرة. ركلة عنيفة من ساموراي لم يره أعادته إلى الحفرة مرة أخرى.

استدار بلاكتورن وقفز إلى الخلف، متجنبًا كتلة الرجال المتصارعين الذين حاولوا إخضاع الساموراي في الوحل الكريه. وجّه فينك ركلة إلى مؤخرة عنق الرجل، ففقد الوعي. راح فينك يضربه مرارًا وتكرارًا حتى أجبره بلاكتورن على التوقف.

صاح: «لا تقتله... يمكننا استخدامه كرهينة».

شد بلاكتورن السلم بقوة محاولًا سحبه إلى القبو. لكنه كان طويلًا جدًا. فوقهم، انتظر الساموراي الآخرون التابعين لأومي بثبات عند مدخل الباب.

تحشرج صوت سبيلبرجين: «بحق الرب يا ربان، توقف! سيقتلوننا جميعًا... ستقتلنا جميعًا. فليوقفه أحدكم».

كان أومي يصرخ بمزيد من الأوامر، ومنعت أياد قوية في الأعلى بلاكتورن من إغلاق المدخل بالسلم.

صاح: «احترسوا».

قفز ثلاثة ساموراي آخرون -يحملون الخناجر ويرتدون ثيابًا داخلية فقط- برشاقة إلى القبو. اصطدم الاثنان الأولان عمدًا ببلاكتورن، وأسقطاه أرضًا غافلين عن خطرهما. ثم هاجماه بضراوة.

كان بلاكتورن مطروحًا أرضًا تحت قوة الرجال. لم يستطع استخدام الخنجر وشعر بإرادته للقتال تقل، وتمنى لو كان يمتلك مهارة مورا شيخ القرية في القتال غير المسلح. أدرك بعجز أنه لا يستطيع الصمود لفترة أطول، لكنه بذل جهدًا أخيرًا وحرر إحدى ذراعيه. ضربة قاسية من يد صلبة كالصخرة أرجفت رأسه وضربة أخرى جعلته يرى ألوانًا، لكنه لم يتوقف عن القتال.

انقض فينك على أحد الساموراي بعنف، بينما انقض الثالث عليه من فتحة السقف، وصرخ ماتسوكر حين أصابَ خنجرُ ذراعِهِ. كان فان نيك يوجه ضرباته بعشوائية، وكان بيترزون يقول: «بالرب، اضربهم هم وليس أنا». لكن التاجر لم يسمع شيئاً لأنه كان مرعوباً.

أمسك بلاكثورن بأحد الساموراي من الحلق، وكانت قبضته تنزلق بسبب العرق والوحل، وكان على وشك النهوض مثل ثور مجنون محاولاً التخلص منهم عندما تلقى ضربة قاضية أخرى أفقدته وعيه. شق الساموراي الثلاثة طريقهم نحو الأعلى، وتراجع الطاقم الذي أصبح الآن بلا قائد بعيداً عن تحركات خناجرهم الثلاثة الدائرية، حيث سيطر الساموراي على القبو الآن بخناجرهم، ليس بهدف القتل أو البتر، ولكن فقط لإجبار الرجال المرهقين والخائفين على التجمع عند الحوائط، بعيداً عن السلم حيث يرقد بلاكثورن والساموراي الأول فاقدين الوعي.

نزل أومي بغطرسية إلى الحفرة وأمسك بأقرب رجل، وهو بيترزون. وجره بقوة نحو السلم.

صرخ بيترزون وحاول التخلص من قبضة أومي، لكن سكيناً شق معصمه وآخر فتح ذراعهُ. وأجبر البحار المذعور بلا هوادة على التراجع إلى السلم.

- فليعينني الرب، ليس أنا من يجب أن يذهب، ليس أنا، ليس أنا...

وضع بيترزون قدميه على الدرجة وكان يتراجع بعيداً عن عذاب الخناجر، ثم صرخ للمرة الأخيرة واستدار وفرّاً هارباً إلى الأعلى: «ساعدوني بحق الرب». تبعه أومي بهدوء.

انسحب أحد الساموراي. ثم آخر. والثالث التقط الخنجر الذي كان يستخدمه بلاكثورن. أدار ظهره بازدياء، وتخطى جسد رفيقه فاقد الوعي، وصعد بعيداً.

سُحب السلم إلى الأعلى. اختفى الهواء والسماء والضوء. ووضعت الأقفال في مكانها. الآن ليس هناك سوى الظلام، وفي داخله صدورٌ تضطرب وقلوب تنفطر وعرق يتصبب ورائحة كريهة. وعاد الذباب.

للحظة لم يتحرك أحد. كان يان روبر يعاني جرْحاً صغيراً على خده، وكان ماتسوكر ينزف بغزارة، وكان البقية في حالة صدمة في الغالب. باستثناء سلامون. تحسس طريقه نحو بلاكثورن وسحبه بعيداً عن الساموراي فاقد

الوعي. تكلم بغير وضوح وأشار إلى الماء. أحضر كروك بعض الماء في يقطينة، وساعده على إسناد بلاكتورن -الذي لا يزال بلا حراك- على الحائط. وشرعا معًا في تنظيف الوحل عن وجهه.

قال الفتى وصدره يرتفع ويهبط: «عندما انقض أولئك الأوغاد عليه... اعتقدت أنني سمعت صوتًا كأن عنقه أو كتفه قد تحطمت. إنه يبدو كجثة، يا إلهي».

أجبر سونك نفسه على النهوض وشق طريقه نحوهم. حرك رأس بلاكتورن بحذر من جانب إلى آخر، وفحص كتفيه: «يبدو على ما يرام. علينا الانتظار حتى يستعيد وعيه لنعرف الحال».

بدأ فينك ينتحب: «يا يسوع، المسكين بيترزون... أنا ملعون... أنا ملعون...».

- أنت كنت على وشك الذهاب. لقد أوقفك الربان. كنت ذاهبًا كما وعدت، أقسم إنني رأيته.

هز سونك فينك لكنه لم ينتبه: «لقد رأيته يا فينك».

ثم التفت إلى سبيلبرجين بينما يبعد الذباب من حوله: «أليس هذا صحيحًا؟».

- بلى، لقد كان ذاهبًا. توقف عن الانتحاب يا فينك! كان خطأ الربان. أعطني بعض الماء.

غرف يان روبر بعض الماء باستخدام اليقطينة وشرب قليلاً ومسح الجرح على وجنته: «كان يجب أن يذهب فينك. لقد كان أضحية الرب. لقد كان مقدراً له ذلك. والآن روحه مهدرة. يا إلهي ارحمه، سيُعذَّب إلى الأبد».

تذمر قائد الأسطول: «أعطني ماء».

أخذ فان نيك اليقطينة من يان روبر ومررها إلى سبيلبرجين. وقال فان نيك بتعب: «لم يكن خطأ فينك. لم يستطع النهوض، ألا تتذكر؟ لقد طلب من أحدهم مساعدته على النهوض. كنت خائفًا جدًا لدرجة أنني لم أستطع التحرك أيضًا رغم أنه لم يكن عليّ الذهاب».

قال سبيلبرجين: «لم يكن خطأ فينك، بل خطأه هو». نظر الجميع إلى بلاكتورن: «إنه مجنون».

- قال سونك: «جميع الإنجليز مجانين. هل عرفتُم واحدًا منهم لم يكن كذلك؟ إذا خدشت أحدهم ستجد تحته مجنونًا وقرصانًا».
- قال جينسيل: «أوغاد، كلهم كذلك».
- قال فان نيك: «لا، ليس كلهم كذلك. لم يفعل الربان سوى ما يعتقد أنه صواب. لقد حمانا وأوصلنا مسافة عشرة آلاف فرسخ».
- حمانا؟ مجرد هراء! كنا خمسمائة رجل وخمس سفن في البداية. والآن لم يبقَ منا سوى تسعة.
- لم يكن خطأه أن الأسطول انفصل. ولم يكن خطأه أن العواصف عصفت بنا جميعًا...
- لولاه لكننا بقينا في العالم الجديد، بحق الرب. هو من أقنعنا بأننا نستطيع الوصول إلى اليابان. وبحق يسوع المسيح، انظر إلى حالنا الآن.
- قال فان نيك بإرهاق: «لقد اتفقنا على محاولة الوصول إلى اليابان. لقد اتفقنا جميعًا، صوّتتنا جميعًا على ذلك».
- نعم. لكنه هو من أقنعنا.
- انتبه!
- أشار جينسيل إلى الساموراي الذي كان يتحرك ويئن. اتجه سونك نحوه بسرعة وسدد لكمة قوية إلى فكه. فقد الرجل الوعي مجددًا.
- اللعنة، لماذا تركه الأوغاد هنا؟ كان بإمكانهم حمله معهم بسهولة. لم يكن بإمكاننا فعل أي شيء.
- هل تعتقد أنهم ظنوه ميتًا؟
- قال سونك: «لا أعلم، لا بد أنهم رأوه. يا إلهي، كم أتوق إلى بيرة باردة».
- لا تضربه مجددًا يا سونك، لا تقتله. إنه رهينة.
- نظر كروك إلى فينك الذي كان يجلس منكمشًا بجوار الحائط، غارقًا في كراهيته لنفسه: «فليساعدنا الرب جميعًا. ماذا سيفعلون ببيترزون؟ ماذا سيفعلون بنا؟».
- قال يان روبير: «إنه خطأ الربان. خطؤه وحده».

نظر فان نيك بعطف لبلاكثورن: «هذا لا يهم الآن. أليس كذلك؟ كان أو ما زال خطأ مَنْ».

ترنح ماتسوكر على قدميه، والدم لا يزال يسيل على ساعده: «أنا مصاب، ليساعدني أحدكم».

صنع سلامون عاصبة من قطعة قماش وأوقف النزيف. كان الجرح في عضلة ماتسوكر عميقًا ولكن لم يُقطع أي وريد أو شريان. وبدأ الذباب يزعج الجرح.

قال ماتسوكر: «ذباب ملعون! وليذهب الربان إلى الجحيم، لقد اتفقنا. ولكن، لا، كان يجب أن ينقذ فينك! الآن دماء بيترزون على يديه وسنعاني جميعًا بسببه».

- أغلق فمك! لقد قال إنه لن يقبل بأحد من طاقمه...

كان هناك وقع خطوات أقدام في الأعلى وفُتح الباب، بدأ القرويون بإلقاء براميل من أحشاء السمك ومياه البحر في القبو. وعندما غُطي القعر بمقدار خمسة عشر سنتيمترًا من الماء، توقفوا.

بدأت الصرخات تدوي عندما كان القمر في أوجه.

كان يابو جاثيًا في الحديقة الداخلية لمنزل أومي. بلا حراك. يراقب ضوء القمر على شجرة أزهار الكرز، الأغصان تبرز في سماء أفتح لونًا، والزهور المتكتلة لم تعد ملونة الآن. تساقطت بتلة، وفكر،

الجمال

لا ينقص

بسقوطه

في النسيم.

استقرت بتلة أخرى. تنهد النسيم وأخذ بتلة أخرى. كانت الشجرة بالكاد بطول الرجل، وكانت محاطة بصخور مغطاة بالطحالب بدت وكأنها نبتت من الأرض بإتقان وكأن أحدًا وضعها.

لقد استلزم الأمر كل جهد يابو للتركيز على الشجرة والأزهار والسماء والليل، ليشعر باللمسة اللطيفة للريح، ليستنشق ريح البحر العذبة، ليفكر في القصائد، ومع ذلك ليظل مستمعًا لآلام المعاناة. شعر بتراخٍ في عموده الفقري. فقط إرادته جعلته جامدًا كالصخور. أعطاه هذا الوعي مستوى من الإحساس يتجاوز التعبير. والليلة كانت أقوى وأكثر عنفًا مما كانت عليه في أي وقت مضى.

سألت والدته أومي بهمسٍ خائفةً من داخل المنزل: «إلى متى سيبقى سيدنا هناك يا أومي سان؟».

- لا أعلم.

- صوت الصرخات مروع. متى سيتوقفون؟

قال أومي: «لا أعلم».

كانوا يجلسون خلف نافذة في ثاني أفضل غرفة. أفضل غرفة -غرفة والدته- أعطيت ليابو، وكانت كلتا الغرفتين تطلان على الحديقة التي بناها بجهد كبير. كان بإمكانهما رؤية يابو من خلال الشبك الخشبي، الشجرة تلقي بنقوش قاتمة على وجهه، وضوء القمر يلمع على مقابض سيفيه. كان يرتدي هاورى داكنة أو معطفًا خارجيًا فوق الكيمونو القاتم.

قالت المرأة وهي ترتجف: «أريد النوم. ولكن لا يمكنني النوم مع كل هذه الضجة. متى ستتوقف؟».

قال أومي بهدوء: «لا أعلم. اصبري قليلًا يا أمي. سيتوقف الضجيج قريبًا. غدًا سيعود الزعيم يابو إلى إيدو. أرجوك تحلي بالصبر».

لكن أومي كان يعلم أن التعذيب سيستمر حتى الفجر. لقد خُطط له بهذه الطريقة.

حاول التركيز. وبما أن زعيمه الإقطاعي يتأمل وسط صرخات الألم، حاول مجددًا أن يحذو حذوه. لكن الصرخة التالية أعادته إلى الواقع وفكر: لا أستطيع. لا أستطيع بعد. ليس لدي تحكُّمه أو قوته.

سأل نفسه: أو هل هي قوة؟

كان بإمكانه رؤية وجه يابو بوضوح. حاول قراءة التعبيرات الغريبة على وجه الدايميو: الالتواء الطفيف للشفاه الممتلئة المترهلة، وبعض اللعاب على الزوايا، وعينان غائرتان في شقوق داكنة تتحركان فقط مع البتلات

المتساقطة. يبدو الأمر وكأنه قد وصل إلى ذروة المتعة -أو كان على وشك الوصول إليها- دون لمس نفسه. هل هذا ممكن؟

كانت هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها أومي على اتصال وثيق مع عمه، لأنه كان حلقة صغيرة جدًا في سلسلة العشيرة، وإقطاعه الصغير في أنجيرو والمناطق المحيطة به فقير وغير مهم. كان أومي أصغر ثلاثة أبناء، وكان لوالده ميزونو ستة إخوة. وكان يابو الأخ الأكبر وزعيم عشيرة كاسيجي، وكان والده ثاني أكبر الإخوة. كان عمر أومي واحدًا وعشرين عامًا وكان لديه ابن رضيع.

تذمرت العجوز: «أين زوجتك البائسة؟ أريدها أن تدلك ظهري وكتفي».

- اضطرت إلى زيارة والدها، ألا تذكرين يا أومي؟ إنه مريض جدًا. دعيني أنا أفعل ذلك لك.

- لا. يمكنك أن تستدعي خادمة في لحظة. زوجتك هي الأكثر إهمالًا. كان بإمكانها أن تنتظر بضعة أيام. لقد أتيت طوال الطريق من إيدو لزيارتك. استغرق الأمر أسبوعين من الرحلة المؤلمة وماذا حدث؟ لقد مضى على وصولي هنا أسبوع واحد فقط وهي بالفعل غادرت. كان يجب أن تنتظر. لا طائل منها، هذه هي شخصيتها. لقد ارتكب والدك خطأ فادحًا في ترتيب زواجك بها. يجب أن تطلب منها البقاء بعيدًا نهائيًا، طلق تلك التي لا تصلح لشيء مرة واحدة وإلى الأبد. إنها لا تستطيع حتى أن تدلك ظهري بطريقة صحيحة. على الأقل يجب أن تعاقبها جيدًا. تلك الصرخات المروعة! لماذا لا تتوقف؟

- ستتوقف. قريبًا جدًا.

- يجب أن تعاقبها جيدًا.

- حسنًا.

فكر أومي في زوجته ميدوري فخفق قلبه. كانت جميلة جدًا ورقيقة ولطيفة وذكية، وكان صوتها نقيًا وموسيقاها تضاهي موسيقى أي محظية في إيزو.

كان قد قال لها سرًا: «ميدوري سان، يجب أن تغادري على الفور».

أجابت: «أبي ليس مريضًا جدًا ومكاني هنا لخدمة والدتك يا أومي سان، أليس كذلك؟ إذا وصل الزعيم الدايميو، يجب أن يكون هذا المنزل جاهزًا. إن

هذا مهم جدًا يا أومي سان، أهم وقت في خدمتك كلها، أليس كذلك؟ إذا أعجب الزعيم يابو، فربما سيمنحك إقطاعية أفضل، أنت تستحق الأفضل، إذا حدث أي شيء في أثناء وجودي بعيدًا، فلن أغفر لنفسي أبدًا وهذه هي المرة الأولى التي تتاح لك فيها فرصة للتفوق ويجب أن تنجح. يجب أن يأتي. أرجوك، يوجد الكثير لنفعله».

- بلى، لكنني أريدك أن تغادري على الفور يا ميدوري سان. ابقِي ليومين فقط، ثم عودي مسرعة إلى المنزل مجددًا.

لقد توسلت إليه لكنه أصر ورحلت. لقد أراد إبعادها عن أنجيرو قبل وصول يابو وبينما يكون الرجل ضيقًا في منزله. ليس خوفًا من أن يجرؤ الدايميو على لمسها دون إذن، كان هذا أمرًا لا يمكن تصوره لأنه هو، أومي، سيكون له حينئذٍ الحق والشرف والواجب القانوني على القضاء على الدايميو. لكنه لاحظ يابو وهو يراقبها بعد زواجهما مباشرة في إيدو وأراد إزالة أي مصدر محتمل للإزعاج، أي شيء يمكن أن يضايق أو يخرج زعيمه وهو هنا. كان من المهم جدًا أن يثير إعجاب يابو ساما بولائه لوالدته وبُعد نظره ونصائحه. وحتى الآن نجح كل شيء بشكل يفوق التوقعات. كانت السفينة كنزًا دفينًا وكذلك الطاقم. كل شيء كان مثاليًا.

قالت ميدوري مباشرة قبل مغادرتها: «لقد طلبت من كامِي منزلنا أن يعتني بك». مشيرة إلى روح الشنتو التي تحمي المنزل: «لقد أرسلت أيضًا قربانًا إلى المعبد البوذي لإقامة صلاة لك. لقد أخبرت سوو أن يكون مثاليًا تمامًا وأرسلت رسالة إلى كيكو سان. رجاء اسمح لي بالبقاء يا أومي سان».

ابتسم لها وتأكد من مغادرتها، وقد أفسدت الدموع مكياجها.

شعر أومي بالحزن لفراقها، ولكنه كان سعيدًا لأنها غادرت. كانت الصرخات ستؤلمها كثيرًا.

جفلت والدته تحت وطأة العذاب الذي تحمله الرياح، وتحركت قليلًا لتخفيف آلام كتفها، وكانت مفاصلها متعبة جدًا الليلة. فكرت: ربما بسبب رياح البحر الغربي. ومع ذلك، هنا أفضل من إيدو. حيث يوجد الكثير من المستنقعات والبعوض.

بالكاد استطاعت رؤية ملامح يابو في الحديقة. كانت تكرهه سرًا وتتمنى موته. ففور موت يابو، سيصبح ميزونو زوجها دايميو إيزو وسيقود العشيرة.

فكرت: سيكون ذلك رائعًا حقًا. بعد ذلك سيخضع لها بقية الإخوة وزوجاتهم وأطفالهم، وبالطبع سيجعل ميزونو سان من أومي الوريث الشرعي بعد موت يابو.

ألم آخر في رقبتها جعلها تتحرك قليلًا.

قال أومي: «سأنادي كيكو سان».

مشيرًا إلى المحظية التي تنتظر يابو بصبر في الغرفة المجاورة، مع الصبي: «إنها ماهرة للغاية».

- أنا بخير، فقط متعبة، أليس كذلك؟ حسنًا، يمكنها أن تدلكني.

دخل أومي إلى الغرفة المجاورة. كان الفراش جاهزًا. يتكون من لحافين علوي وسفلي يسميان الفوتون يوضعان على حصير أرضي. انحنت كيكو محاولة الابتسام وتمتعت بأنها ستتشرف بمحاولة استخدام مهاراتها المتواضعة مع والددة المنزل الأكثر جدارة بالاحترام. كانت أكثر شحوبًا من المعتاد، وأدرك أومي أن الصرخات قد أثرت فيها هي الأخرى. كان الصبي يحاول ألا يظهر خوفه.

عندما بدأت الصرخات، اضطر أومي إلى استخدام كل مهاراته لإقناعها بالبقاء. قالت: «لا أستطيع تحمله... إنه أمر مروع يا أومي سان. أنا آسفة جدًا، أرجوك اسمح لي بالرحيل... أريد أن أغلق أذني لكن الصوت يخترق يدي. يا للرجل المسكين... هذا مروع».

- رجاءً يا كيكو سان، تحلي بالصبر قليلًا. يابو ساما أمر بهذا، أليس كذلك؟ لا يمكننا فعل أي شيء حيال ذلك. سيتوقف قريبًا.

- إنه لا يُطاق يا أومي سان. لا أستطيع تحمله.

وفقًا للعادات الراسخة، لا يمكن للمال وحده شراء فتاة، إذا كانت هي أو المسؤولة عنها يرغبان في رفض الزبون حتى لو كان ذا منصب رفيع. كانت كيكو من أشهر المحظيات من الدرجة الأولى في إيزو، ورغم قناعة أومي بأنها لن تضاهي حتى إحدى محظيات الدرجة الثانية في إيدو أو أوساكا أو كيوتو، فإنها هنا تُعد في القمة، وبالتالي تشعر بالفخر والخصوصية. ورغم موافقته مع المسؤولة عنها، ماما سان جيوكو، على دفع خمسة أضعاف السعر المعتاد، فإنه لم يكن متأكدًا بعد من بقاء كيكو.

الآن كان يراقب أصابعها الرشيقة وهي تدلك رقبة والدته. كانت جميلة وصغيرة جدًا وبشرتها شبه شفافة وناعمة للغاية. في العادة كانت تنبض بالحياة والمرح. لكنه تساءل في نفسه كيف يمكن لمثل هذه المرأة أن تكون سعيدة تحت وطأة الصرخات؟ كان يستمتع بمشاهدتها، ويستمتع بمعرفة جسدها ودفئها...

فجأة توقفت الصرخات.

استمع أومي وفمه مفتوح قليلًا، محاولًا التقاط أدنى ضوضاء، منتظرًا. لاحظ أن أصابع كيكو قد توقفت، وكانت والدته صامتة، تنتظر بتركيز شديد. نظر من خلال الشبك الخشبي إلى يابو. بقي الدايميو جالسًا بلا حراك. نادى يابو أخيرًا: «أومي سان».

نهض أومي وتوجه إلى الشرفة المصقولة وانحنى: «نعم يا سيدي».

- اذهب وانظر ماذا حدث.

انحنى أومي مرة أخرى وخرج عبر الحديقة إلى الطريق المرصوف بالحصى الذي يؤدي إلى أسفل التل باتجاه القرية والشاطئ. من بعيد رأى النار بالقرب من أحد أرصفة الميناء والرجال بجانبها. وهناك في الساحة المواجهة للبحر، باب الحفرة والحراس الأربعة.

بينما كان يمشي باتجاه القرية، رأى أن السفينة الهمجية راسية بأمان، والمصابيح الزيتية على سطح السفينة وعلى القوارب المجاورة. كان القرويون -رجالًا ونساءً وأطفالًا- لا يزالون يفرغون الشحنة، وكانت قوارب الصيد والمراكب الصغيرة تتحرك ذهابًا وإيابًا مثل يراعات كثيرة. كانت أكوام من البضائع والصناديق تتكدس على الشاطئ. سبعة مدافع موجودة بالفعل ويوجد مدفع آخر يُنقل بحبال من قارب إلى منحدر، ومن ثم إلى الرمال.

شعر أومي بقشعريرة رغم عدم وجود أي برودة في الهواء. عادةً ما يغني القرويون في أثناء العمل، سواء كان ذلك بدافع السعادة أو لمساعدتهم على الانسجام في الحركة. لكن القرية كانت هادئة على غير العادة الليلة رغم أن كل منزل كان يقظًا وكل فرد يعمل، حتى المرضى. كان الناس يتنقلون ذهابًا وإيابًا بسرعة، ينحنون ثم يكملون سيرهم مسرعين مرة أخرى. صمت مطبق. حتى الكلاب كانت ساكنة.

فكر وهو يمسك سيفه بقوة غير ضرورية: لم يكن الأمر هكذا من قبل. كأن
كامي قريتنا قد تخلّى عنا.

خرج مورا من ناحية الشاطئ ليقابله، فقد أخبر باقترابه لحظة فتح أومي
باب الحديقة. انحنى: «مساء الخير يا أومي ساما. ستُفرغ السفينة بحلول
منتصف اليوم».

- هل مات الهمجي؟

- لا أعلم يا أومي ساما. سأذهب وأتأكد على الفور.

- يمكنك مرافقتي.

تبعه مورا بطاعة، متأخرًا عنه نصف خطوة. شعر أومي بارتياح غريب
ببرفته.

سأل أومي، غير مرتاح للصمت: «قلتَ بحلول منتصف اليوم؟».

- نعم. كل شيء يسير على ما يرام.

- ماذا عن التمويه؟

أشار مورا إلى مجموعات من النساء المسنات والأطفال بالقرب من أحد
مخازن الشباك الذين كانوا يجدلون حصيرًا خشبًا، وسوو معهم.

- يمكننا تفكيك المدافع عن عرباتها وتغليفها. سنحتاج إلى عشرة رجال

على الأقل لحمل واحد. أرسل إيجوراشي سان طلب إلى القرية المجاورة
لإحضار المزيد من الحمالين.

- جيد.

- أنا قلق بشأن الحفاظ على السرية يا سيدي.

- سيؤكد إيجوراشي سان عليهم بالسرية، أليس كذلك؟

- سيتعين علينا استهلاك كل أكياس الأرز، وكل خيوطنا وكل شباكنا وكل
قش حصيرنا يا أومي سان.

- إذن؟

- كيف سيمكننا بعد ذلك صيد الأسماك أو تعبئة حصادنا؟

احتد صوت أومي: «ستجد طريقة لحل الأمر. ستُرفع ضرائبك هذا الموسم
مجددًا بمقدار النصف. هذا ما أمر به يابو سان الليلة الماضية».

- لقد دفعنا بالفعل ضرائب هذا العام والعام المقبل.
- هذه امتيازات الفلاحين يا مورا. الصيد والحرث والحصاد ودفع الضرائب. أليس كذلك؟
- قال مورا بهدوء: «بلى يا أومي ساما».
- إن رئيس القرية الذي لا يستطيع السيطرة على قريته هو شخص عديم الفائدة، أليس كذلك؟
- بلى يا أومي ساما.
- كان ذلك القروي أحقق بالإضافة إلى وقاحته. هل يوجد آخرون مثله؟
- لا يوجد يا أومي ساما.
- أمل ذلك. إن السلوك السيئ غير قابل للغفران. ستُغرم عائلته بقيمة كوكو من الأرز، يُدفع بالأسماك أو الأرز أو الحبوب أو أي شيء آخر. يجب أن يتم الدفع خلال ثلاثة أشهر.
- حسنًا يا أومي ساما.
- كان كلُّ من مورا وأومي الساموراي يدركان أن هذا المبلغ يفوق قدرة العائلة تمامًا. لم يكن لديهم سوى قارب صيد وحقل أرز واحد بمساحة خمسة آلاف متر مربع يتشاركه الأخوان تامازاكي الثلاثة -أصبحا اثنين الآن- مع زوجاتهم وأربعة أبناء وثلاث بنات وأرملة تامازاكي وثلاثة أطفال. وكان الكوكو من الأرز وحدةً قياسٍ تقدَّر تقريبًا بكمية الأرز التي تكفي لإعالة أسرة واحدة لمدة عام كامل. أي ما يعادل خمسة بوشل. ربما نحو ثلاثمائة وخمسين رطلًا من الأرز. يقاس جميع الدخل في المملكة بالكوكو. وكذلك جميع الضرائب.
- سأل أومي: «أين ستكون أرض الآلهة هذه إذا نسينا الأخلاق الحميدة؟ مع من هم دوننا ومع من هم فوقنا؟».
- نعم يا أومي ساما.
- كان مورا يحاول تقدير من أين سيحصل على قيمة الكوكو الواحد، لأنه سيتعين على القرية الدفع إذا لم تستطع العائلة. ومن أين سيحصل على مزيد من أكياس الأرز والخيوط والشباك. يمكن استعادة بعضها مما استُخدِمَ في الرحلة. لكن سيوجب عليه استئانة المال. كان عمدة القرية المجاورة مدينًا

له بمعروف. أليست ابنة تامازاكي الكبرى الجميلة في السادسة من عمرها، أليست ست سنوات هي السن المثالية لبيع فتاة؟ وأليست أفضل سمسارة أطفال في كل إيزو هي ابنة عمه والدتي من الدرجة الثالثة، تلك العجوز البغيضة الجشعة التي تثير المشكلات؟ تنهد مورا، عالمًا أنه أمامه الآن سلسلة من جلسات المساومة الصعبة. فكر: لا يهم. ربما تجلب الفتاة حتى اثنين من الكوكو. إنها بالتأكيد تستحق أكثر من ذلك بكثير.

قال مورا: «أعتذر عن سوء تصرف تامازاكي وأطلب الصفح منك».
رد أومي بأدب: «لقد كان سوء تصرفه هو... وليس خطأك أنت».

لكنهما كانا يعلمان أن الأمر يتعلق بمسؤولية مورا وأنه من الأفضل ألا يكون هناك المزيد من حالات التمرد مثل تامازاكي. ومع ذلك، كان كلاهما راضيًا. لقد قُدِّمَ اعتذار وقد قُبِلَ ولكن رُفِضَ. وهكذا حافظ كلا الرجلين على ماء وجهيهما.

عبروا الزاوية عند رصيف الميناء وتوقفوا. تردد أومي ثم أشار إلى مورا بالابتعاد. انحنى رئيس القرية وابتعد شاكرًا.

- هل مات يا زوكيموتو؟

- لا يا أومي سان. لقد أغمي عليه مجددًا فقط.

توجه أومي إلى الرجل الحديدي الكبير الذي تستخدمه القرية لاستخلاص الشحم من الحيتان التي يصطادونها في بعض الأحيان من البحر خلال أشهر الشتاء، أو لاستخراج الصمغ من الأسماك، وهي صناعة قروية.

كان الرجل الأجنبى مغمورًا بالماء المغلي حتى كتفيه. وجهه أزرق قاتم وشفاته منكمشتان بعيدًا عن أسنانه المتعفنة.

عند غروب الشمس، شاهد أومي زوكيموتو وهو منتفخ بالغرور بينما يشرف على عملية ربط الهمجي كالدجاجة، مربوطًا بذراعيه حول ركبتيه، ويديه مرتختيتين على قدميه، ثم وضعوه في الماء البارد. طوال الوقت كان الهمجي ذو الشعر الأحمر الصغير الذي كان يابو يريده ليبدأ به يتحدث بلا توقف ويضحك ويبكي، وكان الكاهن المسيحي موجودًا في البداية يتلو صلواته الملعونة.

ثم بدأ تأجيج النار. لم يكن يابو على الشاطئ لكن أوامره كانت محددة ونفذوها بجد. بدأ الهمجي بالصراخ والهذيان ثم حاول تحطيم رأسه على

حافة الحديد حتى قُيِّدَ. ثم توالى الصلوات والبكاء والإغماء والاستيقاظ والصراخ من الذعر قبل أن يبدأ الألم الحقيقي. حاول أومي المشاهدة كما تشاهد التضحية بذبابة، محاولاً ألا يرى الرجل. لكنه لم يستطع وابتعد بأسرع ما يمكن. لقد اكتشف أنه لا يستمتع بالتعذيب. قرر أنه لم تكن هناك أيُّ كرامة فيه، وكان سعيداً بفرصة معرفة الحقيقة حيث لم يرها من قبل. لا توجد كرامة لكلا المُعَذَّب والمُعَذِّب. إنه يزيل الكرامة عن الموت، سأل نفسه: وبلا هذه الكرامة، ما المغزى الحقيقي للحياة؟

فحص زوكيموتو بهدوء لحم ساقى الرجل المسلول جزئياً بعضاً كما يفعل المرء مع سمكة مسلوقة لتحديد نضجها، وقال: «سيستعيد وعيه قريباً. إنه لأمر استثنائي أن يصمد كل هذا الوقت. لا أعتقد أن أجسادهم خلقت بالطريقة التي خلقتنا بها. مثير للاهتمام حقاً، أليس كذلك؟».

رد أومي الذي كان يكرهه: «نعم».

انتفض زوكيموتو على الفور وأعاد تمثيل تملقه، قال بينما انحنى بعمق: «لم أقصد شيئاً يا أومي سان. لا شيء على الإطلاق».

- بالطبع. إن الزعيم يابو سعيد بما أنجزته ببراعة. لا بد أن الأمر يتطلب

حرفية كبيرة لتجنب إشعال النار كثيراً، ومع ذلك تقديم ما يكفي منها.

- أنت لطيف للغاية يا أومي سان.

- هل فعلت ذلك من قبل؟

- ليس بهذا الشكل. لكن الزعيم يابو يكرّمني بتفضيله. أحاول فقط إرضاءه.

- يريد أن يعرف إلى متى سيصمد هذا الرجل.

- حتى الفجر. مع العناية المناسبة.

دقق أومي النظر في الرجل بعمق. ثم صعد على الشاطئ إلى الساحة. وقف جميع الساموراي وانحنوا.

وقال أحدهم وهو يضحك ويحرك إبهامه تجاه باب الحفرة: «الهدوء يسود المكان هناك يا أومي سان. في البداية كان يصدر بعض الكلام -بدا غاضباً- وبعض اللكمات. وفي وقت لاحق، كان اثنان منهم وربما أكثر ينتحبون كأطفال خائفين. لكن الهدوء يسود منذ فترة طويلة».

استمع أومي. كان بإمكانه سماع صوت مياه تتدفق وغمغمة بعيدة. وأهة عرضية. ثم سأل مشيرًا إلى الساموراي الذي ترك في الأسفل بناءً على أوامره: «ماذا عن ماسيجيرو؟».

- لا ندري يا أومي سان. بالتأكيد لم ينادنا. ربما مات.

فكر أومي: كيف يجرؤ ماسيجيرو على أن يكون عديم الفائدة هكذا. أن يُهزم من قبل رجال عُزل، معظمهم مرضى. مقزز! الأفضل أن يكون ميتًا: «لا طعام ولا ماء غداً. في منتصف النهار تخلصوا من أي جثث، حسنًا؟ وأريد إحضار القائد بعد ذلك. وحده».

- حسنًا يا أومي سان.

عاد أومي إلى النار وانتظر حتى فتحَ الهمجي عينيه. ثم عاد إلى الحديقة وأبلغ عما قاله زوكيموتو، وعاد صوت العذاب يحمله الريح مجددًا.

- هل حدثت إلى عيني الهمجي؟

- نعم يا يابو ساما.

كان أومي يجثو الآن خلف الدايميو على بعد عشر خطوات. لم يتحرك يابو. ضوء القمر ألقى بظلال على الكيمونو الخاص به وجعل مقبض سيفه يشكّل شكلًا غير لائق.

- ماذا... ماذا رأيت بالضبط؟

- الجنون. جوهر الجنون. لم أر قط عينين مثل تلك. ورعب لا نهاية له.

تساقطت ثلاث بتلات بلطف.

- أَلَّف قصيدة عنه.

حاول أومي إجبار دماغه على العمل. ثم تمنى لو كان أكثر قدرة على البيان، قال:

«كانت عيناه

كقعر الجحيم...

وكل الألم

متجسد المعالم».

صعدت صرخات مكتومة الآن، بدا أن المسافة تجعل وجعها أكثر قسوة.
قال يابو بعد لحظة:

«إذا سمحت لخوفهم
بالوصول إلى أعماق روحك،
تصبح واحدًا معهم
غامض المعالم».

فكر أومي في ذلك لفترة طويلة في جمال الليل.

الفصل الخامس

فقط مع بزوغ أوّل خيوط الضوء، خمدت الصرخات.

والآن كانت والدّة أومي نائمة. وكذلك يابو.

كانت القرية لا تزال مضطربة مع حلول الفجر. لم يتم إنزال أربعة مدافع إلى الشاطئ بعد، وخمسين برميلًا إضافيًا من البارود، وألف طلقة مدفع أخرى.

كانت كيكو مستلقية تحت اللحاف تراقب الظلال على حائط الشوجي. لم تنم رغم أنها منهكة أكثر من أي وقت مضى. أصوات الشخير المتقطعة من المرأة العجوز في الغرفة المجاورة طغت على الأنفاس العميقة للدايميو النائم بجانبها. كان الصبي نائمًا بلا صوت على الأغصان الأخرى، وغطى عينيه بذراعه ليحجب الضوء.

انتاب يابو رعشة خفيفة، وحبست كيكو أنفاسها. لكنه ظل نائمًا، وهذا أسعدها لأنها علمت أنها ستتمكن قريبًا من المغادرة دون إزعاجه. وبينما كانت تنتظر بصبر، أجبرت نفسها على التفكير بأشياء ممتعة.

كانت تتذكر كلمات أول معلمة لها التي رسخت في ذهنها: «تذكرني دائمًا يا صغيرتي، أن التفكير بأفكار سيئة هو حقًا أسهل شيء في العالم. إذا تركت عقلك يسيطر عليك، فسيقودك إلى دوامة من الحزن المتزايد. أما التفكير بأفكار جيدة فيتطلب جهدًا. هذا هو أحد الأشياء التي يتعلق بها الانضباط والتدريب. لذلك درّبي عقلك على التركيز على العطور الجميلة، ولمسة هذا الحرير، وقطرات المطر اللطيفة على الشوجي، وتنسيق الزهور هذا، وهدهود الفجر. عندها في النهاية لن تضطري إلى بذل جهد كبير وستكونين ذات قيمة لنفسك، وقيمة لمهنتنا، وتجلبين الشرف لعالمنا، عالم الصفصاف...».

فكرت في الاستحمام الفاخر الذي ستستمتع به قريبًا والذي سيبدد آثار هذه الليلة، وبعد ذلك التدليك المريح من يدي سوو. فكرت في الضحك

الذي ستشاركه مع الفتيات الأخريات ومع جيوكو سان، الماما سان، وهن يتبادلن الثروة والإشاعات والقصص، والكيمنو النظيف -النظيف جدًا- الذي سترتديه الليلة، ذاك الكيمنو الذهبي المزهر باللونين الأصفر والأخضر وشرائط الشعر التي تتماشى معه. بعد الحمام سيُصفف شعرها، ومن أموال الليلة الماضية سيكون هناك الكثير لتسديد ديونها لسيدة العمل جيوكو سان، وبعضها لإرساله عن طريق الصراف إلى والدها الذي يعمل مزارعًا، وسيبقى البعض لها. سترى حبيبها قريبًا وستكون أمسية مثالية.

فكرت كيكو: الحياة جميلة حقًا.

نعم، لكن تجاهل صرخات الليلة الماضية أمرٌ صعب للغاية. بل يكاد يكون مستحيلًا. ستكون الفتيات الأخريات غير سعيدات بالقدر نفسه، وكذلك المسكينة جيوكو سان! ولكن لا يهم. غداً سغادر جميعاً أنجيرو ونعود إلى بيت الشاي الجميل الخاص بنا في ميشيما، أكبر مدينة في إيزو، والتي تحيط بأعظم قلعة للدايميو في إيزو، حيث تبدأ الحياة وتزدهر.

أنا آسفة لأن السيدة ميدوري طلبتني.

قالت لنفسها بحدة: كوني جادة يا كيكو. لا يجب أن تأسفي. أنت لست آسفة، أليس كذلك؟ لقد كان شرفاً أن تخدمي زعيمنا. الآن وقد تكرمت، أصبحت أكثر قيمة لـجيوكو سان من أي وقت مضى، أليس كذلك؟ لقد كانت تجربة، والآن ستُعرفين بلقب «سيدة ليلة الصراخ»، وإذا كنت محظوظة، فسيقوم أحدهم بكتابة قصيدة عنك، وربما تُغنى حتى في إيدو نفسها. سيكون ذلك رائعاً! حينها سيشتري حبيبك عقدك وستكونين آمنة وراضية وتنجبين أبناءً ذكوراً.

ابتسمت لنفسها. يا لها من قصص سيبتدعها المغنون المتجولون عن الليلة الماضية والتي ستروى في كل بيت شاي في جميع أنحاء إيزو. سيحكون عن الدايميو الذي جلس بلا حراك وسط الصرخات، وعرقه يتصبب. سيتساءل الجميع عما فعله على الفراش؟ ولماذا كان الصبي موجوداً هناك؟ وكيف كانت العلاقة؟ وماذا قالت كيكو وفعلت، وماذا قال وفعل الزعيم يابو؟ هل كانت العلاقة جيدة؟ هل لم يحدث شيء على الإطلاق؟

ألف سؤال. لكن لن يُسأل أيُّ منها مباشرةً ولن يُجاب عنها مطلقاً. فكرت كيكو أن هذا حكيم. القاعدة الأولى والأخيرة في عالم الصفصاف كانت السرية المطلقة، عدم الحديث مطلقاً عن العميل أو عاداته أو المبلغ الذي دُفع، وبالتالي

الحفاظ على الثقة التامة. إذا تحدث شخص آخر، حسنًا، فهذه مشكلته، ولكن مع جدران الورق والمنازل الصغيرة والناس على ما هم عليه، دائمًا ما تنتقل القصص من الفراش إلى القصائد الشعبية، ولكنها ليست الحقيقة أبدًا، دائمًا ما تكون مبالغًا فيها، لأن الناس دائمًا يبالغون، أليس كذلك؟ ولكن لا شيء يصدر من السيدة. ربما رفعة حاجب أو تحريك كتف أو لمسة ناعمة لتسريحة شعر مثالية أو طية الكيمونو، هذا كل ما يُسمح به. وإذا كانت الفتاة ذكية، فذلك دائمًا يكفي.

عندما توقفت الصرخات، بقي يابو جامدًا تحت ضوء القمر لما بدا وكأنه دهر آخر، ثم نهض. وعلى الفور هرعت عائدة إلى الغرفة الأخرى، وحرير الكيمونو الخاص بها يُصدر صوتًا حفيقًا كصوت البحر في منتصف الليل. كان الصبي خائفًا، ويحاول جاهدًا ألا يظهر خوفه ويمسح الدموع التي أثارها صوت التعذيب. ابتسمت له بطمأنينة، وفرضت هدوءًا لم تكن تشعر به فعليًا. ثم وقف يابو عند الباب. كان غارقًا في العرق، وجهه مشدودًا وعيناه نصف مغمضتين. ساعدته كيكو على خلع سيفيه، ثم نزع الكيمونو المبلل ولباسه الداخلي. نشفته وألبسته كيمونو نظيفًا برائحة الشمس وربطت حزامه الحريري. حاولت أن تُحييه في البداية لكنه وضع إصبعًا بلطف على شفثيها. ثم اتجه نحو النافذة ونظر إلى القمر المتضائل، في حالة من الشroud، وهو يترنح قليلًا على قدميه. بقيت ساكنة دون خوف، فما الذي يثير الخوف الآن؟ لقد كان رجلًا وهي امرأة، مدربة على أن تكون امرأة لتمنح المتعة، بأي طريقة كانت. ولكن ليس لإعطاء أو تلقي الألم. كانت توجد محظيات أخريات يتخصصن في هذا النوع من الإثارة. كدما هنا أو هناك، أو ربما عضه، حسنًا، هذا جزء من متعة الألم في العطاء والأخذ، ولكن دائمًا ضمن المعقول، لأن الشرف مرتبط بذلك، وهي كانت سيدة من عالم الصفصاف من الدرجة الأولى، فلا ينبغي التعامل معها باستخفاف أبدًا، بل يجب تكريمها دائمًا. لكن جزءًا من تدريبها كان أن تعرف كيف تروّض الرجل، ضمن حدود. في بعض الأحيان يصبح الرجل جامحًا، وعندها يصبح الأمر مروّعًا. لأن السيدة كانت وحيدة. بلا حقوق.

كانت تصفيفة شعرها لا تشوبها شائبة باستثناء خصلات الشعر الصغيرة التي تُسدل بعناية على أذنيها لإضفاء لمسة من الإثارة الخفية، ومع ذلك في الوقت نفسه، لتعزيز نقاء المظهر العام. الكيمونو الخارجي المخطط باللونين

الأحمر والأسود، والمطرز بأصفى درجات اللون الأخضر الذي يزيد من بياض بشرتها، كان مشدودًا بإحكام حول خصرها النحيل بحزام عريض صلب، يُسمى أوبي، من اللون الأخضر البراق. استطاعت الآن سماع صوت الأمواج على الشاطئ ونسيم خفيف يحرك الحديقة.

أخيرًا استدار يابو ونظر إليها، ثم إلى الصبي.

كان الصبي في الخامسة عشرة من عمره، ابن صياد محلي، يعمل متدربًا في دير قريب لدى راهب بوذي يمتهن الفن، يرسم ويزين الكتب. وكان من أولئك الذين يسعدون بجني المال من تقديم خدمات معينة لأولئك الذين يطلبون المتعة.

أشار يابو إليه، فأطاعه الصبي وقد تلاشت مخاوفه الآن، وحلَّ رباط الكيمونو بأناقة مدروسة.

تذكرت كيكو كيف ساد السكون في الغرفة، حيث تجمع الثلاثة معًا في هدوء يخيم عليه غياب الصرخات، هي والصبي ينتظران إشارة من يابو لما يجب فعله، بينما وقف يابو بينهما، يتمايل قليلًا ويلقي نظرات متفحصة من أحدهما إلى الآخر.

في النهاية أشار إليها.

داعبتهما حتى غطًا في النوم ثم تركتهما وتوجهت إلى الأغطية الأخرى.

كان الفراش الآخر باردًا، ولم ترغب في الاقتراب من دفء يابو حتى لا توقظه. وسرعان ما أصبح جانبها دافئًا.

بدأت ظلال الشوجي تزداد وضوحًا. فكرت: إن الرجال كالأطفال. مليئين بكبرياء سخيفة. كل عناء هذه الليلة من أجل شيء عابر. من أجل شغفٍ هو في حد ذاته مجرد وهم، أليس كذلك؟

تحرك الصبي في نومه. سألت نفسها: لماذا قدمت له عرض التجربة معك؟ من أجل متعته... من أجله وليس من أجلي، رغم أن الأمر أمتعني وشغل الوقت ومنحه السلام الذي يحتاجه. لماذا لا تنامين قليلًا؟ ثم أجابت نفسها: لاحقًا. سأنام لاحقًا.

وحين حل وقت مغادرتها، انسلت كيكو من الدفء اللطيف ووقفت. تحرك الكيمونو الخاص بها بهدوء ولامس الهواء البارد بشرتها. سرعان ما طويت

ملابسها بعناية وأعادت ربط حزام الأوبي الخاص بها. وأضفت لمستها الباردة والحذرة على تصفيفة شعرها وعلى مكياجها.
لم تُصدر أي صوت وهي تغادر.

انحنى الساموراي الحارس عند مدخل الشرفة، فانحنى له هي الأخرى، ووجدت نفسها تحت ضوء شمس الفجر. وكانت خادمتها تنتظرها.

- صباح الخير يا كيكو سان.

- صباح الخير.

استمتعت بدفء الشمس، وكأنها تغسل آثار ليلة أمس. فكرت: كم هو جميل أن تكون على قيد الحياة.

انتعلت حذاءها، وفتحت مظلتها القرمزية، وبدأت السير عبر الحديقة إلى الطريق الذي يؤدي إلى القرية عبر الساحة، إلى بيت الشاي الذي كان بمنزلة منزلها المؤقت. وخادمتها تتبعتها.

نادى مورا وانحنى: «صباح الخير يا كيكو سان».

كان يستريح للحظة على شرفة منزله، يتناول التشا؛ الشاي الأخضر الفاتح في اليابان. كانت والدته تقدمه له. قالت: «صباح الخير يا كيكو سان». أجابت كيكو: «صباح الخير يا مورا سان، صباح الخير يا سايكو سان، كم تبدين رائعة».

سألت الأم، وعيناها العجوزتان تتفحصان الفتاة باهتمام: «كيف حالك؟ يا لها من ليلة فظيعة! انضمي إلينا لتناول الشاي. أنت تبدين شاحبة يا صغيرتي».

- شكرا لك، لكن اعذريني رجاءً، يجب عليّ العودة إلى المنزل الآن. لقد شرفتني كثيراً. ربما في وقت لاحق.

- بالتأكيد يا كيكو سان. إنك تشرفين قريتنا فورَ وجودك هنا.

ابتسمت كيكو وتظاهرت بعدم ملاحظة نظراتهما الفاحصة. لإضافة بعض الإثارة إلى يومهما ويومها، ادعت وجود ألم بسيط وهي تمشي.

سينتشر هذا الخبر في جميع أنحاء القرية، فكرت بسعادة بينما انحنى وجفلت مجدداً، وانطلقت وكأنها تتحمل الألم بشجاعة، بينما تتدلى طيات الكيمونو الخاص بها بمثالية، ومظلتها الشمسية مائلة لإعطائها ذلك الضوء

الرائع. لقد كانت سعيدة للغاية لأنها ارتدت هذا الكيمونو الخارجي وهذه المظلة. في أي يوم ممل، لم يكن مظهرها ليصبح دراماتيكيًا هكذا.

قالت والدة مورا بينما تتنهد بعمق: «يا لها من طفلة مسكينة حقًا! إنها جميلة جدًا، أليس كذلك؟ يا لها من خسارة! أمر فظيع».

سألت زوجة مورا وهي قادمة إلى الشرفة: «ما الشيء الفظيع يا سايكو سان؟».

- ألم تري معاناة الفتاة المسكينة؟ ألم تري كيف كانت تحاول إخفاءها بشجاعة؟ يا لها من مسكينة. في السابعة عشرة فقط ويجب أن تتحمل كل هذا.

قال مورا ببرود: «إنها في الثامنة عشرة من عمرها».

سألت إحدى الخادמות وهي تنضم إليهم وتحاول التقاط أنفاسها: «ما الذي تحملته يا سيدتي؟».

نظرت المرأة العجوز حولها للتأكد من أن الجميع يستمعون ثم همست بصوت عالٍ: «سمعتُ (ثم خفضت صوتها أكثر) سمعتُ أنها لن... لن تواصل العمل... لمدة ثلاثة أشهر».

- أوه لا! كيكو سان المسكينة، ولكن لماذا؟

- لقد استخدم أسنانه. لقد سمعت هذا من مصدر موثوق.

- أوه!

- أوه!

- ولكن لماذا أحضر الصبي أيضًا يا سيدتي؟ بالتأكيد هو لم...

- اذهبوا وعودوا لأعمالكم يا عديمو الفائدة. هذا ليس شيئًا يخصكم. اذهبوا جميعًا. أنا والسيد نحتاج إلى التحدث.

طردهم جميعًا من الشرفة. حتى زوجة مورا. واحتست شايها برضى وطمأنينة.

كسر مورا حاجز الصمت: «أسنان؟».

قالت بعجل: «أسنان. تقول الشائعات إن الصراخ يجعله ينتفض لأنه كان يخاف من تنين عندما كان صغيرًا. لديه دائمًا صبي هناك ليذكره بنفسه

عندما كان صبيًا وخائفًا جدًّا، ولكن في الواقع الصبي موجود فقط للنوم، لإرهاقه... وإلا سيقضم كل شيء، تلك المسكينة».

تنهد مورا. دخل إلى المرحاض الصغير بجوار البوابة الأمامية وأطلق ريحًا لا إراديًا وهو يبدأ في التبول في الدلو. سأل نفسه بانتشاء: أتساءل عما حدث حقًّا، لماذا كانت كيكو سان تعاني آلامًا؟ ربما يستخدم الدايميو أسنانه حقًّا؟ يا له من أمر غير عادي.

خرج مورا من المرحاض، وهو ينفض نفسه للتأكد من أنه لم يلوث ملابسه الداخلية، وتوجه عبر الساحة وهو غارق في التفكير: يا إلهي، كم أود أن أقضي ليلة واحدة مع السيدة كيكو! مَنْ لن يرغب في ذلك؟ كم دفع أومي سان إلى الماما سان؟ والذي سيتعين علينا دفعه في النهاية؟ اثنان من الكوكو؟ يُقال إن جيوكو سان الماما سان، طالبت وحصلت على عشرة أضعاف الرسوم المعتادة. هل تحصل على خمسة كوكو لليلة واحدة؟ ستستحق كيكو سان ذلك بالتأكيد، أليس كذلك؟ تقول الشائعات إنها ماهرة في سن الثامنة عشرة مثل امرأة تبلغ ضعف عمرها. يُفترض أنها قادرة على... يا إلهي، يا لها من متعة! لو كنت أنا... كيف سأبدأ؟

عدّل ملابسه الداخلية بشرود بينما أخذته قدماه خارج الساحة، صاعدًا عبر الممر البالي إلى المقبرة.

حُضِرَت المحرقة. كان وفد الرجال الخمسة من القرية موجودًا بالفعل. كان هذا أجمل مكان في القرية، حيث كانت نسائم البحر أبرد ما يكون في الصيف والمناظر هي الأفضل. في مكان قريب كان يقع ضريح شنتو، وهو عبارة عن سقف صغير من القش على قاعدة للكامي، الروح التي تسكن هناك، أو قد يرغب في العيش هناك إذا شاء. وشجرة طقسوس ملتوية تميل مع الريح، نبتت بذورها قبل تأسيس القرية.

في وقت لاحق، صعد أومي على الطريق. ومعه زوكيموتو وأربعة حراس. وقف بعيدًا عن البقية. عندما انحنى رسميًا أمام المحرقة والجسد الممدد عليها الذي كان ملفوفًا بالكفن ومفككًا تقريبيًا، انحنوا جميعًا معه لتكريم الهمجي الذي مات حتى يعيش رفاقه.

بإشارة منه تقدم زوكيموتو وأشعل المحرقة. لقد طلب زوكيموتو من أومي هذا الشرف ومُنح له. انحنى للمرة الأخيرة. وبعدها غادروا جميعًا عندما اشتدت النيران بقوة.

غرف بلاكتورن ما تبقى في قاع برميل الماء وقاس نصف كوب من الماء بعناية وقدمه إلى سونك. حاول سونك أن يرتشف الماء ببطء ليحمله يدوم لفترة أطول، وكانت يده ترتجف، لكنه لم يستطع. بلع السائل الفاتر بسرعة، نادمًا على فعل ذلك في اللحظة التي تجاوز فيها حنجرته الجافة. تحرك ببطء شديد إلى مكانه بجوار الحائط متخطيًا أولئك الذين حان دورهم للاستلقاء. كانت الأرض مغطاة الآن بطبقة عميقة من القذارة، وكانت الروائح الكريهة والذباب مقززة. تسرب ضوء شمس خافت إلى الحفرة من خلال شقوق فتحة الباب.

كان فينك التالي للحصول على الماء، فأخذ كوبه وحدق إليه وهو يجلس بالقرب من البرميل، وكان سبيلبرجين يجلس على الجانب الآخر. تمتم بضعف: «شكرًا لك».

صاح يان روبر وقد بدأ الجرح على خده بالتقرح: «أسرع».

كان آخر من يحصل على الماء، وبقرب دوره، كان يشعر بعذاب شديد في حلقه: «أسرع يا فينك، بحق المسيح».

تمتم فينك وهو يسلمه الكوب، غافلًا عن الذباب الذي ينتشر حوله: «عذرًا. خذها أنت».

- اشربه، أيها الأحمق! هذه آخر جرعة ستحصل عليها حتى غروب الشمس. اشربه.

دفع يان روبر الكوب إلى يدي الرجل. لم يرفع فينك رأسه إليه لكنه امتثل ببؤس، وانزلق مجددًا إلى جحيمة الخاص.

أخذ يان روبر كوب الماء من بلاكتورن. وأغمض عينيه وتلا صلاة صامته. كان من بين الواقفين، وعضلات ساقيه تؤلمه. بالكاد شرب الكوب على رشفتين. والآن بعد أن حصل الجميع على حصتهم، غرف بلاكتورن ورشف الماء بامتنان. كان فمه ولسانه متقرحين ويحرقانه بسبب الغبار. ومغطى بالذباب والعرق والأوساخ. كان صدره وظهره مصابين بكدمات شديدة.

راقب الساموراي الذي تركوه في القبو. كان الرجل متكئاً على الحائط بين سونك وكروك، يأخذ أقل مساحة ممكنة ولم يتحرك لعدة ساعات. كان يحدق في الفراغ بوجه مكتئب، عارٍ إلا من لباسه الداخلي، وكانت كدمات قوية تكسو جسده بالكامل، وورم سميك حول عنقه.

عندما استعاد بلاكثورن وعيه، كان القبو في ظلام دامس. كانت الصرخات تملأ الحفرة واعتقد أنه مات وانتهى به المطاف في أعماق الجحيم الموحشة. شعر بنفسه يُشفط إلى الوحل اللزج والمقرز للغاية، وقد صرخ وتخط في حالة من الذعر، غير قادر على التنفس، حتى سمع بعد فترة طويلة: «لا بأس يا ربان، أنت لم تمت، لا بأس. استيقظ، استيقظ، من أجل المسيح، إنه ليس الجحيم ولكنه قد يكون كذلك. يا إلهي ساعدنا جميعاً».

عندما استعاد وعيه تماماً، أخبروه عن بيترزون وبراميل مياه البحر. تذرهم أحدهم: «يا إلهي أخرجنا من هنا».

- ماذا يفعلون بالمسكين العجوز بيترزون؟ ماذا يفعلون به؟ يا إلهي ساعدنا. لا أحتمل الصراخ.

- يا إلهي المسيح، اجعل هذا المسكين يموت. دعه يُمُت.

- يا إلهي، أوقف الصراخ. أرجوك أوقف الصراخ.

لقد كشفت الحفرة وصراخ بيترزون عن حقيقة كلٍّ منهم، وأجبرتهم على النظر إلى أعماق أنفسهم. ولم يرضَ أيُّ رجل عما رآه.

فكر بلاكثورن: كان الظلام يزيد الأمر سوءاً.

لقد كانت ليلة لا تنتهي في الحفرة.

ومع حلول الغسق اختفت الصرخات. وعندما بزغ فجر خافت عليهم، رأوا الساموراي الذي نُسي.

سأل فان نيك: «ماذا سنفعل به؟».

أجاب بلاكثورن وقلبه يخفق بسرعة: «لا أعلم. يبدو خائفاً مثلنا تماماً».

- من الأفضل ألا يتسبب بأي مشكلات، بحق الرب.

قال كروك: «يا إلهي، أخرجني من هنا...». ثم بدأ صوته يرتفع تدريجياً:

«النجدة».

هزه فان نيك الذي كان بالقرب منه، وهدأه: «لا بأس يا فتى. نحن في كنف الرب. إنه يحرسنا».

- انظر إلى ذراعي.

تأوه ماتسوكر. لقد بدأ الجرح بالتعفن.

وقف بلاكتورن بمشقة، وقال دون أن يخاطب أحداً بالأخص: «سنصبح جميعاً مجانين مهووسين في يوم أو يومين إذا لم نخرج من هنا».

قال فان نيك: «لم يتبقَّ من الماء إلا القليل».

- سنتقاسم ما تبقى منه. القليل الآن والقليل في الظهرية. وإذا حالقنا الحظ سيكون كافياً لثلاث مرات. لعنة الرب على كل الذباب.

لذلك وجد الكوب وأعطاهم حصة، والآن كان يحتسي حصته محاولاً جعلها تدوم.

لقد نجا قائد الأسطول من الليل بشكل أفضل من معظمهم لأنه سد أذنيه ببعض الطين، وكونه بالقرب من برميل الماء، فقد خفف عطشه بحذر. سأل سبيلبرجين: «ماذا عن الياباني؟ ماذا سنفعل به؟».

قال فان نيك: «يجب أن يحصل على القليل من الماء».

قال سونك: «اللعة عليه. أقول لا نعطيه أي ماء».

صوتوا جميعاً على الأمر، واتفقوا على عدم إعطائه أي ماء.

قال بلاكتورن: «لا أوافق».

قال يان روبر: «أنت لا توافق على أي شيء نقوله. إنه العدو، إنه شيطان وثني وكاد أن يقتلك».

- وكدت تقتلني أنت أيضاً. ست مرات تقريباً. لو أن بندقيتك قد أطلقت النار في سانتا ماجدالينا، لكنت قد فجرت رأسي.

- لم أكن أستهدفك. كنت أستهدف عبدة الشيطان النتنين.

- كانوا كهنة غير مسلحين. وكان يوجد متسع من الوقت.

- لم أكن أستهدفك.

- كدت تقتلني عدة مرات، بغضبك الملعون من الرب، وتعصبك الملعون من الرب، وغبائك الملعون من الرب.

- إن التجديف خطيئة جسيمة. استخدام اسمه عبثاً خطيئة. نحن تحت رحمته وليس تحت رحمتك. أنت لست ملكاً وهذه ليست سفينة. أنت لست قائدنا...

- ولكنك ستفعل ما أقوله.

نظر يان روبر حول القبو باحثاً عن الدعم عبثاً. قال بضيق: «افعل ما تريد».

- سأفعل ذلك.

كان الساموراي ظمآن مثلهم تماماً، لكنه هز رأسه رافضاً الكوب المقدم. تردد بلاكتورن، ووضع الكوب على شفاه الساموراي المتورمة، لكن الرجل ضرب الكأس بعيداً وسكب الماء، وقال شيئاً قاسياً. استعد بلاكتورن للتصدي للضربة التالية. لكنها لم تأت قط. لم يقدم الرجل على أي حركة أخرى، فقط نظر بعيداً إلى الفضاء.

قال سبيلبرجين: «إنه مجنون. إنهم جميعاً مجانين».

قال يان روبر: «يوجد مزيدٌ من الماء لنا، جيد. دعه يذهب إلى الجحيم الذي يستحق».

سأل بلاكتورن: «ما اسمك؟ اسمك؟».

قاله مجدداً بطرق مختلفة لكن يبدو أن الساموراي لم يسمع.

تركوه وحده. لكنهم راقبوا تحركاته وكأنه عقرب. لكنه لم يراقبهم في المقابل. كان بلاكتورن متأكداً من أن الرجل يحاول اتخاذ قرار بشأن شيء ما، لكن لم تكن لديه أي فكرة عما يمكن أن يكون.

سأل بلاكتورن نفسه: ماذا يدور في ذهنه. لماذا يرفض الماء؟ لماذا تركوه هنا؟ هل كان هذا خطأ من أومي؟ من غير المحتمل. هل كان متعمداً؟ من غير المحتمل. هل يمكننا استغلاله للخروج؟ من غير المحتمل. كل شيء غير محتمل باستثناء أنه من المحتمل أن نبقى هنا حتى **يسمحوا** لنا بالخروج... إذا سمحوا لنا بالخروج. وإذا خرجنا، فماذا بعد؟ ماذا حدث لبيترزون؟

تكاثر الذباب بسبب حرارة النهار.

يا إلهي، أتمنى لو أستطيع الاستلقاء -أتمنى لو أستطيع الدخول إلى ذلك الحمام- لن يضطروا إلى حَملي إليه الآن. لم أكن أدرك قط مدى

أهمية الاستحمام. ذلك الرجل العجوز الأعمى ذو الأصابع الفولاذية! يمكنني الاستفادة من خدماته لساعة أو ساعتين.

يا لها من مضيعة! كل سفننا ورجالنا وجهودنا من أجل هذا. فشل ذريع. حسنًا، نوعًا ما. بعضنا لا يزال على قيد الحياة.

كان فان نيك يحركه: «يا ربان. كنتَ نائمًا. إنه هو... لقد كان ينحني لك لمدة دقيقة أو أكثر».

وأشار إلى الساموراي الذي كان جاثيًا ورأسه منحني أمامه. فرك بلاكتورن آثار الإرهاق من عينيه. بذل مجهودًا وانحنى ردًا على تحيَّته.

- Hai؟

سأل باقتضاب متذكرًا الكلمة اليابانية التي تعني «نعم».

أمسك الساموراي بحزام الكيمونو الممزق ولفه حول رقبته. وهو لا يزال جاثيًا، أعطى أحد طرفيه لبلاكتورن والطرف الآخر لسونك، وأحنى رأسه وأشار إليهما أن يشدَّاه بقوة.

قال سونك: «يخاف أن نخنقه».

- يا إلهي، أعتقد أن هذا ما يريدنا أن نفعله.

ترك بلاكتورن الحزام يسقط وأومأ برأسه رافضًا. قال: «Kinjiru»، مفكرًا في مدى فائدة هذه الكلمة. كيف تقول لرجل لا يتحدث لغتك إن مبادئك تمنعك من ارتكاب جريمة قتل، وقتل رجل أعزل، وإنكم لستم جلادين، وإن الانتحار محرم عند الرب؟

سأل الساموراي مجددًا وتوسل إليه بوضوح، لكن بلاكتورن هز رأسه رافضًا مرة أخرى. «Kinjiru». نظر الرجل حوله بوحشية. وفجأة وقف على قدميه وغطس رأسه في دلو المرحاض حتى يحاول إغراق نفسه. قام يان روبر وسونك على الفور بسحبه خارج الدلو، وهو يختنق ويقاوم.

أمر بلاكتورن: «اتركوه». أطاعوه. وأشار إلى المرحاض: «يا ساموراي، إذا كان هذا ما تريده، تفضل».

كان الرجل يتقياً بعنف، لكنه فهم. نظر إلى الدلو القذر وأدرك أنه لا يملك القوة الكافية لإبقاء رأسه فيه لفترة طويلة بما فيه الكفاية. عاد الساموراي إلى مكانه بجوار الحائط في بؤس شديد.

تمتم أحدهم: «يا إلهي».

غرف بلاكتورن نصف كوب من الماء من البرميل، ونهض على قدميه بمفاصل متيبسة، وذهب إلى الياباني وقدمه له. لكن تجاهل الساموراي الكوب.

قال بلاكتورن: «أتساءل كم من الوقت يستطيع الصمود».

قال يان روبير: «إلى الأبد، إنهم وحوش. إنهم ليسوا بشرًا».

سأل جينسيل: «إلى متى سيحتجزوننا هنا؟».

- ما دام أرادوا.

قال فان نيك: «يجب أن نفعل كل ما يريدونه، يجب علينا أن نفعل ذلك إذا أردنا البقاء على قيد الحياة والهروب من هذه الجحيم. أليس كذلك يا ربان؟».

قدر بلاكتورن ظلال الشمس بامتنان: «بلى. إنه وقت الظهيرة، حان وقت تغيير الأماكن».

بدأ سبيلبرجين وماتسوكر وسونك بالشكوى لكنه سبهم حتى وقفوا، وعندما تغيرت أماكن الجميع، استلقى بامتنان. كان الطين قذرًا والذباب أسوأ من أي وقت مضى، لكن كانت فرحة قدرته على تمديد كامل جسده هائلة.

سأل نفسه وهو يشعر بالإرهاق يغمره: ماذا فعلوا ببيترزون؟ يا إلهي، ساعدنا لنخرج من هنا. أنا خائف جدًا.

سمعوا صوت خطوات في الأعلى. ثم فُتح الباب. وقف الكاهن هناك يحيط به الساموراي.

قال: «يا ربان. يجب أن تصعد. يجب أن تصعد وحدك».

الفصل السادس

تحولت نظرات الجميع في الحفرة إلى بلاكثورن.

- ماذا يريدون مني؟

قال الأب سياستياو بجدية: «لا أعلم. لكن يجب أن تصعد على الفور».

عرف بلاكثورن أنه لا يملك خيارًا، لكنه لم يبتعد عن الحائط الواقى، محاولاً استجماع المزيد من القوة.

- ماذا حدث لبيترزون؟

أخبره الكاهن. وترجم بلاكثورن لمن لا يتحدث البرتغالية.

همس فان نيك وسط الصمت المروع: «فليرحمه الرب. رجل مسكين. رجل مسكين».

قال الكاهن بحزن شديد: «أنا آسف. لم يوجد شيء يمكنني فعله. لا أعتقد أنه عرفني أو عرف أي شخص في اللحظة التي وضعوه فيها في الماء. لقد فقد عقله. منحته الغفران وصلّيت من أجله. ربما برحمة الرب... باسم الآب والابن والروح القدس. آمين». رسم إشارة الصليب فوق القبو: «أتوسل إليكم جميعاً أن تتخلوا عن بدعكم وتعودوا إلى إيمان الرب. يجب أن تصعد يا ربان». صاح كروك: «لا تتركنا يا ربان، حباً بالرب».

تعثر فينك باتجاه السلم وبدأ في الصعود: «يمكنهم أخذني... وليس الربان. أنا، لا هو. أخبره...».

توقف بعجز، وقدماه على درجات السلم. كان رمح طويل يبعد بضعة سنتيمترات عن قلبه. حاول الإمساك بالرمح لكن الساموراي كان على أهبة الاستعداد ولو لم يتراجع فينك للوراء لكان قد طعن.

أشار هذا الساموراي إلى بلاكتورن ليصعد. بقسوة. ظل بلاكتورن واقفًا بلا حراك. دفع ساموراي آخر بعضًا طويلة ذات شوك إلى القبو وحاول جر بلاكتورن للخارج.

لم يتحرك أحد لمساعدة بلاكتورن باستثناء الساموراي الموجود في القبو. أمسك بالعصا بسرعة وقال شيئًا قاسيًا للرجل الذي كان بالأعلى، فتردد الرجل. ثم نظر إلى بلاكتورن، وهز كتفه مستهجنًا وتحدث.

- ماذا قال؟

أجاب الكاهن: «إنه مثل ياباني: مصير الرجل هو مصيره وما الحياة إلا مجرد وهم».

أومأ بلاكتورن للساموراي وذهب إلى السلم دون أن يلتفت وبدأ بصعوده. عندما وصل إلى ضوء الشمس الساطع، حجب عينيه عن وهجه المؤلم، وخارت ركبته، وسقط على الأرض الرملية.

كان أومي واقفًا جانبه. ووقف الكاهن ومورا بالقرب من الساموراي الأربعة. شاهد بعض القرويين البعيدين المشهد للحظة ثم ابتعدوا.

لم يقدم له أحد المساعدة.

صلى بلاكتورن في صمت: يا إلهي، امنحني القوة. يجب أن أقف على قدمي وأتظاهر بالقوة. هذا هو الشيء الوحيد الذي يحترمونه. القوة. عدم إظهار الخوف. رجاءً ساعدني.

شد على أسنانه ودفع نفسه عن الأرض حتى وقف متأرجحًا قليلًا. صرخ مباشرة على أومي: «ماذا تريد مني يا لعين؟». ثم أضاف مخاطبًا الكاهن: «قل للوغد إنني دايميو في بلدي، وما هذا النوع من المعاملة؟ أخبره أن ليس لدينا مشكلة معه. أخبره أن يطلق سراحنا وإلا فسيسوء الأمر له. أخبره أنني دايميو. أنا وريث السير ويليام من ميكلاهافن، لعله هذا اللعين مات منذ زمن بعيد. أخبره».

كانت الليلة فضيحة بالنسبة للأب سيباستياو. لكن خلال سهرته، شعر بحضور الرب واكتسب سكينه لم يختبرها من قبل. الآن كان يعلم أنه يمكن أن يكون أداة من أدوات الرب ضد الكفار، وأنه محصن ضد دهاء القراصنة والكفار. لقد أدرك بطريقة ما أن هذه الليلة كانت بمنزلة تحضير، مفترق طرق بالنسبة له.

- أخبره.

قال الراهب باللغة اليابانية: «يقول القرصان إنه زعيم في بلده». استمع إلى رد أومي: «يقول أومي سان إنه لا يهم إن كنت ملكًا في بلدك أم لا. أنت تعيش هنا تحت رحمة الزعيم يابو، أنت وجميع رجالك».

- أخبره إنه قطعة قذارة.

- احذر من إهانتته.

بدأ أومي يتحدث مجددًا.

- يقول أومي سان أنه سيُسمح لك بالاستحمام. وستُمنح طعامًا وشرابًا. إذا تصرفت بشكل جيد، فلن يعيدك إلى الحفرة.

- ماذا عن رجالي؟

سأل الكاهن أومي.

- سيقون في الأسفل.

- إذن أخبره أن يذهب إلى الجحيم.

سار بلاكتورن نحو السلم ليعود إلى الأسفل. منعه اثنان من الساموراي، ورغم أنه قاومهما فإنهما سيطرا عليه بسهولة.

تحدث أومي إلى الكاهن ثم إلى رجاله. أطلقوا سراحه وكاد بلاكتورن أن يسقط.

- قال أومي سان إنه إذا أحسنت التصرف، فسيُخرج رجلًا آخر من رجالكم. يوجد الكثير من الحطب والماء.

فكر بلاكتورن: إذا وافقت الآن، فقد وجدوا وسيلة للسيطرة عليّ وسأكون تحت رحمتهم إلى الأبد. ولكن بماذا سيهم ذلك، أنا تحت سيطرتهم الآن، وسيتعين عليّ في النهاية فعل ما يريدون. كان فان نيك على حق. سيتعين عليّ فعل أي شيء.

- ماذا يريدني أن أفعل؟ ماذا يعني «أحسن التصرف»؟

- يقول أومي سان أن هذا يعني الطاعة. أن تفعل ما تُؤمر به. أن تأكل الروث إذا لزم الأمر.

- أخبره أن يذهب إلى الجحيم. أخبره أنني سأبول عليه وعلى بلده بأكملها... وعلى الدايميو الخاص به.

- أنصحك أن توافق على...

- بحق الرب أخبره بما قلت بالضبط.

- حسنًا... لكنني حذرتك يا ربان.

استمع أومي إلى الكاهن. ابيضت المفاصل في يده التي تقبض على السيف. تحرك جميع رجاله بتوتر، وبرزت أعينهم في بلاكتورن كالكسكسين. ثم أصدر أومي أمرًا بهدوء.

على الفور نزل اثنان من الساموراي إلى الحفرة وأخرجوا الفتى كروك. جروه إلى المرجل، وقيدوه بينما أحضر الآخرون الحطب والماء. وضعوا الصبي المرعوب في المرجل المليء وأشعلوا النار في الحطب.

شاهد بلاكتورن تحركات فم كروك الصامتة والرعب الذي سيطر عليه كليًا. فكر بلاكتورن: لا قيمة للحياة على الإطلاق بالنسبة لهؤلاء الناس. لعنة الرب عليهم جميعًا، سيغلون كروك تمامًا كما أنا واقف على هذه الأرض الملعونة.

تصاعد الدخان عبر الرمال. كانت طيور النورس تحوم حول قوارب الصيد. سقطت قطعة من الخشب من النار وركلها أحد الساموراي لإعادتها.

قال بلاكتورن: «أخبره أن يتوقف. اطلب منه أن يتوقف».

- يقول أومي سان: هل توافق على حسن التصرف؟

- نعم.

- يقول: هل ستطيع جميع الأوامر؟

- بقدر ما أستطيع، نعم.

تحدث أومي مجددًا. سأل الأب سياستياو سؤالًا وأومأ أومي برأسه.

- يريدك أن تجيبه مباشرة. كلمة «نعم» باليابانية هي hai. يقول: هل ستطيع جميع الأوامر؟

- بقدر ما أستطيع، hai.

بدأت النار تسخن الماء، وصدر من الفتى أنين متألم. السنة اللهب من النار المشتعلة في الحطب الموضوع في الطوب أسفل الحديد لعقت المعدن. أضيف المزيد من الحطب.

- يقول أومي سان: استلقي على الفور.

امتثل بلاكتورن للأمر.

- يقول أومي سان إنه لم يهنك شخصياً، وبالتالي لا يوجد أي سبب يدعوك لإهانته. لأنك همجي ولا تعرف الأدب بعد، فلن تُقتل. لكن ستعلم الأدب. هل تفهم؟

- نعم.

- يريدك أن تجيبه مباشرةً.

ارتفع صراخ من الفتى. استمر الصراخ لفترة حتى أغمي عليه. أمسك أحد الساموراي برأسه وأبقاه خارج الماء.

رفع بلاكتورن نظره إلى أومي. أمر نفسه: تذكر، تذكر أن الفتى بين يديك وحدك، وحياة جميع أفراد طاقمك بين يديك. ثم بدأ جانبه المظلم بالتحدث: نعم، لكن لا يوجد ضمان بأن الوغد سيلتزم الاتفاق.

- هل تفهم؟

- Hai.

رأى أومي يرفع الكيمونو الخاص به وينزل لباسه الداخلي. توقع بلاكتورن أن يبول الرجل على وجهه. لكن أومي لم يفعل ذلك. لقد تبول على ظهره. أقسم بلاكتورن لنفسه: أقسم بالرب إنني سأذكر هذا اليوم، وبطريقة ما وفي مكان ما، سيدفع أومي الثمن.

- يقول أومي سان: إنه من قلة الأدب أن تقول إنك ستبول على أي شخص. سيئ جداً. إنه قلة أدب وغباء كبير أن تقول إنك ستبول على أي شخص وأنت غير مسلح. إنه قلة أدب كبيرة وغباء أكبر أن تقول إنك ستبول على أي شخص وأنت غير مسلح، وعاجز، وغير مستعد لترك أصدقائك أو عائلتك أو أي شخص آخر يموت أولاً.

لم يقل بلاكتورن شيئاً. لم يرفع عينيه عن أومي.

قال أومي: «Wakarimasu ka?».

- يقول: هل تفهم؟

أجاب باليابانية: «نعم».

- Okiro.

- يخبرك أن تنهض.

نهض بلاكتورن، والألم يقرع رأسه. كانت عيناه مصوبتين على أومي وبادلله أومي النظر.

- ستذهب مع مورا وتطيع أوامره.

لم يجب بلاكتورن.

قال أومي بحدة: «Wakarimasu ka?».

- نعم.

كان بلاكتورن يقيس المسافة بينه وبين أومي. شعر بالفعل بأصابعه على رقبة الرجل ووجهه، وصلَّى أن يكون سريعاً وقوياً بما يكفي ليقطع عيني أومي قبل أن يبعده عن الرجل. قال: «ماذا عن الفتى؟».

تحدث الكاهن إلى أومي بتردد.

ألقي أومي نظرة على الرجل. لم يكن الماء دافئاً بالكاد بعد. لقد أغمي على الفتى لكنه لم يصب بأذى. أمر أومي: «أخرجوه من هناك. وأحضروا طبيباً إذا احتاج إليه».

أطاع رجاله. رأى بلاكتورن يذهب إلى الفتى ويستمع إلى دقات قلبه. أشار أومي إلى الكاهن: «أخبر القائد أن الشاب يستطيع أيضاً البقاء خارج الحفرة اليوم. وإذا أحسن القائد والفتى التصرف، فقد يخرج شخص آخر منهم من الحفرة غداً. ثم ربما آخر. أو ربما أكثر من واحد. يعتمد الأمر على تصرف من هم خارج الحفرة. لكن أنت...». نظر مباشرة إلى بلاكتورن: «... أنت مسؤول عن أصغر مخالفة لأي قاعدة أو أمر. هل تفهم؟».

بعد أن ترجم الراهب هذا، سمع أومي الهمجي يقول: «نعم». ورأى جزءاً من الغضب الذي يكنه داخله يختفي من عينيه. لكن الكراهية بقيت. فكر أومي: يا لها من حماقة وسذاجة أن تكون مكشوفاً هكذا. أتساءل عما كان سيفعل إذا واصلت اللعب معه وتظاهرت بالتراجع عن وعدي، أو لمحت بأنني وعدت بشيء لم أعد به.

- أيها الكاهن، أخبرني مجدداً ما اسمه؟ انطقه ببطء.

سمع بلاكتورن الكاهن يردد الاسم عدة مرات لكنه بدا غير مفهوم تماماً.

سأل أحد رجاله: «هل يمكنك نطقه؟».

- لا يا أومي سان.

- يا كاهن، أخبره أن اسمه من الآن فصاعدًا أنجين، إنه ربان السفينة، أليس كذلك؟ عندما يستحق ذلك، سيُنَادى بلقب أنجين سان. اشرح له أنه لا توجد أصوات في لغتنا تسمح لنا بنطق اسمه الحقيقي كما هو. (أضاف أومي بتهكم): أَكَّدْ له أن هذا ليس بغرض الإهانة. وداعًا يا أنجين، إلى اللقاء لاحقًا.

انحنوا جميعًا له. ورد لهم التحية بأدب وابتعد. عندما ابتعد تمامًا عن الساحة وتأكد من عدم وجود من يراقبه، سمح لنفسه بالابتسام. أن يروض زعيم الهمج بهذه السرعة! أن يكتشف على الفور كيفية السيطرة عليه وعلى رجاله!

فكر: كم هم غريبون هؤلاء الهمج. كلما تعلَّم أنجين لغتنا بسرعة كان ذلك أفضل. حينئذٍ سنعرف كيفية سحق الهمج المسيحيين إلى الأبد.

سأل يابو: «لماذا لم تتبول على وجهه؟».

- في البداية نويت فعل ذلك يا سيدي. لكن الربان لا يزال حيوانًا جامحًا وخَطِرًا للغاية. أن أفعل ذلك على وجهه... حسنًا، بالنسبة لنا فإن لمس وجه الرجل هو أسوأ أنواع الإهانات، أليس كذلك؟ لذلك استنتجت أنني ربما سأهينه بشدة لدرجة أنه قد يفقد السيطرة. لذلك تبولت على ظهره، وهو ما أعتقد أنه سيكون كافيًا.

كانوا جالسين في شرفة منزله على وسائل حريرية. كانت والدة أومي تقدم لهم الشاي بكل مراسم الضيافة التي تتقنها، فقد دُرِّبَت جيدًا في شبابها. قدمت الفنجان بانحناءة إلى يابو. انحنى هو وقدمه بأدب إلى أومي، الذي رفضه بالطبع بانحناءة أعمق، ثم قبله واحتسى منه بمتعة، وشعر بالكمال.

قال: «أنا معجب بك جدًّا يا أومي سان، فإن منطقك استثنائي. تخطيئك وتعاملك مع كل هذا الأمر كان رائعًا».

- أنت لطيف للغاية يا سيدي. كان من الممكن أن تكون جهودي أفضل، أفضل بكثير.

- أين تعلمت الكثير عن عقلية الهمجي؟

- عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، كان لدي معلم لمدة عام وهو الكاهن الذي يُدعى جيرو. لقد كان كاهنًا مسيحيًّا في وقت من الأوقات،

على الأقل كان كاهناً متدرباً، لكن لحسن الحظ أدرك أخطاء غبائه. لطالما تذكرت شيئاً قاله لي. قال إن الدين المسيحي ضعيف لأنهم يعلمون أن إلههم الرئيسي يسوع قال إن على جميع الناس أن «يحبوا» بعضهم بعضاً، لم يعلم شيئاً عن الشرف أو الواجب، فقط الحب. وأيضاً أن الحياة مقدسة «لا تقتل»، أليس كذلك؟ وغيرها من الحماقات. هؤلاء الهمج الجدد يدعون أيضاً أنهم مسيحيون رغم أن الكاهن ينكر ذلك، لذلك استنتجت أنهم ربما مجرد طائفة مختلفة، وهذا هو سبب عداوتهم، تماماً مثل كره بعض الطوائف البوذية لبعضها بعضاً. اعتقدت أنهم إذا كانوا «يحبون بعضهم بعضاً»، ربما نتمكن من السيطرة على القائد عن طريق أخذ حياة أحد رجاله أو حتى التهديد بقتله.

كان أومي يعلم أن هذه المحادثة خطيرة بسبب التعذيب حتى الموت، والموت المهين. شعر بتحذير والدته غير المعلن يمر بينهما. سألت والدته: «هل تريد مزيداً من الشاي يا يابو ساما؟». قال يابو: «شكراً لك، إنه جيد جداً، جداً».

- شكراً لك يا سيدي. ولكن يا أومي سان، هل سيطرت على الهمجي نهائياً؟

سألت والدته محاولة تغيير مجرى المحادثة: «ربما يجب أن تخبر زعيمنا إذا كنت تعتقد أن السيطرة مؤقتة أو دائمة».

تردد أومي: «مؤقتة. لكنني أعتقد أنه يجب أن يتعلم لغتنا بأسرع ما يمكن. هذا مهم جداً بالنسبة لك يا سيدي. ربما يتعين عليك تدمير واحد أو اثنين منهم حتى تبقى هو والباقيين تحت السيطرة، ولكن بحلول ذلك الوقت سيكون قد تعلم كيفية التصرف. حالما نتمكن من التحدث معه مباشرة يا يابو ساما، سيمكنك الاستفادة من معرفته. إذا كان ما قاله الكاهن صحيحاً - بأنه قاد السفينة لمسافة عشرة آلاف ري- فلا بد أن يكون أكثر من مجرد رجل ذكي قليلاً».

ضحك يابو: «أنت أكثر من مجرد رجل ذكي قليلاً. لقد وضعت مسؤولاً عن الحيوانات. أومي سان، مدرب الرجال».

ضحك أومي معه: «سأبذل جهدي يا زعيم».

- رفعت إقطاعيتك من خمسمائة إلى ثلاثة آلاف كوكو. سيكون لديك سيطرة في نطاق عشرين ري.

الري هو مقياس للمسافة يقارب كيلو وستمائة متر تقريبًا.

- كمؤشر آخر على تقديري، عندما أعود إلى إيدو، سأرسل لك حصانين وعشرين كيمونو حريري ودرعًا واحدًا وسيفين وأسلحة كافية لتجهيز مائة ساموراي آخرين ستجندهم. وعندما تندلع الحرب ستتضم فورًا إلى طاقمي الشخصي كهاتاموتو.

كان يابو يشعر بالكرم: كان الهاتاموتو تابعًا شخصيًا خاصًا للدايميو وكان له حق الوصول إلى زعيمه ويمكنه ارتداء السيوف في حضور زعيمه. كان مسرورًا بأومي وشعر بالراحة، حتى إنه شعر وكأنه قد وُلد من جديد. لقد نام بشكل رائع. وعندما استيقظ وجد نفسه وحيدًا، وهو أمر متوقع، لأنه لم يطلب من الفتاة أو الصبي البقاء. شرب القليل من الشاي وتناول القليل من عصيدة الأرز. ثم استحم وتلقى مساجًا من سوو.

فكر: كانت تجربة رائعة. لم أشعر قط بهذا القرب من الطبيعة، من الأشجار والجبال والأرض، ومن حزن الحياة الذي لا يُقدر بثمن وسرعته في الزوال. وأضفت الصرخات إلى مثالية كل شيء.

قال: «يا أومي سان، توجد صخرة في حديقتي بميشيما أود أن تقبلها، أيضًا لإحياء ذكرى هذا الحدث، وتلك الليلة الرائعة وحظنا الجيد. سأرسلها مع الأشياء الأخرى، إن الصخرة من كيوشو. أسميتها «حجر الانتظار: لأننا كنا ننتظر أمر الزعيم التايكو بشن هجوم عندما وجدتها. لقد كان ذلك... منذ خمسة عشر عامًا. كنت جزءًا من جيشه الذي سحق المتمردين وأخضع الجزيرة».

- هذا يشرفني كثيرًا.

- لماذا لا تضعها هنا في حديقتك وتعيد تسميتها؟ لماذا لا تسميها «حجر السلام الهمجي» لإحياء ذكرى تلك الليلة وانتظاره اللامتناهي للسلام.

- ربما يمكنك السماح لي بتسميتها «حجر السعادة» لتذكيري وتذكير ذريتي بفضلك عليّ يا عمي؟

- لا، من الأفضل تسميته ببساطة «الهمجي المنتظر». نعم، يعجبني ذلك. يجمعنا هذا أكثر... هو وأنا. لقد كان ينتظر كما كنت أنتظر. أنا عشت،

ومات هو. (نظر يابو إلى الحديقة متأملًا): جيد، «الأجنبي المنتظر» يعجبني ذلك. توجد بقع غريبة على أحد جوانب الصخرة تذكرني بالدموع، وأوردة زرقاء مختلطة بالكوارتز الأحمر الذي يذكرني باللحم، وجوده الفاني له. (تنهد يابو متمتعًا بحزنه): من الجيد أن يزرع الرجل حجرًا ويسمي حجرًا. لقد استغرق الهمجي وقتًا طويلًا ليموت، أليس كذلك؟ ربما يُولد من جديد كشخص ياباني، لتعويض معاناته. ألن يكون ذلك رائعًا؟ ثم ربما يرى أحفاده حجره يومًا ما ويكونون راضين.

انهال أومي عليه بشكره الصادق، واعترض على أنه لا يستحق كل هذه المكافآت. عرف يابو أن المكافآت لم تكن أكثر مما يستحق. كان بإمكانه بسهولة أن يعطي أكثر، لكنه تذكر المثل القديم الذي يقول إنه يمكنك دائمًا زيادة الإقطاعية، ولكن تقليصها يسبب العداوة. والخيانة.

قال للمرأة، مانحًا لها لقب «الأم النبيلة»: «أوكو سان. كان يجب على أخي أن يخبرني في وقت سابق عن الصفات الرائعة لابنه الأصغر. حينها كان أومي سان سيصبح أكثر تقدمًا اليوم. أخي متواضع جدًا، ولا يفكر كثيرًا».

أجابت مدركةً للانتقاد الكامن: «زوجي مراع لك يا سيدي، حتى لا يقلقك. أنا سعيدة بأن ابني أُتيحت له فرصة لخدمتك، وأنه أسعدك. ابني لم يفعل سوى واجبه، أليس كذلك؟ من واجبنا -ميزونو سان ونحن جميعًا- أن نخدم». ارتفعت أصوات خيول تصعد المنحدر. دخل إيجوراشي -كبير حراس يابو- إلى الحديقة بخطوات واسعة: «كل شيء جاهز يا سيدي. إذا كنت تريد العودة إلى إيدو بسرعة، يجب أن نغادر الآن».

- جيد. يا أومي سان، ستذهب أنت ورجالك مع القافلة وتساعد إيجوراشي سان على إيصالها بأمان إلى القلعة. (رأى يابو تغير تعبير وجه أومي للحظة): ماذا؟

- كنت أفكر فقط في الهمج.

- اترك لهم بعض الحراس. فهم غير مهمين مقارنة بالقافلة. افعل ما تريد بهم، أعدهم إلى الحفرة، افعل ما تريد. عندما تحصل أو إذا حصلت على أي شيء مفيد منهم، أخبرني.

أجاب أومي: «حسنًا يا زعيم، سأترك عشرة من الساموراي وتعليمات محددة مع مورا، لن يلحق بهم أي أذى خلال خمسة أو ستة أيام. ماذا تريد أن تفعل بالسفينة نفسها؟».

- احتفظ بها بأمان هنا. أنت مسؤول عنها بالطبع. أرسل زوكيموتو رسائل إلى تاجر في ناجازاكي لعرضها للبيع على البرتغاليين. يمكن للبرتغاليين المجيء واستلامها.

تردد أومي: «ربما يجب أن تحتفظ بالسفينة يا سيدي، وتجعل الهمج يدرّبون بعض بحارتنا على التعامل معها».

ضحك يابو باستهزاء: «لماذا قد أحتاج إلى سفن همجية؟ هل يجب أن أصبح تاجرًا قذرًا؟».

قال أومي بسرعة: «بالطبع لا يا سيدي. فقط فكرت أن زوكيموتو ربما وجد استخدامًا لمثل هذه السفينة».

- لماذا قد أحتاج إلى سفينة تجارية؟

- قال الكاهن إن هذه سفينة حربية يا سيدي. بدا خائفًا منها. عندما تندلع الحرب، يمكن لسفينة حربية أن تـ...

- ستُحسم حربنا على الأرض. البحر للتجار، وهم ليسوا سوى مرابون قذرون أو قراصنة أو صيادون.

نهض يابو وبدأ ينزل الدرجات نحو بوابة الحديقة حيث كان يقف ساموراي ممسكًا بلجام حصانه. توقف وحدق نحو البحر. وشعر بالضعف في ركبتيه.

تابع أومي نظره.

سفينة تقترب من الرأس البحري. كانت قادم ضخمة بها مجاذيف كثيرة، وهي أسرع سفن السواحل اليابانية لأنها لا تعتمد على الرياح ولا على المد والجزر. حمل علم الصاري شعار توراناغا.

الفصل السابع

تودا هيرو ماتسو، زعيم مقاطعتي ساجامي وكوزوكي، أكثر قادة ومستشارين توراناغا ثقة، والقائد الأعلى لكل جيوشه، نزل بمفرده على سلم السفينة المؤدي إلى الرصيف. لقد كان طويلًا بالنسبة لرجل ياباني، يقل قليلًا عن مئة وثمانين سنتيمترًا، رجلًا ضخمًا كالثور ذا فكٍّ سفليٍّ بارز، وقد حمل سنواته السبع والستين بقوة. كان الكيمونو الحربي الخاص به بني اللون مصنوعًا من الحرير، بسيطًا باستثناء خمس من شارات توراناغا الصغيرة، وثلاث حزم متشابكة من أغصان الخيزران. كان يرتدي درعًا صدريًا مصقولًا وأدرع واقية للذراع من الفولاذ. لم يكن في حزامه سوى السيف القصير. أما الآخر، سيف القتل، فقد حمله بيده بحرية. كان مستعدًا لإشهار سيفه على الفور وقتل أي شخص لحماية زعيمه الإقطاعي. كانت هذه عادته منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره.

لم يتمكن أحد -ولا حتى التايكو- من تغييرها.

قبل عام عندما توفي التايكو، أصبح هيرو ماتسو تابعًا لتوراناغا. لقد منحه توراناغا حكم مقاطعتي ساجامي وكوزوكي، اثنتان من مقاطعاته الثماني، وخمسمائة ألف كوكو سنويًا، وتركه أيضًا لممارسة عادته. كان هيرو ماتسو ماهرًا جدًا في القتل.

الآن، كان الشاطئ مليئًا بجميع قروبي القرية -رجالًا ونساءً وأطفالًا- جاثين على ركبهم ورؤوسهم منخفضة. كان الساموراي واقفين في صفوف منظمة ورسمية أمامهم. وكان يابو على رأسهم مع مساعديه.

إذا كان يابو امرأة أو رجلًا ضعيفًا، كان يعلم أنه سيضرب صدره ويبكي وينتف شعره. كانت هذه مصادفة كبيرة جدًا. بالنسبة لتودا هيرو ماتسو الشهير أن يكون هنا في هذا اليوم، يعني أن يابو قد تعرض للخيانة إما في إيدو من قبل أحد أفراد منزله، وإما هنا في أنجيرو من قبل أومي، أو أحد

رجال أومي، وإما أحد قرويي القرية. لقد وقع في فخ العصيان. استغل عدو اهتمامه بالسفينة.

جثا وانحنى وتبعه جميع الساموراي، ولعن السفينة وكل من أبحر فيها.
- يابو ساما.

سمع صوت هيرو ماتسو يقول، ورأى هيرو ماتسو يجثو على الحصير الذي وُضع له ويرد تحيته. لكن عمق الانحناءة كان أقل مما يليق، ولم ينتظر هيرو ماتسو أن ينحني مرة أخرى، لذلك علم دون أن يخبره أحد أنه كان في خطر جسيم. رأى القائد يجلس على عقبيه. كان يُلقب بـ«القبضة الحديدية» بغير علمه. فقط توراناغا أو أحد المستشارين الثلاثة سيكون له امتياز رفع علم توراناغا. لماذا يرسل قائدًا مهمًا كهذا للقبض عليّ خارج إيدو؟

قال: «تشرفت بحضورك إلى إحدى قراري الفقيرة يا هيرو ماتسو ساما». عُرف هيرو ماتسو بصراحته المطلقة. لم يكن يمتلك لا المكر ولا الخبث، بل كان يتمتع فقط بولاء تام لزعيمه الإقطاعي: «أمرني سيدي بالقدوم إلى هنا».

قال يابو: «تشرفت وسعدت جدًا، لقد هرعت إلى هنا من إيدو بسبب تلك السفينة الهمجية».

- لقد دعا الزعيم توراناغا جميع الداييمو الذين تربطه بهم علاقات ودية إلى الانتظار في إيدو حتى يعود من أوساكا.

- كيف حال زعيمنا؟ أمل أن يسير كل شيء على ما يرام معه؟

- كلما وصل الزعيم توراناغا بسرعة إلى قلعته الخاصة في إيدو، كان ذلك أفضل. وكلما كان الاشتباك مع إيشيدو علنيًا، وحشدنا جيوشنا وشقينا طريق عودتنا إلى قلعة أوساكا وأحرقناها كاملة، كان ذلك أفضل.

احمر وجه الرجل العجوز بسبب قلقه على توراناغا حيث كان يكره الابتعاد عنه. لقد بنى التايكو قلعة أوساكا لتكون حصينة لا تُقهر. كانت أعظم قلعة في الإمبراطورية، مع أبراج وحصون متشابكة وخنادق وقلاع أصغر وأبراج وجسور، ومساحة تكفي لاستيعاب ثمانين ألف جندي داخل أسوارها. وحول الأسوار والمدينة الضخمة كانت توجد جيوش أخرى، مدرّبة ومجهزة بالقدر نفسه، وجميعهم من المؤيدين المتعصبين ليايمون الوريث الشرعي.

أضاف: «لقد أخبرته عشرات المرات أنه كان مجنوناً لكي يضع نفسه تحت سلطة إيشيدو. مجنون».

- كان على الزعيم تورانا جا الذهاب، أليس كذلك؟ لم يكن لديه خيار.

أمر التايكو بأن يجتمع مجلس الوصاية الذي يحكم باسم يايمون، لمدة عشرة أيام على الأقل مرتين في السنة ودائماً داخل قلعة أوساكا، ويحضروا معهم خمسمائة تابع كحد أقصى داخل الأسوار. وألزم جميع الدايميو الآخرين على حد سواء بزيارة القلعة مع عائلاتهم لتقديم احترامهم للوريث الشرعي مرتين في السنة أيضاً. لذلك سيطرَ عليهم جميعاً، وكانوا جميعاً عرضة للخطر لبعض الوقت من العام، كل عام: «كان موعد الاجتماع ثابتاً، أليس كذلك؟ لو لم يذهب ستُعد خيانة عظمى، أليس كذلك؟».

ازداد احمرار وجه هيرو ماتسو: «خيانة ضد من؟ يحاول إيشيدو عزل سيدنا. أنصت، إذا كنت أملك سلطة على إيشيدو مثلما يملك هو على الزعيم تورانا جا، فلن أتردد لحظة... مهما كانت الأخطار. كان رأس إيشيدو سيفصل عن كتفيه منذ زمن بعيد، وروحه تنتظر لتولد من جديد».

كان القائد يحرك غمد السيف البالي الذي يحمله في يده اليسرى بغير قصد. كانت يده اليمنى المتجعدة متصلة بالجلد موضوعة في حجره. قام بفحص إيراسموس ثم قال: «أين المدافع؟».

- لقد أحضرتها إلى الشاطئ لأسباب أمنية. هل سيقدم تورانا جا ساما تنازلاً آخر مع إيشيدو؟

- كان كل شيء هادئاً عندما غادرت أوساكا. كان من المقرر أن يجتمع المجلس خلال ثلاثة أيام.

- هل سيصبح الاشتباك علنياً؟

نظر هيرو ماتسو إلى يابو: «أود أن يكون علنياً. لكن زعمي؟ إذا أراد تقديم تنازل، فسيفعل. لقد أمر جميع الدايميو الحلفاء بانتظاره في إيدو. حتى يعود. هذه ليست إيدو».

- نعم. شعرت بأن السفينة مهمة لقضيتنا لذلك حققت في أمرها على الفور.

- لا يوجد داعٍ لذلك يا يابو سان. يجب أن تكون أكثر ثقة. لا يحدث شيء دون علم سيدنا. لكان أرسل شخصًا ليحقق في الأمر. لقد حدث وأرسلني. كم من الوقت مضى وأنت هنا؟

- يوم وليلة.

- إذن فقد استغرقت يومين للقدوم من إيدو؟

- نعم.

- لقد أتيت بسرعة كبيرة. يجب أن تُشاد على ذلك.

بدأ يابو يخبر هيرو ماتسو عن مسيرته القسرية لكسب الوقت. لكن عقله كان مشغولًا بأمور أكثر أهمية. مَنْ الجاسوس؟ كيف حصل توراناغا على معلومات حول السفينة بنفس سرعة حصوله عليها هو نفسه؟ ومن أخبر توراناغا برحيله؟ كيف يمكنه الآن المناورة والتعامل مع هيرو ماتسو؟

استمع هيرو ماتسو إليه ثم قال: «صادر الزعيم توراناغا السفينة وكل ما تحتويه».

ساد صمت مفاجئ على الشاطئ. هذه إيزو، إقطاعية يابو، وليس لتوراناغا أي حقوق هنا. وليس لهيرو ماتسو أيضًا أي حقوق لإصدار أي أوامر. اشتدت قبضة يابو على سيفه.

انتظر هيرو ماتسو بهدوء راسخ. لقد فعل بالضبط ما أمره به توراناغا والآن أصبح ملتزمًا. إما أن يُقتل وإما يُقتل بلا هوادة.

عرف يابو أيضًا أنه يجب أن يلتزم الآن. لم يعد يوجد مجال للانتظار. إذا رفض التخلي عن السفينة فسيُتعين عليه قتل هيرو ماتسو «القبضة الحديدية»، لأن هيرو ماتسو «القبضة الحديدية» لن يغادر أبدًا دونها. ربما كان يوجد نحو مائتي ساموراي من النخبة على القادس التي رست على الرصيف. سيضطرون هم أيضًا إلى الموت. كان بإمكانه دعوتهم إلى الشاطئ وخداعهم، وخلال ساعات قليلة كان بإمكانه بسهولة أن يجمع عددًا كافيًا من الساموراي في أنجيرو للتغلب عليهم جميعًا، لأنه كان ماهرًا في نصب الكمائن. لكن هذا من شأنه أن يجبر توراناغا على إرسال جيوش ضد إيزو. قال لنفسه: سيُقضى عليك، ما لم يأت إيشيدو لإنقاذك. ولماذا ينقذك إيشيدو عندما يكون عدوك إيكافا جيكيو من أقارب إيشيدو ويريد إيزو لنفسه؟ سيؤدي قتل هيرو

ماتسو إلى اندلاع العداوات، لأن توراناغا سيلزمه شرفه بالتحرك ضدك، مما سيجبر إيشيدو على التدخل، وستصبح إيزو ساحة المعركة الأولى.

ماذا عن الأسلحة؟ أسلحتي الجميلة وخطتي الرائعة؟ سأفقد فرصتي الخالدة إلى الأبد إذا اضطررت إلى تسليمهم إلى توراناغا.

كانت يده على سيف موراساما، وكان بإمكانه الشعور بالدم في ذراعه التي تحمل السيف وبالحاجة الملحة للبدء بالقتال. لقد تخلص على الفور من فكرة عدم ذكر البنادق. إذا كانت أخبار السفينة قد تسربت، فبالتأكيد كُشِفَ عن هوية حمولتها أيضًا. ولكن كيف حصل توراناغا على الأخبار بهذه السرعة؟ عن طريق الحمام الزاجل! هذا هو الجواب الوحيد. من يبدو أم من هنا؟ من يمتلك الحمام الزاجل هنا؟ لماذا ليس لدي مثل هذه الخدمة؟ هذا ذنب زوكيموتو، كان يجب أن يفكر في الأمر، أليس كذلك؟

اتخذ قرارك. حرب أم لا حرب؟ وجّه يابو اللعنات على بوذا، وعلى كل الكامي، وعلى كل الآلهة التي كانت موجودة أو التي لم تُخلق بعد، على الرجل أو الرجال الذين خانوه، وعلى والديهم وعلى ذريتهم لعشرة آلاف جيل. ثم استسلم.

- لا يستطيع الزعيم توراناغا مصادرة السفينة لأنها بالفعل هدية له. لقد أملت رسالة بهذا الشأن. أليس كذلك يا زوكيموتو؟

- بلى يا سيدي.

- بالطبع إذا أراد الزعيم توراناغا اعتبارها مصادرة، فله الأمر. لكنها كانت ستُعد هدية. (سُر يابو من سماع أن صوته بدا طبيعيًا وواثقًا): سيكون سعيدًا بالغنائم.

- شكرًا نيابةً عن سيدي.

دُهِش هيرو ماتسو مجددًا من بُعد نظر توراناغا. لقد توقع توراناغا أن يحدث هذا ولن يكون هناك قتال. كان قد قال هيرو ماتسو حينها: «لا أصدق ذلك. لن يتحمل أي داييميو مثل هذا الاستيلاء على حقوقه. لن يقبل يابو بذلك. أنا بالتأكيد لن أفعل. حتى لك يا سيدي».

- ولكنك كنت ستطيع الأوامر وتخبرني عن السفينة. يجب التلاعب بيابو، أليس كذلك؟ أنا بحاجة إلى عنفه ودهائه، فهو يحيد إيكافا جيكيو ويحمي جانبي.

هنا على الشاطئ تحت شمس لطيفة، أجبر هيرو ماتسو نفسه على الانحناء باحترام، كارهًا نفاقه الشخصي: «سيسعد الزعيم توراناغا بكرمك». كان يابو يراقبه من كثب: «إنها ليست سفينة برتغالية».

- نعم. هذا ما سمعنا.

- إنها سفينة قراصنة.

رأى عيني القائد تضيقان.

- ماذا؟

بينما كان يخبره بما قاله الكاهن، فكر يابو: إذا كان هذا خبرًا جديدًا لك كما كان لي، ألا يعني ذلك أن توراناغا تلقى المعلومات الأولية نفسها التي تلقيتها أنا؟ ولكن إذا كنت تعرف محتويات السفينة، فإن الجاسوس هو أومي أو أحد الساموراي الخاصين به أو قروي: «توجد وفرة من القماش وبعض الكنوز، وبنادق وبارود ورصاص».

تردد هيرو ماتسو ثم قال: «هل القماش من الحرير الصيني؟».

- لا يا هيرو ماتسو سان.

قال مستخدمًا لقب «سان». لقد كانوا دايميو على قدم المساواة. ولكن الآن بعد أن أصبح «يقدم» السفينة بسخاء، شعر بالأمان الكافي لاستخدام المصطلح الأقل تحفظًا. لقد سُر من ملاحظة أن الكلمة لم تمر مرور الكرام على الرجل الأكبر سنًا. أنا دايميو إيزو بحق الشمس والقمر والنجوم!

قال: «إنه غريب جدًا. قماش سميك ثقيل غير مفيد لنا على الإطلاق. لقد أحضرت كل شيء يستحق الإنقاذ إلى الشاطئ».

- جيد. رجاءً ضع كل شيء على متن سفينتي.

- ماذا؟

كاد يابو أن يفقد أعصابه.

- كل شيء. على الفور.

- الآن؟

- نعم. أعتذر حقًا، لكنك ستفهم بطبيعة الحال أنني أريد العودة إلى أوساكا في أقرب وقت ممكن.

- نعم ولكن... ولكن هل سيكون هناك مساحة لكل شيء؟

- ضع المدفع على السفينة الهمجية وأغلقها. ستصل قوارب خلال ثلاثة أيام لسحبها إلى إيدو. أما بالنسبة للبنادق والبارود والرصاص، فهناك...

توقف هيرو ماتسو فجأة، متجنبًا الفخ الذي أدرك فجأة أنه نُصِب له. كان توراناكا قد أخبره: «توجد مساحة كافية فقط لخمسمائة بندقية، وكل البارود وعشرون ألف دوبلون فضي على متن القادس. اترك المدفع على سطح السفينة والقماش في الأسفل. دع يابو يتحدث وأعطه الأوامر، لا تمنحه وقتًا للتفكير. لكن لا تغضب أو تتعامل معه بنفاد صبر. أنا بحاجة إليه، لكني أريد تلك البنادق والسفينة. احذر من محاولته استدراجك للكشف عن علمك الدقيق بحمولة السفينة، لأنه يجب ألا يكشف جاسوسنا».

لعن هيرو ماتسو عجزه عن لعب هذه الألعاب الضرورية. قال باختصار: «أما بالنسبة للمساحة المطلوبة، فربما يجب أن تخبرني أنت. ما هي البضاعة بالضبط؟ كم عدد البنادق والرصاص وما إلى ذلك؟ والسبائك عبارة عن قوالب أم عملات معدنية... هل هي فضة أم ذهب؟».

- زوكيموتو.

- نعم يا يابو سما.

- أحضر قائمة المحتويات.

فكر يابو: سأتعامل معك لاحقًا.

هرع زوكيموتو بعيدًا.

- لا بد أنك متعب يا هيرو ماتسو سان. هل تريد بعض الشاي؟ جُهِّزت أماكن إقامة لك، رغم بساطتها وكون أحواض الاستحمام غير مناسبة تمامًا، لكن ربما يُشعرك واحدٌ منها بالانتعاش قليلًا.

- شكرًا لك. أنت مراع جدًا. سيكون الشاي والحمام رائعين لاحقًا. ولكن أخبرني أولاً كل شيء حدث منذ وصول السفينة إلى هنا.

أخبره يابو بالحقائق، باستثناء الجزء الخاص بالمحظية والفتى، وهو أمر غير مهم. بناءً على أوامر يابو، روى أومي قصته، باستثناء محادثاته الخاصة مع يابو. وروى مورا قصته أيضًا باستثناء الجزء الخاص بجسد أنجين الذي استنتج مورا أنه رغم كونه مثيرًا للاهتمام، فقد يسيء إلى هيرو ماتسو نظرًا لكبر سنّه.

نظر هيرو ماتسو إلى الدخان الذي لا يزال يتصاعد من المحرقة: «كم تبقى من القراصنة؟».

قال أومي: «عشرة يا سيدي، بما في ذلك القائد».

- أين القائد الآن؟

- في منزل مورا.

- ماذا فعل؟ ما أول شيء فعله هناك بعد خروجه من الحفرة؟

قال مورا بسرعة: «ذهب مباشرة إلى الحمام يا سيدي. والآن هو نائم كرجل ميت يا سيدي».

- لم يكن عليك أن تحمله هذه المرة؟

- لا يا سيدي.

نظر هيرو ماتسو لأومي: «يبدو أنه يتعلم بسرعة. هل تعتقد أنه يمكن تعليمهم التصرف بشكل لائق؟».

- لا. ليس بالضبط يا هيرو ماتسو ساما.

- هل تستطيع تنظيف بول العدو من ظهرك؟

- لا يا زعيم.

- ولا أنا أيضًا. إطلاقًا. إن الهمج غرباء للغاية. (أعاد هيرو ماتسو تفكيره إلى السفينة): من سيشرف على التحميل؟

- ابن أخي، أومي سان.

- جيد. أريد المغادرة قبل الغسق يا أومي سان. سيساعدك قبطاني على الإسراع. في غضون ثلاثة أعواد.

كانت وحدة الوقت هي الوقت الذي يستغرقه عود بخور للاحتراق، وهو ساعة واحدة تقريبًا لكل عود.

- حسنًا يا زعيم.

قال هيرو ماتسو وكأنها فكرة مفاجئة: «لماذا لا تأتي معي إلى أوساكا يا يابو سان؟ سيسعد الزعيم توراناغا بتلقي كل هذه الأشياء من يدك شخصيًا. رجاء، توجد مساحة كافية لك».

عندما بدأ يابو بالاحتجاج، سمح له هيرو ماتسو بالاستمرار لفترة من الوقت، كما أمر توراناغا، ثم قال، كما أمر توراناغا: «أنا أصر. باسم الزعيم توراناغا، أصر. يجب مكافأة كرمك».

سأل يابو نفسه بمرارة: برأسي وأراضي؟ وهو يعلم أنه لا يوجد شيء يمكنه فعله الآن سوى القبول بامتنان: «شكراً لك. سيشرفني ذلك».

قال القبضه الحديدية بارتياح واضح: «جيد. إذن، لقد انتهينا من كل شيء، والآن أريد بعض الشاي. وحماماً».

قاد يابو الطريق بأدب إلى أعلى التل باتجاه منزل أومي. غُسل الرجل العجوز ونُظف ثم استلقى بامتنان في الحرارة المتصاعدة. وفي وقت لاحق أعادت يدا سوو تجديد شبابه. تناول القليل من الأرز والسّمك النيء والمخللات باعتدال وعلى انفراد. احتسى الشاي من فنجان خزف فاخر. وحظي على قيلولة قصيرة بلا أحلام.

انفتح باب الشوجي بعد ثلاثة أعواد بخور. كان الحارس الشخصي يعلم جيداً أنه لا يجب الدخول إلى الغرفة دون إذن، كان هيرو ماتسو مستيقظاً بالفعل والسيف نصف مستلّ ومُهيأً.

- يابو ساما ينتظر في الخارج يا سيدي. يقول إن السفينة محملة.

- ممتاز.

خرج هيرو ماتسو إلى الشرفة وتبول في الدلو: «رجالُك أكفأ للغاية يا يابو سان».

- رجالُك ساعدوا أيضاً يا هيرو ماتسو سان. إنهم أكثر من أكفأ.

فكر هيرو ماتسو: نعم، وبحق الشمس يجب أن يكونوا كذلك. ثم قال بلطف: «لا يوجد شيء يضاهي التبول الجيد من مثانة ممثلة ما دامت القوة وراء البول قوية، أليس كذلك؟ يجعلك تشعر بالشباب مرة أخرى. في سني، تحتاج إلى الشعور بالشباب».

خفف من لباسه الداخلي براحة، وتوقع من يابو أن يدلي بملاحظة مهذبة بالموافقة، لكن لم يصدر أي تعليق. بدأ غضبه يزداد لكنه كبّحه: «اصطحب قائد القراصنة إلى سفينتي».

- ماذا؟

- لقد كنتَ كريماً بما يكفي لتقديم السفينة والمحتويات كهدية. الطاقم جزء من المحتويات. لذا فأنا سأخذ قائد القراصنة إلى أوساكا. يريد الزعيم توراناغا رؤيته. وبطبيعة الحال ستتصرف كما تشاء في الباقين. لكن خلال غيابك يرجى التأكد من أن أتباعك يدركون أن الهمج ملك سيدي، وأنه من الأفضل أن يكون هناك تسعة منهم أحياء وبصحة جيدة وموجودون عندما يريد الزعيم توراناغا رؤيتهم.

هرع يابو إلى الرصيف حيث يُفترض أن يكون أومي موجود. عندما ترك هירו ماتسو ليستحم في وقت سابق، سار على الطريق الذي يتعرج بمحاذاة المقبرة. هناك انحنى بإيجاز أمام المحرقة واستمر في السير، محاذياً حقول القمح والفاكهة المتدرجة للوصول في النهاية إلى هضبة صغيرة عالية فوق القرية. يعتلي هذا المكان الهادئ ضريح منظم للكامي. وتمنحه شجرة عتيقة الظل والسكينة. ذهب إلى هناك لقمع غضبه والتفكير. لم يجرؤ على الاقتراب من السفينة أو أومي أو رجاله لأنه كان يعلم أنه سيأمر معظمهم، إن لم يكن جميعهم، بالسيبوكو، وهو ما كان ليُعد مضيعة، وكان سيذبح أهل القرية، وهو ما كان ليُعد حماقة، فالفلاحون وحدهم يصطادون الأسماك ويزرعون الأرز الذي يوفر ثروة الساموراي. بينما كان يجلس ويثور بمفرده ويحاول شحذ ذهنه، غربت الشمس وبددت ضباب البحر. انقشعت الغيوم التي تحجب الجبال البعيدة إلى الغرب للحظة وقد رأى جمال القمم المغطاة بالثلوج وهي تحلق في السماء. هدأه هذا المشهد وبدأ يسترخي ويفكر ويخطط.

أخبر نفسه: أرسل جواسيسك للعثور على الجاسوس. لم يشر أي شيء قاله هירו ماتسو إلى ما إذا كانت الخيانة من هنا أم من إيدو. لديك أصدقاء أقوياء في أوساكا، من بينهم الزعيم إيشيدو نفسه. ربما يستطيع واحد منهم كشف النقاب عن الخائن. ولكن أرسل رسالة خاصة على الفور إلى زوجتك في حالة وجود المخبر هناك. ماذا عن أومي؟ هل تجعله مسؤولاً عن العثور على المخبر هنا؟ هل هو المخبر؟ هذا ليس وارداً، ولكنه ليس مستحيلاً. من المحتمل جداً أن تكون الخيانة قد بدأت في إيدو. إنها مسألة توقيت. إذا تلقى توراناغا في أوساكا معلومات عن السفينة عند وصولها، لكان هירו ماتسو قد وصل إلى هنا أولاً. لديك مخبرون في إيدو. دعهم يُثبتوا قيمتهم.

ماذا عن الهمج؟ الآن هم ربك الوحيد من السفينة. كيف يمكنك استخدامهم؟ انتظر، ألم يزودك أومي بالإجابة؟ يمكنك استخدام معرفتهم بالبحر والسفن للمقايضة مع تورانا جا للحصول على بنادق. أليس كذلك؟

إمكانية أخرى: أن تصبح تابعًا لتورانا جا بالكامل. أعطه خطتك. اطلب منه السماح لك بقيادة كتيبة البنادق من أجل مجده. لكن يجب على التابع ألا يتوقع أبدًا من سيده أن يكافئ خدماته أو حتى يعترف بها: الخدمة واجب، والواجب هو الساموراي، والساموراي هو الخلود. فكر يابو: ستكون هذه أفضل طريقة، الأفضل على الإطلاق. هل يمكنني حقًا أن أكون تابعًا له؟ أو لإيشيدو؟

لا، هذا مستبعد. ربما حليف وليس تابعًا. حسنًا، إذن فالهمج يمثلون قيمة حقيقية بعد كل شيء. أومي على حق مرة أخرى.

شعر بتحسن نسبي ثم عندما حان الوقت وأحضر الرسول معلوماتٍ تفيد بأن السفينة محملة، ذهب إلى هירו ماتسو واكتشف أنه قد فقد حتى الهمج الآن.

لقد كان يغلي غضبًا عندما وصل إلى المرسى.

- أومي سان!

- نعم يا يابو ساما؟

- أحضر قائد الهمج إلى هنا. أنا سأحضره إلى أوساكا. أما بالنسبة للآخرين فتأكد من رعايتهم جيدًا في أثناء غيابي. أريدهم أن يكونوا في حالة بدنية جيدة ومنضبطين. استخدم الحفرة إذا اضطررت إلى ذلك.

منذ وصول القادس، كان ذهن أومي في حالة من التوتر وكان مليئًا بالقلق على سلامة يابو: «اسمح لي بمرافقتك يا زعيم. ربما يمكنني المساعدة».

- لا، الآن أريدك أن تعتني بالهمج.

- أرجوك. ربما يمكنني بطريقة ما أن أرد لك جميلك.

قال يابو بلطف أكثر مما أراد: «لا حاجة إلى ذلك».

تذكر أنه رفع راتب أومي إلى ثلاثة آلاف كوكو ووسع إقطاعيته بسبب السبائك والبنادق. والتي اختفت الآن. لكنه رأى القلق الذي يملأ الشاب وشعر

بدفء لا إرادي. وعد نفسه: مع أتباع مثله، سأبني إمبراطورية. سيقود أومي إحدى الفرق عندما أستعيد بنادقي: «عندما تندلع الحرب... حسنًا، سيكون لدي مهمة غاية في الأهمية لك يا أومي سان. الآن اذهب وأحضِر الهمج».

اصطحب أومي أربعة حراس معه. ومورا للترجمة.

انتشِل بلاكثورن من النوم. استغرق منه الأمر دقيقة لاستعادة وعيه. وعندما صَفَّى ذهنه كان أومي يحدق إليه من الأعلى.

سحب أحد الساموراي الغطاء عنه، وأيقظه آخر، بينما حمل الآخرون عصي خيزران نحيلة المظهر. كان لدى مورا لفافة قصيرة من الحبل.

جثا مورا وانحنى متحدثًا باليابانية: «مرحبًا».

- مرحبًا.

نهض بلاكثورن على ركبتيه، ورغم أنه كان عاريًا، فإنه انحنى بالقدر نفسه من الأدب.

قال بلاكثورن لنفسه: إنه أدب. إنها عاداتهم وينحنون كنوع من الاحترام، فلا عيب في ذلك. كما يُتجاهل العري وهو أيضًا من عاداتهم، ولا عيب في العري أيضًا.

قال مورا: «أنجين. رجاء ارتدِ ملابسك».

أنجين؟ آه، أتذكر الآن. قال الكاهن إنهم لا يستطيعون نطق اسمي لذا أطلقوا عليَّ اسم «أنجين» الذي يعني «الربان» وليس المقصود به إهانة. وسألَقب بـ«أنجين سان» -السيد الربان- عندما أُستحق ذلك.

حذر نفسه: لا تنظر إلى أومي. ليس بعد. لا تتذكر ساحة القرية وأومي وكروك وبيترزون. شيء واحد في كل مرة. هذا ما ستفعله. هذا ما أقسمت أمام الرب على فعله: شيء واحد في كل مرة. أقسم بالرب إن الانتقام سيكون لي.

رأى بلاكثورن أن ملابسه قد نُظِّفَت مجددًا وليبارك الرب لمن قام بذلك. لقد نزع ملابسه في الحمام وكأنها موبوءة بالطاعون. لقد جعلوهم يغسلون ظهره بقوة ثلاث مرات. باستخدام أقسى إسفنجة وحجر الخفاف. لكن لا يزال بإمكانه الشعور بالحرقة الناتجة عن البول.

رفع عينيه عن مورا ونظر إلى أومي. لقد استمد متعة ملتوية من معرفة أن عدوه على قيد الحياة وبجواره.

انحنى كما رأى الأشخاص المتساوين ينحنون وأطال الانحناء. وقال باليابانية: «مرحبًا يا أومي سان».

لا عيب في التحدث بلغتهم، ولا عيب في قول مرحبًا أو الانحناء أولًا كما جرت عادتهم.

رد أومي بالانحناء.

لاحظ بلاكثورن أنه لم يكن متساويًا تمامًا، لكنه كان كافيًا في الوقت الحالي.

قال أومي: «مرحبًا يا أنجين».

كان صوته مهذبًا، لكن ليس بما فيه الكفاية.

حدق بلاكثورن إليه مباشرة: «أنجين سان!».

اصطدمت إرادتهما واستفز أومي كرجل يُستفز في لعبة الورق أو النرد. هل لديك أخلاق؟

أخيرًا قال أومي بابتسامة مقتضبة: «مرحبًا يا أنجين سان».

ارتدى بلاكثورن ملابسه بسرعة.

ارتدى سروالًا فضفاضًا ولباسًا داخليًا، وجوارب وقميصًا ومعطفًا، وكان شعره الطويل مربوطًا في ضفيرة أنيقة ولحيته مشذبة بالمقص الذي أقرضه له الحلاق.

سأل بلاكثورن باليابانية بعد أن ارتدى ملابسه، وشعر بتحسن ولكنه كان شديد الحذر، وتمنى لو كان لديه مزيد من الكلمات لاستخدامها: «نعم يا أومي سان؟».

قال مورا: «يداك أرجوك».

لم يفهم بلاكثورن وأشار بعدم الفهم. مد مورا يديه وتظاهر بربطهما معًا. - يداك أرجوك.

قال بلاكثورن مباشرة لأومي وهز رأسه وتحدث بالإنجليزية: «لا، هذا ليس ضروريًا. ليس ضروريًا على الإطلاق. لقد أعطيت كلمتي».

حافظ على صوته هادئًا ومنطقيًا، ثم أضاف بقسوة مقلدًا أومي متحدًا باليابانية: «هل تفهم يا أومي سان؟».

ضحك أومي ثم قال: «نعم يا أنجين سان. أنا أفهم».

ثم استدار وغادر.

حدق مورا والآخرين خلفه مذهولين. تبع بلاكتورن أومي تحت أشعة الشمس. لقد نُظِّفَ حذاؤه. وقبل أن يتمكن من انتعاله، كانت الخادمة «أونا» هناك جاثية على ركبتيهما وساعدته.

- شكرًا لك يا هاكو سان.

قال متذكرًا اسمها الحقيقي. وتساءل ما هي كلمة «شكرًا لك»؟

سار عبر البوابة، وأومي أمامه.

أنا خلفك أيها الوغد اللعين... انتظر دقيقة! تذكر ما وعدت نفسك به؟ ولماذا تسبُّه، حتى سرًّا؟ هو لم يسبِّك. الشتائم للضعفاء أو الحمقى. أليس كذلك؟

شيء واحد في كل مرة. يكفي كونك خلفه. أنت تدرك ذلك بوضوح وهو يدرك ذلك بوضوح. لا تخطئ، فهو يعلم ذلك بوضوح تام.

أربعة من الساموراي أحاطوا ببلاكتورن وهو ينزل من التل، وكان الميناء لا يزال مخفيًا عنه، ومورا خلفه بعشر خطوات خفية، وأومي يمشي أمامه.

تساءل: هل سيضعونني تحت الأرض مجددًا؟ لماذا أرادوا تقييد يدي؟ ألم يقل أومي بالأمس -يا إلهي هل كان ذلك بالأمس فقط؟- «إذا أحسنت التصرف، فيمكنك البقاء خارج الحفرة. إذا أحسنت التصرف، فغداً سيُخرج رجلًا آخر من الحفرة. ربما. وربما أكثر».

ألم يكن هذا ما قاله؟ هل أحسنت التصرف؟ أتساءل كيف حال كروك. كان الشاب على قيد الحياة عندما حملوه إلى المنزل حيث أقام الطاقم في البداية. شعر بلاكتورن بتحسن اليوم. بدأ الاستحمام والنوم والطعام الطازج في إعادته إلى سابق عهده. كان يعلم أنه إذا كان حذرًا وتمكن من الراحة والنوم والأكّل، فسيكون قادرًا في غضون شهر على الركض والسباحة لمسافة أكثر من كيلومتر وقيادة سفينة حربية وإبحارها حول الأرض.

لا تفكر في ذلك الآن. فقط حافظ على قوتك اليوم. الشهر ليس أملاً كبيراً،
أليس كذلك؟

إن السير نزولاً من التل وعبر القرية كان يُنهكه. أنت أضعف مما كنت
تظن... أمر نفسه: لا، أنت أقوى مما كنت تظن.

برزت صواري سفينة إيراسموس فوق الأسقف المبلطة، وخفق قلبه. في
الأمم تعرج الشارع مع تضاريس التل، وانتهى مع ظهور الساحة. يوجد
هودج محجوب بستارة تحت أشعة الشمس. كان يوجد أربعة حمالين يرتدون
ثياباً داخلية يجلسون القرفصاء بجانبه، ينظفون أسنانهم بشتات ذهن. وفي
اللحظة التي رأوا فيها أومي انحنوا على ركبهم بقوة.

بالكاد أوماً لهم أومي وهو يمر مسرعاً، ولكن بعد ذلك خرجت فتاة من
البوابة الأنيقة للتوجه إلى الهودج فتوقف.
حبس بلاكتورن أنفاسه وتوقف أيضاً.

ركضت خادمة صغيرة تحمل مظلة خضراء لحجب أشعة الشمس عن
الفتاة. انحنى أومي وانحنت الفتاة وتحدثا بسعادة مع بعضهما بعضاً،
واختفى الغرور المتبجح من أومي.

كانت الفتاة ترتدي كيمونو بلون الخوخ وحزاماً عريضاً من الذهب وحذاء
ذا حلقات ذهبية. رأى بلاكتورن نظرتها إليه. من الواضح أنها وأومي يناقشان
أمره. لم يكن يعلم كيف يتصرف أو ماذا يفعل، لذلك لم يفعل شيئاً سوى
الانتظار بصبر، مفتوناً بمنظرها ونظافتها ودفء حضورها. تساءل عما إذا
كانت هي وأومي أحباء، أو إذا كانت زوجة أومي، وفكر: هل هي حقيقية حقاً؟
سألها أومي شيئاً فأجابت ورفرفت بمروحتها الخضراء التي تلمع وتتمايل
تحت ضوء الشمس، وضحكتها كالموسيقى، ورقة جمالها الأخاذ. كان أومي
يبتسم أيضاً، ثم استدار وابتعد مسرعاً، عاد لطبيعته كساموراي مرة أخرى.
تبعه بلاكتورن. كانت عيناها عليه وهو يمر فقال باليابانية: «مرحباً».

- مرحباً يا أنجين سان.

أجابت، وصوتها يلმسه. بالكاد كان طولها مائة وخمسين سنتيمتراً وكانت
فاتنة. بينما انحنت قليلاً، حرك النسيم الحرير الخارجي وأظهر بداية الكيمونو
القرمزي الداخلي، والذي وجده مثيراً بشكل مفاجئ.

لا يزال عطر الفتاة يحيط به وهو يستدير عند الزاوية. رأى باب الحفرة وسفينة إيراسموس. والقادس. اختفت الفتاة من ذهنه.

لماذا منافذ مدافعنا فارغة؟ أين مدافعنا وماذا يعني بالضبط وجود قادس للعبيد هنا وماذا حدث في الحفرة؟ شيء واحد في كل مرة.

أولاً إيراسموس: برز جذع الصاري الأمامي الذي جرفته العاصفة بشكل لافت. فكر: لا يهم هذا. يمكننا إخراجها إلى البحر بسهولة. يمكننا فك القيود. سيتولى تيار الهواء الليلي والمد والجزر إخراجنا بصمت ويمكننا الانطلاق غداً على الجانب الآخر من تلك الجزيرة الصغيرة. سنستغرق نصف يوم لتكوين الصاري الاحتياطي وبعد ذلك نرفع جميع الأشرعة ونبتعد إلى أعماق البحار البعيدة. ربما يكون من الأفضل عدم الرسو ولكن الفرار إلى مياه أكثر أماناً. لكن من سيشغل السفينة؟ لا يمكنك إخراجها بنفسك.

من أين أتت سفينة العبيد؟ ولماذا هي هنا؟

استطاع رؤية مجموعات من الساموراي والبحارة أسفل على الرصيف. كان القارب ذو الستين مجذاًفاً -ثلاثون مجذاًفاً على كل جانب- أنيقاً ومنظماً، والمجاديف مرتبة بعناية، وجاهزة للرحيل الفوري، فانتفض لا إرادياً. آخر مرة رأى فيها قادس كانت قبالة ساحل الذهب قبل عامين عندما كان أسطوله متجهاً للخارج، جميع السفن الخمس معاً. كانت سفينة تجارية ساحلية ثرية برتغالية، وتهرب منه عكس اتجاه الرياح. لم تستطع إيراسموس اللحاق بها، سواء للسيطرة عليها أو لإغراقها.

كان بلاكثورن يعرف ساحل شمال إفريقيا جيداً. لقد كان قائداً وربان سفينة لمدة عشر سنوات لشركة لندن للتجار الأجانب، وهي شركة مساهمة مشتركة تُجهّز سفناً تجارية مقاتلة لتجاوز الحصار الإسباني والتجارة على طول الساحل البربري. لقد أبحر إلى غرب وشمال إفريقيا، جنوباً حتى لاجوس، وشمالاً وشرقاً عبر مضيق جبل طارق الغادر -الذي كان دائماً تحت سيطرة الدوريات الإسبانية- حتى ساليرنو في مملكة نابولي. كان البحر الأبيض المتوسط خطراً على التجارة الإنجليزية والهولندية. كان الأعداء الإسبانيون والبرتغاليون موجودين بقوة، والأسوأ من ذلك، أن العثمانيين -الأتراك الكفار- كانوا يغزون البحار بقوادس للعبيد وسفن قتالية.

كانت تلك الرحلات مربحة للغاية بالنسبة له، فقد اشترى سفينته الخاصة، وهي سفينة شراعية تزن مائة وخمسين طنًا، للتجارة لحسابه الخاص. لكن سفينته غرقت وفقد كل شيء. لقد حاصرتهم الرياح الهادئة قبالة سردينيا، عندما ظهرت القادس التركية من بعيد. كان القتال وحشيًا، ثم عند غروب الشمس اقتربت مقدمة سفينة العدو بمؤخرة سفينته وتمكنوا من الصعود إليها بسرعة. لم ينسَ بلاكثورن قط الصرخة المدوية «الله» عندما هاجم القراصنة سفينته. كانوا مسلحين بالسيوف والبنادق. لقد حشد رجاله وصُدَّ الهجوم الأول، لكن الثاني طغى عليهم فأمر بتفجير مخزن البارود. اشتعلت النيران في سفينته وقرر أنه من الأفضل الموت على أن يُجبر على التجذيف في سفينة للعبيد. لقد كان دائمًا يخشى أن يُؤسر حيًّا ويُجبر على العمل كعبد مجذف، وهو مصير معتاد لبحار أسير.

عندما انفجر مخزن البارود، أدى الانفجار إلى تفتيت قاع سفينته ودمر جزءًا من قادس القراصنة التركية، وفي خضم الارتباك، تمكن من السباحة إلى قارب النجاة والفرار مع أربعة من أفراد الطاقم. أما الذين لم يستطيعوا السباحة نحوه، فقد اضطر إلى تركهم ولا يزال يتذكر صرخاتهم طلبًا للمساعدة باسم الرب. لكن الرب أعرض عن مساعدة هؤلاء الرجال في ذلك اليوم، ففقدوا حياتهم أو ذهبوا للعمل بالمجازيف. أما بلاكثورن والرجال الأربعة، فقد حماهم الرب في ذلك الوقت، وتمكنوا من الوصول إلى كالياري في سردينيا. ومن هناك عادوا إلى ديارهم بلا مال.

لقد مضى على ذلك ثماني سنوات، في العام نفسه الذي تفشى فيه الطاعون مجددًا في لندن. الطاعون والمجاعة وأعمال شغب العاطلين عن العمل الجوعى. لقد قضى الطاعون على أخيه الأصغر وعائلته. وحتى ابنه البكر قد توفي. ولكن في الشتاء اختفى الطاعون، وقد حصل بسهولة على سفينة جديدة وأبحر لإعادة ثروته. أولًا عمل لصالح شركة لندن للتجارة الأجنبية. ثم قام برحلة إلى جزر الهند الغربية لمطاردة الإسبان. بعد ذلك وهو أغنى قليلًا، قاد السفن لصالح الهولندي كيس فيرمان في رحلته الثانية للبحث عن الممر الشمالي الشرقي الأسطوري إلى كاثاي وجزر التوابل في آسيا، والذي يُفترض وجوده في بحار الجليد، شمال روسيا القيصرية. لقد بحثوا مدة عامين، ثم مات كيس فيرمان في القفار القطبية مع ثمانين بالمائة من أفراد الطاقم وعاد بلاكثورن وأخذ بقية الرجال إلى الوطن. ثم قبل ثلاث سنوات تواصلت معه

شركة الهند الشرقية الهولندية التي شُكِّلت حديثاً وطلبت منه قيادة رحلتهم الاستكشافية الأولى إلى العالم الجديد. تهامسوا سرّاً بأنهم قد حصلوا -بتكلفة باهظة- على دليل بحري برتغالي مُهرب يُفترض أنه يكشف أسرار مضيق ماجلان، وأرادوا إثبات ذلك. بالطبع كان التجار الهولنديون يفضلون استخدام أحد قادة سفنهم، ولكن لا يوجد من يضاهي في المهارة الإنجليز الذين درّبهم بيت الثالثو الاحتكاري، والقيمة الهائلة لهذا الدليل البحري أجبرتهم على المقامرة على بلاكتورن. كان الاختيار المثالي: أفضل قائد سفينة بروتستانتي على قيد الحياة، والدته هولندية، ويتحدث الهولندية بطلاقة. لقد وافق بلاكتورن بحماس ووافق على نسبة الخمسة عشر بالمائة من جميع الأرباح كأتعابه، وكما جرت العادة فقد تعهد رسمياً أمام الرب بالولاء للشركة وتعهد بإخراج أسطولهم وإعادته إلى الوطن مرة أخرى.

فكر بلاكتورن: أقسم بالرب إنني سأعيد إيراسموس إلى الوطن. ومع أكبر عدد ممكن من الرجال الذين سيسمح لهم الرب بالبقاء على قيد الحياة. كانوا يعبرون الساحة الآن فأبعد بلاكتورن نظره عن سفينة تجارة العبيد ورأى الساموراي الثلاثة يحرسون باب الحفرة. كانوا يأكلون بمهارة من الأوعية باستخدام عيدان الطعام الخشبية التي شاهدتهم بلاكتورن يستخدمونها مرات عديدة ولكنه لم يتقن استخدامها بنفسه.

- أومي سان.

شرح لهم بالإشارات بأنه يريد الذهاب إلى الحفرة، فقط ليتحدث إلى أصدقائه. للحظة واحدة فقط. لكن أومي هز رأسه ونطق بكلمات لم يفهما واستمر في عبور الساحة إلى أسفل الشاطئ، متجاوزاً الرجل وصولاً إلى الرصيف. تبعه بلاكتورن بطاعة. قال لنفسه: شيء واحد في كل مرة، كن صبوراً.

فور وصوله إلى الشاطئ، استدّار أومي وأشار إلى الحراس على الحفرة. رآهم بلاكتورن يفتحون باب الحفرة وينظرون إلى الأسفل. أشار أحدهم إلى قرويين أحضروا السلم وبرميل مياه عذبة مملوءاً وحملوه إلى الأسفل. أعادوا البرميل الفارغ إلى الأعلى. وكذلك برميل المرحاض.

فكر بارتياح: انظر! إذا كنت صبوراً وتلعب لعبتهم وفقاً لقواعدهم، فيمكنك مساعدة رفاقك.

كانت مجموعات الساموراي تتجمع بالقرب من السفينة. كان رجل عجوز طويل القامة يقف بعيدًا. أدرك بلاكثورن أهميته على الفور من احترام الداييميو يابو له، ومن الطريقة التي ينصاع بها الآخرون لأدنى ملاحظة له. تساءل: هل هو مَلِكهم؟

جثا أومي بتواضع. انحنى الرجل العجوز نصف انحناءة، وحول عينيه نحوه.

بذل بلاكثورن قصارى جهده ليظهر الاحترام، ثم جثا ووضع يديه بشكل مسطح على أرضية رصيف الميناء الرملية، كما فعل أومي، وانحنى بعمق مثل انحناءة أومي.

قال بأدب متحدثًا باليابانية: «مرحبًا يا ساما».

رأى الرجل العجوز ينحني نصف انحناءة مرة أخرى.

الآن دار نقاش بين يابو والرجل العجوز وأومي. تحدث يابو إلى مورا.

أشار مورا إلى السفينة: «أنجين سان. رجاء هناك».

- لماذا؟

- اذهب! الآن. اذهب.

شعر بلاكثورن بذعره يزداد: «لماذا؟».

- Isogi.

أمر أومي، وأشار له باتجاه السفينة.

- لا، لن أذهب...

صدر أمر فوري من أومي وانقض أربعة ساموراي على بلاكثورن وقيدوا ذراعيه. أخرج مورا الحبل وبدأ يربط يديه خلف ظهره.

صرخ بلاكثورن: «يا أوغاد، لن أذهب على متن سفينة العبيد الملعونة هذه».

- يا إلهي! اتركوه وشأنه. مهلاً، يا لعناء، اتركوا هذا الوغد وشأنه. Kinjiru،

ألم تكن تلك هي الكلمة؟ هل هو الريان؟ الأنجين، أليس كذلك؟

بالكاد صدق بلاكثورن أذنيه. السبات الصاخبة بالبرتغالية جاءت من على سطح القادس. ثم رأى الرجل يبدأ بالنزول من السلم. كان طويلًا مثله وتقريبًا في عمره نفسه، لكن ذو شعر أسود وعينين داكنتين ويرتدي ملابس

بحار بسيطة، يوجد خنجر إلى جانبه، وبنادق في حزامه. وصليب مرصع بالجواهر معلق على رقبته. كان يعتمر قبعة وابتسامة عريضة على وجهه.

- هل أنت الربان؟ ربان السفينة الهولندية؟

سمع بلاكتورن نفسه يرد: «نعم».

- جيد. جيد. أنا فاسيو رودريجز، ربان هذه القادس.

التفت إلى الرجل العجوز وتحدث بمزيج من اليابانية والبرتغالية، وناداه «قرد ساما» وأحياناً «تودي ساما» ولكن الطريقة التي نطقها بها جعلتها تخرج «تودي» (متملق) ساما». أخرج مسدسه مرتين وأشار به بقوة إلى بلاكتورن ثم أعاده إلى حزامه، وكانت لغته اليابانية مليئة بالشتائم البذيئة بالبرتغالية العامية التي لن يفهمها إلا البحارة.

تحدث هيرو ماتسو بإيجاز فأطلق الساموراي سراح بلاكتورن وفك مورا وثاقه.

- هذا أفضل. اسمع أيها الربان، هذا الرجل مثل الملك. أخبرته أنني سأكون مسؤولاً عنك، وأنني سأفجر رأسك حالما نشرب معاً.

انحنى رودريجز أمام هيرو ماتسو، ثم ابتسم لبلاكتورن: «انحنِ للوعد ساما».

فعل بلاكتورن ما قيل له لا إرادياً.

قال رودريجز وهو يبتسم: «أنت تفعل ذلك كأنك ياباني، هل أنت حقاً الربان؟».

- نعم.

- ما خط عرض جزيرة ليزارد؟

- تسع وأربعون درجة وست وخمسون دقيقة شمالاً، واحذر من الصخور التي تقع جنوباً بالجنوب الغربي.

- أنت الربان، يا إلهي. (صافح رودريجز بلاكتورن بحرارة): تعال على متن السفينة. يوجد طعام وبراندي ونبيذ وكحول بحري. ويجب على جميع الربابنة أن يحبوا بعضهم بعضاً، لأنهم نسل الأرض. آمين، أليس كذلك؟

قال بلاكتورن بضعف: «بلى».

- عندما سمعت أننا سنحضر رباناً معنا، حمدت الرب. لقد مضت سنوات منذ أن حظيت بمتعة التحدث إلى ربان حقيقي. تعال على متن السفينة. كيف تسالت عبر ملقا؟ كيف تجنبنا دورياتنا في المحيط الهندي؟ مَنْ سرقت دليله البحري؟

- إلى أين تأخذني؟

- إلى أوساكا. الزعيم الجليل كبير الجلادين نفسه يريد رؤيتك.

شعر بلاكثورن بالذعر يعاوده: «مَنْ؟».

- تورانا، زعيم المقاطعات الثماني، أينما كانت هذه المقاطعات اللعينة. إنه الدايميو الرئيسي في اليابان، إن الدايميو مثل الملك أو الزعيم الإقطاعي لكنه أفضل. كلهم طغاة.

- ماذا يريد مني؟

- لا أعلم، لكن هذا سبب وجودنا هنا، وإذا أراد تورانا رؤيتك أيها الربان، فلا مفر من ذلك. يُقال إنه يملك مليوناً من هؤلاء المتعصبين ذوي الأعين الضيقة الذين مستعدون للموت في سبيل شرف مسح مؤخرته إذا كان هذا يرضيه! قال مترجمه: «يريد تورانا منك إحضار الربان يا قاسكو. أحضر الربان وبضاعة السفينة. خذ العجوز تودا هيرو ماتسو هناك لفحص السفينة و...». أجل يا ربان، صُودر كل شيء كما سمعتُ، بما في ذلك سفينتك وكل ما فيها.

- صُودرت؟

- قد تكون مجرد شائعة. اليابانيون يصادرون الأشياء أحياناً بيد ويعيدونها باليد الأخرى، أو يتظاهرون بأنهم لم يصدروا الأمر مطلقاً. يصعب فهم هؤلاء الأوغاد الصغار الملعونين.

شعر بلاكثورن بالأعين الباردة لليابانيين تحديق إليه وحاول إخفاء خوفه. تابع رودريجيز نظراته: «نعم، لقد بدؤوا يضجرون. ليس لدينا وقت للحديث. تعال على متن السفينة».

استدار لكن بلاكثورن أوقفه.

- ماذا عن أصدقائي، طاقمي؟

- ماذا؟

أخبره بلاكتورن بإيجاز عن الحفرة. سأل رودريجز أومي بلغة يابانية بسيطة. وقال: «يقول إنهم سيكونون بخير. اسمع، لا يوجد شيء يمكن لكلينا فعله الآن. عليك الانتظار. لا يمكنك الثقة باليابانيين أبدًا. إنهم متقلبون ذوو ستة وجوه وثلاثة قلوب». انحنى رودريجز كموظف في البلاط الأوروبي أمام هيرو ماتسو: «هذه هي الطريقة التي ننحني بها في اليابان. كما لو كنا في بلاط فيليب الثاني الزاني، أسأل الرب أن يتوفاه قريبًا».

قاد الطريق إلى سطح السفينة. لدهشة بلاكتورن، لم توجد سلاسل ولا عبيد.

سأل رودريجز: «ما الأمر؟ هل أنت مريض؟».

- لا. اعتقدت أن هذه سفينة تجارة عبيد.

- لا توجد في اليابان. ولا حتى في مناجمهم. إنهم غريبو الأطوار، مثلما ترى. لم أر قط أشخاصًا غربيي الأطوار مثلهم رغم أنني سافرت العالم ثلاث مرات. لدينا مجذفون من الساموراي. إنهم جنود، جنود ذلك الرجل المسن المزعج شخصيًا، ولن ترى أبدًا عبيدًا يجذفون بشكل أفضل، أو رجالًا يقاتلون بشكل أفضل. (ضحك رودريجز): يضعون كل ما لديهم من قوة في التجذيف وأنا أدفعهم فقط لأشاهد دماءهم تسيل. إنهم لا يستسلمون أبدًا. لقد جئنا طوال الطريق من أوساكا، نحو خمسمائة وخمسين كيلومترًا في أربعين ساعة. تعال إلى الأسفل. سنغادر بعد قليل. هل أنت متأكد أنك بخير؟

كان بلاكتورن ينظر إلى سفينة إيراسموس الراسية على بعد تسعين مترًا: «نعم. نعم، أعتقد ذلك. لا توجد فرصة للصعود على متن السفينة يا ربان، أليس كذلك؟ لم يسمحوا لي بالعودة على متنها، ليس لدي ملابس وقد أغلقوها لحظة وصولنا. رجاء؟».

فحص رودريجز السفينة بدقة.

- متى فقدت الصاري الأمامي؟

- قبل أن نرسو هنا مباشرة.

- هل يوجد على متنها صارٍ احتياطيٌّ؟

- نعم.

- ما هو ميناؤها الأصلي؟

- روتردام.
- هل بُنيت هناك؟
- نعم.
- لقد زرتها من قبل. لديها مياه ضحلة سيئة ولكنه ميناء رائع. لدى سفينتك خطوط جيدة يا ربان، وجديدة. لم أرَ واحدة من نوعها من قبل. يا إلهي، ستكون سريعة، سريعة جدًا. ويصعب التعامل معها. (نظر إليه رودريجز): هل يمكنك الحصول على معدتك بسرعة؟
- قَلَبَ ساعة الرمال الصغيرة التي كانت بجانب الساعة الرملية الكبيرة، وكلتاهما مثبتة بالبوصلة.
- حاول بلاكتورن إخفاء الأمل المتنامي الذي يشعر به: «نعم».
- يوجد شرط يا ربان. لا أسلحة، لا في جعبتك ولا في أي مكان آخر. كلمة شرف كربان. لقد أخبرت هؤلاء القردة أنني سأكون مسؤولاً عنك.
- أوافق.
- راقب بلاكتورن الرمال تتساقط بصمت عبر عنق الساعة.
- سأفجر رأسك سواء كنتَ ربانًا أم لا، إذا كان يوجد أدنى خداع أو خيانة أو محاولة إيذاء نفسك. إذا وافقتُ.
- أقسم لك بكلمتي من ربان إلى ربان، واللعنة على الإسبان.
- ابتسم رودريجز وضربه على ظهره بلطف: «بدأت أعجب بك يا إنجليزي».
- سأل بلاكتورن وهو يعلم أن لغته البرتغالية مثالية وأنه لم يقل شيئًا يميزه عن أي رجل هولندي: «كيف عرفت أنني إنجليزي؟».
- ضحك رودريجز: «أنا عَرَّاف. أليس كل الربابنة كذلك؟».
- هل تحدثت مع الكاهن؟ هل أخبرك الأب سيباستياو؟
- لا أتحدث إلى الكهنة إن استطعت تجنب ذلك. مرة واحدة في الأسبوع أكثر من كافية لأي رجل.
- بصق رودريجز ببراعة على مصرف المياه وتوجه إلى ممر الميناء الذي يطل على الشاطئ: «تودي ساما. Ikimasho ka؟».
- Ikimasho، يا رودريجو سان. Ima.

- Ima إذن.

نظر رودريجيز إلى بلاكتورن بتمعن: «Ima تعني 'الآن' أو 'على الفور'، علينا المغادرة على الفور يا إنجليزي».

لقد كونت الرمال بالفعل كومة صغيرة ومنظمة في قاع الزجاج.

- هل يمكنك سؤاله رجاء؟ هل يمكنني الصعود على متن سفينتي؟

- لا يا إنجليزي. لن أطلب منه شيئاً سخيلاً كهذا.

شعر بلاكتورن فجأة بالفراغ. والعجز. شاهد رودريجيز يتجه إلى حاجز سطح السفينة ويصرخ على بحار صغير مميز يقف على سطح مقدمة السفينة المرتفع عند القوس، وقال ببرتغالية مختلطة باليابانية: «مهلاً يا قبطان سان. أنغادر؟ أحضر الساموراي على متن السفينة، الآن! الآن، هل تفهم؟».

- نعم يا أنجين سان.

دق رودريجيز على الفور جرس السفينة بصوت عالٍ ست مرات وبدأ القبطان سان بإصدار أوامر للبحارة والساموراي على الشاطئ وعلى متن السفينة. هرع البحارة إلى سطح السفينة من الأسفل للاستعداد للرحيل، وفي خضم الارتباك المنضبط والمحكم، أمسك رودريجيز بهدوء بذراع بلاكتورن ودفعه نحو سلم الصعود على يمين السفينة بعيداً عن الشاطئ.

- يوجد قارب صغير بالأسفل يا إنجليزي. لا تتحرك بسرعة ولا تتطلع حولك ولا تهتم بأحد سواي. إذا طلبت منك العودة، فافعل ذلك بسرعة.

سار بلاكتورن عبر سطح السفينة وصولاً إلى السلم ونزل متجهاً إلى القارب الياباني الصغير. سمع أصوات غاضبة خلفه وشعر بشعر رقبتة يقف لأنه كان يوجد الكثير من الساموراي في جميع أنحاء السفينة، بعضهم مسلحون بالأقواس والسهام، والبعض الآخر بالبنادق.

- لا داعي للقلق بشأن هذا يا قبطان سان، أنا المسؤول. أنا رودريجو سان، أهم ربان سان، بحق العذراء! هل تفهم؟

كان صوته يعلو على الأصوات الأخرى، لكنها كانت تزداد غضباً كل لحظة.

كان بلاكثورن الآن في القارب الصغير تقريباً ورأى أنه لا توجد مجاذيف. أخبر نفسه: لا أستطيع التجذيف بطريقتهم، لا يمكنني استخدام القارب. والمسافة بعيدة جداً للسباحة. أم يمكنني ذلك؟

تردد قليلاً بينما يفحص المسافة. لو كان يتمتع بكامل قوته لما تردد لحظة. ولكن الآن؟

تحركت أقدام بسرعة على السلم خلفه، وقاوم دافع الالتفات.

سمع رودريجز يقول بسرعة: «اجلس في المؤخرة، أسرع».

فعل ما قيل له وقفز رودريجز ببراعة، وأمسك بالمجاذيف، وانطلق بمهارة كبيرة رغم كونه ما زال واقفاً.

كان يقف ساموراي على رأس السلم، منزعجاً جداً، وكان يوجد اثنان آخران من الساموراي بجانبه ممسكين بأقواسهما. صرخ القبطان الساموراي مشيراً إليهم للعودة.

استدار رودريجز على بُعد بضعة أمتار من السفينة. صرخ في وجهه مشيراً إلى إيراسموس: «فقط اذهب إلى هناك، ضع الساموراي على متن السفينة».

أدار ظهره بحزم إلى سفينته واستمر في التجذيف، يدفع بالمجاذيف على الطريقة اليابانية، واقفاً في منتصف القارب: «أخبرني إذا وضعوا السهام في أقواسهم يا إنجليزي. راقبهم بعناية، ماذا يفعلون الآن؟».

- القبطان غاضب جداً. لن تتعرض للمشكلات، أليس كذلك؟

- إذا لم نتحرك فوراً، فقد يكون لدى تودي العجوز سبب للشكوى. ماذا يفعل هؤلاء الرماة؟

- لا شيء. إنهم يستمعون إليه. يبدو متردداً. لا، الآن أحدهم يسحب سهماً.

استعد رودريجز للتوقف: «يا إلهي، إنهم دقيقون للغاية بحيث لا نجرؤ على المخاطرة. هل هو في القوس بعد؟».

- نعم، لكن انتظر لحظة! القبطان... جاء إليه أحدهم، أعتقد أنه بحار.

يبدو أنه يسأله شيئاً عن السفينة. القبطان ينظر إلينا. قال شيئاً للرجل ذي السهم. الآن الرجل يبعده. البحار يشير إلى شيء على سطح السفينة.

ألقي رودريجيز نظرة خاطفة للتأكد وتنفس الصعداء: «هذا واحد من مساعدين الربان. سيستغرق منه نصف ساعة على الأقل لتهيئة أمور المجذفين».

انتظر بلاكثورن، والمسافة تزداد: «القبطان ينظر إلينا مجددًا. لا، نحن بخير. لقد ذهب بعيدًا. لكن أحد الساموراي يراقبنا».

استرخى رودريجيز قليلًا لكنه لم يبطئ من وتيرة التجذيف ولم ينظر إلى الوراء: «دعه يراقب. لا أحب أن أدير ظهري للساموراي، ليس عندما يكونون مسلحين. ليس الأمر وكأنني رأيت أيًا منهم غير مسلح قط. إنهم جميعًا لعناء».

- لماذا؟

- إنهم يحبون القتل يا إنجليزي. من عاداتهم حتى النوم مع سيوفهم. هذه دولة عظيمة، لكن الساموراي خطرون كالأفاعي وربما أكثر وحشية.

- لماذا؟

أجاب رودريجيز وهو سعيد بالحديث إلى أحدٍ يستطيع فهمه: «لا أعلم لماذا يا إنجليزي، ولكنهم كذلك. بالطبع كل اليابانيين مختلفون عنا - لا يشعرون بالألم أو البرد مثلنا - لكن الساموراي أسوأ حالًا. فهم لا يخشون شيئًا، وأقل شيء يخشونه هو الموت. لماذا؟ الرب وحده يعلم، لكنها الحقيقة. إذا قال رؤسائهم «اقتله» فإنهم يقتلون، أو يأمرونهم بالموت، فهم يسقطون على سيوفهم أو يشقون بطونهم بأنفسهم. يقتلون ويموتون بسهولة تبولنا. توجد نساء من الساموراي أيضًا يا إنجليزي. سيقتلن لحماية أسيادهن، هكذا يطلقن على أزواجهن هنا، أو يقتلن أنفسهن إذا أُمرن بذلك. يفعلن ذلك بشق حناجرهن. هنا يستطيع الساموراي أن يأمر زوجته بقتل نفسها وهذا ما عليها فعله، بموجب القانون. يا إلهي، النساء هن شيء آخر تمامًا، نوع مختلف يا إنجليزي، لا يوجد مثل لهن على وجه الأرض، لكن الرجال ... الساموراي هم زواحف وأكثر شيء آمن يمكنك فعله هو معاملتهم مثل الثعابين السامة. هل أنت بخير الآن؟».

- نعم، شكرًا لك. ضعيف قليلًا لكني بخير.

- كيف كانت رحلتك؟

- رحلة صعبة. بالمناسبة، هؤلاء الساموراي ... كيف يصبح أحدهم كذلك؟ هل يكفي أن يحملوا السيوفين ويقصوا شعرهم بهذه الطريقة؟

- يجب أن تولد كذلك. بالطبع توجد رتب مختلفة للساموراي، من الدايميو في أعلى الهرم إلى ما نسميه نحن بجندي المشاة في الأسفل. الأمر وراثي في الغالب، مثل نظامنا. قيل لي إن الوضع كان في الماضي كما هو الحال في أوروبا اليوم، حيث يمكن للفلاحين أن يصبحوا جنودًا والجنود فلاحين، مع فرسان ونبلاء وراثيون يصلون إلى الملوك. وقد ترقى بعض جنود الفلاحين إلى أعلى رتبة. التايكو كان واحدًا منهم.
- من هو؟

- الطاغية العظيم، حاكم كل اليابان، وأكبر قاتل على مر العصور، سأخبرك عنه يومًا ما. لقد مات قبل عام وهو الآن يحترق في الجحيم. (بصق رودريجز في البحر): في الوقت الحاضر يجب أن تولد ساموراي لتكون واحدًا منهم. كل شيء وراثي يا إنجليزي. يا إلهي، لا تملك أي فكرة عن مدى اهتمامهم بالتراث والعائلة والرتبة وما إلى ذلك. لقد رأيت كيف ينحني أومي لذلك الشيطان يابو وكلاهما يخضع للعجوز تودي. كلمة «ساموراي» تأتي من كلمة يابانية تعني «الخدمة». ولكن بينما ينحنون جميعًا ويخضعون للرجل الأعلى منهم، فهم جميعًا من الساموراي على قدم المساواة، يتمتعون بامتيازات خاصة للساموراي. ماذا يحدث على متن السفينة؟

- القبطان يثرثر مع ساموراي آخر ويشير إلينا. ما المميز فيهم؟
- هنا الساموراي يحكمون كل شيء، يمتلكون كل شيء. لديهم شرف خاص بهم وقواعد خاصة بهم. هل هم مغرورون؟ يا إلهي، ليس لديك أي فكرة! يحق لأدناهم قتل أي شخص ليس ساموراي، أي رجل أو امرأة أو طفل، لأي سبب أو دون سبب. يمكنهم القتل قانونيًا فقط لتجربة حدة سيوفهم -لقد رأيتهم يفعلون ذلك- ويملكون أفضل السيوف في العالم. أفضل من فولاذ دمشق. ماذا يفعل هذا الفاسق الآن؟
- ارتجف بلاكثورن: «فقط يراقبنا. قوسه على ظهره الآن. أنا أكره هؤلاء الأوغاد أكثر من الإسبان».

ضحك رودريجز مجددًا وهو يجذف: «إذا عرفنا الحقيقة، فهم أيضًا يثيرون غضبي. ولكن إذا كنت تريد الثراء السريع، فعليك العمل معهم لأنهم يملكون كل شيء. هل أنت متأكد من أنك بخير؟».

- نعم، شكرًا لك. ماذا كنت تقول؟ الساموراي يملكون كل شيء؟
- نعم. البلد بأكملها مقسمة إلى طبقات اجتماعية، مثل الهند. الساموراي في القمة، والطبقة التالية في الأهمية هم الفلاحين. (بصق رودريجيز في البحر): فقط الفلاحين يمكنهم امتلاك الأراضي. هل تفهم؟ لكن الساموراي يمتلكون كل المحاصيل. يمتلكون كل الأرز، وهو المحصول المهم الوحيد، ويعطون جزءًا منه إلى الفلاحين. يُسمح للساموراي فقط بحمل السلاح. تُعد مهاجمة الساموراي من قبل أي شخص ليس ساموراي تمرّدًا يعاقب عليه بالموت الفوري. وأي شخص يرى مثل هذا الهجوم ولا يبلغ عنه على الفور يتحمل المسؤولية نفسها، وكذلك زوجاتهم، وحتى أطفالهم. تُعدم العائلة بأكملها إذا لم يبلغ أحد أفرادها السلطات. يا إلهي، إنهم من نسل الشيطان، هؤلاء الساموراي! لقد رأيت أطفالًا يُقطعون إربًا. (تنحّج رودريجيز ثم بصق): ومع ذلك، إذا كنت تعرف شيئًا أو شيئين، فهذا المكان هو جنة على الأرض. (نظر إلى المؤخرة ليُطمئن نفسه ثم ابتسم): حسنًا يا إنجليزي، لا يوجد شيء يضاهي جولة بالقارب حول الميناء، أليس كذلك؟
- ضحك بلاكثورن. وتناسى السنوات الماضية وهو يستمتع بحركة الأمواج المألوفة، ورائحة ملح البحر، ونقيق النوارس ولعبها فوقه، وإحساس الحرية، وإحساس الوصول بعد كل هذا الوقت الطويل: «اعتقدت أنك لن تساعدني في الوصول إلى إيراسموس».
- هذه هي مشكلة كل الإنجليز. لا صبر لديكم. اسمع، لا تطلب من اليابانيين شيئًا هنا، سواء كانوا ساموراي أو غيرهم، فهم جميعًا متشابهون. إذا سألت، فسيترددون، ثم يطلبون من المسؤول اتخاذ القرار. هنا عليك التحرك. بالطبع... (عبرت ضحكته القلبية الأمواج): في بعض الأحيان ستُقتل إذا تحركت حركة خاطئة.
- تجيد التجذيف جيدًا. كنت أتساءل كيف أستخدم المجاذيف عندما أتيت.
- لم تعتقد أنني كنت سأتركك تذهب بمفردك، أليس كذلك؟ ما اسمك؟
- بلاكثورن. جون بلاكثورن.
- هل سبق لك أن سافرت إلى الشمال يا إنجليزي؟ إلى أقصى الشمال؟

- كنت مع كيس فيرمان في «دير ليفل». قبل ثماني سنوات. كانت رحلته الثانية للعثور على الممر الشمالي الشرقي. لماذا؟
- أود أن أسمع عن ذلك، وعن جميع الأماكن التي زرتها. هل تعتقد أنهم سيجدون الطريق يومًا ما؟ الطريق الشمالي إلى آسيا، شرقًا أم غربًا؟
- نعم. أنتم والإسبان تعيقون كلا الطريقين الجنوبيين، لذلك يتعين علينا فعل ذلك. نعم، سنفعل. نحن أو الهولنديون. لماذا؟
- وكنت تقود السفن على طول الساحل البربري أيضًا، أليس كذلك؟
- بلى. لماذا؟
- وتعرف طرابلس؟
- معظم الربانة زاروا طرابلس. لماذا؟
- اعتقدت أنني رأيتك من قبل. نعم، كانت طرابلس. لقد عرفت عنك هناك. الربان الإنجليزي الشهير. الذي ذهب مع المستكشف الهولندي كيس فيرمان إلى البحر الجليدي، وكان من قبل قبطانًا مع دريك، أليس كذلك؟ في الأرمادا الإسبانية؟ كم كان عمرك حينها؟
- أربعة وعشرون. ماذا كنت تفعل في طرابلس؟
- كنت أقود سفينة إنجليزية خاصة. تم الاستيلاء على سفينتي في الهند من قبل هذا القرصان، مورو، كان اسمه هنري مورو. أحرق سفينتي بالكامل بعد أن نهبها وعرض عليّ وظيفة الربان -قال إن رجاله عديمو الفائدة- كما تعلم. أراد أن يبحر من هناك -كنا نتزود بالمياه قبالة هيسبانيولا عندما أمسك بنا- جنوبًا على طول الساحل الرئيسي، ثم عبر المحيط الأطلسي مجددًا لمحاولة اعتراض سفينة الذهب الإسبانية السنوية بالقرب من جزر الكناري، ثم عبر المضيق إلى طرابلس إذا فاتتنا محاولتنا الأولى لملاحقة جوائز أخرى، ثم شمالًا مرة أخرى إلى إنجلترا. لقد قدم العرض المعتاد لتحرير رفاقي، وإطعامهم ومنحهم قوارب في المقابل إذا انضمت إليهم. قلت: «بالتأكيد، لما لا؟ بشرط ألا نستولي على أي سفن برتغالية وأن تتركني على الشاطئ بالقرب من لشبونة ولا تسرق دلائلي البحرية». جادلنا ذهابًا وإيابًا كالمعتاد. كما تعلم. ثم أقسمت بمريم العذراء، وأقسمنا نحن الاثنان على الصليب، وكان هذا هو الاتفاق. لقد كانت رحلة جيدة ووقعت بعض سفن التجار

الإسبانية الغنية في طريقنا. عندما كنا قبالة لشبونة طلب مني البقاء على متن السفينة، وأعطاني الرسالة المعتادة من الملكة الجيدة بيس، وكيف أنها ستدفع مكافأة أميرية لأي ربان برتغالي ينضم إليها ويعلم الآخرين المهارة في بيت الثالوث، وتعطي خمسة آلاف جنيه إسترليني مقابل خريطة ممر ماجلان أو رأس الرجاء الصالح.

ابتسم ابتسامة عريضة، وكانت أسنانه بيضاء وقوية، وكان شاربه ولحيته الداكنان مشذبين بعناية. واصل: «لم أملك الخرائط. على الأقل هذا ما قلته له. لقد وقى مورو بوعده، كما ينبغي على كل القراصنة. أنزلني على الشاطئ بدلائي البحرية، بالطبع كان قد نسخها رغم أنه لا يستطيع القراءة أو الكتابة، وقد أعطاني أيضًا نصيبي من أموال الجائزة. هل سبق لك أن أبحرت معه يا إنجليزي؟».

- لا. لقد منحتة الملكة لقب فارس منذ عدة سنوات. لم أخدم على متن أي من سفنه قط. أنا سعيد لأنه عاملك بعدالة.

كانوا يقتربون من إيراسموس. والساموراي ينظرون إليهم بتعجب.

- كانت هذه هي المرة الثانية التي أعمل فيها كربان مع هراطقة. في المرة الأولى لم يحالفني الحظ.

- حقًا؟

توقف رودريجز عن التجذيف وانحرف القارب ببراعة إلى الجانب وتمسك بحبال الصعود: «اصعد إلى الأعلى ولكن اترك الحديث لي».

بدأ بلاكثورن بالصعود بينما ربط الربان الآخر القارب بأمان. كان رودريجز أول من صعد على متن السفينة. وانحنى مثل رجل من البلاط الملكي. وقال ببرتغالية مختلطة باليابانية: «مرحبًا لجميع الساما أكلي الحشائش».

كان يوجد أربعة من الساموراي على متن السفينة. تعرف بلاكثورن على أحدهم على أنه حارس باب الحفرة. انحنوا بتصنع في حيرة للبرتغالي. قلد بلاكثورن حركته شاعرًا بالحرع، وكان يفضل الانحناء بطريقة صحيحة.

سار رودريجز مباشرة نحو ممر الصعود. كانت الأختام في مكانها المنظم. أوقفه أحد الساموراي. ودار بينهما حوار بيابانية مختلطة بالبرتغالية. - إنه ممنوع، آسف جدًا.

قال البرتغالي وهو غير مهتم بوضوح: «ممنوع؟ ماذا؟ أنا رودريجو سان، الربان الخاص بتودا هيرو ماتسو ساما. هذا الختم...». قال مشيرًا إلى الختم الأحمر بالكتابة الغريبة عليه: «الختم الخاص بتودا هيرو ماتسو ساما، أليس كذلك؟».

قال الساموراي وهو يهز رأسه: «نعم، كاسيجي يابو ساما».

قال رودريجيز: «نعم؟ كاسيجي يابو ساما؟ أنا تابع لتودا هيرو ماتسو ساما، وهو ملك أكبر من النكرة خاصتك، وتودي ساما تابع لتوراناجا ساما، وهو أكبر نكرة ساما في العالم كله. أليس كذلك؟».

مزق الختم عن الباب، ووضع يده على أحد مسدساته. كانت السيوف نصف مستلة من أغمادها وقال بهدوء لبلاكثورن: «استعد للتخلي عن السفينة». وقال للساموراي بحدة: «توراناجا ساما».

ثم أشار بيده اليسرى إلى العلم الذي يرفرف على صاري سفينته: «هل تفهم؟».

تردد الساموراي وسيوفهم مسلولة. استعد بلاكثورن للقفز من على الجانب.

دفع رودريجيز الباب برجله بقوة، فانكسر قفل الباب وانفتح على مصراعيه: «توراناجا ساما، هل تفهمني؟».

- أفهمك يا ربان سان.

أسرع الساموراي بإدخال سيوفهم في أغمادها وانحنوا واعتذروا وانحنوا مجددًا. قال رودريجيز ببحة وهو يقود الطريق للأسفل: «هذا أفضل».

قال بلاكثورن عندما أصبحا في الطابق السفلي: «يا إلهي يا رودريجيز، هل تفعل هذا طوال الوقت وتنجو منه بسلام؟».

قال البرتغالي وهو يمسح العرق عن جبينه: «نادرًا جدًا ما أفعل ذلك. وحتى حينها أتمنى لو لم أبدأ قط».

اتكأ بلاكثورن على الحاجز: «أشعر وكأن أحدهم ركلني في معدتي».

- هذه هي الطريقة الوحيدة. عليك التصرف مثل الملك. ومع ذلك، لا يمكنك أبدًا التنبؤ بأفعال الساموراي. إنهم خطرون مثل كاهن ثمل

جالس على برميل بارود نصف مملوء وهو يحمل شمعة مشتعلة في مؤخرته.

- ماذا قلت لهم؟

- تودا هيرو ماتسو هو المستشار الرئيسي لتوراناجا، إنه دايميو أكبر من هذا المحلي. لهذا السبب استسلموا.

- كيف هو، توراناجا؟

- قصة طويلة يا إنجليزي.

جلس رودريجز على درجة السلم وخلع حذاءه ليدلك كاحله: «كدت أكرس قدمي على بابك المتهالك».

- لم يكن مغلقًا. كان بإمكانك فتحه ببساطة.

- أعلم. لكن هذا لم يكن ليحقق التأثير نفسه. يا إلهي، لديك الكثير لتتعلمه.

- هل ستعلمني؟

أعاد رودريجز حذاءه إلى قدمه وقال: «هذا يعتمد».

- على ماذا؟

- سنرى لاحقًا، حسنًا؟ لقد تكفلت أنا بكل الحديث حتى الآن، وهو أمر عادل، أنا لائق وأنت لست كذلك. قريبًا سيحين دورك. أين مقصورتك؟

دقق بلاكتورن النظر به للحظة. كانت رائحة السفينة في الأسفل خانقة وقديمة: «شكرًا لمساعدتي على الصعود على متن السفينة».

قاد بلاكتورن رودريجز إلى المؤخرة. كان باب مقصورته غير مغلق. ووجد أنها نُهبت وأُخذ كل شيء قابل للإزالة. لم توجد كتب أو ملابس أو أدوات أو أقلام ريشية. وكان صندوقه البحري أيضًا غير مغلق ومفرغ.

دخل بلاكتورن إلى المقصورة الرئيسية بغضب شديد، وكان رودريجز يراقبه باهتمام شديد. حتى الحجرة السرية قد عُثر عليها ونُهبت محتوياتها.

- لقد أخذوا كل شيء. أولئك الأوغاد اللعنة عليهم.

- ماذا كنت تتوقع؟

- لا أعلم. اعتقدت... مع وجود الأختام...

ذهب بلاكثورن إلى غرفة المؤن. ووجدها خالية. وكذلك مخزن الذخيرة. ولم تحترق العنابر إلا على رزم القماش الصوفي: «لعنة الرب على كل اليابانيين».

عاد إلى مقصورته وأغلق صندوقه البحري بقوة.

سأل رودريجيز: «أين هم؟».

- ماذا؟

- دلائك البحرية. أين دلائك البحرية؟

نظر إليه بلاكثورن بحدة.

- لن يقلق أي ربان بشأن الملابس. لقد جئت من أجل الدلائل البحرية. أليس كذلك؟

- بلى.

- لماذا أنت متفاجئ جداً يا إنجليزي؟ لماذا تعتقد أنني صعدت على متن السفينة؟ لمساعدتك على الحصول على المزيد من الخرق؟ إنها بالية على أي حال وستحتاج إلى أخرى. أملك الكثير لأعطيته لك. ولكن أين الدلائل البحرية؟

- لقد اختفوا. كانوا في صندوقي البحري.

- لن أسرقهم يا إنجليزي. أريد فقط قراءتهم. ونسخهم، إذا لزم الأمر. سأعز بهم كأنهم لي، لذلك لا داعي للقلق. (احتد صوته): رجاءً أحضرهم يا إنجليزي، ليس لدينا الكثير من الوقت المتبقي.

- لا أستطيع. اختفوا. كانوا في صندوقي البحري.

- مستحيل أن تكون قد تركتهم هناك، بالأخص وأنت قادم إلى ميناء أجنبي. لن تنسى قاعدة الربان الأولى وهي إخفاؤهم بعناية، وترك المزيفين فقط دون حماية. أسرع.

- لقد سُرَقوا.

- أنا لا أصدقك. لكنني أعترف بأنك أخفيتهم جيداً. لقد بحثت لمدة ساعتين ولم أجد أي أثر لهم.

- ماذا؟

- لماذا أنت متفاجئ جدًا يا إنجليزي؟ هل رأسك في مؤخرتك؟ بالطبع جئت إلى هنا من أوساكا للتحقق من دلائك البحرية.
- صعدتَ على متن السفينة مسبقًا؟

قال رودريجز دون صبر: «يا إلهي! نعم، بالطبع، قبل ساعتين أو ثلاث ساعات مع هيرو ماتسو، الذي أراد إلقاء نظرة حول السفينة. لقد كسر الأختام ثم قام الدايميو المحلي بإغلاقها مرة أخرى بعد مغادرتنا. أسرع بربك، الوقت يمضي بسرعة».

- لقد سُرَقوا.

أخبره بلاكثورن عن وصولهم وكيف استيقظ على الشاطئ. ثم ركل صندوقه البحري عبر الغرفة، غاضبًا من الرجال الذين نهبوا سفينته: «لقد سُرَقوا! كل خرائطي، وجميع دلائلي البحرية. لدي نسخ لبعض منها في إنجلترا، لكن الدليل البحري الخاص برحلاتي هذه قد اختفى و...». توقف.

- والدليل البحري البرتغالي؟ هيا يا إنجليزي، لا بد أنه برتغالي.
- نعم، والبرتغالي أيضًا، لقد اختفى أيضًا.

فكر: حاول السيطرة على انفعالاتك. لقد اختفى وهذا هو كل شيء. من يملكه؟ اليابانيون؟ أم هل أعطوه للكاهن؟ لا يمكنك الإبحار بسفينتك إلى الوطن من دون الدلائل البحرية والخرائط. لن تصل إلى الوطن أبدًا... هذا غير صحيح. يمكنك الإبحار إلى الوطن، ولكن بحذر ومع حظ كبير... لا تكن سخيًا! أنت تبعد مسافة نصف الأرض تقريبًا، في أرض العدو، وفي أيدي الأعداء، وليس لديك دليل بحري ولا خرائط: «يا إلهي، امنحني القوة».

كان رودريجز يراقبه باهتمام. قال أخيرًا: «أشعر بالأسف عليك يا إنجليزي. أعرف كيف تشعر، لقد حدث لي ذلك من قبل. لقد كان إنجليزيًا أيضًا، اللص، فلتغرق سفينته وتحترق في الجحيم إلى الأبد. هيا بنا لنعد على متن السفينة».



ظل أومي والآخرين ينتظرون على رصيف الميناء حتى دارت القادس حول رأس الميناء واختفت عن الأنظار. كانت طبقات الليل قد نقشت أثارها

على السماء القرمزية نحو الغرب. وإلى الشرق، التحم الليل بالسماء والبحر معًا، بلا أفق يفصل بينهما.

- كم سيستغرق الأمر لإعادة جميع المدافع إلى السفينة يا مورا؟
- سننتهي بحلول منتصف الغد إذا عملنا طوال الليل يا أومي سان. وإذا بدأنا عند الفجر، سننتهي قبل غروب الشمس. سيكون العمل خلال النهار أكثر أمانًا.
- اعملوا طوال الليل. أحضر الكاهن إلى الحفرة على الفور.
- ألقي أومي نظرة على إيجوراشي، مساعد يابو الرئيسي، الذي كان لا يزال يحرق صوب رأس الميناء، وجهه مشدودًا، والندبة الداكنة فوق محجر عينه الفارغة تزيده قتامة: «نرحب بك للبقاء معنا يا إيجوراشي سان. منزلي متواضع ولكن ربما يمكننا أن نوفر لك الراحة».
- قال الرجل العجوز وهو يلتفت إليه: «شكرًا لك، لكن سيدنا أمر بالعودة إلى إيدو على الفور، لذلك سأعود على الفور». ظهر مزيد من قلقه: «أتمنى لو كنت على متن تلك القادس».
- نعم.
- أكره التفكير في يابو ساما وهو على متن السفينة مع رجلين فقط. أكره ذلك.
- نعم.
- أشار إلى إيراسموس: «سفينة ملعونة، هذا ما هي عليه. ثروة عظيمة، ثم لا شيء».
- بالتأكيد كل شيء؟ ألن يسرَّ الزعيم توراناغا، ويسعد جدًا بهدية الزعيم يابو؟
- هذا الجشع المستولي على الأراضي يظن نفسه عظيم الشأن لدرجة أنه لن يلاحظ حتى كمية الفضة التي سرقها من سيدنا. أين عقلك؟
- أفترض أن قلقك الشديد بشأن الخطر المحتمل على سيدنا هو وحده الذي دفعك إلى قول مثل هذا التعليق.
- قال إيجوراشي: «أنت على حق يا أومي سان. لم أقصد أي إهانة. لقد كنت ذكيًا جدًا ومفيدًا لسيدنا. ربما تكون على حق بشأن توراناغا أيضًا».

لكنه كان يفكر: استمتع بثروتك المكتسبة حديثاً أيها الأحمق المسكين. أنا أعرف سيدي أفضل منك، ولن يفيدك توسيع إقطاعيتك بشيء على الإطلاق. كان تقدمك سيكون عائداً عادلاً مقابل السفينة والسبائك والأسلحة. ولكن الآن اختفت. وبسببك، أصبح سيدنا في خطر. أنت أرسلت الرسالة وقلت: قابل الهمج أولاً، مما أغريته. كان يجب أن نغادر بالأمس. نعم، عندها سيدي سيكون بأمان الآن، بالمال والأسلحة. هل أنت خائن؟ هل تتصرف لنفسك، أم لأبيك الغبي، أم لعدو؟ ربما لتوراناجا؟ لا يهم. يمكنك أن تصدقني يا أومي، أيها الأحمق اللعين، أنت وفرعك من عشيرة كاسيجي لن تدوم طويلاً على هذه الأرض. كنت لأقول لك ذلك في وجهك لولا أن ذلك سيضطرني إلى قتلك، وحينها كنت سأخالف ثقة سيدي. هو من سيقدر موعد قتلك، وليس أنا.

قال: «شكراً على حسن ضيافتك يا أومي سان، أتطلع لرؤيتك قريباً، لكنني سأغادر الآن».

- هل يمكنك فعل شيء من أجلي، رجاء؟ قدّم تحياتي إلى والدي. سأكون ممتناً جداً لذلك.

- بكل سرور. إنه رجل جيد. ولم أهنئك بعدُ على إقطاعيتك الجديدة.

- أنت لطيف للغاية.

- شكراً لك مجدداً يا أومي سان.

رفع يده في تحية ودية، وأشار إلى رجاله ثم أخرج كتيبة الفرسان من القرية.

ذهب أومي إلى الحفرة. كان الكاهن هناك. أدرك أومي أن الرجل غاضب وكان يأمل أن يقدم على فعل صريح أمام الجميع حتى يتسنى له جلده.

- أيها الكاهن، أخبر الهمج أن يصعدوا واحداً تلو الآخر. وأخبرهم أن الزعيم يابو قد أذن لهم بالعيش مجدداً في عالم الرجال. (تعهد أومي إبقاء لغته بسيطة): ولكن بأدنى مخالفة للقواعد، سيعاد اثنان منهم إلى الحفرة. عليهم أن يحسنوا التصرف ويطيعوا جميع الأوامر. هل هذا واضح؟

- نعم.

جعل أومي الكاهن يكرر كلامه كما قاله. وعندما تأكد من أن الرجل قد فهم كل شيء بوضوح، جعله يتحدث إلى من في الحفرة. صعد الرجال واحداً تلو

الآخر. كان الخوف يخيم عليهم جميعًا. واحتاج البعض إلى المساعدة. كان رجلٌ منهم يعاني ألمًا شديدًا ويصرخ في كل مرة يلمس أحدهم ذراعه.

- يجب أن يكون هناك تسعة.

قال الكاهن: «مات أحدهم. وجثته هناك في الحفرة».

فكر أومي للحظة: «مورا، أحرق الجثة واحتفظ بالرماد مع رماد الهمجي الآخر. ضع هؤلاء الرجال في نفس المنزل السابق. وأعطهم الكثير من الخضار والأسماك. وحساء الشعير والفواكه. اجعلهم يغتسلون لأنه تنبعث منهم رائحة نتنة. وأنت أيها الكاهن، أخبرهم أنه إذا أحسنوا التصرف وأطاعوا الأوامر، سيستمر تقديم الطعام لهم».

تابع أومي المراقبة والاستماع باهتمام. رأى الجميع يبدون امتنانًا كبيرًا وفكر بازدراء: يا لهم من أغبياء! لقد حرمتهم من الطعام لمدة يومين فقط، ثم أعطيتهم القليل، والآن أصبحوا مستعدين حتى لأكل الروث، حقًا سيفعلون: اجعلهم ينحنون كما ينبغي واصطحبهم بعيدًا يا مورا».

ثم التفت إلى الكاهن: «حسنًا؟».

- سأرحل الآن. أذهب إلى منزلي. سأترك أنجيرو.

- من الأفضل أن تغادر وتبتعد إلى الأبد، أنت وكل كاهن مثلك. ربما في المرة القادمة التي يأتي فيها أحدكم إلى إقطاعيتي، يكون ذلك لأن بعض فلاحبي المسيحيين أو التابعين يفكرون في الخيانة.

قال ذلك مستخدمًا التهديد المبطن والحيلة الكلاسيكية التي استخدمها الساموراي المعادون للمسيحية للسيطرة على الانتشار العشوائي للعقيدة الغريبة في إقطاعياتهم، ففي حين أن الكهنة الأجانب كانوا يتمتعون بالحماية، لم يكن الحال كذلك بالنسبة لمعتنقي المسيحية الجدد من اليابانيين.

- المسيحيون اليابانيون جيدون. دائمًا. هم فقط تابعون صالحون. لم يفكروا قط بأفكار سيئة. لا.

- يسعدني سماع ذلك. لا تنسَ أن إقطاعيتي تمتد لمسافة عشرين ري في كل اتجاه. هل تفهم؟

- أفهم. نعم. أفهم جيدًا.

راقب الرجل وهو ينحني بتصنع -حتى الكهنة الإنجليز يجب أن يتحلوا بالأدب- ويمشي مبتعدًا.

قال أحد الساموراي التابعين له. كان شابًا ووسيمًا جدًا: «أومي سان؟».

- نعم؟

- عفواً، أعلم أنك لم تنسَ، لكن ماسيجيرو سان لا يزال في الحفرة.

ذهب أومي إلى باب الحفرة وحقق إلى الساموراي. وعلى الفور كان الرجل على ركبتيه ينحني باحترام.

لقد كبر في السن في غضون اليومين. قيم أومي خدمته السابقة وقيمته المستقبلية. ثم أخذ خنجر الساموراي الشاب من حزامه وألقاه في الحفرة.

في أسفل السلم، حلق ماسيجيرو إلى النصل بغير تصديق. بدأت الدموع تنهمر على خديه. وقال بذل: «لا أستحق هذا الشرف يا أومي سان».

- نعم.

- شكرًا لك.

قال الساموراي الشاب إلى جانب أومي: «هل لي أن أطلب السماح له بالقيام بالسيبوكو هنا على الشاطئ؟».

- لقد فشل في الحفرة. لذا سيبقى في الحفرة. أصير أمرًا للقرويين بردمها. امحُ كل آثارها. لقد دنسها الهمج.

ضحكت كيكو وهزت رأسها: «لا يا أومي سان، أعتذر، رجاء لا أريد مزيدًا من الساكي وإلا سيتساقط شعري، وسأسقط أنا، ثم إلى أين سنذهب؟».

قال أومي بمرح، ورأسه يدور من الخمر: «سأسقط معك وسنقيم علاقة وسنكون في كامل سعادتنا، خارج ذواتنا».

- ولكنني سأشخر في أثناء النوم، ولن تتمكن من النوم مع فتاة ثملة بغيضة وتحظى بالكثير من المتعة. بالتأكيد لا، آسفة جدًا. أوه لا، أومي ساما ذو الإقطاعية الجديدة الضخمة، أنت تستحق أفضل من ذلك.

سكبت جرة أخرى من النبيذ الدافئ في الكوب الصغير المصنوع من الخزف وقدمته بكلتا يديها، وإبهامها وسبابتها اليسرى تمسكان الكوب برقة، وإصبعها السبابة اليمنى تلمس الجزء السفلي: «تفضل، لأنك رائع».

تناول الكأس وارتشفه، مستمتعاً بدفعته ولذعته اللذيذة: «أنا سعيد جداً لأنني تمكنت من إقناعك بالبقاء ليوم إضافي، أليس كذلك؟ أنت جميلة جداً يا كيكو سان».

- أنت جميل، وهذا من دواعي سروري.

كانت عيناها تبرقان تحت ضوء شمعة موضوعة داخل زهرة مصنوعة من الورق والخيزران ومعلقة من السقف المصنوع من خشب الأرز. كانت هذه أفضل مجموعة غرف في بيت الشاي بالقرب من الساحة. انحنت لتساعده على تناول مزيد من الأرز من الوعاء الخشبي البسيط الموضوع على المنضدة المنخفضة المطلية باللون الأسود أمامه، لكنه هز رأسه.

- لا، لا، شكراً لك.

- يجب أن تأكل أكثر، رجل قوي مثلك.

- أنا ممتلئ حقاً.

لم يقدم لها أي طعام لأنها بالكاد لمست طبق سلطة الخضار الصغير -خيار مقطّع رفيع وفجل صغير مخلل بالخل الحلو- وهو كل ما تناولته من الوجبة بأكملها. كانت توجد شرائح من الأسماك النيئة على كرات من الأرز اللزج والحساء والسلطة وبعض الخضار الطازج الذي يقدم مع صلصة حارة من الصويا والزنجبيل. وأرز.

صفقت كيكو بيديها برفق، ففتحت الخادمة الشخصية الباب على الفور.

- نعم يا سيدتي؟

- سويسين، خذي كل هذه الأشياء وأحضري مزيداً من الساكي وإناء جديداً من الشاي. وفاكهة. يجب أن يكون الساكي أدفاً من المرة الماضية. أسرع يا عديمة الجدوى.

حاولت أن تبدو متسلطة.

كانت سويسين تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، لطيفة ومتلهفة لإرضاء الآخرين، وكانت تتدرب لتصبح محظية. لقد كانت مع كيكو لمدة عامين وكانت كيكو مسؤولة عن تدريبها.

صرفت كيكو نظرها على مضض عن الأرز الأبيض الناصع الذي كانت تتوق لتناوله وتجاهلت جوعها. ذكرت نفسها: لقد أكلت قبل وصولك وستأكلين

لاحقًا. نعم، ولكن حتى ذلك الحين كان الطعام قليل جدًا. كانت معلمتها تخبرها: «لكن السيدات لديهن شهية صغيرة، شهية صغيرة جدًا. الضيوف يأكلون ويشربون، وكلما أكلوا أكثر كان ذلك أفضل. لكن السيدات لا يفعلن، وبالتأكيد ليس مع الضيوف. كيف ستمكن السيدات من التحدث أو الترفيه أو العزف على الشاميسن أو الرقص إذا كن يحشون أفواههن؟ ستناولين الطعام لاحقًا، اصبري. وركزي على ضيفك».

بينما راقبت سويسين بعين ناقدة، تقيم مهاراتها، روت على أومي قصصًا لإضحاكه وجعله ينسى العالم الخارجي. جلست الشابة بجوار أومي ورتبت الأوعية الصغيرة وعصي الطعام على الصينية المزخرفة وفقًا للترتيب الجميل الذي علموها إياه. ثم التقطت قارورة الساكي الفارغة، وسكبت منها للتأكد من أنها فارغة - لكان من سوء الأدب أن تهز القارورة - ثم نهضت بالصينية وحملتها دون إحداث ضجة إلى الباب، وجثت على ركبتيها ووضعت الصينية أرضًا قبل أن تفتح الباب، ثم نهضت وخطت خلال الباب، وجثت مجددًا، ورفعت الصينية وأنزلتها مجددًا بهدوء، وأغلقت الباب كليًا.

- سأضطر حقًا إلى الحصول على خادمة أخرى.

قالت كيكو وهي تبدو غير مستاءة. كانت تفكر: هذا اللون يليق بها، يجب أن أرسل إلى إيدو لشراء المزيد من هذا الحرير. يا لها من خسارة أنه باهظ الثمن، ولكن لا يهم، فمع كل الأموال التي أعطيت لها الليلة الماضية والليلة، سيكون هناك ما يكفي أكثر من نصيبي لشراء عشرين كيمونو للصغيرة سويسين. إنها طفلة لطيفة حقًا، ومراعية جدًا: «إنها تحدث الكثير من الضوضاء - تزعج الغرفة بأكملها - أنا أسفة جدًا».

قال أومي وهو ينهي نبيذه: «لم ألاحظ سواكِ أنتِ».

رفرفت كيكو بمروحتها، وابتسامتها تضيء وجهها: «تجعلني أشعر بشعور جيد جدًا يا أومي سان. نعم. وبكوني محبوبة».

أحضرت سويسين الساكي بسرعة. والشاي أيضًا. سكبت سيدتها بعض النبيذ لأومي وقدمته له. ملأت الفتاة الصغيرة الكوبين بهدوء شديد. حتى إنها لم تسكب قطرة واحدة، وفكرت أن الصوت الذي يصدر من السائل وهو يُسكب في الكأس له رنين هادئ ومناسب، لذلك تنهدت بارتياح شديد داخليًا، وجلست على قدميها وانتظرت.

كانت كيكو تروي قصة مسلية سمعتها من إحدى صديقاتها في ميشيما وكان أومي يضحك. وبينما تفعل ذلك، أخذت حبة برتقال صغيرة وقشرتها وكأنها تفتح زهرة باستخدام أظفارها الطويلة، أصبحت فصوص الفاكهة بمنزلة البتلات، والقشرة هي أوراقها. أزال اللب وقدمتها بكلتا يديها وكأن هذه هي الطريقة المعتادة التي تقدم بها السيدة الفاكهة لضييفها.

- هل ترغب في برتقالة يا أومي سان؟

كان رد فعل أومي الأول أن يقول: لا يمكنني تدمير هذا الجمال. ولكنه فكر أن هذا الرد سيكون غير مناسب فهو مذهول من براعتها. كيف يمكنني الثناء عليها وعلى معلمتها التي لا أعلم اسمها؟ كيف يمكنني أن أرد لها السعادة التي منحتها لي، حيث سمحت لي بمشاهدة أصابعها تخلق شيئاً ثميناً للغاية ولكنه في ذات الوقت عابر؟

أمسك بالزهرة بين يديه للحظة ثم أزال ببراعة أربعة فصوص متباعدة على مسافات متساوية، وأكلها باستمتاع. وهذا ترك زهرة جديدة. أزال أربعة فصوص أخرى، مما خلق تصميمًا زهريًا ثالثًا. بعد ذلك أخذ فصًا واحدًا، وحرك فصًا ثانيًا بحيث تُشكّل الفصوص الثلاثة المتبقية زهرة أخرى.

ثم أخذ فصين وأعاد الفص الأخير في مهد البرتقالة، في الوسط على جانبه، وكأنه هلال داخل شمس. تناول واحدًا ببطء شديد. وعندما انتهى، وضع الآخر في وسط يده وقدمه: «يجب أن تأخذي هذه لأنها القطعة قبل الأخيرة. هذه هديتي لك».

بالكاد تمكنت سويسين من التنفس. لمن كانت القطعة الأخيرة؟

أخذت كيكو الفاكهة وأكلتها. كانت ألد فاكهة تذوقتها على الإطلاق.

قال أومي وهو يضع الزهرة بأكملها بجدية في راحة يده اليمنى: «هذه، الأخيرة. هذه هي هديتي للآلهة، أيًا كانوا، وأيضا كانوا. لن أكل هذه الفاكهة مجددًا إلا إذا كانت من يديك».

قالت كيكو: «هذا كثير يا أومي ساما. أعفك من نذك! قيل ذلك تحت تأثير الكامي الذي يعيش في جميع زجاجات الساكي».

- أرفض أن تعفيني.

كانا سعداء جدًا معًا.

قالت: «سويسين، اذهبي الآن واتركينا. رجاءً يا طفلة، رجاءً حاولي فعل ذلك برقعة».

- حسنًا يا سيدتي.

دخلت الفتاة الصغيرة إلى الحجرة المجاورة وتأكدت من أن الفوتون كان مرتبًا، وكانت آلات الحب وخرزات المتعة قريبة، والزهور مثالية. أزالَت تجعد غير محسوس من الغطاء الناعم بالفعل. ثم جلست سويسين بعد أن شعرت بالرضا، وتنهدت بارتياح، وراحت تلوح بمروحتها البنفسجية لتبعد الحرارة عن وجهها، وانتظرت بصبر.

في الغرفة المجاورة، وهي الأجمل في بيت الشاي، الوحيدة التي تملك حديقة خاصة، التقطت كيكو الشاميسن طويلة المقبض. كانت ذات ثلاثة أوتار تشبه الجيتار، ملأت أول نغمة عزفتها كيكو الغرفة. ثم بدأت تغني. في البداية بنعومة، ثم تتدرج بالنغمات، ناعمة ثم أعلى، ناعمة وتنهد بلطف. كانت تغني عن الحب والحب غير المتبادل والسعادة والحزن.

- سيدتي؟

لم يكن للهمس حتى أدنى وقع لإيقاظ أخف النائمين، لكن سويسين كانت تعلم أن سيدتها تفضل عدم النوم بعد الغيوم والمطر، مهما كانت قوية. كانت تفضل الراحة وهي نصف مستيقظة في هدوء.

همست كيكو بهدوء شديد: «نعم يا سوي تشان؟». استخدمت «تشان» كما يفعل المرء مع طفلته المفضلة: «لقد عادت زوجة أومي سان. للتو صعد هودجها إلى الطريق المؤدي إلى منزله».

ألقت كيكو نظرة على أومي. استقر رأسه براحة على الوسادة الخشبية المبطنة، وذراعه متشابكتان. كان جسده قويًا وسليماً، وبشرته مشدودة ولونها كالذهب، ولها بريق هناك. لمستته برفق بما يكفي لتنتقل اللمسة داخل حلمه ولكن ليس بما يكفي لإيقاظه. ثم انسلت من تحت الغطاء، وجمعت كيمنونها حول نفسها.

لم تستغرق كيكو وقتًا طويلاً في تجديد مكياجها بينما كانت سويسين تمشط شعرها وتسرحه وتعيد ربطه على طريقة شيمودا. ثم سارت السيدة والخادمة بهدوء على طول الممر إلى الشرفة ثم عبر الحديقة إلى الساحة.

كانت القوارب تتحرك مثل اليراعات من السفينة الأجنبية إلى الشاطئ حيث لا يزال يتعين تحميل سبع من المدافع. كان لا يزال ليلاً دامساً، ولا يزال يوجد وقت طويل قبل الفجر.

تسللت المرأتان على طول الزقاق الضيق بين مجموعة من المنازل وبدأتا في صعود الطريق.

كان الحمالون الملطخون بالعرق والمستنزون يجمعون قوتهم حول الهودج على قمة التل خارج منزل أومي. لم تطرق كيكو باب الحديقة. كانت الأنوار مضاءة في المنزل وكان الخدم يهرعون ذهاباً وإياباً. أشارت إلى سويسين التي ذهبت على الفور إلى الشرفة بالقرب من الباب الأمامي وطرقته وانتظرت. فُتح الباب بعد لحظة. أومأت الخادمة واختفت. وعادت الخادمة بعد لحظة أخرى وأشارت إلى كيكو وانحنى باحترام بينما كانت تمر بجانبها. هرعت خادمة أخرى إلى الأمام وفتحت باب أفضل غرفة.

كان سرير والدة أومي فارغاً. كانت تجلس منتصبية بالقرب من الكوة الصغيرة التي تحوي تنسيق الزهور. كانت توجد نافذة صغيرة مفتوحة على الحديقة. وميدوري زوجة أومي جالسة أمامها.

جثت كيكو. هل مضى ليلة واحدة فقط على وجودي هنا حينما كنت مرعوبة في ليلة الصراخ؟ انحنى أولاً إلى والدة أومي ثم إلى زوجته، وشعرت بالتوتر الشديد بين المرأتين وسألت نفسها: لماذا يوجد دائماً هذا العنف بين الحماة والكنة؟ ألا تصبح الكنة مع الوقت حماة؟ لماذا تعامل بعد ذلك زوجة ابنها دائماً بلسان قاسٍ وتجعل حياتها بائسة، ولماذا تفعل تلك الفتاة الشيء نفسه بدورها؟ ألا يتعلم أحد؟

- أنا آسفة على إزعاجك يا سيدة سان.

أجابت العجوز: «على الرحب يا كيكو سان، أمل أنه لم تواجهك أي مشكلات؟».

- لا، ولكنني لم أكن أعلم ما إذا كنتِ ترغبين مني بإيقاظ ابنك أم لا. (أخبرتها وهي تعلم الإجابة بالفعل): فكرت أنه من الأفضل أن أسأل، لأنك يا ميدوري سان... (التفتت وابتسمت وانحنى قليلاً لميدوري فهي معجبة بها كثيراً): لأنك قد عدتِ.

قالت العجوز: «أنت لطيفة للغاية يا كيكو سان، ومراعية للغاية. لا، اتركه ليرتاح».

- حسنًا. رجاءً اعذريني على إزعاجك هكذا، لكنني اعتقدت أنه من الأفضل أن أسأل. أمل أن رحلتك لم تكن سيئة للغاية يا ميدوري سان.

قالت ميدوري: «أنا آسفة جدًا لكنها كانت مروعة. أنا سعيدة بعودتي وكرهت غيابي. هل زوجي بخير؟».

- نعم، بخير جدًا. لقد ضحك كثيرًا هذا المساء وبدأ سعيدًا. لقد أكل وشرب باعتدال وهو الآن نائم بسلام.

- كانت السيدة سان تشرع بإخباري ببعض الأشياء الرهيبة التي حدثت بينما كنتُ بعيدة و...

قاطعتها العجوز والغضب واضح في صوتها كالسم: «لم يكن يجب أن تذهبي. كنتِ مطلوبة هنا. أو ربما لا. ربما كان يجب أن تبتعدي إلى الأبد. ربما أحضرتِ معكِ إلى منزلنا كامى سيئًا برفقة أغطية فراشكِ».

قالت ميدوري بصبر: «لم أفعل ذلك قط يا سيدة سان. رجاءً صدقي أنني أفضل أن أقتل نفسي على أن أجلب أدنى وصمة عار إلى سمعتك الطيبة. رجاءً سامحيني على غيابي وعيوبي. أنا آسفة».

- منذ وصول تلك السفينة الشيطانية إلى هنا، لم نشهد سوى المتاعب. ذلك كامى سيئ. سيئ للغاية. وأين كنتِ عندما كنتِ مطلوبة؟ تثرثرين في ميشيما، تحشين نفسك بالطعام وتشربين الساكي.

- توفي والدي يا سيدة سان، في اليوم السابق لوصولي.

- ماذا؟ ليس لديكِ حتى الإحسان أو البصيرة لتكوني بجانب فراش موت والدك. كلما أسرعتِ بمغادرة منزلنا إلى الأبد، كان ذلك أفضل للجميع. أريد شايًا. لدينا ضيفة هنا ولم تتذكري حتى آدابك بما يكفي لتقدمي لها الضيافة.

- لقد طُلب على الفور في اللحظة التي...

- لم يصل على الفور.

فُتح باب الشوجي. أحضرت خادمة متوترة الشاي وبعض الكعكات الحلوة. خدمت ميدوري العجوز أولًا، التي سبّت الخادمة بشدة ومضغت

الكعكة دون أسنان، وتجرعت مشروبها بصوت مرتفع. قالت العجوز: «يجب أن تعذري الخادمة يا كيكو سان. الشاي بلا طعم. بلا طعم على الإطلاق! وساخن جدًا. أعتقد أن هذا هو كل ما يمكن توقعه في هذا المنزل».

نفخت ميدوري برفق على الشاي لتبريده: «تفضلي، خذي خاصتي».

أخذته العجوز على مضض: «لماذا لا يمكن أن يكون صحيحًا في المرة الأولى؟».

ثم انغمست في صمت عبوس.

سألت ميدوري كيكو: «ما رأيك في كل هذا؟ السفينة ويابو ساما وتودا هيرو ماتسو ساما؟».

- لا أعلم بماذا أفكر. أما بالنسبة للهمج، فمن يعلم؟ إنهم بالتأكيد مجموعة استثنائية من الرجال. والدایمیو الأكبر، القبضة الحديدية؟ من الغريب جدًا أنه وصل تقريبًا في نفس وقت وصول الزعيم يابو، أليس كذلك؟ حسنًا، يجب أن تعذريني، لا، رجاءً، أريد الذهاب.

- أوه لا يا كيكو سان، لن أسمح بذلك على الإطلاق.

قاطعتها العجوز بلا صبر: «انظري يا ميدوري سان، إن ضيفتنا غير مرتاحة والشاي مروع».

- كان الشاي جيدًا بالنسبة لي يا سيدة سان حقًا. لا، رجاءً اعذريني فأنا متعبة قليلًا. ربما إذا سُمح لي قبل أن أغادر غدًا سأتي لرؤيتك. إنه لمن دواعي سروري دائمًا التحدث معك.

سمحت العجوز لنفسها أن تتملقها، وتبعت كيكو ميدوري إلى الشرفة وإلى الحديقة.

قالت ميدوري وهي تمسك بذراعها وتشعر بالدفع من جمالها: «أنتِ مراعية جدًا يا كيكو سان، لقد كان هذا لطفًا شديدًا منك، شكرًا لك».

ألقت كيكو نظرة خاطفة على المنزل للحظة وارتجفت: «هل هي دائمًا هكذا؟».

ابتسمت ميدوري بحزن: «كانت مهذبة الليلة مقارنة ببعض الأحيان. لولا أومي وابني، أقسم إنني كنت سأطرد غبارها عن قدمي وأحلق رأسي وأصبح راهبة. لكن لدي أومي وابني وهذا يعوض كل شيء. كل ما أفعله هو شكر

جميع الكامي على ذلك. لحسن الحظ تفضل السيدة سان البقاء في إيدو ولا تستطيع البقاء بعيدًا عنها لفترة طويلة. تدريب نفسك على عدم الاستماع، تعلمين كيف يكون الأمر». تنهدت وبدأت جميلة جدًا تحت ضوء القمر: «لكن هذا غير مهم. أخبريني عما حدث منذ أن غادرت».

لهذا السبب جاءت كيكو إلى المنزل على وجه السرعة، لأنه من الواضح أن كلاً من الأم والزوجة لا تريدان إزعاج نوم أومي. لقد جاءت لتخبر السيدة الجميلة ميدوري بكل شيء، حتى تتمكن من مساعدتها على حماية كاسيجي أومي كما ستحاول هي نفسها حمايته. أخبرتها بكل ما تعرفه باستثناء ما حدث في الغرفة مع يابو. أضافت الشائعات التي سمعتها والقصص التي نقلتها الفتيات الأخريات إليها أو اخترعنها. وكل ما قاله لها أومي -آماله ومخاوفه وخطئه- كل شيء عنه، باستثناء ما حدث في الغرفة الليلة. كانت تعلم أن هذا غير مهم لزوجته.

- أنا خائفة يا كيكو سان، خائفة على زوجي.
- كل ما نصح به كان حكيماً يا سيدتي. أعتقد أن كل ما فعله كان صحيحاً. لا يكافئ الزعيم يابو أحداً بسهولة وثلاثة آلاف كوكو هي زيادة جديرة بالاهتمام.

- ولكن السفينة الآن ملك للزعيم توراناغا، وكل تلك الأموال.
- نعم، لكن تقديم يابو ساما للسفينة كهدية كانت فكرة عبقرية. لقد أعطى أومي سان الفكرة ليابو، بالتأكيد هذا يكفي كمقابل، أليس كذلك؟ يجب الاعتراف بأومي سان على أنه تابع بارز.

لقد حرّفت كيكو الحقيقة قليلاً، وهي تعلم أن أومي في خطر كبير، هو وكل بيته. ذكرت نفسها: سيحدث ما هو مقدر له الحدوث، ولكن لن يضر أن أخفف من حزن امرأة لطيفة.

قالت: «نعم، أستطيع أن أرى ذلك».

صلت: أرجو أن تكون تلك هي الحقيقة، رجاء دعها تكون الحقيقة. عانقت الفتاة وعيناها مليئتان بالدموع: «شكراً لك. أنت لطيفة جداً يا كيكو سان، لطيفة جداً».

كانت في السابعة عشرة من عمرها.



الفصل الثامن

- ماذا تعتقد يا إنجليزي؟
- أعتقد أنه توجد عاصفة قادمة.
- متى؟
- قبل غروب الشمس.
- كان الوقت قبيل الظهيرة وكانا يقفان على سطح السفينة تحت غيوم رمادية قاتمة. هذا هو ثاني يوم لهم في البحر.
- لو كانت هذه سفينتك، ماذا كنت ستفعل؟
- سأل بلاكثورن: «كم المسافة المتبقية قبل وصولنا إلى اليابسة التي سنرسو فيها؟».
- بعد غروب الشمس.
- وكم المسافة إلى أقرب يابسة؟
- أربع أو خمس ساعات يا إنجليزي. لكن اللجوء إلى المأوى سيكلفنا نصف يوم ولا أستطيع تحمل مثل ذلك التأخير. ماذا كنت ستفعل؟
- فكر بلاكثورن لحظة. خلال الليلة الأولى التي انطلقت بها القادس جنوبًا على طول الساحل الشرقي لشبه جزيرة إيزو، بمساعدة الشراع الكبير على صاري منتصف السفينة. عندما اقتربوا من رأس إيتو، وهو الرأس الجنوبي الأقصى، حدد رودريجز المسار غربًا جنوبًا وغادر أمان الساحل إلى عرض البحر المفتوح، متجهًا نحو نقطة رسو عند رأس شينتو على بعد ثلاثمائة وعشرين كيلومترًا.
- لقد قال رودريجز: «عادةً على متن أحد هذه القوادس، كنا لنتبع الساحل من أجل السلامة، لكن هذا سيستغرق وقتًا طويلًا والوقت مهم. طلب مني توراناغا أن أقود تودي إلى أنجيرو ذهابًا وإيابًا. بسرعة. هناك مكافأة

تنتظرني إذا أتممت المهمة بسرعة. أعتقد أن أيًا من ربانة سفنهم سيكون ماهرًا بما يكفي لإتمام مهمة قصيرة كهذه، لكن ذاك المسكين سيخاف حتى الموت وهو يحمل على متن السفينة دايميو مهمًا مثل تودي، خاصةً بعيدًا عن الأنظار في اليابسة. إن اليابانيون ليسوا بحارة محيطات. قراصنة ومقاتلون وبحارة ساحليون عظماء. لكن أعماق البحار تخيفهم. حتى إن التايكو القديم أصدر قانونًا ينص على أن السفن القليلة التي يمتلكها اليابانيون يجب أن يكون على متنها دائمًا ربانة برتغاليون. لا يزال قانون بلدهم حتى اليوم».

- لماذا فعل ذلك؟

هز رودريجز كتفيه: «لعل أحدهم اقترح عليه ذلك».

- مَنْ؟

- الدليل البحري المسروق الخاص بك يا إنجليزي، الدليل البرتغالي. لِمَنْ كان؟

- لا أعلم. لم يوجد اسمٌ عليه ولا توقيع.

- من أين حصلت عليه؟

- من كبير تجار شركة الهند الشرقية الهولندية.

- من أين حصل عليه؟

هزّ بلاكتورن كتفيه.

لم تكن ضحكة رودريجز مرحة: «حسنًا، لم أتوقع قط أن تخبرني، لكن أيًا كان مَنْ سرقه وباعه، أمل أن يحترق في نار الجحيم إلى الأبد».

- أنت موظف لدى تورانا جا يا رودريجز؟

- لا. كنت أنا وقبطاني نزور أوساكا فقط. كان هذا مجرد معروف لتورانا جا. تطوع به قبطاني. أنا ربان الـ... (توقف رودريجز): أستمّر في نسيان أنك العدو يا إنجليزي.

- تحالفت البرتغال وإنجلترا قرونًا.

- ولكننا لسنا كذلك الآن. اذهب إلى الأسفل يا إنجليزي. أنت منهمك وكذلك أنا، والرجال المنهكون يرتكبون الأخطاء. تعال إلى السطح عندما تستعيد عافيتك.

لذلك نزل بلاكتورن إلى الأسفل إلى مقصورة الربان واستلقى على السرير. كانت خريطة رودريجز للرحلة موضوعة على المكتب المثبت على الحاجز مثل كرسي القيادة على سطح السفينة. كان الكتاب ذو الغلاف الجلدي يبدو مستخدمًا، لكن بلاكتورن لم يفتحه.

سأل سابقًا: «لماذا تتركه هناك؟».

- لو لم أفعل، لكان بإمكانك البحث عنه. لكنك لن تلمسه هناك -أو حتى تنظر إليه- دون إذن. أنت ربانٌ ولستَ لصًا تاجرًا أو جنديًا لعينًا.

- سأقرأه. كنت ستفعل ذلك أنت أيضًا.

- ليس دون إذن يا إنجليزي. لا يفعل أي ربان ذلك. حتى أنا لن أفعل.

حدق بلاكتورن إلى الكتاب للحظة ثم أغلق عينيه. لقد نام نومًا عميقًا طوال ذلك اليوم وجزءًا من الليل. واستيقظ كعادته قبل الفجر بقليل. استغرق الأمر منه بعض الوقت للتكيف مع الحركة غير المعتادة للقادس ودقات الطبل التي حافظت على تحرك المجاذيف بتناغم كوحدة واحدة. استلقى على ظهره براحة في الظلام وذراعه تحت رأسه. فكر في سفينته الخاصة وأبعد قلقه بشأن ما سيحدث عندما يصلون إلى الشاطئ وأوساكا. شيء واحد في كل مرة. فُكّر في فيليسييتي وتيودور والوطن. لا، ليس الآن. فُكّر في إمكانية وجود فرصة جيدة للحصول على سفينة للعودة إلى الوطن إن كان سائر البرتغاليين مثل رودريجز. إن الربابنة ليسوا أعداء واللجنة على كل شيء آخر! لكن لا يمكنك قول ذلك يا فتى. أنت إنجليزي، الهرطوقي ومعادي المسيحية المكروه. الكاثوليك يملكون هذا العالم. لقد امتلكوه بالفعل. الآن نحن والهولنديون سنحطمهم.

يا لحماقة كل هذا! كاثوليكى وبروتستانتى وكالفينى ولوثري وأي لعنة أخرى. كان يجب أن تولد كاثوليكيًا. القدر فقط هو الذي جعل والدك يذهب إلى هولندا حيث التقى امرأة، أناكي فان دروسيت، التي أصبحت زوجته، ورأى الكاثوليك الإسبان والكهنة الإسبان ومحاكم التفتيش لأول مرة. فكر بلاكتورن: أنا سعيد لأنه فتح عينيه على الحقيقة، أنا سعيد لأن عيني مفتوحتان.

ثم صعد إلى سطح السفينة. كان رودريجز جالسًا على كرسيه وعيناه محمrtان من قلة النوم، وكان بحاران يابانيان يقودان السفينة كما كانا من قبل.

- هل بإمكانني تولّي المراقبة بدلاً عنك؟

- كيف تشعر الآن يا إنجليزي؟

رأى بلاكتورن رودريجز يفحصه بنظراته: «لقد ارتحت. هل بإمكانني تولّي المراقبة نيابةً عنك؟ سأوقظك إذا تغير اتجاه الرياح... أو أي شيء آخر».

- شكراً لك يا إنجليزي. نعم، سأنام قليلاً. حافظ على هذا الاتجاه. وعند المنعطف، اجعل المسار أكثر ميلاً نحو الغرب بأربع درجات، وفي المنعطف التالي، زد ست درجات أخرى غرباً. سيكون عليك تحديد المسار الجديد على البوصلة لمُمسك دفة القيادة. (أنهى كلامه بالياباني): هل فهمت؟

ضحك بلاكتورن: «نعم، أربع درجات إلى الغرب إذاً. اذهب إلى الأسفل يا ربان، سريرك مريح».

لكن فاسكو رودريجز لم ينزل إلى الأسفل. لقد سحب فقط رداءه البحري أقرب إلى جسمه واستقر بعمق في كرسي القيادة. وقبل لحظة وجيزة من دورة رمال الساعة الزجاجة، استيقظ وفحص تغيير المسار دون أن يتحرك وعاد على الفور إلى النوم مرة أخرى. استيقظ مرة أخرى عندما تغير اتجاه الرياح، ثم عاد للنوم بعد أن تأكد من عدم وجود خطر.

صعد هيرو ماتسو ويابو على متن السفينة خلال الصباح. لاحظ بلاكتورن دهشتهمما وهو يقود السفينة بينما ينام رودريجز. لم يتحدثا إليه لكنهما عادا إلى محادثتهما، وفي وقت لاحق نزلا إلى الأسفل مرة أخرى.

نهض رودريجز من كرسي القيادة قرب منتصف النهار ليحرق شمالاً شرقاً، ويستنشق الرياح، وكل حواسه متيقظة. فحص كلا الرجلين البحر والسماء والغيوم الزاحفة.

قال رودريجز مجدداً: «ماذا كنت ستفعل يا إنجليزي لو كانت هذه سفينتك؟».

- سأتجه نحو الساحل لو كنت أعلم أين يقع. أقرب نقطة. هذه السفينة لن تصمد، وتوجد عاصفة قادمة لا شك فيها. على بعد نحو أربع ساعات من هنا.

تمتم رودريجز: «لا يمكن أن يكون تيفون (إعصاراً)».

- ماذا؟

- إنها رياح عاتية، أسوأ العواصف التي ستشهدتها على الإطلاق. لكننا لسنا في موسم هذه الأعاصير.
- متى تحدث إذن؟

ضحك رودريجز: «ليس الآن يا عدو. لا، ليس الآن. ولكن الوضع قد يكون سيئاً بما فيه الكفاية لأستمع إلى نصيحتك الفظة. توجه بنا نحو الشمال الغربي».

وبينما كان بلاكثورن يُشير إلى المسار الجديد وانعطف المتحكم بدفة القيادة بالسفينة بمهارة، ذهب رودريجز إلى حاجز السفينة وصرخ متحدثاً إلى القبطان: «Isogi! يا قبطان سان. هل تفهم؟».

- Isogi، نعم.

- ما هذه الكلمة؟ هل تعني «أسرع»؟

تجدت زوايا عيني رودريجز بتسلية: «لا ضير في أن تتعلم القليل من اليابانية، أليس كذلك؟ بالتأكيد يا إنجليزي، كلمة «Isogi» تعني أسرع. كل ما تحتاجه هنا نحو عشر كلمات، وبعد ذلك يمكنك جعل الحمقى يفعلون لك كل شيء إذا أردت. بالطبع إذا كانت الكلمات صحيحة، وإذا كانوا في المزاج المناسب. سأذهب الآن إلى الأسفل لأحصل على بعض الطعام».

- أنت تطبخ أيضاً؟
- في اليابان، يجب على كل رجل متحضر أن يطبخ، أو أن يدرّب شخصياً أحد القردة على الطهي، وإلا ستموت جوعاً. كل ما يأكلونه هو السمك النيء والخضار النيء المخلل بالخل الحلو. لكن الحياة هنا يمكن أن تكون لعينة إذا كنت تعرف كيفية الطبخ.
- هل لعينة تعني جيدة أم سيئة؟

- إنها في الغالب جيدة جداً، لكنها في بعض الأحيان سيئة للغاية. كل هذا يتوقف على شعورك. أنت تطرح الكثير من الأسئلة.

نزل رودريجز إلى الأسفل. أغلق باب مقصورته بإحكام وفحص قفل صندوقه البحري بدقة. الشعرة التي وضعها بدقة لا تزال موجودة. والشعرة المشابهة التي لا يراها سواه والتي وضعها على غلاف دليله البحري ظلت هي الأخرى غير ملموسة.

فكر رودريجيز: لا يمكنك أن تكون حذرًا بما يكفي في هذا العالم. هل هناك أي ضرر في معرفته أنك ربان سفينة «ناو دي تراتو»، وهي السفينة السوداء العظيمة لهذا العام والتي انطلقت من ماكاو؟ ربما. لأنه بعد ذلك سيترتب عليك أن تشرح أنها سفينة ضخمة، واحدة من أغنى وأكبر السفن في العالم، تزن أكثر من ألف وستمائة طن. وقد تميل إلى إخباره عن حمولتها، وعن التجارة وماكاو، وعن كل الأشياء المهمة التي هي خاصة جدًا جدًا وسرية جدًا جدًا. لكننا في حالة حرب، نحن ضد الإنجليز والهولنديين.

فتح القفل المشحوم جيدًا وأخرج دليله البحري الخاص للتحقق من بعض العلامات لأقرب ملاذ، فرأت عيناه الحزمة المختومة التي أعطاه إياها الكاهن -الأب سيباستياو- وذلك قبل مغادرتهم أنجيرو مباشرة.

سأل نفسه مجددًا: هل تحتوي على الدليل البحري الخاص بالإنجليزي؟ وزن الحزمة في يده ونظر إلى أختام اليسوعيين، أغوته بشدة لكسرها ومعرفة ما تحتويه بنفسه. أخبره بلاكثورن أن الأسطول الهولندي جاء عبر مضيق ماجلان ولم يخبره أي شيء آخر تقريبًا. فكر رودريجيز: إن الإنجليزي يطرح الكثير من الأسئلة ولا يقدم أي معلومات مفيدة. إنه فطن وذكي وخطر. هل هم دلائله البحرية أم لا؟ إذا كانوا كذلك، فما الفائدة منها بالنسبة للآباء القديسين؟

ارتعد خوفًا وهو يفكر في اليسوعيين والفرنسيين والدومينيكان وجميع الرهبان وجميع الكهنة ومحاكم التفتيش. يوجد كهنة صالحون وكهنة سيئون ولكن معظمهم سيئون، لكنهم يظلون كهنة. والكنيسة لا يمكنها الاستمرار دون كهنة، فدونهم للتوسط من أجلنا أمام الرب، نصبح كالخراف الضالة في عالم شيطاني. يا مريم، احمني من كل شر ومن الكهنة السيئين. كان رودريجيز في مقصورته مع بلاكثورن في ميناء أنجيرو عندما فتح الباب ودخل الأب سيباستياو دون إذن. كانا يأكلان ويشربان وكانت بقايا طعامهما في الأوعية الخشبية.

سأل الكاهن: «هل تقتسم الخبز مع الهرطقة؟ إنه لأمر خطر أن تأكل معهم. فهم معديون. هل أخبرك أنه قرصان؟».

- من واجب المسيحية أن تكون رحيماً حتى مع أعدائك يا أبت. كانوا منصفين معي عندما كنت بين أيديهم. أنا فقط أرد لهم معروفهم.

لقد ركع وقبّل صليب الكاهن. ثم نهض وعرض عليه الخمر وقال: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

- أريد الذهاب إلى أوساكا. مع السفينة.

- سأسألهم على الفور.

ذهب وسأل القبطان، ووصل الطلب تدريجياً إلى تودا هيرو ماتسو، الذي رد بأن توراناغا لم يذكر شيئاً عن جلب كاهن أجنبي من أنجيرو، لذا شعر بالأسف لأنه لا يستطيع اصطحاب الكاهن الأجنبي من أنجيرو.

أراد الأب سيباستياو الحديث على انفراد لذلك أرسل الإنجليزي إلى سطح السفينة، ثم في خصوصية المقصورة أخرج الكاهن الحزمة المختومة.

- أود منك أن تسلم هذا للأب الزائر.

لم يرحب رودريجيز بأن يكون مجرد حامل لأسرار اليسوعيين: «لا أعلم إن كان صاحب النيافة سيظل في أوساكا عند وصولي إليها. ربما يتعين عليّ العودة إلى ناجازاكي. ربما يكون قائد الأسطول قد ترك أوامر لي».

- إذن أعطها للأب ألفيتو. تأكد تمامًا من وضعها بين يديه فقط.

قال: «حسنًا».

- متى كانت آخر مرة اعترفت فيها يا بني؟

- يوم الأحد يا أبت.

- هل ترغب في الاعتراف الآن؟

- نعم، شكرًا لك.

لقد كان شاكراً لأن الكاهن سأل، لأنك لا تعرف أبدًا ما إذا كانت حياتك تعتمد على البحر، شعر بعدها بتحسن كبير كما هو الحال دائمًا.

الآن وقد عاد إلى مقصورته، أعاد رودريجيز الحزمة إلى مكانها، وقد راوده إغراء شديد لفتحها. لماذا الأب ألفيتو تحديدًا؟ كان الأب مارتن ألفيتو كبير مفاوضي التجارة وكان مترجمًا شخصيًا للتايكو لسنوات عديدة، وبالتالي فهو من المقربين لمعظم الدايميو ذوي النفوذ. تنقل الأب ألفيتو بين ناجازاكي وأوساكا وكان من القلة القليلة، والأوروبي الوحيد الذي تمكن من الوصول إلى التايكو في أي وقت. رجل ذكي للغاية يتحدث اليابانية بطلاقة ويعرف عنهم وعن طريقة حياتهم أكثر من أي رجل في آسيا. أصبح الآن الوسيط الأكثر

نفوذًا للبرتغاليين لدى مجلس الوصاية، وإلى إيشيدو وتوراناجا على وجه الخصوص.

فكر رودريجز بإعجاب: ثق باليسوعيين ليضعوا أحد رجالهم في مثل هذا المنصب الحيوي. بالتأكيد لولا جمعية اليسوعيين لما توقف فيضان البدع قط، وربما كانتا البرتغال وإسبانيا قد تحولتا إلى البروتستانتية، وكنا لنخسر أرواحنا الخالدة إلى الأبد. يا إلهي!

سأل رودريجز نفسه بصوت عالٍ: «لماذا تفكر في الكهنة طوال الوقت؟ أنت تعلم أن هذا يجعلك متوترًا».

نعم. ومع ذلك، لماذا الأب ألفيتو؟ إذا كانت الحزمة تحتوي على الدلائل البحرية، فهل المقصود من الحزمة أن تصل إلى أحد الدايميو المسيحيين، أو إيشيدو أو توراناجا، أم أنها مخصصة فقط لصاحب النيافة الأب الزائر نفسه؟ أم لقائد الأسطول؟ أم أن الدلائل البحرية سترسل إلى روما، إلى الإسبان؟ لماذا الأب ألفيتو تحديدًا؟ كان بإمكان الأب سيباستياو أن يطلب بسهولة تسليمها إلى أحد اليسوعيين الآخرين.

ولماذا توراناجا يريد الإنجليزي؟

أعلم في أعماق قلبي أنه يجب عليّ قتل بلاكثورن. فهو عدو وهرطوقي أيضًا. ولكن يوجد شيء آخر. لدي شعور بأن هذا الإنجليزي يشكل خطرًا على الجميع. لماذا تراودني هذه الأفكار؟ إنه ربان ماهر وقوي وذكي، رجل صالح. لا يوجد ما يدعو للقلق إذن. فلماذا أشعر بالخوف؟ هل هو شرير؟ أنا أكن له الكثير من الود، ومع ذلك أشعر بأن عليّ قتله بسرعة وكلما حدث ذلك قريبًا كان ذلك أفضل. ليس بدافع الغضب، بل فقط لحماية أنفسنا. لماذا؟ أنا خائف منه.

ماذا أفعل؟ أوكل الأمر إلى يد الرب؟ العاصفة قادمة وستكون سيئة للغاية.
- لعنة الرب عليّ وعلى قلة ذكائي! لماذا لا أعلم ببساطة ما يجب القيام به؟

انقضت عليهم العاصفة قبل غروب الشمس وأمسكت بهم في عرض البحر. كانت الياينة تبعد ستة عشر مترًا. وكان الخليج الذي اندفعوا نحوه ملاذًا كافيًا وكان يلوح مباشرة أمامهم عندما تجاوزوا الأفق. لم توجد أي ضفاف أو

شعاب مرجانية تعترض طريقهم لبر الأمان، لكن الستة عشر كيلومترًا كانت مسافة كبيرة وأمواج البحر كانت ترتفع بسرعة مدفوعة بالرياح الممطرة.

هبّت العاصفة من الشمال الشرقي على المؤخرة اليمنى للسفينة، وعصفت بها بشدة فأصبحت تتغير جهتها فجأة نحو الشرق أو الشمال بلا هوادة، والبحر مظلم. كانت وجهتهم نحو الشمال الغربي، لذلك كانوا عرضة للأمواج مباشرة، تميل تارة إلى أسفل فتكاد تغوص في الحضيض، وتارة أخرى ترتفع إلى القمة بشكل يثير الغثيان. كانت السفينة ذات غاطس ضحل ومصممة للسرعة والمياه الهادئة، ورغم أن المجذفين كانوا من ذوي الخبرة ومنضبطين للغاية، فإنه كان من الصعب الحفاظ على مجاذيفهم في البحر وسحبها بثبات.

صاح بلاكتورن: «يجب أن ترفعوا المجاذيف وتبحروا مع اتجاه الرياح».

- ربما، ولكن ليس بعد. أين شجاعتك يا إنجليزي؟

- في مكانها الصحيح حيث وضعها الرب، وهو المكان الذي أريدها أن تبقى فيه.

أدرك الرجلان تمامًا أنه إذا استدارا باتجاه الرياح فلن يتمكنوا أبدًا من مواجهة العاصفة، وبالتالي سيأخذهما المد والجزر والرياح بعيدًا عن الملاذ الآمن وإلى عرض البحر. وإذا هربوا أمام الرياح، فإن المد والجزر والرياح سيأخذهما بعيدًا عن الملاذ الآمن وإلى عرض البحر كما كان من قبل، ولكن أسرع فقط. وجنوبًا يوجد المحيط العظيم. لم توجد أرض جنوبًا لمسافة ألف وستمئة كيلومتر تقريبًا، أو ربما لألف فرسخ إذا كانوا سيئي الحظ.

ارتدوا حبال النجاة التي كانت مربوطة بصندوق البوصلة، وكانوا شاكرين لهم مع كل ارتفاع وميلان للسفينة. تمسكوا أيضًا بشفير السفينة وهم يركبون أمواجها الهائجة.

حتى الآن، لم يتسرب أي ماء على متن السفينة. كانت السفينة زائدة الحمولة وكانت تغوص في الماء أكثر مما كان يريده أيٌّ منهما. لقد تحضّر رودريجز جيدًا في ساعات الانتظار. ثبت كل شيء، وحذر الرجال مسبقًا. قال هيرو ماتسو ويابو إنهما سيبقيان بالأسفل لبعض الوقت ثم يصعدان إلى السطح. اكتفى رودريجز بهز كتفيه وأخبرهما بوضوح أن الأمر سيكون خطرًا للغاية. كان متأكدًا أنهما لم يفهما.

سأل بلاكتورن: «ماذا سيفعلان؟».

- من يدري يا إنجليزي؟ لكنهما لن يبكيا خوفًا، يمكنك التأكد من ذلك.

في بطن السفينة الرئيسي، كان المجذفون يعملون بجد. في العادة يكون هناك رجلان على كل مجذاف، لكن رودريجيز أمر بثلاثة رجال من أجل القوة والسلامة والسرعة. وكان آخرون ينتظرون تحت سطح السفينة ليحلوا محل هؤلاء المجذفين عندما يعطي الأمر. على مقدمة السفينة، كان رئيس المجذفين ماهرًا وكانت ضربة مجذافه بطيئة، متزامنة مع الأمواج. كانت السفينة لا تزال تتحرك، رغم أنه في كل لحظة كان التمايل يبدو أكثر وضوحًا والتعافي أبطأ. ثم أصبحت العواصف متقلبة وأخرجت رئيس المجذفين عن إيقاعه.

صرخ بلاكتورن ورودريجيز في اللحظة نفسها تقريبًا: «احترسوا أمامكم».

تمايلت السفينة بشكل مثير للغثيان، وجذب عشرون مجذافًا الهواء بدلًا من البحر، وامت فوضى على متن السفينة. لقد ضربتها الموجة الأولى وأصبح شفير السفينة الأيسر يغمره الماء. كانوا يتخبطون.

أمر بلاكتورن: «اتجه إلى المقدمة! اجعلهم يرفعون نصف المجاذيف من كل جانب! يا إلهي، أسرعوا، أسرعوا».

كان بلاكتورن يعلم أنه من دون حبال النجاة الخاصة به يمكن أن يُجرف بسهولة إلى عرض البحر. ولكن يجب رفع المجاذيف وإلا ستفقد.

فك عقدة الحبل وصارع طريقه على طول سطح السفينة الهائج والزلق، وصولًا إلى الممر القصير المؤدي إلى السطح الرئيسي. فجأة انحرفت السفينة وحُمِل إلى الجانب المنخفض، تشابكت ساقاه ببعض حبال النجاة التي فكها المجذفون ليحاولوا السيطرة على مجاذيفهم. كان شفير السفينة تحت الماء وسقط رجل واحد في البحر. شعر بلاكتورن بأنه يسقط هو الآخر. تمسكت يده بشفير السفينة، وتمددت أوتاره لكن قبضته ظلت ثابتة، ثم وصلت يده الأخرى إلى الحاجز، وجر نفسه إلى الأعلى وهو يختنق. وجدت قدماه سطح السفينة فقام بهز نفسه وشكر الرب، وفكر: ها قد ذهبت حياتك السابعة. كان ألبان كارادوك يقول دائمًا أن الربان الماهر يجب أن يكون كالقطة، إلا أن الربان يحتاج إلى عشر حيوات على الأقل بينما القطة تكتفي بتسعة.

رأى رجل ملقى عند قدميه فسحبه من براثن البحر، وأمسكه حتى أصبح في أمان، ثم ساعده على النهوض والعودة إلى مكانه. نظر إلى المؤخرة ليسب ويلوم رودريجز على ترك دفة السفينة تفلت منه. لوح رودريجز وأشار وصرخ، لكن صوته ابتلعه عاصفة هوجاء. رأى بلاكتورن أن مسارهم قد تغير. الآن كانوا تقريباً مواجهين للرياح، وأدرك أن الانحراف كان مخططاً له. فكر: حكيم، سيوفر لنا هذا مهلة لتنظيم أنفسنا، لكن اللعين كان يمكنه أن يحذرني على الأقل. لا أحب أن أفقد الحيوانات دون داعٍ.

لوح بيده إلى الخلف وألقى بنفسه في مهمة إعادة ترتيب المجذفين. توقف كل التجذيف باستثناء المجذافين في المقدمة، اللذين أبقيا السفينة مواجهة للرياح بدقة. جعل بلاكتورن المجاذيف تُرفع من خلال الإشارات والصياح، وضاعف عدد الرجال على المجاذيف السليمة، ثم توجه إلى المؤخرة مرة أخرى. كان الرجال متحملين رغم أن بعضهم كانوا مرضى للغاية فإنهم بقوا وانتظروا الأمر التالي.

كان الخليج أقرب، لكنه لا يزال يبدو كأنه على بعد مليون فرسخ. كانت السماء مظلمة نحو الشمال الشرقي. جلدتهم الأمطار واشتدت الهبات. لم يكن بلاكتورن ليقلق في سفينة إيراسموس. كان بإمكانهم الرسو في الميناء بسهولة أو العودة بلا مبالاة إلى مسارهم الحقيقي، متجهين نحو وجهتهم الصحيحة. سفينته مبنية ومجهزة للطقس الصعب. أما القادس فهي ليست كذلك.

- ماذا تعتقد يا إنجليزي؟

صاح بلاكتورن في وجه الريح: «ستفعل ما تريد بغض النظر عما أعتقد. ولكن السفينة لن تتحمل الكثير من المياه، وسنغرق نحن كالحجر، وفي المرة القادمة التي أتوجه فيها إلى المقدمة، أخبرني أنك ستوجه السفينة باتجاه الرياح. والأفضل من ذلك، وجهها إلى جهة الريح بينما حبل النجاة مربوط حول جسدي، عندها يمكننا الوصول إلى الميناء معاً».

- كانت تلك يد الرب يا إنجليزي. لقد ضربتها موجة قوية وأدارت مؤخرتها.

- كاد ذلك أن يلقيني في عرض البحر.

- لقد رأيت.

- كان بلاكتورن يقدر انجراف السفينة: «إذا بقينا على هذا المسار فلن نصل إلى الخليج أبداً. سنُجرف بعيداً عن الرأس البحري لمسافة كيلومترٍ أو أكثر».
- سأبقى متوجّهاً إلى الرياح. ثم عندما يحين الوقت المناسب، سنتجه بسرعة نحو الشاطئ. هل تعرف كيف تسبح؟
- نعم.
- جيد. أنا لم أتعلم قط. إنه أمر خطِر للغاية. من الأفضل أن أغرق بسرعة بدلاً من الغرق ببطء، أليس كذلك؟ (ارتجف رودريجز لا إرادياً): احفظيني من القبر المائي يا مريم، ستصل هذه السفينة اللعينة إلى الميناء الليلة. يجب أن تصل. يخبرني حدسي أنه إذا استدرنا وهربنا فسنغرق. نحن زائدي الحمولة.
- خفف الحمولة. ألقِ البضائع في البحر.
- لن يوافق الملك تودي أبداً. يجب أن يصل بالبضائع وإلا فلا داعي لوصوله من الأساس.
- اسأله.
- يا إلهي، هل أنت أصم؟ أخبرتك، أنا أعلم أنه لن يوافق.
- اقترب رودريجز من المتحكم بدفة القيادة وتأكد من أنه فهم ضرورة الاستمرار في التوجه نحو الرياح دون تردد.
- راقبهم يا إنجليزي، أنت المسؤول عن دفة القيادة الآن.
- فك حبل النجاة الخاص به ونزل على الممر بثبات. راقبه المجذفون باهتمام وهو يتوجه إلى القبطان سان على سطح مقدمة السفينة لشرح خطته التي في ذهنه بالإشارات والكلمات. صعد هيرو ماتسو ويابو إلى السطح. شرح القبطان سان الخطة لهما. كان كلا الرجلين شاحب الوجه لكنهما بقيا غير مباليين ولم يتقيأ أي منهما. نظرا نحو الشاطئ من خلال المطر، ورفعا أكتافهما وانصرفا إلى الأسفل مجدداً.
- حقق بلاكتورن إلى الخليج على الجانب الأيسر. لقد كان يعلم أن الخطة محفوفة بالأخطار. سيتعين عليهم الانتظار حتى يصبحوا على مقربة من اليابسة القريبة، ثم سيتعين عليهم الابتعاد عن الرياح، والالتفاف شمالاً غرباً مجدداً والتجذيف بأقصى قوتهم. لن يفيدهم الشراع في شيء. يجب أن يعتمدوا على قوتهم البدنية وحدها. كان الجانب الجنوبي من الخليج

مليئًا بالصخور الحادة والشعاب المرجانية. إذا أخطأوا في تقدير التوقيت، فسيجرفهم التيار إلى الشاطئ هناك وستتحطم السفينة.

- توجه إلى المقدمة يا إنجليزي.

كان البرتغالي يستدعيه.

تقدم إلى الأمام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

صرخ رودريجز: «ماذا بشأن الشراع؟».

- لا. سيلحق ضررًا أكثر مما يفيد.

- إذن ابق هنا. إذا فشل القبطان في السيطرة على دفة القيادة، أو إذا فقدناه، فستتولى أنت المهمة. هل اتفقنا؟

- لم يسبق لي أن أبحرت بإحدى هذه السفن من قبل، ولم أدرج على المجاذيف قط. لكنني سأحاول.

حدق رودريجز باتجاه اليابسة. ظهر الرأس واختفى وسط الأمطار الغزيرة. قريبًا سيضطر إلى المخاطرة. كانت الأمواج تشتد وبدأت قممها تتكسر محدثة رغوة بيضاء. بدا المضيق الفاصل بين الرأسين خطرًا. ستكون هذه مهمة قذرة، فكر ثم بصق واتخذ قراره.

- اذهب إلى المؤخرة يا إنجليزي. تولّ دفة القيادة. وعندما أعطيك الإشارة، توجه غربًا شمالًا غربًا نحو تلك النقطة. هل تراها؟

- نعم.

- لا تتردد وتمسك بهذه الدورة. راقبني جيدًا. هذه الإشارة تعني لفة قوية إلى اليسار، وهذه لفة قوية إلى اليمين، وهذه استمر في المسار الحالي.
- حسنًا.

- أقسم إنك ستنتظر أوامري وتطيعها؟

- أتريد مني تولّي دفة القيادة أم لا؟

أدرك رودريجز أنه كان مُحاصرًا، قال: «يجب أن أثق بك يا إنجليزي، وأنا أكره أن أثق بك. اذهب إلى المؤخرة».

رأى بلاكتورن يقرأ ما يدور في خلدّه وينصرف بعيدًا. ثم غيّر رودريجز رأيه وناداه: «مهلاً أيها القرصان المغرور، في حفظ الرب».

التفت بلاكتورن بامتنان: «وأنت أيضًا يا إسباني».

- اللعنة على كل الإسبان ولتحيا البرتغال.

- استمر في المسار الحالي.

رسوا في الميناء ولكن دون رودريجز. لقد جرفته المياه إلى عرض البحر عندما انقطع حبل النجاة الخاص به.

كانت السفينة على أعتاب النجاة عندما جاء موج هائل من الشمال، ورغم تسرب المياه إليهم بغزارة من قبل وفقدانهم للقبطان الياباني مسبقًا، فإنهم الآن قد غرقوا تمامًا وجُرفوا إلى الوراء نحو الشاطئ المليء بالصخور.

رأى بلاكتورن رودريجز وهو يقع في الماء، فراقبه وهو يلثث ويتخبط في البحر الهائج. كان كل من على متن السفينة يعلم أن السفينة قد هلكت، إذ جرتهم العاصفة والمد والجزر إلى الجانب الجنوبي من الخليج وكانوا على وشك الاصطدام بالصخور.

بينما كان التيار يجرف رودريجز بالقرب من السفينة، ألقي بلاكتورن إليه طوق نجاة خشبيًا. حاول البرتغالي الإمساك بطوق النجاة ولكن البحر جرفته بعيدًا عن متناول يده. اصطدم به مجذاف فأمسك به. انهال المطر بغزارة، وكان آخر ما شاهده بلاكتورن من رودريجز هو ذراع والمجذاف المكسور، وأمامهم مباشرة، الأمواج الهائلة التي تضرب الساحل المعذب. كان بإمكانه أن يقفز في الماء ويسبح إليه وحينها ربما كان سينجو، ربما كان يوجد وقت، لكن واجبه الأول كان تجاه سفينته وواجبه الأخير كان تجاه سفينته وكانت سفينته في خطر.

لذلك أدار ظهره لرودريجز.

جرف الموج بعض المجذفين معه، وكان البعض الآخر يكافحون لملء الأماكن الشاغرة. نزع أحد البحارة حبل النجاة الخاص به بشجاعة. قفز على سطح السفينة الأمامي، وأحكم ربطه، وبدأ بالتجذيف. بدأ قائد الترتيل أيضًا من جديد، وحاول المجذفون استعادة النظام من الفوضى.

صاح بلاكتورن متذكرًا الكلمة باليابانية: «أسرعوا».

أحنى جسده على دفة القيادة لمساعدة مقدمة السفينة على مواجهة الرياح أكثر، ثم اتجه إلى حاجز السفينة وطرق عليه محدّدًا الإيقاع، وصاح: واحد-اثنان-واحد-اثنان، محاولًا تشجيع الطاقم.

- هيا يا أوغاد، جذفوا.

كانت القادس تلامس الصخور، أو على الأقل كانت الصخور تحيط بالمؤخرة والجانبين الأيمن والأيسر. انغمرت المجاذيف في الماء وجُذفت بقوة، لكن السفينة لم تتحرك، إذ تغلب عليها الرياح والمد والجزر، وجرفتُها إلى الخلف بشكل ملحوظ.

صاح بلاكثورن مجددًا وهو يطرق بيده الإيقاع: «هيا جذفوا يا أوغاد».

استمد المجذفون القوة من صوته.

في البداية صمدوا أمام البحر. ثم تغلبوا عليها.

ابتعدت السفينة عن الصخور. وجه بلاكثورن السفينة نحو الساحل الآمن. سرعان ما وصلوا إلى مياه أكثر هدوءًا. كانت العاصفة لا تزال تهب ولكنها كانت تعلو رؤوسهم. كانت الرياح لا تزال تعصف ولكنها كانت في عرض البحر.

- ألقوا بمرسى اليمين.

لم يفهم أحد الكلمات، لكن جميع البحارة عرفوا المطلوب منهم. هرعوا لتنفيذ أوامره. أُلقي المرسى في الجانب. ترك السفينة تنحرف قليلًا لاختبار تماسك قاع البحر، وأدرك المساعد والمجذفون مناورته.

- ألقوا بمرسى اليسار.

عندما أصبحت سفينته في مأمن، نظر إلى الخلف.

بالكاد كان بإمكانه رؤية الساحل الغادر من خلال المطر. عاين البحر وفكر في الإمكانيات.

فكر: الدليل البحري الخاص بالبرتغالي غارق في الأسفل. يمكنني قيادة السفينة إلى أوساكا. كنت أستطيع أن أعيدها إلى أنجيرو. ولكن هل كنت محقًا في عصيانه؟ لم أعص رودريجز. كنت على سطح المؤخرة. وحيدًا.

كان قد صاح رودريجز عندما حملتهم الرياح والمد والجزر بالقرب من الصخور بخطورة: «ارجعوا جنوبًا. استديروا واهربوا أمام الرياح».

صاح في المقابل، مقتنعًا أن الفرصة الوحيدة لهم هي محاولة الوصول إلى الميناء وأنهم سيتخبطون في عرض البحر: «لا. يمكننا النجاة».

- لعنة الرب عليك، ستقتلنا جميعًا.

فكر بلاكتورن: ولكنني لم أقتل أحدًا، رودريجيز، كلانا يعلم أنه من واجبي أن أقرر، إذا كان يوجد وقت للقرار. كنت على حق. السفينة في أمان. لا شيء آخر يهم.

أشار إلى المساعد الذي هرع من مقدمة السفينة. لقد انهار كل من متحكمي دفة القيادة، وأوشكت أذرعهما وسيقانهما على البتر من أماكنتهما. وكان المجذفون كالجثث، وقد سقطوا بعجز فوق مجاذيفهم. جاء آخرون من أسفل السفينة بضعف لمساعدتهم. ساعدوا هيرو ماتسو ويابو اللذين كانا منهارين بشدة على الصعود إلى سطح السفينة، ولكن فور وصولهما إلى السطح وقف كلا الداييميو منتصبًا.

سأل مساعد الربان: «نعم يا أنجين سان».

كان رجلًا في منتصف العمر، يتميز بأسنان بيضاء قوية ووجه عريض تقشفه عوامل الطقس. كانت كدمة بادية تلوث وجنته حيث ضربته الأمواج على شفير السفينة.

قال بلاكتورن، غير آبه بأن كلماته لن تفهم. لقد علم أن نبرته ستكون واضحة وكذلك ابتسامته. أكمل مدخلًا بعض الكلمات اليابانية: «لقد أبليت بلاءً حسنًا. نعم، لقد أبليت بلاءً حسنًا. أنت القبطان الآن. هل تفهم؟ أنت قبطان سان».

حدق إليه الرجل بفم مفتوح، ثم انحنى لإخفاء دهشته وسعاده في آن واحد: «فهمت يا أنجين سان. نعم. شكرًا جزيلاً لك».

قال بلاكتورن وبإشارات، جعل الرجل يفهم مقصده: «اسمع يا قبطان، أطعم الرجال وأسقمهم. طعامًا ساخنًا. سنبقى هنا الليلة».

على الفور، استدار القبطان الجديد وصرخ بأمر جديد نابع من سلطته المكتسبة حديثًا. على الفور هرع البحارة لتنفيذ أوامره. امتلأ القبطان الجديد بالفخر، ونظر إلى مؤخرة السفينة. فكر بفرح: أتمنى لو أستطيع التحدث بلغتك الهمجية، عندها سيمكثني شكرك يا أنجين سان، على إنقاذ السفينة ومعها حياة زعيمنا هيرو ماتسو. منحنا سحرك جميعًا قوة جديدة. من دون سحرك لتخبطنا في عرض البحر. قد تكون قرصانًا، لكنك بحار عظيم، وما دمت أنت الربان سأطيع أوامرك حتى الموت. أنا لست أهلًا لأكون قبطانًا، لكنني سأبذل كل جهدي لأنال ثقتك. سأل: «ماذا تريدني أن أفعل بعد ذلك؟».

كان بلاكتورن ينظر إلى جانب السفينة. كان قاع البحر محجوبًا. اتخذ علامات ذهنية، وعندما تأكد من أن المراسي لم تتحرك وأن البحر آمن، قال: «أطلق القارب الصغير. واحصل على مُجذِّف ماهر».

أوصل بلاكتورن رسالته مجددًا بإشارات وكلمات. أطلق القارب الصغير وجَّهز على الفور.

اتجه بلاكتورن نحو شفير السفينة وهم بالنزول عن الجانب، لكن صوتًا قاسيًا أوقفه. التفت حوله. كان هيرو ماتسو هناك ويابو بجانبه.

كان العجوز مصابًا بكدمات شديدة على رقبته وكتفيه لكنه لا يزال يحمل السيف الطويل. يابو ينزف من أنفه، وجهه مصابًا بكدمات، والكيمونو الخاص به ملطخًا بالدماء، ويحاول وقف النزيف بقطعة صغيرة من القماش. الرجلان واقفان بلا مبالاة، على ما يبدو غير مدركين لإصاباتهما أو برودة الرياح.

انحنى بلاكتورن باحترام: «نعم يا تودا ساما؟».

تكررت الكلمات القاسية مرة أخرى، وأشار الرجل العجوز بسيفه إلى القارب الصغير وهز رأسه رافضًا.

أشار بلاكتورن إلى الشاطئ الجنوبي مجيبًا: «رودريجو سان هناك، سأذهب لأبحث عنه».

- لا.

هز هيرو ماتسو رأسه مجددًا وتحدث مطولًا، رافضًا بوضوح منحه الإذن بسبب الخطر المحتمل.

حافظ بلاكتورن على صوته هادئًا لكن حازمًا وكان من الواضح بالقدر نفسه ما يعنيه: «أنا ربان هذه السفينة اللعينة، وإذا أردت الذهاب إلى الشاطئ، فسأفعل. أعلم أن هذا القارب لن يصمد في ذلك البحر. نعم! لكنني سأذهب إلى الشاطئ هناك، عند تلك النقطة. هل ترى تلك النقطة يا تودا هيرو ماتسو ساما؟ بجوار تلك الصخرة الصغيرة. سأشق طريقي حول الرأس هناك. ليس لدي أي رغبة في الموت ولا يوجد لدي مكان أهرب إليه. أريد أن أحضر جثة رودريجو سان».

وضع ساقه على جانب السفينة. تحرك غمد السيف قليلًا. فتوقف بلاكتورن جامدًا. لكن نظره كان ثابتًا، وجهه متجهًا.

كان هيرو ماتسو في مأزق. لقد استطاع أن يفهم رغبة القرصان في العثور على جثة رودريجو سان ولكن الذهاب إلى هناك كان خطرًا حتى سيرًا على الأقدام، والزعيم توراناغا طلب إحضار الهمجي سالمًا، لذلك سيُحضر سالمًا. وكان من الواضح أيضًا أن الرجل ينوي الذهاب.

لقد رآه في وسط العاصفة، واقفًا على سطح السفينة المتمايل كـ «كامي» شرير للبحر، غير خائف، وكأنه جزء من العاصفة، وقد فكر بمرارة في ذلك الوقت: الأفضل أن نبقي هذا الرجل وجميع الهمج مثله على اليابسة حيث يمكننا السيطرة عليهم. فنحن في البحر تحت رحمتهم.

لقد لاحظ هيرو ماتسو نفاذ صبر القرصان. قال في نفسه: كم هم وقحون، ومع ذلك يجب أن أشكر. يقول الجميع إنك وحدك مسؤول عن جلب السفينة إلى الميناء، وإن الربان رودريجو فقد شجاعته وأمرنا بالابتعاد عن اليابسة، لكنك أنت من حافظت على مسارنا. أجل. لو خرجنا إلى عرض البحر لكنا غرقنا بالتأكيد، وكنت حينها سأكون قد خذلت سيدي. يا بوذا، احميني من ذلك.

كانت جميع مفاصل جسده تؤلمه وبواسيره ملتهبة. لقد استنزف من الجهد الذي بذله ليبقى صامدًا أمام رجاله، يابو والطاقم وحتى هذا الهمجي. يا بوذا، أنا منهك للغاية. أتمنى أن أستطيع الاستلقاء في حوض استحمام والغوص عميقًا والحصول على يوم واحد من الراحة من الألم. يوم واحد فقط. توقف عن أفكارك النسائية الغبية! لقد كنت تعاني الألم لمدة تقارب ستين عامًا. ما هو الألم بالنسبة للرجل؟ امتياز! قمع الألم هو مقياس الرجولة. أشكر بوذا لأنك لا تزال على قيد الحياة لحماية سيدك رغم أن الموت كان قد نالك مائة مرة. أنا أشكر بوذا حقًا.

لكنني أكره البحر. أكره البرد. وأكره الألم.

قال مشيرًا بغمده لتوضيح كلامه، مذهولًا بسخرية قاتمة من الجمر الأزرق المتقد في عيني الرجل: «ابق حيث أنت يا أنجين سان. أين نحن؟ في إقطاع من هذه الأرض؟».

- لا أعلم يا سيدي. أعتقد أننا في مكان ما في مقاطعة إيسه. يمكننا إرسال شخص إلى أقرب قرية للشاطئ.

- هل يمكنك أن تقودنا إلى أوساكا؟

- بشرط أن نبقى قريبين جدًا من الشاطئ يا سيدي، ونسير ببطء وبحذر شديد. أنا لا أعرف هذه المياه ولا يمكنني ضمان سلامتكم مطلقًا. ليس لدي معرفة كافية ولا يوجد أحد على متن السفينة يا سيدي لديه معرفة كافية. باستثناء هذا الربان. إذا كان الأمر متروكًا لي فسأنصحك بالذهاب براء. يمكننا أن نحصل لك على خيول أو محفات.

هز هيرو ماتسو رأسه بغضب. كان السفر براء غير وارد على الإطلاق. سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا -فالطريق جبلي ويوجد القليل من الطرق- وسيتعين عليهم المرور بعددٍ من المناطق التي يسيطر عليها حلفاء إيشيدو، العدو. بالإضافة إلى هذا الخطر كانت توجد أيضًا مجموعات قطاع الطرق العديدة التي تجتاح الممرات. وهذا يعني أنه سيكون عليه أخذ جميع رجاله معه. بالتأكيد يمكنه أن يقاتل طريقه متخطيًا قطاع الطرق، لكنه لن يستطيع أبدًا المرور إذا قرر إيشيدو أو حلفاؤه منعه. كل هذا سيؤخره أكثر، وأوامره هي تسليم البضائع والهمجي ويابو بسرعة وأمان.

- إذا سرنا بمحاذاة الساحل، كم سيستغرق الأمر للوصول؟

- لا أعلم يا سيدي. ربما أربعة أو خمسة أيام، أو ربما أكثر. بصراحة ليس لدي الثقة التامة بنفسني لفعل ذلك، فأنا لست قبطانًا، المعذرة.

فكر هيرو ماتسو: إذاً هذا يعني أنه يتعين عليّ التعاون مع هذا الهمجي. سيتعين عليّ تقييده لمنعه من النزول إلى الشاطئ. ومن يدري إن كان سيتعاون وهو مقيد؟

- كم من الوقت سيضطرنا إلى البقاء هنا؟

- قال الربان طوال الليل.

- هل ستختفي العاصفة بحلول ذلك الوقت؟

- يجب أن تختفي يا سيدي، ولكن لا يعلم أحد على وجه اليقين.

حوّل هيرو ماتسو نظره صوب الساحل الجبلي ثم عاد لينظر إلى الربان مترددًا.

قال يابو: «هل لي أن أقترح شيئًا يا هيرو ماتسو سان؟».

قال بحدة: «نعم، نعم بالطبع».

- بما أنه يبدو أننا بحاجة إلى تعاون القرصان لنصل إلى أوساكا، فلماذا لا نسمح له بالنزول إلى الشاطئ ولكن نرسل معه رجالاً لحمايته، ونأمرهم بالعودة قبل حلول الظلام. أما بالنسبة للسفر برّاً، فأنا أوافق على أنه سيكون خطراً للغاية لك، لن أغفر لنفسى أبداً إذا حدث لك أي مكروه. حالما تنقشع العاصفة، ستكون أكثر أماناً مع السفينة وستصل إلى أوساكا بسرعة، أليس كذلك؟ بالتأكيد بحلول غروب شمس الغد.

أوما هيرو ماتسو برأسه متردداً: «حسناً». وأشار إلى أحد الساموراي: «تاكاشي سان، ستأخذ ستة رجال وتذهب مع الربان. أحضر جثة البرتغالي إذا استطعت العثور عليها. ولكن إذا تضرر حتى ولو جفن واحد من هذا الهمجي، فأنت ورجالك ستنفذون السيبوكو على الفور».

- حسناً يا زعيم.

- وأرسل رجلين إلى أقرب قرية ليعرفا بالضبط مكان وجودنا وفي إقطاع من نكون الآن.

- حسناً يا زعيم.

قال يابو: «لو سمحت لي يا هيرو ماتسو سان، سأقود المجموعة إلى الشاطئ. لو وصلنا إلى أوساكا من دون القرصان، سأشعر بالخجل لدرجة أنني سأضطر إلى قتل نفسي على أي حال. أود أن أحظى بشرف تنفيذ أوامرك».

أوما هيرو ماتسو برأسه، وقد انتابته الدهشة في قرارة نفسه من استعداد يابو للمخاطرة بنفسه إلى هذا الحد. نزل إلى الأسفل.

عندما أدرك بلاكثورن أن يابو سيرافقه إلى الشاطئ، تسارع نبضه. لم أنس بيترزون ولا طاقمي ولا الحفرة... ولا الصرخات ولا أومي ولا أي جزء مما حدث. انتبه لحياتك أيها الوغد.

الفصل التاسع

وصلوا إلى اليابسة بسرعة. كان بلاكتورن ينوي الإبحار، لكن يابو استولى على هذه المهمة وأبحر بسرعة قوية، كافح لمجاراتها. كان الساموراي الستة الآخرون يراقبونه باهتمام. فكر وهو يسيء فهم قلقهم: لا يوجد مكان لأهرب إليه يا أغبياء. وقد جاب بصره الخليج تلقائياً، يبحث عن المياه الضحلة أو الشعاب المرجانية الخفية، يقيس الاتجاهات، وعقله يسجل الأشياء المهمة لكتابتها لاحقاً.

قادهم الطريق أولاً على طول الشاطئ المرصوف بالحصى، ثم صعوداً فوق صخور ناعمة بفعل البحر إلى أعلى على طريق يحاذي الجرف الصخري ويتسلق بحذر حول الرأس جنوباً. لقد توقف المطر ولكن العاصفة لم تتوقف. كلما اقتربوا من لسان الأرض المكشوف، كلما ارتفع الموج -الذي يُقذف على الصخور أدناه- ليتناثر في الهواء. وسرعان ما أصبحوا مبتلين تماماً.

رغم أن بلاكتورن شعر بالبرد، فإن يابو والآخرين الذين كانوا يرتدون كيمونو خفيفاً مطوياً بإهمال داخل أحزمتهم، لم يبدُ أنهم يتأثرون بالبلل أو البرد. فكر وعاد الخوف يسيطر عليه: لا بد أن الأمر كما قال رودريجيز، اليابانيون ليسوا مثلنا على الإطلاق. فهم لا يشعرون بالبرد أو الجوع أو الحرمان أو الجروح كما نشعر نحن. إنهم أقرب إلى الحيوانات، أعصابهم مخدرة، بالمقارنة بنا.

كان يرتفع الجرف فوقهم نحو ستين متراً. وكان الشاطئ على عمق خمسة عشر متراً. لا يوجد أي منزل أو كوخ في كامل منطقة الخليج بل الجبال كانت تحيطهم من ورائهم وفي كل مكان. وهذا ليس مفاجئاً لأنه لا مجال لوجود الحقول، حيث تتحول حصى الشاطئ بسرعة إلى صخور ساحلية ثم إلى جبل من الجرانيت مع أشجار على المنحدرات العليا.

الطريق المتعرج على طول وجه الجرف كان خطراً للغاية وسطحه غير مستقر. واصل بلاكتورن سيره ببطء متكئاً على الريح، لاحظ أن سيقان يابو

كانت قوية وعضلية. فكر: فلتزل أقدامك يا لعين، تعثر وارطم بالصخور أدناه. هل هذا سيجعلك تصرخ؟ ما الذي سيجعلك تصرخ حقاً؟

صرف بلاكتورن نظره عن يابو بجهد وعاد للنظر إلى الشاطئ. فحص كل شق وكل صدع وكل واد. كانت الرياح المحملة برذاذ البحر تعصف بقوة وتنتزع الدموع من عينيه. كان البحر يموج زهاباً وإياباً، يدور ويضطرب. لقد كان يعلم أن الأمل في العثور على رودريجز ضئيل، فهناك الكثير من الكهوف والأماكن الخفية التي لا يمكن التحقق منها أبداً. لكن كان عليه الخروج إلى الشاطئ لمحاولة البحث. كان مدينًا لرودريجز بذلك. يصلّي جميع الربابنة طالبين الموت على الشاطئ والدفن فيه. لقد رأى الجميع الكثير من الجثث المنتفخة بفعل ماء البحر وجثث نصف مأكولة وجثث مشوهة بسبب هجوم السرطانات.

داروا حول الرأس وتوقفوا بامتنان في الجانب المحمي من الرياح. لا حاجة إلى الماضي قدماً. إذا لم يكن الجسد في اتجاه الرياح، إذن فهو مخبأً أو ابتلعتة المياه أو جرفه البحر بالفعل إلى أعماق المحيط. على بعد ثمانمائة متر، كانت توجد قرية صيد صغيرة تقع على شاطئ أبيض مغطى بالرغوة. أشار يابو إلى اثنين من الساموراي. فانحنيا على الفور وانطلقا مسرعين نحو القرية. ألقى نظرة أخيرة ثم مسح يابو المطر من وجهه، وألقى نظرة على بلاكتورن، مشيراً إلى عودتهم. أوماً بلاكتورن وانطلقوا من جديد، يابو في المقدمة، والساموراي الآخرون ما زالوا يراقبونه باهتمام شديد، وهنا فكر مرة أخرى في كم هم أغبياء.

ثم عندما كانوا في منتصف الطريق عائدين، رأوا رودريجز.

كان الجسد محشوراً في شق بين صخرتين كبيرتين، فوق الأمواج ولكن مغموًر تحت جزء منها. إحدى ذراعيه ممدودة أمامه. والأخرى لا تزال مقبوضة على المجذاف المكسور الذي يتحرك قليلاً مع المد والجزر. كانت هذه الحركة هي التي لفتت انتباه بلاكتورن وهو ينحني أمام الرياح، ويتقدم ببطء ناحية يابو.

الطريق الوحيد للنزول هو عبر الجرف القصير. لم يكن التسلق سوى خمسة عشر متراً تقريباً ولكنها حافة عمودية تكاد تخلو من أي موطئ للقدم.

سأل بلاكتورن نفسه: وماذا عن المد؟ إنه يرتفع، ولكن لا يوجد جزر. سيأخذه هذا إلى عرض البحر مرة أخرى. يا إلهي، يبدو الأمر سيئاً هناك في الأسفل. ماذا يجب أن أفعل؟

اقترب من الحافة وعلى الفور تحرك يابو واقفاً في طريقه وهو يهز رأسه، وأحاطه الساموراي الآخرون.

قال: «أقسم إنني فقط أحاول إلقاء نظرة أفضل. أنا لا أحاول الهرب. إلى أين والجحيم يمكنني أن أهرب على أي حال؟».

تراجع قليلاً ونظر إلى أسفل. تابعوا نظره وتحدثوا فيما بينهم، يابو هو من يتحدث أكثر.

قرر: لا توجد فرصة، إنه لأمر خطراً للغاية. سنعود عند الفجر بحبال. إذا كان لا يزال هنا، كان بها، وسأدفنه على الشاطئ. التفت على مضض وحينها انهار طرف من الجرف وبدأ ينزلق. على الفور أمسك به يابو والآخرون وسحبوه للوراء، وأدرك فجأة أنهم قلقون فقط على سلامته. إنهم يحاولون حمايتي فقط.

لماذا يريدونني أن أكون بأمان؟ بسبب تورا... ما اسمه؟ توراناجا؟ بسببه؟ نعم، ولكن ربما أيضاً لأنه لا يوجد أحد آخر على متن السفينة ليقودنا. هل هذا سبب السماح لي بالمجيء إلى الشاطئ، وإعطائي ما أريد؟ نعم، لا بد أنه كذلك. إذن لدي الآن سلطة على السفينة، وعلى الدايميو العجوز، وعلى هذا الوغد. كيف يمكنني استخدامها؟

استرخى وشكرهم وترك عينيه تجوبان الأسفل: «يجب أن ننتشله يابو سان. حسناً! هذا هو الطريق الوحيد. من فوق الجرف. أنا سأجلبه، أنا أنجين سان».

تحرك مرة أخرى كما لو كان سينزل وأمسكوه مجدداً وقال بقلق مصطنع: «يجب أن ننتشل رودريجو سان. انظروا! ليس لدينا الكثير من الوقت، الضوء يختفي».

قال يابو: «لا يا أنجين سان».

وقف شامخاً يفوق طول يابو: «إذا كنت لا تريدني أن أذهب يا يابو سان، فأرسل أحد رجالك. أو اذهب بنفسك. أنت».

هبت الرياح من حولهم، وهي تعصف على وجه الجرف. رأى يابو ينظر إلى الأسفل، يقيم صعوبة الصعود وخفوت الضوء، وعلم أن يابو قد وقع في الفخ. أنت محاصر أيها الوغد، غرورك قد حاصرك. إذا بدأت بالصعود من الأسفل ستصاب بأذى. لكن لا تقتل نفسك رجاءً، فقط حطم ساقيك أو كاحليك. ثم اغرق.

تحرك أحد الساموراي للنزول لكن يابو أمره بالعودة.
قال يابو: «عد إلى السفينة. وأحضِر بعض الحبال على الفور».
ركض الرجل مبتعدًا.

خلع يابو نعليه. وأخرج سيوفه من حزامه ووضعها بأمان في مأوى: «راقبهم وراقب الهمجي. إذا حدث أي شيء لأي منهما، فسأجعلك تجلس على سيوفك».

قال تاكاتاشي: «رجاءً اسمح لي بالنزول إلى هناك يا يابو ساما، إذا أُصبت أو وضعت، فسوف أ...».

- هل تعتقد أنك تستطيع النجاح بينما سأفشل أنا؟
- لا يا سيدي، بالطبع لا.
- جيد.

- رجاءً انتظر الحبال إذن. لن أغفر لنفسي أبدًا إذا حدث لك أي مكروه.
كان تاكاتاشي قصيرًا وقويًا ذا لحية كثيفة.

سأل يابو نفسه: لماذا لا أنتظر الحبال؟ سيكون ذلك معقولًا، نعم. ولكن ليس ذكيًا. نظر إلى الهمجي وأوماً برأسه بإيجاز. لقد علم أنه قد يتحداه. لقد كان يتوقع ذلك. وتمنى ذلك. قال لنفسه مستمتعًا بصمت: لهذا السبب تطوعت لهذه المهمة يا أنجين سان، أنت حقًا بسيط جدًا. كان أومي على حق.

نزع يابو الكيمونو المبلل وبقي مرتديًا لباسه الداخلي فقط، اتجه إلى حافة الجرف وفحصها من خلال نعل التابي القطني الخاص به -جواربه المشابهة للحذاء-. فكر: من الأفضل أن أظل مرتديها، إرادته وجسده اللذان صقلهما التدريب الممتد لمدى الحياة الذي يجب أن يخضع له كل ساموراي، يسيطران على البرد الذي يخترق جسده. ستوفر لك الجوارب تحكمًا أقوى...

لفترة من الوقت. ستحتاج إلى كل قوتك ومهارتك للنزول إلى هناك حيًا. هل يستحق الأمر ذلك؟

صعد إلى سطح السفينة في أثناء العاصفة والاندفاع نحو الخليج، دون أن يلاحظه بلاكتورن، وأخذ مكانه على المجاذيف. استخدم قوته بكل سرور مع المجذفين، كارهًا رائحة العفن بالأسفل والغثيان الذي شعر به. لقد قرر أنه من الأفضل الموت في الهواء بدلًا من الاختناق بالأسفل.

بدأ يراقب الربابنة بينما كان يعمل مع الآخرين في البرد القارس. رأى بوضوح شديد أن السفينة وكل من على متنها كانوا تحت سيطرة هذين الرجلين وهم في عرض البحر. كان الربابنة في أحسن حالاتهما، يركبان سطح السفينة المائل بفعل الأمواج بتهور كما يركب هو نفسه حصانًا جامحًا. لا يمكن لأي ياباني على متن السفينة أن يضاهيهم. ليس في المهارة ولا الشجاعة ولا المعرفة. وبالتدريج أنتج هذا الإدراك مفهومًا جليلاً: سفن همجية حديثة مليئة بالساموراي، يقودها الساموراي، يرأسها الساموراي، يبحر بها الساموراي. الساموراي التابعون له.

إذا كانت لديّ ثلاث سفن همجية في البداية، لكان بإمكانني السيطرة بسهولة على الممرات البحرية بين إيدو وأوساكا. انطلاقًا من إيزو، لتمكنت من خنق جميع حركات الشحن أو السماح لها بالمرور. إذا سيكون لديّ تقريبًا كل الأرز وكل الحرير. ألن أصبح بعد ذلك حكمًا وسيطًا بين توراناغا وإيشيدو؟ على الأقل لأحقق التوازن بينهما؟

لم يسبق لأي دايميو أن خاض البحر.

لا يملك أي دايميو سفنًا أو بحارة.

سواي.

لدي سفينة -كانت لدي سفينة- والآن قد أستعيد سفينتي... إذا كنت نكيًا. لدي ربان وبالتالي مدرب للبحارة، إذا استطعت إبعاده عن توراناغا. إذا استطعت السيطرة عليه.

عندما يصبح تابعي بإرادته الحرة، سيدرب رجالي. ويبني السفن.

ولكن كيف أجعله تابعًا حقيقيًا؟ الحفرة لم تقهر إرادته.

أولًا أحضره بمفرده وأيقه وحيدًا، أليس هذا ما قاله أومي؟ بعد ذلك يمكن تعليم هذا الربان التصرف بأدب وتعليمه التحدث باللغة اليابانية. نعم. أومي

ذكي جدًا. ذكي للغاية ربما، سأفكر في أومي لاحقًا. ركز على الربان. كيف تسيطر على همجي مسيحي آكل للقدارة؟

ماذا قال أومي؟ «إنهم يقدرّون الحياة. إلههم الرئيسي -يسوع المسيح- يعلمهم أن يحبوا بعضهم بعضًا ويقدرّوا الحياة». هل يمكن أن أعيد إليه حياته؟ إنقاذها، نعم، سيكون ذلك جيدًا جدًا. كيف أجعله يطيعني؟

كان يابو قد اجتاحه حماسه لدرجة أنه بالكاد لاحظ حركة السفينة أو البحار. فجأة تلاطمت موجة فوقه. رآها تغمر الربان. لكن لم يكن هناك خوف بادٍ على الرجل على الإطلاق. دُهِش يابو. كيف يمكن لأحد سمح بخنوع لعدو أن يبول على ظهره لإنقاذ حياة تابع تافه، كيف يمكن لهذا الرجل أن تكون لديه القوة لنسيان مثل هذا العار الأبدي والوقوف هناك على سطح السفينة الخلفية داعيًا آلهة البحر للقتال مثل أي بطل أسطوري لإنقاذ نفس الأعداء؟ ثم، عندما جرفت الموجة المهيبة البرتغالي بعيدًا وكانوا يتخبطون، ضحك أنجين سان بسخرية من الموت وأعطاهم القوة للابتعاد عن الصخور. فكر: لن أفهمهم أبدًا.

على حافة الجرف، التفت يابو للوراء للمرة الأخيرة. أعلم أنك تعتقد أنني ذاهب لألقى حتفي يا أنجين سان، وأنت قد حاصرتني. أعلم أنك لم تكن لتنزل بنفسك إلى هناك. كنت أراقبك من كثب. لكنني نشأت في الجبال وهنا في اليابان نتسلق من أجل الفخر والمتعة. لذلك أنا أخوض هذا التحدي الآن بشروطي الخاصة، وليس بشروطك. سأحاول، وإذا مت فلا يهم. ولكن إذا نجحت، فأنت كرجل ستعرف أنني أفضل منك، بشروطك الخاصة. ستصبح مدينًا لي أيضًا إذا أعدت الجثة.

ستصبح تابعي يا أنجين سان.

نزل يابو عن جانب الجرف بمهارة كبيرة. وزلت قدمه عندما كان في منتصف الطريق. تشبّث يده اليسرى بحافة صخرية. هذا أوقف سقوطه وأصبح يتأرجح بين الحياة والموت. غرّزت أصابعه بعمق وهو يشعر بضعف قبضته، وغرّزَ أصابعَ قدميه في شق في الصخر، يصارع من أجل التمسك بشيء. بينما انزلقت يده اليسرى، وجدت أصابع قدميه شقًا وتمسكت به، وعانق الجرف يائسًا وهو لا يزال غير متوازن، يضغط عليه باحثًا عن نقاط ارتكاز. ثم فقد موطن قدمه. ورغم أنه تمكن من الإمساك بحافة صخرية

أخرى بكتا يديه على ارتفاع ثلاثة أمتار أدناه والتعلق بها للحظة، فإن هذه الحافة انهارت أيضًا. وسقط الستة أمتار المتبقية.

لقد استعد قدر استطاعته وهبط على قدميه كالقطة، ثم تدرج على وجه الصخرة المائل لتخفيف وطأة الصدمة، ليستقر في النهاية وهو يئن ألمًا. لف ذراعيه المصابتين حول رأسه، يحمي نفسه من انهيار الحجارة الذي يمكن أن يتبع سقوطه. لكن لم يحدث شيء من ذلك. هز رأسه ليصفي ذهنه ونهض. كان أحد كاحليه ملتويًا. شعر بألم حاد يصعد ساقه إلى أحشائه وبدأ عرقه يتصبب. أصابع قدميه وأظفاره تنزف ولكن هذا متوقع.

لا يوجد ألم. لن تشعر بالألم. قف منتصبًا. الأجنبي يراقبك.

غطاه عمود من رذاذ المياه، وساعد البرد في تخفيف آلامه. انزلق فوق الصخور المغطاة بالطحالب بحذر شديد، وتسلسل بين الشقوق حتى وصل أخيرًا إلى الجثة.

فجأة أدرك يابو أن الرجل لا يزال على قيد الحياة. تأكد من ذلك، ثم جلس للوراء للحظة. هل أريده حيًا أم ميتًا؟ أيهما أفضل؟

خرج سلطعون من تحت صخرة وسقط في البحر. تدافعت الأمواج. شعر بالملح يمزق جروحه. أيهما أفضل، حيًا أم ميتًا؟

نهض بصعوبة وصرخ: «يا تاكاشي سان! هذا الربان لا يزال على قيد الحياة. اذهب إلى السفينة وأحضِر نقالة وطبيبًا، إذا كان يوجد طبيب في السفينة».

بالكاد سمع رد تاكاتاشي عليه بسبب الرياح: «حسنًا يا زعيم». وكلماته لرجاله بينما كان يركض: «راقبوا الهمجي، لا تدعوا أي شيء يحدث له».

حرق يابو إلى السفينة وهي مثبتة على مراسيها بثبات. كان الساموراي الآخر الذي أرسله لإحضار الحبال موجودًا بالفعل بجانب القوارب الصغيرة. شاهد الرجل وهو يقفز إلى قارب وينزله إلى الماء. ابتسم يابو لنفسه ثم التفت إلى الورا. لقد جاء بلاكتورن إلى حافة الجرف وكان يصرخ عليه بإلحاح.

سأل يابو نفسه: ماذا يحاول أن يقول؟ رأى الربان يشير إلى البحر لكن هذا لم يكن يعني شيئًا بالنسبة له. كان البحر هائجًا وقويًا لكنه لم يكن مختلفًا عما كان عليه من قبل.

في النهاية تخلى يابو عن محاولة الفهم وحول انتباهه إلى رودريجز. رفع الرجل إلى الصخور بصعوبة شديدة بعيدًا عن الأمواج. كان تنفّس البرتغالي متقطعًا، لكن قلبه بدا قويًا. كان جسده مليئًا بالكدمات. وبرز عظم مكسور من خلال جلد ساقه اليسرى. يبدو أن كتفه اليمنى مخلوعة. بحث يابو عن تسرب للدم من أي جروح لكن لم يجد شيئًا. فكر: إذا لم يكن مصابًا من الداخل، فربما سيعيش.

لقد أصيب الدايميو عدة مرات ورأى الكثير من الموتى والجرحى لدرجة أنه اكتسب بعض القدرة على التشخيص. إذا تمكن من إبقاء رودريجو دافئًا كما قرر، وأعطاه الساكي والأعشاب القوية والكثير من الحمامات الدافئة، فسيعيش. قد لا يمشي مرة أخرى لكنه سيعيش. نعم. أريد أن يعيش هذا الرجل. إذا لم يستطع المشي فلا يهم. ربما كان ذلك أفضل. سيصبح لدي ربان احتياطي، هذا الرجل بالتأكيد مدين لي بحياته. ربما يمكنني استخدام هذا الرجل إذا لم يتعاون القرصان. هل سيكون من المُجدي التظاهر بأنني أصبحت مسيحيًا؟ هل سيقربهما هذا مني؟

ما الذي كان سيفعله أومي؟

أومي ذكي حقًا. نعم. أذكى من اللازم؟ يرى أومي أشياء كثيرة وبسرعة كبيرة. إذا كان بإمكانه رؤية ذلك بوضوح، فلا بد أنه يدرك أن والده سيقود العشيرة إذا اختفيت -ابني لا يزال لا يملك الخبرة الكافية لينجو بمفرده- وبعد الأب، سيظهر أومي نفسه. أليس كذلك؟

ماذا أفعل بشأن أومي؟

ماذا عن أن أعطي أومي للهمجي؟ كلعبة.

ماذا عن ذلك؟

سمع صيحات قلق من الأعلى. ثم أدرك ما كان يشير إليه الهمجي. المد! كان المد يقترب بسرعة. لقد بدأ بالفعل بالتوغل صوب هذه الصخرة. نهض يابو بصعوبة وتأوه من وخزة ألم في كاحله. حُجب أي مخرج آخر على طول الشاطئ بسبب البحر. رأى أن علامة المد على الجرف أعلى من طول رجل كامل فوق القاعدة.

نظر إلى القارب الصغير. لقد اقترب من السفينة الآن. وكان تاكاتاشي على الشاطئ لا يزال يركض بكل قوته. قال لنفسه: لن تصل الحبال في الوقت المناسب.

جابت عيناه المنطقة بجدية. لم يوجد طريق للصعود إلى الجرف. لم تقدم أي صخور ملاذًا آمنًا. لا كهوف. توجد نتوءات صخرية في عرض البحر لكنه لن يتمكن من الوصول إليها أبدًا. لا يستطيع السباحة ولا يوجد شيء يستخدمه كطوق نجاة.

كان الرجال في الأعلى يراقبونه. أشار الهمجي إلى النتوءات الصخرية في البحر وقام بحركات تشبه السباحة، لكنه هز رأسه. وبحث بعناية مجددًا. لكنه لم يجد شيئًا.

فكر: لا يوجد مهرب. الآن أنت تقف على أعتاب الموت. جهز نفسك. قال لنفسه: إنها الكارما. ثم صرف نظره بعيدًا عنهم واستقر في جلسته براحة أكبر، يستمتع بالبصيرة الرحبة التي حلت عليه. آخر يوم، آخر بحر، آخر ضوء، آخر فرح، آخر كل شيء. كم هو جميل البحر والسماء والبرودة والملح. بدأ يفكر في القصيدة الأخيرة، الأغنية التي يجب عليه الآن حسب العادة أن يؤلفها. شعر بأنه محظوظ لأنه يملك الوقت للتفكير بوضوح. كان بلاكتورن يصرخ: «اسمع أيها الوغد، ابحث عن حافة صخرية، لا بد من وجود حافة في مكان ما».

وقف الساموراي في طريقه، يحملقون فيه وكأنهم يعتقدون أنه مجنون. كان واضحًا لهم أنه لا يوجد مهرب وأن يابو كان ببساطة يستعد لموت هادئ، كما سيفعلون هم أنفسهم لو كانوا مكانه. وقد استأثروا من هذيان بلاكتورن كما كان يابو سيفعل كذلك.

- انظروا إلى هناك، جميعكم. ربما توجد حافة صخرية.

ذهب واحد منهم إلى الحافة ونظر للأسفل ثم هز كتفيه وتكلم مع رفيقه الذين هزوا أكتافهم أيضًا. في كل مرة كان بلاكتورن يحاول الاقتراب من الحافة للبحث عن مخرج كانوا يوقفونه. كان بإمكانه بسهولة دفع أحدهم وإرساله ليلاقى حتفه، وقد راودته نفسه لفعل ذلك. ولكنه كان يتفهمهم ويتفهم مشكلاتهم. فكر بطريقة لمساعدة هذا الوغد؟ يجب أن تنقذه لإنقاذ رودريجز.

- يا أيها الوغد الياباني النتن الجبان الحقير! يا كاسيجي يابو، أين رجولتك؟ لا تستسلم. الجبناء فقط هم من يستسلمون، هل أنت رجل أم خروف؟

ولكن يابو لم يعره أي اهتمام. لقد كان ساكنًا كالصخرة التي يجلس عليها.

التقط بلاكتورن حجرًا وألقاه على يابو. سقط في الماء دون أن يلاحظه وصرخ الساموراي على بلاكتورن بغضب. لقد عرف أنه في أي لحظة سيهاجمونه ويقيدونه. ولكن كيف يمكنهم ذلك؟ ليس لديهم حبل...

حبل! احصل على حبل، هل يمكنك صنع واحد؟

وقعت عيناه على كيمونو يابو. بدأ يمزقه إلى شرائط، يختبر قوتها. كان الحرير قويًا جدًا. أمر الساموراي وهو ينزع قميصه: «هيا، اصنعوا حبلًا، حسنًا؟».

فهموا. وبسرعة بدؤوا في خلع أحزمتهم والكيمونو وقلدوه. شرع يربط الأطراف مع بعضها بعضًا، وكذلك الأحزمة.

وبينما كانوا يكملون الحبل، تمدد بلاكتورن وتحرك بجسده نحو الحافة، وجعل اثنين منهم يتمسكان بكاحليه لضمان سلامته. كان جسمه مسطحًا على الصخرة القاسية. لم يكن يحتاج إلى مساعدتهما لكنه أراد تهدئتهما.

أخرج رأسه إلى أقصى مدى يجرؤ عليه، مدرّكًا قلقهم. ثم شرع في البحث كما يبحث المرء في البحر. ربعًا بربع. مستخدمًا كل جزء من بصره ولكن خصوصًا الجوانب.

مسح كامل.

مجددًا.

لا شيء.

مجددًا.

ما هذا؟ أعلى بقليل من خط المد؟ هل هو صدع في الجرف؟ أم ظل؟

تحرك بلاكتورن من وضعه، مدرّكًا تمامًا أن البحر قد غطى الصخرة التي يجلس عليها يابو تقريبًا، وتقريبًا جميع الصخور بينه وبين قاعدة الجرف. الآن أصبح بإمكانه الرؤية بشكل أفضل وأشار.

- هناك، ما هذا؟

كان أحد الساموراي يجثو على يديه وركبتيه، تتبع إصبع بلاكتورن الممدودة ولكنه لم يرَ شيئاً.

- هناك، أليست هذه حافة صخرية؟

شكل الحافة بيديه وبإصبعين صنع رجلاً وأوقف الرجل على الحافة، وبإصبع أخرى صنع حزمة طويلة فوق كتف الرجل، والآن يقف رجل على حافة صخرية - تلك الحافة - مع رجل آخر فوق كتفه.

تحدث ببعض اليابانية: «بسرعة، بسرعة. اشرحوا له، لكاسيجي يابو ساما. هل تفهم؟».

صعد الرجل وتحدث بسرعة مع الآخرين فنظروا هم أيضاً. الآن رأى الجميع الحافة. وبدؤوا بالصراخ. لا يزال يابو بلا حراك. لقد بدا وكأنه حجر. واصلوا الصراخ وانضم إليهم بلاكتورن أيضاً ولكن الأمر كان لو أنهم لم يصدروا أي صوت على الإطلاق.

تحدث أحدهم إلى الآخرين بإيجاز فأولماً الجميع برؤوسهم وانحنوا. انحنى هو بالمقابل. ثم ومع صرخة مدوية «إلى الأمام!!!» ألقى بنفسه من على الجرف وسقط ليلقي حتفه. استفاق يابو بعنف من غيبوبته، واستدار وسارع بالصعود.

صرخ الساموراي الآخرون وأشاروا لكن بلاكتورن لم يسمع شيئاً ولم يرَ سوى الجثة الممزقة التي ترقد في الأسفل، والتي بدأ البحر يسحبها بالفعل. فكر بلاكتورن بعجز: أي نوع من الرجال هؤلاء؟ هل كانت تلك شجاعة أم مجرد جنون؟ لقد انتحر هذا الرجل عمداً على أمل أن يلتفت انتباه رجل آخر استسلم. هذا لا يُعقل! إنهم لا يعقلون.

رأى يابو يتعثر بالصعود. توقع منه أن يهرع إلى بر الأمان تاركاً رودريجيز. هذا ما كنت سأفعله أنا. أليس كذلك؟ لا أعلم. لكن يابو تحرك زاحفاً ومنزلقاً، جر الرجل فاقد الوعي معه عبر المياه الضحلة المضطربة إلى أسفل الجرف. لقد وجد الحافة. كان عرضها بالكاد ثلاثين سنتيمتراً. دفع رودريجيز بصعوبة على الحافة، وكاد أن يفقد سيطرته عليه، ثم صعد بنفسه.

الحبل كان ينقصه ستة أمتار. سرعان ما أضاف الساموراي لباسهم الداخلي. الآن إذا وقف يابو فيمكنه بالكاد الوصول إلى النهاية.

صاحوا مشجعين وبدؤوا الانتظار.

رغم كرهه، كان عليه أن يقدر شجاعة يابو. كادت الأمواج تلتهمه ست مرات. وفقد رودريجيز مرتين ولكن في كل مرة كان يابو يسحبه إلى الخلف، ويخرج رأسه من البحر الهائج، وذلك بعد وقت طويل كان بلاكتورن نفسه قد استسلم فيه. من أين تأتي بهذه الشجاعة يا يابو؟ هل وُلدت من الشيطان؟ هل أنتم جميعًا كذلك؟

إن النزول إلى الأسفل في المقام الأول تطلب شجاعة. في البداية ظن بلاكتورن أن يابو قد تصرف بتبجح. لكنه سرعان ما رأى أن الرجل كان يختبر مهارته ضد الجرف ويكاد ينتصر. ثم خفف من وطأة سقوطه ببراعة لا تقل عن أي لاعب بهلواني. وقد استسلم بكرامة.

يا إلهي أنا معجب بذلك الوغد، وأكرهه.

لمدة ساعة تقريبًا، حارب يابو البحر وجسده الضعيف، ثم مع بدء حلول الظلام عاد تاكاتاشي بالحبال. صنعوا سلة وحملوها بأنفسهم على طول الجرف بمهارة لم يرها بلاكتورن من قبل على الشاطئ.

سرعان ما رُفع رودريجيز إلى سطح السفينة. كان بلاكتورن سيحاول مساعدته لكن يابانيًا بشعر قصير كان جالسًا بالفعل على ركبتيه بجانبه. شاهده وهو يفحص الساق المكسورة، فهو طبيب على ما يبدو. ثم أمسك ساموراي بكثفي رودريجيز بينما وضع الطبيب ثقله على القدم وانزلق العظم عائدًا إلى مكانه تحت اللحم. تحسس العظم بأصابعه ودفعه وأعاد ضبطه وربطه بالجبيرة. بدأ يلف أعشابًا ذات مظهر كريبه حول الجرح الملتهب، ثم رُفع يابو.

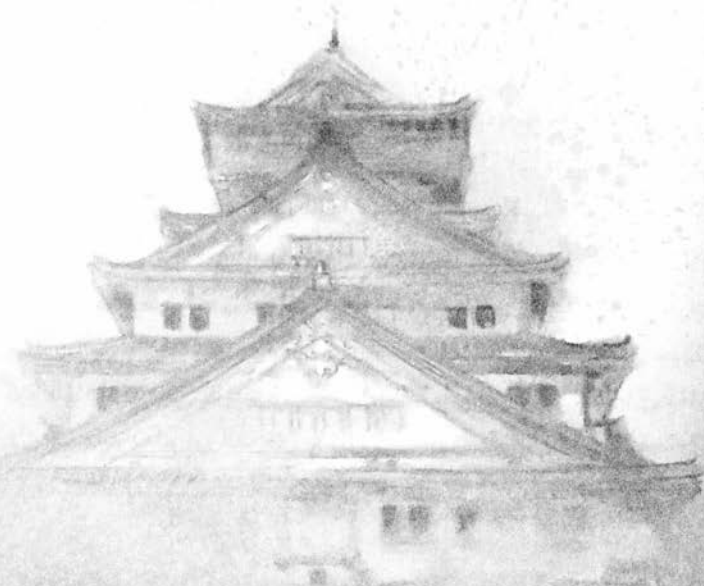
رفض الدايميو أي مساعدة، وأشار للطبيب بالعودة إلى رودريجيز، وجلس وبدأ ينتظر.

نظر بلاكتورن إليه. شعر يابو بنظراته. حرق الرجلان إلى بعضهما بعضًا. قال بلاكتورن أخيرًا مشيرًا إلى رودريجيز: «شكرًا لك، شكرًا لك على إنقاذ حياته. شكرًا لك يا يابو سان».

انحنى عمدًا. هذا لشجاعتك يا أيها الوغد ذو العينين السوداوين.

انحنى يابو بالصلابة نفسها. لكن في داخله، ابتسم.

الكتاب الثاني



الفصل العاشر

كانت رحلتهم من الخليج إلى أوساكا هادئة. كانت خرائط رودريجيز واضحة ودقيقة للغاية. استعاد رودريجيز وعيه خلال الليلة الأولى. في البداية ظن أنه مات لكن الألم سرعان ما ذكره بالعكس.

قال بلاكتورن: «لقد جبروا ساقك وضمدوها. وكتفك مثبتة. لقد خُلعَتْ. رفضوا أن يقوموا بعملية فصد لك بغض النظر عن مدى محاولتي إقناعهم بذلك».

حدّثت عينا رودريجيز المعذبتان إليه: «عندما أصل إلى أوساكا، يمكن للآباء اليسوعيين فعل ذلك. كيف وصلت إلى هنا يا إنجليزي؟ أتذكر أنني سقطت في البحر لكن لا أتذكر أي شيء آخر». أخبره بلاكتورن.

- إذن أنا مدين لك الآن بالحياة. لعنة الرب عليك.

- من سطح السفينة الخلفي، بدا الأمر وكأننا نستطيع الوصول إلى الخليج. ولكن من مقدمة السفينة، ستكون زاوية رؤيتك مختلفة ببضع درجات. كان الموج سيئ الحظ.

- هذا لا يقلقني يا إنجليزي. كنت أنت من تتحكم بسطح السفينة الخلفي، وكنت أنت من تتحكم بالدفة. كان كلانا يعلم ذلك. لا، أنا ألعنك إلى الجحيم لأنني مدين لك الآن بالحياة... يا إلهي، ساقِي.

دمعت عيناه بسبب الألم وأعطاه بلاكتورن قَدْحًا من الكحول وراقبه خلال الليل بينما كانت العاصفة تخف تدريجيًا. جاء الطبيب الياباني عدة مرات وأجبر رودريجيز على شرب دواء ساخن ووضع مناشف ساخنة على جبهته وفتح كوة السفينة. وفي كل مرة يخرج فيها الطبيب، كان بلاكتورن يغلق الكوة، لأن الجميع يعلم أن المرض ينتقل عبر الهواء، وأن إغلاق المقصورة

بإحكام هو الأكثر أمانًا والأصح، عندما يكون الرجل في حالة سيئة مثل رودريجز.

في النهاية صرخ الطبيب عليه وأوكل ساموراي بحراسة كوة السفينة حتى تظل مفتوحة.

صعد بلاكتورن إلى السطح عند الفجر. كان هيرو ماتسو ويابو هناك أيضًا. انحنى بطريقة تشبه انحناء أهل البلاط. وتحدث باليابانية: «مرحبًا. أوساكا؟».

انحنى له ردًا على تحيته. قال هيرو ماتسو: «أوساكا. نعم يا أنجين سان».

- نعم، بسرعة يا هيرو ماتسو ساما. القبطان سان! ارفع المرسى.

- نعم يا أنجين سان.

ابتسم ليابو دون أن يدري. رد يابو الابتسامة ثم ابتعد وهو يعرج، وفكر بلاكتورن: يا له من رجل، رغم أنه شيطان وقاتل. قال لنفسه: ألم تكن أنت أيضًا قاتلاً؟ بلى، ولكن ليس بهذه الطريقة.

قاد بلاكتورن السفينة إلى أوساكا بسهولة. استغرقت الرحلة ذلك اليوم والليلة، وبعد الفجر مباشرة في اليوم التالي كانوا بالقرب من ميناء أوساكا. صعد ربان ياباني إلى متن السفينة ليقودها إلى رصيفها، لذلك، بعد أن خفف عن نفسه مسؤولية القيادة، نزل إلى الأسفل بسعادة لينام.

أيقظه القبطان لاحقًا وانحنى، وأشار بالإيماءات إلى أن بلاكتورن يجب أن يكون مستعدًا للذهاب مع هيرو ماتسو فورَ رسو السفينة.

- هل فهمت يا أنجين سان؟

- نعم.

غادر البحار. تحرك بلاكتورن ليمد ظهره المتألم، ثم رأى رودريجز يراقبه.

- كيف تشعر؟

- جيد يا إنجليزي. إذا أخذت بعين الاعتبار أن ساقَي تؤلمني بشدة، ورأسي ينفجر، وأريد التبول، ولساني طعمه كبرميل من قذارة الخنازير.

أعطاه بلاكتورن برميل الفضلات ثم أفرغه من الكوة. أعاد ملء الكأس بالمشروب الكحولي.

- إنك ممرض سيئ يا إنجليزي. السبب هو قلبك الأسود.

ضحك رودريجيز وكان من الجيد سماعه يضحك مجددًا. تحولت عيناه إلى الدليل البحري المفتوح على المكتب، ثم إلى صندوقه البحري. رأى أنه قد فُتِح: «هل أعطيتك المفتاح؟».

- لا. لقد فتشتك. اضطررت إلى الحصول على الدليل البحري الحقيقي. أخبرتك ذلك عندما استيقظت أول ليلة.

- هذا عادل. لا أتذكر، لكن هذا عادل. اسمع يا إنجليزي، اسأل أي يسوعي عن مكان فاسكو رودريجيز في أوساكا وسيُوجهونك إليّ. تعالَ لرؤيتي، حينها سيمكنك عمل نسخة من الدليل البحري الخاص بي إذا أردت.

- شكرًا لك. لقد أخذت نسخة بالفعل. على الأقل لقد نسخت ما استطعت، وقد قرأت الباقي بعناية شديدة.

قال رودريجيز بالإسبانية: «اللعة عليك».

- وعليك أيضًا.

عاد رودريجيز إلى اللغة البرتغالية مجددًا: «التحدث بالإسبانية يجعلني أرغب في التقى، رغم أنه يمكنك استخدامها في السبِّ أكثر من أي لغة أخرى. توجد حزمة في صندوقي البحري. أعطني إياها رجاءً».

- المغلقة بأختام اليسوعيين؟

- نعم.

أعطاه إياها. فحصها رودريجيز ولامس الأختام غير المنكسرة، ثم بدا أنه غير راضٍ ووضع الحزمة على البطانية الخشنة التي يرقد تحتها، وأعاد رأسه للوراء مجددًا: «آه يا إنجليزي، إن الحياة غريبة جدًّا».

- لماذا؟

- إن بقيتُ حيًّا، فذلك بفضل رحمة الرب، بمساعدة هرطوقي وياباني. أرسل ذاك الذي يأكل العشب إلى الأسفل حتى أتمكن من شكره، حسنًا؟

- الآن؟

- لاحقًا.

- حسنًا.

- هذا الأسطول الخاص بك، الذي تزعم أنه يهاجم مانيلا، والذي أخبرت الأب عنه. ما الحقيقة يا إنجليزي؟
 - أسطول من سفننا الحربية سيدمر إمبراطوريتك في آسيا، أليس كذلك؟
 - هل يوجد أسطول؟
 - بالطبع.
 - كم عدد السفن التي كانت في أسطولك؟
 - خمسة. والباقي في عرض البحر، أمامهم أسبوع أو نحو ذلك. لقد تقدمت لاستكشاف اليابان وحُوصرت في العاصفة.
 - مزيدٌ من الأكاذيب يا إنجليزي. لكني لا أمانع، لقد أخبرت الأسرى الكثير منها أيضًا. لم تُعد هناك سفن أو أساطيل أخرى.
 - انتظر وسترى.
- شرب رودريجز بشراهة: «سأفعل».
- تمدد بلاكثورن وذهب إلى الكوة، راغبًا في إنهاء هذه المحادثة، ونظر إلى الشاطئ والمدينة: «كنت أعتقد أن لندن هي أكبر مدينة على وجه الأرض، ولكن بالمقارنة بأوساكا فهي بلدة صغيرة».
- قال رودريجز: «توجد لديهم العشرات من المدن مثل هذه المدينة».
- كان سعيدًا أيضًا بإنهاء لعبة القط والفأر التي لن تؤتي ثمارًا أبدًا دون إجهاد. أضاف رودريجز وهو يتكئ للخلف في مخدعه ويغمض عينيه، ووجهه مشدودٌ من الألم: «مياكو -العاصمة- أو كيوتو كما يُطلق عليها أحيانًا، هي أكبر مدينة في الإمبراطورية، حيث يقال إنها تزيد على ضعف مساحة أوساكا. تليها إيدو، عاصمة توراناغا. لم أذهب إلى هناك قط، ولا أي كاهن أو برتغالي -يبقى توراناغا عاصمته مغلقة- إنها مدينة محرمة. ومع ذلك، هذا لا يختلف عن أي مكان آخر. اليابان كلها ممنوعة رسميًا علينا، باستثناء مواني ناجازاكي وهيرادو. لا يعير كهنتنا اهتمامًا كبيرًا بالأوامر ويذهبون إلى حيث يريدون. لكن لا يمكننا نحن البحارة أو التجار فعل ذلك، إلا إذا كان ذلك بتصريح خاص من الأوصياء، أو دايميو عظيم مثل توراناغا. يمكن لأي دايميو الاستيلاء على إحدى سفننا -مثلما استولى توراناغا على سفينتك- خارج ناجازاكي أو هيرادو. هذا هو قانونهم».

- هل تريد أن تستريح الآن؟
- لا يا إنجليزي. إن الحديث أفضل. يساعد الحديث على تخفيف الألم. يا إلهي، رأسي يؤلمني! لا أستطيع التفكير بوضوح. دعنا نتحدث حتى تذهب إلى الشاطئ. عد لرؤيتي فهناك الكثير مما أريد أن أسألك عنه. أعطني مزيدًا من الشراب. شكرًا لك، شكرًا لك يا إنجليزي.

- لماذا يُمنع عليكم الذهاب إلى حيث تشاؤون؟

- ماذا؟ هنا في اليابان؟ كان التايكو هو من بدأ كل المتاعب. منذ وصولنا لأول مرة إلى هنا عام 1542 لنباشر عمل الرب ولنجلب لهم التحضر، كانت لديّ أنا والكهنة حرية الحركة، ولكن عندما حصل التايكو على كل السلطة بدأ بوضع القيود. يعتقد الكثير أن... هل يمكنك تحريك ساقي، وإزالة الغطاء عن قدمي، إنها تحترق... نعم - يا إلهي، كن حذرًا - هناك، شكرًا لك يا إنجليزي. نعم، أين كنت؟ أوه نعم... يعتقد الكثير أن التايكو كان تجسيدًا للشيطان. قبل عشر سنوات أصدر مراسيم ضد الآباء القديسين يا إنجليزي، وكل من يريد نشر كلمة الرب. ونفى الجميع باستثناء التجار، قبل عشر أو اثنتي عشرة سنة تقريبًا. لقد كان ذلك قبل مجيئي إلى هذه المياه، لقد مضى على وجودي هنا سبع سنوات على فترات متقطعة. يقول الآباء القديسون إن السبب وراء ذلك هم الكهنة الوثنيون -البوذيون- عبدة الأصنام الكريهون الحاقدون، هؤلاء الوثنيون هم من حرضوا التايكو ضد آبائنا القديسين، وملأوه بالكاذيب، عندما كانوا على وشك جعله يعتنق المسيحية. نعم، القاتل العظيم نفسه كاد يُخلص روحه. لكنه أضاع فرصة الخلاص. نعم. على أي حال، أمر جميع كهنتنا بمغادرة اليابان... هل أخبرتك أن هذا كان قبل عشر سنوات تقريبًا؟

أومًا بلاكثورن برأسه، سعيدًا بتركه يتحدث بحرية وسعيدًا بالاستماع، متلهفًا للتعلم.

- جمع التايكو جميع الآباء اليسوعيين في ناجازاكي، وأعدهم لإرسالهم إلى ماكاو مع أوامر مكتوبة بعدم العودة أبدًا تحت وطأة الموت. ثم وبالسرعة نفسها، تركهم جميعًا وشأنهم ولم يفعل شيئًا آخر. لقد أخبرتك أن اليابانيين يصعب فهم تصرفاتهم. نعم، تركهم وشأنهم وسرعان ما عاد الوضع إلى ما كان عليه سابقًا، باستثناء أن معظم

الآباء اليسوعيين مكثوا في كيوشو حيث يُرحب بوجودنا. هل أخبرتك أن اليابان تتكون من ثلاث جزر رئيسية: كيوشو، وشيكوكو، وهونشو؟ وآلاف الجزر الصغيرة. توجد جزيرة أخرى تقع في أقصى الشمال -يعتقد البعض أنها الجزيرة الرئيسية- تسمى هوكايدو، لكن لا يعيش هناك سوى السكان الأصليين ذوي الشعر الوفير. اليابان عالم مقلوب رأسًا على عقب يا إنجليزي. أخبرني الأب ألفيتو أنه بدا وكأن شيئًا لم يحدث على الإطلاق. أصبح التايكو ودودًا كما كان من قبل، رغم أنه لم يعتقد المسيحية. بالكاد أغلق كنيسة ونفى اثنين أو ثلاثة فقط من الدايملو المسيحيين -لكن هذا كان فقط للاستيلاء على أراضيهم- ولم ينفذ مرسوم الطرد الخاص به. ثم، قبل ثلاث سنوات، جن جنونه مجددًا وأمر باستشهاد ستة وعشرين أبًا. لقد صلبهم في ناجازاكي. بلا سبب. لقد كان مجنونًا يا إنجليزي. لكن بعد قتل الستة والعشرين لم يفعل شيئًا آخر. مات بعد فترة وجيزة. لقد كانت تلك يد الرب يا إنجليزي. لعنة الرب كانت عليه وستكون على نسله. أنا متأكد من ذلك.

- هل لديكم الكثير من معتنقي المسيحية هنا؟

لكن يبدو أن رودريجز لم يسمع، إذ كان غائبًا عن الوعي جزئيًا: «إنهم حيوانات، اليابانيون. هل أخبرتك عن الأب ألفيتو؟ إنه المترجم. يطلقون عليه تسوكو سان «السيد المترجم». لقد كان مترجم التايكو يا إنجليزي، والآن هو المترجم الرسمي لمجلس الوصاية ويتحدث اليابانية أفضل من معظم اليابانيين ويعرف عنهم أكثر من أي رجل حي. أخبرني أنه توجد تلة ارتفاعها خمسة عشر مترًا في مياكو -هذه هي العاصمة يا إنجليزي. جمع التايكو أنوف وأذان جميع الكوريين الذين قُتلوا في الحرب ودفنوها هناك- الجزء الخاص بكوريا من الجزيرة الرئيسية، غرب كيوشو. إنها الحقيقة! وبحق السيدة العذراء، لم يكن هناك قاتل مثله من قبل، وهم جميعًا سيئون بالقدر نفسه».

أغمض رودريجز عينيه واحمرَّ جبينه.

سأل بلاكتورن مرة أخرى بحذر، إذ كان يتوق بشدة لمعرفة عدد الأعداء الموجودين هنا: «هل لديكم الكثير من معتنقي المسيحية هنا؟».

ولدهشته، قال رودريجز: «مئات الآلاف، والمزيد كل عام. منذ وفاة التايكو أصبح لدينا عدد أكبر من أي وقت مضى، والذين كانوا مسيحيين سرًا

أصبحوا يذهبون الآن إلى الكنيسة علانيةً. معظم جزيرة كيوشو كاثوليكية الآن. ومعظم الدايملو في كيوشو مسيحيون. ناجازاكي مدينة كاثوليكية، واليسوعيون يملكونها ويديرونها ويتحكمون في التجارة. تمر جميع التجارة عبر ناجازاكي. لدينا كاتدرائية، وعشرات الكنائس، وعشرات أخرى منتشرة في جميع أنحاء كيوشو، ولكن القليل منها حتى الآن هنا في جزيرة هونشو الرئيسية، و...». أوقفه الألم مجددًا. ولكن بعد لحظة واصل كلامه: «يوجد ثلاثة أو أربعة ملايين شخص في كيوشو وحدها، سيصبحون جميعًا كاثوليكين قريبًا. ويوجد أكثر من عشرين مليون ياباني آخر في الجزر وسرعان ما...».

- هذا غير ممكن.

لعن بلاكتورن نفسه على الفور الآن لمقاطعته لتدفق المعلومات.

كانت عينا رودريجز محتفنتين، والآن أصبح فمه ينطلق بكلام لا يتحكم فيه: «لماذا قد أكذب؟ كان هناك إحصاء رسمي منذ عشر سنوات. قال الأب ألفيتو أن التايكو أمر بإجرائه، وهو يجب أن يعلم بذلك، لقد كان هناك. لماذا قد يكذب؟ هذا أكثر من عدد سكان البرتغال وإسبانيا وفرنسا وهولندا الإسبانية وإنجلترا مجتمعين، ويمكنك تقريبًا أن تضيف الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأكملها لتساويها».

فكر بلاكتورن: يا إلهي، إن إنجلترا بأكملها لا يزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين نسمة. ويشمل ذلك ويلز أيضًا.

إذا كان يوجد هذا العدد الكبير من اليابانيين، فكيف نتعامل معهم؟ إذا كان يوجد عشرون مليونًا، فهذا يعني أن بإمكانهم بسهولة تشكيل جيش من الرجال عدده يفوق جميع سكاننا إذا أرادوا ذلك. وإذا كانوا جميعًا شرسين مثل الذين رأيتهم -ولماذا لا يكونون كذلك- بحق الرب، سيكونون لا يقهرون. وإذا كانوا بالفعل كاثوليك جزئيًا، وإذا كان اليسوعيون موجودين بقوة، فإن أعدادهم ستزداد، ولا يوجد متعصب مثل المتحول المتعصب، فما هي فرصتنا نحن والهولنديون في آسيا؟

لا فرصة على الإطلاق.

كان رودريجز يقول: «إذا كنت تعتقد أن هذا كثير فانتظر حتى تذهب إلى الصين. كلهم رجال ذوو بشرة صفراء هناك، وجميعهم ذو شعر وأعين سوداء. يا إنجليزي إن لديك الكثير لتتعلمه. كنت في كانتون العام الماضي، في سوق

الحرير. كانتون مدينة مسورة تقع في جنوب الصين على نهر اللؤلؤ، شمال مدينة «اسم الرب» في ماكاو. يوجد مليون من الوثنين آكلي الكلاب داخل تلك الأسوار وحدها. تملك الصين عدد سكان أكبر من سكان العالم بأسره مجتمعين. يجب أن يكون كذلك صحيحًا. فكر في الأمر».

انتابت رودريجز نوبة من الألم وأمسك معدته بيده السليمة: «هل كانت تسيل مني أي دماء؟ من أي مكان؟».

- لا، لقد تأكدتُ بنفسي. فقط ساقك وكتفك. ليست لديك إصابات داخلية يا رودريجز... على الأقل، لا أعتقد ذلك.

- ما مدى سوء إصابة ساقي؟

- لقد جرفها البحر ونظفها. الكسر نظيف والجلد نظيف في الوقت الحالي.

- هل سكبت عليها براندي وأشعلتها؟

- لا، لم يسمحوا لي بذلك. أمروا بإبعادي. لكن يبدو أن الطبيب يعرف ما يفعل. هل سيصعد رجالك إلى متن السفينة بسرعة؟

- نعم، حالما نرسو. هذا هو الأرجح.

- جيد. ماذا كنت تقول؟ عن الصين وكانتون؟

- ربما كنت أتحدث كثيرًا. حان الوقت للتوقف عن الحديث عنهم.

راقب بلاكتورن يد رودريجز السليمة وهي تعبت بالحزمة المغلقة وتساءل مرة أخرى عن أهميتها: «ساقك ستكون بخير. ستعرف ذلك خلال أسبوع».

- حسنًا يا إنجليزي.

- لا أعتقد أنها ستتعفن - لا يوجد قيح - كما أنك تفكر بوضوح لذا فإن دماغك بخير. ستكون بخير يا رودريجز.

انتابت رودريجز قشعريرة: «ما زلت مدينًا لك بالحياة. عندما كنت أغرق، كل ما كنت أفكر فيه هو السلطعونات وهي تتسلل إلى عيني. لقد كنت أشعر بها وهي تتخبط في داخلي يا إنجليزي. هذه هي المرة الثالثة التي أرمى فيها في عرض البحر، وفي كل مرة يزداد الأمر سوءًا».

- لقد غرقتُ أربع مرات. ثلاث منها بسبب الإسبان.

انفتح باب المقصورة ودخل القبطان وانحنى أمام بلاكتورن وأشار إليه للصعود إلى الأعلى.

نهض بلاكتورن: «حسنًا». ثم قال بلطف: «لا تدين لي بشيء يا رودريجز. لقد أنقذتني وقدمت لي المساعدة حين كنت في أمس الحاجة إليها، وأنا أشكرك على ذلك. لقد تعادلنا».

- ربما، ولكن اسمع يا إنجليزي، إليك بعض الحقيقة، كدفعة مقدمة: لا تنسَ أبدًا أن اليابانيين لديهم ستة وجوه وثلاثة قلوب. هذا قول مأثور لديهم، بأن للرجل قلبًا زائفًا في فمه يراه كل العالم، وآخر في صدره يظهره لأصدقائه المقربين جدًّا وعائلته، والقلب الحقيقي، القلب الصادق، القلب السرّي، الذي لا يعرفه أحد إلا هو وحده، مُخبأ في مكان لا يعلمه إلا الرب. إنهم خونة بطريقة يصعب تصديقها، وفاسدون لدرجة لا يمكن إصلاحها.

- لماذا يريد تورانا جا رؤيتي؟

- أقسم إنني لا أعلم! لا أعلم. عُد لرؤيتي، إن استطعتَ.

- حسنًا. حظًا سعيدًا يا إسباني.

- عليك اللعنة! ومع ذلك، فليحفظك الرب.

بادله بلاكتورن الابتسامة بصدق، ثم وجد نفسه على سطح السفينة وعقله يدور من تأثير أوساكا، واتساعها، والحشد الغفير من الناس، والقلعة الضخمة التي تهيمن على المدينة. من داخل اتساع القلعة ظهر الجمال البارز للبرج الرئيسي -القلعة المركزية- المكون من سبعة أو ثمانية طوابق، وجمالونات مدببة ذات أسقف منحنية في كل طابق، والبلاطات كلها مذهبة والجدران زرقاء.

فكر بلاكتورن وأصابته قشعريرة مفاجئة في جسده: هنا حيث سيكون تورانا جا.

ذهب داخل هودج مغلق إلى منزل كبير. وهناك استحم وأكل، حتمًا حساء السمك والسمك النيء والمطبوخ على البخار، وبعض الخضار المخلل، والماء الساخن بالأعشاب. وبدلًا من عصيدة القمح، قدم له هذا المنزل وعاء من الأرز. لقد رأى الأرز مرة واحدة في نابولي. لقد كان أبيض وصحيًا، لكنه بلا طعم

بالنسبة له. كانت معدته تئن طالبةً اللحوم والخبز، والخبز المقرمش الطازج بالزبدة، وفخذ البقر والفطائر والدجاج والبيرة والبيض.

في اليوم التالي جاءت له خادمة. غُسلت الملابس التي أعطاه إياها رودريجز. كانت تراقبه وهو يرتدي ملابس، وساعدته في ارتداء جوارب التابي الجديدة. في الخارج كان يوجد زوجان جديان من الأحذية الخشبية. كان حذاءه مفقودًا. هزت رأسها وأشارت إلى الأحذية الخشبية ثم إلى الهودج ذي الستائر. كان يحيط به فصيل من الساموراي. أشار إليه قائدهم بالإسراع والركوب.

انطلقوا على الفور. كانت الستائر مغلقة بإحكام. وبعد فترة طويلة توقف الهودج.

قال بلاكثورن بصوت عالٍ وهو يخرج: «لن تخاف».

كانت البوابة الحجرية العملاقة للقلعة أمامه. كانت جزءًا من جدار يبلغ ارتفاعه تسعة أمتار به مجموعة من شرفات المراقبة والأبراج المحصنة والتحصينات الخارجية. كان الباب ضخماً ومغطى بالحديد ومفتوحاً، والمشبك الحديدي المطروق كان مفتوحاً. وفي الخلف امتد جسرٌ خشبيٌّ بعرض عشرين خطوة وطوله مائتا خطوة، يمتد فوق الخندق وينتهي عند جسر متحرك ضخم، وبوابة أخرى مثبتة في الجدار الثاني الذي كان بالحجم نفسه.

كان يوجد مئات الساموراي في كل مكان. يرتدون جميعاً نفس الزي الرمادي القاتم، الكيمونو المغلق بحزام، كلٌّ منها بخمس شارات دائرية صغيرة، واحدة على كل ذراع، وعلى كل صدر، وواحدة في وسط الظهر. كانت الشارة زرقاء، ويبدو أنها زهرة أو زهور.

- أنجين سان.

كان هيرو ماتسو يجلس بتصلب على هودج مكشوف يحمله أربعة حاملين يرتدون زيًا خاصًا. كان الكيمونو الخاص به بنيًا قاتمًا، وحزامه أسود، تمامًا مثل الخمسين ساموراي الذين يحيطون به. كان الكيمونو الخاص بهم أيضًا يحتوي على خمس شارات، لكنها كانت قرمزية، الشارات نفسها التي كانت ترفرف على صاري السفينة، شعار توراناغا. حمل هؤلاء الساموراي رماحًا طويلة براقعة مع أعلام صغيرة على رؤوسها.

انحنى بلاكتورن دون تفكير مأخوذاً بعظمة هيرو ماتسو. رد الرجل العجوز التحية رسمياً، وسيفه الطويل في حجره، وأشار له أن يتبعه.

تقدم الضابط عند البوابة إلى الأمام. قاموا بطقس رسمي بقراءة الورقة التي قدمها هيرو ماتسو وتبادلوا العديد من الانحناءات والنظرات نحو بلاكتورن ثم سُمح لهم بالمرور على الجسر، وانضم إليهم مرافقون من الساموراي المرتدين للون الرمادي.

كان سطح الخندق العميق يبعد خمسة عشر مترًا تحته ويمتد نحو ثلاثمائة خطوة على جانبيه، ثم تبع ذلك الجدران حيث اتجها شمالاً وفكر بلاكتورن: يا إلهي، كم أكره أن أضطر إلى محاولة شن هجوم هنا. يمكن للمدافعين أن يتخلوا عن حامية الجدار الخارجي ويحرقوا الجسر، ثم يكونون آمنين بالداخل. يا إلهي، لا بد أن الجدار الخارجي تقريباً اثنان ونصف كيلومتر مربع. وانظر، لا بد أن عرضه ستة أو تسعة أمتار. وكذلك الجدار الداخلي. وهو مصنوع من كتل حجرية ضخمة. لا بد أن كلاً منها ثلاثة أمتار في ثلاثة أمتار، على الأقل. ومقطوعة بمثالية ومرصوفة في مكانها دون ملاط. لا بد أنهم يزنون خمسين طنًا على الأقل. أفضل مما يمكننا صنعه. مدافع حصار؟ بالتأكيد يمكنهم ضرب الجدران الخارجية، لكن أسلحة المدافعين سترد بالمثل. سيكون من الصعب إيصالها إلى هنا، ولا يوجد مكان أعلى لإطلاق قذائف النار في القلعة. إذا تم الاستيلاء على الجدار الخارجي، فلا يزال بإمكان المدافعين طرد المهاجمين من الأسوار. ولكن حتى لو تمكنت مدافع الحصار من الاستقرار هناك وتحول اتجاهها إلى الجدار التالي وضربته، فلن تؤذيه. يمكنهم إلحاق الضرر بالبوابة البعيدة، ولكن ماذا سيفيد ذلك؟ كيف يمكن عبور الخندق؟ إنه ضخم جدًا بالنسبة للطرق العادية. يجب أن تكون القلعة منيعة، مع عدد كافٍ من الجنود. كم عدد الجنود هنا؟ كم عدد سكان البلدة الذين سيجدون ملاذًا في الداخل؟

لقد جعلت قلعة لندن تبدو ككوخ للخنازير. ويمكن لقصر هامبتون كورت بالكامل أن يكفي ركنًا واحدًا فيها.

عند البوابة التالية، يوجد إجراء رسمي آخر للتحقق من الأوراق، وانعطف الطريق يسارًا على الفور، نزولًا إلى طريق عريض تصطف عليه منازل محصنة بشدة خلف جدران أكبر وأسوار أصغر يسهل الدفاع عنها، ثم انعطف الطريق على نفسه ليشكل متاهة من السلالم والطرق. ثم بوابة أخرى ومزيد

من الفحص الأمني، وبوابة أخرى وخندق ضخم آخر ومنحنيات وانعطافات جديدة حتى ضل بلاكثورن -الذي كان مراقبًا دقيقًا يتمتع بذاكرة استثنائية وحاسة توجيه قوية- في متاهة متعمدة. وطوال الوقت يوجد عدد لا يحصى من الساموراي ذوي الزي الرمادي يحدقون إليهم من المنحدرات والأسوار والحصون والحواجز وأبراج المراقبة. ويوجد مزيدٌ منهم سائرين على الأقدام، يقومون بالحراسة أو السير أو التدريب أو الاعتناء بالخيول في إسطبلات مفتوحة. يوجد جنود في كل مكان، بالآلاف. جميعهم مسلحون جيدًا ومرتدون زيهم بأناقة.

لعن نفسه على عدم دهائه بما يكفي لاستخلاص مزيدٍ من المعلومات من رودريجز. بعيدًا عن المعلومات حول التايكو والمعتنقين الجدد، والتي كانت مذهلة بما فيه الكفاية، فقد كان رودريجز كتومًا مثلما يجب أن يكون أي أحد في مكانه، مثلما كنت أنت تتحاشى أسئلته.

ركز. ابحث عن أدلة. ما المميز في هذه القلعة؟ إنها الأكبر. لا، شيء مختلف. ما هو؟

هل الساموراي ذوو الزي الرمادي معادون لذوي الزي البني؟ لا أستطيع التأكد، جميعهم جديون للغاية.

راقبهم بلاكثورن بعناية وركز على التفاصيل. إلى اليسار كانت توجد حديقة مشدبة بعناية ومتعددة الألوان، مع جسور صغيرة ونهر صغير. أصبحت الجدران الآن متقاربة أكثر، والطرق أضيق. كانوا يقتربون من القلعة الرئيسية. لا يوجد أناس من العامة في الداخل ولكن هناك مئات الخدم و... لا توجد مدافع! هذا هو الشيء المختلف.

لم ترَ أيَّ مدافع، ولا حتى واحدًا.

يا إلهي! لا مدافع... إنذا لا توجد مدافع حصار!

لو كانت لديك أسلحة حديثة وليس لدى المدافعين أيُّ منها، هل يمكنك نسف الأسوار والأبواب وإمطار القلعة بالكرات النارية وإضرار النار فيها والاستيلاء عليها؟

لم يكن بإمكانك حتى اجتياز الخندق الأول.

بمساعدة مدافع الحصار، يمكنك جعل الأمر صعبًا على المدافعين لكن يمكنهم الصمود إلى الأبد إذا كانت الحامية مصممة على ذلك، وإذا كان لديهم ما يكفي من الرجال والطعام والماء والذخيرة.

كيف تعبر الخنادق؟ بالقوارب؟ أم الطوافات؟

كان عقله يحاول وضع خطة عندما توقف الهودج. نزل هيرو ماتسو. كانوا في زقاق ضيق. تُبَتَّت بوابة خشبية ضخمة مقوَّاة بالحديد في الجدار البالغ ارتفاعه ستة أمتار المندمج مع التحصينات الخارجية للنقاط المحصنة المعززة في الأعلى، والتي لا تزال بعيدة عن القلعة الرئيسية المغطاة معظمها عن الأنظار من هنا. وعلى عكس جميع المداخل الأخرى، كان يحرس هذه البوابة الساموراي البنيون، وهم الوحيدون الذين رأهم بلاكثورن داخل القلعة. كان من الواضح أنهم سعداء للغاية برؤية هيرو ماتسو.

استدار الساموراي الرماذيون وغادروا. لاحظ بلاكثورن النظرات العدائية التي تلقوها من الساموراي البنيين.

إذن هم أعداء.

انفتحت البوابة وتبع الرجل العجوز إلى الداخل، بمفردهما. بقية الساموراي ظلوا بالخارج.

كان مزيدٌ من الساموراي البنيون يحرسون الفناء الداخلي وكذلك الحديقة الواقعة وراءه. عبروا الحديقة ودخلوا الحصن الداخلي. خلع هيرو ماتسو حذاءه وفعل بلاكثورن الشيء نفسه.

كان الممر الداخلي مغطى بالكامل بحصير التاتامي، وهي نفس الحصائر المصنوعة من نبات السمار النظيفة والمريحة للقدمين، التي كانت تغطي أراضيات جميع المنازل تقريبًا باستثناء أفقرها. لاحظ بلاكثورن من قبل أن جميعها كانت بالحجم نفسه، نحو ثلاثة أمتار في متر. قال لنفسه: بالتفكير في الأمر، لم أرَ قط أي حصير مشكَّل أو مقطوع لتناسب حجمًا معينًا. ولم أرَ قط غرفة ذات شكل غريب! ألم تكن جميع الغرف مربعة أو مستطيلة تمامًا؟ بالطبع هذا يعني أن جميع المنازل -أو الغرف- يجب أن تُبنى لتتسع لعدد محدد من الحصائر. إذا فهم جميعًا قياسيين. كم هذا غريب!

صعدوا سلالم متعرجة ومحصنة، وساروا عبر ممرات إضافية ثم مزيدًا من السلالم. يوجد عديدٌ من الحراس، كلهم من البنيين. شكلت أشعة الشمس

المتسللة من فتحات الأسوار الخارجية أنماطاً معقدة. أدرك بلاكتورن الآن أنهم أصبحوا في ارتفاع شاهق فوق الأسوار الثلاثة الرئيسية المحيطة. المدينة والميناء أشبه بغطاء منقوش تحتها.

انعطف الممر بزاوية حادة وانتهى بعد خمسين خطوة.

شعر بلاكتورن بمرارة في فمه. أخبر نفسه: لا تقلق، لقد اتخذت قرارك. أنت ملتزم به.

الساموراي المصطفين وضابطهم الشاب في المقدمة، يقفون لحراسة الباب الأخير، يضع كل واحد منهم يده اليمنى على مقبض السيف، واليسرى على غمده، بلا حركة وعلى أهبة الاستعداد، يحدقون إلى الرجلين القادمين باتجاههم.

اطمأن هيرو ماتسو لاستعدادهم. لقد اختار هؤلاء الحراس بنفسه. كان يكره القلعة وتذكر مرة أخرى مدى خطورة قيام توراناغا بتسليم نفسه لعدوه. هرع إلى توراناغا مباشرة بعد أن وطئت قدماه الأرض أمس لإخباره ما حدث ومعرفة ما إذا كان أي شيء غير متوقع قد حدث في غيابه. لكن كل شيء كان هادئاً رغم أن جواسيسهم كانوا يهمسون عن حشود خطيرة للعدو في الشمال والشرق، وأن حلفاءهم الرئيسيين -الأوصياء- أونوشي وكياما، أعظم الدايميو المسيحيين، كانوا على وشك الانشقاق إلى إيشيدو. لقد غير الحراس وكلمات السر وتوسل توراناغا مرة أخرى للمغادرة، ولكن دون جدوى.

توقف على بُعد عشر خطوات من الضابط.



الفصل الحادي عشر

يوشي ناجا -ضابط الحراسة- شابٌ متعجرف وخطر يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا: «صباح الخير يا سيدي. مرحبًا بك».

- شكرًا لك. الزعيم توراناغا ينتظرنني.

- نعم.

حتى لو لم يكن ينتظر هيرو ماتسو، كان ناجا سيسمح له بالدخول على أي حال. كان تودا هيرو ماتسو واحدًا من ثلاثة أشخاص فقط في العالم يُسمح لهم بالدخول لمقابلة توراناغا ليلاً أو نهارًا، دون موعد سابق.

قال ناجا: «فتشوا الهمجي».

لقد كان الابن الخامس لتوراناغا من إحدى خليلاته، وكان يعبد والده.

استسلم بلاكتورن بهدوء مدرّكًا ما يفعلونه. كان الساموراي المختصان بارعين للغاية. لا شيء يفوتهما.

أشار ناجا إلى باقي رجاله. وتحركوا جانبًا. فتح هو الباب الضخم بنفسه.

دخل هيرو ماتسو إلى غرفة الاستقبال الشاسعة. وعلى بُعد خطوات قليلة من المدخل، جثا على ركبتيه، ووضع سيوفه على الأرض أمامه، ووضع يديه منبسطتين على الأرض بجانبهما وأحنى رأسه منخفضًا، منتظرًا في تلك الوضعية الذليلة.

أشار ناجا -الذي كان دائم اليقظة- إلى بلاكتورن لفعل الشيء نفسه.

دخل بلاكتورن. كان طول الغرفة أربعين خطوة وارتفاعها ثلاثة أمتار، وحصير التاتامي من أفضل الأنواع، حيث يبلغ سُمكه أربع أصابع وكان خاليًا من أي عيوب. يوجد بابان في الجدار البعيد. وبالقرب من المنصة في مكان مخصص إناء صغير من الفخار يضم غصنًا واحدًا من زهور الكرز، وقد ملأ الغرفة باللون والعطر.

كلا البابين يخضع للحراسة. ويوجد على بُعد عشر خطوات من المنصة عشرون ساموراي آخرون جالسين بشكل دائري حولها، متربعين ويواجهون الخارج.

كان توراناغا يجلس على وسادة واحدة على المنصة. يرمم ريشة جناح مكسورة لصقر مقنع، وذلك بدقة لا تقل عن أي نحات عاج.

لم يلقِ هو ولا أي شخص في الغرفة أي تحية على هيرو ماتسو، ولم ينتبهوا إلى بلاكثورن وهو يدخل ويتوقف بجانب الرجل العجوز. لكن على عكس هيرو ماتسو، انحنى بلاكثورن كما علمه رودريجيز، ثم أخذ نفساً عميقاً وجلس متربعاً وحدق إلى توراناغا.

تحولت كل الأعين صوب بلاكثورن.

في المدخل، كانت يد ناغا على سيفه. وكان هيرو ماتسو قد أمسك سيفه بالفعل، رغم أن رأسه لا يزال منحنيًا.

شعر بلاكثورن أنه مكشوف تمامًا ولكنه قد التزم والآن لم يتبقَّ له سوى الانتظار. كان رودريجيز قد قال: «مع اليابانيين، عليك أن تتصرف كملك».

ورغم أن هذا لم يكن تصرفاً كالمُلوك، فإنه كان أكثر من كافٍ. رفع توراناغا رأسه ببطء.

شعر بلاكثورن بعرق يتدحرج من صدغه بينما بدا وكأن كل ما أخبره إياه رودريجيز عن الساموراي قد تجسّد في هذا الرجل وحده. شعر بعرق يتدفق على خده نزولاً إلى ذقنه. تحدى نفسه ليُبقي عينيه الزرقاوين ثابتتين ولا تطرفان، ووجهه هادئاً.

كانت نظرة توراناغا ثابتة بالقدر نفسه.

شعر بلاكثورن بقوة الرجل الهائلة تكاد تطغى عليه. أجبر نفسه على العد ببطء حتى الستة، ثم أحنى رأسه وانحنى قليلاً مرة أخرى وابتسم بابتسامة صغيرة هادئة.

راقبه توراناغا بإيجاز، وجهه ينم عن لا مبالاة. ثم نظر إلى أسفل وركز على عمله مرة أخرى. خف التوتر في الغرفة.

كان الصقر من نوع شاهين وكانت في أوج شبابها. المدرب -وهو ساموراي عجوز كثير التجاعيد- جثا أمام توراناغا وأمسكها وكأنها مصنوعة

من الزجاج. قص توراناها الريشة المكسورة، وغمس إبرة الخيزران الصغيرة بالغراء وأدخلها في عمود الريشة، ثم أدخل الريشة المقطوعة برفق فوق الطرف الآخر. ضبط الزاوية حتى أصبحت مثالية وربطها بخيط حريري. رنت الأجراس الصغيرة على قدميها، فخفف من خوفها.

كان يوشي توراناها، زعيم الكانتو -المقاطعات الثماني- رئيس عشيرة يوشي والقائد الأعلى لجيوش الشرق ورئيس مجلس الوصاية، رجلًا قصيرًا ببطن كبير وأنف كبير. كان حاجباه غليظين داكنين وشاربه ولحيته مشوبين باللون الرمادي وخفيفين. عيناه تسيطران على وجهه. كان يبلغ من العمر ثمانية وخمسين عامًا وكان قويًا بالنسبة لسنه. كان الكيمونو الخاص به بسيطًا، زياً بنياً عادياً، وحزامه من القطن. لكن سيوفه هي الأفضل في العالم. قال بحنان العاشق: «ها أنتِ يا جميلتي. أنتِ الآن كاملة مرة أخرى».

داعب الطائر بريشه بينما كانت تجلس مغطاة الرأس على قبضة المدرب المدرعة. ارتعشت ونظفت نفسها برضى: «سنطيرها في غضون أسبوع». انحنى المدرب وغادر.

حوّل توراناها عينيه إلى الرجلين عند الباب. وقال: «مرحبًا يا القبضة الحديدية، أنا سعيد لرؤيتك. إذن هذا هو الهمجي الشهير الخاص بك؟». - نعم يا زعيم.

اقترب هيرو ماتسو وكان على وشك ترك سيفه في مدخل الباب كما هي العادة لكن أصر توراناها على أن يحضره معه للداخل. - سأشعر بعدم الراحة إذا لم تكن سيوفك في يدك.

شكره هيرو ماتسو. ومع ذلك فقد جلس على بعد خمس خطوات. فوفقًا للعادة لا يمكن لأي شخص مسلح الاقتراب من توراناها بأمان. في الصف الأمامي من الحراس كان يقف أزواجي، زوج حفيده هيرو ماتسو المفضل، وأومأ له برأسه بإيجاز. انحنى الشاب بعمق، تشرقًا وسعادةً بملاحظته له. فكر هيرو ماتسو بسعادة: ربما يتعين عليّ تبنيه رسميًا، وقد دفأه التفكير بحفيدته المفضلة والابن الذي أنجباه له العام الماضي.

سأل توراناها باهتمام: «كيف حال ظهرك الآن؟».

- بخير، شكرًا لك يا زعيم. لكن يجب أن أخبرك أنني سعيد لخروجي من تلك السفينة وعودتي إلى اليابسة مرة أخرى.

- سمعت أن لديك لعبة جديدة هنا لتقضي معها وقت فراغك، أليس كذلك؟
قهقه الرجل العجوز: «كل ما يمكنني قوله يا زعيم، أن الوقت لم يكن فراغًا
على الإطلاق. لم أبذل هذا الجهد منذ سنوات».

ضحك تورانا جا معه: «إذن يجب أن نكافئها. صحتك مهمة بالنسبة لي.
هل يجب أن أرسل إليها هدية عربون شكر؟».

- أنت لطيف للغاية يا تورانا جا ساما. (أصبح هيرو ماتسو جادًا): يمكنك
أن تكافئنا جميعًا يا سيدي، بمغادرة هذا الوكر على الفور، والعودة إلى
قلعتك في إيدو حيث يمكن لحلفائك حمايتك. نحن هنا مكشوفون. في
أي لحظة يمكن لإيشيدو أن...

- سأفعل ذلك. حالما ينتهي اجتماع مجلس الوصاية.

استدار تورانا جا وأومأ للبرتغالي نحيل الوجه الذي كان يجلس بصبر في
ظله: «هل يمكنك أن تترجم لي الآن يا صديقي؟».

- بالتأكيد يا سيدي.

تقدم الكاهن حليق الرأس وانحنى برشاقة على الطريقة اليابانية بالقرب
من المنصة، جسمه نحيل مثل وجهه، وعيناه داكنتان وعميقتان، وتحيط به
هالة من التركيز الهادئ. يرتدي جوارب التابي وكيمونو فضفاضًا بدا وكأنه
ينتمي إليه تمامًا. على حزامه مسبحة و صليب ذهبي منحوت. حيًا هيرو
ماتسو وكأنه في المكانة نفسها، ثم ألقى نظرة لطيفة على بلاكثورن.

- اسمي مارتن ألفيتو من جمعية اليسوعيين يا ربان. طلب مني الزعيم
تورانا جا أن أترجم له.

- أخبره أولاً أننا أعداء وأن...

قاطعه الأب ألفيتو بسلاسة: «سيأتي الوقت المناسب، بإمكاننا التحدث
بالبرتغالية أو الإسبانية أو بالطبع باللاتينية، أيها تفضل؟».

لم يرَ بلاكثورن الكاهن حتى تقدم إلى الأمام. كانت المنصة تخفيه وكذلك
الساموراي الآخرين. لكنه كان يتوقعه، بعد أن حذره رودريجز، وكان يكره ما
رآه: الأناقة السليسة، وهالة القوة والسلطة الطبيعية التي يمتلكها اليسوعيون.
لقد افترض أن الكاهن سيكون أكبر سنًا بكثير، بالنظر إلى منصبه المؤثر
والطريقة التي تحدث بها رودريجز عنه. لكنهم كانوا تقريبًا في العمر نفسه،
هو واليسوعي. ربما كان الكاهن أكبر ببضع سنوات.

قال بجدية أملًا ببساطة أن يمنحه هذا ميزة طفيفة: «البرتغالية. هل أنت برتغالي؟».

- لدي هذا الامتياز.

- أنت أصغر مما توقعت.

- السيد رودريجيز لطيف للغاية. لقد منحني فضلًا أكثر مما أستحق. لقد وصفك بدقة. وكذلك شجاعتك.

رأى بلاكتورن الأب ألفيتو يستدير ويتحدث بطلاقة وبودية مع تورانا جا لبعض الوقت، وهذا أزعجه أكثر. كان هيرو ماتسو بالأخص من بين كل الرجال في الغرفة يستمع ويشاهد باهتمام. أما الباكون فحدقوا ببرود في الفضاء.

بدأ الأب ألفيتو يتحدث: «الآن سنبدأ يا كبير الربابنة. رجاء استمع إلى كل ما يقوله الزعيم تورانا جا دون مقاطعة، ثم أجب. ومن الآن فصاعدًا، سأترجم ما تقوله بتزامن تقريبًا، لذا يرجى الإجابة بحذر شديد».

- ما الفائدة؟ أنا لا أثق بك.

على الفور ترجم الأب ألفيتو ما قاله إلى تورانا جا، الذي تغير وجهه بشكل ملحوظ.

فكر بلاكتورن: احترس، إنه يلعب بك كسمكة. ثلاثة جنيهاات ذهبية مقابل فليس ممضوغ، بإمكانه السيطرة عليك متى أراد. يجب عليك أن تترك انطباعًا جيدًا على تورانا جا سواء ترجم بدقة أم لا. قد تكون هذه هي الفرصة الوحيدة التي ستتاح لك على الإطلاق.

كان صوت الكاهن لطيفًا ومتحكمًا كليًا: «يمكنك أن تثق بي لترجمة ما تقوله بالضبط بأفضل ما أستطيع. هذه هي قاعة الزعيم تورانا جا. أنا المترجم الرسمي لمجلس الوصاية وللقائد الزعيم تورانا جا وللقائد الزعيم إيشيدو. لقد منحني الزعيم تورانا جا ثقته سنواتٍ عديدة. أقترح أن تجيب بصدق لأنني أؤكد لك أنه رجل ذكي للغاية. كما يجب أن أشير إلى أنني لست الأب سيباستياو، الذي ربما يكون متحمسًا للغاية ولا يتحدث اليابانية بطلاقة للأسف، أو ليست لديه خبرة كبيرة في اليابان أيضًا. لقد سلب حضورك المفاجئ نعمة الرب منه، وبكل أسف سمح لماضيه الشخصي أن يغمره، عائلته وإخوته وأخواته قُتلوا بأبشع طريقة في هولندا من قبل قواتك... قوات أمير إمارة أورانج. أطلب منك العفو له وتعاطفك». ابتسم برضى: «الكلمة

اليابانية لـ«عدو» هي (teki). يمكنك استخدامها كما ترغب. إذا أشرت إليّ واستخدمت الكلمة، فإن الزعيم توراناغا سيفهم بوضوح ما تقصده. نعم، أنا عدوك يا كبير الربانة جون بلاكثورن. كلياً. لكنني لست قاتلك. هذا ستفعله بنفسك».

رآه بلاكثورن وهو يشرح لتوراناغا ما قاله وسمع كلمة (teki)، تُستخدم عدة مرات وتساءل عما إذا كانت تعني حقاً «عدو». قال لنفسه: بالطبع هي كذلك، هذا الرجل ليس مثل الآخر.

قال الأب ألفيتو: «رجاءً انس أنني موجود للحظة. أنا مجرد أداة لجعل إجاباتك مفهومة للزعيم توراناغا، تمامًا كما سأطرح أسئلته عليك». استقر الأب ألفيتو واستدار نحو توراناغا، وانحنى بأدب.

تحدث توراناغا باقتضاب. وشرع الكاهن بالترجمة في الوقت نفسه بعد بضع كلمات أو نحو ذلك، وكان صوته يعكس بدقة نبرة الكلام ودلالاته الخفية.

- لماذا أنت عدو لتسوكو سان، صديقي ومترجمي، الذي ليس عدوًا لأحد؟
أضاف الأب ألفيتو كتوضيح: «تسوكو سان هو لقبي لأن اليابانيين لا يمكنهم نطق اسمي أيضًا. ليس لديهم أصوات «ل» أو «ث» في لغتهم. تسوكو هي جناس على الكلمة اليابانية (تسوياكو)، تعني يترجم. أرجو أن تجيب عن السؤال».

- نحن أعداء لأن دولتين في حالة حرب.
- حقًا؟ ما هي دولتك؟
- إنجلترا.
- أين تقع هذه؟
- إنها مملكة جزيرة، تقع على بعد ألف وستمئة كيلومتر تقريبًا شمال البرتغال. البرتغال جزء من شبه جزيرة في أوروبا.
- كم مضى على عدائكم للبرتغال؟

- منذ أن أصبحت البرتغال دولة تابعة لإسبانيا. وكان ذلك في عام 1580، منذ عشرين عامًا. غزت إسبانيا البرتغال. نحن في الحقيقة في

حالة حرب مع إسبانيا. لقد كنا في حرب مع إسبانيا منذ ما يقرب من ثلاثين عامًا.

لاحظ بلاكتورن تفاجؤ توراناغا ونظراته الفاحصة للأب ألفيتو الذي كان يحدق بهدوء في الفضاء.

- قلت إن البرتغال جزء من إسبانيا؟

- نعم، يا زعيم توراناغا. دولة تابعة. غزت إسبانيا البرتغال والآن هما فعليًا الدولة نفسها يحكمهما الملك نفسه. لكنَّ البرتغاليين خاضعون لإسبانيا في معظم أنحاء العالم ويُعامل قاداتهم على أنهم عديمو الأهمية في الإمبراطورية الإسبانية.

ساد صمت طويل. ثم تحدث توراناغا مباشرة إلى اليسوعي الذي ابتسم وأجاب بإسهاب.

سأل بلاكتورن بحدة: «ماذا قال؟».

لم يجب الأب ألفيتو لكنه ترجم كما فعل من قبل، فورياً تقريباً، محاكياً نبرته الصوتية، واستمر في أداء ماهر للترجمة الفورية.

أجاب توراناغا بلاكتورن مباشرة، صوته قاسٍ وحاد: «ما قلته لا يعنيك بشيء. سأعلمك عندما أرغب في أن تعرف شيئاً».

- أنا آسف يا زعيم توراناغا، لم أقصد أن أكون وقحاً. هل لي أن أخبرك أننا أتينا في سلام...

- لا يمكنك أن تخبرني أي شيء في الوقت الحالي. ستمسك لسانك حتى أطلب منك الإجابة. هل تفهم؟

- نعم.

قال لنفسه: الخطأ الأول. احذر. لا يمكنك ارتكاب أخطاء.

- لماذا أنتم في حرب مع إسبانيا؟ والبرتغال؟

- جزئياً لأن إسبانيا عازمة على غزو العالم، ونحن الإنجليز وحلفاؤنا الهولنديون نرفض أن نُستعمر. وجزئياً بسبب دياناتنا.

- حقاً! حرب دينية؟ ما هو دينك؟

- أنا مسيحي. كنيسةنا...

- البرتغاليون والإسبان مسيحيون، لقد قلت إن دينك مختلف. ما هو دينك؟

- المسيحية. من الصعب شرح الأمر ببساطة وسرعة يا زعيم تورانا. كلاهما...

- لا داعي للسرعة يا سيد ربان، فقط كن دقيقًا. لدي متسع من الوقت. أنا صبور جدًا. أنت رجل مثقف -من الواضح أنك لست فلاحًا- لذا يمكنك أن تكون بسيطًا أو معقدًا كما تشاء، ما دمت واضحًا. إذا ابتعدت عن الموضوع فسأعيدك إليه. ماذا كنت تقول؟

- ديانتني المسيحية. توجد ديانتان مسيحيتان رئيسيتان، البروتستانتية والكاثوليكية. معظم الإنجليز هم من البروتستانت.

- تعبدون الإله نفسه، مريم والابن؟

- لا يا سيدي. ليس بالطريقة التي يتبعها الكاثوليك.

سأل بلاكتورن نفسه: ما الذي يريد معرفته؟ هل هو كاثوليكي؟ هل يجب أن تجيب عما تظن أنه يريد معرفته، أم ما تعتقد أنه الحقيقة؟ هل هو معادٍ للمسيحية؟ ألم ينادِ اليسوعي بـ«صديقي»؟ هل تورانا متعاطف مع الكاثوليك، أم أنه سيصبح كاثوليكيًا؟

- هل تؤمن بأن يسوع هو الرب؟

قال بحذر: «أنا مؤمن بالرب».

- لا تتجنب سؤالًا مباشرًا. هل تؤمن بأن يسوع هو الرب؟ نعم أو لا؟

أدرك بلاكتورن أنه في أي محكمة كاثوليكية بالعالم كان سيدان منذ زمن بعيد بتهمة الهرطقة. وينطبق الأمر نفسه على معظم المحاكم البروتستانتية، إن لم يكن كلها. حتى التردد في الإجابة عن مثل هذا السؤال يُعدُّ اعترافًا بالشك. والشك هرطقة: «لا يمكنك الإجابة عن أسئلة حول الرب بمجرد «نعم» أو «لا». يجب أن تكون هناك درجات من «نعم» أو «لا». لا توجد معرفة يقينية عن الرب حتى تموت. نعم، أؤمن بأن يسوع كان الرب، لكن لا، لن أعلم على وجه اليقين حتى أموت».

- لماذا حطمت صليب الكاهن عندما وصلت إلى اليابان مباشرة؟

لم يكن بلاكثورن يتوقع هذا السؤال. هل تورانا جا يعلم كل ما حدث منذ وصولي؟

- أنا... أردت أن أظهر للدائميو يابو أن اليسوعي الأب سيباستياو -المرجم الوحيد هناك- أنه عدوي، وأنه لا يمكن الوثوق به، على الأقل في رأيي. لأنني كنت متأكدًا من أنه لن يترجم بدقة بالضرورة، وليس كما يفعل الأب ألفيتو الآن. فعلى سبيل المثال لقد اتهمنا بأننا قراصنة. نحن لسنا قراصنة، لقد أتينا في سلام.

- نعم! القراصنة. سأطرق إلى مسألة القرصنة بعد لحظة. تقول إن طائفتيكما مسيحيان، وكتاهما تعبد المسيح عيسى؟ ألم يكن جوهر تعليمه هو أن «تحبوا بعضكم بعضًا»؟

- نعم.

- إذن كيف يمكن أن تكونوا أعداء؟

- إيمانهم... تفسيرهم للمسيحية هو تفسير خاطئ للكتاب المقدس.

- حسنًا، أخيرًا بدأنا نحرز تقدمًا. إذن أنتم في حالة حرب بسبب اختلاف في الرأي حول ما هو الرب أو ليس الرب؟

- نعم.

- هذا سبب غبي جدًا للدخول في حرب.

قال بلاكثورن: «أوافقك الرأي». نظر إلى الكاهن: «أوافقك من كل قلبي».

- كم سفينة في أسطولك؟

- خمس.

- وكنت أنت كبير الربابنة؟

- نعم.

- أين بقيتكم؟

قال بلاكثورن بحذر مع الاستمرار في كذبه، بافتراض أن ألفيتو قد حث تورانا جا على طرح أسئلة معينة: «في عرض البحر. لقد تفرقنا بفعل عاصفة وألقت بنا في أماكن متباعدة. لا أعلم بالضبط أين يا سيدي».

- كانت سفينتكم إنجليزية؟

- لا يا سيدي. هولندية. من هولندا.

- لماذا يترأس رجل إنجليزي سفناً هولندية؟

- هذا ليس بالأمر غير المعتاد يا سيدي. نحن حلفاء، يقود الربابنة البرتغاليون أحياناً السفن والأساطيل الإسبانية. أفهم أن الربابنة البرتغاليين يقودون بعض سفن المحيطات الخاصة بكم بموجب القانون.

- لا يوجد ربابنة هولنديون؟

- يوجد كثيرٌ يا سيدي. لكن الإنجليز أكثر خبرة لمثل هذه الرحلة الطويلة.

- ولكن لماذا أنت؟ لماذا أرادوا منك قيادة سفنهم؟

- على الأرجح لأن والدتي هولندية وأتحدث لغتهم بطلاقة ولديّ خبرة. لقد كنت سعيداً بهذه الفرصة.

- لماذا؟

- كانت هذه أول فرصة لي للإبحار في هذه المياه. لم تخطط أي من السفن الإنجليزية للوصول إلى هذا البعد. كانت هذه فرصة للإبحار حول العالم.

- أنت بنفسك أيها الربان، انضمت إلى الأسطول بسبب دينك ولمحاربة أعدائك إسبانيا والبرتغال؟

- أنا ربان في المقام الأول يا سيدي. لم يسبق لأحد من الإنجليز أو الهولنديين أن جاب هذه البحار من قبل. نحن في الأساس أسطول تجاري، رغم أن لدينا تصاريح خاصة لمهاجمة العدو في العالم الجديد. لقد جئنا إلى اليابان للتجارة.

- ما هي تلك التصاريح؟

- تراخيص قانونية صادرة من الملك -أو الحكومة- تمنح سلطة شن الحرب على العدو.

- وأعداؤك هنا. هل تخطط لقتالهم هنا؟

- لم نكن نعلم ما الذي يجب علينا توقعه عندما وصلنا إلى هنا يا سيدي. لقد جئنا هنا للتجارة فقط. بلدكم غير معروف تقريباً، إنه أسطورة. البرتغاليون والإسبان كتومون جداً بشأن هذه المنطقة.

- أجب عن السؤال: أعداؤك هنا. هل تخطط لقتالهم هنا؟

- إذا حاربوني. نعم.

تحرك تورانا جا بانزعاج: «ما تفعلونه في البحر أو في بلدانكم هو شأنكم الخاص. ولكن هنا يوجد قانون واحد للجميع والأجانب هم في أرضنا بإذن فقط. يُعامل مع أي شغب أو مشاجرة علنية على الفور بالإعدام. قوانيننا واضحة وسيُلتزم بها. هل تفهم؟».

- نعم يا سيدي. لكننا أتينا في سلام. جئنا إلى هنا للتجارة. هل يمكننا مناقشة التجارة يا سيدي؟ أحتاج إلى ترميم سفينتي وإجراء إصلاحات، يمكننا دفع ثمن كل شيء. ثم يوجد...

- سأخبرك عندما أرغب في مناقشة التجارة أو أي شيء آخر. ولكن في الوقت الحالي، يُرجى الاكتفاء بالإجابة عن الأسئلة. إذن انضمت إلى الرحلة التجارية من أجل الربح، وليس بسبب الواجب أو الولاء؟ من أجل المال؟

- نعم. هذه عادتنا يا سيدي. أن نحصل على أجر وأن نحصل على حصة من جميع الغنائم، من التجارة كلها وكل سلع العدو التي نستولي عليها. إذن فأنت مأجور؟

- لقد وُظفت ككبير ربابة لقيادة الحملة. نعم.

شعر بلاكتورن بضغينة تورانا جا لكنه لم يفهم السبب. ماذا قلت خطأ؟ ألم يقل الكاهن أنني سأقتل نفسي؟
قال مجددًا: «إنه تقليد معتاد لدينا يا تورانا جا ساما».

بدأ تورانا جا الحديث مع هيرو ماتسو وتبادلا وجهات النظر في اتفاق واضح. اعتقد بلاكتورن أنه يرى الاشتمزاز على وجهيهما. فكر: لماذا؟ من الواضح أن الأمر يتعلق بـ«مأجور». ما الخطب في ذلك؟ ألا يتقاضى الجميع أجرًا؟ كيف تكسب ما يكفي للعيش؟ حتى لو ورثت أرضًا، فلا يزال يتعين عليك...

كان تورانا جا يقول: «قلت سابقًا إنك أتيت إلى هنا للتجارة بسلام. لماذا إذن تحمل كل هذه البنادق والبارود والمدافع والرصاص؟».

- أعداؤنا الإسبان والبرتغاليون أقوىاء للغاية يا زعيم تورانا جا، يتعين علينا حماية أنفسنا و...

- هل تقول إن أسلحتكم دفاعية فقط؟
- لا. نستخدمها ليس فقط للدفاع عن أنفسنا ولكن أيضًا لمهاجمة أعدائنا. ومنتجها بوفرة للتجارة، إنها أفضل الأسلحة جودة في العالم. ربما يمكننا المتاجرة معكم فيها، أو في السلع الأخرى التي نحملها.
- من هو القرصان؟
- خارج عن القانون. رجل يغتصب أو يقتل أو ينهب لتحقيق مكاسب شخصية.
- أليس هذا هو نفسه المأجور؟ أليس هذا ما أنت عليه؟ قرصان وزعيم قراصنة؟
- لا. الحقيقة أن سفني لديها تراخيص من الحكام الشرعيين لهولندا تسمح لنا بنقل الحرب إلى جميع البحار والأماكن التي يسيطر عليها أعداؤنا حتى الآن. ولإيجاد أسواق لسلعنا. بالنسبة للإسبان -ومعظم البرتغاليين- نعم، نحن قراصنة وهراطقة دينيين، لكنني أكرر إن الحقيقة أننا لسنا كذلك.
- انتهى الأب ألفيتو من الترجمة، ثم بدأ يتحدث بهدوء ولكن بحزم مباشرة إلى تورانا.

فكر بلاكثورن ولعن: أتمنى لو أمكنني توجيه الكلام له بالطريقة نفسها. نظر تورانا إلى هيرو ماتسو، ووجه الرجل العجوز بعض الأسئلة إلى اليسوعي الذي أجاب بإسهاب. ثم عاد تورانا إلى بلاكثورن وأصبح صوته أكثر صرامة.
- تسوكو سان يقول إن هذه الأراضي المنخفضة -هولندا- كانت تابعة لملك إسبانيا حتى بضع سنوات مضت. هل هذا صحيح؟
- نعم.
- لذلك فإن هولندا -حلفاؤكم- في حالة تمرد ضد ملكهم الشرعي؟
- إنهم يقاتلون ضد الإسبان، نعم. لكن...
- أليس هذا تمردًا؟ نعم أم لا؟
- نعم. ولكن توجد ظروف مخففة للعقوبة. ظروف جدية...
- لا توجد «ظروف مخففة» عندما يتعلق الأمر بالتمرد ضد حاكم سيادي.

- إلا إذا انتصرت.

حذق إليه تورانا باهتمام. ثم ضحك بصخب. قال شيئاً لهيرو ماتسو خلال ضحكه وأوماً هيرو ماتسو برأسه.

- نعم يا سيد أجنبي ذو الاسم المستحيل، نعم. لقد قلت العامل المخفف الوحيد.

ضحك مجدداً، ثم اختفى الضحك فجأة كما بدأ: «هل ستفوز؟».

- نعم.

تحدث تورانا باهتمام لكن الكاهن لم يترجم على الفور. كان يبتسم بغرابة وعيناه مثبتتان على بلاكتورن. تنهد وقال: «هل أنت متأكد جداً؟».

- هل هذا ما قاله أم ما تقوله أنت؟

- قال الزعيم تورانا باهتمام. أنا... لقد قال ذلك.

- نعم. أخبره أنني متأكد جداً. هل يمكنني شرح السبب؟

تحدث الأب ألفيتو مع تورانا لفترة أطول بكثير مما يستغرقه ترجمة ذلك السؤال البسيط. أراد بلاكتورن أن يسأله: هل أنت هادئ كما تظهر؟ ما الذي سيجعلك تظهر مكنوناتك؟ كيف يمكنني تدميرك؟

تحدث تورانا وأخرج مروحة يدوية من جيبه.

بدأ الأب ألفيتو الترجمة مرة أخرى بنفس الود غير المألوف المشوب بسخرية: «نعم يا ربان، يمكنك أن تخبرني لماذا تعتقد أنك ستنتصر في هذه الحرب».

حاول بلاكتورن أن يظل متماسكاً، مدرّكاً أن الكاهن يسيطر عليه: «نحن نحكم البحار حالياً في أوروبا، معظم البحار في أوروبا».

قال مصححاً لنفسه: لا تنجرف. قل الحقيقة. حرفها قليلاً، تماماً كما يفعل اليسوعي بلا شك، لكن قل الحقيقة: «حططنا نحن الإنجليز أسطولين حربيين إسبانيين وبرتغاليين ضخمين - غزوات - ومن غير المرجح أن يتمكنوا من شن أي غزوات أخرى. جزيرتنا الصغيرة عبارة عن قلعة حصينة ونحن آمنون الآن. أسطولنا البحري يسيطر على البحر. سفننا أسرع وأكثر حداثة وأفضل تسليحاً. لم يهزم الإسبان الهولنديين بعد أكثر من خمسين عاماً من الإرهاب والمحاكم الدينية وإراقة الدماء. حلفاؤنا آمنون وأقوياء والأهم من ذلك إنهم

- يستنزفون الإمبراطورية الإسبانية حتى الموت. سننتصر لأننا نملك البحار ولأن الملك الإسباني بغطرسته الباطلة لن يترك شعباً أجنبياً حراً».
- أنت تملك البحار؟ بحارنا أيضاً؟ تلك التي تقع حول سواحلنا؟
 - لا، بالطبع لا يا تورانا جا ساما. لم أكن أقصد أن أبدو مغروراً. كنت أقصد بالطبع البحار الأوروبية، رغم أن...
 - جيد، أنا سعيد لأن هذا واضح. ماذا كنت تقول؟ رغم أن...؟
- قال بلاكتورن بوضوح: «رغم أننا سنطرد العدو قريباً من جميع أعالي البحار».
- قلت «العدو». ربما نحن أعداؤك أيضاً؟ ماذا بعد؟ هل ستحاول إغراق سفننا وتدمير شواطئنا؟
 - لا يمكنني تصور أن أكون عدواً لك.
 - أنا يمكنني التصور بكل سهولة. ماذا بعد؟
- قال بلاكتورن: «إذا أتيت ناحية بلادي سأهاجمك وأحاول التغلب عليك».
- وإذا أمرك ملكك بمهاجمتنا هنا؟
 - سأنصح بالعدول عن هذا القرار. إن ملكتي ستستمع. هي...
 - تحكمكم ملكة وليس ملكاً؟
 - نعم يا زعيم تورانا جا. إن ملكتي حكيمة. لن تفعل، لا تستطيع اتخاذ مثل هذا القرار غير الحكيم.
 - وماذا لو فعلت؟ أو إذا فعل حاكمكم الشرعي؟
 - عندها سأوصي بروحي إلى الرب لأنني سأموت بالتأكيد. بطريقة أو بأخرى.
 - بالطبع ستموت. أنت وكل جحافلِكَ. (توقف تورانا جا للحظة): كم استغرق وصولك إلى هنا؟
 - نحو عامين. وبالتحديد عام واحد وأحد عشر شهراً ويومين. بمسافة بحرية تقريبية تبلغ أربعة آلاف فرسخ، كلٌ منها نحو خمسة كيلومترات. ترجم الأب ألفيتو، ثم أضاف شرحاً موجزاً. طرح تورانا جا وهيرو ماتسو أسئلة على الكاهن، فأوماً وأجاب. لوح تورانا جا بمروحة يده مفكراً.

قال الكاهن بأدب: «لقد حولت الوقت والمسافة إلى وحدات القياس الخاص بهم يا كبير الربابنة بلاكتورن».

- شكرًا لك.

تحدث توراناغا مباشرة مجددًا: «كيف وصلت إلى هنا؟ بأي طريق؟».

- عن طريق ممر ماجلان. لو كانت خرائطي ودلائلي البحرية معي، لاستطعت أن أوضح لك الأمر جليًا، لكنها سُرقت، أخذت من سفينتي مع تصاريح تفويضي التجارية وجميع أوراقتي. إذا كنت ستست...

توقف بلاكتورن عندما تحدث توراناغا بفضاضة مع هيرو ماتسو الذي كان منزعًا بالقدر نفسه.

- تزعم أن جميع أوراقك أخذت... سُرقت؟

- نعم.

- هذا أمرٌ فظيع إن كان صحيحًا. نحن نكره السرقة في نيبون، اليابان. عقوبة السرقة هي الموت. سيُحقق في الأمر على الفور. يبدو من المستحيل أن يفعل أي ياباني مثل هذا الشيء، رغم وجود قطاع طرق وقراصنة فاسدين هنا وهناك.

قال بلاكتورن: «ربما وُضعوا في غير مكانهم. أو وُضعوا في مكان ما آمن. لكنها وثائق قيمة يا زعيم توراناغا. دون الدلائل البحرية الخاصة بي سأصبح كأعمى في متاهة. هل تريدني أن أشرح مساري؟».

- نعم، ولكن لاحقًا. أخبرني أولاً لماذا قطعت كل تلك المسافة.

ردد بلاكتورن متمسكًا بصبره: «لقد جئنا للتجارة، بسلام. للتجارة والعودة إلى الوطن مجددًا. لتصبح أكثر ثراءً ولنصبح أكثر ثراءً. ولنحاول...».

- لتصبح أكثر ثراءً ونصبح أكثر ثراءً؟ أيهما أهم؟

- يجب أن يستفيد كلا الشريكين بالطبع، ويجب أن تكون التجارة عادلة. نحن نسعى إلى تجارة طويلة الأجل، وسنقدم شروطًا أفضل مما تحصل عليها من البرتغاليين والإسبان ونقدم خدمة أفضل. تجارنا...

توقف بلاكتورن عند سماعه أصوات عالية خارج الغرفة. هرع هيرو ماتسو ونصف الحراس على الفور إلى المدخل وتحرك الآخرون في شكل كتلة

متراصة تحجب المنصة. استعد الساموراي الموجودون على الأبواب الداخلية أيضًا.

لم يتحرك توراناغا وخاطب الأب ألفيتو.

قال الأب ألفيتو بنبرة تنم عن الإلحاح الخفي: «تعال إلى هنا يا قبطان بلاكتورن بعيدًا عن الباب. إذا كنت تقدر حياتك، فلا تتحرك فجأة ولا تقل شيئًا».

تحرك ببطء نحو الباب الداخلي الأيسر وجلس بالقرب منه.

انحنى بلاكتورن بتوتر لتوراناجا الذي تجاهله، وسار بحذر نحو الكاهن، مدرّكًا تمامًا من وجهة نظره أن المقابلة كانت كارثية. همس وهو يجلس: «ماذا يجري؟».

اشتد توتر الحراس المجاورين بتهديد، وقال الكاهن شيئًا سريعًا لطمأنتهم. قال لبلاكتورن: «ستكون ميتًا في المرة التالية التي تفتح فيها فمك».

وفكر: كلما كان ذلك أسرع كان أفضل. أخرج منديلًا من كم قميصه ببطء محسوب ومسح العرق عن يديه. لقد تطلب الأمر كل تدريبه وثباته للبقاء هادئًا ولطيفًا خلال مقابلة الهرطوقي، التي كانت أسوأ حتى مما توقع هو والأب الزائر.

كان قد سأل الأب الزائر الليلة الماضية: «هل يجب أن توجد أنت أيضًا؟».

- لقد طلب مني توراناغا تحديدًا.

- أعتقد أنه أمر خطر للغاية بالنسبة لك ولنا جميعًا. ربما يمكنك التظاهر بالمرض. إذا كنت موجودًا هناك فسيتعين عليك ترجمة ما يقوله القرصان، ومن خلال ما قاله الأب سيباستياو، فهو شيطان على الأرض وماكر كاليهود.

- من الأفضل أن أوجد هناك يا صاحب النياقة. على الأقل سأكون قادرًا على كشف أكاذيب بلاكتورن الأقل وضوحًا.

- لماذا أتى إلى هنا؟ لماذا الآن، عندما بدأ كل شيء يعود إلى مجراه الطبيعي؟ هل لديهم حقًا سفن أخرى في المحيط الهادئ؟ هل من الممكن أنهم أرسلوا أسطولًا ضد مانيلا الإسبانية؟ ليس وكأنني أهتم قيد أنملة بتلك المدينة الموبوءة أو أي من المستعمرات الإسبانية في

الفلبين، ولكن أسطول عدو في المحيط الهادئ! سيكون لذلك تداعيات وخيمة علينا هنا في آسيا. وإذا تمكن من كسب ثقة تورانا جا أو إيشيدو أو أي من الدايميو الأكثر قوة... حسنًا، سيصبح الأمر غاية في الصعوبة على أقل تقدير.

- إن بلاكثورن حقيقة واقعة. لحسن الحظ نحن في موقع يسمح لنا بالتعامل معه.

- لولا توجيه الرب، لو لم أكن أعرف الحقيقة، لشككت أن الإسبان -أو على الأرجح أتباعهم المخدوعين، الفرنسيين والبنديكتين- قادوه إلى هنا عمدًا لإزعاجنا.

- ربما فعلوا ذلك يا صاحب النيافة. لا يوجد شيء لا يفعله الرهبان لتدميرنا. لكن هذا مجرد غيرة لأننا ننجح حيث يفشلون. بالتأكيد سيُرِيهم الرب خطأ طُرُقهم! ربما يتخلص الإنجليزي من نفسه قبل أن يلحق أي ضرر. إن دلائله البحرية تكشف حقيقته، قرصان وزعيم قراصنة.

- اقرأهم لتورانا جا يا مارتن. اقرأ الأجزاء التي يصف فيها نهب المستوطنات العزل من إفريقيا إلى تشيلي، وقوائم الغنائم وجميع عمليات القتل.

- ربما يجب أن ننتظر يا صاحب النيافة. بإمكاننا دائمًا إحضار دلائله البحرية. لعله يفضح نفسه دونها.

مسح الأب ألفتيتو راحة يديه مجددًا. يمكنه الشعور بنظرات بلاكثورن عليه. فكر: فليرحمك الرب. لما قلته اليوم لتورانا جا، لا تساوي حياتك قرشًا مُرَوَّرًا، والأسوأ من ذلك، أن روحك لن تُغْفَر لها. أنت مُصلَّب حتى دون الأدلة الموجودة في دلائلك البحرية. هل يجب أن نعيدها إلى الأب سيباستياو حتى يعيدها إلى مورا؟ ماذا سيفعل تورانا جا لو لم تُكتشف الأوراق أبدًا؟ لا، سيكون ذلك خطرًا جدًّا على مورا.

انفتح الباب في الطرف الآخر بخفة.

أعلن ناجا: «إن الزعيم إيشيدو يريد مقابلتك يا سيدي. إنه... إنه هنا في الممر ويريد مقابلتك. على الفور، كما يقول».

أمر تورانا جا رجاله: «عودوا جميعًا إلى أماكنكم».

نُفِذَتْ أوامره على الفور. لكن جلسوا كل الساموراي مواجهين الباب، على رأسهم هيرو ماتسو، وسيوفهم مُغمدة في أغمدها: «ناجا سان، أخبر الزعيم إيشيدو أنه مرحب به دائمًا. اطلب منه الدخول».

دخل الرجل الطويل الغرفة بخطوات واسعة. تبعه عشرة من الساموراي التابعين له -الرماديون- لكنهم وقفوا عند مدخل الغرفة وجلسوا القرفصاء بناءً على إشارته.

انحنى توراناغا باحترام دقيق، ورد إيشيدو التحية بالدقة نفسها.

شعر الأب ألفيتو بالامتنان لحسن حظه لوجوده هناك. سيؤثر الصدام الوشيك بين الزعيمين المتنافسين بشكل كبير على مسيرة الإمبراطورية ومستقبل الكنيسة الأم في اليابان، لذا فإن أي مؤشر أو معلومة مباشرة يمكن أن تساعد اليسوعيين على تحديد المجموعة التي يجب أن يدعموها ستكون ذات أهمية بالغة. كان إيشيدو بوذيًا من طائفة زن ومتعصبًا معاديًا للمسيحية. أما توراناغا، فهو أيضًا بوذي من طائفة زن لكنه متعاطف علانية مع المسيحية. لكن معظم الدايميو المسيحيين دعموا إيشيدو، خوفًا -وكان الخوف مبررًا، كما يعتقد الأب ألفيتو- من صعود توراناغا. شعر الدايميو المسيحيون أنه إذا نجح توراناغا في إقصاء نفوذ إيشيدو من مجلس الوصاية، فإنه سيستولي على كل السلطة لنفسه. وفور وصوله إلى السلطة، يعتقدون أنه سيطبق مراسيم الطرد الخاصة بالتايكو وسيقضي على الإيمان الحقيقي. ومع ذلك، في حال إقصاء توراناغا، سيضمن ذلك خلافة ضعيفة وازدهار الكنيسة الأم.

ومع تقلب تحالف الدايميو المسيحيين، كان الأمر كذلك مع جميع الدايميو الآخرين في البلاد، وكان توازن القوى بين الزعيمين يتذبذب باستمرار، لذلك لم يكن أحد يعلم على وجه اليقين أي جانب الأقوى في الواقع. حتى هو -الأب ألفيتو- أكثر الأوروبيين معرفة بالإمبراطورية، لم يستطع الجزم أي جانب سيؤيد الدايميو المسيحيون فعليًا عندما يصبح الصدام علنيًا، أو أي فصيل سينتصر.

راقب الأب ألفيتو توراناغا وهو ينزل عن المنصة، ويتجاوز الحلقة الواقية التي شكلها رجاله.

أشار توراناغا إلى الوسادة الوحيدة على المنصة: «مرحبًا بك يا زعيم إيشيدو. تفضل بالجلوس هناك. أود أن تكون مرتاحًا».

- شكرًا لك، لكن لا يا زعيم تورانا جا.

كان إيشيدو كازوناري نحيفًا وداكن البشرة وقويًا جدًا، وكان يصغر تورانا جا بعام. كانا عدوين قديمين. ثمانون ألف ساموراي داخل قلعة أوساكا وخارجها ينفذون أوامره، فهو قائد الحامية -وبالتالي قائد حرس الوريث- والقائد العام لجيوش الغرب، وغازي كوريا، وعضو مجلس الوصاية، والمفتش العام رسميًا لجميع جيوش التايكو الراحل، والتي كانت قانونيًا جيوش جميع الدايملو في جميع أنحاء المملكة.

ردد كلامه: «لا شكر. سأشعر بالخجل إن ارتحت وأنت لا ترتاح، أليس كذلك؟ سأخذ وسادتك يومًا ما، ولكن ليس اليوم».

سرت موجة غضب بين البنين بسبب التهديد الذي ضمنه إيشيدو في كلامه، لكن تورانا جا رد بلباقة: «لقد حضرت في الوقت المناسب تمامًا. كنت على وشك الانتهاء من استجواب الهمجي الجديد. رجاء أخبره أن يقف يا تسوكو سان».

فعل الكاهن ما أمر به. لقد شعر بعداء إيشيدو الشديد من الجانب الآخر من الغرفة. بالإضافة إلى معاداته للمسيحية، لطالما كان إيشيدو قويًا في إدانته لجميع الأوروبيين وأراد إغلاق الإمبراطورية عليهم تمامًا.

نظر إيشيدو إلى بلاكثورن باشمئزاز واضح: «سمعت أنه قبيح، لكنني لم أكن أدرك مدى قبحه. تقول الإشاعات إنه قرصان. هل هذا صحيح؟».

- هل هناك شك في ذلك؟ إنه أيضًا كاذب.

- إذن، قبل أن تصلبه، اسمح لي أن أخذه لنصف يوم. قد يتسلى الوريث برؤيته وهو حي. (ضحك إيشيدو بوقاحة): أو ربما يجب تعليمه الرقص كالذب، ثم يمكنك عرضه في جميع أنحاء الإمبراطورية وتسميته: «غريب الأطوار الشرقي».

رغم أن ذلك كان صحيحًا كون بلاكثورن جاء فعليًا من البحار الشرقية -على عكس البرتغاليين الذين كانوا دائمًا يأتون من الجنوب ومن ثم يُطلق عليهم اسم الهمج الجنوبيين- فإن إيشيدو كان يلمح بوضوح إلى أن تورانا جا -الذي يسيطر على المقاطعات الشرقية- هو غريب الأطوار الحقيقي.

لكن تورانا جا اكتفى بالابتسام كما لو أنه لم يفهم وقال: «أنت رجل ظريف جدًا يا زعيم إيشيدو، ولكنني أتفق على أنه كلما أسرعنا في التخلص من

الهمجي كان ذلك أفضل. إنه ثرثار مغرور ويتحدث بصخب، غريب أطوار بالفعل، ولكن بلا قيمة تذكر، وبلا أخلاق على الإطلاق. أرسل بعض الرجال وضعه مع المجرمين العاديين يا ناجا سان. وأخبره أن يتبعهم يا تسوكو سان».

- عليك أن تتبع هؤلاء الرجال يا كبير الربابنة.

- إلى أين أنا ذاهب؟

تردد الأب ألفيتو. لقد كان سعيدًا لأنه انتصر، لكن خصمه كان شجاعًا ولديه روح خالدة يمكن إنقاذها. قال: «سُتحتجز».

- لكم من الوقت؟

- لا أعلم يا بني. إلى أن يقرر الزعيم توراناغا.



الفصل الثاني عشر

صرف تورانا جا تفكيره بأسف عن المقابلة المباغثة بينما يتابع الهمجي وهو يغادر الغرفة، وشرع في التعامل مع مشكلة إيشيدو الأكثر إلحاحًا.

قرر تورانا جا عدم طرد الكاهن مدرِّكًا أن ذلك سيؤجج غضب إيشيدو، رغم أنه كان متأكدًا بالقدر نفسه من أن بقاء الكاهن قد يكون خطرًا. كلما قلَّ علم الأجانب كان ذلك أفضل. فكر: كلما قلَّ علم أي شخص كان ذلك أفضل. هل سيكون تأثير تسوكو سان على الداييميو المسيحيين لصالحهم أم ضدي؟ حتى هذا اليوم كنت أثق به تمام الثقة. لكن كانت هناك بعض اللحظات الغريبة له مع الهمجي التي لم أفهمها بعد.

تعتمد إيشيدو عدم اتباع المجاملات المعتادة وتوجه مباشرة إلى صلب الموضوع: «يجب أن أسأل مجددًا، ما هو ردك على مجلس الوصاية؟».

- سأكرر مجددًا: لا أرى ضرورة لأي رد بصفتي رئيس مجلس الوصاية. لقد عقدت بعض العلاقات العائلية البسيطة التي لا أهمية لها. لا حاجة إلى أي رد.

- خطبت ابنتك ناجا سان لابنة الزعيم ماساموني. وزوجت إحدى حفيداتك بابن الزعيم زاتاكي ووريثه. وأخرى بحفيد الزعيم كياما. كل الزيجات مع زعماء إقطاعيين أو أقاربهم المقربين وبالتالي ليست بسيطة وتتناقض تمامًا مع أوامر سيدنا.

- توفي سيدنا الراحل التايكو منذ عام. لسوء الحظ. ونعم، أنا حزين على وفاة صهري وكنت أفضل أن يكون على قيد الحياة ليوصل توجيه مصير الإمبراطورية.

أضاف تورانا جا بسرور وهو يحرك سكينًا في جرح غائر: «لو كان صهري على قيد الحياة، فلا شك أنه سيوافق على هذه العلاقات العائلية. كانت تعليماته تنطبق على الزيجات التي تهدد خلافة عائلته. أنا لا أهدد عائلته أو

ابن أخي يايمون، الوريث. أنا راضٍ بلقب زعيم الكانتو. لا أسعى إلى امتلاك مزيدٍ من الأراضي. أنا في سلام مع جيرانى وأتمنى أن يستمر سلامه. وبناءً على تعليمات بوذا، لن أكون أول من يخرق السلام».

لسته قرون، كانت المملكة تلظى بنيران حروب أهلية لا تنطفئ. قبل خمسة وثلاثين عامًا، استولى دايميو صغير يدعى جورودا على كيوتو بتحريض رئيسي من توراناغا. وعلى مدار العقدين التاليين، أخضع هذا المحارب نصف اليابان ببراعة وأقام جبلًا من الجماجم وأعلن نفسه طاغية. رغم أنه لم يكن قويًا بما يكفي بعد لتقديم التماس إلى الإمبراطور الحاكم لمنحه لقب شوجن، رغم أنه بالكاد ينحدر من فرع من فوجيموتو. بعد ذلك، وقبل ستة عشر عامًا أُغتيل جورودا على يد أحد قادته، وسقطت سلطته في أيدي أقرب تابع له وألمع قادته، الفلاح ناكامورا.

في غضون أربع سنوات فقط، قضى القائد ناكامورا بمساعدة توراناغا وإيشيدو وآخرين على نسل جورودا وأخضع كامل اليابان تحت سيطرته المطلقة والوحيدة، وهي المرة الأولى في التاريخ التي يُخضع فيها رجل واحد المملكة بأكملها. فخورًا بالنصر اتجه ناكامورا إلى كيوتو ليحني رأسه أمام جو نيجو -ابن السماء-. ولكن هناك بسبب مولده كفلاح، اضطر ناكامورا إلى قبول اللقب الأقل شأنًا، وهو كوامباكو، كبير المستشارين، والذي تخلى عنه لاحقًا لصالح ابنه، وحصل لنفسه على لقب تايكو. لكن كل دايميو كان ينحني أمامه، حتى توراناغا. ساد السلام الكامل بغربة لمدة اثني عشر عامًا. وفي العام الماضي توفي التايكو.

قال توراناغا مجددًا: «بناءً على تعليمات بوذا، لن أكون أول من يخرق السلام».

- ولكن هل ستخوض الحرب؟

- الرجل الحكيم يستعد للخيانة، أليس كذلك؟ يوجد أشخاص سيئون في كل مقاطعة. وبعضهم في مناصب عليا. كلانا يدرك مدى الخيانة اللامتناهية في قلوب الرجال. (تصلب جسد توراناغا): حيث خلف التايكو إرثًا من الوحدة، نحن الآن منقسمون، أنا في الشرق وأنت في الغرب. مجلس الوصاية منقسم. وجميع الدايميو على خلاف. لا يستطيع المجلس إدارة قرية صغيرة تعج بالديدان، فما بالك بإمبراطورية. كلما

أسرع ابن التايكو في البلوغ، كان ذلك أفضل. كلما أسرعنا في إشغال منصب الكوامباكو، كان ذلك أفضل.

قال إيشيدو بتلميح: «أو ربما منصب الشُوجَن؟».

قال توراناغا: «كوامباكو أو شُوجَن أو تايكو، السلطة هي نفسها، ما القيمة الحقيقية للقب؟ السلطة هي الشيء الوحيد المهم. لم يصبح جورودا شُوجَن قط. كان ناكامورا راضيًا تمامًا ككوانباكو ولاحقًا كتايكو. لقد حكم، وهذا هو المهم. ما الذي يهم في أن صهري كان في السابق فلاحًا؟ وبماذا يهم أن عائلتي عريقة؟ وماذا يهم أنك من نسل متواضع؟ أنت قائد وزعيم مخلص، وحتى عضو في مجلس الوصاية».

فكر إيشيدو: بل هذا يهم كثيرًا. أنت تدرك ذلك، وأنا أدرك ذلك. وكل دايميو يدرك ذلك. حتى التايكو كان يدرك ذلك: «يايمون في السابعة. سيصبح كوامباكو بعد سبع سنوات. إلى ذلك الحين...».

- بعد ثماني سنوات يا قائد إيشيدو. هذا هو قانوننا التاريخي. عندما يبلغ ابن أخي الخامسة عشرة سيصبح راشدًا ويرث الحكم. إلى ذلك الحين سنحكم نحن الخمسة الأوصياء باسمه. هذه هي وصية سيدنا الراحل.

- نعم. كما أمر أيضًا بعدم أخذ رهائن من قبل الأوصياء ضد بعضهم بعضًا. إن السيدة أوتشيبا والدة الوريث محتجزة في قلعتك في إيدو مقابل سلامتك هنا، وهذا أيضًا ينتهك وصيته. لقد وافقت رسميًا على طاعة عهوده كما فعل جميع الأوصياء. حتى إنك وقَّعت الوثيقة بدمك.

تنهد توراناغا: «السيدة أوتشيبا تزور إيدو حيث ستوشك أختها الوحيدة على الولادة. أختها متزوجة بابني ووريثي. مكان ابني في إيدو بينما أنا هنا. ما الذي أكثر طبيعية من أن تزور أخت أختها في مثل هذا الوقت؟ أليست تُعامل باحترام؟ ربما سأرزق بأول حفيد ذكر لي، أليس كذلك؟».

- والدة الوريث هي أهم سيدة في الإمبراطورية. لا ينبغي أن تكون بين... (كان إيشيدو على وشك أن يقول): أيادي الأعداء. (لكنه تراجع عن ذلك وقال): في مدينة غير مألوفة.

صمت قليلًا ثم أضاف بوضوح: «المجلس يطلب منك أن تأمر بعودتها

اليوم».

تفادى توراناها الفخ: «أكرر إن السيدة أوتشيبا ليست رهينة، وبالتالي فهي ليست تحت أوامري ولم تكن كذلك قط».

- إذن، دعني أصغ الأمر بطريقة أخرى. يطلب المجلس حضورها في أوساكا على الفور.

- من يطلب هذا؟

- أنا أطلب. الزعيم سوجياما. الزعيم أونوشي والزعيم كياما. علاوة على ذلك فقد اتفقنا جميعاً على أن ننتظر هنا حتى تعود إلى أوساكا. ها هي توقيعاتهم.

كان توراناها غاضباً للغاية. حتى الآن كان يتلاعب بالمجلس بحيث يكون التصويت دائماً منقسماً اثنين ضد ثلاثة. لم يتمكن قط من الفوز بأربعة أصوات مقابل صوت واحد ضد إيشيدو، لكن إيشيدو لم يفز ضده أيضاً. الأربعة ضد واحد تعني العزلة والكوارث. لماذا انشق أونوشي؟ وكذلك كياما؟ كلاهما عدو لدود حتى قبل اعتناقهما الدين الأجنبي. وماذا يملكه إيشيدو عليهما الآن؟

أدرك إيشيدو أنه حطم عدوه. لكن تبقت خطوة واحدة لاستكمال الانتصار. لذلك نفذ الخطة التي اتفق عليها هو وأونوشي: «اتفقنا نحن الأوصياء جميعاً على أن الوقت قد حان للانتهاء من أولئك الذين يخططون للاستيلاء على سلطة سيدي وقتل الوريث. سيدان الخونة. سيُعرضون في الشوارع كأبي مجرمين مع جميع ذرياتهم، ثم سيُعدمون كأبي مجرمين مع ذرياتهم. لن يهم سواء كانوا فوجيموتو أو تاكاشيما، من نسل متواضع أو من نسل رفيع. حتى مينووارا».

صدرت صرخة غضب من كل ساموراي تابع لتوراناها، لأن مثل هذا التعدي على العائلات شبه الملكية كان أمراً لا يمكن تصوره. ثم نهض الساموراي الشاب أوساجي -زوج حفيدة هירו ماتسو- وقد احمر وجهه غضباً. استل سيفه القاتل وانقض على إيشيدو، والنصل العاري مهياً للضربة ذات اليدين. كان إيشيدو مستعداً لضربة الموت ولم يتخذ أي إجراء للدفاع عن نفسه. هذا ما كان يخطط له، ويتمنى حدوثه، وأمر رجاله بعدم التدخل حتى يموت. إذا قُتل إيشيدو هنا الآن على يد ساموراي تابع لتوراناها، فإن حامية أوساكا بأكملها يمكن أن تهاجم توراناها شرعياً وتقتله، بغض النظر عن الرهينة.

عندها سيقضى على السيدة أوتشيبا رداً على ذلك من قبل أبناء تورانا،
وسيضطر الأوصياء الباقون إلى التحرك معاً ضد عشيرة يوشي، التي سيقضى
عليها الآن بسبب عزلتها. عندها فقط سيضمن خلافة الوريث، ويكون إيشيدو
قد أدى واجبه تجاه التايكو.

لكنه لم يتلقَ الضربة. استعاد أوساجي صوابه في اللحظة الأخيرة وأعاد
السيف إلى غمده مرتجفاً.

قال وهو يجثو بخشوع: «عفوك يا زعيم تورانا، لم أحتمل عار
سماعك... لمثل هذه... هذه الإهانات. أطلب الإذن... أعذر و... أطلب الإذن
لإجراء السيوكو على الفور لأنني لا أستطيع العيش مع هذا العار».

رغم أن تورانا ظل ساكناً، فإنه كان مستعداً لصد الضربة، وكان يعلم
أن هيرو ماتسو كان على أهبة الاستعداد، وأن آخرين كانوا سيكونون كذلك
أيضاً، وأنه ربما لم يكن إيشيدو سيُصاب سوى بجروح. كما أنه فهم سبب
لجوء إيشيدو إلى كل هذه الإهانات والاستفزازات. تعهد تورانا بصمت:
سأرد لك الصاع صاعين يا إيشيدو.

حوّل تورانا انتباهه إلى الشاب الجاثي: «كيف تجرؤ على أن تلمح
بأن أي شيء قاله الزعيم إيشيدو كان يُقصد به بأي حال من الأحوال إهانة
لي. بالطبع لن يكون بتلك الوقاحة أبداً. كيف تجرؤ على استراق السمع إلى
محادثات لا تخصك. لا، لن يُسمح لك بالسيوكو. هذا شرف. وأنت ليس لديك
شرف ولا ضبط للنفس. ستُصلب مثل أي مجرم اليوم. وستُكسر سيوفك
وتُدفن في قرية الإيتا. وسيدفن ابنك في قرية الإيتا. سيوضع رأسك على
وتد لكي يسخر منه جميع السكان مع لافتة مكتوب عليها: هذا الرجل وُلد
ساموراي عن طريق الخطأ. لم يعد لاسمه أي وجود».

بذل أوساجي مجهوداً جباراً للسيطرة على أنفاسه لكن العرق كان يتصبب
والعار من كل هذا يعذبه. انحنى أمام تورانا متقبلاً مصيره بهدوء ظاهر.

تقدم هيرو ماتسو إلى الأمام وانتزع السيفين من حزام زوج حفيده.

قال بجدية: «هل يمكنك السماح لي أن أتولى أنا شخصياً تنفيذ أوامرك يا
زعيم تورانا».

أوماً تورانا برأسه.

انحنى الشاب للمرة الأخيرة ثم شرع بالنهوض، لكن هيرو ماتسو دفعه على الأرض. وقال: «الساموراي هم فقط من يمشون، وكذلك الرجال. لكنك لا تنتمي لأي منهما. ستزحف إلى موتك».

أطاع أوساجي بصمت.

وشعر الجميع في الغرفة بالدفء الناجم عن قوة ضبط نفس الشاب الآن، ومقدار شجاعته. أخبروا أنفسهم بارتياح: سيولد من جديد كساموراي.

الفصل الثالث عشر

لم يستطع توراناغا النوم تلك الليلة. وكان هذا أمرًا نادرًا بالنسبة له، لأنه عادةً ما يؤجل أكثر المشكلات إلحاحًا إلى اليوم التالي، مدركًا بأنه إذا كان على قيد الحياة في الغد، فإنه سيحلها على أكمل وجه. لقد اكتشف منذ زمن بعيد أن النوم الهادئ قد يأتيه بحل معظم الألغاز، وإذا لم يفعل، فما الأهمية الحقيقية لذلك؟ أليست الحياة مجرد قطرة ندى داخل أخرى؟

ولكن في تلك الليلة، هناك الكثير من الأسئلة المحيرة التي تشغل تفكيره.

ماذا سأفعل بشأن إيشيدو؟

لماذا انشقق أونوشي إلى العدو؟

كيف سأتعامل مع المجلس؟

هل تدخل الكهنة المسيحيون مجددًا؟

من أين ستأتي محاولة الاغتيال التالية؟

متى يجب التخلص من يابو؟

وماذا يجب أن أفعل بخصوص الهمجي؟

هل كان صادقًا في كلامه؟

ظهور الهمجي القادم من البحار الشرقية في هذا الوقت بالذات أمر يثير الدهشة. هل هو نذير شؤم؟ أم أنها الكارما أن يكون الشرارة التي ستشعل برميل البارود؟

إن الكارما هي كلمة هندية اقتبسها اليابانيون، وهي جزء من الفلسفة البوذية التي تشير إلى مصير الإنسان في هذه الحياة، مصيره ثابت لا يتغير بسبب أفعال ارتكبت في حياة سابقة، فالأعمال الصالحة تمنحه مكانة أرقى، والأعمال السيئة على العكس. وكما أن أفعال هذه الحياة ستؤثر بشكل كامل على حياته القادمة، فإن الإنسان يستمر في التناسخ في هذا العالم المليء

بالدموع، حتى يتحمل ويعاني ويتعلم عبر حيوات عديدة إلى أن يبلغ الكمال في نهاية المطاف، ويصل إلى النيرفانا، مكان السلام التام، فلا يعود يعاني آلام إعادة إحيائه مجددًا.

كم كان غريبًا أن يأتي أنجين سان إلى إقطاع يابو بفعل بوذا أو إله آخر، أو ربما مجرد الكارما. وكم كان غريبًا أن يرسو في القرية نفسها التي استقر فيها مورا -الرئيس السري لنظام تجسس إيزو- منذ سنوات عديدة تحت أنوف التايكو ووالد يابو اللعين. كم كان غريبًا أن يوجد تسوكو سان هنا في أوساكا للترجمة وليس في ناجازاكي حيث يكون عادةً. وكذلك رئيس الكهنة المسيحيين هنا في أوساكا إلى جانب القبطان العام للبرتغاليين. كم كان غريبًا أن يكون القبطان رودريجز متاحًا أيضًا لإيصال هירו ماتسو إلى أنجيرو في الوقت المناسب للقبض على الهمجي حيًا والاستيلاء على المدافع. ثم يوجد كاسيجي أومي، ابن الرجل الذي سيقدم لي رأس يابو إذا حركت إصبعي الصغيرة فقط.

كم هي الحياة جميلة وحزينة في آن واحد! كم هي عابرة، بلا ماضٍ ولا مستقبل، مجرد حاضر لا نهاية له.

تنهد توراناغا. يوجد شيء واحد مؤكد: لن يغادر الأجنبي أبدًا. لا حيًا ولا ميتًا. لقد أصبح جزءًا من المملكة إلى الأبد.

سمعت أذناه صوت خطوات تقترب بالكاد وكان سيفه مسلولًا. كل ليلة يغير غرفة نومه وحراسه وكلمة السر بعشوائية، تحسبًا للقتلة الذين كانوا يتربصون به دائمًا. توقفت الخطوات خارج الباب. ثم سمع صوت هירו ماتسو وبداية كلمة السر: «إذا كان الحق واضحًا بالفعل، فما فائدة التأمل؟».

قال توراناغا: «وإذا كان الحق مخفيًا؟».

أجاب هירו ماتسو: «فهو واضح بالفعل».

كان الاقتباس من تعاليم ساراها، معلم التنترا البوذي القديم.

- تفضل بالدخول.

وفقط عندما تأكد توراناغا أنه مستشاره بالفعل، استرخت قبضته على سيفه: «اجلس».

- سمعت أنك لا تنام. ظننت أنك قد تحتاج إلى شيء ما.

لاحظ تورانا جا تعمق التجاعيد حول عيني الرجل العجوز. وأردف قائلاً:
«لا، شكرًا لك. أنا سعيد بوجودك هنا يا صديقي القديم».

- هل أنت متأكد أنك بخير؟

- نعم.

- إذن سأغادر. آسف على إزعاجك يا زعيم.

- لا، رجاءً ادخل، أنا سعيد لأنك هنا. اجلس.

جلس الرجل العجوز بجانب الباب، وظهره مستقيمًا: «لقد ضاعفت عدد الحراس».

- جيد.

بعد فترة، قال هيرو ماتسو: «بالنسبة لذلك المجنون، نُفذ كل شيء كما أمرت. كل شيء».

- شكرًا لك.

- زوجته... حالما سمعت بالحكم، طلبتُ حفيدتي الإذن بقتل نفسها،
لمرافقة زوجها وابنها إلى العدم العظيم. رفضتُ وأمرتها بالانتظار،
بانتظار موافقتك.

كان هيرو ماتسو ينزف من الداخل. يا لها من حياة مريعة!

- لقد فعلت الشيء الصحيح.

- أنا أطلب رسميًا الإذن بإنهاء حياتي. ما فعله جعلك في خطر مميت،
لكن كان ذلك خطئي. كان ينبغي أن أكتشف عيوبه. لقد خذلتك.

- لا يجوز لك أن تُجري السي بوكو.

- رجاءً. أنا أطلب رسميًا الإذن.

- لا. أنت مطلوب حيًا.

- سأطيعك. لكن رجاءً تقبل اعتذاري.

- اعتذارك مقبول.

بعد فترة، قال تورانا جا: «ماذا عن الهمجي؟».

- أشياء كثيرة يا سيدي. أولًا: لو لم تكن تنتظر الهمجي اليوم، لكنت
تصطاد بالصقور منذ ضوء النهار الأول، ولم يكن ليورطك إيشيدو أبدًا

في مثل هذا الاجتماع المقزز. ليس أمامك خيار الآن سوى إعلان الحرب عليه، إذا استطعت الخروج من هذه القلعة والعودة إلى إيدو.

- وثانيًا؟

- وثالثًا والثالث والأربعون والمئة والثالث والأربعون؟ أنا لست ذكيًا بقدرك يا زعيم تورانا، ولكن حتى أنا أستطيع رؤية أن كل ما خُدعنا به من قبل الهمج الجنوبيين ليس صحيحًا.

كان هيرو ماتسو شاكراً للحديث. فقد ساعده على تخفيف الألم: «ولكن إذا كان يوجد دينان مسيحيان يكرهان بعضهما بعضًا، وإذا كان البرتغاليون جزءًا من الأمة الإسبانية الأكبر، وإذا كانت دولة هذا الهمجي الجديد -أيًا كان اسمها- تحارب كليهما وتنتصر عليهما، وإذا كانت هذه الدولة أيضًا دولة جزيرية مثل دولتنا، وأعظم «احتمال» على الإطلاق، إذا كان يقول الحقيقة وإذا كان الكاهن يقول بدقة ما كان يقوله الهمجي... حسنًا، يمكنك جمع كل هذه «الاحتمالات» معًا واستخلاص معنى منها، وخطة. أنا آسف ولكني لا أستطيع. أنا أعلم فقط ما رأيته في أنجيرو وعلى متن السفينة. أن أنجين سان قوي جدًا في تفكيره ولكن ضعيف في جسده حاليًا، رغم أن ذلك سيكون بسبب الرحلة الطويلة وسيطرته على البحر. لا أفهم شيئًا عنه. كيف يمكن أن تكون كل هذه الأشياء ومع ذلك يسمح لرجل بالتبول على ظهره؟ لماذا أنقذ حياة يابو بعد ما فعله به الرجل، وكذلك حياة عدوه المعلن، رودريجو البرتغالي؟ رأسي يدور من كثرة الأسئلة كما لو كنت ثملًا بالساكي». توقف هيرو ماتسو. لقد كان متعبًا للغاية: «لكن أعتقد أنه يجب أن نبقيه على اليابسة وكل من يشبهه إذا تبعه آخرون، ثم نقتلهم جميعًا بسرعة».

- ماذا عن يابو؟

- أوامرُهُ بإجراء السيوكو الليلة.

- لماذا؟

- ليست لديه أخلاق. لقد تنبأت بما سيفعله عندما وصلتُ إلى أنجيرو. لقد كان سيسرق ممتلكاتك. وهو كاذب. لا تكلف نفسك برؤيته غدًا كما رتبت. بدلًا من ذلك، اسمح لي أن أوصل إليه أمرك الآن. سيتعين عليك قتله عاجلاً أم آجلاً. من الأفضل الآن وهو في متناول اليد، حيث لا يوجد أي من أتباعه يحيطون به. أنصح بعدم التأخير.

كان يوجد طَرُقٌ هادئٌ على الباب الداخلي: «تورا تشان؟».

ابتسم توراناغا كما يفعل دائماً عند سماع ذلك الصوت المميز، مع ذلك المصطلح التصغيري المحبب: «نعم يا كيري سان؟».

- لقد سمحت لنفسي يا سيدي أن أحضر لك وضيوفك الشاي. هل لي بالدخول؟

- نعم.

بادلها الرجلان انحناءها. أغلقت كيري الباب وانشغلت بسكب الشاي. كانت في الثالثة والخمسين، قوية البنية، رئيسة وصيفات توراناغا، كيريتسوبو نو توشيكو، الملقبة بكيري، أكبر سيدات بلاطه. شعرها مشوبٌ بالشيب وخصرها سميك، لكن وجهها يلمع بفرح دائم: «لا يجب أن تكون مستيقظاً، لا، ليس في هذا الوقت من الليل يا تورا تشان. سيحل الفجر قريباً وأفترض بعد ذلك ستكون خارجاً في التلال مع صقورك، أليس كذلك؟ أنت بحاجة إلى النوم».

- بلى يا كيري تشان.

رَبَّتْ توراناغا أردافها الممتلئة بمودة.

ضحكت كيري: «رجاءً لا تناديني كيري تشان. أنا امرأة عجوز وأحتاج إلى الكثير من الاحترام. سائر نساءك يُحدثن لي ما يكفي من المتاعب على أي حال. ناديني كيريتسوبو توشيكو سان إذا سمحت يا زيمي يوشي توراناغا نو شيكيتادا».

- أترى يا هيرو ماتسو. بعد عشرين عاماً لا تزال تحاول السيطرة عليّ. قالت بفخر: «معدرة ولكن لقد مضى أكثر من ثلاثين عاماً يا تورا ساما. وكنت حينها سهل الانقياد كما أنت الآن».

عندما كان توراناغا في العشرينات من عمره، كان أيضاً رهينة لدى الطاغية إيكافا تادازاكي، زعيم سوروجا وتوتومي، والد إيكافا جيكيو الحالي، الذي كان عدو يابو. كان الساموراي المسؤول عن حسن سلوك توراناغا قد تزوج للتو من كيريتسوبو كزوجته الثانية. كانت تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً حينذاك. لقد عامل هذا الساموراي وزوجته كيري توراناغا باحترام وقدماً له نصائح حكيمة، ثم عندما تمرد توراناغا على تادازاكي وانضم إلى جورودا، تبعه مع العديد من المحاربين وقاتل بشجاعة إلى جانبه. في وقت

لاحق خلال القتال من أجل العاصمة، قُتل زوج كيري. سألها توراناها عما إذا أرادت أن ستصبح إحدى خليلاته، وقد قبلت بكل سرور. في تلك الأيام لم تكن سمينة. لكنها كانت تتمتع بالقدر نفسه من الحماية والحكمة. كان ذلك في عامها التاسع عشر، وعامه الرابع والعشرين، وأصبحت محور منزله منذ ذلك الحين. كانت كيري بارعة جدًا وذات كفاءة عالية. ظلت لسنوات عديدة تدير منزله وتحافظ عليه خاليًا من المتاعب.

فكر توراناها: خالٍ من المتاعب بقدر ما يمكن أن يكون أي منزل به نساء. قال غير أبه بكونها سمينة: «أنت تزاددين وزناً».

- يا زعيم توراناها! أمام الزعيم تودا؟ أنا آسفة جدًا، سيتعين علي أن أنفذ السيوكو... أو على الأقل، سيتعين علي حلق رأسي وأصبح راهبة، واعتقدت أنني كنت صغيرة ونحيلة للغاية. (انفجرت في الضحك): في الحقيقة أنا أتفق على أن لدي أردافًا ممثلة لكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ أنا فقط أحب الأكل وهذه مشكلة بوذا والكارما الخاص بي، أليس كذلك؟ (قدمت الشاي): تفضلوا. الآن سأرحل. هل ترغب أن أرسل السيدة سازوكو؟

- لا يا كيري سان خاصتي، أنت مراعية، لا، شكرًا لك. سنتحدث قليلًا، ثم سأنام.

- ليلة سعيدة يا تورا ساما. أحلام هادئة.

انحنى له ولهيرو ماتسو ثم غادرت.

احتسب الشاي بتقدير.

قال توراناها: «لطالما حزنت لأننا لم ننجب ابنًا أنا وكيري سان. حملت مرة لكنها أجهضت الجنين. كان ذلك عندما كنا في معركة ناجاكودي».

- نعم، تلك المعركة.

- نعم.

كان هذا بعد وقت قصير من اغتيال الطاغية جورودا عندما كان القائد ناكامورا -التايكو المستقبلي- يحاول توحيد كل السلطة في يده. في ذلك الوقت كانت المسألة غير محسومة، حيث دعم توراناها أحد أبناء جورودا، الوريث الشرعي. واجه ناكامورا توراناها بالقرب من قرية ناجاكودي الصغيرة، وتمزق جيشه وتفكك وانهمز في تلك المعركة. انسحب توراناها

بذكاء، وطارده جيش جديد يقوده هيرو ماتسو الآن لصالح ناكامورا. لكن توراناغا تفادى الوقوع في الفخ وفر إلى مقاطعته، وجيشه بأكمله سليم ومستعد للقتال مرة أخرى. مات خمسون ألف رجل في ناجاكودي، وكان عدد قليل جداً منهم من جنود توراناغا. أوقف التايكو المستقبلي بحكمة الحرب الأهلية ضد توراناغا، رغم أنه كان سينتصر. كانت ناجاكودي المعركة الوحيدة التي خسرها التايكو على الإطلاق، وكان توراناغا هو القائد الوحيد الذي هزمه.

قال هيرو ماتسو: «أنا سعيد لأننا لم نخض معركة يا سيدي».

- نعم.

- لكان بإمكانك الفوز.

- لا. كان التايكو أعظم قائد وأكثر الرجال حكمة وذكاءً على الإطلاق.

ابتسم هيرو ماتسو: «نعم. باستثناءك».

- لا. أنت مخطئ. لهذا السبب أصبحت تابعاً له.

- أنا حزين لموته.

- نعم.

- وجورودا... لقد كان رجلاً جيّداً، أليس كذلك؟ مات العديد من الرجال الصالحين.

دون أن يدري، التفت هيرو ماتسو وأدار غمده البالي: «يجب أن تتحرك ضد إيشيدو. سيجبر هذا كل دايميو على اختيار طرف، مرة واحدة وإلى الأبد. سننتصر في الحرب في النهاية. بعد ذلك يمكنك حل المجلس وتصبح شُوجِن».

قال توراناغا بحدة: «أنا لا أسعى وراء هذا الشرف، كم مرة يجب أن أقول ذلك؟».

- معذرة يا سيدي. أنا أعلم. لكنني أعتقد أن هذا سيكون الأفضل لليابان.

- هذا خيانة.

- ضد من يا زعيم؟ ضد التايكو؟ لقد مات. ضد وصيته الأخيرة؟ هذه مجرد قطعة ورق. ضد الفتى يامون؟ يامون ابن فلاح استولى على

سلطة وإرث قائد وقضى على ورثته. لقد كنا حلفاء جورودا، ثم تابعين للتايكو. نعم. لكنهما ماتا كلاهما.

- هل تنصح بذلك لو كنتَ واحدًا من الأوصياء؟

- لا. لكنني لست واحدًا منهم، وأنا سعيد جدًا بذلك. أنا تابعك فقط. لقد اخترت جانبي منذ عام. فعلت ذلك بحرية.

- لماذا؟

لم يسأله توراناغا هذا السؤال من قبل.

- لأنك رجل، ولأنك مينووارا ولأنك ستفعل الشيء الحكيم. ما قلته لإيشيدو كان صحيحًا: نحن لسنا شعبًا يحكمه مجلس. نحن بحاجة إلى قائد. من الذي كان يجب أن أختار من الأوصياء الخمسة؟ الزعيم أونوشي؟ نعم، إنه رجل حكيم جدًا وقائد جيد. لكنه مسيحي ومقعد وجسده فاسد جدًا بسبب الجذام لدرجة أنه تنبعث منه رائحة كريهة من مسافة خمسين خطوة. الزعيم سوجياما؟ إنه أغنى دايميو في البلاد، وعائلته قديمة قدم عائلتك. لكنه خائن جبان ونحن نعرفه منذ الأزل. الزعيم كياما؟ حكيم، شجاع، قائد عظيم، ورفيق قديم. لكنه مسيحي أيضًا، وأعتقد أن لدينا ما يكفي من آلهتنا الخاصة في أرض الآلهة هذه حتى لا نكون متغطرسين لدرجة أن نعبد إلهاً واحدًا فقط. إيشيدو؟ لقد كرهت أحشاء هذا الفلاح الخائن منذ أن عرفته والسبب الوحيد الذي لم يجعلني أقتله هو أنه كان كلب التايكو. (ابتسم وجهه المجدد): لذلك كما ترى يا يوشي توراناغا نو مينووارا، لم تترك لي أي خيار.

- وإذا خالفت نصيحتك؟ إذا قمت بالتلاعب بمجلس الوصاية، حتى إيشيدو، ووضعت يايمون في السلطة؟

- مهما تفعل فهو حكمة. لكن كل الأوصياء يرغبون بموتك. هذه هي الحقيقة. أنا أدعو إلى حرب فورية. فورية. قبل أن يعزلوك. أو ربما يغتالوك.

فكر توراناغا في أعدائه. لقد كانوا أقوياء وكثيرًا.

سيستغرق منه ثلاثة أسابيع كاملة للعودة إلى إيدو، مسافرًا على طريق توكايدو، الطريق الرئيسي الذي يتبع الساحل بين إيدو وأوساكا. كان السفر

بالسفينة أكثر خطورة، وربما يستغرق وقتًا أطول، باستثناء القادس التي يمكنها السفر ضد الرياح والتيار.

راجع تورانا جا خطته التي وضعها مسبقًا. لم يجد أي عيب فيها.

- سمعت سرًا بالأمس أن والددة إيشيدو تزور حفيدها في ناجويا.

قال وانتبه هيرو ماتسو على الفور. كانت ناجويا دولة مدينة ضخمة لم تنضم حتى الآن إلى أي طرف: أضاف: «يجب أن تُدعى السيدة من قبل رئيس الدير لزيارة معبد جوهجي. لرؤية أزهار الكرز».

قال هيرو ماتسو: «سأرسل على الفور عن طريق الحمام الزاجل».

اشتهر معبد جوهجي بثلاثة أشياء: طريق أشجار الكرز، ونضال الرهبان البوذيين من طائفة الزن، وإخلاصهم التام المعلن لتوراناجا، الذي دفع قبل سنوات تكاليف بناء المعبد وتكفل بصيانته منذ ذلك الحين. أضاف: «ستكون أزهار الكرز قد تجاوزت ذروتها لكنها ستصل غداً. وعلى الأرجح سترغب السيدة الموقرة في البقاء لبضعة أيام، فهو مكان مريح للغاية. يجب أن يذهب حفيدها أيضًا، أليس كذلك؟».

- لا، فقط هي. سيجعل ذلك دعوة رئيس الدير واضحة جدًا. بعد ذلك:

أرسل رسالة مشفرة سرية لابني سودارا. أخبره: «سأغادر أوساكا بمجرد انتهاء المجلس من هذه الجلسة، بعد أربعة أيام». أرسلها بواسطة عداء وأكدها بواسطة الحمام الزاجل غداً.

كان استنكار هيرو ماتسو واضحًا: «إذن هل يمكنني حشد عشرة آلاف رجل دفعة واحدة؟ إلى أوساكا؟».

- لا. الرجال هنا كافون. شكرًا لك يا صديقي القديم. أعتقد أنني سأنام الآن.

نهض هيرو ماتسو ومد كتفيه. ثم قال عند الباب: «هل يجوز لي أن أعطي حفيدتي فوجيكو الإذن بقتل نفسها؟».

- لا.

- ولكن إن فوجيكو من الساموراي يا زعيم، وأنت تعلم كيف تشعر الأمهات تجاه أبنائهن. كان أول أطفالها.

- يمكن لفوجيكو أن تنجب عديدًا من الأطفال. كم عمرها؟ ثمانية عشر... بالكاد تسعة عشر؟ سأجد لها زوجًا آخر.
- هز هيرو ماتسو رأسه: «لن تقبل بأحد. أنا أعرفها جيدًا. إنها رغبتها الداخلية في إنهاء حياتها. أرجوك؟».
- أخبر حفيدتك أنني لا أوافق على الموت بلا فائدة. الإذن مرفوض. أخيرًا انحنى هيرو ماتسو وهمّ بالمغادرة.
- سأل توراناغا: «لكم من الوقت سيعيش الهمجي في ذلك السجن؟».
- لم يلتفت هيرو ماتسو إلى الخلف: «هذا يعتمد على مدى قسوته كمقاتل».
- شكرًا لك. تصبح على خير يا هيرو ماتسو.
- عندما تأكد من أنه وحيد، قال بهدوء: «كيرى سان؟».
- فُتِح الباب الداخلي ودخلت وجثت.
- أرسلني رسالة فورية إلى سودارا: «كل شيء على ما يرام». أرسلها بواسطة الحمام الزاجل. أطلقني ثلاثة منها في الوقت نفسه عند الفجر. وافعلي الشيء نفسه مرة أخرى عند الظهر.
- حسنًا يا زعيم.
- انصرفت.

فكر: واحدة ستصل، ستسقط أربعة على الأقل بسبب السهام أو الجواسيس أو الصقور. ولكن ما لم يفك إيشيدو شيفرتنا، فإن الرسالة لن تعني شيئًا بالنسبة له.

كانت الشفرة خاصة جدًا. أربعة أشخاص يعرفونها. ابنه الأكبر نوبورو وابنه الثاني ووريثه سودارا وكيري ونفسه. الرسالة المشفرة تعني: «تجاهل جميع الرسائل الأخرى. قم بتنفيذ الخطوة الخامسة». حسب الترتيب المسبق، كانت الخطوة الخامسة تحتوي على أوامر بجمع كل قادة عشيرة يوشي ومستشاريهم الداخليين الأكثر ثقة على الفور في عاصمته إيدو، والتهئية للحرب. كلمة السر التي أشارت إلى الحرب كانت «السماء القرمزية». اغتياله أو القبض عليه سيجعل السماء القرمزية حتمية ويطلق الحرب، هجوم متعصب فوري على كيوتو بقيادة سودارا ووريثه، مع كل جنوده للاستيلاء على تلك المدينة والإمبراطور الدمية. يقترن هذا بانتفاضات سرية مخططة بدقة في

خمسین مقاطعة أُعِدَّت على مر السنين لمثل هذا الاحتمال. لقد أُختيرت جميع الأهداف والممرات والمدن والحصون والجسور منذ زمن. كان يوجد ما يكفي من السلاح والرجال والعزيمة لتحقيق ذلك.

فكر توراناغا: إنها فكرة جيدة، لكنها ستفشل إذا لم أقدِّمها بنفسِي. سيفشل سودارا. ليس لرغبته في المحاولة أو الشجاعة أو الذكاء، ولا بسبب الخيانة. فقط لأن سودارا ليس لديه ما يكفي من المعرفة أو الخبرة ولا يستطيع إقناع عدد كاف من الداييميو المترددين للانضمام إليه. وأيضًا لأن قلعة أوساكا والوريث يايمون يقفان شامخين في الطريق، كنقطة تجمع لكل العداوة والحقد اللذين جنيتهما في اثنين وخمسين عامًا من الحرب.

كانت حرب توراناغا قد بدأت عندما كان في السادسة من عمره حين أُخذ كرهينة في معسكر العدو، ثم أُعيد، ثم أُسر من قبل أعداء آخرين ثم رُهن مرة أخرى، حتى أصبح عمره اثني عشر عامًا. في الثانية عشرة قاد دوريته الأولى وفاز بأول معركة له.

معارك كثيرة. لم يخسر أيًا منها. لكن العديد من الأعداء. والآن يتجمعون معًا.

سيفشل سودارا. ربما تكون أنت الوحيد الذي يستطيع الفوز بالسماء القرمزية. بالتأكيد يستطيع التايكو فعل ذلك. لكن يفضل تجنب تنفيذ السماء القرمزية برمتها.



الفصل الرابع عشر

بالنسبة لبلاكثورن، كان فجرًا جحيميًا. فقد خاض معركة موت مع سجين آخر. كانت الجائزة كوبًا من العصيدة. كلا الرجلين كان عاريًا. كلما وُضع سجين في هذه الزنزانة الخشبية الواسعة المكونة من طابق واحد، تُنزع ملابسه. فإن الرجل المرتدي ملابسه يشغل مساحة أكبر ويمكن للملابس أن تخفي الأسلحة.

كانت الغرفة المظلمة الخائقة يبلغ طولها ثمانية وثلاثين مترًا وعرضها ثمانية أمتار وتكتظ باليابانيين العراة والمتعرقين. بالكاد يتسلل أي ضوء عبر الألواح والعوارض التي تشكل الجدران والسقف المنخفض.

بالكاد استطاع بلاكثورن الوقوف منتصبًا. كان جلده متقرحًا ومخدوشًا من أظفار الرجل المكسورة وحروق الخشب من الجدران. أخيرًا ضرب برأسه وجه الرجل ثم أمسك بحلقه وضرب رأس الرجل على العوارض حتى فقد الوعي. ثم ألقى بالجسد جانبًا واندفع عبر الحشد المتعرق إلى المكان الذي سيطر عليه في الزاوية، وأعد نفسه لهجوم آخر.

حان وقت الإطعام عند الفجر وبدأ الحراس في تمرير أكواب العصيدة والماء من خلال الفتحة الصغيرة. كان هذا أول طعام وماء يُمنح لهم منذ أن أُلقي في الداخل عند الغسق في اليوم السابق. كان الاصطفاف للحصول على الطعام والماء هادئًا على غير العادة. فمن دون الانضباط لن يأكل أحد. وفجأة هاجمه رجل يشبه القرد - غير حليق وقذر ومليء بالقمل - بضربه على كليتيه وأخذ حصته بينما ينتظر الآخرون لمعرفة ما سيحدث. لكن بلاكثورن خاض الكثير من المشاجرات البحرية لذا لم يكن ليُهزم بضربة خادعة واحدة، لذلك تظاهر بالعجز، ثم ركل بوحشية وبدأ القتال. رأى بلاكثورن الآن في الزاوية بذهول أن أحد الرجال يعرض كوب العصيدة والماء للذين افترض أنهما فقدا. أخذها وشكر الرجل.

كانت الزوايا أفضل المناطق. يمتد شعاع طوليًّا على طول الأرض الترابية يقسم الغرفة إلى قسمين. في كل قسم ثلاثة صفوف من الرجال، صفان متقابلان وظهورهم للجانب أو الحائط، والصف الآخر بينهما. فقط الضعفاء والمرضى يأخذون الصف الأوسط. عندما يريد الرجال الأقوى في الصفوف الخارجية مد أرجلهم، كان عليهم فعل ذلك فوق أولئك الموجودين في المنتصف.

رأى بلاكتورن جثتين متورمتين ومليئتين بالذباب في إحدى الصفوف الوسطى. لكن يبدو أن الرجال الضعفاء والمحتضرين المجاورين لهما يتجاهلون وجودهما.

لم يستطع الرؤية بعيدًا بسبب الضباب الخانق. كانت الشمس تخبز الخشب بالفعل. توجد دلاء للمرحاض لكن الرائحة كريهة للغاية لأن المرضى قد لوثوا أنفسهم والأماكن التي يتقرفصون فيها.

في بعض الأحيان كان الحراس يفتحون الباب الحديدي وينادون الأسماء. كان الرجال ينحنون أمام رفاقهم ويغادرون، لكن سرعان ما يُحضر آخرون ويعود الاكتظاظ كما كان. بدا أن جميع السجناء قد قبلوا مصيرهم وحاولوا قدر استطاعتهم العيش بغيرية في سلام مع جيرانهم المباشرين.

بدأ أحد الرجال بجوار الحائط بالتقيؤ. سرعان ما دُفع إلى الصف الأوسط وانهار شبه مختنق تحت ثقل الأرجل.

اضطر بلاكتورن إلى إغماض عينيه لمكافحة رعبه ورهابه من الأماكن الضيقة. تورانجا الوغد! أتمنى أن تتاح لي الفرصة يومًا ما لأضعك أنت هنا بالداخل.

الحرس الأوغاد! ليلة أمس عندما أمروه بخلع ملابسه قاومهم بيأس مرير، وهو يعلم أنه مهزوم، يقاتل فقط لأنه يرفض الاستسلام بسلبية. ثم أُدخل من الباب قسرًا.

توجد أربع زنانات كهذه. تقع على أطراف المدينة، في مجمع مرصوف داخل أسوار حجرية عالية. وخارج الأسوار توجد منطقة محاطة بحبال، عبارة عن أرض مضغوطة بجانب النهر. أُقيمت هناك خمسة صلبان. رُبط رجال عراة وامرأة عارية على عوارض الصلبان من معاصمهم وكواحلهم، وبينما كان بلاكتورن يسير على الحدود المحيطة يتبع حراسه الساموراي،

رأى جلادين يحملون رماحًا طويلة يطعنون الرمح بشكل متقاطع في صدور الضحايا بينما كان الحشد يهتف باستهزاء. ثم أنزلوا الخمسة عن الصليبان ووضعوهم خمسة آخرون ثم تقدم الساموراي وقطعوا الجثث إلى أشلاء بسيوفهم الطويلة وهم يضحكون طوال الوقت.

أوغاد قدرون لعينون.

دون أن يلاحظ أحد، بدأ الرجل الذي تقاتل معه بلاكتورن يستعيد وعيه. كان ملقى في الصف الأوسط. تجلط الدم على جانب واحد من وجهه وكان أنفه محطماً. قفز فجأة نحو بلاكتورن، غير مدرك للرجال الذين يعترضون طريقه.

رأى بلاكتورن قدومه في اللحظة الأخيرة، وتصدى للهجوم بشكل محموم وأطاح به أرضاً. لعنوه السجناء الذين سقط عليهم الرجل، وكان أحدهم ضخم البنية وقوي الجسد، ضربه بوحشية على رقبتة باستخدام جانب يده. سُمع صوت كسر وتدلّى رأس الرجل.

رفع الرجل الضخم الرأس نصف المحلوق بواسطة عقدة شعره الخشنة المليئة بالقمل وأسقطه. نظر إلى بلاكتورن وقال شيئاً بحشجة وابتسم كاشفاً عن لثته العارية الخالية من الأسنان، ثم هز كتفيه.

- شكراً لك.

قال بلاكتورن وهو يصارع لالتقاط أنفاسه، شاكرًا لأن مهاجمه لم يكن يمتلك مهارة مورا في القتال غير المسلح. وأشار إلى نفسه وقال: «اسمي أنجين سان. وأنت؟».

- حسنًا، so desu. أنجين سان!

أشار الرجل إلى نفسه وأخذ نفسًا عميقًا: «مينكوي».

- مينكوي سان؟

- نعم.

وأضاف سيلاً من الكلمات اليابانية.

هز بلاكتورن كتفيه بتعب وقال باليابانية: «لا أفهم».

- so desu.

ثرثر الرجل لفترة وجيزة مع جيرانه. ثم عاد وهز كتفيه من جديد، وهز بلاكثورن كتفيه. ومَعًا رفعوا الرجل الميت ووضعوه مع الجثث الأخرى. وعندما عادا إلى الزاوية لم يكن أحد قد أخذ مكانهما.

كان معظم النزلاء نائمين أو يحاولون النوم بصعوبة.

شعر بلاكثورن بالقذارة والبؤس وبقربه من الموت. قال لنفسه: لا تقلق، لا يزال أمامك طريق طويل لتقطعه قبل أن تموت... لا، لا يمكنني أن أعيش طويلًا في هذه الجحيم. يوجد الكثير من الرجال. يا إلهي، أخرجني من هنا! لماذا تتحرك الغرفة صعودًا وهبوطًا، وهل هذا رودريجز يطفو صاعدًا من الأعماق ويملك ملاقط متحركة بدلًا من العينين؟ لا أستطيع التنفس، لا أستطيع التنفس. يجب أن أخرج من هنا، رجاء، رجاء، لا تضع المزيد من الحطب في النار، وماذا تفعل هنا يا كروك، ظننت أنهم سيسمحون لك بالرحيل. اعتقدت أنك عدت إلى القرية لكننا الآن هنا في القرية وكيف وصلت إلى هنا... الجو رائع للغاية وتوجد تلك الفتاة الجميلة بجوار أرصفة المواني ولكن لماذا يسحبونها إلى الشاطئ، الساموراي العاري، أومي يضحك هناك؟ لماذا أسفل الرمال، علامات الدم في الرمال، كلنا عراة، أنا عارٍ، والعجائز والقرويون والأطفال، ويوجد هناك الرجل ونحن في الرجل ولا... لا تضعوا مزيدًا من الحطب، لا تضعوا مزيدًا من الحطب، أنا أغرق في قذارة سائلة. يا إلهي يا إلهي يا إلهي أنا أموت أموت أموت. «باسم الآب والابن والروح القدس». هذه صلاة المراسم الأخيرة وأنت كاثوليكي وكلنا كاثوليك وستحترق أو تغرق في البول وتحترق بالنار النار النار...

انتشل نفسه من الكابوس، وطمّنت أذنيه بسلام مع النطق الختامي لصلاة المراسم الأخيرة الذي يزلزل الأرض. للحظة لم يكن يعلم ما إذا كان مستيقظًا أم نائمًا لأن أذنيه المصدومتين سمعتا الصلاة اللاتينية مجددًا وكانت عيناه المذهولتان تريان رجلًا عجوزًا أوروبيًا يشبه الفزاعة منحنيًا فوق الصف الأوسط، على بُعد أحد عشر مترًا. كان الرجل العجوز بلا أسنان ويملك شعرا طويلًا قذرًا ولحية متشابكة وأظفارًا مكسورة ويرتدي ثوبًا قذرًا رثًا. رفع يده كمخلب نسر وأمسك بالصليب الخشبي فوق الجسد نصف المخفي. لمع عليه خيطٌ من ضوء الشمس للحظة. ثم أغلق عيني الرجل الميت، وتمتم بصلاة وألقى نظرة إلى أعلى. رأى بلاكثورن يحدق إليه.

قال الرجل بلهجة إسبانية خشنة فلاحية، ورسم إشارة الصليب على نفسه: «يا مريم، هل أنت حقيقي».

قال بلاكثورن بالإسبانية: «نعم، من أنت؟».

تحسس الرجل العجوز طريقه بيده متممًا لنفسه. وسمح له السجناء الآخرون بالمرور أو تجاوزهم أو المشي فوقهم دون أن يقولوا كلمة. حذق إلى بلاكثورن من خلال عينين غائمتين ووجه مليء بالبثور: «يا إلهي، السيد حقيقي. من تكون أنت؟ أنا... أنا الراهب... الراهب دومينجو... دومينجو... دومينجو من الرتبة المقدسة... الرتبة المقدسة للقديس فرنسيس... الرتبة...». ثم تعثر لسانه لفترة وتحولت كلماته إلى خليط من اليابانية واللاتينية والإسبانية. ارتعش رأسه ومسح اللعاب الذي كان يقطر باستمرار على ذقنه: «السيد حقيقي؟».

رفع بلاكثورن نفسه برفق: «نعم، أنا حقيقي».

تمتم الكاهن بصلاة أخرى، والدموع تسيل على خديه. قَبْلَ الصليب مرارًا وتكرارًا وكان سيجثو على ركبتيه لو وجد مجالًا. أيقظ الرجل الضخم جاره. جلس كلاهما القرفصاء وأفسحا مساحة كافية ليجلس الكاهن.

- تَقَبَّلْتُ صلواتي ببركة القديس فرانسيس المبارك. أنت، أنت، أنت، كنت أعتقد أنني أرى خيالًا آخر يا سيدي، شبَّحًا. نعم، روح شريرة. لقد رأيت الكثير -الكثير- كم من الوقت مضى على وجود السيد هنا؟ يصعب عليّ أن أرى في الظلام وعياني... إنهما ليسا جيدتين... كم من الوقت إذن؟

- منذ الأمس. وأنت؟

- لا أعلم يا سيدي. فترة طويلة. وُضِعْتُ هنا في سبتمبر، كان ذلك في العام الميلادي الألف وخمسمائة وثمانية وتسعين.

- الآن هو شهر مايو. ألف وستمائة.

- ألف وستمائة.

صرخة أنين صرفت انتباه الراهب. نهض وشق طريقه بين الجثث كعنكبوت، يشجع رجلًا هنا، ويلمس آخر هناك، ويتحدث اليابانية بطلاقة. لم يستطع العثور على الرجل المحتضر لذلك تلا الصلوات الأخيرة على ذلك الجزء من الزنزانة وبارك الجميع ولم يمانع أحد.

- تعال معي يا بني.

لم ينتظر الراهب كثيرًا، بل عرج على طول الزنزانة عبر كتلة الرجال، إلى الظلام. تردد بلاكتورن لأنه لا يريد ترك مكانه. ثم نهض وتبعه. بعد عشر خطوات نظر إلى الوراء. مكانه قد اختفى. بدا الأمر مستحيلًا أنه كان هناك على الإطلاق.

تابع سيره على طول الكوخ. كانت توجد مساحة مفتوحة بغرابة في الزاوية البعيدة. مساحة تكفي لرجل صغير أن ينام فيها. كانت تحتوي على بعض الأواني والأطباق وحصيرة قش قديمة.

خطا الأب دومينجو عبر الرجال إلى المساحة وأشار إليه. راقب اليابانيون المحيطون بصمت، وسمحوا لبلاكتورن بالمرور.

- إنهم قطيعي يا سيدي. كلهم أبنائي في الرب المبارك يسوع. لقد جعلت الكثير منهم يعتنق المسيحية. هذا جون، وهنا مارك وهذا متوشلخ... (توقف الكاهن ليتنفس): أنا متعب جدًا. متعب. يجب عليّ، يجب عليّ...».

تلاشت كلماته ونام.

عند الغسق وصل مزيدٌ من الطعام. عندما بدأ بلاكتورن بالنهوض، أشار إليه أحد اليابانيين المجاورين بالبقاء وأحضر له وعاءً مليئًا. رجل آخر ربت برفق على الكاهن ليوقظه، وقدم له الطعام.

قال الرجل العجوز وهو يهز برأسه بابتسامة على وجهه، ودفع الوعاء إلى يدي الرجل: «لا».

- لا يا فاردا ساما.

سمح الكاهن لنفسه بأن يقنعه الرجل وأكل قليلًا، ثم نهض ومفاصله تصدر أصوات احتكاك، وسلّم طبقه إلى أحد من أولئك الموجودين في الصف الأوسط. لمس هذا الرجل يد الكاهن على جبهته وبُورك.

- يسعدني جدًا أن أرى شخصًا آخر من بني جنسي.

قال الكاهن وعاد للجلوس بجانب بلاكتورن، صوته الريفّي أجش به صفير. أشار بضعف إلى الطرف الآخر من الزنزانة: «قال أحدٌ من قطيعي إن السيد استخدم كلمة «ريان» أنجين؟ هل السيد ريان؟».

- نعم.

- هل يوجد آخرون من طاقم السيد هنا؟

- لا، أنا وحدي. لماذا أنت هنا؟

- إذا كان السيد وحيداً، هل جاء السيد من مانيلّا؟

قال بلاكثورن بحذر ولغته الإسبانية ممتازة: «لا. لم يسبق لي زيارة آسيا من قبل، كانت هذه أول رحلة لي كربان. لقد كنت... كنت متجهاً للخارج. لماذا أنت هنا؟».

- وضعني اليسوعيون هنا يا بني. اليسوعيون وأكاذيبهم القذرة. هل كان السيد متجهاً للخارج؟ أنت لست إسبانياً، لا... ولا برتغالياً أيضاً...

حدق إليه الراهب بريية وكان بلاكثورن محاطاً برائحة نفسه الكريهة: «هل كانت السفينة برتغالية؟ قل الحقيقة أمام الرب».

- لا يا أبت. لم تكن برتغالية. أمام الرب.

- أشكرك يا إلهي! اعذرني رجاءً يا سيدي. كنت خائفاً، أنا عجوز وغبي ومريض. سفينتك كانت إسبانية من أين؟ أنا سعيد جداً. من أين أنت يا سيدي؟ فلاندرز الإسبانية؟ أم دوقية براندنبورغ ربما؟ جزء من ممتلكاتنا في ألمانيا؟ إنه لمن دواعي سروري أن أتحدث بلغتي الأم المباركة مجدداً! هل تحطمت سفينة السيد مثلنا؟ ثم أُلقيت في هذا السجن، واتهمت زوراً من قبل هؤلاء اليسوعيين الشياطين؟ لعنة الرب عليهم وليريهم خطأ خيانتهم. (لمعت عيناه بشدة): «قال السيد إنه لم يسبق له زيارة آسيا من قبل؟».

- لا.

- إذا لم يسبق للسيد زيارة آسيا من قبل فسيصبح كطفل تائه في البرية. نعم، يوجد الكثير لأرويه لك! هل يعلم السيد أن اليسوعيين هم مجرد تجار ومُهرّبي سلاح ومُرابين؟ وأنهم يسيطرون على جميع تجارة الحرير هنا، وكل التجارة مع الصين؟ وأن السفينة الغربية السنوية تساوي مليوناً من الذهب؟ وأنهم أجبروا قداسة البابا على منحهم السلطة الكاملة على آسيا، هم وكلابهم البرتغاليون؟ هل تعلم أن جميع الأديان الأخرى ممنوعة هنا؟ وأن اليسوعيين يتاجرون بالذهب، يشترون ويبيعون لتحقيق الربح - لأنفسهم وللوثنيين - ضد الأوامر المباشرة

لقداسة البابا كليمنت والملك فيليب وضد قوانين هذه الأرض؟ وأنهم هربوا سرّاً البنادق إلى اليابان من أجل ملوك مسيحيين هنا، وحثّوهم على التمرد؟ وأنهم يتدخلون في السياسة ويعملون كقوادين للملوك، ويكذبون ويغشون ويشهدون بالزور علينا. وأن رئيسهم الأب نفسه أرسل رسالة سرية إلى نائب الملك الإسباني في لوزون يطلب منه فاتحين لغزو البلاد. لقد توسلوا من أجل غزو إسباني لتغطية مزيد من الأخطاء البرتغالية. يمكن وضع كل مشكلاتنا على عتبة أبوابهم يا سيدي. إن اليسوعيين هم الذين كذبوا وخدعوا ونشروا السم ضد إسبانيا وملكنا الحبيب فيليب. أكاذيبهم وضعتني هنا وتسببت في استشهاده ستة وعشرين أباً مقدساً. يعتقدون أنه لمجرد أنني كنت فلاحاً في الماضي فإنني لا أفهم... لكن يمكنني القراءة والكتابة يا سيدي، يمكنني القراءة والكتابة. لقد كنت أحد مساعدي فخامته نائب الملك. يعتقدون أننا نحن الفرنسيين لا نفهم...

في هذه المرحلة بدأ يهذي بخليط آخر من الإسبانية واللاتينية. انتعشت روح بلاكثورن، وفضوله زاد بشدة بما قاله الكاهن. أي بندق؟ أي ذهب؟ أي تجارة؟ أي سفينة غربية؟ مليون؟ أي غزو؟ أي ملوك مسيحيين؟ سأل نفسه: ألم تستغل الرجل المريض البائس؟ يعتقد أنك صديق وليس عدواً.

لم أكذب عليه.

ولكن ألم تلمح بأنك صديق؟

أجبت مباشرة.

لكن لم تتطوع بشيء؟

لا. هل هذا عدل؟

هذه أول قاعدة للبقاء على قيد الحياة في مياه العدو: لا تتطوع بشيء.

تفاقت حركة الراهب في أثناء نومه سريعاً. تحرك اليابانيون القريبون منه بعدم ارتياح. نهض أحدهم وربّت الكاهن برفق وتحدث معه. هدا الأب دومينجو تدريجياً من نوبته، واتضحت عيناه. نظر إلى بلاكثورن وهو يتعرف عليه، ورد على اليابانيين، وهذا البقية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

قال بنفس متقطع: «أنا آسف جدًا يا سيدي، ظنوا... ظنوا أنني كنت غاضبًا على... عليك يا سيدي. الرب يغفر غضبي الأحمق! لقد كان مجرد... لا شيء، اليسوعيون يأتون من الجحيم، إلى جانب الهراطقة والوثنيين. أستطيع أن أخبرك الكثير عنهم».

مسح الراهب اللعاب عن ذقنه وحاول تهدئة نفسه. ضغط صدره لتخفيف الألم هناك: «ماذا كنت تقول يا سيدي؟ سفينتك، هل ألقي بها على الشاطئ؟». - نعم. بطريقة ما. لقد علقت السفينة بالرمال.

أجاب بلاكثورن. وحرك رجليه بحذر لتخفيف التصلب. تحرك الرجال الذين كانوا يراقبون ويستمعون ليمنحوه مساحة أكبر. نهض واحد منهم وأشار إليه بالاستلقاء. فقال على الفور: «شكرًا لك. كيف تقول «شكرًا لك» يا أبت؟».

- «Domo». في بعض الأحيان تقول «arigato». يجب أن تكون المرأة مهذبة للغاية يا سيدي. تقول «arigato gozaimashita».

- شكرًا لك. ما اسمه؟

أشار بلاكثورن إلى الرجل الذي نهض.

- هذا جونزاليس.

- ولكن ما اسمه الياباني؟

- حسنًا، اسمه أكابو. لكن هذا يعني فقط «حمال» يا سيدي. ليس لديهم أسماء. فقط الساموراي لديهم أسماء.

- ماذا؟

- فقط الساموراي لديهم أسماء، أسماء أولى وألقاب. إنه قانونهم يا سيدي. على الجميع الاكتفاء بما هم عليه: حمال، صياد، طباط، جلال، مزارع، وما إلى ذلك. الأبناء والبنات يكون اسمهم في الغالب ابنة أولى، ابنة ثانية، ابن أول، وما إلى ذلك. في بعض الأحيان يطلقون على الرجل اسم «صياد يعيش بالقرب من شجرة الدردار» أو «صياد ذو أعين سيئة». (هز الراهب كتفيه وكنم التثاؤب): ليس من المسموح لليابانيين العاديين امتلاك أسماء. أما العاهرات فيطلقن على أنفسهن أسماء مثل «السك» أو «القمر» أو «البتلة» أو «ثعبان الماء» أو «نجمة». إنه غريب

يا سيدي، لكنه قانونهم. نعطيهم أسماء مسيحية -أسماء حقيقية- عندما نعددهم، ونقدم لهم الخلاص وكلمة الرب....».

خفت صوته شيئاً فشيئاً حتى غلبه النوم.

قال بلاكثورن للجمال باليابانية: «شكراً لك يا أكابو سان».

ابتسم الرجل بخجل وانحنى وأخذ نفساً عميقاً.

استيقظ الراهب لاحقاً وتلا صلاة قصيرة وحك جلده: «قلت الأمس يا سيدي؟ هل جئت إلى هنا بالأمس فقط؟ ماذا حدث معك يا سيدي؟».

قال بلاكثورن: «عندما رسونا كان يوجد يسوعي هناك، لكن أنت يا أبت. تقول إنهم اتَّهموك؟ ماذا حدث لك ولسفينتك؟».

- سفينتنا؟ هل يسأل السيد عن سفينتنا؟ هل كان السيد قادماً من مانيلا مثلنا؟ أم... آه، كم أنا أحمق! أتذكر الآن، كان السيد مسافراً للخارج من وطنه ولم يسبق له القدوم إلى آسيا من قبل. أقسم إنه لأمر رائع أن أتحدث إلى رجل متحضر مجدداً، بلغتي الأم المباركة. لقد مضى وقت طويل. رأسي يؤلمني، يؤلمني بشدة يا سيدي. سفينتنا؟ كنا عائدتين إلى الوطن أخيراً. من مانيلا إلى أكابولكو، في أرض كورتيس في المكسيك، ومن ثم براً إلى فيراكروز. ومن هناك سفينة أخرى عبر المحيط الأطلسي، وأخيراً وبعد طول انتظار نصل إلى الوطن. قريتي تقع خارج مدريد يا سيدي، في الجبال. تسمى سانتا فيرونিকা. لقد مضى على مغادرتي أربعون عاماً يا سيدي. في العالم الجديد في المكسيك والفلبين. دائماً مع فاتحينا المجيدين، فلتحمهم العذراء! كنت في لوزون عندما دمرنا الملك الوثني المحلي لومالون، وغزونا لوزون، وبالتالي جلبنا كلمة الرب إلى الفلبين. قاتل معنا عديداً من اليابانيين المعتنقين المسيحية حينها يا سيدي. يا لهم من مقاتلين! ذلك كان في عام 1575. الكنيسة الأم راسخة هناك يا بني، ولم يُر قط يسوعي أو برتغالي قذر. لقد أتيت إلى اليابان لمدة عامين تقريباً، ثم اضطررت إلى المغادرة إلى مانيلا مجدداً عندما خاننا اليسوعيون.

توقف الراهب وأغمض عينيه، وانجرف في النوم. ثم استيقظ لاحقاً، وتابع حديثه وكأنه لم ينم قط كما يفعل كبار السن في بعض الأحيان: «كانت سفينتي هي السفينة الحربية العظيمة «سان فيليب». كنا نحمل شحنة من

التوابل والذهب والفضة والعملات المعدنية بقيمة مليون ونصف مليون بيزو فضي. ضربتنا إحدى العواصف القوية وألقتنا على شواطئ شيكوكو. تحطمت سفينتنا على شريط الرمال -في اليوم الثالث- بحلول ذلك الوقت كنا قد أنزلنا سبائنا ومعظم بضائعنا. ثم جاءت أنباء بمصادرة كل شيء، مصادرة من قبل التايكو نفسه، وأنا قراصنة و...».

توقف حالما حلَّ صمتٌ مفاجئ.

انفتح باب الزنزانة الحديدي.

بدأ الحراس ينادون الأسماء من القائمة. وكان الرجل الضخم الذي صادق بلاكثورن من بين مَنْ استدعوا. خرج ولم يلتفت إلى الورا. أُختير أحد الرجال من الدائرة أيضًا. أكابو. ركع أكابو للراهب الذي باركه ورسم عليه إشارة الصليب وأعطاه بسرعة صلاة المراسم الأخيرة. قَبَّل الرجل الصليب وابتعد. أغلق الباب مجددًا.

سأل بلاكثورن: «هل سيعدمونه؟».

- نعم. ينتظره حتفه خارج هذا الباب. لتأخذ مريم المقدسة روحه بسرعة وترزقه بجزائه الأبدي.

- ماذا فعل الرجل؟

- لقد خالف قانونهم يا سيدي. اليابانيون شعب بسيط، لكنهم صارمون جدًا. لديهم عقوبة حقيقية واحدة فقط: الموت. يمكن أن يكون عن طريق الصلب أو الخنق أو قطع الرأس. أما جريمة الحرق العمد فإن عقابها هو الموت بالحرق. لا يوجد لديهم أيُّ عقوبات أخرى تقريبًا، سوى النفي أحيانًا وقطع شعر النساء أحيانًا. ولكن... (تنهد الرجل العجوز): في الغالب يكون الموت هو العقاب.

- لقد نسيَت عقوبة السجن.

حك الراهب بأظفاره شاردًا في الجرب على ذراعه: «هذا ليس عقابًا في أعينهم يا بني. إنه مكان احتجاز مؤقت إلى أن يقرروا الحكم. المجرمون فقط هم من يأتون إلى هنا، ولمدة قصيرة فقط.»

- هذا هراء. أنت نفسك هنا منذ عام، أو عامين تقريبًا.

- سيحين دوري مثلي مثل أي شخص آخر. هذا مجرد محطة طريق بين جحيم الأرض ومجد الحياة الأبدية.

- أنا لا أصدقك.

- لا تخف يا بني. إنها مشيئة الرب. أنا هنا لأستمع لاعتراك وأمنحك الغفران وأهيك لمجد الحياة الأبدية. إنها على بعد سبعين مترًا وبضع لحظات فقط من ذلك الباب. هل ترغب في الاعتراف الآن يا سيدي؟

حدق بلاكتورن إلى الباب الحديدي: «لا، لا شكرًا. ليس الآن. هل حاول أحد الهروب من هنا؟».

- لماذا سيفعلون ذلك؟ لا يوجد مكان للفرار، ولا مكان للاختباء. السلطات لا ترحم. أي شخص يساعد هاربًا مُدانًا أو حتى رجلًا يرتكب جريمة... (أشار بإبهام إلى باب الكوخ): جونزاليس... أكابو... الرجل الذي غادرنا للتو. لقد كان رجل كاجا. أخبرني أنه...».

- ما هو رجل الكاجا؟

- هؤلاء هم الحمالون يا سيدي، الرجال الذين يحملون الناس في المحفات، أو الكاجا التي يحملها اثنان، وهي تشبه الأرجوحة المعلقة على عمود. أخبرنا أن شريكه سرق وشاحًا حريريًا من أحد الزبائن، هذا المسكين. وبما أنه لم يبلغ عن السرقة فإن حياته ستنتهي أيضًا. صدقني يا سيدي، أي شخص يحاول الهرب أو يساعد شخصًا ما على الهرب يفقد حياته، وتُعاقب عائلته بأكملها أيضًا. إنهم صارمون جدًا يا سيدي.

- إذن يُساق الجميع إلى الإعدام كالخراف؟

- لا يوجد خيار آخر. إنها مشيئة الرب.

حذر بلاكتورن نفسه: لا تغضب أو تذعر. كن صبورًا. يمكنك التفكير في طريقة. ليس كل ما يقوله الكاهن صحيحًا. إنه مختل. من لن يختل بعد كل هذا الوقت؟

كان يقول الراهب: «هذه السجون جديدة عليهم يا سيدي. يقولون إن التايكو أنشأ السجون هنا قبل بضع سنوات. لم يوجد أيُّ منها قبله. سابقًا عندما كان يُقبض على رجل، يعترف بجريمته ويُعدم».

- وإذا لم يعترف؟

- الجميع يعترفون، الأسرع أفضل يا سيدي. الأمر نفسه في عالمنا، إذا قُبِضَ عليك.

نام الراهب قليلاً، يخدش جسده في أثناء نومه ويتذمر. ثم قال بلاكثورن عندما استيقظ: «رجاءً أخبرني يا أبت، كيف وضع اليسوعيون الملعونون رجل الرب في هذا الوكر الآسن؟».

- لا يوجد الكثير لأقوله، لكن سأخبرك كل شيء. بعد أن جاء رجال التايكو وأخذوا كل سبائكننا وبضائعنا، أصر قائدنا على الذهاب إلى العاصمة للاحتجاج. لا يوجد سبب للمصادرة. ألم نكن نحن خدم جلالة الملك الكاثوليكي الإمبراطوري الأعظم فيليب ملك إسبانيا وحاكم أعظم وأغنى إمبراطورية في العالم؟ أقوى ملك في العالم؟ ألم نكن أصدقاء؟ ألم يطلب التايكو من مانيلا الإسبانية أن تتاجر مباشرة مع اليابان لكسر احتكار البرتغاليين القذر؟ لقد كان كل شيء خطأ، المصادرة. لا بد أنه كذلك.

ذهبت مع قائدنا لأنني كنت أستطيع التحدث باللغة اليابانية قليلاً، ليس كثيرًا في تلك الأيام. كانت «سان فيليب» قد تعثرت ووصلت إلى الشاطئ في أكتوبر 1597 يا سيدي. اليسوعيون -أحدهم كان يدعى الأب مارتن ألفيتو- تجرؤوا على عرض الوساطة لنا، هناك في كيوتو، العاصمة. يا للوقاحة! كان الأب الأعلى الفرنسيكاني الراهب براجانزا في العاصمة، وكان سفيرًا، سفيرًا حقيقيًا من إسبانيا إلى بلاط التايكو. كان الراهب المبارك براجانزا موجودًا في العاصمة في كيوتو مدة خمس سنوات يا سيدي. وقد طلب التايكو نفسه شخصيًا من نائب الملك في مانيلا إرسال رهبان فرنسيسكان وسفيرًا إلى اليابان. لذلك جاء الراهب المبارك براجانزا. ونحن يا سيدي، نحن من سفينة «سان فيليب»، كنا نعلم أنه يمكن الوثوق به على عكس اليسوعيين. بعد مرور أيام عديدة من الانتظار، أجرينا مقابلة واحدة مع التايكو -لقد كان رجلًا صغيرًا قبيحًا يا سيدي- وطلبنا استعادة بضائعنا وسفينة أخرى، أو ممرًا على سفينة أخرى، والتي عرض قائدنا العام دفع ثمنها بسخاء. اعتقدنا أن المقابلة سارت جيدًا، وسمح لنا التايكو بالانصراف. ذهبنا إلى ديرنا في كيوتو وانتظرنا، ثم خلال الأشهر التالية بينما كنا ننتظر قراره، واصلنا نشر كلمة الرب بين الوثنيين. قدمنا خدماتنا علانية، وليس كلكوص

في الليل كما يفعل اليسوعيون. (كان صوت الراهب دومينجو مشوبًا بالاحتقار): كنا نرتدي الزي الرهباني، ولم نكن نتخفَّى مثل الكهنة الأصليين، كنا نفعل كما يفعلون. لقد جلبنا الكلمة إلى الناس، المعاقين والمرضى والفقراء، على عكس اليسوعيين الذين يخالطون الأمراء فقط. ازدادت أعدادنا. كان لدينا مستشفى للمرضى بالجذام، وكنيسة خاصة بنا، وازدهر قطيعنا كثيرًا يا سيدي. كنا على وشك جعل عديد من ملوكهم يعتنقون المسيحية لكننا تعرضنا للخيانة ذات يوم. ذات يوم في يناير مثلنا جميعًا نحن الفرنسيون أمام القاضي واتُّهمنا بموجب الختم الشخصي للتايكو يا سيدي، بانتهاك قانونهم وإزعاج سلامهم، وحُكم علينا بالإعدام صلبًا. كنا ثلاثة وأربعين شخصًا. كان من المقرر تدمير كنائسنا في جميع أنحاء البلاد وتفكيك جميع جماعاتنا -الفرنسيون- وليس اليسوعيين يا سيدي. نحن فقط يا سيدي. وُجِّهت إلينا اتهامات باطلة. لقد زرع اليسوعيون السم في أذن التايكو بأننا غزاة فاتحون نريد غزو هذه الشواطئ، بينما كان اليسوعيون هم من توسلوا إلى سيدي المعظم نائب الملك لدينا لإرسال جيش من مانيل. لقد رأيت الرسالة بنفسني، من رئيسهم الأعلى. إنهم شياطين يتظاهرون بخدمة الكنيسة والمسيح لكنهم يخدمون أنفسهم فقط. إنهم يشتهون إلى السلطة، بأي ثمن. يختبئون خلف شباك الفقر والتقوى، لكن تحتهم يأكلون كالمملوك ويجمعون الثروات. إنهم لا يعقلون يا سيدي، الحقيقة هي أنهم كانوا يغارون من جماعاتنا ومن كنيستنا ومن حقيقتنا وطريقة حياتنا. تدخل الدايميو في هيزن، دوم فرانسيسكو -اسمه الياباني هو هاريمان تاداو لكنه عمْد دوم فرانسيسكو- وتوسط لنا. إنه تمامًا مثل الملك، كل الدايميو مثل المملوك، وهو فرنسيسكان وتوسط لنا ولكن دون جدوى.

في النهاية، استشهد ستة وعشرون شخصًا. ستة إسبان وسبعة عشر من المهتدين الجدد من اليابانيين وثلاثة آخرين. كان المبارك براجانزا واحدًا منهم، وكان هناك ثلاثة فتيان بين المهتدين الجدد. آه يا سيدي، لقد وُجد الآلاف من المؤمنين هناك في ذلك اليوم. قيل لي إن ما بين خمسين ألفًا إلى مائة ألف شخص شاهدوا الاستشهاد المبارك في ناجازاكي. لقد كان يومًا مريزًا شديد البرودة في فبراير وعامًا مريزًا. كان ذلك عام

الزلازل والأعاصير والفيضانات والعواصف والحرائق، عندما ضربت يد الرب القاتل العظيم وحطمت حتى قصره العظيم «فوشي مي»، عندما جعل الأرض ترتعد. كان مشهدًا مخيفًا ولكنه عظيمًا في الوقت نفسه، حيث تعاقب إصبعُ الرب الوثنيين والخطاة. لذلك استشهدوا يا سيدي، ستة إسبان صالحين. دُمر قطيعنا وكنيستنا وأُغلق المستشفى.

(ارتسم التعب على وجه العجوز): أنا... أنا كنت واحدًا من أولئك الذين أختيروا للاستشهاد، ولكن... ولكن لم يحالفني هذا الشرف. جعلونا نسير من كيوتو، وعندما وصلنا إلى أوساكا وضعوا بعضنا في إحدى بعثاتنا هنا والباقي... الباقي قطعوا إحدى آذانهم، ثم عُرضوا في الشوارع كأَي مجرمين. ثم أمر الإخوة المباركون بالسير غربًا. مدة شهر. انتهت رحلتهم المباركة عند التلة التي تسمى نيشيزاكي والتي تطل على ميناء ناجازاكي العظيم. توسلتُ الساموراي أن يسمح لي بالذهاب معهم، لكنه أمرني بالعودة إلى البعثة هنا في أوساكا يا سيدي. دون سبب. ثم بعد شهر وُضعنا في هذه الزنزانة. كان يوجد ثلاثة منا، أعتقد أنهم ثلاثة، لكنني كنت الإسباني الوحيد. الآخرون كانوا من المهتدين الجدد، إخوتنا العلمانيون من اليابانيين. بعد بضعة أيام نادى الحراس أسماءهم. لكنهم لم ينادوا اسمي قط. ربما تكون مشيئة الرب يا سيدي، أو ربما يتركني هؤلاء اليسوعيون الدنيئون على قيد الحياة فقط لتعذيبي، هم الذين حرموني من فرصة الشهادة بين شعبي. يصعب التحلّي بالصبر يا سيدي، صعب جدًا...

أغمض الراهب العجوز عينيه وصلى وبكى حتى نام. رغم رغبته الشديدة في النوم، فإن بلاكتورن لم يستطع النوم طوال الليل. كان جسده يحكه من لدغات القمل. ورأسه يعج بالرعب.

لقد أدرك بوضوح مخيف، أنه لا توجد طريقة للهرب. استحوذ عليه اليأس وشعر بأنه على حافة الموت. وفي أحلك جزء من الليل، اجتاحه الرعب كليًا، ولأول مرة في حياته استسلم وبكى.

تمتم الراهب: «نعم يا بني؟ ما الأمر؟».

قال بلاكتورن وقلبه يدق بقوة: «لا شيء، لا شيء. عد إلى النوم».

قال الراهب ثم نام بعدها مجددًا: «لا يوجد داعٍ للخوف. نحن جميعًا في كنف الرب».

ترك الرعب العظيم بلاكثورن. تاركًا مكانه رعبًا يمكن التعايش معه. وقال لنفسه وهو يحاول تصديق الكذبة: سأخرج من هنا بطريقة ما. عند الفجر أحضروا الطعام والماء. كان بلاكثورن أقوى الآن. حذر نفسه: من الغباء أن تستسلم هكذا. غباء وضعف وخطر. لا تفعل ذلك مجددًا وإلا ستنهار ويجن جنونك وتموت بالتأكيد. سيضعونك في الصف الثالث وستموت. كن حذرًا وكن صبورًا واحم نفسك.

- كيف حالك اليوم يا سيدي؟
- بخير، شكرًا لك يا أبت. وأنت؟
- بخير تمامًا، شكرًا لك.
- كيف أقول ذلك باليابانية يا أبت؟
- Domo, genki desu.

- Domo, genki desu. كنت تقول بالأمس يا أبت عن السفن التجارية البرتغالية السوداء. كيف تبدو؟ هل رأيت واحدة؟

- نعم يا سيدي. إنها أعظم السفن في العالم، تزن قرابة ألفي طن. يلزم ما يصل إلى مائتي رجل وفتى لإبحار سفينة واحدة يا سيدي، ومع الطاقم والركاب سيكون عددهم نحو ألف روح. قيل لي إن هذه السفن الشراعية الضخمة تبحر جيدًا مع اتجاه الرياح ولكنها تتناقل عندما تكون الرياح مقابلة لجانب السفينة.

- كم عدد البنادق التي يحملونها؟
- أحيانًا عشرين أو ثلاثين بندقية موزعة على ثلاثة طوابق.

كان الأب دومينجو سعيدًا بالإجابة عن الأسئلة والمحادثة والتعليم، وكان بلاكثورن سعيدًا بالقدر نفسه بالاستماع والتعلم. كانت معرفة الراهب الشاملة لا تقدر بثمن وتشمل نطاقًا واسعًا.

كان يقول الآن: «لا يا سيدي، Domo تعني شكرًا و dozo تعني رجاء. الماء هو mizu. تذكر دائمًا أن اليابانيين يقدرون الأخلاق والاحترام للغاية. ذات مرة عندما كنت في ناجازاكي... لو كان لدي فقط حبر وقلم وورق! أه أنا أعلم... هنا، اكتب الكلمات في التراب، سيساعدك ذلك على تذكرها...».

قال بلاكثورن: «Domo».

ثم بعد حفظ بضع كلمات أخرى، سأل: «كم مضى على وجود البرتغاليين هنا؟».

- اكتشفوا البلد في عام 1542 يا سيدي، وهو نفس عام ميلادي. كانوا ثلاثة رجال، دا موتا وبيشوتو ولا أتذكر الاسم الآخر. كانوا جميعاً تجاراً برتغاليين، يتاجرون على سواحل الصين في سفينة صينية من ميناء في سيام. هل زرت سيام من قبل يا سيدي؟

- لا.

- يوجد الكثير لرؤيته في آسيا. هؤلاء الرجال الثلاثة كانوا يتاجرون ولكنهم فوجئوا بعاصفة عاتية، إعصاراً، وحُرفوا عن مسارهم ليصلوا بسلام إلى تانيجاشيما في كيوشو. كانت هذه هي المرة الأولى التي تطلّ فيها قدم أوروبية أرض اليابان، وبدأت التجارة على الفور. وصل فرانسيس كزافييه بعد بضع سنوات إلى هنا، وهو أحد الأعضاء المؤسسين لليسوعية. كان ذلك في عام 1549... عام سيئ بالنسبة لليابان يا سيدي. كان يجب أن يكون أحد إخواننا أول من يصل، وعندها كنا نحن من سيرث هذه المملكة وليس البرتغاليين. توفي فرانسيس كزافييه بعد ثلاث سنوات في الصين، وحيداً ومنسياً... هل أخبرتك أنه يوجد يسوعي بالفعل في بلاط إمبراطور الصين يا سيدي، في مكان يسمى بكين؟ يجب أن ترى مانىلا يا سيدي، والفلبين. لدينا أربع كاتدرائيات وما يقرب من ثلاثة آلاف فاتح ونحو ستة آلاف جندي ياباني منتشرين في جميع أنحاء الجزر وثلاثمائة أخ...

امتلاً ذهن بلاكثورن بالحقائق والكلمات والعبارات اليابانية. سأل عن الحياة في اليابان وعن الدايميو والساموراي والتجارة وناجازاكي والحرب والسلام واليسوعيين والفرنسيين والبرتغاليين في آسيا ومانىلا الإسبانية، وكان دائماً يسأل مزيداً عن السفينة السوداء التي تبحر سنوياً من ماكاو. جلس بلاكثورن مع الأب دومينجو لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ يسأل ويستمع ويتعلم وينام ويحلم بكوابيس، ليستيقظ وي طرح مزيداً من الأسئلة ويزيد من معرفته.

ثم في اليوم الرابع، نادوا اسمه.

- أنجين سان.

الفصل الخامس عشر

قطع بلاكثورن الصمت المطبق ووقف على قدميه.

- اعترافك يا بني، قلّه بسرعة.

- لا... لا أعتقد... أنا...

أدرك بلاكثورن بعقله الخامل أنه يتحدث الإنجليزية، لذلك ضم شفتيه وبدأ يبتعد. نهض الراهب مسرعًا، ظانًا أن كلماته هي بالهولندية أو الألمانية، وأمسك بمعصمه وعرج معه.

- بسرعة يا سيدي. سأمنحك الغفران. أسرع، من أجل روح الخالدة. قل ذلك بسرعة، فقط أنك تعترف أمام الرب بكل الأشياء الماضية والحاضرة...

كانوا يقتربون الآن من البوابة الحديدية، والراهب يمسك بلاكثورن بقوة مفاجئة.

- قلها الآن، ستحفظك العذراء المباركة.

انتزع بلاكثورن ذراعه وقال بصوت أجش بالإسبانية: «فليحفظك الرب يا أبت».

أغلق الباب خلفه.

كان الجو لطيفًا وباردًا بصورة لا تصدق، والغيوم تتهاذى أمام نسيم جنوبي شرقي لطيف.

استنشق أنفاسًا عميقة من الهواء النظيف الرائع، واندفع الدم في عروقه. غمرته فرحة الحياة.

كان يوجد في الفناء عددٌ من السجناء العراة إلى جانب مسؤول وسجّانين برماح ومجموعة من الطبقة الدنيا ومجموعة من الساموراي. كان المسؤول يرتدي كيمونو قاتمًا ورداء خارجيًا بأكتاف مشدودة تشبه الأجنحة وكان

يعتمر قبعة داكنة صغيرة. وقف هذا الرجل أمام السجين الأول وقرأ من لفافة رقيقة، وعندما انتهى بدأ كل رجل يمشي ببطء خلف مجموعته من المساجين نحو الأبواب الكبيرة في الفناء. كان بلاكتورن آخر مَنْ خرج. وعلى عكس الآخرين، فقد أُعطيَ لباسًا داخليًا وكيمونو قطنيًا ونعالًا لقدميه. وكان حراسه من الساموراي.

كان قد قرر الهروب فور اجتيازه البوابة، ولكن أحاطه الساموراي من كُتب وحاصروه مع اقترابه من العتبة. وصلوا معًا إلى البوابة التي كانت تعج بحشد كبير يراقبهم، كان نظيفًا وأنيقًا. ويحملون مظلات قرمزية وصفراء وذهبية اللون. يوجد بالفعل رجل مربوط بصليبه، وُرفِع الصليب إلى السماء. وبجانب كل صليب يوجد اثنان من الطبقة الدنيا ينتظران، ورماحهما الطويلة تلمع تحت أشعة الشمس.

تباطأت خُطى بلاكتورن. تدافع الساموراي مقتربين منه وحُثُّوه على الإسراع. فكر بخدر أنه من الأفضل أن يموت الآن، بسرعة، لذلك أعدَّ يده للانقضاض على أقرب سيف. لكنه لم ينتهز الفرصة قط لأن الساموراي ابتعدوا عن الساحة وساروا نحو الخارج، متجهين نحو الشوارع المؤدية إلى المدينة وباتجاه القلعة.

انتظر بلاكتورن وهو بالكاد يتنفس، راغبًا في التأكد. ساروا عبر الحشد الذي ابتعد وانحنى، وصلوا إلى شارع والآن ليس هناك مجالٌ للشك. شعر بلاكتورن وكأنه وُلد من جديد.

عندما استطاع التحدث، قال: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

غير عابئ بأن الكلمات لن تفهم أو أنها باللغة الإنجليزية. كان بلاكتورن يشعر بالدوار إلى حدٍّ ما. خطواته تكاد لا تلامس الأرض، ولم تكن قيود النعال غير مريحة، ولم يكن ملمس الكيمونو الغريب مزعجًا. فكر: في الواقع بدت الثياب مريحة نوعًا ما. ربما يشعر بالبرد قليلًا، ولكن في يوم جميل كهذا، إنه تمامًا ما يرتديه المرء على سطح السفينة.

قال للساموراي: «أقسم إنه لأمر رائع أن أتحدث الإنجليزية مرة أخرى. يا إلهي، ظننت أنني رجل ميت. لقد فقدت حياتي الثامنة. هل تعلمون ذلك أيها الأصدقاء القدامى؟ الآن لم يتبقَّ لدي سوى حياة واحدة. حسنًا، لا يهم، يتمتع الربابنة بعشر حيوات على الأقل، هذا ما كان ألبان كارادوك يقوله دائمًا».

بدا أن الساموراي أصبحوا منزعجين من حديثه غير المفهوم.

قال لنفسه: تمالك نفسك، لا تجعلهم أكثر حساسية مما هم عليه.

لاحظ الآن أن جميع الساموراي كانوا يرتدون الرمادي. رجال إيشيدو. لقد سأل الأب ألفيتو عن اسم الرجل الذي يعارض توراناغا. قال ألفيتو «إيشيدو». كان ذلك قبل أن يُؤمر بالوقوف ويُقتاد بعيدًا. هل كل الرماديين من رجال إيشيدو؟ وكذلك كل البنيين هم رجال توراناغا؟

أشار إلى القلعة التي كانت تحوم فوق المدينة: «إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى هناك، نعم؟».

- نعم.

أوما القائد برأسه بقوة، وكانت لحيته مشوبة بالشيب.

سأل بلاكثورن نفسه: ماذا يريد إيشيدو مني؟

انعطف القائد إلى شارع آخر مبتعدًا كليًا عن الميناء. ثم رآها... سفينة برتغالية ذات صارين، وعَلَمَهَا الأزرق والأبيض يرفرف في النسيم. تحتوي على عشرة مدافع على السطح الرئيسي، مع مدافع عيار عشرين في مقدمة ومؤخرة السفينة. قال بلاكثورن لنفسه: تستطيع إيراسموس التغلب عليها بسهولة. ماذا عن طاقمي؟ ماذا يفعلون هناك في القرية؟ بحق الرب أودُّ أن أراهم. كنت سعيدًا جدًا بتركهم في ذلك اليوم والعودة إلى منزلي الخاص حيث كانت توجد تلك المرأة -هاكو-. المنزل الخاص ب... ماذا كان اسمه؟ آه نعم، مورا سان. ماذا عن تلك الفتاة، التي كانت في سريرتي، والفتاة الأخرى ذات الجمال الملائكي التي تحدثت في ذلك اليوم إلى أومي سان؟ تلك التي كانت في الحلم وكانت في المرجل أيضًا.

لكن لماذا أتذكر هذا الهراء؟ إنه يضعف العقل. لقد قال ألبان كارادوك: «يجب أن تكون قويًا جدًا عقليًا لتتعايش مع البحر». ألبان المسكين.

لطالما بدا ألبان كارادوك ضخمًا وكالآلهة، يرى كل شيء ويعرف كل شيء سنواتٍ عديدة. لكنه مات مرعوبًا. كان ذلك في اليوم السابع من وجود الأسطول الإسباني. كان بلاكثورن يقود سفينة صغيرة مجهزة بقائم شرع تزن مائة طن، تنطلق من بورتسموث، تحمل الأسلحة والبارود والذخيرة والطعام إلى سفن دريك الحربية قبالة دوفر حيث كانوا يغزون ويهاجمون

أسطول العدو الذي كان يضرب القناة باتجاه دنكيرك حيث توجد الجيوش الإسبانية، في انتظار انتهاء عملية النقل البحري لغزو إنجلترا. مُزق الأسطول الإسباني العظيم بفعل العواصف والسفن الحربية الأكثر ضراوة وخفة ومرونة التي بناها دريك وهاوارد.

كان بلاكتورن في خضم هجوم عندما تغير اتجاه الرياح بالقرب من سفينة «ريناون» الخاصة بقائد الأسطول البحري هاوارد، وتحولت الرياح إلى عاصفة قوية، وأصبحت العواصف هائلة، وكان عليه أن يقرر إما أن يحاول الإبحار مع اتجاه الرياح للفرار من نيران المدافع الجانبية التي ستمطر عليهم من القادس الضخمة «سانتا كروز» التي كانت مباشرة أمامهم، وإما أن يركض عكس اتجاه الرياح بمفرده، عبر سرب العدو، مدركًا بأن بقية سفن هاوارد قد استدارت بالفعل متجهة أكثر نحو الشمال.

كان ألبان كارادوك قد صرخ: «اذهب شمالًا مع اتجاه الرياح».

لقد انضم إليهم كقائد ثان. كان بلاكتورن ربانًا وبحارًا وكان مسؤولًا، وهذه هي أول قيادة له. لقد أُصر ألبان كارادوك على المشاركة في القتال رغم عدم أحقيته بالوجود على متن السفينة، وكان السبب الوحيد هو كونه إنجليزيًا، وكان لكل إنجليزي الحق في أن يكون على متن السفينة في أحلك الأوقات من التاريخ.

- توقفوا هناك.

أمر بلاكتورن وأدار دفة القيادة جنوبًا، متجهًا نحو فم أسطول العدو، مدركًا أن الاتجاه الآخر سيجعلهم عرضة لمدافع القادس الشاهقة فوقهم الآن. لذلك انطلقوا جنوبًا مسابقين الرياح عبر القوادس. مرت قذائف سفينة «سانتا كروز» ذات الطوابق الثلاثة بأمان فوق رؤوسهم ورد عليهم بإطلاق قذيفتين عليها، رغم أنها كانت كلدغات البراغيث مقارنة بتلك السفينة الضخمة، ثم أصبحوا يندفعون عبر وسط العدو. لم ترغب القوادس على جانبي سفينته في إطلاق النار على هذه السفينة الوحيدة خوفًا من أن تصيب قذائفهم ببعضهم بعضًا، لذلك ظلت المدافع صامتة. ثم اخترقت سفينته ووشكت على النجاة عندما امتدت قذائف من ثلاثة طوابق من سفينة «مادر دي ديوس» فوقهم. تحرك صاريا السفينة خاضعتهما وانحرفا بعيدًا مثل

الأسهم، وتعثّر الرجال في الحبال. اختفى نصف سطح السفينة الرئيسي الأيمن، وامتلاً المكان بالموتى والمحتضرين.

كان قد رأى ألبان كارادوك ملقى على عربة مدفع محطمة، بدا صغيراً جداً ودون ساقين. حمل البحار العجوز الذي كانت عيناه على وشك الخروج من رأسه، وصرخاته مروعة: «يا إلهي لا أريد أن أموت لا أريد أن أموت، ساعدني ساعدني، ساعدني ساعدني، يا إلهي إنه الألم، النجاة».

علم بلاكثورن أنه يوجد شيء واحد يمكنه فعله من أجل ألبان كارادوك. التقط وتد تثبيت الشراع وانهال به عليه بكل ما أوتي من قوة.

ثم بعد أسابيع، اضطر إلى إخبار فيليسييتي أن والدها قد مات. لم يخبرها بأكثر من أن ألبان كارادوك قد قُتل على الفور. لم يخبرها أن يديه كانتا ملطختين بدماء لن تُمحي أبداً...

كان بلاكثورن والساموراي يسيران الآن في شارع واسع متعرج. لا توجد متاجر، فقط منازل متجاورة، كل منزل في أرضه الخاصة وله سياج مرتفعة، وكانت المنازل والأسوار والطريق نفسه نظيفاً للغاية.

كانت النظافة أمراً لا يصدق بالنسبة لبلاكثورن لأنه في لندن ومدن وقرى إنجلترا -وأوروبا- كانت القاذورات والفضلات البشرية والبول تُلقى في الشوارع، لتُجمع من قبل عمال النظافة أو يُسمح لها بالتكدس حتى لا يستطيع المشاة والعربات والخيول المرور. عندها فقط ربما ستُنظف معظم البلدان نفسها. وكان عمال النظافة في لندن قطعاناً كبيرة من الخنازير التي كانت تجوب الشوارع الرئيسية ليلاً. في الغالب كانت الفئران وجماعات الكلاب والقطط الضالة والحرائق هي التي تنظف لندن. والذباب أيضاً.

لكن أوساكا كانت مختلفة تماماً. سأل نفسه كيف يفعلون ذلك؟ لا يوجد حفر، ولا أكوام من روث الخيول، ولا آثار عجلات، ولا قذارة أو نفايات من أي نوع. مجرد أرض صلبة، مكنوسة ونظيفة. جدران خشبية ومنازل خشبية براقة وأنيقة. وأين هي جموع المتسولين والعجزة الذين ينتشرون في كل بلدة في العالم المسيحي؟ وعصابات قطاع الطرق والشبان الجامحين الذين حتماً يتسللون في الظل؟

انحنى الناس الذين مروا بهم باحترام، وجثا بعضهم. كان الحمالون ينتقلون بسرعة بالهوادج أو تلك ذات الراكب الواحد. كانت جماعات الساموراي -ذوو الزي الرمادي وليس البني أبدًا- يسرون في الشوارع بلا مبالاة.

كانوا يسرون في شارع تصطف على جانبيه المتاجر عندما خارت ساقاه. سقط بقوة وهبط على يديه وركبتيه.

ساعده الساموراي على النهوض ولكنه في الوقت الحالي أنهك تمامًا ولم يعد قادرًا على السير.

قال باليابانية: «معذرة، انتظروا رجاءً».

تشنجت ساقاه. فرك عضلات ربة ساقيه المتيبسة، وبارك الأب دومينجو على الأشياء الثمينة التي علمه إياها.

نظر إليه قائد الساموراي وتحدث مطولاً.

أجاب بلاكتورن باليابانية ببطء ولكن بوضوح: «أنا آسف، لا أتحدث اليابانية. انتظر رجاءً».

- آه! حسنًا يا أنجين سان. فهمت.

قال الرجل، وقد فهمه. أعطى أمرًا حازمًا ومختصرًا فانطلق أحد الساموراي مبتعدًا. نهض بلاكتورن بعد فترة وحاول أن يعرج لكن قائد الساموراي رفض وأشار إليه بالانتظار.

سرعان ما عاد الساموراي ومعه أربعة من الحمالين شبه العراة والمحفة الخاصة بهم. أوضح الساموراي لبلاكتورن كيفية الجلوس داخلها والتمسك بالحزام المعلق من العمود المركزي.

انطلق الموكب مرة أخرى. وسرعان ما استعاد بلاكتورن قوته وفضل المشي مرة أخرى، لكنه كان يعلم أنه لا يزال ضعيفًا. فكر: يجب أن أحصل على قسط من الراحة. لم تبقَ لدي طاقة. يجب أن أستحم وأحصل على بعض الطعام. طعام حقيقي.

الآن كانوا يصعدون سلالم واسعة تربط شارعًا بآخر ودخلوا منطقة سكنية تتراعى على أطراف غابة ضخمة ذات أشجار عالية وطرق تمر عبرها. وجد بلاكتورن متعة كبيرة في الخروج من الشوارع، حيث كان العشب المشذب جيدًا ناعمًا تحت قدميه، والممر يتعرج بين الأشجار.

عندما كانوا في أعماق الغابة، اقتربت مجموعة أخرى من حول منعطف أمامهم تضم أكثر من ثلاثين ساموراي من ذوي الزي الرمادي. توقفوا عندما جاؤوا إلى جانبهم، وبعد مراسم تحية قادتهم المعتادة لبعضهم بعضًا، تحولت كل أعينهم إلى بلاكتورن. توجد سلسلة من الأسئلة والأجوبة، ثم عندما بدأ هؤلاء الرجال في إعادة تشكيل صفوفهم للمغادرة، استل قائدهم سيفه بهدوء وطعن قائد الساموراي الخاص ببلاكتورن. وفي الوقت نفسه هاجمت المجموعة الجديدة بقية الساموراي الموجودين مع بلاكتورن. كان الكمين مفاجئًا للغاية ومخططًا له جيدًا لدرجة أن جميع الساموراي العشرة من الرماديين كانوا قد ماتوا تقريبًا في اللحظة نفسها. لم يكن لدى أي منهم حتى وقت ليستل سيفه.

كان الحمالون جاثين على ركبهم في حالة رعب، جباههم ملتصقة بالعشب. وقف بلاكتورن بجوارهم. أرسل القبطان الساموراي -وهو رجل ضخم البنية ذو بطن كبير- حراسًا إلى طرفي الطريق. وكان آخرون يجمعون سيوف القتلى. لم يلق الرجال أي اهتمام لبلاكتورن على الإطلاق خلال كل هذا، حتى بدأ في التراجع. وحينها على الفور صدر أمر حاد من القائد والذي نص بوضوح على بقاءه حيث كان.

بناءً على أمر آخر، شرع هؤلاء الرماديون الجدد جميعًا بخلع الكيمونو الخاص بهم. تحتهم كانوا يرتدون مجموعة متنوعة من الخرق والكيمونو القديم. ارتدى الجميع أقنعة كانت معلقة بالفعل حول أعناقهم. وجمع أحد الرجال الأزياء الرسمية الرمادية واختفى بهم في الغابة.

فكر بلاكتورن: لا بد أنهم قطاع طرق. لماذا يرتدون الأقنعة إذن؟ ماذا يريدون مني؟

دردش قطاع الطرق بهدوء فيما بينهم، يراقبونه وهم ينظفون سيوفهم على ملابس الساموراي القتلى.

كانت عينا القائد فوق قناع القماش مستديرتين وحادتين وثاقبتين: «أنجين سان؟ أليس كذلك».

أجاب بلاكتورن وهو يشعر بالقشعريرة تسري على جلده: «بلى».

أشار الرجل إلى الأرض، يأمره بوضوح بألا يتحرك: «هل فهمت؟».

- نعم.

نظروا إليه من أعلى إلى أسفل. ثم خرج من الشجيرات للحظة واحدة أحد حراس مواقعهم -لم يعد يرتدي الزي الرمادي بل مقنعا، مثلهم جميعا- على بُعد مائة خطوة. ولوح واختفى مرة أخرى.

أحاط الرجال بلاكثورن على الفور وهم يستعدون للمغادرة. وضع قائدهم عينيه على عمال الحمالين الذين ارتعدوا مثل كلاب لديهم سيد قاس ووضعوا رؤوسهم أعمق في العشب.

ثم أصدر قائدهم أمرا حادًا. رفع الأربعة رؤوسهم ببطء بعدم تصديق. أصدر الأمر مجددًا وانحنوا وخضعوا وتراجعوا. ثم انطلقوا على أعقابهم كأنهم رجل واحد واختفوا في الغابة.

ابتسم قاطع الطرق باحتقار وأشار إلى بلاكثورن ليبدأ في العودة نحو المدينة.

ذهب معهم عاجزًا. فلا مجال للفرار.

كانوا على وشك الوصول إلى حافة الغابة عندما توقفوا. سمعوا أصوات قادمة من أمامهم وخرجت مجموعة أخرى مكونة من ثلاثين ساموراي من المنعطف. مرتدين البني والرمادي، البني في المقدمة وقائدهم محمولاً في محفة، يتبعه عدد قليل من الخيول. توقفوا على الفور. وتحركت كلتا المجموعتين إلى مواقع الاشتباك، وراقبا بعضهما بعضًا بعدائية على بعد سبعين خطوة بينهما. سار قائد قطاع الطرق إلى المساحة الفاصلة بينهما، وكانت حركاته متوترة، وصاح بغضب على الساموراي الآخر مشيرًا إلى بلاكثورن ثم إلى الورا إلى حيث وقع الكمين. استل سيفه وأشهره بتهديد عاليًا، من الواضح أنه يخبر الطرف الآخر بالابتعاد عن الطريق.

أصدرت جميع سيوف رجاله أصواتًا حادة وهي تنسل من أغمادها. تركز أحد قطّاع الطرق خلف بلاكثورن بناءً على أمره، وسيفه مرفوع وعلى أهبة الاستعداد، ومرة أخرى شرع القائد في مجادلة خصمه.

لم يحدث شيء للحظة، ثم رأى بلاكثورن الرجل المحمول في المحفة ينزل وتعرف عليه على الفور. لقد كان كاسيجي يابو. بادل يابو قائد قطاع الطرق المجادلة لكن هذا الرجل لوح بسيفه بغضب، وأمرهم بالابتعاد عن الطريق. توقف غضبه فجأة. ثم أصدر يابو أمرًا مقتضبًا، وهاجم مع صرخة

قتال مدوية، وهو يعرج قليلاً، وسيفه مرفوعٌ عالٍ، ورجاله يندفعون معه، والرماديون ليسوا بعبيدين عنهم.

انطرح بلاكتورن على الأرض لتفادي ضربة السيف التي كانت لتقطعه إلى نصفين، لكن الضربة كانت سيئة التوقيت واستدار قائد قطاع الطرق وفرَّ هارباً إلى الشجيرات، وتبعه رجاله.

سرعان ما وصل البنيون والرماديون إلى جانب بلاكتورن الذي نهض بسرعة على قدميه. انطلق بعض الساموراي لملاحقة قُطَاع الطرق داخل الشجيرات، بينما ركض آخرون صعوداً على الطريق، وتفرق الباقون في تشكيلات دفاعية. توقف يابو عند حافة الأشجار، وأصدر الأوامر بسلطة، ثم عاد ببطء وأصبح عرجه أكثر وضوحاً.

قال يابو وهو يلثث من الإجهاد: «So desu يا أنجين سان».

- So desu يا كاسيجي يابو سان.

أجاب بلاكتورن مستخدماً العبارة نفسها التي تعني شيئاً مثل «حسنًا» أو «حقًا» أو «هل هذه الحقيقة». وأشار إلى الاتجاه الذي فر إليه قطاع الطرق. تحدث باليابانية قائلاً: «شكراً لك».

انحنى باحترام له كأنه شخص متساوي المكانة. وتلا دعاءً آخر للأب دومينجو. وأضاف باليابانية: «أنا آسف، لا أستطيع تحدث اليابانية».

- حسنًا.

قال يابو وهو ليس متأثراً ولو قليلاً، وأضاف شيئاً لم يفهمه بلاكتورن.

سأل بلاكتورن باليابانية: «هل لديك مترجم؟».

- لا يا أنجين سان. أنا آسف.

شعر بلاكتورن براحة أكبر قليلاً. الآن يمكنه التواصل مباشرة. كانت مفرداته قليلة، لكنها البداية.

كان يابو يفكر بحماس: يا للأسف، أتمنى لو كان لدي مترجم حقاً. بحق الزعيم بوذا.

أود أن أعلم ما حدث عندما التقيت تورانا جا يا أنجين سان، والأسئلة التي طرحها وبماذا أجبت، وماذا أخبرته عن القرية والبنادق والبضائع والسفينة والقادس وعن رودريجو. أود أن أعرف كل ما قيل، وكيف قيل، وأين كنت

ولماذا أنت هنا. عندها ستكون لدي فكرة عما يدور في ذهن تورانا، والطريقة التي يفكر بها. بعدها سيمكنني التخطيط لما سأخبره إياه اليوم. ولكنني عاجز في الوضع الحالي.

لماذا رآك تورانا فور وصولنا، ولم يرني؟ لماذا لم تصل أي كلمة أو أوامر منه منذ رسونا حتى اليوم، بخلاف التحية المهدبة الإلزامية و«أطلع بسعادة لرؤيتك قريباً»؟ لماذا أرسل لاستدعائي اليوم؟ لماذا تأجل اجتماعنا مرتين؟ هل كان بسبب شيء قلته؟ أم هيرو ماتسو؟ أم أنه مجرد تأخير طبيعي بسبب كل همومه الأخرى؟

نعم يا تورانا، لديك مشكلات تكاد تكون لا تقهر. ينتشر نفوذ إيشيدو كالبرق. وهل تعلم بعد بخيانة الزعيم أونوشي؟ هل تعلم أن إيشيدو عرض عليّ رأس إيكوا جيكيو ومقاطعته إذا انضمت إليه سرّاً الآن؟

لماذا اخترت اليوم لتستدعيني؟ أي كامي صالح وضعني هنا لإنقاذ حياة أنجين سان، فقط للسخرية مني لأنه لا يمكنني التحدث معه مباشرة، أو حتى من خلال شخص آخر، للعثور على مفتاح قفلك السري؟ لماذا وضعته في السجن للإعدام؟ لماذا أراد إيشيدو إخراجه من السجن؟ لماذا حاول قطاع الطرق اختطافه لطلب فدية؟ فدية من من؟ ولماذا لا يزال أنجين سان على قيد الحياة؟ كان ينبغي لذلك اللص أن يقطعه بسهولة إلى نصفين.

لاحظ يابو الخطوط العميقة المحفورة على وجه بلاكتورن والتي لم تكن بادية في المرة الأولى التي رآه فيها. فكر يابو: يبدو عليه الجوع. إنه كالكلب البري. ولكن ليس كأحد أفراد المجموعة، بل قائد المجموعة، أليس كذلك؟ بلى أيها الربان، سأقدّم ألف كوكو مقابل مترجم موثوق الآن.

سأصبح سيدك. ستبني سفني وتدريب رجالي. يجب أن أتلاعب بتورانا بطريقة ما. وإذا لم أستطع، فلا يهم. في حياتي القادمة سأكون أكثر استعداداً. قال يابو بصوت عالٍ لبلاكتورن وهو يبتسم قليلاً: «كلب جيد. كل ما تحتاجه هو يد حازمة وبضعة عظام وبضع جلدات. سأسلمك أولاً إلى الزعيم تورانا بعد أن تستحم. أنت تنتن يا زعيم ربان».

لم يفهم بلاكتورن الكلمات لكنه استشعر شيئاً من الود فيها ورأى ابتسامة يابو. بادلته الابتسام وقال باليابانية: «لا أفهم».

- حسناً يا أنجين سان.

استدار الدايميو وألقى نظرة نحو قُطَاع الطرق. وضع يديه حول فمه وصرخ. وعلى الفور عاد جميع البنين إليه. كان كبير الساموراي الرماديين يقف في وسط الطريق، وهو أيضًا أوقف المطاردة. لم يعد أي من قُطَاع الطرق.

عندما اقترب قائد الرماديين هذا من يابو، دار بينهما جدالٌ حادٌ يتخلله الإشارة إلى المدينة وإلى القلعة، وبدا واضحًا وجود خلاف واضح بينهما. أخيرًا فرض يابو سيطرته واضعًا يده على سيفه، وأشار إلى بلاكتورن للدخول إلى المحفة.

قال القائد: «لا».

كان الرجلان على وشك أن يتشاجرا والرماديون والبنيون تحركوا بقلق.

- أنجين سان desu shūjin توراناغا ساما...

التقط بلاكتورن كلمة هنا وأخرى هناك. Watakushi تعني «أنا»، hitachi تعني «نحن»، shūjin تعني «أسير». ثم تذكر ما قاله رودريجيز، لذا هز رأسه قاطعًا كلامه بحدة متحدثًا باليابانية: «أنا لست أسيرًا، أنا أنجين سان».

حدق إليه الرجلان.

حطم بلاكتورن الصمت وأضاف بيابانية متعثرة، مدركًا أن الكلمات غير صحيحة التركيب وأن نطقها طفولي، لكنه يأمل أن تُفهم: «أنا صديق. ليس أسيرًا. أرجوك افهم. صديق. أنا آسف، يريد الصديق أن يستحم. حمام، هل تفهم؟ متعب. جائع. حمام».

وأشار إلى برج القصر الحصين: «اذهب إلى هناك. الآن رجاء. الزعيم توراناغا الأول، الزعيم إيشيدو الثاني. اذهب الآن».

ومع مزيدٍ من التعجرف في آخر كلمة «الآن»، دخل بصعوبة إلى المحفة واستلقى على الوسائد، وقد برزت قدماه إلى الخارج.

ثم ضحك يابو، وانضم الجميع إليه.

قال يابو بانحناءٍ استهزاء: «إذن أنت أنجين ساما».

- لا يا يابو ساما. أنجين سان.

صححه بلاكتورن بارتياح. نعم أيها الوغد. أنا أعلم شيئًا أو شيئين الآن. لكنني لم أنسك. وسرعان ما سأمشي على قبرك.



الفصل السادس عشر

قال توراناڭا: «ربما كان من الأفضل أن تستشيرني قبل نقل سجينني من ولايتي القضائية يا زعيم إيشيدو».

- كان الهمجي في السجن العام مع عامّة الناس. وبطبيعة الحال، افترضت أنك لم تعد مهتمّاً به بعد الآن، وإلا لما كنت قد أمرت بإخراجه من هناك. بالطبع لم أقصد مطلقاً التدخل في شؤونك الخاصة.

كان هيرو ماتسو هادئاً ومراعياً ظاهرياً لكنه كان يغلي من الغضب في داخله. لقد أدرك أنه وقع في فخ التهور. كان عليه حقاً طلب الإذن من توراناڭا أولاً. هذا شيء اقتضته آداب التعامل المعتادة. وحتى لو فعل لما كان ذلك ليهم على الإطلاق لو كان الهمجي لا يزال تحت سيطرته، في مقره الخاص؛ عندها كان ليسلم الهمجي ببساطة لتوراناڭا متى شاء، عندما وحينما يطلب منه ذلك. ولكن أن يُعترض بعض رجاله ويُقتلوا بتلك المهانة، ثم أن يقوم الدايميو يابو وبعض رجال توراناڭا بالاستيلاء على الهمجي من مزيد من رجاله، فهذا يغير الوضع تماماً. لقد فقد ماء وجهه، في حين أن خطته الكاملة لتدمير توراناڭا علانية كانت تهدف إلى وضع توراناڭا في هذا الموقف على وجه التحديد: «أنا أعتذر مجدداً».

نظر توراناڭا نحو هيرو ماتسو، وبدت عبارة الاعتذار في أذانها كال موسيقى. أدرك الرجلان حجم المعاناة الداخلية التي تكبدها إيشيدو. كانوا يجلسون في قاعة المقابلات الرسمية الكبرى. وبناءً على اتفاق مسبق، لم يوجد سوى خمسة حراس برفقة المتخاصمين، رجال عرفوا عنهم بالولاء التام. أما البقية فكانوا ينتظرون في الخارج.

كان يابو ينتظر في الخارج أيضاً. والهمجي كان يُنظّف. فكر توراناڭا وهو يشعر بالرضا التام عن نفسه: جيد. تطرّق بتفكيره قليلاً إلى يابو وقرر ألا يقابله اليوم بعد كل شيء، بل أن يواصل اللعب به كسمكة. لذا طلب من

هيرو ماتسو أن يبعده، ثم التفت إلى إيشيدو مجددًا: «بالطبع أتقبل اعتذارك. لحسن الحظ لم يحدث أي ضرر».

- إذن، هل يجوز لي أن آخذ الهمجي إلى الوريث، حالما يصبح لائقًا؟
- سأرسله إليكم فور انتهائي منه.
- هل لي أن أسأل متى سيكون ذلك؟ كان الوريث يتوقع حضوره هذا الصباح.
- لا ينبغي أن نقلق بشأن هذا الأمر، أنا وأنت، أليس كذلك؟ يايمون لم يتجاوز السابعة من عمره. أنا متأكد من أن صبيًا في مثل سنه يستطيع التحلي بالصبر. أليس كذلك؟ الصبر هو أحد أشكال الانضباط ويتطلب الممارسة. أليس كذلك؟ سأشرح له سوء التفاهم بنفسي. سأعلمه درسًا آخر في السباحة هذا الصباح.
- حقًا؟

- نعم. يجب أن تتعلم السباحة أيضًا يا زعيم إيشيدو. إنه تمرين ممتاز ويمكن أن يكون مفيدًا جدًا في أثناء الحرب. كل الساموراي لديّ يجيدون السباحة. أصر على أن يتعلم الجميع هذا الفن.
- رجالي يقضون وقتهم في ممارسة الرماية والقتال بالسيف والركوب والتسديد.

- يضيف رجالي إلى ذلك الشعر وفن الخط وتنسيق الزهور ومراسم تقديم الشاي الياباني (cha-no-yu). يجب أن يكون الساموراي على دراية تامة بفنون السلام ليكونوا أقوىاء في فنون الحرب.

قال هيرو ماتسو، مدرّكًا رداءة خطّه اليدوي وبساطة تعليمه: «معظم رجالي أكثر من ماهرين بالفعل في تلك الفنون. يُولد الساموراي للحرب. أفهم الحرب جيدًا. هذا يكفي في الوقت الحالي. هذا والطاعة لإرادة سيدنا».

- درس يايمون في السباحة في ساعة الحصان. هل ترغب في الانضمام إلى الدرس؟

يقسم اليوم والليل كلّ منهما إلى ستة أجزاء متساوية. يبدأ اليوم بساعة الأرنب من الساعة الخامسة صباحًا إلى السابعة صباحًا، ثم التنين من الساعة السابعة صباحًا إلى التاسعة صباحًا. ثم تتبعها ساعات الثعبان والحصان

والماعز والقرد والديك والكلب والخنزير والفأر والثور، وتنتهي الدورة بساعة النمر بين الساعة الثالثة صباحًا والخامسة صباحًا.

قال إيشيدو بفتور: «شكرًا لك، لا. أنا كبير جدًا على تغيير عاداتي».

- سمعت أن قائد رجالك أمر بالسيبوكو.

- بطبيعة الحال. كان يجب القبض على قُطَاع الطرق. على الأقل كان

يجب القبض على واحد منهم. عندها كنا لنعثر على الآخرين.

- أنا مذهول من قدرة هؤلاء الفاسدين على العمل بالقرب من القلعة هكذا.

- أوافقك الرأي. ربما يستطيع الهمجي وصفهم.

ضحك توراناغا: «ماذا عساه يعرف الهمجي؟ أما بالنسبة لِقُطَاع الطُّرُق،

فهم رونين، أليس كذلك؟ الرونين موجودون بوفرة بين رجالك. قد تثمر

التحقيقات هناك. أليس كذلك؟».

- التحقيقات جارية. في اتجاهات عديدة.

تجاهل هירו ماتسو السخرية المقنعة حول الرونين، الساموراي المرتزقة

الذين فقدوا سادتهم وأصبحوا منبوزين من المجتمع، والذين توافد الآلاف

منهم إلى راية الوريث عندما همس إيشيدو في كل مكان أنه -نيابةً عن الوريث

ووالدة الوريث- سيقبل ولاءهم، وسيغفر لهم وينسى -بصورة لا تصدق-

تقصيراتهم أو ماضيهم، وسيرد ولاءهم في نهاية المطاف بسخاءٍ يضاهي

سخاء التايكو. عرف هירו ماتسو أنها كانت خطوة عبقرية. لقد منحته

مجموعة هائلة من الساموراي المدربين للاستعانة بهم؛ لقد ضمن الولاء، لأن

الرونين كانوا يعلمون أنهم لن يحصلوا على فرصة أخرى من هذا القبيل. لقد

جلبت إلى معسكره جميع الغاضبين، والذين أصبح الكثير منهم رونينًا بسبب

فتوحات توراناغا وحلفائه. وأخيرًا: أزال خطرًا عن المملكة -زيادة عدد

قطاع الطرق- لأن الطريقة الوحيدة المعقولة لعيش حياة مستقرة بالنسبة

للساموراي الذي لم يحالفه الحظ ليصبح رونينًا هي أن يصبح راهبًا أو قاطع

طُرق.

قال إيشيدو وصوته مشوب بالسم: «توجد أشياء كثيرة لا أفهمها بشأن

هذا الكمين. نعم. لماذا على سبيل المثال يحاول قُطَاع الطُّرُق اختطاف هذا

الهمجي لطلب فدية؟ يوجد الكثير من الآخرين في المدينة، والأهم. ألم يكن

هذا ما قاله قُطَاع الطُّرُق؟ أراد فدية. فدية من من؟ ما قيمة الهمجي؟ لا قيمة

له. وكيف عرفوا أين سيكون؟ أعطيت الأمر بإحضاره إلى الوريث بالأمر فقط، ظناً مني أنه سيُسلي الصبي. غريب جداً». قال توراناغا: «جداً».

- ثم توجد مصادفة وجود الزعيم يابو في الجوار مع بعض رجالك وبعض رجالي في ذلك الوقت بالذات. غريب جداً.

- جداً. بالطبع كان موجوداً لأنني استدعيتَه، وكان رجالك حاضرين لأننا اتفقنا -بناءً على اقتراحك- أنه من السياسة الجيدة وطريقة لإصلاح الفجوة التي بيننا، أن يرافق رجالك رجالي أينما ذهبوا في أثناء زيارتي الرسمية هذه.

- ومن الغريب أيضاً أن قُطّاع الطرق الذين كانوا شجعاناً بما فيه الكفاية ومنظمين جيداً لقتل العشرة الأوائل دون قتال، تصرفوا كالكوريين عندما وصل رجالنا. كان الجانبان متكافئَيْن في القوة. لماذا لم يقاتل قطاع الطرق، أو يأخذوا الهمجي إلى التلال على الفور، بدلاً من البقاء بغباء على الطريق الرئيسي المؤدي إلى القلعة؟ غريب جداً.

- جداً. سأصطحب معي بالتأكيد حراساً مضاعفين غداً عندما أذهب للصيد بالصقور. تحسباً لأي طارئ. إنه لأمر مقلق أن تعلم بوجود اللصوص على مقربة شديدة من القلعة. نعم. ربما ترغب في الصيد أيضاً؟ هل تريد أن تطير أحد صقورك ضد صقري؟ سأصيد في التلال الشمالية.

- شكراً لك، لا. سأكون مشغولاً غداً. ربما بعد غد؟ لقد أمرت عشرين ألف رجل بتمشيط جميع الغابات والأشجار والقيعان حول أوساكا. لن يتبقى أي قُطّاع طرق على مسافة عشرين ري في غضون عشرة أيام. هذا أستطيع أن أعدك به.

أدرك توراناغا أن إيشيدو يستخدم قطاع الطرق كذريعة لزيادة عدد قواته في المنطقة المجاورة. إذا قال عشرين، فهو يقصد خمسين. قال لنفسه: رقبة الفخ تضيق. لماذا بهذه السرعة؟ ما الخيانة الجديدة التي حدثت؟ لماذا يشعر إيشيدو بكل هذه الثقة؟ أضاف بفتور: «جيد. إذن بعد غد يا زعيم إيشيدو. ستُبقى رجالك بعيداً عن منطقة صيدي؟ لا أريد أن يُزعج صيدي».

- بالتأكيد. ماذا عن الهمجي؟

- كان ولا يزال من ممتلكاتي. وكذلك سفينته. ولكن يمكنك أن تأخذه بعد أن أنتهي منه. وبعدها يمكنك إرساله إلى ساحة الإعدام إذا رغبت في ذلك.

أغلق إيشيدو مروحة وأدخلها في كفه: «شكرًا لك. نعم سأفعل ذلك. إنه غير مهم. أما الأمر المهم والسبب في مجيئي لرؤيتك هو أن... بالمناسبة لقد سمعت أن السيدة -والدتي- تزور دير جوهجي».

- حقًا؟ كنت أعتقد أن الموسم قد تجاوز ذروته قليلًا لمشاهدة أزهار الكرز. بالتأكيد لقد تجاوزت أوجها الآن، أليس كذلك؟

- أوافقك الرأي. ولكن إذا كانت ترغب في رؤيتها، فلما لا؟ لا يمكنك توقع شيء من كبار السن، لديهم عقولهم المستقلة ويرون الأشياء من منظور مختلف، أليس كذلك؟ ولكن صحتها ليست على ما يرام. أنا قلق عليها. يجب أن تكون حذرة للغاية، فهي تُصاب بالبرد بسهولة.

- الأمر نفسه مع والدتي. يجب أن تراقب صحة كبار السن.

دوّن توراناغا ملاحظة ذهنية لإرسال رسالة فورية لتذكير رئيس الدير بمراقبة صحة المرأة العجوز بعناية فائقة. لو ماتت في الدير ستكون التداعيات وخيمة. سيشعر بالعار أمام الإمبراطورية. سيدرك جميع الداييمو أنه في لعبة الشطرنج للحصول على السلطة قد استخدم امرأة عجوزًا عاجزة -والدة عدوه- بمنزلة بيدق، وفشل في تحمل مسؤوليته تجاهها. إن احتجاز رهينة هو في الحقيقة خطة محفوفة بالأخطار.

كاد إيشيدو أن يفقد البصر غضبًا عندما سمع أن والدته الموقرة في معقل توراناغا في ناجويا. سقطت رؤوس. قدّم على الفور خططًا لتدمير توراناغا، واتخذ قرارًا جادًا بالاستثمار في ناجويا ومحو الداييمو، كازاماكي -الذي كانت في عهده ظاهريًا- لحظة بدء الأعمال العدائية. أخيرًا، أرسلت رسالة خاصة إلى رئيس الدير من خلال وسطاء، مفادها أنه ما لم تخرج سالمة من الدير في غضون أربع وعشرين ساعة، فإن ناجا -الابن الوحيد لتوراناغا- الموجود بالقرب وأيًا من نسائه اللاتي يمكن القبض عليهن، سيستيقظن لسوء الحظ في قرية المصابين بالجذام المنبوزين، بعد أن يطعمنهم ويسقنهم ويخدمنهم بإحدى عاهرات القرية. علم إيشيدو أنه كان يتعين عليه أن يخطو بحذر بينما كانت والدته في قبضة توراناغا. لكنه أوضح أنه إذا لم يُفرج

عنها، فسيشعل الإمبراطورية بأكملها. سأل بأدب: «كيف حال السيدة والدتك يا زعيم تورانا؟».

سمح تورانا لسعادته بالظهور، سواء من التفكير في والدته أو من علمه بغضب إيشيدو العاجز: «بخير تمامًا، شكرًا لك. إنها تتمتع بلياقة لافته بالنسبة لشخص يبلغ من العمر أربعة وسبعين عامًا. أمل فقط أن أكون بنفس قوتها عندما أصل إلى سنها».

وعد إيشيدو نفسه: أنت في الثامنة والخمسين يا تورانا، لكنك لن تبلغ التاسعة والخمسين أبدًا: «أرجو أن تقدم لها أطيب تمنياتي بحياة سعيدة طويلة الأمد. شكرًا لك مجددًا وآسف لإزعاجك».

انحنى بأدب شديد، ثم أضاف وهو يحاول كبح سعادته المتصاعدة بصعوبة: «الأمر المهم الذي أردت مقابلتك بشأنه هو أن الاجتماع الرسمي الأخير للأوصياء قد تأجل. لن نلتقي الليلة عند غروب الشمس».

حافظ تورانا على الابتسامة على وجهه لكنه اهتز داخليًا: «حقًا؟ لماذا؟».

- الزعيم كياما مريض. لقد وافق الزعيم سوجياما والزعيم أونوشي على التأجيل. وكذلك فعلت أنا. بضعة أيام ليسوا بالأمر المهم، أليس كذلك، بالنسبة لمسائل مهمة كهذه؟

- يمكننا عقد الاجتماع دون الزعيم كياما.

كانت عينا إيشيدو ساخرتين: «لقد اتفقنا على أننا لا ينبغي لنا ذلك».

- برسمية؟

- إليك أختامنا الأربعة.

كان تورانا يغلي غضبًا. فإن أي تأخير يعرضه لخطر لا نهائي. هل يمكنه مقايضة والدة إيشيدو باجتماع فوري؟ لا، لأن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا لإرسال الأوامر واستلامها، وكان سيتنازل عن ميزة كبيرة جدًا مقابل لا شيء: «متى سيعقد الاجتماع؟».

- فهمت أن الزعيم كياما سيصبح على ما يرام غدًا، أو ربما بعد غد.

- جيد. سأرسل طبيبي الخاص ليفحصه.

- أنا متأكد من أنه سيقدر ذلك. لكن طبيبه الشخصي منع أي زيارات. قد يكون المرض مُعدياً، أليس كذلك؟
- ما هو المرض؟

- لا أعلم يا سيدي. هذا ما قيل لي.

- هل الطبيب همجي؟

قال إيشيدو بسخرية: «نعم. كما فهمت أنه الطبيب الرئيسي للمسيحيين. طبيب كاهن مسيحي لدايميو مسيحي. أطباءنا ليسوا جيدين بما فيه الكفاية لدايميو مهم جداً... جداً كهذا».

ازداد قلق توراناغا. إذا كان الطبيب يابانياً، فهناك العديد من الأشياء التي يمكنه القيام بها. ولكن مع طبيب مسيحي -كاهن يسوعي لا محالة- حسناً، أن تتعارض مع أحدهم أو حتى تتدخل مع أحدهم، فقد يؤدي ذلك إلى نفور جميع الدايميو المسيحيين، وهو أمر لا يستطيع المخاطرة به. لقد علم أن صداقته مع تسوكو سان لن تساعد ضد الدايميو المسيحيين أونوشي أو كياما. كان من مصلحة المسيحيين تقديم جبهة موحدة. وسرعان ما سيضطر إلى اللجوء إليهم -الكنة الهمج- للتوصل إلى اتفاق، ولمعرفة ثمن تعاونهم. فكر: إذا كان إيشيدو يقف إلى جانبه حقاً أونوشي وكياما -وجميع الدايميو المسيحيين سيتبعون هذين الرجلين إذا تحركا معاً- فأنا إذن معزول. إذن خيارى الوحيد المتبقي هو السماء القرمزية.

وقال محدداً موعداً: «سأزور الزعيم كياما بعد غد».

- ولكن العدوى؟ لن أغفر لنفسي أبداً إذا حدث لك أي شيء وأنت هنا في أوساكا يا زعيم. أنت ضيفي وتحت رعايتي. يجب أن أصر على ألا تزوره.

- يمكنك الاطمئنان يا زعيم إيشيدو، إن العدوى التي يمكنها الإطاحة بي لم تُخلق بعد، أليس كذلك؟ لقد نسيّت تنبؤ المنجم.

عندما جاءت السفارة الصينية إلى التايكو قبل ست سنوات لمحاولة تسوية الحرب اليابانية الكورية الصينية، كان من بينهم منجم مشهور. تنبأ هذا الصيني بعديد من الأشياء التي تحققت منذ ذلك الحين. في إحدى وجبات العشاء الاحتفالية الباذخة جداً للتايكو، طلب التايكو من المنجم أن يتنبأ بوفاة بعض مستشاريه. قال المنجم إن توراناغا سيموت بالسيف عندما يكون في

منتصف العمر. أما إيشيدو الفاتح الشهير لكوريا -أو تشوسين كما يسمي الصينيون تلك الأرض- فسيموت بلا مرض، كرجل عجوز وقدماه راسختان في الأرض، وأشهر رجل في عصره. لكن التايكو نفسه سيموت في فراشه محترمًا ومبجلًا بسبب تقدمه في السن، تاركًا وراءه ابنًا سليمًا ليخلفه. وقد سرَّ هذا الأمر التايكو، الذي كان لا يزال بلا أولاد، لدرجة أنه قرر السماح للسفارة بالعودة إلى الصين وعدم قتلهم كما خطط بسبب وقاحتهم السابقة. فبدلاً من التفاوض من أجل السلام كما كان يتوقع، عرض الإمبراطور الصيني من خلال هذه السفارة مجرد «تنصيبه ملكًا لبلاد وا»، كما يسمي الصينيون اليابان. لذلك أرسلهم إلى ديارهم أحياء وليسوا في الصناديق الصغيرة جدًا التي حُضرت لهم بالفعل، وجدد الحرب ضد كوريا والصين.

قال إيشيدو متذكرًا جيدًا: «لا يا زعيم توراناغا، لم أنس. لكن العدوى يمكن أن تكون مزعجة. لماذا تتحمل الإزعاج؟ فقد تصاب بالجدي مثل ابنك نوبورو، آسف له... أو تصبح مُصابًا بالجذام مثل الزعيم أونوشي. لا يزال شابًا، ولكنه يعاني. أجل، يعاني حقًا».

فقد توراناغا توازنه لفترة وجيزة. لقد عرف بلاء المرضين جيدًا. كان نوبورو -ابنه الأكبر- قد أُصيب بالجدي الصيني عندما كان في السابعة عشرة -منذ عشر سنوات- ولم تفلح جميع علاجات الأطباء، يابانيين وصينيين وكوريين ومسيحيين، في تخفيف المرض الذي شوّهه بالفعل ولكنه لن يقتله. وعد توراناغا نفسه: لو أصبحت قويًا جدًا، ربما يمكنني القضاء على هذا المرض. هل ينتقل حقًا من النساء؟ كيف تصاب النساء به؟ كيف يمكن علاجه؟ فكر توراناغا: المسكين نوبورو. لولا الجدي لأصبحت وريثي، لأنك جندي لامع وحاكم أفضل من سودارا، وماكر جدًا. لا بد أنك قد فعلت أشياء سيئة كثيرة في حياة سابقة لتضطر إلى تحمل الكثير من الأعباء في هذه الحياة.

قال: «أقسم بالبوذا إنني لن أتمنى أن يصاب أي أحد بهذين المرضين».

قال إيشيدو: «أتفق معك».

وهو يعتقد أن توراناغا سيتمنى أن يصاب بكليهما لو استطاع. ثم انحنى مجددًا وغادر.

كسر توراناغا الصمت: «إذن؟».

قال هيرو ماتسو: «سواء بقيت الآن أو غادرت، الأمر سيان... كارثة، لأنك الآن تعرضت للخيانة وأصبحت معزولاً يا سيدي. إذا بقيت للاجتماع -لن تحصل على اجتماع لمدة أسبوع- سيكون إيشيدو قد حشد جيوشه حول أوساكا ولن تنجو أبداً، ومهما آلَ إليه مصير السيدة أوتشيبا في إيدو، فمن الواضح أن هيرو ماتسو قرر المخاطرة بها ليصل إليك. من الواضح أنك تعرضت للخيانة وأن الأوصياء الأربعة سيصدرون قراراً ضدك. تصويت أربعة ضد واحد في المجلس يعنى عزلك. وسيظلون يصدرون أي أوامر يرغب بها إيشيدو إذا غادرت. أنت ملزم بتنفيذ قرار بأربعة أصوات ضد واحد. لقد أقسمت على ذلك. لا يمكنك أن تخلّ بكلمتك المقدسة كوصي».

- أتفق معك.

خيم الصمت.

انتظر هيرو ماتسو بقلق متزايد: «ماذا ستفعل؟».

قال توراناغا بمرح مفاجئ: «سأذهب للسباحة أولاً. وبعد ذلك سأرى الهمجي».

سارت المرأة بهدوء عبر حديقة القلعة الخاصة بتوراناغا متجهة نحو كوخ القش الصغير الجميل الذي يقع وسط فسحة من أشجار القيقب. كان الكيمونو الحريري والحزام اللذان ترتديهما المرأة من أبسط ولكن أرقى التصاميم التي يمكن لأشهر الحرفيين في الصين صنعها. كانت تسريحة شعرها من أحدث صيحات الموضة في كيوتو، حيث رُفِعَ عاليًا وثُبَّتَ بدبابيس فضية طويلة. تحمل مظلة شمسية ملونة تحمي بشرتها شديدة البياض. كانت صغيرة القامة، لا يتجاوز طولها مترًا ونصفًا، لكن جسدها متناسق تمامًا. حول رقبتها سلسلة ذهبية رقيقة ويتدلى منها صليب ذهبي صغير.

كانت كيري تنتظر على شرفة الكوخ. جلست بضخامة في الظل، وأردافها تفيض عن الوسادة التي تحتها، بينما كانت تراقب المرأة تقترب على طول الصخور الموضوعة بعناية بين الطحالب حتى بدا وكأنها نبتت هناك.

قالت كيري دون غيرة وهي تبادلها الانحناء: «أنت أجمل من أي وقت مضى وأصغر من أي وقت مضى يا تودا ماريكو سان».

أجابت ماريكو مبتسمة، وهي تجثو لتجلس على وسادة، وشرعت دون قصد في ترتيب تنورتها بأناقة: «أتمنى لو كان ذلك صحيحًا يا كيريتسوبو سان».

- هذا صحيح تمامًا. متى كانت آخر مرة التقينا فيها؟ قبل سنتين أو ثلاث؟ لم تتغيري قيد شعرة خلال عشرين عامًا. لا بد أنه قد مرَّ تقريبًا عشرون عامًا منذ التقينا لأول مرة. هل تذكرين؟ كان ذلك في وليمة أقامها الزعيم جورودا. كنتِ في الرابعة عشرة من عمرك، متزوجة حديثًا ومميزة.

- وخائفة.

- لا، ليس أنتِ. لم تكوني خائفة.

- مضت ستة عشر عامًا يا كيريتسوبو سان، وليس عشرين عامًا. نعم، أتذكر ذلك جيدًا.

فكرت بقلب حزين: أتذكر جيدًا جدًا. ذلك اليوم هو الذي همس فيه أخي بأنه يعتقد أن والدنا الموقر سيثار من زعيمه الإقطاعي، الطاغية جورودا، وأنه سيغتاله. زعيمه الإقطاعي.

نعم يا كيري سان، أتذكر ذلك اليوم وتلك السنة وتلك الساعة. كانت بداية كل الرعب. لم أعترف لأحد قط بأنني كنت أعلم بما سيحدث قبل وقوعه. لم أحذر زوجي أو هירו ماتسو والده - كلاهما من التابعين المخلصين للطاغية - بأن الخيانة يخطط لها أحد أعظم قادته. والأسوأ، أنني لم أحذر جورودا زعمي الإقطاعي. لذا فقد فشلت في أداء واجبي تجاه زعمي الإقطاعي وزوجي وعائلته، والتي أصبحت عائلتي الوحيدة بسبب زواجي. اغفري لي خطيئتي يا مريم وساعديني على تطهير نفسي. لقد التزمت الصمت لحماية والدي الحبيب، الذي دسَّ شرف ألف عام. يا إلهي، يا رب يسوع الناصري، نجِّ هذه الخاطئة من اللعنة الأبدية...

قالت ماريكو بهدوء: «لقد مضى ستة عشر عامًا».

قالت كيري: «كنتُ حاملاً بطفل الزعيم توراناغا في تلك السنة».

وفكرت: لو لم يُغدر بالزعيم جورودا ويُقتل بخبث على يد والدك، لما كان الزعيم توراناغا ليضطر إلى خوض معركة ناجاكودي، ولما كنتُ لأُصاب بالبرد هناك ولما كنتُ لأفقد طفلي. قالت لنفسها: ربما وربما لا. كانت مجرد

كارما، كارما خاصة بي مقدرة مهما حدث، أليس كذلك؟ قالت بلا حقد: «يا ماريكو سان، لقد مضى وقت طويل على ذلك، يبدو الأمر وكأنه حياة أخرى تقريبًا. لكنك لا تكبرين. لماذا لا يمكنني أن أحظى بجسمك وشعرك الجميل، وأن أمشي بتلك الخفة؟». ضحكت كيري: «الإجابة بسيطة: لأنني أكل كثيرًا».

- بماذا يهم؟ أنتِ تنعمين برضى الزعيم توراناغا، أليس كذلك؟ إذن أنتِ مكتملة. أنتِ حكيمة ودافئة وكاملة وراضية عن نفسك.

قالت كيري: «أفضل أن أكون نحيفة ولا أزال قادرة على الأكل وأن أحظى بالرضا. لكنك؟ أنتِ لستِ راضية عن نفسك؟».

قالت ماريكو: «أنا مجرد أداة يعزف عليها الزعيم بونتارو. إذا كان الزعيم زوجي سعيدًا، فأنا بالطبع سعيدة. سعادته هي سعادتي. الأمر نفسه معك».

- نعم. ولكن ليس الأمر نفسه.

حركت كيري مروحتها، فالتقطت الحرير الذهبي شمس ما بعد الظهر. أنا سعيدة للغاية لأنني لست أنتِ يا ماريكو، بكل جمالك وبراعتك وشجاعتك ومعرفتك. لا! لم أكن لأتحمل البقاء كزوجة لذلك الرجل البغيض القبيح المتغطرس والعنيف ليوم واحد، ناهيك بسبعة عشر عامًا. إنه نقيض تام لوالده، الزعيم هيرو ماتسو. الآن هذا هو الرجل الرائع حقًا. لكن بونتارو؟ كيف يكون لأباء مثل هؤلاء الأبناء السيئين؟ أتمنى لو كان لدي ابن، أوه، كم أتمنى ذلك! لكن أنتِ يا ماريكو، كيف تحملتِ هذه العاملة السيئة طوال هذه السنوات؟ كيف صبرتِ على ماسيك؟ يبدو مستحيلًا ألا يكون هناك ظل لها على وجهك أو في روحك. أضافت: «أنتِ امرأة مذهلة يا تودا بونتارو ماريكو سان».

- شكرًا لك يا كيريتسوبو توشيكو سان. من الرائع أن أراكِ يا كيري سان.

- وأنتِ أيضًا. كيف حال ابنك؟

- جميل، جميل، جميل. ساروجي يبلغ الآن من العمر خمسة عشر عامًا، هل يمكنكِ تخيل ذلك؟ طويل وقوي تمامًا مثل والده، وقد أعطى الزعيم هيرو ماتسو ساروجي إقطاعه الخاص وهو... هل كنتِ تعلمين أنه سيتزوج؟

- لا، بمن؟

- إنها حفيدة الزعيم كياما. لقد رتبَّ الزعيم توراناغا الأمر جيدًا. إنها تكافؤ ممتاز لعائلتنا. أتمنى فقط أن تكون الفتاة نفسها... أكثر اهتمامًا

بابني، وأكثر جدارة. هل تعلمين أنها... (ضحكت ماريكو وهي خجلة قليلاً): انظري، أبدو كأبي حماة كانت في الوجود. لكنني أعتقد أنك ستوافقين، إنها لم تتدرب بعد.

- سيكون لديك الوقت للقيام بذلك.

- أمل ذلك. نعم. أنا محظوظة لأن ليست لدي حماة. لا أعرف ماذا كنت سأفعل.

- ستُسحرينها وتدريبنها كما تدربين جميع أفراد أسرتك، أليس كذلك؟ قالت ماريكو وقد تجمدت يداها في حجرها: «أتمنى لو كان ذلك صحيحاً أيضاً». كانت تراقب حشرة اليعسوب وهي تستقر، ثم تتحرك بعيداً: «لقد أمرني زوجي بالحضور إلى هنا. هل يرغب الزعيم توراناغا في مقابلتي؟».

- نعم. يريد منك أن تترجمي له.

- تفاجأت ماريكو: «مع مَنْ؟».

- الهمجي الجديد.

- ولكن ماذا عن الأب تسوكو سان؟ هل هو مريض؟

عبثت كيري بمروحتها: «لا. أفترض أنه ترك لنا أمر التساؤل عن سبب رغبة الزعيم توراناغا في حضورك وليس الكاهن، كما في المقابلة الأولى. لماذا يا ماريكو سان، يتعين علينا أن نحرس جميع الأموال ونسدد جميع الفواتير ونُدرب جميع الخدم ونشتري جميع الأطعمة والسلع المنزلية - وحتى في معظم الأحيان ملابس أسيادنا - لكنهم لا يخبروننا أي شيء حقاً، أليس كذلك؟».

- ربما يكمن دور حدسنا هنا.

كانت نظرة كيري هادئة وودودة: «ربما. ولكنني أعتقد أن هذا كله سيكون مسألة خاصة جداً. لذا ستقسمين بإلهك المسيحي على عدم إفشاء أي شيء عن هذا الاجتماع. لأحد».

بدا أن اليوم يفقد دفاه.

قالت ماريكو بقلق: «بالطبع».

لقد فهمت بوضوح أن كيري تعني أنها لا يجب أن تقول شيئاً لزوجها أو لوالده أو كاهن الاعتراف الخاص بها. وبما أن زوجها أمرها بالحضور إلى

هنا بناءً على طلب الزعيم تورانا، فإن واجبها تجاه زعيمها تورانا يتغلب على واجبها تجاه زوجها، لذلك يمكنها حجب المعلومات عنه بحرية. ولكن عن كاهن الاعتراف؟ هل يمكنها ألا تقول له شيئاً؟ ولماذا هي المترجمة وليس الأب تسوكو سان؟ كانت تعلم أنها أصبحت مجدداً خارج إرادتها متورطة في نوع المكائد السياسية التي أفسدت حياتها، وتمنت مجدداً لو أن عائلتها ليست من فوجيموتو العريقة، وأنها لم تولد قط بهبة اللغات التي سمحت لها بتعلم اللغتين البرتغالية واللاتينية غير المفهوميتين تقريباً، وأنها لم تولد على الإطلاق. لكن بعدها فكرت: حينها لم أكن لأرى ابني أبداً، ولم أكن لأتعلم عن الطفل المسيح أو حقيقته، أو عن الحياة الأبدية.

قالت لنفسها بحزن: إنها الكارما الخاصة بك يا ماريكو، مجرد كارما. ثم أضافت بشيء من الشؤم: «حسناً يا كيري سان. أقسم بربي إنني لن أفشي أي شيء يُقال هنا اليوم، أو في أي وقت أترجم فيه لزيمي الإقطاعي».

- أعتقد أيضاً أنه قد يتعين عليك استبعاد جزء من مشاعرك الخاصة لترجمة ما يقال بالضبط. هذا الهمجي الجديد غريب ويقول أشياء عجيبة. أنا متأكدة أن سيدي اختارك فوق كل الاحتمالات لأسباب خاصة.

- أنا تحت أمر الزعيم تورانا ليتصرف بي كما يشاء. ليس عليه أن يخشى ولائي أبداً.

- لم يكن ذلك موضع شك أبداً يا سيدتي. لم أقصد أي إساءة.

تساقط مطر ربيعي وتزينت بتلات الورود والطحالب والأوراق بالنقاط، واختفى تاركاً وراءه جمالاً فائقاً في أعقابها.

- أودُّ أن أطلب معروفاً يا ماريكو سان. هل يمكنك وضع صليبك تحت الكيمونو الخاص بك؟

تحركت أصابع ماريكو نحوه بدفاعية: «لماذا؟ لم يعترض الزعيم تورانا على اعتناق المسيحية قط، وكذلك الزعيم هيرو ماتسو رئيس عشيرتي. زوجي... زوجي يسمح لي بالاحتفاظ به وارتدائه».

- نعم. لكن الصلبان تُجنن هذا الهمجي والزعيم تورانا لا يريده غاضباً، بل يريد تهدئته.

لم يسبق لبلاكثورن أن رأى أي شخص بهذا الصغر. قال باليابانية: «مرحبًا، مرحبًا يا توراناغا ساما».

انحنى كموظف في البلاط، وأوماً برأسه للصبي الذي كان جاثيًا وعيناه واسعتان بجانب توراناغا، وإلى المرأة الممتلئة التي كانت خلفه. كانوا جميعًا على الشرفة التي تحيط بالكوخ الصغير. يضم الكوخ غرفة صغيرة واحدة ذات حواجز ريفية وعوارض منحوتة وسقف من القش، ومنطقة مطبخ خلفه. كان مبني على أعمدة خشبية ومرفوعًا نحو ثلاثين سنتيمترًا فوق بساط من الرمال البيضاء النقية. كان هذا بيت شاي احتفالي مخصصًا لطقوس حفلات الشاي الياباني وقد بُني بتكلفة باهظة بمواد نادرة لهذا الغرض وحده، رغم أنه في بعض الأحيان يُستخدم للمواعيد والمحادثات الخاصة لأن هذه المنازل كانت معزولة في مناطق نائية.

جمع بلاكتورن الكيمونو الخاص به حوله وجلس على الوسادة التي وُضعت على الرمال تحته وأمامهم. وقال باليابانية: «أنا آسف يا توراناغا ساما، لا أستطيع تحدث اليابانية. هل لديك مترجم؟».

قالت ماريكو على الفور بلغة برتغالية فصيحة تقريبًا: «أنا مترجمتك يا سيدي. لكنك تتحدث اليابانية؟».

أجاب بلاكتورن مدهوشًا: «لا يا أنستي، فقط بضع كلمات أو عبارات». لقد كان يتوقع أن يكون الأب ألفيتو المترجم، وأن يرافق توراناغا الساموراي وربما الدايميو يابو. لكن لم يكن أي ساموراي بالقرب، رغم أن الكثير منهم يحاطون الحديقة.

- يسأل سيدي توراناغا عن المكان الذي... ربما يتعين عليّ أولاً أن أسأل إن كنت تفضل التحدث باللاتينية؟

- أيهما تفضلين يا أنستي.

كان بلاكتورن كأبي رجل مثقف قادرًا على قراءة اللاتينية وكتابتها والتحدث بها، لأن اللاتينية كانت لغة التعلم الوحيدة في جميع أنحاء العالم المتحضر.

من تكون هذه المرأة؟ وأين تعلمت هذه اللغة البرتغالية الطليقة؟ واللاتينية أيضًا؟ فكر: لا يوجد مكان آخر سوى من اليسوعيين، في واحدة من مدارسهم. يا لهم من دهاء. أول شيء يفعلونه هو بناء مدرسة.

لم يمض سوى سبعين عامًا على تأسيس أجنطيوس لويولا لجمعية اليسوعيين والآن أصبحت مدارسهم -وهي الأرقى في العالم المسيحي- منتشرة في جميع أنحاء العالم ونفوذهم يدعم الملوك أو يدمرهم. لقد حظوا بإذن البابا. لقد أوقفوا موجة الإصلاح الديني وكانوا الآن يستعيدون مناطق ضخمة لكنيستهم.

قالت: «إذن سنتحدث البرتغالية. سيدي يرغب في معرفة أين تعلمت كلماتك وعبارتك القليلة؟».

- يوجد راهب في السجن يا أنستي، راهب فرنسيسكاني، وقد علمني بعض كلمات مثل «طعام، صديق، حمام، اذهب، تعال، صحيح، خطأ، هنا، هناك، أنا، أنت، رجاء، شكرًا لك، أريد، لا أريد، سجين، نعم، لا» وما إلى ذلك. إنها مجرد البداية للأسف. هل يمكنك أن تخبري الزعيم توراناجا بأنني الآن أكثر استعدادًا للإجابة عن أسئلته، ومساعدته، وأشعر بسعادة بالغة لخروجي من السجن. وأنا شاكر له على ذلك.

راقبها بلاكثورن وهي تستدير وتحدث إلى توراناجا. لقد علم أنه سيضطر إلى التحدث ببساطة، ويفضل أن تكون جمل قصيرة، وأن يكون حذرًا لأن هذه المرأة -على عكس الكاهن الذي كان يترجم فورًا- كانت تنتظر حتى ينتهي من الكلام، ثم تقدم ملخصًا أو نسخة مما قيل، وهي المشكلة المعتادة مع جميع المترجمين باستثناء الأفضل منهم، ورغم أنه حتى هم، كما هو الحال مع اليسوعي، كانوا يسمحون لشخصياتهم بالتأثير على ما يقال، بقصد أو بغير قصد. لقد انتعش بلاكثورن بدرجة لا توصف من الحمام والمساج والطعام وساعتين من النوم. قام مساعدو الاستحمام، وهم جميعًا نساء ذوات بنية قوية، بتدليكه وغسل شعره وتصفيره بصفيرة أنيقة، وقام الحلاق بتقليم لحيته. وأعطوه لباسًا داخليًا نظيفًا وكمونو وحزامًا، بالإضافة إلى جوارب التابي ونعلًا لقدميه. كان الفراش الذي نام عليه نظيفًا للغاية، وكذلك الغرفة. بدا الأمر كله وكأنه حلم، وعندما استيقظ من نوم خالٍ من الأحلام، تساءل للحظة أيهما كان الحلم، هذا أم السجن.

لقد كان ينتظر دون صبر، على أمل أن يُقاد مجددًا إلى توراناجا، يخطط لما سيقوله وماذا سيكشف، وكيف يتفوق على الأب ألفيتو وكيف يهيمن عليه. وعلى توراناجا أيضًا. لأنه كان يعلم بيقين لا شك فيه بسبب ما أخبره إياه الراهب دومينجو عن البرتغاليين والسياسة والتجارة اليابانية، أنه يستطيع

الآن مساعدة تورانا، الذي يمكنه في المقابل أن يمنحه بسهولة الثروات التي يطمح إليها.

والآن، ومع عدم وجود كاهن لينازعه، شعر بثقة أكبر. أنا فقط بحاجة إلى القليل من الحظ والصبر.

كان تورانا يستمتع باهتمام شديد إلى المترجمة التي تشبه الدمية. فكر بلاكتورن: يمكنني حملها بيد واحدة، وإذا وضعت يديّ حول خصرها، ستتلامس أصابعي. تُرى كم عمرها؟ مثالية. هل هي متزوجة؟ لا ترتدي خاتم زواج. هذا مثير للاهتمام. إنها لا ترتدي أي مجوهرات على الإطلاق. باستثناء الدبابيس الفضية في شعرها. المرأة الأخرى أيضاً، السمينة. فتش ذاكرته. المرأتان الأخريان في القرية لم ترتديا أي مجوهرات أيضاً، ولم يرَ أي مجوهرات على أي من أهل مورا. لماذا؟

ومن هي المرأة الممثلة؟ زوجة تورانا؟ أم مربية الصبي؟ هل يكون الصبي ابن تورانا؟ أو حفيده ربما؟ قال الراهب دومينجو إن اليابانيين يملكون زوجة واحدة فقط في الوقت نفسه ولكن يملكون عديداً من الخليلات -عشيقات شرعيات- كما يحلو لهم.

هل المترجمة هي خلية تورانا؟

كيف سيكون الحال مع مثل هذه المرأة في الفراش؟ سأخشى سحقها. لا، لن تتحطم. توجد نساء في إنجلترا صغيرات الحجم أيضاً. لكن ليس مثلها. كان الصبي نحيفاً ومستقيماً وواسع العينين، شعره الأسود الكثيف مربوط في ضفيرة قصيرة، ورأسه غير محلوّق. بدا فضوله هائلاً.

غمز بلاكتورن للصبي دون تفكير. قفز الصبي ثم ضحك وقطع حديث ماريكو وأشار وتكلم، فاستمعوا إليه بتساهل ولم يصمته أحد. وعندما انتهى، تحدث تورانا بإيجاز إلى بلاكتورن.

- يسألك الزعيم تورانا عن سبب فلكك لذلك يا سيدي؟

- فقط لإمتاع الصبي. إنه طفل مثل أي طفل، وعادةً ما يضحك الأطفال في بلدي إذا فعلت ذلك. يجب أن يكون ابني في مثل سنه الآن. ابني يبلغ السابعة.

قالت ماريكو بعد توقف، ثم ترجمت ما قاله: «الوريث يبلغ السابعة».

سأل بلاكتورن: «الوريث؟ هل يعني هذا أن الصبي هو الابن الوحيد للزعيم توراناغا؟».

- لقد أمرني الزعيم توراناغا أن أخبرك أن تقتصر على الإجابة عن الأسئلة فقط في الوقت الحالي رجاءً.
ثم أضافت: «أنا متأكدة أنك ستُمنح الفرصة لطرح أي أسئلة تريدها لاحقاً إذا تحلّيت بالصبر يا ربان باكتون».

- حسناً.

- بما إن اسمك صعب النطق للغاية يا سيدي لأننا لا نملك أصوات لنطق حروفه، هل يجوز لي، بالنيابة عن الزعيم توراناغا، استخدام اسمك الياباني أنجين سان؟

- بالطبع.

كان بلاكتورن سيسأل عن اسمها لكنه تذكر ما قالته وذكر نفسه بأن يتحلّى بالصبر.

- شكراً لك. يسأل سيدي: هل لديك أي أطفال آخرين؟

- ابنة. لقد وُلِدَت قبل مغادرتي موطني في إنجلترا. لذا فهي تبلغ نحو سنتين الآن.

- هل لديك زوجة واحدة أم زوجات عدة؟

- واحدة. هذه هي عادتنا. مثل البرتغاليين والإسبان. ليس لدينا خليلات... خليلات رسميات.

- هل هذه هي زوجتك الأولى يا سيدي؟

- نعم.

- رجاءً، كم عمرك؟

- ستة وثلاثون.

- في أي مكان في إنجلترا تعيش؟

- في ضواحي تشاتهام. إنها ميناء صغير بالقرب من لندن.

- لندن هي مدينتكم الرئيسية؟

- نعم.

- يسأل: كم من اللغات تتحدث؟
- الإنجليزية والبرتغالية والإسبانية والهولندية وبالطبع اللاتينية.
- ما هي «الهولندية»؟
- إنها لغة يتحدثون بها في أوروبا، في هولندا. وهي تشبه الألمانية إلى حد كبير.
- عبست متحدثه: «هل اللغة الهولندية لغة وثنية؟ وكذلك الألمانية؟».
- قال بحذر: «كلاهما دولة غير كاثوليكية».
- عفواً، أليست هذه هي نفسها الوثنية؟
- لا يا آنسة. المسيحية منقسمة إلى ديارتين مختلفتين ومنفصلتين تماماً، الكاثوليكية والبروتستانتية. توجد نسختان للمسيحية. الطائفة الموجودة في اليابان كاثوليكية. وفي الوقت الحالي، كلتا الطائفتين معادية جداً لبعضهما بعضاً.
- لاحظ دهشتها وشعر بنفاد صبر توراناها المتزايد من إقصائه عن المحادثة. حذر نفسه: كن حذراً، إنها بالتأكيد كاثوليكية. تدرج في الحديث وكن بسيطاً: «ربما لا يرغب الزعيم توراناها في مناقشة الدين يا آنستي، حيث تطرقنا إليه جزئياً في اجتماعنا الأول».
- هل أنت مسيحي بروتستانتي؟
- نعم.
- والمسيحيون الكاثوليك هم أعداؤكم؟
- يعتبرني معظمهم هرطوقياً وعدواً لهم، نعم.
- ترددت ثم التفتت إلى توراناها وتحدثت مطولاً.
- كان يوجد عديد من الحراس حول محيط الحديقة. وكلهم بعيدون، وجميعهم من البنين. ثم لاحظ بلاكثورن عشرة من الرمادين يجلسون في مجموعة منظمة تحت الظل، وجميع أعينهم موجهة نحو الصبي. تساءل: ما مغزى ذلك؟
- كان توراناها يستجوب ماريكو بأسئلة متلاحقة، ثم تحدث مباشرة إلى بلاكثورن.

بدأت ماريكو: «يرغب سيدي أن يعرف عنك وعن عائلتك، وعن بلدك ومملكتك وحكامك السابقين، وعاداتك وتقاليديك وتاريخك. وبالمثل عن جميع البلدان الأخرى، ولا سيما البرتغال وإسبانيا. كل شيء عن العالم الذي تعيش فيه. عن سفنكم وأسلحتكم وطعامكم وتجارتكم. عن حروبكم ومعارككم وكيفية قيادة السفن، وعن كيف قدت سفينتك وماذا حدث في الرحلة. يريد أن يفهم... عفواً، لماذا تضحك؟».

- فقط لأن هذا يا آنسة، يبدو أنه كل ما أعرفه تقريباً.

- هذا بالضبط ما يريده سيدي. هل «بالضبط» هي الكلمة الصحيحة؟

- نعم يا آنستي. هل لي أن أثني على لغتك البرتغالية، فهي لا تشوبها شائبة.

ررفت مروحتها قليلاً: «شكراً لك يا سيدي. نعم، يريد سيدي أن يعلم الحقيقة عن كل شيء، ما هي الحقيقة وما رأيك بها؟».

- يسعدني أن أخبره. قد يستغرق الأمر بعض الوقت.

- يقول سيدي إن الوقت لديه وفيرٌ.

نظر بلاكتورن إلى تورانا جا وقال باليابانية: «فهمت».

- إذا كنت ستعذرني يا سيدي، يأمرني سيدي أن أخبرك إن لهجتك خاطئة قليلاً.

أرته ماريكو الطريقة الصحيحة لنطقها، فكرها هو وشكرها.

- أنا السيدة ماريكو بونتارو، ولستُ آنسة.

- حسناً يا سيدتي.

ألقي نظرة على تورانا جا وتحدث: «من أين يود أن يبدأ؟».

سألته. ارتسمت ابتسامة عابرة على وجه تورانا جا القوي: «يقول: من البداية».

كان بلاكتورن يعلم أن هذا ابتلاء آخر. بماذا يجب أن يبدأ، من بين كل الاحتمالات اللامحدودة؟ وإلى من يجب أن يوجه حديثه؟ إلى تورانا جا، أم الصبي، أم المرأة؟ من البديهي أنه لو لم يوجد سوى رجال حاضرين، لتحدث إلى تورانا جا. ولكن الآن؟ لماذا كانت النساء والصبي حاضرين؟ لا بد أن لهذا مغزى.

قرر أن يركز على الصبي والمراأتين. بدأ بثقة، وهو يروي الأسطورة التي اعتاد والده أن يرويها ببراعة في غياهب شبابه: «في العصور القديمة كانت بلادي يحكمها ملكٌ عظيم كان يملك سيفًا سحريًا يُسمى إكسكاليبير، وكانت ملكته أجمل نساء البلد. وكان مستشاره الرئيسي ساحرًا يُدعى ميرلين، وكان اسم الملك آرثر. كانت عاصمة الملك آرثر تُدعى كاميلوت وكان عهدًا سعيدًا بلا حروب وحصاد وفير و...».

فجأة أدرك فداحة خطئه. كان جوهر القصة يدور حول جوينيفير ولانسلوت، ملكة فاسقة وتابع خائن، وحول موردريد الابن غير الشرعي لآرثر الذي يغدر بوالده ويخوض حربًا ضده، وحول أب يقتل ابنه هذا في المعركة ليُصاب بجروح مميتة منه فقط. يا إلهي، كيف يمكن أن أكون بهذا الغباء؟ أليس توراناها أشبه بملك عظيم؟ أليستا المراأتان من عائلته؟ أليس هذا ابنه؟

- هل أنت مريض يا سيدي؟

- لا... لا، أنا آسف... لقد كان الأمر فقط...

- ماذا كنت تقول يا سيدي، حول هذا الملك والحصاد الوفير؟

أجاب بتلعثم وهو يحاول كسب الوقت: «نعم... مثل معظم البلدان، ماضينا مليء بالأساطير والخرافات، ومعظمها غير مهمة».

نظرت إليه في حيرة. ازدادت حدة عيني توراناها وتثاءب الصبي.

- ماذا كنت تقول يا سيدي؟

- أنا... حسنًا...

قال بلاكثورن وقد وَمَضَ في ذهنه إلهامٌ مفاجئ وأردف بسرعة: «ربما أفضل شيء يمكنني فعله هو رسم خريطة للعالم يا سيدتي، كما نعرفه. هل تودينني أن أفعل ذلك؟».

ترجمت ماريكو ما قاله، فرأى بصيصًا من الاهتمام من توراناها، لكن لم يظهر أي اهتمام من الصبي أو السيدتين. كيف يمكنني إشراكهما إذن؟

- وافق سيدي. سأرسل لإحضار الورق...

- شكرًا لك. لكن هذا يكفي في الوقت الحالي. لاحقًا إذا منحتهموني بعض الأدوات للكتابة، فيمكنني رسم خريطة دقيقة.

نهض بلاكثورن عن وسادته وجثا على ركبتيه. بدأ باستخدام إصبعه في رسم خريطة بدائية في الرمال، مقلوبة رأسًا على عقب حتى يتمكنوا من الرؤية بشكل أفضل: «الأرض كروية مثل البرتقالة، لكن هذه الخريطة تشبه قشرها، مقطوعة على أشكال بيضاوية من الشمال إلى الجنوب، وموضوعة بشكل مسطح وممتدة قليلاً في الأعلى والأسفل. اخترع رجل هولندي يدعى ميركاتور طريقة للقيام بذلك بدقة قبل عشرين عامًا. إنها أول خريطة عالمية دقيقة. يمكننا حتى الملاحة باستخدامها... أو باستخدام كُرّاته التي تمثل الأرض».

كان قد رسم القارات بجرأة: «هذا الشمال وهذا الجنوب، الشرق والغرب. اليابان هنا، وبلدي على الجانب الآخر من العالم... هناك. كل هذا مجهول وغير مُستكشف...».

أشارت يده وأزالت كل شيء في أمريكا الشمالية شمال خط يمتد من المكسيك إلى نيوفاوندلاند، وكل شيء في أمريكا الجنوبية باستثناء بيرو وشريط ضيق من الأراضي الساحلية حول تلك القارة، ثم كل شيء شمال وشرقي النرويج، وكل شيء شرق موسكو (روسيا)، وجميع أنحاء آسيا، وجميع المناطق الداخلية لإفريقيا، وكل شيء يقع جنوب جاوة وأطراف أمريكا الجنوبية: «نحن نعرف الخطوط الساحلية، لكن لا نعرف الكثير سواها. إن المناطق الداخلية لإفريقيا والأمريكتين وآسيا هي ألغاز تامة تقريبًا».

توقف حتى يسمح لها بمواكبة حديثه.

الآن باتت الترجمة أيسر عليها، وشعر باهتمامهم يتزايد. تحرك الصبي واقترّب قليلاً.

- يرغب الوريث في معرفة مكاننا على الخريطة.

- هنا. هذه كاثاي - الصين - على ما أعتقد. لا أعرف كم نحن بعيدين عن الساحل. لقد استغرقني الأمر عامين للإبحار من هنا إلى هنا.

تحرك تورانا جا والمرأة الممتلئة ليتسنى لهما رؤية أفضل.

- يقول الوريث: ولكن لماذا نحن صغار جدًا على خريطةك؟

- إنها مجرد مسألة مقياس يا سيدتي. على هذه القارة، المسافة من نيوفاوندلاند هنا إلى المكسيك هنا تقارب نحو ألف فرسخ، كل فرسخ قرابة خمسة كيلومترات. ومن هنا إلى إيدو مائة فرسخ تقريبًا.

خيم صمت عليهم، ثم تحدثوا فيما بينهم.

- يرغب الزعيم توراناغا أن تُريه على الخريطة كيف وصلت إلى اليابان.
- من هذا الطريق. هذا هو ممر ماجلان -أو مضيق- هنا، عند طرف أمريكا الجنوبية. سُمي على اسم المستكشف البرتغالي الذي اكتشفه قبل ثمانين عامًا. منذ ذلك الحين حافظ البرتغاليون والإسبان على سرية الطريق لاستخدامهما الحصري. كنا أول غرباء يمرون عبر المضيق. لقد حصلت على إحدى خرائطهم السرية، ولكن رغم ذلك، اضطررت إلى الانتظار ستة أشهر حتى أتمكن من العبور بسبب الرياح المعاكسة لنا.

ترجمت ما قاله. رفع توراناغا رأسه بغير تصديق.

- يقول سيدي إنك مخطئ. جميع الهم... جميع البرتغاليين يأتون من الجنوب. هذا هو طريقهم، الطريق الوحيد.
- نعم، صحيح أن البرتغاليين يفضلون هذا الطريق -نسمة رأس الرجاء الصالح- لأن لديهم عشرات الحصون على طول هذه السواحل -إفريقيا والهند وجزر التوابل- للتزود بالطعام والمؤن وقضاء الشتاء فيها. كما تجوب السفن الحربية التابعة لهم دوريات وتحتكر الممرات البحرية. ومع ذلك، فإن الإسبان يستخدمون مضيق ماجلان للوصول إلى مستعمراتهم في المحيط الهادئ الأمريكي، وإلى الفلبين، أو يعبرون من هنا عند برزخ بنما الضيق، متجهين برًا لتجنب شهور من السفر. بالنسبة لنا، كان من الآمن الإبحار عبر مضيق ماجلان، وإلا لكننا اضطررنا إلى مواجهة كل تلك الحصون البرتغالية المعادية. رجاء أخبري الزعيم توراناغا أنني أعرف مواقع العديد منها الآن. معظمها تستخدم جنودًا يابانيين بالمناسبة. (أضاف مؤكداً): كان الراهب الذي زودني بالمعلومات في السجن إسبانيًا ويعادي البرتغاليين ويعادي جميع اليسوعيين.

لاحظ بلاكتورن رد فعل فوري على وجهها، وكذلك على وجه توراناغا عندما قامت بالترجمة. حذر نفسه: امنحها الوقت، وكن بسيطاً.

- جنود يابانيون؟ تقصد ساموراي؟
- أظن أنهم كانوا يصفونهم رونينًا.

- قلت خريطة «سرية»؟ سيدي يريد أن يعرف كيف حصلت عليها.
- رجل يدعى بيتر سويدرهوف، من هولندا، كان المساعد الخاص لقداسة رئيس أساقفة جوا. وهي رتبة رئيس القساوسة الكاثوليك، وجوا هي عاصمة الهند البرتغالية. وكما تعلمون بالطبع يحاول البرتغاليون السيطرة على تلك القارة بالقوة. وبحكم منصبه مساعدًا خاصًا لرئيس الأساقفة هذا، الذي كان أيضًا نائب الملك البرتغالي آنذاك، كانت تمر بين يديه جميع أنواع الوثائق. وبعد سنوات عديدة حصل على بعض من دلائلهم - خرائط - ونسخها. وقد كشفت تلك الخرائط عن أسرار المرور عبر مضيق ماجلان وكذلك كيفية العبور حول رأس الرجاء الصالح، والمياه الضحلة والشعاب المرجانية من جوا إلى اليابان عبر ماكاو. الخريطة التي بحوزتي كانت خاصة بمضيق ماجلان. كانت موجودة مع أوراقتي التي فقدتها من سفينتي. إنها غاية في الأهمية بالنسبة لي، ويمكن أن تكون ذات قيمة هائلة للزعيم توراناغا.
- يقول سيدي إنه أرسل أوامر بالبحث عنها. تابع حديثك رجاء.
- عندما عاد سويدرهوف إلى هولندا، باعها إلى شركة تجار الهند الشرقية، التي مُنحت امتياز استكشاف الشرق الأقصى.
- كانت تحقق إليه ببرود: «هل كان هذا الرجل جاسوسًا مأجورًا؟».
- لقد تقاضى ثمنًا عن خرائطه، نعم. هذه هي عادتهم، هكذا يكافئون رجلًا. ليس بلقب أو أرض، بل بالمال فقط. هولندا جمهورية. بالطبع يا سيدتي إن بلدي وحلفاءنا هولندا، نحن في حرب مع إسبانيا والبرتغال منذ سنوات. ستفهمين يا سيدتي، من الضروري للغاية اكتشاف أسرار أعدائك في أثناء الحرب.
- استدارت ماريكو وتحدثت مطولًا.
- يتساءل سيدي، لماذا يعين رئيس الأساقفة هذا شخصًا من دولة معادية؟
- القصة التي تلاها بيتر سويدرهوف، كانت تنص على أن رئيس الأساقفة -وهو يسوعي بالأساس- لم يكن مهتمًا سوى بالتجارة. ضاعف سويدرهوف أرباحهم لذلك كانوا يقدرونه. لقد كان تاجرًا بارعًا للغاية -إن الهولنديين عمومًا أفضل من البرتغاليين في مثل هذه الأمور- لذلك

لم يفحصوا خلفيته من كثب. بالإضافة إلى أن العديد من الرجال ذوي الشعر الفاتح والأعين الزرقاء من الألمان وغيرهم من الأوروبيين هم أيضًا كاثوليك.

انتظر بلاكثورن حتى تترجم حديثه، ثم أضاف بحذر: «لقد كان رئيس جاسوسي هولندا في آسيا، جنديًا لهذه البلد. حتى إنه تمكن من زرع بعض رجاله على متن السفن البرتغالية. رجاءً أخبري الزعيم توراناغا أنه لا يمكن للهند البرتغالية الاستمرار لفترة طويلة دون التجارة اليابانية».

ظل توراناغا يركز نظره على الخريطة بينما كانت ماريكو تتحدث. لم يظهر أي رد فعل على ما قيل. تساءل بلاكثورن عما إذا كانت قد ترجمت كل شيء.

ثم قالت أخيرًا: «يريد سيدي خريطة مفصلة للعالم مرسومة على ورق في أقرب وقت ممكن، مع تحديد جميع القواعد البرتغالية وأعداد الرونين المتمركزين في كل منها. كما يطلب منك أن تواصل حديثك».

علم بلاكثورن أنه حقق تقدمًا ملحوظًا. لكن تثأب الطفل لذا قرر تغيير مساره قليلًا مع الحفاظ على هدفه الرئيسي: «عالمنا ليس دائمًا كما يبدو. على سبيل المثال، جنوب هذا الخط الذي نسميه خط الاستواء، تتغير المواسم تمامًا. عندما يكون لدينا صيف يكون لديهم شتاء، وعندما يكون لدينا صيف يكونون متجمدين».

- لماذا يحدث هذا؟

- لا أعلم، لكنها الحقيقة. الآن، إن الطريق إلى اليابان يكون عبر إحدى هذين المضيقيين الجنوبيين. نحن الإنجليز، نحاول حاليًا استكشاف إمكانية وجود طريق شمالي، إما باتجاه الشمال الشرقي فوق سيبيريا وإما باتجاه الشمال الغربي عبر الأمريكتين. لقد وصلت بنفسني إلى أقصى الشمال حتى هذه النقطة. هذه المنطقة بأكملها مغطاة دائمًا بالجليد والثلج. والجو قارس البرودة معظم السنة لدرجة أن أصابعك ستتجمد في لحظات إن لم ترتد قفازات مصنوعة من الفراء. يُعرف الأشخاص الذين يسكنون هذه الأراضي باسم اللابلانديين. ملابسهم مصنوعة من الجلود. الرجال يصطادون والنساء يقمن بالعمل كله. جزء من عمل النساء هو صنع كل الملابس، ولفعل ذلك يجب عليهن في الأغلب مضغ الجلد لتليينه قبل أن يتمكن من خياطته.

ضحكت ماريكو بصخب.

ابتسم بلاكتورن معها، وهو يشعر بثقة أكبر الآن. قال وهو يضيف كلمة يابانية في نهاية كلامه: «إنها الحقيقة يا سيدتي. إنها الحقيقة».

سأل توراناغا بنفاد صبر: «ما هو الحقيقي؟».

أخبرته ما قاله من خلال ضحكاتهما. وسرعان ما بدؤوا يضحكون أيضًا.

- عشت بينهم مدة عام تقريبًا. حاصرنا الجليد وأجبرنا على انتظار ذوبانه. طعامهم هو السمك وعجول البحر وأحيانًا الدببة الشمالية والحيتان التي يأكلونها نيئة. أما أفخم أكلاتهم هي شحم الحوت النيء.

- أوه، لا تبالغ يا أنجين سان.

- إنها الحقيقة. إنهم يسكنون في منازل صغيرة مستديرة مبنية بالكامل من الثلج. ولا يستحمون على الإطلاق.

ارتفع صوتها: «ماذا؟ إطلاقًا؟».

هز بلاكتورن رأسه، وقرر عدم إخبارها الحقيقة حول ندرة الاستحمام في إنجلترا، أكثر ندرة حتى من البرتغال وإسبانيا، وهما دولتان دافئتان.

ترجمت هذا، وهز توراناغا رأسه بعدم تصديق.

- يقول سيدي إن هذا مبالغة كبيرة جدًا. لا يمكن لأحد أن يعيش دون استحمام، حتى الشعوب غير المتحضرة.

قال بهدوء ورفع يده: «إنها الحقيقة، أقسم بيسوع الناصري، وبروحي، أقسم إن ما أقوله صحيح».

شاهدته بصمت: «كل شيء؟».

- نعم. لقد طلب الزعيم توراناغا الحقيقة، فلماذا أكذب؟ إن حياتي بين يديه. التحقق من كلامي أمر سهل - لا، صراحةً سيكون أمر التحقق ممًا قلته صعبًا - سيتعين عليكم السفر إلى هناك لتروا بأنفسكم. وبالطبع لن يدعموني أعدائي البرتغاليون والإسبان. لكن الزعيم توراناغا طلب الحقيقة، وهو يمكنه الثقة بي لتقديمها إليه.

فكرت ماريكو للحظة ثم ترجمت ما قاله بدقة. ثم تحدثت أخيرًا: «يقول الزعيم توراناغا: إن فكرة أن يعيش أي إنسان دون استحمام أمر لا يصدق».

- نعم. ولكن تلك هي الأراضي الباردة. تختلف عاداتهم عن عاداتكم وعن عاداتي. على سبيل المثال، في بلدي يعتقد الجميع أن الاستحمام خطرٌ على الصحة. كانت جدتي، الجدة جاكوبا، تقول دائماً: «حمام عند الولادة وآخر عند الوفاة يكفيك للوصول إلى أبواب الجنة».

- هذا يصعب تصديقه حقاً.

- بعض عاداتكم يصعب تصديقها أيضاً. لكن الحقيقة هي أنني استحممت عدد مرات أكثر في الفترة القصيرة التي قضيتها في بلدكم مقارنة بالسنوات العديدة التي سبقتها. أعترفُ بصراحة أنني أشعر بتحسن بسببهم. (ابتسم): لم أعد أومن بأن الاستحمام خطرٌ. لذا فقد استفدت من مجيئي إلى هنا، أليس كذلك؟

بعد توقف قالت ماريكو: «بلى».

وترجمت كلامه.

قالت كيري: «إنه أمرٌ مدهش... مدهش، أليس كذلك؟».

سأل تورانا: «ما هو رأيك فيه يا ماريكو سان؟».

- أنا مقتنعة بأنه يقول الحقيقة، أو يعتقد أنه يرويها. من الواضح أنه يبدو أنه قد يكون ذا قيمة كبيرة بالنسبة لك يا سيدي. لدينا معرفة ضئيلة جداً بالعالم الخارجي. هل هذا يعتبر قيماً بالنسبة لك؟ لا أعلم. ولكن يبدو الأمر وكأنه نزل من النجوم، أو صعد من تحت البحر. إذا كان عدواً للبرتغاليين والإسبان، فعندئذٍ قد تكون معلوماته -إذا كان يمكن الوثوق بها- ذات أهمية لمصالحك، أليس كذلك؟

قالت كيري: «أوافقك الرأي».

- ماذا تعتقد أنت يا يايمون ساما؟

أجاب الصبي بسرعة: «أنا يا عمي؟ حسنًا، أعتقد أنه قبيح ولا أحب شعره الذهبي وعينين القطط، ولا يبدو بشرياً على الإطلاق. أنا سعيد لأنني لم أولد همجياً مثله بل ساموراي مثل والدي، هل يمكننا الذهاب للسباحة مجدداً، رجاء؟».

قال تورانا: بضيق لأنه لم يتمكن من التحدث مباشرة إلى الربان: «غداً يا يايمون».

بينما كانوا يتحدثون فيما بينهم، قرر بلاكتورن أن الوقت قد حان. ثم التفتت إليه ماريكو مرة أخرى.

- يسأل سيدي عن سبب وجودك في الشمال؟

بدأ حديثه: «كنت ربان سفينة. كنا نحاول العثور على ممر شمالي شرقي يا سيدتي. أعلم أن الكثير مما سأخبرك إياه سيبدو مضحكاً. مثلاً، قبل سبعين عاماً وقّع ملوك إسبانيا والبرتغال معاهدة رسمية قسمت ملكية العالم الجديد -العالم غير المكتشف- بينهما. وبما أن بلدكم يقع في النصف الخاص بالبرتغال، فإن بلدكم رسمياً تابعة للبرتغال. أنت يا زعيم تورانا جا والجميع، وهذه القلعة وكل شيء فيها قد أعطي للبرتغال».

- رجاءً يا أنجين سان. اعذرني ولكن هذا هراء.

- أوافق على أن غطرستهم لا تُصدق. لكنها الحقيقة.

شرعت على الفور في الترجمة وضحك تورانا جا باستهزاء.

- يقول الزعيم تورانا جا إنه يمكنه بالقدر نفسه من السهولة أن يقسم السماوات بينه وبين إمبراطور الصين، أليس كذلك؟

قال بلاكتورن وهو يدرك أنه يمشي على أرض محفوفة بالأخطار: «أرجو أن تبليغي الزعيم تورانا جا بأنني آسف، لكن الأمر ليس كذلك. هذا مدون في وثائق قانونية تمنح كل ملك الحق في المطالبة بأي أرض غير كاثوليكية يكتشفها رعيته، واستئصال الحكومة القائمة واستبدالها بحكم كاثوليكي». رسم بإصبعه على الخريطة خطأً من الشمال إلى الجنوب يقسم البرازيل إلى نصفين: «كل شيء شرق هذا الخط يخص البرتغال، وكل شيء غرباً يخص إسبانيا. اكتشف بيدرو كابرال البرازيل عام 1500، لذلك تمتلك البرتغال البرازيل الآن، وقد قضت على الثقافة المحلية والحكام الشرعيين، وأصبحت غنية من الذهب والفضة التي استخرجتهم من المناجم ونهبهم من المعابد الأصلية. كل بقية مناطق الأمريكتين التي اكتُشفت حتى الآن مملوكة لإسبانيا، المكسيك وبيرو وكل هذه القارة الجنوبية تقريباً. لقد قضوا على حضارات الإنكا، وأبادوا ثقافتهم، واستعبدوا مئات الآلاف منهم. يمتلك الغزاة الإسبان بنادق حديثة، أما السكان الأصليون فلا يملكون شيئاً. ومع الغزاة الإسبان يأتي الكهنة. وسرعان ما يجعلون بعض الأمراء يعتنقون المسيحية، واستخدام الخلافات القائمة بينهم. ثم يحرضون أميراً ضد آخر ويبتلعون

مملكاتهم قطعةً قطعةً. أصبحت إسبانيا الآن أغنى دولة في عالمنا من ذهب وفضة الإنكا والمكسيك التي نهبوها وأرسلوها إلى إسبانيا».

كانت ماريكو جادة الآن. لقد أدركت بسرعة أهمية درس بلاكثورن. وكذلك فعل توراناغا.

- يقول سيدي إن هذه محادثة لا قيمة لها. كيف يمكنهم منح أنفسهم مثل هذه الحقوق؟

قال بلاكثورن بخطورة: «لم يمنحوها لأنفسهم. لقد منحهم الحقوق البابا، نائب المسيح على الأرض نفسه. في مقابل نشر كلمة الرب». صاحت: «لا أصدق ذلك».

- رجاءً ترجمي ما قلته يا سيدتي. إنها الحقيقة.

أطاعت ماريكو وتحدثت مطولاً، وبدأ عليها الاضطراب بوضوح. ثم تابعت: «سيدي... يقول سيدي إنك... تحاول ببساطة تسميمه ضد أعدائك. ما هي الحقيقة؟ أقسم بحياتك يا سيدي».

- حدد البابا ألكسندر السادس أول خط للحدود في عام 1493.

بدأ بلاكثورن حديثه، وبارك ألبان كارادوك الذي أخبره الكثير من الحقائق عندما كان صغيراً، وكذلك الأب دومينجو لإخباره بفخر اليابانيين وإعطائه مفاتيح لفهم عقولهم: «في عام 1506، أقر البابا يوليوس الثاني بتعديلات على معاهدة تورديسيلاس التي وقعتا إسبانيا والبرتغال عام 1494، والتي غيرت الخط قليلاً. وأقر البابا كليمنت السابع بمعاهدة سرقسطة عام 1529، منذ نحو سبعين عاماً فقط، والتي رسمت خطاً ثانياً هنا». رسم بإصبعه خطاً طولاً على الرمال يمر عبر طرف جنوب اليابان: «هذا يعطي البرتغال الحق الحصري لبلادكم، كل هذه البلدان -من اليابان والصين إلى إفريقيا- بالطريقة التي ذكرتها. لاستغلالها حصرياً -بأي وسيلة- في مقابل نشر الكاثوليكية». انتظر مجدداً وترددت المرأة باضطراب، وكان بإمكانه الشعور بانزعاج توراناغا المتزايد من انتظار ترجمتها.

أجبرت ماريكو شفقتها على الكلام وكررت ما قاله. ثم استمعت إلى بلاكثورن مرة أخرى، كارهة ما سمعت. سألت نفسها: هل هذا حقاً ممكن؟ كيف يمكن لقداسته أن يقول مثل هذه الأشياء؟ يمنح بلادنا للبرتغاليين؟ لا بد أن تكون كذبة. لكن الربان أقسم بالرب يسوع.

بدأت: «يقول الربان يا سيدي: في... في الوقت الذي اتُّخذت فيه هذه القرارات من قبل قداسة البابا، كان كل عالمهم -حتى بلد أنجين سان- مسيحياً كاثوليكياً. لم... لم يحدث الانشقاق بعد. لذا فبالطبع ستكون هذه... هذه القرارات البابوية ملزمة على... على جميع الدول. ويضيف أنه رغم احتكار البرتغال لاستغلال اليابان، فإن إسبانيا والبرتغال تتشاجران بلا هوادة حول الملكية بسبب ثراء تجارتنا مع الصين».

قال توراناغا مصدوماً مثل الآخرين. فقط الصبي كان يلعب بمروحة يده غير مهتم: «ما رأيك يا كيري سان؟».

قالت كيري: «إنه يعتقد أنه يقول الحقيقة. نعم، أظن ذلك أيضاً. ولكن كيف يمكن إثباتها... أو جزء منها؟».

سأل توراناغا الذي أزعجه بشدة رد فعل ماريكو على ما قيل، ولكنه سعيد جداً بموافقه على الاستعانة بها كترجمة: «كيف ستثبتين ذلك أنت يا ماريكو سان؟».

أجابت: «سأسأل الأب تسوكو سان. ثم سأرسل شخصاً ما -تابعاً موثقاً- إلى العالم الخارجي ليرى. ربما مع أنجين سان».

قالت كيري: «إذا لم يؤيد الكاهن هذه التصريحات، فلا يعني ذلك بالضرورة أن أنجين سان يكذب، أليس كذلك؟».

كانت كيري سعيدة لأنها اقترحت استخدام ماريكو كترجمة عندما كان توراناغا يبحث عن بديل لتسوكو سان. كانت تعلم أنه يمكن الوثوق بماريكو، وأنه حالما تقسم ماريكو بإلهها الغريب، فستظل دائماً صامتة تحت الاستجواب الصارم من قبل أي كاهن مسيحي. فكرت كيري: فكلما قل ما يعرفه هؤلاء الشياطين، كان ذلك أفضل. يا له من كنز من المعرفة يمتلكه هذا الهمجي!

رأت كيري الصبي يتأب مرة أخرى فسرت بذلك. قالت لنفسها: كلما قل ما يفهمه الطفل كان ذلك أفضل. ثم قالت: «لماذا لا نستدعي رئيس كهنة المسيحيين ونستفسر عن هذه الحقائق؟ لنرَ ماذا سيقول. وجوههم مكشوفة في الغالب، وليس لديهم دهاء تقريباً».

أوماً توراناغا برأسه وعيناه على ماريكو: «بناءً على علمك بالهمج الجنوبيين يا ماريكو سان، هل تعتقدين أن أوامر البابا ستُطاع؟».

- بلا شك.
 - ستُعتبر أوامره كما لو أن صوتَ إلهِ المسيحيين هو الذي يتكلم؟
 - نعم.
 - هل يطيع جميع المسيحيين الكاثوليك أوامره؟
 - نعم.
 - حتى مسيحيونا هنا؟
 - أعتقد ذلك، نعم.
 - حتى أنتِ؟
- كانت نظرتها ثابتة: «نعم يا سيدي. إذا كان أمرًا مباشرًا من قداسته إليّ شخصيًا. نعم، لخلاص روحي. ولكن حتى ذلك الحين لن أطيع أي رجل سوى زعمي الإقطاعي أو رب أسرتي أو زوجي. أنا يابانية، مسيحية نعم، لكنني في المقام الأول ساموراي».
- أعتقد أنه من الجيد إذن، أن يبتعد قداسته هذا عن شواطئنا.
- فكر توراناها للحظة. ثم قرر ماذا سيفعل بالهمجي أنجين سان. قال: «أخبريه...».
- توقف عن الكلام. اتجهت كل أعينهم إلى الطريق وإلى المرأة المسنة التي تقترب. كانت ترتدي ثياب الراهبة البوذية. وكان يرافقها أربعة من الرمادين. توقفوا هم وتقدمت وحدها.



الفصل السابع عشر

انحنوا جميعهم باحترام. لاحظ تورانا جا أن الهمجي يقلده ولم ينهض أو يحدق، وهو ما كان سيفعله كل الهمج باستثناء تسوكو سان، وفقًا لعاداتهم الخاصة. فكر وعقله لا يزال مضطربًا مما سمعه: إن الربان يتعلم بسرعة. كان يراوده عشرة آلاف سؤال، ولكن وفقًا لانضباطه، دفعها جانبًا ليركز على الخطر الحالي.

كانت كيري قد هرعت لإعطاء المرأة العجوز وسادتها وساعدتها على الجلوس، ثم جثت خلفها منتظرةً بلا حراك.

قالت المرأة وهي تبادلهم الانحناء: «شكرًا لك يا كيريتسوبو سان».

كان اسمها يودوكو. كانت أرملة التايكو. وأصبحت راهبة بوذية منذ وفاته: «أنا آسفة لأنني أتيت دون دعوة ولمقاطعة حديثك يا زعيم تورانا جا».

- من المستحيل أن تكوني غير مدعوة أو غير مرحب بك يا يودوكو ساما.
- شكرًا لك، نعم، شكرًا لك.

ألقت نظرة على بلاكثورن وضيق عينيها محاولة الرؤية: «ولكن أعتقد أنني قاطعت الحديث بالفعل. لا أستطيع أن أرى من هذا... هل هو همجي؟ تتدهور عيناك أكثر فأكثر. إنه ليس تسوكو سان، أليس كذلك؟».

قال تورانا جا: «لا، إنه همجي الجديد».

أمعنت يودوكو النظر: «حقًا، هو! أرجو أن تبلغه أنني لا أستطيع الرؤية جيدًا، ومن هنا جاءت وقاحتي».

ماريكو فعلت ما أمرت به: «يقول إن الكثير من الناس في بلده ضعاف النظر يا يودوكو ساما، لكنهم يرتدون نظارات. سأل عما إذا كان لدينا منها. أخبرته أننا نملك، بعضنا... من الهمج الجنوبيين. وأنت اعتدت ارتدائها لكنك لم تعودي تفعلين ذلك الآن».

- نعم. أنا أفضل الضباب الذي يحيط بي. نعم، لا أحب الكثير مما أراه هذه الأيام.

استدارت يودوكو للخلف ونظرت إلى الصبي، متظاهرة بأنها قد رآته للتو: «أوه ابني! إذن أنت هنا. كنت أبحث عنك. كم يسعدني أن أرى الكوامباكو». انحنى باحترام.

ابتسم يايمون وبادلها الانحناء: «شكرًا لك يا أمي الأولى. كان يجب أن تسمعي الهمجي. لقد كان يرسم لنا خريطة للعالم ويخبرنا أشياء مضحكة عن أشخاص لا يستحمون على الإطلاق! ولا مرة طوال حياتهم ويعيشون في بيوت من الثلج ويرتدون جلودًا مثل الكامي الشرير».

شخرت العجوز: «أعتقد أنه كلما قل قدومهم إلى هنا كان ذلك أفضل يا بني. لم أستطع قط فهمهم وكانوا دائمًا كريهي الرائحة. لم أستطع قط فهم كيف كان الزعيم التايكو والدك يتحمل وجودهم. لكنه كان رجلًا وأنت رجل، ولديك صبر يفوق صبر امرأة ضعيفة. لديك مُعلم جيد يا يايمون ساما». اتجهت عيناها المرهقتان إلى توراناغا: «لدى الزعيم توراناغا صبر أكثر من أي شخص في الإمبراطورية».

قال توراناغا: «الصبر مهم للرجل، وضروري للقائد. والتعطش للمعرفة صفة جيدة أيضًا، أليس كذلك يا يايمون ساما؟ والمعرفة تأتي من أماكن غريبة».

قال يايمون: «نعم يا عمي. نعم بالتأكيد. إنه على حق، أليس كذلك يا أمي الأولى؟».

عانقت يودوكو الصبي الذي جاء ليجلس بجانبها: «نعم، نعم. أوافقك الرأي. لكنني سعيدة لأنني امرأة ولا أحتاج إلى القلق بشأن هذه الأشياء، أليس كذلك؟ إذن يا بني، لماذا أنا هنا؟ لجلب الكوامباكو. لماذا؟ لأن الكوامباكو تأخر عن موعد تناوله الطعام ودروس الكتابة».

- أنا أكره دروس الكتابة، وسأذهب للسباحة.

قال توراناغا بجدية مصطنعة: «عندما كنت في عمرك، كرهت الكتابة أيضًا. ولكن عندما بلغت العشرين، اضطررت إلى التوقف عن خوض المعارك والعودة إلى المدرسة. لقد كرهت ذلك أكثر».

- تعود إلى المدرسة يا عمي؟ بعد تركها إلى الأبد؟ يا له من أمر فظيع!

- يتعين على القائد الكتابة جيدًا يا يايمون ساما. ليس بوضوح فحسب، بل وبجمال أيضًا، وعلى الكوامباكو أن يكتب أفضل من أي شخص آخر. وإلا كيف سيكتب إلى جلالته الإمبراطور أو إلى الدايميو العظماء؟ يجب أن يكون القائد أفضل من تابعيه في كل شيء، وفي كل جانب. يجب على القائد فعل الكثير من الأشياء الصعبة.

عبس يايمون بجدية: «نعم يا عمي. من الصعب جدًا أن تكون كوامباكو. أعتقد أنني سأتعلم دروسي الآن وليس عندما أبلغ العشرين لأنني حينئذ سأكون مشغولاً بقضايا الدولة المهمة».

كانوا جميعًا فخورين جدًا به. قالت يودوكو: «أنت حكيم جدًا يا بني».

- نعم يا أمي الأولى. أنا حكيم مثل والدي، كما تقول أمي. متى ستعود أمي إلى المنزل؟

رفعت يودوكو عينيهما إلى توراناغا: «قريبًا».

قال توراناغا: «أمل قريبًا جدًا».

كان يعلم أن يودوكو قد أرسلت لاستدعاء الصبي من قبل إيشيدو. لقد أحضر توراناغا الصبي والحراس مباشرة إلى الحديقة ليزيد من غضب عدوه. وكذلك ليُرى الصبي الربان الغريب وليحرم إيشيدو من متعة توفير تلك التجربة له.

كانت يودوكو تقول: «إنه لأمرٌ مرهق أن أكون مسؤولة عن ابني. سيكون من الجيد جدًا أن تكون السيدة أوتشيبا هنا في أوساكا، في منزلها مجددًا، حينئذٍ يمكنني العودة إلى المعبد، أليس كذلك؟ كيف حالها، وكيف حال السيدة جينجيكو؟».

أخبرها توراناغا: «كلتاها تتمتع بصحة ممتازة».

تمتم لنفسه. قبل تسع سنوات وفي مظهر غير معتاد من الصداقة، دعاه التايكو سرًا للزواج بالسيدة جينجيكو، الأخت الصغرى للسيدة أوتشيبا خليلته المفضلة. قال التايكو: «عندئذٍ سيُوحد منزلينا إلى الأبد، أليس كذلك؟».

أجاب توراناغا باحترام راغبًا في التحالف مع التايكو: «بلى يا سيدي. سأطيع رغبتك رغم أنني لا أستحق هذا الشرف».

لكنه كان يعلم أنه رغم أن يودوكو زوجة التايكو يمكن أن توافق، فإن زوجته أوتشيبا تكرهه وستستخدم نفوذها الكبير لدى التايكو لمنع الزواج.

وأيضًا، كان من الحكمة تجنب أن تكون أخت أوتشيبا زوجته، لأن ذلك سيمنعها سلطات هائلة عليه، أقلها مفاتيح خزانته. ولكن إذا تزوجت من ابنه سودارا، فعندئذ سيكون توراناجا بصفته رب العائلة له سيطرة كاملة. لقد تطلب الأمر كل مهاراته ليناور الزواج بين سودارا وجينجيكو ولكن هذا قد حدث والآن أصبحت جينجيكو لا تقدر بثمن بالنسبة له كدفاع ضد أوتشيبا، لأن أوتشيبا تعشق أختها.

- لم تدخل زوجة ابني في مرحلة المخاض بعد - كان من المتوقع أن تبدأ أمس - لكنني أعتقد أن السيدة أوتشيبا ستغادر فور زوال الخطر.

- بعد ثلاث بنات، حان الوقت لتمنحك جينجيكو حفيدًا، أليس كذلك؟ سأصلي من أجل مولده. مكتبة سر من قرأ قال توراناجا: «شكرًا لك».

معجبًا بها كعادته، مدرّكًا أنها تقصد ما تقول، حتى وإن كنت أمثل خطرًا جسيمًا على بيتها.

- سمعت أن السيدة سازوكو حامل؟

- نعم. أنا محظوظ جدًا.

تمتع توراناجا بالتفكير في خليلته الجديدة، شبابها وقوتها ودفئها. قال لنفسه: أمل أن نحظى بصبي. نعم، سيكون ذلك جيدًا جدًا. إن السابعة عشرة هي سنٌ جيدة لإنجاب الطفل الأول، إذا كنت تتمتع بصحة مثالية كما تتمتع هي: «نعم، أنا محظوظ جدًا».

- لقد باركك بوذا.

شعرت يودوكو بنغزة من الحسد. بدا الأمر غير عادل أن يكون لتوراناجا خمسة أبناء أحياء وأربع بنات وأربع حفيدات بالفعل، ومع وصول مولود سازوكو قريبًا، ولا يزال لديه العديد من السنوات القوية والعديد من الخليلات في منزله، يمكنه إنجاب مزيد من الأبناء. لكن كل آماله كانت تتركز على هذا الطفل الوحيد البالغ من العمر سبع سنوات، ابنها بقدر ما هو ابن أوتشيبا. فكرت: نعم، هو ابني بالقدر نفسه. كم كرهت أوتشيبا في البداية...

رأتهم جميعًا يحدقون إليها ففرغت: «ماذا؟».

عبس يايمون: «قلت: هل يمكننا الذهاب لأخذ دروسي يا أمي الأولى؟ لقد قلت ذلك مرتين».

- أنا أسفة يا بني، كنت شاردة الذهن. هذا ما يحدث عندما تكبر في السن.
نعم، تعال إذن.

ساعدتها كيري على النهوض. ركض يايمون أمامها. كان الرماذيون قد وقفوا بالفعل على أقدامهم وحمله أحدهم وأرجحه بمودة على كتفيه. أما الأربعة ساموراي الذين رافقوها انتظروا منفصلين.

- تعال امشِ معي قليلاً يا زعيم تورانا، هل يمكنك رجاءً؟ أنا بحاجة إلى ذراع قوية لأتوكأ عليها.

وقف تورانا على قدميه برشاقة مفاجئة. أخذت ذراعه لكنها لم تستخدم قوته: «نعم. أنا بحاجة إلى ذراع قوية. ويحتاجها يايمون. والمملكة أيضاً». قال تورانا: «أنا دائماً على استعداد لخدمتك».

عندما ابتعدا عن الآخرين، قالت بهدوء: «فلتصبح الوصي الوحيد. خذ السلطة واحكم بنفسك. إلى أن يبلغ يايمون سن الرشد».

- وصية التايكو تمنع هذا. حتى لو كنت أتمنى ذلك، وهو ما لا أتمناه. القيود التي فرضها تمنع سيطرة وصي واحد على السلطة. أنا لا أسعى إلى السلطة المطلقة. ولم أسعَ إليها قط.

قالت مستخدمة اللقب الذي أطلقه عليه التايكو منذ زمن بعيد: «يا تورا تشان، لدينا القليل من الأسرار، أنت وأنا. يمكنك فعل ذلك إذا كنت تتمنى. سأتكفل بتبرير الأمر للسيدة أوتشيبا. خذ السلطة لنفسك مدى الحياة. أصبح شوجن واصنع...».

- يا سيدتي، ما تقولينه هو خيانة. أنا-لا-أسعى-لأن-أكون-شوجن.
- بالتأكيد، ولكن أرجو أن تصغي إليّ للمرة الأخيرة. أصبح شوجن، واجعل يايمون وريثك الوحيد. وريثك الوحيد. يمكنه أن يصبح شوجن بعدك. أليس نسبه فوجيموتو من خلال السيدة أوتشيبا عائداً إلى جدها جورودا ومن خلاله عائداً إلى العصور القديمة؟ فوجيموتو.

حرق تورانا إلىها: «هل تعتقد أن الدايميو سيوافقون على مثل هذا الادعاء، أو أن جلالته -ابن السماء- سيوافق على التعيين؟».

- لا. ليس لي يايمون وحده. ولكن إذا أصبحت شوجن أولاً، وتبنّيته، يمكنك إقناعهم جميعهم. سندعمك، أنا والسيدة أوتشيبا.

سأل تورانا جا مذهولاً: «هل وافقت على هذا؟».

- لا. لم نناقشه قط. إنها فكرتي. لكنها ستوافق. سأجيب نيابة عنها مقدماً.
- هذا نقاش مستحيل يا سيدتي.
- يمكنك التعامل مع إيشيدو، ومعهم جميعاً. أنت تفعل دائماً. أنا خائفة مما أسمع يا تورانا تشان، شائعات عن الحرب وانحياز الأطراف وبداية العصور المظلمة مجدداً. عندما تبدأ الحرب ستستمر إلى الأبد وتلتهم يايمون.
- نعم. أو من بذلك أيضاً. نعم، إذا بدأت فستستمر إلى الأبد.
- إذن خذ السلطة! افعل ما تشاء بمن تشاء وبالطريقة التي تشاء بها. يايمون فتى صالح. أعلم أنك تحبه. لديه عقل والده ومع إرشادك سنستفيد جميعاً. يجب أن يحظى بإرثه.
- أنا لا أعارضه، ولا خلافته. كم مرة يجب أن أقول ذلك؟
- سيدمّر الوريث ما لم تدعمه بفعالية.
- قال تورانا جا: «أنا أدعّمه بالفعل! بكل طريقة ممكنة. هذا ما اتفقت عليه مع التايكو، زوجك الراحل».
- تنهدت يودوكو وأحكمت ثياب الراهبات حولها: «هذه العظام العجوزة تشعر بالبرد. كم توجد من أسرار ومعارك وخيانات ووفيات وانتصارات يا تورانا تشان. أنا مجرد امرأة، ووحدي تماماً. أنا سعيدة بأنني مكرسة لبوذا الآن، وأن معظم أفكارني تتجه نحو بوذا وحياتي القادمة. ولكن في هذه الحياة يجب أن أحمي ابني وأن أخبرك هذه الأشياء. أمل أن تغفر لي وقاحتي».
- دائماً ما أسعى لنصائحك وأستمتع بها.
- استقام ظهرها قليلاً: «شكراً لك. استمع، بينما أنا على قيد الحياة، لن يتجرأ الوريث ولا السيدة أوتشيبا على معاداتك أبداً».
- حسناً.
- هل ستفكر فيما اقترحتُه؟
- وصية سيدي الراحل تمنع ذلك. لا يمكنني مخالفة الوصية أو وعدي المقدس كوصي.
- مشيا في صمت. ثم تنهدت يودوكو: «لماذا لا تتزوجها؟».
- توقف تورانا جا في مكانه: «أوتشيبا؟».

- لمَ لا؟ إنها خيار سياسي جدير بالاهتمام. اختيار مثالي لك. إنها جميلة وشابة وقوية، وسلالتها الأفضل، جزء من فوجيموتو وجزء من مينووارا، الشمس تتمايل في عينيها، وتفيض بالحياة والمرح. ليس لديك زوجة رسمية الآن، فلمَ لا؟ سيحل هذا مشكلة الخلافة ويمنع تمزق المملكة. سيكون لديك أبناء آخرون منها بالتأكيد. وسيخلفك يايمون، ثم أبناءه أو أبناءها الآخرون. يمكنك أن تصبح شُوجِن. ستملك سلطة المملكة وسلطة الأب حتى تتمكن من تدريب يايمون على طريقتك. يمكنك تبنيه رسمياً وسيصبح ابنك تماماً مثل أي ابن لديك. لماذا لا تتزوج السيدة أوتشيبا؟

قال توراناغا لنفسه: لأنها متوحشة، نمرة مخادعة بوجه وجسد إلهة، تظن نفسها إمبراطورة وتتصرف على هذا النحو. لا يمكنك الوثوق بها أبداً في فراشك. سيكون احتمال غرزها إبره في عينيك وأنت نائم مساوياً لاحتمال مداعبتها لك. لا، كلا، ليس هي مطلقاً! حتى لو تزوجتها صورياً فقط -وهو ما لن توافق عليه أبداً- لا، إنه مستحيل، لأسباب عديدة، ليس أقلها أنها كرهتني وحاكت مؤامرات لإسقاطي أنا وبيتي منذ أن أنجبت أول مرة، منذ إحدى عشرة سنة خلت.

حتى آنذاك، حتى في سن السابعة عشرة، كانت قد كرست نفسها لتدميري. آه، كم تبدو ناعمة ظاهرياً وعيقة الرائحة، كأول خوخ ناضج في الصيف. لكنها في داخلها كالسيف مع عقل يضاهي حدته، تنسج تعويذتها، وسرعان ما جعلت التايكو يجن بها دون سواها. نعم، لقد سيطرت على التايكو منذ أن كانت في الخامسة عشرة عندما تزوجها رسمياً. نعم، ولا تنس، حقاً، لقد كانت هي من ضمته إلى مضجعها، حتى في ذلك الوقت، وليس العكس، بغض النظر عن مدى إيمانه بذلك. نعم، وحتى في سن الخامسة عشرة، كانت أوتشيبا تعرف ما تريده والطريقة للحصول عليه. ثم حدثت المعجزة، حيث أنجبت للتايكو ابناً في النهاية، هي الوحيدة من بين جميع النساء في حياته. كم عدد خليلاته؟ مائة على الأقل، وهو يملك قوة تضاهي أكثر من عشرة رجال عاديين. نعم. وكن هؤلاء النساء من جميع الأعمار والطبقات، سواء كن مؤقتات أو محظيات، يتدرجن من أميرات فوجيموتو إلى محظيات الدرجة الرابعة. لكن لم يسبق لأي منهن أن حملت منه، رغم أن عديداً من اللواتي طلقهن التايكو أو زوجهن أو تخلص منهن أنجبن أطفالاً من رجال آخرين فيما بعد. ولا واحدة، باستثناء السيدة أوتشيبا.

لقد أنجبت له ابنه الأول وهو في الثالثة والخمسين، الصغير المسكين، مرض ومات مبكرًا، مزق التايكو ملابسه وكاد يجن من الحزن، يلوم نفسه وليس هي. ثم أنجبت مجددًا بمعجزة بعد أربع سنوات، وبمعجزة ابنًا آخر، وبمعجزة كان بصحة جيدة هذه المرة، وكانت تبلغ الحادي والعشرين الآن. أوتشيبا اللا نظير لها، كما أطلق عليها التايكو.

هل أنجب التايكو يايمون أم لا؟ كم أنا مستعد لتقديم الكثير لأعرف الحقيقة. هل سنعرف الحقيقة يومًا ما؟ على الأرجح لا، لكن ما الذي لن أقدمه لأحصل على دليل، بطريقة أو بآخرى.

غريب أمر التايكو، فبرغم ذكائه الفائق في كل شيء آخر، فلم يكن ذكيًا بخصوص أوتشيبا، فقد كان مولعًا بها وبيايمون لحد الجنون. وغريب أيضًا أن تكون أم وريثه هي من مات والدها وزوج والدتها ووالدتها بسبب التايكو. هل تملك أوتشيبا الدهاء الكافي للنوم مع رجل آخر، والحصول على نسله، ثم التخلص منه لحماية نفسها؟ ليس مرة واحدة، بل مرتين؟

هل يمكن أن تكون بهذا الغدر؟ أجل، بكل تأكيد.

أتزوج بأوتشيبا؟ مستحيل.

قال توراناغا: «يشرفني أن تقترحي ذلك».

- أنت رجل يا تورا تشان، ويمكنك التعامل مع امرأة كهذه بسهولة. أنت الرجل الوحيد في الإمبراطورية القادر على ذلك، أليس كذلك؟ ستكون زوجة رائعة لك. انظر كيف تقاتل الآن من أجل حماية مصالح ابنها، وهي مجرد امرأة عاجزة. ستكون زوجة جديرة بك.

- لا أعتقد أنها ستفكر في الأمر مطلقًا.

- وإذا فكرت؟

- سأود أن أعرف ذلك. سرًا. نعم، سيكون هذا شرفًا لا يُقدر بثمن.

- يعتقد الكثيرون أنك الوحيد الذي يقف بين يايمون والخلافة.

- إنهم حمقى.

- نعم. لكنك لست كذلك يا توراناغا ساما. ولا السيدة أوتشيبا.

فكر: ولا أنت أيضًا يا سيدتي.



الفصل الثامن عشر

في أحلك ساعات الليل، تسلق القاتل الجدار ودخل الحديقة. كاد يكون غير مرئي. يرتدي ملابس سوداء تلائم جسده تمامًا، وجوارب التابي سوداء أيضًا. وغطاء وقناع أسود حجباً رأسه. كان رجلًا صغير البنية، حركاته سريعة وصامتة بينما وصل إلى الحصن الحجري الداخلي. توقف بعيدًا عن الأسوار الشاهقة، حيث يقف اثنان من البنيون على بعد خمسة وأربعين مترًا تقريبًا يحرسان الباب الرئيسي. ألقى بمهارة خطافًا مغطى بالقماش، وملحق به حبل حريري شديد الرفع. تعلق الخطاف على نتوء حجري في الكوة، تسلق الحبل بتمرُّس واختفى عبر الشق الضيق في الجدار.

كان الممر هادئًا ومضاءً بالشموع. أسرع بصمت، ثم فتح بابًا خارجيًا، وخرج إلى الأبراج المحصنة، برمية أخرى ماهرة وتسلق سريع، وصل إلى الردهة العلوية، لم يسمعه الحراس المتمركزون في زوايا الأبراج رغم يقظتهم. ضغط نفسه في تجويف حجري بينما كان يمر رجال آخرون من البنيون بهدوء. انسل على طول الممر في اللحظة التي غادروا فيها. توقف عند الزاوية وعيناه تتنقلان حول المكان بصمت. كان ساموراي وحيد يحرس الباب البعيد، وضوء الشموع يتراقص في هدوء الليل. كان الحارس يجلس متربعا، تائب وأمال ظهره إلى الحائط ثم تمدد. وأغمض عينيه للحظة وجيزة. اندفع القاتل على الفور. بلا صوت. صنع مشنقة من الحبل الحريري بيده، وألقاها على رقبة الحارس وشدها بقوة. حاولت أصابع الحارس بيأس إبعاد الخناق لكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل. وبطعنة سكيئة سريعة ودقيقة بين الفقرات وكأنها نُفذت على يد جراح. سكن الحارس تمامًا.

فتح القاتل الباب ليجد قاعة المقابلات الرسمية فارغة. لم يوجد حراس على الأبواب الداخلية. جر الجثة إلى الداخل وأغلق الباب مجددًا. عبر الغرفة دون تردد واختار الباب الأيسر الداخلي، كان مصنوعًا من الخشب ومحصنًا بشدة. انزلق النصل المنحني في يده اليمنى. طرق الباب برفق.

قال الجزء الأول من كلمة السر: «في زمن الإمبراطور شيراكاوا...».

من الجانب الآخر من الباب صدر صوت احتكاك معدن يخرج من غمده،
تلاه رد: «... عاش رجل حكيم يدعى إنراكو جي...».

- ... الذي كتب السوترا الحادية والثلاثين. لديّ إرساليات عاجلة للزعيم
توراناجا.

فُتح الباب وتقدم القاتل للأمام. اتجه النصل المنحني نحو حلق أول
ساموراي أسفل الذقن قليلاً وخرج بالسرعة نفسها ليُدفن بالطريقة نفسها
في الحارس الثاني. لفه قليلاً ثم انتزعه مجدداً. كلاهما فارق الحياة وهو
واقف. أمسك بأحدهما وأسقطه برفق، أما الآخر فقد سقط بلا صوت. سالت
دماؤهما على الأرضية وارتعش جسدهما وهما يحتضران.

انطلق الرجل مسرعاً عبر الممر الداخلي الضيق. كان المكان خافت
الإضاءة. ثم انفتح باباً فجأة. تجمد الرجل ونظر حوله ببطء.
كانت كيري تقف على بعد عشر خطوات منه فاعرة فمها بدهشة. وتحمل
صينية في يديها.

رأى أن الكوبين الموجودين على الصينية لم يكونا مستخدمين، والطعام
لم يُمس. كان يتصاعد خيط من البخار من إبريق الشاي. ويجواره شمعة
مشتعلة. ثم سقطت الصينية على الأرض واختفت يدا كيري في حزامها
لتخرج بعدها بخنجر. تحركت شفتاها دون أن يصدر عنها صوت، وكان هو
ينطلق مسرعاً نحو الزاوية. فُتح بابٌ في الطرف الآخر وخرج منه ساموراي
مذهول وجفناه ثقيلان من النوم.

اندفع القاتل نحوه وفتح باب الشوجي الذي كان يسعى إليه عن يمينه
بقوة. كانت كيري تصرخ ودوى صوت الإنذار في المكان. ركض عبر حجرة
الانتظار، وكانت خطواته ثابتة رغم الظلام. مندفعاً عبر النساء المستيقظات
وخادماتهن، واختفى في الممر الداخلي الأبعد.

رغم الظلام الدامس، تحسس طريقه بلا تردد حتى وجد الباب الصحيح
وسط الضجة المتصاعدة. فتح الباب وانقض على الشخص الممدد على
الفرش. لكن قبضة قوية تشبه الكماشة أمسكت بمقبض السكين خاصته،
والآن أصبح يتخبط في قتال على الأرض. حارب ببراعة وتحرر، وحاول طعنه
مرة أخرى لكنه أخطأ التصويب، وقد تشابك مع الغطاء. نزع الغطاء عنه

وألقى بنفسه على الشخص وسكينته مهيأة للطعنة القاتلة. ولكن الرجل تحرك ببراعة غير متوقعة وركله بقدمه بقوة في منطقة فخذه، انفجر الألم داخله بينما اندفع ضحيته نحو الأمان.

ثم غمر الساموراي المدخل، البعض يحملون فوانيس. ظهر ناجا مرتدياً لباساً داخلياً فقط وشعره مشعثاً، وانقض بينه وبين بلاكثورن، وسيفه مرفوعٌ عاليًا.

- استسلم.

تظاهر القاتل بالاندفاع مرة أخرى، ثم صرخ قائلاً: «باسم بوذا أميدا». ثم حول اتجاه النصل نحو نفسه وبيديه الاثنتين دفعه إلى أعلى تحت ذقنه. تدفق الدم وانهار على ركبتيه. فصل ناجا رأسه عن جسده بضربة خاطفة من سيفه.

في أثناء الصمت، التقط ناجا الرأس وأزال عنه القناع. كان وجهًا عاديًا، لا تزال عيناه ترفرفان. أمسك الرأس من عقدة الشعر الذي كان مصففاً كالساموراي.

- هل يعرفه أحد؟

لم يجبه أحد. بصق ناجا على الوجه، وألقى بالرأس بغضب على أحد رجاله، ثم مزق الملابس السوداء ورفع ذراع الرجل اليمنى ليجد ما كان يبحث عنه. الوشم الصغير -الحرف الصيني الذي يرمز لأميدا، البوذا الخاص- كان محفوراً في الإبط.

- مَنْ ضابط الوردية؟

كان الرجل شاحباً من الصدمة: «أنا يا سيدي».

انقض ناجا نحوه وتفرق الآخرون. لم يحاول الضابط تجنب ضربة السيف الشرسة التي قطعت رأسه وجزءاً من كتفه وإحدى ذراعيه.

قال ناجا لضابط آخر: «يا هايابوسا سان، أصدر أمراً لجميع الساموراي من هذه الوردية بالخروج إلى ساحة الفناء. وضاعف عدد الحراس للوردية الجديدة. وأخرج الجثة من هنا. أما الباقون منكم...».

توقف عن الكلام عندما جاءت كيري إلى المدخل، ولا يزال الخنجر في يدها. نظرت إلى الجثة ثم إلى بلاكثورن.

سألت: «هل أصيب أنجين سان بأذى؟».

نظر ناجا إلى الرجل الذي كان يفوقه طولاً، وهو يتنفس بصعوبة. لم يرَ أيَّ جروح أو دم. مجرد رجل أشعث الشعر من النوم كان على وشك أن يُقتل. وجهه شاحب لكن بلا خوف ظاهر. قال: «هل أنت مصاب يا ربان؟».

- لا أفهم.

اقترب ناجا ونزع كيمونو النوم عنه ليرى ما إذا كان الربان قد أصيب. سمع العملاق يقول ورآه يهز رأسه: «آه، أفهم الآن. لا. لم أصب بأذى».

قال: «جيد، يبدو أنه لم يصب بأذى يا كيريتسوبو سان».

رأى أنجين سان يشير إلى الجثة ويقول شيئاً. أجاب ناجا: «أنا لا أفهمك. ابق هنا يا أنجين سان».

وقال لأحد الرجال: «أحضر له بعض الطعام والشراب إذا أراد».

سألت كيري: «القاتل، كان عليه وشم أميدا، أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدة كيريتسوبو.

- شياطين... شياطين.

- نعم.

انحنى ناجا لها ثم التفت إلى أحد الساموراي المذهولين: «أنت اتبعني. وأحضر الرأس معك».

اندفع للخارج بخطوات واسعة وهو يتساءل كيف سيخبر والده. يا بوذا، أشكرك لحمايتك لأبي.

قال توراناغا: «كان رونين، لن تتمكن أبداً من تعقبه يا هيرو ماتسو سان».

- نعم. لكن إيشيدو هو المسؤول. لم يكن لديه شرف ليفعل هذا، أليس كذلك؟ لا شرف على الإطلاق. أن يستخدم هؤلاء القتلة الأوغاد. رجاءً، أتوسل إليك، اسمح لي باستدعاء جنودنا الآن. سأوقف هذا الأمر الآن وإلى الأبد.

- لا.

نظر توراناغا إلى ناجا: «هل أنت متأكد أن أنجين سان لم يصب بأذى؟».

- لا يا سيدي.

- يا هيرو ماتسو سان. ستُخفض رتبة جميع حراس هذه الوردية لتقصيرهم في واجبهم. يُمنع عليهم السيوكو. سيُعاقبون بأن يعيشوا مع خزيهم أمام جميع رجالي كجنود من أدنى طبقة. اسحبوا الحراس القتلى من أقدامهم عبر القلعة والمدينة إلى ساحة الإعدام. فلتأكل الكلاب جثثهم.

الآن التفت إلى ابنه ناجا. في وقت سابق من تلك الليلة، وصلت رسالة عاجلة من دير جوهجي في ناجويا حول تهديد إيشيدو لناجا. أمر توراناغا على الفور بحجز ابنه في مكان مغلق ومحاط بالحراس، ووضع بقية أفراد الأسرة في أوساكا -كيري والسيدة سازوكو- تحت حراسة مشددة على حد سواء. وأضافت رسالة رئيس الدير أنه رأى من الحكمة إطلاق سراح والدة إيشيدو على الفور وإعادتها إلى المدينة مع خادمتها: «لا أجرؤ على المخاطرة بحياة أحد أبنائك النبلاء بتهور. والأسوأ من ذلك، أن صحتها ليست جيدة. مصابة بالبرد. من الأفضل لها أن تموت في منزلها وليس هنا».

قال توراناغا، وصوته باردٌ وحانقٌ: «يا ناجا سان، أنت أيضًا تتحمل مسؤولية تسلل القاتل. كل ساموراي مسؤولٌ، سواء كان في نوبة حراسة أو خارجها، نائمًا أو مستيقظًا. ستُغرم بنصف دخلك السنوي».

قال الشاب مدهوشًا من السماح له بالاحتفاظ بأي شيء، بما في ذلك رأسه: «حسنًا يا سيدي. رجاءً أخفض رتبتي أيضًا. لا أستطيع العيش مع هذا الخزي. لا أستحق سوى الاحتقار على تقصيري يا سيدي».

- لو أردت تخفيض ربتك، لفعلت ذلك. أنت مأمور بالتوجه إلى إيدو على الفور. ستغادر مع عشرين رجلًا الليلة وتتوجه إلى أخيك. ستصل إلى هناك في زمن قياسي، اذهب.

انحنى ناجا وانصرف ووجهه شاحب. ثم خاطب هيرو ماتسو بالقسوة نفسها: «ضع أربعة أضعاف عدد حراسي. ألغ صيد اليوم وغداً أيضًا. سأغادر أوساكا بعد يوم من اجتماع الأوصياء. ستقوم أنت بكل التحضيرات، وإلى ذلك الحين سأبقى هنا. لن أستقبل أحدًا لم يدع. لا أحد على الإطلاق». لوح بيده بغضب طاردًا إياهم: «يمكنكم جميعًا المغادرة. ولكن ابق أنت يا هيرو ماتسو».

خلت الغرفة. شعر هيرو ماتسو بالارتياح لأن مذلته ستكون سرية، فهو من بين الجميع بصفته قائد الحرس الشخصي يتحمل المسؤولية الأكبر: «ليس لديّ عذر يا سيدي. لا عذر على الإطلاق».

كان توراناغا منهمكًا في التفكير. لم يعد أي غضب باديًا عليه الآن: «إذا أردت الاستعانة بخدمات منظمة أميدا السرية، كيف ستجدهم؟ كيف ستتواصل معهم؟».

- لا أعلم يا سيدي.

- من قد يعلم؟

- كاسيجي يابو.

نظر توراناغا خارج الكوة. اختلطت خيوط الفجر بسواد السماء الشرقي: «أحضره إلى هنا عند الفجر».

- أعتقد أنه المسؤول؟

لم يجب توراناغا، بل عاد إلى تأملاته.

في نهاية المطاف لم يستطع الجندي العجوز تحمل الصمت: «رجاء يا سيدي، اسمح لي بالابتعاد عن ناظريك. أنا أشعر بالخجل الشديد من فشلنا...».

قال توراناغا: «يكاد يكون من المستحيل منع مثل هذه المحاولة».

- نعم. ولكن كان يجب أن نلقي القبض عليه في الخارج، وليس بالقرب منك.

- أوافقك الرأي. لكنني لا أحملك المسؤولية.

- أنا أحمل نفسي المسؤولية. يوجد شيء يجب أن أقوله يا سيدي، لأنني مسؤول عن سلامتك حتى عودتك إلى إيدو. ستكون هناك المزيد من المحاولات لاستهدافك، وجميع جواسيسنا يبلغون عن زيادة تحركات القوات. إيشيدو يحشد قواته.

قال توراناغا بلا مبالاة: «نعم. بعد يابو، أريد أن أرى تسوكو سان، ثم ماريكو سان. وضاعف عدد الحراس على أنجين سان».

قال هيرو ماتسو الذي كان قلقًا بشدة على سلامة توراناغا: «وصلت تقارير الليلة الماضية تفيد بأن الزعيم أونوشي لديه مائة ألف رجل يعملون على تحسين تحصيناته في كيوشو».

- سأسأله بخصوص ذلك عندما نلتقي.

لم يتمالك هيرو ماتسو غضبه: «أنا لا أفهمك على الإطلاق. يجب أن أخبرك أنك تخاطر بكل شيء بغباء. نعم، بغباء. لا يهمني إن كنت ستقطع رأسي مقابل قولي لك هذا، لكنها الحقيقة. إذا صوّت كياما وأونوشي مع إيشيدو فستُعزل. ستصبح رجلًا ميتًا... لقد خاطرت بكل شيء بمجيئك إلى هنا وقد خسرت. اهرب ما دمت تستطيع. على الأقل سيظل رأسك على كتفيك».

- لستُ مهّدًا بالخطر حتى الآن.

- هل لا يعني لك هذا الهجوم الذي حدث الليلة أي شيء؟ لو لم تغير غرفتك مرة أخرى لكنت ميتًا الآن.

قال توراناغا: «نعم، ربما لكنت كذلك، لكن على الأرجح لا. كان هناك عديدٌ من الحراس خارج أبوابي الليلة واللييلة الماضية أيضًا. وكنت أنت أيضًا تحرسني الليلة. لا يمكن لأي قاتل الاقتراب مني. حتى هذا الذي كان مستعدًا جيدًا. لقد عرف الطريق، وحتى كلمة السر، أليس كذلك؟ قالت كيري سان إنها سمعته يستخدمها. لذلك أعتقد أنه كان يعلم في أي غرفة أمكث. لم أكن فريسته المقصودة. بل كان أنجين سان».

- الهمجي؟

- نعم.

كان توراناغا قد توقع أن يتعرض الهمجي لمزيد من الخطر بعد الاكتشافات الاستثنائية التي حدثت صباح هذا اليوم. من الواضح أن أنجين سان أصبح يشكل خطورة كبيرة بالنسبة للبعض بحيث لا يمكن تركه على قيد الحياة. لكن لم يتوقع توراناغا قط أن يُشن هجوم عليه داخل مقره الخاص وبذلك السرعة الكبيرة. من قد يخونني؟ استبعد تسريب للمعلومات من كيري أو ماريكو. فكر: ولكن القصور والحدائق دائمًا ما يكون بها أماكن سرية للتصتت. أنا في وسط معقل العدو، وحيث يكون لديّ جاسوس واحد، سيكون لدى إيشيدو -وغيره- عشرون جاسوسًا. ربما كان مجرد جاسوس.

- ضاعف عدد الحراس المكلفين بحماية أنجين سان. إنه بالنسبة لي يساوي عشرة آلاف رجل.

بعد مغادرة السيدة يودوكو صباحًا، عاد توراناغا إلى بيت الشاي في الحديقة، ولاحظ على الفور الضعف الداخلي الذي يعتري أنجين سان، وعينيه شديديتي اللعان وإرهاقه الشديد. لذلك سيطر على حماسه وعلى حاجته الملحة للغاية للتعمق أكثر، وأمر برحيله قائلاً إنهم سيواصلون غداً. وُكِّت كيري برعاية أنجين سان مع تعليمات بتوفير طبيبٍ له، والحفاظ على قوته، وإطعامه طعامًا همدجاً إذا رغب في ذلك، وحتى السماح له باستخدام غرفة النوم التي يستخدمها توراناغا نفسه معظم الليالي. قال لها سرّاً: «أعطيه أي شيء تريته ضرورياً يا كيري سان. أحتاجه بكامل لياقته البدنية والعقلية، وبسرعة كبيرة».

ثم طلب منه أنجين سان إطلاق سراح الراهب من السجن اليوم، لأن الرجل عجوز ومريض. فأجابه بأنه سيفكر في الأمر وأمر برحيله بكلمات من الشكر، دون أن يخبره أنه أمر بالفعل مجموعة من الساموراي بالذهاب إلى السجن على الفور وإحضار هذا الراهب الذي ربما يكون ذا قيمة مساوية، له ولإيشيدو أيضاً.

كان توراناغا على علم بهذا الكاهن لفترة طويلة، وبأنه إسباني ويعادي البرتغاليين. لكنه أرسل إلى هناك بأمر من التايكو، لذلك فهو سجين التايكو، وليس لديه -توراناغا- سلطة على أحد في أوساكا. لقد أرسل أنجين سان عمداً إلى ذلك السجن ليس فقط ليوهم إيشيدو بأن الغريب لا قيمة له، ولكن أيضاً على أمل أن يتمكن الربان الماهر من استخراج معرفة الراهب.

لقد أُحبطت المحاولة الأولى الخرقاء للقضاء على حياة أنجين سان في الزنزانة، وعلى الفور وضع حاجزاً حوله لحمايته. لقد كافأ توراناغا جاسوسه التابع مينيكيوي -وهو رجل من الحمالين- بإخراجه بأمان وإعطائه أربع محفات من ممتلكاته الشخصية والحق الوراثي في استخدام امتداد طريق توكايدو -الطريق الرئيسي الذي يربط إيدو وأوساكا- بين المرحلتين الثانية والثالثة، التي تقع في أراضيهِ بالقرب من إيدو، وأرسله سرّاً خارج أوساكا في اليوم الأول. خلال الأيام التالية، أرسل جواسيسه الآخرون تقارير تفيد بأن الرجلين أصبحا صديقين الآن، يتحدث الراهب ويطرح أنجين سان الأسئلة ويستمع. حقيقة أن إيشيدو ربما يكون لديه جواسيس في الزنزانة

أيضاً لم تزعجه. كان أنجين سان محمياً وآمناً. ثم حاول إيشيدو بغتة تهريبه وإخضاعه لسيطرة غريبة.

تذكر توراناغا المتعة التي شعر بها هو وهيرو ماتسو في أثناء تخطيطهما «للكمين» الفوري -حيث كان «قاطعي الطرق الرونين» إحدى المجموعات الصغيرة المعزولة من النخبة الخاصة به من الساموراي المخفيين داخل أوساكا وحولها- وكذلك في ترتيب التوقيت الدقيق لـ«يابو» الذي نفذ بجهل عملية «الإنقاذ». لقد ضحكا معاً، عالمين أنهما استخدمتا يابو مجدداً كدمية ليفركا أنف إيشيدو في روثه.

كل شيء نجح بروعة. حتى اليوم.

اليوم عاد الساموراي الذي أرسله لإحضار الراهب فارغ اليدين. أبلغ الرجل: «لقد مات الكاهن. عندما نادينا اسمه، لم يخرج يا سيد توراناغا. دخلت لإحضاره لكنه كان ميتاً. قال المجرمون من حوله إنه انهار عندما نادى السجانون باسمه. لقد كان ميتاً عندما قلبته على ظهره. أرجو المعذرة، لقد أرسلتني لأجله وقد فشلت في القيام بما أمرت به. لم أكن أعلم ما إذا كنت تريد رأسه فقط، أم رأسه متصل بجسده، نظراً لأنه كان همجياً، لذلك أحضرت الجثة والرأس لا يزال متصلًا بها. قال بعض المجرمين من حوله إنهم من أتباعه الجدد. لقد أرادوا الاحتفاظ بالجثة وحاولوا الاحتفاظ بها لذلك قتلتُ القليل منهم وأحضرت الجثة. إنها نتنة ومليئة بالديدان ولكنها في ساحة القصر يا سيدي».

سأل توراناغا نفسه مجدداً: لماذا مات الراهب؟ ثم رأى هيرو ماتسو ينظر إليه باستفهام. قال: «ماذا؟».

- كنت فقط أسأل مَنْ يريد موت الربان؟
- المسيحيون.

تبع كاسيجي يابو هيرو ماتسو على طول الممر، حيث شعر بالهيبة في ضوء الفجر. كانت توجد نكهة مالحة لطيفة في النسيم، وذكَرته بمسقط رأسه، ميشيما. كان سعيداً لأنه سيقابل توراناغا أخيراً وسينتهي الانتظار. لقد استحم وارتدى ملابسه بعناية. كُتِبَت آخر رسائل إلى زوجته وأمه وخُتِمَت

وصيته النهائية تحسبًا لسير المقابلة ضده. كان يرتدي اليوم سيف موراساما داخل غمده الذي يحمل شرف المعارك.

انعطفا إلى ممر آخر، ثم فتح هيرو ماتسو بغتة بابًا مقويًا بالحديد وقاد الطريق ليصعدا درجًا حجريًا إلى قلب الحصن المركزي الداخلي لهذا الجزء من التحصينات. كان يوجد عديدٌ من الحراس للحماية، وشعر يابو بالخطر.

كان الدرج يتلوى لأعلى وينتهي بحصن داخلي سهل الدفاع عنه. فتح الحراس الباب الحديدي. خرج إلى الأسوار. سأل نفسه بلا خوف: هل تلقى هيرو ماتسو أمرًا بالقاء من الأعلى، أم سأمُر بالقفز؟

لدهشته، كان توراناغا هناك، والأكثر دهشة أنه نهض لاستقباله باحترام بشوش لا يحق له أن يتوقعه. فبعد كل شيء كان توراناغا زعيم المقاطعات الثماني، بينما كان هو مجرد زعيم إيزو. لقد وُضعت الوسائد بعناية. كان إبريق الشاي موضوعًا داخل غلاف حريري. كانت فتاة مربعة الوجه ترتدي ملابس فاخرة ولا تتمتع بجمال كبير تنحني باحترام. كان اسمها سازوكو، وكانت سابع خليلات توراناغا الرسميات، وأصغرهن، وكانت حاملًا.

- كم من الجيد أن أراك يا كاسيجي يابو سان. أنا آسف جدًا لإبقائك تنتظر.

الآن كان يابو متأكدًا من أن توراناغا قد قرر قطع رأسه، بطريقة أو بأخرى، لأنه وفقًا للعادات الشائعة، يكون عدوك أكثر لطفًا عندما يخطط أو قد خطط بالفعل لتدميرك. أخرج سيفيه ووضعهما بعناية على ألواح الحجر، وسمح لنفسه بأن يُقاد بعيدًا عنهما ويُجلَس في مكان الشرف: «لقد فكرت أنه سيكون من الممتع مشاهدة شروق الشمس يا يابو سان. أعتقد أن المنظر هنا رائع، حتى إنه أفضل من البرج الرئيسي للوريث. أليس كذلك؟».

- نعم، إنه جميل.

قال يابو دون تحفظ. فهو لم يسبق له أن وصل إلى هذا الارتفاع في القلعة من قبل، وهو متأكد الآن من أن ملاحظة توراناغا بشأن «الوريث» تعني أن مفاوضاته السرية مع إيشيدو قد كُشفت. أضاف: «يشرفني أن يُسمح لي بمشاركتك ذلك».

في الأسفل منهم كانت المدينة والميناء والجزر النائمة، تقع أواجي باتجاه الغرب، والساحل ينخفض نحو الشرق، والضوء المتنامي في السماء الشرقية يمزق السحب ببقع قرمزية.

- هذه زوجتي السيدة سازوكو. سازوكو، هذا حليفي الزعيم الشهير كاسيجي يابو من إيزو، الدايميو الذي أحضر لنا الهمجي وسفينة الكنز. انحنت سازوكو وأثنت عليه وانحنى هو وانحنت هي ردًا على انحنائه مجددًا. عرضت سازوكو على يابو كوب الشاي الأول لكنه رفض هذا الشرف بأدب، وبدأ بالطقوس، وطلب منها أن تقدمه إلى توراناغا، الذي رفض بدوره، وألح عليه أن يقبله. أخيرًا واستمرارًا للطقوس كضيف شرف، سمح لنفسه بالاعتناق. قبل هירו ماتسو الكوب الثاني، وأصابه المجعدة تمسك بالخزف بصعوبة، واليد الأخرى ملفوفة حول مقبض سيفه، ومرتاحة في حجره. قبل توراناغا كوبًا ثالثًا وتجرع الشاي الخاص به، ثم سلموا أنفسهم معًا للطبيعة وتابعوا شروق الشمس. في صمت السماء.

حامت طوائر النوارس. وبدأت أصوات المدينة. وُولد اليوم.

تنهدت السيدة سازوكو وعيناها مغرورقتان بالدموع: «كوني بهذا العلو يجعلني أشعر وكأنني إلهة، أشاهد الكثير من الجمال، أليس كذلك؟ إنه لأمر محزن للغاية أنه قد اختفى إلى الأبد يا سيدي. محزن للغاية، أليس كذلك؟». قال توراناغا: «نعم».

عندما وصلت الشمس إلى منتصف الأفق، انحنت وغادرت. ولدهشة يابو، غادر الحراس أيضًا. الآن كانوا وحيدين. ثلاثتهم.

قال توراناغا: «لقد سررت بتلقي هديتك يا يابو سان. لقد كان الأمر سخيًا للغاية، السفينة بأكملها وكل شيء فيها».

- كل ما لدي هو ملكك.

قال يابو، لا يزال متأثرًا بشدة بمشهد الشروق. فكر: أتمنى أن يكون لدي مزيد من الوقت. يا له من لطف من توراناغا أن يفعل ذلك. أن يعطيني خاتمة بهذا الاتساع: «شكرًا لك على هذا الفجر».

قال توراناغا: «كان لي الحق في إعطائه. يسعدني أنك استمتعت بهديتي كما استمتعت بهديتك».

عم الصمت.

- ماذا تعلم عن منظمة أميدا يا يابو سان؟

- أعلم فقط ما يعلمه معظم الناس: إنه مجتمع سري يتكون من عشرة... وحدات من عشرة أفراد. قائد وما لا يزيد على تسعة مساعدين في أي منطقة، من النساء والرجال. إنهم يقسمون بأقدس قسمٍ وأشدّه سرية للزعيم بوذا أميدا -مانح الحب الأبدي- بالطاعة والعفة والموت، لتكريس حياتهم للتدريب ليصبحوا سلاحًا مثاليًا لقتل واحد. يقتلون فقط بأمر القائد، وإذا فشلوا في قتل الشخص المختار سواء كان رجلًا أو امرأة أو طفلًا ينتحرون على الفور. إنهم متعصبون دينيون على يقين بأنهم سيذهبون مباشرة من هذه الحياة إلى المرتبة البوذية. لم يُقبض على أي منهم أحياء.

عرف يابو عن محاولة اغتيال توراناجا. كانت كل أوساكا تعرف الآن وعرفت أيضًا أن زعيم الكانتو، المقاطعات الثماني، قد حصن نفسه بأمان داخل أطواق من الفولاذ. أضاف: «إنهم يقتلون نادرًا، وسرهم كامل. لا توجد فرصة للانتقام منهم لأن لا أحد يعرف من هم أو أين يعيشون أو أين يتدربون».

- إذا كنت ترغب في توظيفهم، فكيف ستفعل ذلك؟

- سأهمس بالأمر في ثلاثة أماكن: في دير هينان، وعند بوابات ضريح أميدا، وفي دير جوهجي. في غضون عشرة أيام، إذا اعتُبرت موظفًا مقبولا فسيواصلون معك من خلال وسطاء. كل شيء سري للغاية ومخادع لدرجة أنه حتى لو رغبت في خيانتهم أو القبض عليهم، فلن يكون ذلك ممكناً أبداً. في اليوم العاشر يطلبون مبلغًا من المال من الفضة، ويختلف المبلغ حسب الشخص الذي سيُغتال. لا توجد مساومة، تدفع ما يطلبونه مسبقًا. يضمنون فقط أن أحد أعضائهم سيحاول القتل في غضون عشرة أيام. تقول الأسطورة إنه إذا نجحت عملية القتل، يعود القاتل إلى معبده ثم ينتحر طقسياً باحتفال كبير.

- إذن تعتقد أنه لا يمكننا معرفة من دفع ثمن الهجوم اليوم؟

- لا.

- هل تعتقد أنه سيكون هناك هجوم آخر؟

- ربما. ربما لا. إنهم يتعاقدون على محاولة واحدة في المرة الواحدة، أليس كذلك؟ ولكن سيكون من الحكمة أن تعزز أمنك، بين الساموراي

الخاصين بك، وكذلك بين نساءك. يُقال إن نساء أميدا مدربات على السموم وكذلك استعمال الخنجر والخنق.

- هل سبق لك أن وظفتهم؟

- لا.

- لكن والدك فعل ذلك؟

- لا أعلم على وجه اليقين. قيل لي أن التايكو طلب منه التواصل معهم مرة واحدة.

- هل نجح الهجوم؟

- أي شيء فعله التايكو كان ناجحًا. بطريقة أو بأخرى.

شعر يابو بشخص خلفه وافترض أنهم الحراس يعودون سرًا. لقد كان يقدر المسافة إلى سيفيه. سأل نفسه مجددًا: هل أحاول قتل توراناغا؟ لقد قررت ذلك والآن لا أعلم. لقد تغيرت. لماذا؟

سأل توراناغا: «ما الذي ستدفعه لهم مقابل رأسي؟».

- لا يوجد ما يكفي من الفضة في كل آسيا تكفي لإغوائي لتوظيفهم للقيام بهذا.

- ما الذي سيتعين على شخص آخر دفعه؟

- عشرون ألف كوكو... خمسون ألفًا... مائة... ربما أكثر، لا أعلم.

- هل كنت لتدفع مائة ألف كوكو لتصبح شُوجِن؟ نسل عائلتك يعود إلى تاكاشيما، أليس كذلك؟

قال يابو بفخر: «لن أدفع شيئًا. إن المال قذارة، لعبة للنساء للعب بها أو للتجار الأوغاد. ولكن إذا كان ذلك ممكنًا، وهو ليس كذلك، فسأقدم حياتي وحياة زوجتي وأمي وجميع أقاربي باستثناء ابني الوحيد، وجميع الساموراي في إيزو وجميع نساءهم وأطفالهم لأكون شُوجِن يومًا ما».

- وماذا ستقدم مقابل المقاطعات الثماني؟

- كل شيء كما سبق، باستثناء حياة زوجتي وأمي وابني.

- ومقاطعة سوروغا؟

قال يابو باحتقار: «لا شيء. إيكواو جيكيو لا قيمة له. إذا لم آخذ رأسه وكل جيله في هذه الحياة، فسأفعل ذلك في حياة أخرى. سأقبل عليه وعلى نسله لعشرة آلاف حياة».

- وإذا أعطيته لك؟ وكل سوروجا، وربما المقاطعة التالية، توتومي أيضًا؟ فجأة سئم يابو من لعبة القط والفأر والحديث عن آميدا: «لقد قررت أن تأخذ رأسي يا زعيم توراناغا. حسنًا. أنا جاهز. أشكر على مشهد الشروق. لكن ليس لدي رغبة في إفساد مثل هذا اللطف بمزيد من الحديث، لذا دعنا ننته من هذا الأمر».

قال توراناغا: «ولكني لم أقرر أخذ رأسك يا يابو سان. ما الذي جعلك تفكر بذلك؟ هل همس لك عدو ما في أذنيك؟ إيشيدو ربما؟ ألا تعتبر أنت حليفي المفضل؟ هل تعتقد بأنني سأمتعك هنا دون حراس إذا اعتقدت بأنك مُعادي؟».

استدار يابو ببطء. توقع أن يجد الساموراي خلفه وسيوفهم مشهرة. لكن لا يوجد أحد هناك. التفت لينظر إلى توراناغا: «لا أفهم».

- أحضرتك إلى هنا حتى تتمكن من التحدث على انفراد. ولرؤية الفجر. هل ترغب في حكم مقاطعات إيزو وسوروجا وتوتومي. إذا لم أخسر هذه الحرب؟

قال يابو وآماله تحلق عالية: «نعم. جدًا».

- هل ستصبح تابعي؟ تقبلني كزعيمك الإقطاعي؟

لم يتردد يابو. قال: «أبدًا. كحليف، نعم. كقائد لي، نعم. أكون دائمًا أقل منك، نعم. حياتي وكل ما أملك إلى جانبك، نعم. لكن إيزو ملكي. أنا دايميو لإيزو ولن أتخلي عن السلطة على إيزو لأي شخص. أقسمت هذا القسم لوالدي والتايكو الذي أعاد تأكيد إقطاعنا الوراثي، أولاً لوالدي ثم لي. أكد التايكو حصولي على إيزو لي ولخلفائي إلى الأبد. لقد كان زعيمنا الإقطاعي وأقسمت ألا يكون لي زعيم آخر حتى يبلغ وريثه سن الرشد».

حرك هيرو ماتسو سيفه قليلًا في يده. لماذا لا يتركني توراناغا أنهي الأمر مرة واحدة وإلى الأبد؟ لقد تم الاتفاق. لماذا كل هذا الكلام المزعج؟ أشعر بألم وأريد التبول وأحتاج إلى الاستلقاء.

حك توراناغا فخذه: «ماذا عرض عليك إيشيدو؟».

- رأس جيكيو، في اللحظة التي يقطع فيها رأسك. ومقاطعته.

- في مقابل ماذا؟

- الدعم عندما تبدأ الحرب. لمهاجمة جناحك الجنوبي.

- هل قبلت؟

- أنت تعرفني أفضل من ذلك.

كان جواسيس توراناغا في منزل إيشيدو قد همسوا بأن الصفقة قد تمت، وأنها تشمل مسؤولية اغتيال أبنائه الثلاثة: نوبورو وسودارا وناجا: «لا شيء أكثر؟ فقط الدعم؟».

قال يابو بدقة: «بكل الوسائل المتاحة لي».

- بما في ذلك الاغتيال؟

- أعتزم خوض الحرب عندما تبدأ بكل قوتي. من أجل حليفي. بأي طريقة يمكنني ضمان نجاحه. نحن بحاجة إلى وصي واحد خلال فترة قصور يايمون. الحرب بينك وبين إيشيدو أمر لا مفر منه. هذا هو السبيل الوحيد.

كان يابو يحاول قراءة أفكار توراناغا. لقد كان يحتقر تردد توراناغا، مدرِّكًا أنه هو نفسه الرجل الأفضل، وأن توراناغا يحتاج إلى دعمه، وأنه في النهاية سينتصر عليه. لكن ماذا يفعل في هذه الأثناء؟ سأل نفسه وتمنى لو كانت يوريكو زوجته هنا لتوجهه. كانت لتعرف المسار الأكثر حكمة. قال وهو يقرر المقامرة: «يمكن أن أكون مفيدًا جدًا لك. يمكنني مساعدتك على أن تصبح الوصي الوحيد».

- لماذا يجب أن أرغب في أن أكون وصيًا وحيدًا؟

قال يابو: «عندما يهاجم إيشيدو، يمكنني مساعدتك على التغلب عليه. عندما يخل بالسلام».

- كيف؟

شرح لهما خطته بالبنادق.

ثار هيرو ماتسو: «فوج من خمسمائة ساموراي مسلح بالبنادق؟».

- نعم. فكر في قوة النيران. كل الرجال من النخبة مدربون على العمل كرجل واحد. المدافع العشرون كذلك معًا.

قال هيرو ماتسو: «إنها خطة سيئة. مقرزة. لا يمكنك الحفاظ عليها سرية أبداً. وسيبدأ العدو أيضاً إذا بدأنا. لن يكون هناك نهاية لمثل هذا الرعب. لا يوجد شرف فيها ولا مستقبل».

أجاب يابو: «أليست هذه الحرب القادمة هي الوحيدة التي تهمنا يا زعيم هيرو ماتسو؟ ألا نهتم فقط بسلامة الزعيم توراناغا؟ أليس هذا واجب حلفائه وتابعيه؟».

- نعم.

- كل ما على الزعيم توراناغا فعله هو الفوز بالمعركة العظيمة. سيمنحه ذلك رؤوس كل أعدائه... والقوة. أقول إن هذه الخطة ستحقق له النصر.

- أقول إنها لن تفعل. إنها خطة مقرزة بلا شرف.

التفت يابو إلى توراناغا: «العصر الجديد يتطلب تفكيراً واضحاً حول معنى الشرف».

طائر النورس يحلق عاليًا وينعق.

سأل توراناغا: «ماذا قال إيشيدو عن خطتك؟».

- لم أناقشها معه.

- لماذا؟ إذا كنت تعتقد أن خطتك قيمة بالنسبة لي، فستكون قيمة بالقدر نفسه له. ربما أكثر.

- لقد منحتني مشهداً للفجر. أنت لست فلاحاً مثل إيشيدو. أنت أكثر القادة حكمة وخبرة في الإمبراطورية.

سأل توراناغا نفسه: «ما السبب الحقيقي؟ أم أنك أخبرت إيشيدو أيضاً؟»
«إذا أتبعنا هذه الخطة، فسيقسم الرجال نصف لك ونصف لي؟».

- موافق. سأقودهم.

- ويكون من أعينه نائباً لي؟

- موافق. سأحتاج إلى أنجين سان لتدريب رجالي على استخدام الأسلحة والمدافع.

- لكنه سيكون ملكي دائماً، ستعزز به كما تفعل بالوريث؟ ستكون مسؤولاً عنه تماماً وتفعل به ما أقوله بالضبط؟

- موافق.

راقب توراناغا السحب القرمزية للحظة. فكر: كل هذا التخطيط مجرد هراء. سأضطر إلى إعلان السماء القرمزية بنفسى وأندفع نحو كيوتو على رأس جميع جيوشي. مائة ألف مقابل عشرة أضعاف هذا العدد: «من سيكون المترجم؟ لا يمكننى فصل تودا ماريكو سان إلى الأبد».

- لبضعة أسابيع يا سيدي؟ سأؤكد من أن يتعلم الهمجي لغتنا.

- سيستغرق الأمر سنوات. الوحيدون من الهمج الذين أتقنوها هم كهنة المسيحية، أليس كذلك؟ قضوا سنوات. تسوكو سان هنا منذ قرابة ثلاثين عامًا، أليس كذلك؟ لن يتعلم بسرعة كافية، تمامًا كما لا يمكننا تعلم لغاتهم البغيضة.

- نعم. لكننى أعدك أن أنجين سان سيتعلم بسرعة كبيرة.

أخبرهم يابو بالخطبة التي اقترحها عليه أومي كما لو كانت فكرته الخاصة.
- قد يكون هذا خطرًا للغاية.

- سيجعله يتعلم بسرعة، أليس كذلك؟ وبعد ذلك يُروض.

قال توراناغا بعد لحظة توقف: «كيف ستحافظ على السرية في أثناء التدريب؟».

- إن إيزو شبه جزيرة، الأمن ممتاز هناك. سأتمركز بالقرب من أنجيرو، جنوبًا وبعيدًا عن ميشيما والحدود لمزيد من الأمان.

- جيد. سننشئ روابط من الحمام الزاجل من أنجيرو إلى أوساكا وإيدو على الفور.

- ممتاز. أنا بحاجة فقط إلى خمسة أو ستة أشهر و...

سخر هيرو ماتسو: «سنكون محظوظين إذا كانت لدينا ستة أيام. هل تقول إن شبكة تجسسك الشهيرة قد قُضي عليها يا يابو سان؟ بالتأكيد كنت تتلقى تقارير؟ ألم يحشد إيشيدو قواته؟ ألم يحشد أونوشي قواته؟ ألسنا محاصرين هنا؟».

لم يجب يابو.

قال توراناغا: «حسنًا؟».

قال يابو: «تشير التقارير إلى حدوث كل ذلك وأكثر. إذا كانت ستة أيام فستكون ستة أيام وهذه هي الكارما. لكنني أعتقد أنك أذكى بكثير من أن تُحاصر هنا. أو تُحَرَّض لخوض حرب مبكرة».

- إذا وافقت على خطتك، فهل تقبلني كقائد لك؟

- نعم. وعندما تنتصر سيشرفني قبول سوروجا وتوتومي كجزء من إقطاعيتي إلى الأبد.

- ستعتمد توتومي على نجاح خطتك.

- موافق.

- ستطيعني؟ بكل شرفك؟

- نعم. أقسم ببوشيدو وبالزعيم بوذا وبحياة أُمِّي وزوجتي وذريتي المستقبلية.

قال توراناغا: «جيد، دعنا نتبَّول على الاتفاق».

توجه نحو حافة الأسوار. صعد إلى حافة الكوة، ثم على السور نفسه. كانوا على ارتفاع واحد وعشرين مترًا من الحديقة الداخلية. حبس هيرو ماتسو أنفاسه مذهولًا من شجاعة سيده. رآه يلتفت ويطلب من يابو أن يقف بجانبه. أطاع يابو. كان بإمكان لمسة بسيطة أن ترسلهم إلى حتفهم.

نزع توراناغا الكيمونو وملابسه الداخلية، وكذلك فعل يابو. تبولا معًا واختلط بولهما وشاهداه وهو يبذل الحديقة أدناه.

قال توراناغا الذي شعر براحة كبيرة لتمكنه من تفريغ مثانته: «آخر صفقة أبرمتها بهذه الطريقة كانت مع التايكو نفسه. كان ذلك عندما قرر أن يعطيني الكانتو، المقاطعات الثماني، كإقطاعيتي. بالطبع، في ذلك الوقت كان العدو هوجو لا يزال يملكهم، لذلك كان عليَّ أولًا أن أغزوهم. كانوا آخر معارضة متبقية لنا. وبالطبع كان عليَّ أيضًا التخلي عن إقطاعيتي الوراثة لإيماجاوا وأواري وإيسه على الفور في مقابل الشرف. ومع ذلك وافقت وتبَّولنا على الصفقة».

جلس على السور بسهولة وهو يرتدي ملابسه الداخلية براحة وكأنه يقف في الحديقة نفسها، وليس جاثمًا كنسر عاليًا جدًّا. أضاف: «لقد كانت صفقة جيدة لكلِّ منَّا. غزونا هوجو وأخذنا أكثر من خمسة آلاف رأس خلال عام. قضينا عليه وعلى كل عشيرته. ربما تكون على حق يا كاسيجي يابو

سان. ربما يمكنك مساعدتي كما ساعدتُ التايكو. فمن دوني، لم يكن التايكو ليصبح تايكو».

- بإمكانني المساعدة في جعلك الوصي الوحيد يا تورانا جا ساما. ولكن ليس شوجن.

- بالطبع. هذا هو الشرف الوحيد الذي لا أسعى إليه، بغض النظر عما يقوله أعدائي.

قفز تورانا جا إلى أسفل ليصل إلى أمان ألواح الحجر. نظر إلى يابو الذي لا يزال يقف على السور الضيق يرتب حزامه. لقد كان يرغب بشدة في دفعه دفعة سريعة بسبب وقاحته. ولكن بدلاً من ذلك جلس وأطلق الريح بصوت عالٍ. أضاف: «هذا أفضل. كيف حال مئانتك يا القبضة الحديدية؟».

- متعبة يا سيدي، متعبة جدًا.

ذهب الرجل العجوز إلى الجانب وأفرغ نفسه بامتنان فوق الأسوار أيضًا، لكنه لم يقف حيث وقف تورانا جا ويابو. لقد كان سعيدًا جدًا لأنه لم يكن عليه أيضًا أن يختم الصفقة مع يابو. هذه صفقة لن أحترمها أبدًا. أبدًا.

قال تورانا جا: «يا يابو سان. يجب أن يظل كل هذا سرًا. أعتقد أنه يجب أن تغادر خلال اليومين أو الثلاثة المقبلة».

- نعم. مع المدافع والأجنبي يا تورانا جا ساما؟

- نعم. ستذهب عن طريق السفينة.

نظر تورانا جا إلى هירו ماتسو وقال: «جهز السفينة الحربية».

أجاب هירו ماتسو، ويعكس وجهه استهجانه: «السفينة جاهزة. لا تزال المدافع والبارود في الأسفل».

- جيد.

أراد يابو أن يصرخ: لقد فعلتها. لقد حصلت على المدافع وأنجين سان، كل شيء. لقد حصلت على ستة أشهر. لن يخوض تورانا جا الحرب بسرعة أبدًا. حتى لو اغتاله إيشيدو في الأيام القليلة المقبلة، فلا يزال لديك كل شيء. يا بوذا، احمِ تورانا جا حتى أصبح في البحر. قال وصدقه واضح: «شكرًا لك. لن يكون لديك حليف أكثر ولاءً مني».

عندما غادر يابو، استدار هيرو ماتسو نحو توراناغا: «كان هذا شيئاً سيئاً لفعله. أنا أشعر بالخجل من تلك الصفقة. أشعر بالخجل لأن نصيحتي لا قيمة لها. من الواضح أنني تجاوزت جدوى وجودي بالنسبة لك وأنا متعب جداً. ذلك الدايميو الصغير الأحقق يعلم أنه استغلك كدمية. لماذا، حتى إنه تجرأ على ارتداء سيفه موراساما بحضرتك».

قال توراناغا: «لقد لاحظت».

- أعتقد أن الآلهة قد سحرتك يا زعيم. تتجاهل علانية إهانة كهذه وتسمح له بالتباهي أمامك. تسمح علانية لإيشيدو أن يهينك أمامنا جميعاً. تمنعني أنا والجميع من حمايتك. تحرم حفيدتي الساموراي من شرف الموت وسلامه. لقد فقدت السيطرة على المجلس، وقد فاقك عدوك من حيث المناورة، والآن تتبول على اتفاقية رسمية هي خطة مقززة لم أسمع بمثلها قط، وتفعل هذا مع رجل يتعامل بالقذارة والسموم والمكر مثملاً فعل والده من قبله.

كان يرتجف غضباً. لم يجب توراناغا بل حدق إليه ببرود وكأنه لم ينطق بكلمة.

انفجر هيرو ماتسو قائلاً: «أقسم بكل الكامي الأحياء والأموات إنك مسحور. أشك بك... وأصرخ وأسيء إليك وأنت تحديق إليّ فقط! لقد جننت أنت أو أنا. أطلب الإذن لأداء السيوكو، أو إذا لم تسمح لي بذلك السلام، فسأخلق رأسي وأصبح راهباً. أي شيء، أي شيء، المهم أن أغادر».

- لن تفعل شيئاً من ذلك. ولكن ستطلب استدعاء الكاهن الأجنبي تسوكو سان.

ثم ضحك توراناغا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع عشر

كان الأب ألفيتو ينزل عن حصانه من التل المجاور للقلعة على رأس مجموعته المعتادة من الفرسان اليسوعيين المرافقين. كان الجميع مرتدين زي الكهنة البوذيين باستثناء المسبحة والصليب اللذين يرتدونهما حول خُصُورهم. عددهم أربعون فارسًا يابانيًا، جميعهم من أبناء الساموراي المسيحيين النبلاء، طلاب من مدرسة ناجازاكي الذين رافقوه إلى أوساكا. الجميع يركبون أحصنة جيدة المظهر ومرتبة ويتميزون بالانضباط مثل حاشية أي دايميو.

انطلق بخبٍ سريع، غير آيِه بدفء أشعة الشمس، عبر الغابات وشوارع المدينة متجهاً نحو البعثة اليسوعية، وهي عبارة عن منزل حجري كبير على الطراز الأوروبي يقع بالقرب من أرصفة الميناء ويبرز بين مبانيه الخارجية المحتشدة وغرف الكنوز والمستودعات، حيث تُقايض جميع حرائر أوساكا وتُدفع أثمانها.

دخل الموكب عبر البوابات الحديدية الضخمة المنصوبة في جدران حجرية مرتفعة، ثم إلى الفناء المركزي المُمهّد وتوقف بالقرب من الباب الرئيسي. كان الخدم ينتظرون بالفعل لمساعدة الأب ألفيتو على الترحل. نزل من السرج وألقى إليهم الزمام. أصدر الجزء الحديدي الذي يرتديه في قدمه لتحفيز الحصان صوت خشخشة على الحجر وهو يسير في الممشى المغلق للمبنى الرئيسي، واستدار عند الزاوية متجاوزاً الكنيسة الصغيرة، ومر عبر بعض السوابيط إلى الفناء الداخلي الذي يضم نافورة وحديقة هادئة. باب حجرة الانتظار مفتوحٌ. تخلص من قلقه وضبط نفسه ودخل.

سأل: «هل هو وحده؟».

أجاب الأب سولدي، وكان رجلاً صغيراً لطيفاً مجدوراً من نابولي وكان مساعد الأب الزائر لما يقرب من ثلاثين عاماً، قضى منها خمسة وعشرين عاماً في آسيا: «لا، لا، ليس وحده يا مارتن. قائد الأسطول فيريرا موجود مع

صاحب النيافة. نعم، الطاووس معه. لكن صاحب النيافة أمر بأن تدخل على الفور. ما الذي حدث يا مارتن؟».

- لا شيء.

غمغم سولدي وعاد إلى شحذ قلمه: «'لا شيء' كما قال الأب الحكيم، حسنًا، سأعلم قريبًا جدًا».

قال ألفيتو معجبًا بالرجل الأكبر سنًا: «نعم».

مشى باتجاه الباب البعيد. توجد نار مشتعلة في الموقد تضيء الأثاث الفاخر الثقيل، والداكن بسبب العمر والغني بالصقل والعناية. هناك لوحة صغيرة معلقة فوق المدفأة للفنان تينتوريتو لمريم العذراء والطفل التي أحضرها الأب الزائر معه من روما، والتي كانت دائمًا ما تسرُّ الأب ألفيتو.

نادى الأب سولدي من خلفه: «هل رأيت الإنجليزي مجددًا؟».

لم يجب الأب ألفيتو. وطرق على الباب.

- تفضل بالدخول.

كان كارلو ديل أكوأ الأب الزائر لآسيا، والممثل الشخصي للرئيس العام لليسوعيين، وأعلى يسوعي رتبةً وبالتالي أقوى رجل في آسيا، وكان أيضًا الأطول قامه. بلغ طوله مئة وتسعين سنتيمترًا، وكان يتمتع ببنية جسمانية قوية تتماشى مع قامته. رداؤه برتقالي اللون وصليبه فائق الجودة. حليق الرأس أبيض الشعر، يبلغ من العمر واحدًا وستين عامًا، نابولي الأصل.

قال متحدثًا بالبرتغالية بسيلان إيطالي بديع: «تفضل بالدخول يا مارتن، تفضل. هل ترغب ببعض النبيذ؟ هل رأيت الإنجليزي؟».

- لا يا صاحب النيافة. فقط التقيت تورانا جا.

- سييء؟

- نعم.

- هل ترغب ببعض النبيذ؟

- شكرًا لك.

سأل فيريرا: «لأي درجة كان الأمر سيئًا؟».

كان الجندي جالسًا بجانب المدفأة على كرسي جلد مرتفع الظهر بنفس فخر الصقر وبألوانه الزاهية أيضًا. القائد ذو الأصل النبيل، قبطان سفينة

«ناو ديل تراتو» السفينة السوداء لهذا العام. كان في منتصف الثلاثينات من عمره، نحيلًا ونحيفًا ومهيّبًا.

- أعتقد أنه سيئ جدًا يا قبطان. على سبيل المثال قال توراناغا إن مسألة تجارة هذا العام يمكن أن تنتظر.

قال فيريرا: «من الواضح أن التجارة لا يمكن أن تنتظر، ولا أنا كذلك. سأبحر مع المد».

- لم تحصل بعد على تصاريح مغادرة الميناء. أخشى أنك ستضطر إلى الانتظار.

لعن فيريرا اللوائح اليابانية مرة أخرى والتي تطلب من جميع الشحنات -حتى شحناتهم الخاصة- الحصول على تراخيص للدخول والخروج: «اعتقدت أن كل شيء رُتب منذ شهور. لا ينبغي أن نكون مقيدين بلوائح محلية سخيفة. لقد قلت إن هذا الاجتماع مجرد إجراء شكلي للحصول على الوثائق».

- كان ينبغي أن يكون كذلك، لكنني كنت مخطئًا. ربما من الأفضل أن أشرح...

- يجب أن أعود إلى ماكاو على الفور لأجهز للسفينة السوداء. لقد قمنا بالفعل بشراء أفضل أنواع الحرير بقيمة مليون عملة ذهبية في معرض كانتون الذي أقيم في فبراير، وسنحمل ما لا يقل عن ألفين وثمانمائة وخمسة وثلاثين كيلوجرامًا من الذهب الصيني. اعتقدت أنني أوضحت أن كل قرش نقدي في ماكاو وملقة وجوا، وكل قرش يمكن لتجار ماكاو وآباء المدينة اقتراضه قد استثمر في مشروع هذا العام. وكل قرش من أموالكم أيضًا.

قال ديل أكوأ بتأكيد: «نحن على علم تام بأهمية الأمر مثلك تمامًا».

قال ألفيتو: «أنا أسف يا قبطان، لكن توراناغا هو رئيس مجلس الوصاية، ومن العُرف التوجه إليه. رفض مناقشة تجارة هذا العام أو تصاريح مغادرتك. لقد قال في البداية إنه لا يوافق على الاغتيال».

قال فيريرا: «من سيوافق يا أبت؟».

سأل ديل أكوأ: «عمّ يتحدث توراناغا يا مارتن؟ هل هذه حيلة من نوع ما؟ اغتيال؟ ما علاقة ذلك بنا؟».

- قال: لماذا تريدون أنتم المسيحيون اغتيال سجينى الربان؟

- ماذا؟

أبقى ألفيتو عينيه موجّهتين نحو الجندي: «يعتقد توراناغا أن محاولة الاغتيال ليلة أمس كانت تستهدف الإنجليزي، وليس هو. كما يقول أيضًا أن محاولة أخرى حدثت في السجن».

قال فيريرا: «بمّ تتهمني يا أبت؟ محاولة اغتيال؟ أنا؟ في قلعة أوساكا؟ هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها في اليابان على الإطلاق».

- هل تنكر أي علم بما حدث؟

قال فيريرا ببرود: «لا أنكر أنه إذا مات الهرطوقي بسرعة كان ذلك أفضل. إذا بدأ الهولنديون والإنجليز بنشر فسادهم في آسيا، فسنواجه المتاعب جميعنا».

قال ألفيتو: «نحن بالفعل نواجه المتاعب». بدأ توراناغا بالقول إنه تفهّم من كلام الإنجليزي أن أرباحًا هائلة تُجنّى من احتكار البرتغاليين لتجارة الصين، وأن البرتغاليين يبالغون في أسعار الحرير الذي لا يمكن إلا للبرتغاليين شراؤه في الصين، ويدفعون ثمنه بالسلعة الوحيدة التي يقبلها الصينيون في المقابل، الفضة اليابانية التي يقلل البرتغاليون أيضًا من سعرها بسخافة. قال توراناغا: «لأن العداء قائم بين الصين واليابان وكل التجارة المباشرة بيننا ممنوعة والبرتغاليون وحدهم لديهم إذن بممارسة التجارة، فيجب على البرتغاليين الرد رسميًا على تهمة الربان «بالربا» كتابيًا. لقد «دعاك» يا صاحب النيافة إلى تقديم تقرير إلى مجلس الوصاية حول أسعار الصرف: الفضة إلى الحرير، والحرير إلى الفضة، والذهب إلى الفضة. وأضاف أنه لا يعترض بالطبع على تحقيقنا أرباحًا كبيرة، بشرط أن تأتي من الصينيين».

قال فيريرا: «بالطبع سترفض مثل هذا الطلب المتعطرس».

- هذا صعب للغاية.

- إذن قدم تقريرًا مزيّفًا.

قال ديل أكوا: «هذا من شأنه أن يعرض موقفنا بأكمله للخطر، والذي يقوم على الثقة».

- هل يمكنك الوثوق بـياباني؟ بالطبع لا. أرباحنا يجب أن تبقى سرية. هذا الهرطوقي الملعون من الرب.

نظر ألفيتو لا إرادياً إلى ديل أكوأ، وظهر ضعفه للحظة: «يؤسفني أن أخبركم أنه يبدو أن بلاكتورن على اطلاع جيد». لم يقل الأب الزائر شيئاً.

سأل فيريرا متظاهراً بعدم رؤية النظرة بينهما، متمنياً لو أنه يعرف مدى معرفتهما الكاملة: «ماذا قال الياباني أيضاً؟».

- يطلب مني توراناغا أن أزوذه بحلول ظهر الغد بخريطة للعالم توضح خطوط ترسيم الحدود بين البرتغال وإسبانيا، وأسماء الباباوات الذين صدقوا على المعاهدات، وتواريخها. خلال ثلاثة أيام «يطلب» تفسيراً مكتوباً لـ«فتوحاتنا» في العالم الجديد، و«لصالح اهتمامي الخاص فقط» كانت كلماته الحرفية، كمية الذهب والفضة التي أُعيدت -لقد استخدم الكلمة التي قالها بلاكتورن «نهب»- إلى إسبانيا والبرتغال من العالم الجديد. كما أنه يطلب خريطة أخرى توضح امتداد إمبراطوريتي إسبانيا والبرتغال قبل مائة عام وخمسين عاماً واليوم، إلى جانب المواقع الدقيقة لقواعدنا من ملقا إلى جوا -لقد سمّاها جميعاً بدقة بالمناسبة؛ كانت مكتوبة على قطعة من الورق- وكذلك عدد المرتزقة اليابانيين الذين نستخدمهم في كل قاعدة من قواعدنا.

دُهِش ديل أكوأ وفيريرا. صاح الجندي: «يجب رفض هذا الأمر تماماً». قال ديل أكوأ: «لا يمكنك رفض توراناغا».

قال فيريرا: «أعتقد يا صاحب النيافة أنك تبالغ في تقدير أهميته. يبدو لي أن توراناغا هذا مجرد ملك مستبد آخر من بين الكثير، مجرد وثني قاتل آخر، وبالتأكيد لا ينبغي الخوف منه. ارفضه. سينهار اقتصادهم بأكلهم دون سفينتنا السوداء. إنهم يتوسلون للحصول على حريتنا الصيني. فلن يوجد كيمونو دون الحرير. يجب أن تكون تجارتنا معهم. أقول اللعنة على توراناغا. يمكننا التجارة مع الملوك المسيحيين -ما هي أسماؤهما؟ أونوشي وكياما- والملوك المسيحيين الآخرين في كيوشو. فبعد كل شيء ناجازاكي موجودة هناك، نحن حاضرون بقوة هناك حيث تتم كل التجارة».

قال ديل أكوأ: «لا يمكننا يا قبطان. هذه هي زيارتك الأولى إلى اليابان لذا ليس لديك أي فكرة عن مشكلاتنا هنا. نعم، إنهم بحاجة إلينا، لكننا نحتاجهم أكثر. دون دعم تورانا جا - وإيشيدو - سنفقد نفوذنا على الملوك المسيحيين. سنخسر ناجازاكي وكل ما بنيناه على مدار خمسين عامًا. هل أنت من حرص على محاولة اغتيال هذا الربان الهرطوقي».

- لقد صرحتُ علانية لرودريجيز ولأي شخص آخر كان يستمع منذ البداية أن الإنجليزي هو قرصان خطِرٌ من شأنه إفساد أي شخص يتواصل معه، وبالتالي يجب إزاحته بأي طريقة ممكنة. لقد قلت الشيء نفسه بعبارات مختلفة يا صاحب النياقة. وأنت أيضًا يا أب ألفيتو. ألم يُطرح الأمر في مؤتمرننا مع أونوشي وكياما قبل يومين؟ ألم تقل إن هذا القرصان خطِرٌ؟

- بلى. ولكن...

- يا أبتِ، ستسامحني، ولكن في بعض الأحيان يكون من الضروري للجنود أن يقوموا بعمل الرب بأفضل طريقة ممكنة. يجب أن أخبرك أنني كنت غاضبًا من رودريجيز لعدم تسببه في «حادث» في أثناء العاصفة. كان عليه -من بين كل الناس- أن يكون أكثر دراية. انظر ماذا فعل هذا الإنجليزي الشيطاني بالفعل لرودريجيز نفسه. المسكين الغبي شاكر له لإنقاذ حياته في حين أن هذه هي الخدعة الأكثر وضوحًا في العالم لكسب ثقته. ألم ينخدع رودريجيز في السماح للربان الهرطوقي بالاستيلاء على سطح سفينته، مما تسبب بالتأكيد في فقدانه لحياته تقريبًا؟ أما بالنسبة لمحاولة القتل في القلعة، فمن يدري ماذا حدث؟ لا بد أن يكون هذا قد أمر به أحد السكان الأصليين، إنها حيلة يابانية. أنا لست حزينًا لأنهم حاولوا، بل منزعجًا فقط من فشلهم. عندما أتخذُ قرارَ التخلص منه، يمكنك الاطمئنان بأن الأمر سيتم.

ارتشف ألفيتو نبيذه: «قال تورانا جا إنه سيرسل بلاكتورن إلى إيزو».

سأل فيريرا: «إلى شبه الجزيرة الواقعة في الشرق؟».

- نعم.

- برًا أم بحرًا؟

- بحرًا.

- جيد. إذن يؤسفني أن أخبرك أنه ربما يُفقد الجميع في البحر بسبب عاصفة مؤسفة.

قال ألفيتو ببرود: «ويؤسفني أن أخبرك يا قبطان أن تورانا جا قال. سأعطيك كلماته الحرفية: «أنا أضع حارسًا شخصيًا حول الريان يا تسوكو سان، وإذا تعرض لأي مكروه فسيُحقق في الأمر حتى أقصى حدود قدرتي وقدرة المجلس، وإذا كان بالمصادفة مسيحي مسؤولًا عن ذلك، أو أي شخص مرتبط بالمسيحيين حتى لو من بعيد، فمن المحتمل جدًا إعادة النظر في مراسيم الطرد، ومن المحتمل جدًا أن تُغلق جميع الكنائس والمدارس والملاجئ المسيحية على الفور».

قال ديل أكوا: «لا قدر الرب حدوث ذلك».

سخر فيريرا: «خدعة».

- لا، أنت مخطئ يا قبطان. تورانا جا ذكي مثل مكيا فيلي وقاس مثل أتيل الهوني.

نظر ألفيتو إلى ديل أكوا وأضاف: «سيكون من السهل إلقاء اللوم علينا إذا حدث أي شيء للإنجليزي».

- نعم.

قال فيريرا بصراحة: «ربما يجب أن تذهب إلى مصدر مشكلتك. تخلص من تورانا جا».

قال الأب الزائر: «هذا ليس وقت المزاح».

- ما نجح بروعة في الهند وملايا والبرازيل وبيرو والمكسيك وإفريقيا والبر الرئيسي وأماكن أخرى سينجح هنا. لقد فعلت ذلك بنفسني في ملقا وجوا عشرات المرات بمساعدة من المرتزقة اليابانيين، وليس لدي أي تأثير ومعرفة يقتربان حتى من تأثيرك ومعرفتكم. نحن نستخدم الملوك المسيحيين. سنساعد أحدهم على إزالة تورانا جا إذا كان هو المشكلة. بضع مئات من الغزاة الفاتحين سيكون كافياً. فرق تسد. سأوجهه إلى كياما. يا أب ألفيتو، إذا كنت ستترجم...

قال ديل أكوا بضعف: «لا يمكنك مساواة اليابانيين بالهند أو بالهمج الأميين مثل الإنكا. لا يمكنك هنا أن تفرق تسد. اليابان ليست كأي دولة أخرى.

على الإطلاق. يجب أن أطلب منك رسمياً يا قبطان عدم التدخل في الشؤون الداخلية لهذا البلد».

- أوافق. رجاءً انس ما قلته. لقد كان تصرفاً غير لائق وساذجاً أن أكون صريحاً جداً. لحسن الحظ تُعد العواصف أمراً طبيعياً في هذا الوقت من العام.
- إذا حدثت عاصفة، فهذا الأمر بيد الرب. لكنك لن تهاجم الربان.
- حقاً؟
- لا. ولن تأمر أحداً بفعل ذلك.
- أنا ملزم من قبل ملكي بالقضاء على أعداء ملكي. الإنجليزي عدو وطني. إنه طفيلي قرصان هرطوقي. إذا اخترت التخلص منه فهذه مشكلتي. أنا قبطان السفينة السوداء لهذا العام، وبالتالي حاكم ماكاو هذا العام، ولدي صلاحيات نائب الملك على هذه المياه هذا العام، وإذا كنت أرغب في التخلص منه أو من تورانا جا أو أي شخص آخر، فسأفعل.
- إذن تفعل ذلك متجاوزاً أوامري المباشرة بفعل العكس تماماً، وبالتالي تخاطر بالحرمان الكنسي الفوري.
- هذا خارج نطاق اختصاصك. إنها مسألة دنيوية وليست مسألة روحية.
- موقف الكنيسة هنا، للأسف، مختلط بالسياسة وتجارة الحرير، بحيث يمس كل شيء سلامة الكنيسة. وبينما أنا على قيد الحياة، وأمثلاً في خلاصي، لن يعرض أحد مستقبل الكنيسة الأم للخطر هنا.
- شكراً لك على كونك صريحاً جداً يا صاحب النياقة. سأجعل من واجبي أن أصبح أكثر دراية بشؤون اليابانيين.
- أقترح أن تفعل ذلك من أجل مصلحتنا جميعاً. لا يتسامح مع المسيحية هنا إلا لأن جميع الداييمو يعتقدون يقيناً أنه إذا طردونا وأبادوا الإيمان، فلن تعود السفن السوداء أبداً. نحن اليسوعيين مطلوبون ولدينا قدر من النفوذ فقط لأننا وحدنا نستطيع التحدث باليابانية والبرتغالية ويمكننا الترجمة والتوسط لهم في الأمور التجارية. لسوء الحظ بالنسبة للإيمان، ما يؤمنون به ليس صحيحاً. أنا متأكد من أن التجارة ستستمر بغض النظر عن موقفنا وموقف الكنيسة، لأن التجار البرتغاليين يهتمون بمصالحهم الذاتية أكثر من خدمة ربنا.

- ربما تكون المصالح الذاتية لرجال الدين الذين يريدون إجبارنا -حتى إلى حد طلب الصلاحيات القانونية من قداسته- لإجبارنا على الإبحار إلى أي ميناء يقررونه والمتاجرة مع أي داييميو يفضلونه بغض النظر عن الأخطار، واضحة بالقدر نفسه.
- أنت تتجاوز حدودك يا قبطان.
- لم أنس أن السفينة السوداء في العام الماضي فُقدت في مكان ما بين هنا وملقا ومعها جميع أفراد الطاقم، وعلى متنها أكثر من مائتي طن من الذهب وسبائك فضية بقيمة خمسمائة ألف كروزادو، بعد تأخيرها دون داعٍ إلى دخول موسم سوء الأحوال الجوية بسبب طلباتك الشخصية. أو أن هذه الكارثة كادت أن تدمر الجميع من هنا إلى جوا.
- كان ذلك ضرورياً بسبب وفاة التايكو والسياسة الداخلية للخلافة.
- لم أنس أنك طلبت من نائب الملك في جوا إلغاء إرسال السفينة السوداء منذ ثلاث سنوات، وإرسالها فقط عندما تقول، وإلى أي ميناء تقرر، أو أنه نقض هذا الطلب باعتباره تدخلاً متعجرفاً.
- كان ذلك لكبح جماح التايكو لإحداث أزمة اقتصادية له في خضم حربه الحمقاء على كوريا والصين، بسبب استشهادات ناجازاكي التي أمر بها، بسبب هجومه المجنون على الكنيسة ومراسيم الطرد التي أصدرها حينها بطردنا جميعاً من اليابان. إذا تعاونت معنا واتبعت نصيحتنا فستصبح كل اليابان مسيحية في غضون جيل واحد. ما هو الأهم، التجارة أم خلاص النفوس؟
- إجابتي هي النفوس. ولكن بما أنك أنرتني بشأن شؤون اليابان، دعني أضع شؤون اليابان في منظورها الصحيح. فضة اليابان وحدها تفتح أبواب تجارة الحرير والذهب الصيني. الأرباح الهائلة التي نحققها ونصدرها إلى ملقا وجوا ومن ثم إلى لشبونة تدعم إمبراطوريتنا الآسيوية بأكملها، وجميع الحصون والبعثات والحملات الاستكشافية والمبشرين والاكتشافات، وتمول معظم إن لم يكن كل التزاماتنا الأوروبية، وتمنع الهراطقة من غزونا وتبقيهم خارج آسيا، مما سيمنحهم كل الثروة التي يحتاجونها إلى تدميرنا وتدمير الإيمان في وطننا. ما الأهم يا أبت، المسيحية الإسبانية والبرتغالية والإيطالية أم مسيحية اليابان؟

حدق ديل أكوا إلى الجندي بغضب: «مرة واحدة وإلى الأبد، لن-تتدخل- في-الشؤون-الداخلية-هنا».

سقط جمر من النار وتطاير على البساط. ركله فيريرا الذي كان الأقرب إليه ليبعده: «وإذا كان يجب... يجب كبج جماعي، فماذا تنوي أن تفعل بالهرطوقي؟ أو توراناغا؟».

جلس ديل أكوا، معتقدًا أنه قد انتصر: «لا أعلم في الوقت الحالي. لكن حتى مجرد التفكير في إزاحة توراناغا أمر سخي. إنه متعاطف جدًا معنا، ومتعاطف جدًا مع زيادة التجارة». أصبح صوته أكثر جفافًا: «وبالتالي زيادة أرباحك».

قال فيريرا، وقد استعاد زمام الأمور: «وأرباحك أيضًا».

صب ديل أكوا بعض النبيذ بتعب، وعرضه عليه لاسترضائه: «أرباحنا مكرسة لخدمة إلهنا. كما تعلم جيدًا. هيا يا فيريرا، دعنا لا نتجادل بهذا الشكل. مسألة الهرطوقي فظيعة، نعم. لكن الجدل لا يفيد بشيء. نحن بحاجة إلى نصيحتك وعقلك وقوتك. يمكنك تصديقي، إن توراناغا ضروري لنا. فإذا لم يسيطر على النواب الآخرين، ستعود هذه الدولة بأكملها إلى الفوضى مجددًا».

قال ألفيتو: «نعم، هذا صحيح يا قبطان. لكنني لا أفهم سبب بقائه في القلعة وموافقته على تأجيل الاجتماع. إنه لأمر مذهل أنه يبدو أنه قد تم التلاعب به. لا بد أنه يعلم بالتأكيد أن أوساكا مغلقة بإحكام أكثر من حزام عفة محارب صليبي غيور».

قال فيريرا: «إذا كان ضروريًا، فلماذا ندعم أونوشي وكياما؟ ألم يتحالف هذان الاثنان مع إيشيدو ضده؟ لماذا لا ننصحهم لفعل العكس؟ لقد ناقشنا هذا الأمر قبل يومين فقط».

- لقد أبلغونا بقرارهم يا قبطان. لم نناقشه.
- إذن ربما كان يجب أن تفعل ذلك يا صاحب النيافة. إذا كان الأمر بهذه الأهمية فلماذا لا تأمرهم بالعدول عنه؟ مع تهديد بالحرمان الكنسي.
- تنهد ديل أكوا: «أتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة. لا تُدار الأمور هكذا في اليابان. إنهم يكرهون التدخل الخارجي في شؤونهم الداخلية. حتى مجرد اقتراح من جانبنا يجب أن يقدم بحذر شديد».

فرغ فيريرا الكأس الفضية خاصته وسكب مزيدًا من النبيذ وهذا من روعه، مدرّكًا أنه يحتاج اليسوعيين إلى جانبه وأنه من دونهم كمتترجمين فهو عاجز. قال لنفسه: يجب أن تجعل هذه الرحلة ناجحة. لقد خدمت كجندي وتحملت المشاق لمدة أحد عشر عامًا في خدمة الملك لتكسب عن استحقاق -عشرين ضعفًا- أغنى جائزة يقدر على منحها، منصب قائد السفينة السوداء السنوية لمدة عام واحد والعُشر الذي يأتي مع هذا التكريم، عُشر كل الحرائر والذهب والفضة وكل ربح من كل صفقة تجارية. أنت ثري مدى الحياة الآن، ولثلاثين حياة أخرى إذا كان لديك هذا العدد، كل ذلك من هذه الرحلة الواحدة. إذا نجحت في تحقيقها.

وضع فيريرا يده على مقبض سيفه، وتحديدًا على الصليب الفضي الذي كان يشكل جزءًا من الزخرفة الفضية: «أقسم بدم المسيح أن سفينتي السوداء ستبحر في الموعد المحدد من ماكاو إلى ناجازاكي، وبعدها ستتجه جنوبًا مع الرياح الموسمية في نوفمبر إلى جوا ثم إلى الوطن، وهي ستكون أغنى سفينة كنوز في التاريخ. كما أن المسيح هو حكمي، هذا ما سيحدث».

وأضاف بصمت: أقسم بمريم إنني حتى إذا اضطررت إلى حرق كل اليابان وكل ماكاو وكل الصين لفعلت ذلك.

أجاب ديل أكوا وهو يعني كلامه: «صلواتنا معك، بالطبع. نحن نعلم أهمية رحلتك».

- إذن ماذا تقترح؟ فإنني عاجز دون تصاريح دخول الموانئ وتصاريح المرور الآمن للتجارة. ألا يمكننا تجنب النواب؟ ربما توجد طريقة أخرى؟

هز ديل أكوا رأسه: «مارتين؟ أنت خبيرنا التجاري».

قال ألفيتو: «أنا آسف، لكن هذا غير ممكن».

لقد استمع إلى المحادثة المحتدمة بسخط شديد. وفكر: يا له من وقح متعطرس لقيط غبي. يا إلهي، امنحني الصبر لأن الكنيسة ستموت هنا دون هذا الرجل وآخرين مثله. أضاف: «أنا متأكد أنه في غضون يوم أو يومين يا قبطان، ستنتهي كل الإجراءات. أسبوع على الأكثر. تورانايا يواجه مشكلات خاصة جدًا في الوقت الحالي. سيكون كل شيء على ما يرام، أنا متأكد».

كان التهديد الكامن في نبرة فيريرا مخيفًا: «سأنتظر أسبوعًا. لا أكثر. أود أن أضع يدي على ذلك الهرطوقي. عندها سأنتزع الحقيقة منه عنوة. هل قال تورانا شياً عن الأسطول المفترض؟ أسطول العدو؟».

- لا.

- أود أن أعرف الحقيقة، لأنه عند العودة ستترنح سفينتي كخنزير سمين، وستكون مخازنها ملاءى بالحرير أكثر من أي وقت مضى. نحن واحدة من أكبر السفن في العالم لكن ليست لدي أي سفينة مرافقة، لذلك إذا تمكنت فرقاطة معادية واحدة من اعتراض طريقنا في البحر -أو تلك الهولندية اللعينة، إيراسموس- سنصبح تحت رحمتها. ستجعلني أنكس علم البرتغال الإمبراطوري بسهولة تامة. من الأفضل أن لا يتمكن الإنجليزي من إبحار سفينته التي تحمل المدفعية والمدافع والذخيرة على متنها.

تمتم ديل أكو بالإيطالية: «هذا صحيح تمامًا».

أنهى فيريرا نبذه: «متى سيُرسل بلاكثورن إلى إيزو؟».

أجاب ألفيتو: «لم يحدد تورانا. لدي انطباع بأن ذلك سيكون قريبًا».

- اليوم؟

- لا أعلم. سيُعقد اجتماع الأوصياء بعد أربعة أيام. أعتقد أنه سيكون بعد ذلك الاجتماع.

قال ديل أكو بثقل: «يجب عدم التعرض لبلاكثورن. لا هو ولا تورانا».

وقف فيريرا: «سأعود إلى سفينتي. هل ستتناولان العشاء معنا؟ كلاهما؟ عند الغسق؟ يوجد دجاج مسمن مشوي ولحم بقر ونبيد مديرا، وحتى بعض الخبز الطازج».

أشرق وجه ديل أكو قليلاً: «شكراً لك، هذا لطف منك. نعم، تناول وجبة طعام جيدة مرة أخرى سيكون رائعاً. أنت لطيف للغاية».

قال ألفيتو: «ستُبَلِّغ فور وصول أي أخبار من تورانا يا قبطان».

- شكراً لك.

بعد مغادرة فيريرا وتأكد الزائر أنه لا يمكن لأحد أن يسمعهم هو وألفيتو، قال بقلق: «مارتن، ماذا قال تورانا أيضاً؟».

- يريد تفسيرًا مكتوبًا لحادثة تهريب الأسلحة، وطلب جنود غزاة.
- ماماميا...
- كان تورانا جا ودودًا، بل لطيفًا حتى، لكن... حسنًا، لم أره قط على هذا النحو من قبل.
- ماذا قال بالضبط؟
- «أنا أفهم يا تسوكو سان أن الرئيس السابق لمنظمتكم المسيحية، الأب دا كونها، قد كتب إلى حكام ماكاو وجوا ونائب الملك الإسباني في مانيل، دون سيسكو إي فيفيرا، في يوليو من عام 1588 وفقًا لتقويمكم، يطلب إرسال المئات من الجنود الإسبان المسلحين لدعم بعض الدايميو المسيحيين في تمرد كان يحاول كبير الكهنة المسيحيين تحريضهم عليه ضد زعيمهم الإقطاعي، سيدي الراحل التايكو. ما أسماء هؤلاء الدايميو؟ هل صحيح أنه لم يُرسل أي جنود ولكن هُرب عدد كبير من الأسلحة إلى ناجازاكي تحت ختمكم المسيحي من ماكاو؟ هل صحيح أن الأب العملاق استولى سرًا على هذه الأسلحة عندما عاد إلى اليابان للمرة الثانية بصفته سفيرًا من جوا في مارس أو أبريل من عام 1590 وفقًا لتقويمكم، وهربها سرًا من ناجازاكي على متن السفينة البرتغالية «سانتا كروز» عائدة إلى ماكاو؟».
- مسح ألفيتو العرق عن يديه.
- هل قال أي شيء آخر؟
- لا شيء مهم يا صاحب النيافة. لم تُتخ لي الفرصة لأشرح، فقد طردني على الفور. كان الطرد مهذبًا ولكنه كان في النهاية طردًا.
- من أين يحصل ذلك الإنجليزي الملعون على معلوماته؟
- أتمنى لو كنت أعلم.
- هذه التواريخ والأسماء. أنت لست مخطئًا؟ لقد قالهم تمامًا هكذا؟
- لا يا صاحب النيافة. الأسماء كانت مكتوبة على قطعة من الورق. لقد أراني إياها.
- خط بلاكثورن؟
- لا. كانت الأسماء مكتوبة صوتيًا باللغة اليابانية، بالهيرا جانا.

- يجب أن نكتشف من يترجم لتوراناجا. لا بد أنه بارعٌ جدًا. بالتأكيد ليس منا؟ لا يمكن أن يكون الأخ مانويل، أليس كذلك؟

سأل بمرارة مستخدمًا اسم معمودية ماسامانو جيرو. كان جيرو ابنًا لساموراي مسيحي تلقى تعليمه على يد اليسوعيين منذ الصغر، ولأنه ذكي ومتدين، أُختير للدخول إلى المدرسة الدينية لتدريبه ليصبح كاهنًا كاملًا يتلو النذور الأربعة، والتي لم يكن يوجد منهم أي ياباني حتى الآن. لقد أمضى جيرو عشرين عامًا مع هذه الجمعية، ثم غادر فجأة قبل أن يُرسم وأصبح الآن خصمًا عنيفًا للكنيسة.

- لا. لا يزال مانويل في كيوشو، فليحترق في الجحيم إلى الأبد. لا يزال عدوًا عنيفًا لتوراناجا، ولن يساعده أبدًا. لحسن الحظ، لم يكن طرفًا في أي أسرار سياسية. كانت المترجمة السيدة ماريا.

قال ألفتو مستخدمًا اسم معمودية تودا ماريكو.

- هل قال لك توراناجا ذلك؟

- لا يا صاحب النيافة. ولكني علمت بأنها كانت تزور القلعة، وقد شوهدت مع الإنجليزي.

- هل أنت متأكد؟

- معلوماتنا دقيقة للغاية.

قال ديل أكوا: «جيد، ربما يساعدنا الرب بطرقه الغامضة. اطلب حضورها فورًا».

- لقد رأيتها بالفعل. رتبت لقاء -مصادفة- بها. كانت ساحرة كعاداتها، ومحترمة ومتدينة كعاداتها، لكنها قالت بحدة قبل أن تتاح لي الفرصة لاستجوابها: «بالتأكيد إن الإمبراطورية أرض سرية للغاية يا أبت، وبعض الأشياء بحكم العادة يجب أن تظل سرية للغاية. هل الأمر نفسه في البرتغال، وداخل الجمعية اليسوعية؟».

- أنت الكاهن المسؤول عن اعترافها.

- نعم. لكنها لن تقول شيئًا.

- لماذا؟

- من الواضح أنها تلقت تحذيرًا مُسبقًا ومُنِعت من مناقشة ما حدث وما قيل. أنا أعرفهم جيدًا. في هذا الشأن، سيكون نفوذ توراناكا أكبر من نفوذنا.

- هل إيمانها بهذا الضعف؟ هل كان تدريبنا لها غير كفاءٍ إلى هذا الحد؟ بالتأكيد لا. إنها متدينة وصالحة كمسيحية كأبي امرأة قابلتها على الإطلاق. يومًا ما ستصبح راهبة، وربما حتى أول رئيسة دير يابانية.

- نعم. لكنها لن تقول شيئًا الآن.

قال ديل أكوأ: «الكنيسة في خطر. هذا مهم، وربما يكون أكثر أهمية مما ينبغي. هي ستفهم ذلك. إنها أذكى من أن لا تدرك ذلك».

- أتوسل إليك، لا تختبر إيمانها في هذا الأمر. يجب أن نخسر. لقد حذرتني. هذا ما كانت تقوله بوضوح كما لو كان مكتوبًا.

- ربما يكون من الجيد اختبار إيمانها. من أجل خلاص روحها.

- الأمر متروك لك لتأمر بذلك أم لا. لكنني أخشى أنها ملزمة بطاعة توراناكا يا صاحب النيافة، وليس طاعتنا.

قال ديل أكوأ: «سأفكر في أمر ماريا. أجل».

ترك عينيه تتجولان نحو النار، وقد أثقلته مسؤولية منصبه. المسكينة ماريا. ذاك الهرطوقي الملعون! كيف نتجنب الوقوع في الفخ؟ كيف نخفي حقيقة الأسلحة؟ كيف يمكن للرئيس الأعلى والنائب الإقليمي مثل دا كونها، الذي كان مُدرَّبًا تدريبًا جيدًا، وخبيرًا جدًا، ولديه خبرة عملية لمدة سبع سنوات في ماكاو واليابان، كيف يمكنه أن يرتكب مثل هذا الخطأ الشنيع؟

سأل النيران: «كيف؟».

قال لنفسه: بإمكانني الإجابة، إن الأمر سهل للغاية. قد تصاب بالذعر أو تنسى مجد الرب أو تنتفخ بالغرور أو الاستعلاء أو الخوف الشديد. من لن يشعر بذلك ربما في الظروف نفسها؟ أن يُستقبل باستحسان من قبل التايكو عند غروب الشمس، لقاء انتصار بالبهجة والاحتفالية، كأنها محاولة ناتجة عن الندم من قبل التايكو، الذي بدا وكأنه على وشك اعتناق المسيحية. ثم يُوقظ في منتصف الليلة نفسها على مراسيم طرد التايكو التي تنص على خروج جميع الطوائف الدينية من اليابان في غضون عشرين يومًا تحت طائلة

الموت، وألا تعود أبدًا، بل والأسوأ، أنه أمر جميع المسيحيين اليابانيين في جميع أنحاء البلاد بالتراجع على الفور وإلا فسينفيهم على الفور أو يعدمهم. يائسًا، نصح الرئيس الدايميو المسيحيين في كيوشو -من بينهم أونوشي وميساكي وكياما وهاريمان ناجازاكي- بالتمرد لإنقاذ الكنيسة وكتب يطلب على عجل جنود غزاة لتعزيز التمرد.

تلظت النيران وتراقصت في الموقد الحديدي. فكر ديل أكوا: نعم، كل هذا صحيح. لو كنت أعلم فقط، لو كان دا كونها قد استشارني أولًا. ولكن كيف كان بإمكانه ذلك؟ يستغرق الأمر ستة أشهر لإرسال رسالة إلى جوا وربما ستة أشهر أخرى لإرسال الرد. وقد كتب دا كونها على الفور ولكنه كان الرئيس الأعلى وكان بمفرده وكان عليه التعامل مع الكارثة على الفور.

رغم أن ديل أكوا أبحر على الفور بعد استلام الرسالة، مع وثائق تفويضه بصفته سفيرًا رُتبت على عجل من نائب الملك في جوا، فإن الأمر استغرق شهرًا للوصول إلى ماكاو، فقط ليعلم أن دا كونها قد مات، وأنه هو وجميع الآباء ممنوعون من دخول اليابان تحت طائلة الموت.

ولكن الأسلحة كانت قد اختفت بالفعل.

ثم بعد عشرة أسابيع، جاءت أنباء بأن الكنيسة لم تُمَحَ في اليابان، وأن التايكو لم ينفذ قوانينه الجديدة. لم تحرق سوى خمسين كنيسة. دُمرت تاكاياما فقط. وتسربت كلمة مفادها أنه رغم أن المراسيم ستظل سارية رسميًا، فإن التايكو أصبح الآن مستعدًا للسماح للأمور أن تسير كما كانت، بشرط أن يكون الآباء أكثر تحفظًا بخصوص كثير من تحويلاتهم، وأن يكون المعتنقون أكثر تحفظًا ويحسنوا التصرف، وألا يكون هناك مزيد من العبادات العامة الصريحة أو المظاهرات وألا يحرق المتعصبون المعابد البوذية.

بعد ذلك، عندما بدا أن المحنة قد انتهت، تذكر ديل أكوا أن الأسلحة كانت قد أرسلت قبل أسابيع تحت ختم الأب الرئيس دا كونها، وأنها لا تزال موجودة في مخازن اليسوعيين في ناجازاكي.

واستمرت أسابيع أخرى من المعاناة حتى هُربت الأسلحة سرًا إلى ماكاو مجددًا. نعم، تحت ختمي هذه المرة، ذكر ديل أكوا نفسه على أمل دفن السر إلى الأبد. لكن هذه الأسرار لا تتركك وشأنك أبدًا مهما تمنيت أو دعوت.

ما مدى معرفة هذا الهرطوقي؟

لأكثر من ساعة جلس صاحب النيافة بلا حراك في كرسيه الجلدي المرتفع الظهر، يحدق إلى النار بنظرة شاردة. انتظر ألفيتو بصبر بالقرب من خزانة الكتب، واضعاً يديه على حجره. كانت أشعة الشمس المائلة تسلط الضوء على الصليب الفضي على الحائط خلف الأب الزائر. على أحد الجدران الجانبية كانت توجد لوحة زيتية صغيرة للرسام البندقي تيتيان كان قد اقتناها ديل أكوا في شبابه في بادوفا حيث أرسله والده لدراسة القانون. كان الجدار الآخر مليئاً بالكتب المقدسة وكتبه باللغات اللاتينية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية. ومن مطبعة الجمعية المتحركة الخاصة بهم في ناجازاكي والتي طلبها وأحضرها بتكلفة باهظة من جوا قبل عشر سنوات، رفان من الكتب والكتيبات اليابانية: كتب التعبد والتعاليم المسيحية بأنواعها، تُرجمت إلى اللغة اليابانية بجهد مضمّن من قبل اليسوعيين، وأعمال مقتبسة من اليابانية إلى اللاتينية لمحاولة مساعدة الرهبان اليابانيين على تعلم تلك اللغة. وأخيراً، كتابان صغيران لا يقدران بثمن، أول دليل قواعد اللغة البرتغالية واليابانية، وهو عمل حياة الأب سانشو ألفاريز، الذي طُبِع قبل ست سنوات، وبجانبه القاموس البرتغالي اللاتيني الياباني المذهل الذي طُبِع العام الماضي بأحرف لاتينية وكذلك كتابة بالهيراغانا. لقد بدأ العمل عليه بأمره منذ عشرين عاماً، وهو أول قاموس للكلمات اليابانية يُجمع على الإطلاق.

التقط الأب ألفيتو الكتاب ومسده بحنان. لقد علم أنه عمل فني فريد من نوعه. لقد أمضى هو نفسه ثمانية عشر عاماً في تجميع مثل هذا العمل وما زال بعيداً جداً عن الانتهاء. لكن قاموسه سيكون مع شرح إضافي وتفاصيل أكثر، تقريباً كمقدمة إلى اليابان واليابانيين، ويعلم دون غرور أنه إذا تمكن من إنجائه، فسيصبح تحفة فنية مقارنة بعمل الأب ألفاريز، وأنه إذا كان سيُذكر اسمه على الإطلاق، فذلك سيكون بسبب كتابه والأب الزائر، الذي كان الأب الوحيد الذي عرفه حقاً.

قال اليسوعي الضخم في أول يوم التقاه فيه: «هل تريد مغادرة البرتغال يا بني والانضمام إلى خدمة الرب؟».

أجاب وهو ينظر إليه بحنين يائس: «نعم، رجاءً يا أبت».

- كم عمرك يا بني؟

- لا أعلم يا أبتي، ربما عشر سنوات، أو ربما إحدى عشرة سنة، لكنني أستطيع القراءة والكتابة، لقد علمني الكاهن، وأنا وحيد، ليس لدي أحد من أقاربي، لا أنتمي إلى أحد...

أخذه ديل أكو إلى جوا ومن ثم إلى ناجازاكي، هناك حيث انضم إلى مدرسة جمعية اليسوعيين، وهو أصغر أوروبي في آسيا، وينتمي أخيرًا إلى مكان ما. ثم جاءت معجزة موهبة اللغات ومناصب الثقة ك مترجم ومستشار تجاري، أولاً إلى هاريمان تاداوا، دايميو لإقطاع هيزن في كيوشو حيث تقع ناجازاكي، ثم إلى التايكو نفسه بمرور الوقت. رُسم كاهنًا، ولاحقًا حصل حتى على امتياز تلاوة النذر الرابع. كان هذا النذر المميز بالإضافة إلى النذور المعتادة للفقير والعفة والطاعة، والممنوح فقط للنخبة من اليسوعيين، نذر الطاعة للبابا شخصيًا، ليصبح أداة شخصية له لخدمة الرب، للذهاب إلى حيث يأمر البابا شخصيًا ويفعل ما يريده شخصيًا، ليصبح -كما صممه مؤسس الجمعية الجندي الباسكي لويولا- واحدًا من حكومة الكنيسة المناضلة، واحدًا من مسؤولي الاعتراف، الجنود الاستثنائيين المختارين للرب لنائبه المنتخب على الأرض، خليفة المسيح.

فكر ألفيتو: لقد كنت محظوظًا جدًا. يا إلهي، أعني لأكون قادرًا على المساعدة.

نهض ديل أكو بعد فترة وتمدد وذهب إلى النافذة. كانت الشمس تتلألأ على البلاط المذهب لبرج الحصن المركزي الشاهق، حيث أخفت الأناقة التامة للمبنى على قوته الهائلة. فكر: برج الشر، كم سيظل قائمًا هناك ليذكر كل واحد منا؟ هل مضى خمسة عشر عامًا فقط... لا، لقد مضى عليه سبعة عشر عامًا منذ أن حشد التايكو أربعمئة ألف رجل للبناء والتنقيب، وأنهك البلاد لدفع ثمن هذا النصب التذكاري الخاص به، ثم في عامين قصيرين، اكتمل بناء قلعة أوساكا. رجل مدهش! شعب مدهش! نعم. وها هي تقف، غير قابلة للدمار. إلا بيد الرب. يستطيع أن يذلها في لحظة إذا شاء. يا إلهي، أعني لأقوم بإرادتك.

بدأ ديل أكو بالمشي زهابًا وإيابًا، صوته الآن حازمًا مثل خطواته: «حسنًا يا مارتن، يبدو أن لدينا عملًا لننجزه. بالنسبة إلى الربان الإنجليزي: إذا لم نحمله، فسيُقتل وسنخاطر بغضب تورانا. وإذا تمكنا من حمايته، فسيشنق نفسه قريبًا. ولكن هل نجرؤ على الانتظار؟ وجوده يمثل تهديدًا لنا ولا يمكن

معرفة إلى أي مدى يمكن أن يلحق مزيدًا من الضرر قبل ذلك الموعد السعيد. أو يمكننا مساعدة توراناغا على إزاحته. أو أخيرًا يمكننا جعله يعتنق ديننا». أغمض ألفيتو عينيه للحظة: «ماذا؟».

- إنه ذكي ومطلع جدًا على الكاثوليكية. أليس معظم الإنجليز كاثوليك بالفعل في قلوبهم؟ الجواب نعم إذا كان ملكهم أو ملكتهم كاثوليكيًا، ولا إذا كانوا بروتستانتين. الإنجليز لا يهتمون بالدين. إنهم متعصبون ضدنا في الوقت الحالي، أليس ذلك بسبب الأسطول الإسباني؟ ربما يمكن جعل بلاكتورن يعتنق ديننا. سيكون هذا الحل الأمثل لمجد الرب، ولإنقاذ روحه الهرطوقة من لعنة سيذهب إليها حتمًا.

وبعد توراناغا: سنعطيه الخرائط التي يريدها. اشرح له عن «مناطق النفوذ». أليس هذا هو الغرض الحقيقي من خطوط ترسيم الحدود، لفصل نفوذ البرتغاليين وأصدقائنا الإسبان؟ بلى، صحيح. أخبره أنه في الأمور المهمة الأخرى سأتشرف شخصيًا بإعدادها له وسأسلمها له في أقرب وقت ممكن. لأنه يتعين عليّ التحقق من الحقائق في ماكاو، هل يمكنه رجاءً منحنا مهلة معقولة؟ وفي الوقت نفسه، قل له إنك مسرور لإخباره بأن السفينة السوداء ستبحر قبل ثلاثة أسابيع، بأكبر شحنة من الحرير والذهب على الإطلاق، وأن جميع البضائع المخصصة لنا وحصتنا من الشحنة و... (فكر لحظة ثم أضاف): وما لا يقل عن ثلاثين بالمائة من الشحنة بأكملها ستُباع من خلال وسيط يعينه توراناغا شخصيًا.

- يا صاحب النيافة، لن يرغب القبطان في الإبحار المبكر ولن يرغب في

- ستكون مسؤوليتك الحصول على إذن الإبحار الفوري من توراناغا لصالح فيريرا. اذهب إليه على الفور حاملاً ردي. دع كفاءتنا تترك انطباعًا قويًا لديه، أليست هذه من الأشياء التي يعجب بها؟ بحصوله على الإذن الفوري، سيتنازل فيريرا عن مسألة الوصول المبكر في الموسم، وفيما يتعلق بالوسيط، ما الفرق بالنسبة للقبطان بين تاجر من السكان الأصليين أو غيره؟ لا يزال سيحصل على نسبته.

- لكن الزعماء أونوشي وكياما وهاريماء عادةً ما يقسمون وساطة البضائع فيما بينهم. لا أعلم ما إذا كانوا سيوافقون.

- إذن جد حلاً للمشكلة. سيوافق توراناغا على التأخير مقابل تنازل.
التنازلات الوحيدة التي يحتاجها هي القوة والنفوذ والمال. ماذا يمكن
أن نقدم له؟ لا يمكننا تسليمه الدايميو المسيحيين. نحن...
قال ألفيتو: «ليس بعد».

- وحتى لو استطعنا، لا أعلم حتى الآن ما إذا كان يجب علينا تسليمهم
أو إذا كنا سنفعل ذلك. أونوشي وكياما أعداء لدودين، لكنهما تحالفا
ضد توراناغا لأنهما متأكدين من أنه سيدمر الكنيسة -ويدمرهما- إذا
سيطر على المجلس في أي يوم.

- سيدعم توراناغا الكنيسة. إيشيدو هو عدونا الحقيقي.

- لا أشاركك ثقتك يا مارتن. يجب ألا ننسى أنه بسبب كون أونوشي وكياما
مسيحيين، فإن كل أتباعهم مسيحيون بعشرات الآلاف. لا يمكننا أن
نغضبهم. التنازل الوحيد الذي يمكننا تقديمه إلى توراناغا هو شيء له
علاقة بالتجارة. إنه مهووس بالتجارة لكنه لم ينجح قط في المشاركة
فيها شخصياً. لذا فإن التنازل الذي اقترحته قد يغريه لمنح مهلة ربما
يمكننا تمديدتها إلى تأخير دائم. أنت تعرف كيف يحب اليابانيون هذا
الشكل من الحلول، التهديد المبهم الذي يتظاهر الجانبان بعدم وجوده،
أليس كذلك؟

- أعتقد أنه من غير الحكمة سياسياً أن ينقلب الزعيم أونوشي والزعيم
كياما على توراناغا في هذا الوقت. يجب أن يتبعوا المثل القديم حول
إبقاء طريق للانسحاب مفتوحاً، أليس كذلك؟ يمكن أن أقترح عليهم
عرضاً على توراناغا بنسبة خمسة وعشرين بالمائة -بحيث يكون لكل
منهم حصة متساوية، أونوشي وكياما وهاريمان وتوراناغا- سيكون
تنازلاً بسيطاً لتخفيف وطأة انحيازهم «المؤقت» مع إيشيدو ضده.

- حينها سيفقد إيشيدو ثقته بهما وسيزداد كرهه لنا عندما يكتشف ذلك.
- إن إيشيدو يكرهنا الآن بدرجة لا يمكن وصفها. ولا يثق بهما إيشيدو
أكثر مما يثقان هما به، ولا نعلم بعد سبب انحيازهما له. سيمكننا
تقديم الاقتراح رسمياً بموافقة أونوشي وكياما كما لو كانت مجرد
فكرة مننا للحفاظ على الحياد بين إيشيدو وتوراناغا. ويمكننا إبلاغ
توراناغا سرياً بكرمهما.

فكر ديل أكوا في مزايا الخطة وعيوبها. وقال بعد فترة طويلة: «ممتاز. نفذ الخطة. الآن، بخصوص الهرطوقي. أعطِ دلائله البحرية لتوراناجا اليوم. عد إلى توراناجا فورًا. أخبره أن الدلائل البحرية أرسلت إلينا سرًا».

- كيف أشرح تأخير تسليمها له؟

- لا تشرح. فقط قل الحقيقة: لقد أحضرها رودريجيز لكن لم يدرك أي منا أن الحزمة المختومة تحتوي على الخرائط المفقودة. في الواقع لم نفتحها لمدة يومين. لقد نسيناها حقًا في خضم الإثارة حول الهرطوقي. تثبت الخرائط البحرية أن بلاكثورن قرصان ولص وخائن. وستكون كلماته الخاصة هي التي ستتخلص منه نهائيًا، وهذا بلا شك عدالة إلهية. أخبر توراناجا الحقيقة، أن مورا أعطاها للأب سيباستياو، كما حدث بالفعل، الذي أرسلها إلينا لأنه على يقين بأننا نعلم بما يجب فعله بها. هذا يبرئ مورا والأب سيباستياو والجميع. يجب أن نخبر مورا عن طريق الحمام الزاجل بما فعلنا. أنا متأكد من أن توراناجا سيتفهم أننا كنا نضع مصلحته نصب أعيننا فوق مصلحة يابو. هل يعلم أن يابو عقد اتفاقية مع إيشيدو؟

- أعتقد ذلك بالتأكيد يا صاحب النيافة. لكن تقول الإشاعة أن توراناجا ويابو أصبحا صديقين الآن.

- لن أثق بهذا الشيطان الحقيق.

- أنا متأكد من أن توراناجا لا يثق به. وأن يابو ليس لديه أي التزام حقيقي تجاهه.

فجأة صُرف انتباههما بسبب جدال خارج الغرفة. فُتح الباب ودخل راهب مقنع حافي القدمين إلى الغرفة، وهو يدفع الأب سولدي جانبًا. وقال بصوت أجش من العداة: «بركات يسوع المسيح عليكم. ليغفر لكم خطاياكم».

انفجر ديل أكوا: «الكاهن بيريز... ماذا تفعل هنا؟».

- لقد عدت إلى هذه الأرض القذرة لأعلن كلمة الرب للوثنيين مجددًا.

- ولكن أنت تحت مرسوم يمنع عودتك تحت طائلة الموت الفوري بتهمة التحريض على الشغب. لقد نجوت بأعجوبة من استشهاد ناجازاكي وأمرت...

قال الراهب وكان رجلاً إسبانياً قصيراً نحيلًا ذا لحية طويلة غير مشذبة: «هذه كانت مشيئة الرب، وليس لمرسوم وثني قذرٍ صادر عن مجنون ميت أي تأثير عليّ. أنا هنا لأستمر في خدمة الرب». ألقى نظرة على الأب ألفيتو: «كيف حال التجارة يا أبت؟».

أجاب ألفيتو ببرود شديد: «لحسن حظ إسبانيا، إنها جيدة جدًا».

- أنا لا أقضي وقتي في مكتب المحاسبة يا أبت. أنا أقضيه مع قطيعي.

قال ديل أكوا بحدة: «هذا جدير بالثناء. ولكن اقضيه حيث أمر البابا: خارج اليابان. هذه مقاطعتنا الحصرية. وهي أيضًا أراضٍ برتغالية، وليست إسبانية. هل يجب أن أذكرك أن ثلاثة بابوات أمروا بخروج جميع المذاهب من اليابان عدانا؟ الملك فيليب أمر بالشيء نفسه أيضًا».

- وفر جهدك يا صاحب النيافة. عمل الرب يفوق الأوامر الأرضية. لقد عدت وسأفتح أبواب الكنائس وأتوسل للجموع للانتفاض ضد الكافرين.

- كم مرة يجب أن تُحذّر؟ لا يمكنك التعامل مع اليابان كمحمية إنكا التي يسكنها همج الغابة الذين ليس لديهم تاريخ ولا ثقافة. أنا أمنعك من الوعظ وأصر على أن تطيع الأوامر المقدسة.

- سنجعل الوثنيين يعتنقون المسيحية. اسمعني يا صاحب النيافة، يوجد مائة فرد آخر من إخوتي في مانيل ينتظرون السفن هنا، كلهم من الإسبان الشجعان والكثير من فاتحيننا المجيدين لحمايتنا إذا لزم الأمر. سنعظ علانية ونرتدي ثيابنا علانية، ولا نتسلل مرتدين قمصانًا حريرية وثنية مثل اليسوعيين.

- يجب ألا تثير غضب السلطات وإلا ستحول الكنيسة الأم إلى رماد.

- سأقول ذلك في وجهك، نحن سنعود إلى اليابان وسنبقى فيها. سنعظ بكلمة الرب رغمًا عنكم... رغمًا عن أي قسيس أو أسقف أو ملك أو حتى أي بابا، من أجل مجد الرب.

أغلق الراهب الباب بقوة خلفه.

صبّ ديل أكوا كأسًا من الماديرا وهو يرتجف غضبًا. وانسكب القليل من النبيذ على سطح مكتبه المصقول. شرب ديل أكوا ببطء محاولًا تهدئة نفسه. وفي النهاية قال: «سيقضي هؤلاء الإسبان علينا جميعًا. أرسل بعض رجالنا

لمراقبته يا مارتن. ويُفضل أن تحذر كياما وأونوشي فورًا. لا يمكن توقع ما سيحدث إذا تباهى ذلك الأحمق علانية».

- حسنًا يا صاحب النيافة.

تردد ألفيتو عند الباب ثم أضاف: «بلاكثورن أولًا ثم بيريز. إنها مصادفة كبيرة تقريبًا. ربما كان الإسبان في مانिला على علم ببلاكثورن وسمحوا له بالقدوم إلى هنا ليعذبنا فقط».

أنهى ديل أكوا كأسه ووضعها جانبًا برفق: «ربما، ولكن على الأغلب لا. على أي حال، وبفضل مساعدة الرب والعناية الواجبة، لن يُسمح لأي منهما بإلحاق الأذى بالكنيسة الأم... مهما كانت التكلفة».

الفصل العشرون

- سأصبح إسبانيًا ملعونًا إن لم تكن هذه هي الحياة.

اسلقى بلاكتورن مسترخيًا كليًا على بطنه فوق الفوتون السميكة، وكان يلف حول جزء من جسده كيمنو قطنيًا، ورأسه مرفوع على ذراعيه. كانت الفتاة تمر يديها على ظهره وتلك عضلاته بين الحين والآخر، وتلطف بشرته وروحه، جاعلة منه يريد أن يخرخر من المتعة. كانت فتاة أخرى تسكب الساكي في قدح صغير من الخزف. ووقفت ثالثة تنتظر وهي تحمل صينية مطلية باللك مع سلة كبيرة من الخيزران تفيض بالسّمك المقلي على الطريقة البرتغالية، وقارورة أخرى من الساكي، وبعض عيدان تناول الطعام.

- ما الأمر يا أنجين سان؟ ماذا قلت؟

- لا يمكنني قول ذلك باللغة اليابانية يا راكو سان.

ابتسم بلاكتورن تجاه الفتاة التي قدمت له الساكي. وعوضًا عن ذلك، أشار إلى الكأس: «ماذا يسمى هذا؟ ما اسمه؟».

- Sakazuki.

قالت الفتاة ثلاث مرات. وهو كررها. ثم عرضت عليه الفتاة الأخرى آسا السمك، لكنه هز رأسه: «لا، شكرًا».

لم يكن يعلم كيفية قول «أنا ممتلئ الآن»، لذلك حاول قول: «لست جائعًا الآن».

- Ah! Ima hara hette wa oranu.

فسرت آسا وهي تصححه. ردد الجملة عدة مرات، وضحكوا جميعًا على نطقه، لكنه في النهاية أتقن نطقها.

فكر: لن أتعلم تلك اللغة أبدًا. لا يوجد ما يربط أصواتها بالإنجليزية، أو حتى باللاتينية أو البرتغالية.

عرضت آسا الصينية عليه مرة أخرى: «أنجين سان؟».

هز رأسه ووضع يده على معدته بجدية. لكنه قبل الساكي وشربه كله. توقفت سونو -الفتاة التي كانت تدلك ظهره- لذا أخذ بيدها ووضعها على رقبته وتظاهر بالأنين من المتعة. فهمت على الفور واستمرت في تدليكه.

في كل مرة ينهي الكأس الصغيرة، كان يُعاد ملؤها على الفور. فكر: من الأفضل أن أهدأ، هذه القارورة الثالثة وأستطيع الشعور بالدفع يصل إلى أصابع قدمي.

وصلت الفتيات الثلاث -آسا وسونو وراكو- مع الفجر، حاملات الشاي، الذي أخبره الراهب دومينجو أن الصينيين يطلقون عليه اسم «تي» في بعض الأحيان، وهو المشروب الوطني للصين واليابان. كان نومه متقطعاً بعد مواجهة القاتل، لكن المشروب الساخن اللذيذ بدأ يعيده إلى حالته الطبيعية. لقد أحضرن مناشف ساخنة صغيرة ملفوفة ومعطرة قليلاً. عندما لم يعرف فيما تُستخدم، أرته راکو، رئيسة الفتيات، كيفية استخدامها على وجهه ويديه. ثم اصطحبته مع حراسه الأربعة من الساموراي إلى الحمامات البخارية الموجودة في الجانب البعيد من هذا القسم من القلعة وسلمته إلى عمال الحمام. كان الحراس الأربعة يتصببون عرقاً بصبر بينما كان يستحم، وقد شذبت لحيته وغُسل شعره ودُلك.

بعد ذلك، شعر بتجدد مذهل. قدموا له كيمونو قطنياً آخر جديداً يصل حتى ركبته وجوارب تابي جديدة. وكانت الفتيات ينتظرنه مرة أخرى. اصطحبته إلى غرفة أخرى حيث كانت كيري وماريكو. أخبرته ماريكو أن الزعيم توراناغا قرر إرسال أنجين سان إلى إحدى مقاطعاته في الأيام القليلة المقبلة ليستعيد عافيته، وأن الزعيم توراناغا راضٍ جداً عنه ولا داعي للقلق بشأن أي شيء لأنه تحت الرعاية الشخصية للزعيم توراناغا الآن. هل يمكن رجاءً أن يبدأ أنجين سان أيضاً في تحضير الخرائط باستخدام المواد التي ستوفرها؟ ستكون هناك اجتماعات أخرى مع السيد قريباً، وقد وعد السيد بأن يتوفر قريباً للإجابة عن أي أسئلة قد تكون لدى أنجين سان. كان الزعيم توراناغا يتوق لأن يتعلم بلاكثورن عن اليابانيين كما كان هو نفسه يتوق لمعرفة مزيدٍ عن العالم الخارجي والملاحة وطباع البحر. ثم اقتيد بلاكثورن إلى الطبيب. وعلى عكس الساموراي، كان شعر الأطباء قصيراً دون ضفيرة.

كان بلاكتورن يكره الأطباء ويخافهم. لكن هذا الطبيب كان مختلفًا. كان لطيفًا ونظيفًا بصورة لا تصدق. كان الأطباء الأوروبيون في الغالب حلاقين ووقحين، ومتسخين ومصابين بالقمل مثل أي شخص آخر. لمسه هذا الطبيب برفق وألقى نظرة مهذبة وأمسك بمعصم بلاكتورن ليشعر بنبضه، ونظر في عينيه وفمه وأذنيه، وربت برفق على ظهره وركبتيه وأخمص قدميه، كانت لمسته ولطفه مهدئين. كل ما يريده الطبيب الأوروبي هو النظر إلى لسانك ويقول «أين الألم؟» وإجراء عملية الفصد (الإدعاء) لك لإخراج القذارة من دمك ويتسبب في تقيؤك لتطهير القذارة من أحشائك.

كان بلاكتورن يكره أن يُدْمَى ويُطهر وكان الأمر يزداد سوءًا في كل مرة. لكن هذا الطبيب لم يكن لديه أي مشروط أو وعاء للنزيف ولا رائحة المواد الكيميائية الكريهة التي تحيط بهم عادة، لذلك بدأت تتباطأ نبضات قلبه واسترخى قليلًا.

لامست أصابع الطبيب ندبات فحذه باستجواب. قلد بلاكتورن صوت المسدس مشيرًا إلى أن رصاصة بندقية كانت قد اخترقت لحمه في ذاك المكان منذ عدة سنوات. قال الطبيب وأومأ: «حسنًا».

أجرى مزيدًا من الفحوصات على ظهره ومعدته، كانت عميقة ولكنها غير مؤلمة. بعد مدة تحدث الطبيب إلى راكو، فأومأت وانحنت وشكرته.

سأل بلاكتورن باليابانية راغبًا في معرفة ما إذا كان بخير: «الأفضل؟».

أجاب الطبيب: «نعم يا أنجين سان».

- Honto ka؟

- Honto.

فكر بلاكتورن: يا لها من كلمة مفيدة، Honto. «هل هذا حقيقي؟» «نعم إنها الحقيقة».

قال: «شكرًا يا طبيب سان».

قال الطبيب وهو ينحني: «عفوًا، لا تقلق بشأن ذلك».

بادله بلاكتورن الانحناء. اصطحبته الفتيات بعيدًا، ولم يتذكر أنه كان عاريًا عند الطبيب أمام الفتيات والساموراي إلا عندما استلقى على الفوتون والكيمنو القطني الخاص به مفتوح، وكانت سونو تلاطف ظهره برفق، ولم يلاحظ ذلك أو يشعر بالخجل.

سألت راكو: «ما الأمر يا أنجين سان؟ لماذا تضحك؟».

تلاأت أسنانها البيضاء وكانا حاجباها منتوفين ومرسومين على شكل هلال. كان شعرها الأسود مصفقا للأعلى وترتدي كيمونو ورديا منقوشا بالزهور مع حزام رمادي مخضر.

- لأنني سعيد يا راكو سان. ولكن كيف أخبرك؟ كيف أخبرك أنني ضحكت لأنني سعيد وتلاشى الثقل عن رأسي لأول مرة منذ مغادرتي وطني؟ لأن ظهري يشعر بالروعة، بل أنا بأكلمي أشعر بالروعة. لأن تورانا جا أصبح يصغي لي، وقد أطلقت على اليسوعيين الملعونين ثلاث قذائف قوية وستأخرين نحو البرتغاليين الحقراء.

ثم قفز واقفاً وأحكم الكيمونو حوله وبدأ يرقص رقصة البحارة «هورنبايب» بغير اكتراث، ويغني أغنية بحرية مع الإيقاع.

كانت راكو والآخرين مذهولين. انفتح الباب على الفور والآن كان حراس الساموراي مدهوشين بالقدر نفسه. رقص بلاكتورن وغنى بقوة حتى لم يعد بإمكانه ضبط نفسه، ثم انفجر ضاحكاً وانهار. صفقت الفتيات وحاولت راكو تقليده لكنها فشلت فشلاً ذريعاً، حيث كان الكيمونو الطويل يعيق حركتها. نهض الآخرون وأقنعوه بتعليمهم كيفية القيام بذلك، فحاول، ووقفت الفتيات الثلاث في صف يشاهدن قدميه ويرفعن الكيمونو. لكنهن لم يستطعن، وسرعان ما أصبحوا جميعاً يتحدثون ويضحكون ويهوون أنفسهم بالمراوح. فجأة، أصبح الحراس جادين وانحنوا بعمق. وقف تورانا جا في المدخل مُحاطاً بماريكو وكيري وحراسه من الساموراي الدائمين. جثت جميع الفتيات ووضعن أيديهن بشكل مسطح على الأرض وانحنين، لكن الضحك لم يترك وجوههن، ولم يكن يبدو عليهن أي خوف. انحنى بلاكتورن بأدب أيضاً، لكن ليس بعمق انحناء النساء.

قال بلاكتورن باليابانية: «مرحباً يا تورانا جا ساما».

أجاب تورانا جا: «مرحباً يا أنجين سان».

ثم طرح سؤالاً. قالت ماريكو: «يقول سيدي: ماذا كنت تفعل يا سيدي؟». قال بلاكتورن وهو يشعر بالحمق: «إنها مجرد رقصة يا ماريكو سان. تُسمى هورنبايب. إنها رقصة للبحارة واعتدنا أن نغني معها ترانيم -أغاني- البحارة. كنت سعيداً فقط، ربما بسبب شراب الساكي. أنا آسف، أمل أنني لم أزعج تورانا جا ساما».

ترجمت.

- يقول سيدي إنه يرغب في رؤية الرقصة والاستماع للأغنية.

- الآن؟

- بالطبع الآن.

جلس توراناغا على الفور متربعا، وانتشرت حاشيته الصغيرة في جميع أنحاء الغرفة ونظروا نحو بلاكتورن بترقب.

قال بلاكتورن لنفسه: انظر يا أحق. هذا ما يحدث عندما تتخلى عن حذرك. الآن عليك أن تقدم عرضًا وأنت تعلم أن صوتك سيئًا ورقصك أخرق.

رغم ذلك، أحكم الكيمونو حوله وشرع بالرقص بحيوية، يستدير ويركل ويدور ويقفز، وصوته يصدح بنشاط. خيم الصمت مجددًا.

- يقول سيدي إنه لم يرَ شيئًا كهذا في حياته كلها.

- شكرًا جزيلاً.

قال بلاكتورن باليابانية وهو يتصبب عرقًا جزئيًا بسبب بذل الجهد، وجزئيًا بسبب إحراجه. ثم وضع توراناغا سيفيه جانبًا وثنى الكيمونو وأدخله في حزامه، ووقف بجانبه. قالت ماريكو: «سيرقص الزعيم توراناغا رقصتك».

- ماذا؟

- يقول: رجاء علمني.

لذا شرع بلاكتورن. عرض الخطوة الأساسية، ثم كررها مرارًا وتكرارًا. أتقنها توراناغا بسرعة. لم يكن بلاكتورن معجبًا ولو قليلًا بخفة حركة الرجل المسن ذي البطن الكبير والأرداف الممتلئة.

ثم شرع بلاكتورن بالغناء والرقص وانضم إليه توراناغا بتردد في البداية، وسط هتافات المشاهدين. بعدها نزع توراناغا الكيمونو وطوى ذراعيه وشرع يرقص بالحماس نفسه إلى جانب بلاكتورن الذي نزع الكيمونو أيضًا وغنى بصوت أعلى وأسرع الإيقاع، وكاد يتغلب عليه الشعور بغرابة ما كانا يفعلانه، لكنه انساق الآن مع فكاهاة الموقف. في النهاية قفز بلاكتورن قفزة صغيرة ثم وثب وقفز وتوقف. صفق وانحنى لتوراناغا وصفقوا جميعهم لسيدهم الذي كان سعيدًا جدًا.

جلس توراناغا في وسط الغرفة وهو يتنفس بسهولة. على الفور هزعت راكو لتروّج عليه بالمروحة وركض الآخرون لإحضار الكيمونو خاصته. لكن توراناغا دفع الكيمونو خاصته باتجاه بلاكتورن وأخذ الكيمونو البسيط بدلاً منه.

قالت ماريكو: «يقول سيدي إنه سيسعد لو قبلت هذا كهدية. هنا يعد تشريف عظيم أن يُمنح المرء كيمونو من زعيمه الإقطاعي حتى لو كان قديماً جداً».

- شكراً جزيلاً يا توراناغا ساما.

انحنى بلاكتورن بعمق، ثم قال لماريكو: «نعم، أتفهم الشرف الذي يمنحه لي يا ماريكو سان. رجاءً اشكري الزعيم توراناغا بالعبارات الرسمية الصحيحة التي لسوء الحظ لا أعرفها بعد، وأخبريه بأنني سأعتز به، بل وأكثر، سأعتز بالشرف الذي منحني إياه بمشاركته رقصتي معي».

ازدادت سعادة توراناغا أكثر.

ساعدت كيري والخادemat بلاكتورن باحترام على ارتداء كيمونو سيدهم وأظهرن له كيفية ربط الحزام. كان الكيمونو بنياً من الحرير يحمل خمسة شعارات قرمزية اللون، والحزام أبيض من الحرير.

- يقول الزعيم توراناغا إنه استمتع بالرقصة. ربما سيعرض عليك يوماً ما بعضاً من رقصاتنا. كما أنه يرغب في أن تتعلم التحدث باللغة اليابانية في أسرع وقت ممكن.

- هذا ما أريده أيضاً.

فكر بلاكتورن: لكنني أرغب أكثر أن أرتدي ملابس خاصة، وأتناول طعامي الخاص في مقصورتني على سفينتي الخاصة، ومدافعي مُهيأة ومسدساتي في حزامي، وسطح السفينة يميل تحت ضغط الأشعة: «هل يمكنك أن تسألني الزعيم توراناغا متى يمكنني استعادة سفينتي؟».

- معذرة؟

- سفينتي يا سيدتي. رجاءً اسأليه متى يمكنني استعادة سفينتي. وكذلك طاقمي. لقد فرغت بضائعها، كانت توجد عشرون ألف قطعة نقدية من فئة الثمانية في الخزانة. أنا متأكد أنه سيتفهم أننا تجار، ورغم تقديرنا لحسن ضيافته، فإننا نرغب في التجارة -بالبضائع التي أحضرناها

معنا- والمضي قدمًا نحو الوطن. سيستغرق الأمر منا نحو ثمانية عشر شهرًا للعودة إلى وطننا.

- يقول سيدي إنه لا يوجد داعٍ لتقلق، سَينجز كل شيء بأسرع وقت ممكن. يجب أن تتعافى وتستعيد صحتك أولاً. ستغادر عند الغسق.

- سيدتي؟

- قال الزعيم تورانا جا إنك ستغادر عند الغسق يا سيدي. هل قلت ذلك بشكل خاطئ؟

- لا، لا، على الإطلاق يا ماريكو سان. ولكن قبل ساعة أو نحو ذلك، أخبرتني أنني سأغادر في غضون أيام قليلة.

- نعم، لكنه الآن يقول إنك ستغادر الليلة.

ترجمت كل هذا لتوراناجا الذي أجاب مجددًا.

- يقول سيدي إنه من الأفضل والأسهل لك أن تذهب الليلة. لا يوجد داعٍ للقلق يا أنجين سان، أنت تحت رعايته الشخصية. سيرسل السيدة كيريتسوبو إلى إيدو للتحضير لعودته. ستذهب معها.

- رجاءً اشكريه نيابةً عني. هل يمكن... هل يجوز أن أسأل عما إذا كان من الممكن إطلاق سراح الراهب دومينجو؟ الرجل لديه الكثير من المعرفة.

ترجمت ذلك.

- يقول سيدي إنه آسف، لقد مات الرجل. لقد طلب حضوره فور سؤالك عنه بالأمس ولكنه كان ميتًا بالفعل.

كان بلاكثورن مذعورًا: «كيف مات؟».

- يقول سيدي إنه مات عندما استُدعي.

- رجل مسكين.

- يقول سيدي إن الموت والحياة شيء واحد. ستنتظر روح الكاهن حتى اليوم الأربعين ثم ستُعاد ولادتها مجددًا. لماذا تحزن؟ هذا هو قانون الطبيعة الثابت.

بدأت تقول شيئًا ما لكنها غيرت رأيها، وأضافت فقط: «يؤمن البوذيون بأن لدينا عديدًا من الولادات أو الحيوانات الأخرى يا أنجين سان. حتى تصبح كاملين في النهاية ونصل إلى النيرفانا، الجنة».

أَجَلْ بلاكثورن حزنه للحظة وركز على توراناها والوقت الحاضر: «هل لي أن أسأله عن طاقمي...».

توقف عن الكلام عندما نظر توراناها بعيدًا. دخل ساموراي شاب مسرعًا إلى الغرفة وانحنى لتوراناها وانتظر.

قال توراناها: «ما الأمر؟».

لم يفهم بلاكثورن شيئًا مما قيل باستثناء أنه ظن أنه سمع لقب الأب ألفيتو «تسوكو». رأى عيني توراناها ترمقانه ولاحظ شبح ابتسامة، وتساءل عما إذا كان توراناها قد استدعى الكاهن بسبب ما أخبره إياه. فكر: أمل ذلك، وأمل أن يكون ألفيتو غارق في الوحل حتى أنفه. هل هو كذلك أم لا؟ قرر بلاكثورن عدم سؤال توراناها رغم أنه كان يميل بشدة إلى ذلك.

قال توراناها باقتضاب: «أخبره أن ينتظر».

- حسنًا.

انحنى الساموراي وانصرف مسرعًا. التفت توراناها نحو بلاكثورن: «ما الأمر يا أنجين سان؟».

قالت ماريكو: «ماذا كنت تقول يا قبطان؟ بخصوص طاقمك؟».

- نعم. هل يستطيع توراناها ساما أن يأخذهم تحت رعايته أيضًا؟ أن يتأكد من أنهم يُعتنى بهم جيدًا؟ هل سيُرسَلوا إلى إيدو أيضًا؟

سألته. وضع توراناها سيفه في حزام الكيمونو القصير: «يقول سيدي: بالطبع، لقد رُتبت أمورهم بالفعل. لا يوجد داعٍ لتقلق بشأنهم. أو بشأن سفينتك».

- سفينتي بخير؟ هل يُعتنى بها؟

- نعم. يقول إن السفينة موجودة بالفعل في إيدو.

نهض توراناها. بدأ الجميع بالانحناء لكن بلاكثورن قاطعهم فجأة: «شيء أخير...».

توقف ولعن نفسه، مدركًا أنه كان فظًا. لقد أنهى توراناها المقابلة بوضوح وكان الجميع قد بدؤوا بالانحناء لكن كلمات بلاكثورن أوقفتهم والآن أصبح الجميع في حيرة، لا يعرفون ما إذا كانوا سيستكملون انحناءاتهم أم ينتظرون، أو يبدؤون من جديد.

كان صوت تورانا جا حادًا وغير ودود، لأنه هو أيضًا فقد توازنه للحظة: «ما الأمر يا أنجين سان».

- أنا آسف يا تورانا جا ساما. لم أرغب في أن أكون غير مهذب. أردت فقط أن أسأل عما إذا كان يُسمح للسيدة ماريكو بالتحدث معي لبضع دقائق قبل أن أغادر؟ سيساعدني ذلك. سألته.

اكتفى تورانا جا بزمجرة دلالة على موافقة متعجرفة وخرج، تلاه كيري وحراسه الشخصيون.

قال بلاكتورن لنفسه: يا لهم من أوغاد شديدي الحساسية، أنتم جميعًا. يا إلهي، يجب أن تكون حذرًا للغاية هنا. مسح جبهته بكمه، ورأى علامات الضيق على وجه ماريكو على الفور. أسرع راکو بتقديم منديل صغير يبدو أنهم يمتلكونه دائمًا جاهزًا من مصدر لا ينضب، مخبأ في مكان ما خلف أحزمتهم. ثم أدرك أنه يرتدي كيمونو «السيد» وأنه لا يمكنك بالطبع مسح جبهتك المتعركة بكم «السيد»، بحق الرب، إذن لقد ارتكبت تجديدًا آخر. لن أتعلم أبدًا، أبدًا -يا إلهي في السماوات- أبدًا.

كانت راکو تقدم بعض الساكي: «أنجين سان؟».

شكرها وتجبرعه. على الفور أعادت ملئه. لاحظ لمعان العرق على جميع جباههم. أنا آسف.

قال لهم جميعًا معنذرًا، وأخذ الكوب وقدمه لماريكو بمرح: «لا أعلم ما إذا كانت هذه عادة مهذبة أم لا، ولكن هل تريدین بعض الساكي؟ هل هذا مسموح به؟ أم يجب أن أصدم برأسي بالأرض؟».

ضحكت: «نعم، إنه مهذب تمامًا، ولا، رجاءً لا تؤذ رأسك. لا توجد حاجة للاعتذار لي يا قبطان. الرجال لا يعتذرون للنساء. كل ما يفعلونه صحيح. على الأقل هذا ما نؤمن به نحن النساء».

شرحت للفتيات ما قالته وأومان برؤوسهن بالجدية نفسها لكن أعينهن كانت ترقص: «لم تكن لديك أي طريقة لتعرف يا أنجين سان».

تابعت ماريكو، ثم أخذت رشفة صغيرة من الساكي وأعادت له الكوب: «شكرًا لك، ولكن لا، لن أشرب مزيدًا من الساكي، شكرًا لك. الساكي يذهب

مباشرة إلى رأسي وركبتي. لكنك تتعلم بسرعة، لا بد أن الأمر صعب عليك للغاية. لا تقلق يا أنجين سان، أخبرني الزعيم توراناغا أنه وجد استعدادك استثنائيًا. لم يكن ليعطيك الكيمونو الخاص به لو لم يكن راضيًا للغاية».

- هل استدعى تسوكو سان؟

- الأب ألفيتو؟

- نعم.

- كان يجب أن تسأله يا قبطان. لم يخبرني. إنه قرارٌ حكيمٌ جدًا، لأن النساء ليست لديهن حكمة أو معرفة في الأمور السياسية.

- حقًا؟ أتمنى لو أن جميع نساءنا كن بالقدر نفسه... من الحكمة.

كانت ماريكو تروح على نفسها بالمروحة وهي متربعة براحة، وساقاها ملتفتان تحتها: «كانت رقصتك رائعة حقًا يا أنجين سان. هل ترقص نساؤكم بالطريقة نفسها؟».

- لا. الرجال فقط. كانت تلك رقصة رجالية، رقصة بحارة.

- بما أنك ترغب في طرح أسئلة عليّ، هل لي أن أسألك بعض الأسئلة أولًا؟
- بالتأكيد.

- كيف هي السيدة زوجتك؟

- عمرها تسعة وعشرون عامًا. طويلة القامة مقارنة بك. وفقًا لقياساتنا، أنا طولي مائة وتسعة وثمانون سنتيمترًا، وهي تقريبًا مائة وستة وسبعون، أنت مائة واثنان وخمسون تقريبًا، لذا ستكون أطول منك برأس وأكبر بالقدر نفسه... وجسدها متناسق بالقدر نفسه. شعرها لون...

أشار إلى عوارض خشب الأرز المصقولة وغير المصبوغة وتوجهت جميع أعينهم إلى هناك، ثم عادت إليه مرة أخرى: «تقريبًا ذلك اللون. فاتحة مع لمسة من الأحمر. عيناها زرقاوان، أكثر زرقة بكثير من عيني، زرقاء وخضراء. تصفف شعرها الطويل منسدلاً معظم الوقت».

فسرت ماريكو هذا للأخريات وجميعهن حبسنَّ بأنفاسهن، ونظرن إلى عوارض خشب الأرز، ثم أعدنَّ أنظارهن إليه مرة أخرى، وكان حراس الساموراي يستمعون أيضًا باهتمام شديد. طرحت راكو سؤالًا.

- تسأل راكو سان: هل يبدو جسدها مثلنا؟
- نعم. لكن حوضها أكبر وأكثر تقوسًا، وخصرها أكثر بروزًا و... حسنًا، بشكل عام نساؤنا أكثر امتلاءً ولهن أثداء أكبر بكثير.
- هل كل نسائكم ورجالكم أطول منا بكثير؟
- بشكل عام نعم. لكن بعض شعبنا صغار مثلكم. أجد صغر حجمكم جذابًا. لطيفًا جدًا.
- سألت آسا شيئًا وزاد اهتمام الجميع.
- تسأل آسا: في أمور الجماع، كيف تقارن نساءك بنسائنا؟
- عذرًا، لم أفهم.
- أوه، رجاءً اعذرني. الجماع، في الأمور الحميمة. الجماع هي طريقتنا للإشارة إلى اللقاء الجسدي بين الرجل والمرأة. إنها كلمة أكثر أدبًا من الزنا، أليس كذلك؟
- كبح بلاكثورن إحراجه وقال: «لقد أأأ لقد خضت تجربة جماع واحدة فقط هنا... كانت في القرية... ولا أتذكرها بوضوح شديد لأنني... كنت منهكًا جدًا بسبب رحلتنا لدرجة أنني كنت نصف نائم ونصف واعٍ. لكنها... بدت لي مرضية للغاية».
- عbst ماريكو: «لقد جامعته مرة واحدة فقط منذ وصولك؟».
- نعم.
- لا بد أنك تشعر بالكثير من الكبت، أليس كذلك؟ ستسعد إحدى هؤلاء السيدات بمجامعتك يا أنجين سان. أو جميعهن إذا رغبت في ذلك.
- ماذا؟
- بالطبع. إذا كنت لا تريد إحداهن، فلا داعي للقلق، بالتأكيد لن يشعرن بالإهانة. فقط أخبرني بنوع الفتاة التي تفضلها وسنقوم بكل الترتيبات.
- قال بلاكثورن: «شكرًا لك، لكن ليس الآن».
- هل أنت متأكد؟ رجاءً اعذرني ولكن كيريتسوبو سان قد أعطت تعليمات صريحة بأن يتم حماية صحتك وتحسينها. كيف يمكنك أن تكون بصحة جيدة دون جماع؟ إنه أمر مهم جدًا للرجل، أليس كذلك؟ بلى، بالطبع.

- شكرًا لك، لكنني... ربما لاحقًا.

قالت رغبة بالمساعدة: «سيكون لديك متسع من الوقت. سيسعدني العودة لاحقًا. سيكون هناك متسع من الوقت للحديث إذا رغبت. سيكون لديك على الأقل أربعة أعواد من الوقت. ليس عليك المغادرة قبل غروب الشمس». قال بلاكثورن، وقد ذهل من فظاظة الاقتراح وقلة لباقته: «شكرًا لك. ولكن ليس الآن».

لامست الشمس الأفق وما زال الأب ألفيتو ينتظر في قاعة المقابلات الرسمية، ويشعر بثقل الدلائل البحرية بين يديه. فكر: لعنة الرب على بلاكثورن.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يبقيه فيها توراناغا ينتظر، المرة الأولى منذ سنوات التي ينتظر فيها أي دايميو، حتى التايكو. مُنح امتياز الدخول الفوري المذهل خلال السنوات الثماني الأخيرة من حكم التايكو، تمامًا كما هو الحال مع توراناغا. ولكن مع التايكو، كان الامتياز مُكتسبًا بسبب طلاقته في اللغة اليابانية وبسبب فطنته التجارية. ساعدت معرفته بالأعمال الداخلية للتجارة الدولية بفعالية على زيادة ثروة التايكو المذهلة. ورغم أن التايكو كان أميًا تقريبًا، فإن فهمه للغة كان واسعًا ومعرفته السياسية هائلة. لذلك جلس ألفيتو بسعادة عند أقدام الطاغية ليعلم ويتعلم، وليدعوه إلى المسيحية إذا كانت تلك مشيئة الرب. كانت هذه المهمة المحددة التي دُرّب عليها بدقة من قبل ديل أكوا، الذي وفر أفضل المعلمين الممارسين بين جميع اليسوعيين وبين التجار البرتغاليين في آسيا. أصبح ألفيتو مقربًا من التايكو، وكان واحدًا من الأشخاص الأربعة -والأجنبي الوحيد- الذين رأوا جميع غرف الكنوز الشخصية الخاصة بالتايكو.

على بعد مئات الخطوات فقط يوجد برج القصر الرئيسي، أو المعقل. يحتوي على سبعة طوابق، ومحميًا بمزيد من الأسوار والأبواب والحصون المتعددة. توجد في الطابق الرابع سبع غرف بأبواب حديدية. كل غرفة كانت مليئة بسبائك ذهبية وصناديق من العملات الذهبية. في الطابق الذي يعلوه يوجد غرف الفضة التي تفيض بالسبائك وصناديق العملات المعدنية. وفي

الطابق الذي يعلوهما يوجد الحرير والتحف النادرة والسيوف والدروع، كنز الإمبراطورية.

فكر ألفيتو: وفقاً لتقديراتنا الحالية، يجب أن تكون القيمة خمسين مليون دوق على الأقل، أكثر من دخل عام كامل من الإمبراطورية الإسبانية بأكملها والإمبراطورية البرتغالية وأوروبا مجتمعة. أعظم ثروة شخصية نقدية على وجه الأرض.

فكر: أليست هذه هي الجائزة الكبرى؟ ألا يتصرف أي شخص يسيطر على قلعة أوساكا في هذه الثروة التي لا تُصدق؟ وألا تمنحه هذه الثروة بالتالي سلطة على الأرض؟ ألم تُبنَ أوساكا لتكون مدينة حصينة فقط لحماية الثروة؟ ألم تُستنزف الأرض لبناء قلعة أوساكا، ولجعلها غير قابلة للانتهاك لحماية الذهب، وللاحتفاظ بها حتى بلوغ يايمون سن الرشد؟

بجزء من المائة من هذه الثروة فقط يمكننا بناء كاتدرائية في كل مدينة، وكنيسة في كل بلدة، وبعثة في كل قرية في جميع أنحاء البلاد. لو استطعنا الحصول عليها فقط، لاستخدامها لمجد الرب.

لقد كان التايكو يعشق السلطة. وكان يحب الذهب لما له من سلطة على الرجال. كان الكنز حصيلة ستة عشر عاماً من السلطة المُسلم بها، ومن الهدايا الإلزامية الضخمة التي كان يُتوقع من جميع الدايميو تقديمها سنوياً حسب العادة، ومن إقطاعياته الخاصة. ووفقاً لحقّ الفتح، فقد امتلك التايكو شخصياً ربع جميع الأراضي. كان دخله السنوي الشخصي يزيد على خمسة ملايين كوكو. ولأنه كان زعيم اليابان بأكملها بموجب تفويض الإمبراطور، فمن الناحية النظرية كان يملك جميع إيرادات جميع الإقطاعات. لم يفرض ضرائب على أحد. لكن جميع الدايميو والساموراي وجميع الفلاحين والحرفيين والتجار واللصوص والمنبوذين وحتى الهمج، وحتى الإيتا، ساهموا طواعية وبكميات كبيرة. من أجل سلامتهم.

قال ألفيتو لنفسه: ما دامت الثروة سليمة وأوساكا قائمة ويايمون هو الوصي بحكم الواقع، فسيحكم يايمون عندما يبلغ سن الرشد بغض النظر عن تورانجا أو إيشيدو أو أيّاً كان.

من المؤسف أن التايكو قد مات. فمع كل عيوبه، على الأقل كنا نعرف الشيطان الذي يتعين علينا التعامل معه. في الواقع إنه لمن المؤسف أن

جورودا قد قُتل، لأنه كان صديقاً حقيقياً لنا. لكنه مات وكذلك التايكو، والآن لدينا وثنون جدد لنُخضعهم، توراناغا وإيشيدو.

تذكر ألفيتو الليلة التي مات فيها التايكو. لقد دعاه التايكو للسهر معه، هو ويودوكو ساما زوجة التايكو، والسيدة أوتشيبا خليلته ووالدة الوريث. لقد شاهدوا وانتظروا طويلاً في هدوء تلك الليلة الصيفية التي لا نهاية لها.

ثم بدأ الاحتضار، ثم فارق الحياة.

قال برفق عندما تأكد. رسم إشارة الصليب وبارك الجسد: «لقد فارقته روحه. إنه بين يدي الرب الآن».

قالت يودوكو بدموع صامتة: «لأخذ البوذا سيدي إلى رعايته ويعيد ولادته بسرعة حتى يستعيد الإمبراطورية بين يديه مجدداً».

لقد كانت امرأة لطيفة، من طبقة الساموراي النبيلة وكانت زوجة مخلصة ومستشارة لمدة أربعة وأربعين عاماً من أصل تسعة وخمسين عاماً من عمرها. أغلقت عينيه ووضعت الجثمان في وضع يليق، وهذا كان حقها. للأسف انحنى ثلاث مرات ثم تركته والسيدة أوتشيبا.

كان الموت سهلاً. كان التايكو مريضاً لعدة أشهر، وكان من المتوقع أن تكون هذه الليلة هي الأخيرة. قبل ساعات قليلة، فتح عينيه وابتسم لأوتشيبا ويودوكو، وهمس وكان صوته خافتاً: «اسمعا، هذه هي قصيدة موتي:

«كالندى وُلِدْتُ

وكالندى سأُتلاشى.

قلعة أوساكا وكل ما فعلته

ما هو إلا حلم

داخل حلمٍ آخر».

وجه الطاغية ابتسامة أخيرة حانية لهم وله. قال: «احموا ابني، جميعكم». ثم أظلمت عيناه إلى الأبد.

تذكر الأب ألفيتو مدى تأثيره بالقصيدة الأخيرة، التي كانت نموذجية جداً من التايكو. لقد كان يأمل لأنه دُعي إلى هنا، أن يلين زعيم اليابان على أعتاب

الموت ويقبل الإيمان والسر المقدس الذي ظل يماطل فيه مرات عديدة. لكن لم يحدث ذلك. تمت بحزن، لأنه كان يكن إعجابًا للتايكو كعسكري وسياسي: «لقد فقدت ملكوت الرب إلى الأبد يا مسكين».

قالت السيدة أوتشيبا: «وماذا لو كان ملكوت إلهك مليء بالهمجية؟».

- ماذا؟

لم يكن متأكدًا مما إذا كان قد سمع بشكل صحيح، لقد اشمأز من حقدِها الخبيث المفاجئ. لقد عرف السيدة أوتشيبا منذ ما يقرب من اثني عشر عامًا، منذ أن كانت في الخامسة عشرة، عندما أخذها التايكو لأول مرة كخليفة، وكانت دائمًا مطيعة وخاضعة، بالكاد تنطق بكلمة واحدة، ودائمة الابتسام ببراءة وسعادة. لكن الآن...

- قلتُ: وماذا لو كان ملكوت إلهك مليئًا بالهمجية؟

- ليغفر الرب لك! سيدك قد مات منذ لحظات قليلة فقط...

- سيدي الزعيم قد مات، لذا نفوذك عليه قد مات أيضًا، أليس كذلك؟ لقد أراذك هنا، حسنًا، هذا كان حقه. لكن الآن هو في العدم العظيم ولم يعد يأمر بشيء. الآن أنا أمر. أنت نتن أيها الكاهن، لطالما كنت، ونتاج يدنس الهواء. الآن اخرج من قصري واتركنا لحزننا.

ومض ضوء الشموع المتوهج على وجهها. لقد كانت واحدة من أجمل النساء في البلاد. رسم إشارة الصليب لا إراديًا أمام شرها.

كانت ضحكاتها تقشعر الأبدان: «اذهب بعيدًا أيها الكاهن ولا تُعد مجددًا. إن أيامك معدودة».

- ليست أكثر من أيامك أنت. أنا في كنف الرب يا سيدتي. من الأفضل أن تنتبهي إليه، فإن خلاصك الأبدي ممكن إن آمنْتَ.

- ماذا؟ أنت في كنف الرب؟ الإله المسيحي، أليس كذلك؟ ربما تكون كذلك. وربما لا. ماذا ستفعل أيها الكاهن، إذا اكتشفت بعد موتك أنه لا يوجد إله، ولا توجد جحيم وأن خلاصك الأبدي مجرد حلم داخل حلم آخر؟

قال بصوت عالٍ: «أنا مؤمن، أنا مؤمن بالرب وبيوم القيامة وبالروح القدس. الوعود المسيحية صحيحة. إنها صحيحة، صحيحة. أنا مؤمن بذلك».

سمع صوت يقول باليابانية: «ما الأمر يا تسوكو سان؟».

للحظة لم يسمع سوى اليابانية ولم يكن للكلام معنى بالنسبة إليه.

كان توراناغا يقف في مدخل الباب محاطًا بحراسه.

انحنى الأب ألفيتو، محاولًا استعادة رباطة جأشه والعرق يتصبب على ظهره ووجهه. قال: «أنا آسف لأنني أتيت دون دعوة. أنا... أنا فقط كنت مستغرقًا في أحلام اليقظة. تذكرت أنني كنت محظوظًا بأن شهدت الكثير من الأشياء هنا في اليابان. يبدو أن حياتي كلها كانت هنا وليست في أي مكان آخر».

- هذا كان مكسبًا لنا يا تسوكو سان.

مشى توراناغا بوهن نحو المنصة وجلس على الوسادة البسيطة. نظم الحراس أنفسهم بصمت مشكلين حاجزًا واقياً.

- لقد وصلت إلى هنا في العام الثالث من تينشو، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي، كان العام الرابع. عام الفأر.

أجاب مستخدمًا تقويمهم الذي استغرق شهرًا لفهمه. يُحسَب كل عام ابتداءً من سنة معينة يختارها الإمبراطور الحاكم. قد تُنتهي كارثة أو هبة إلهية حقبة أو تبدأ حقبة أخرى، بناءً على رغبة الإمبراطور. يُطلب من العلماء اختيار اسم يعد فألاً حسنًا من كتب الصين القديمة للعهد الجديد الذي قد يستمر عامًا أو خمسين عامًا. تينشو تعني «جنة الصلاح». كان العام السابق هو وقت موجة المد العظيمة التي توفي فيها مائة ألف شخص. وكان يُعطى لكل عام رقم بالإضافة إلى اسم، وهو نفس التسلسل الخاص بساعات اليوم: الأرنب والتنين والثعبان والحصان والماعز والقرد والديك والكلب والخنزير والفأر والثور والنمر. كانت السنة الأولى من تينشو في عام الديك، وبالتالي كان عام 1576 هو عام الفأر في السنة الرابعة من تينشو.

- لقد حدث الكثير في تلك السنوات الأربع والعشرين، أليس كذلك يا صديقي القديم؟

- بلى يا سيدي.

- بلى. ارتقاء جورودا وموته. ارتقاء التايكو وموته. والآن؟

ترددت الكلمات على الجدران.

- هذا بيد الأبدى.

استخدم ألفيتو كلمة يمكن أن تعني الرب، ويمكن أن تعني بوذا أيضًا.

- لم يؤمن الزعيم جورودا ولا الزعيم التايكو بأي آلهة، ولا بأي شيء أبدي.

- ألم يقل الزعيم بوذا إنه يوجد عديدٌ من الطرق التي تؤدي إلى النيرفانا يا سيدي؟

- أنت رجل حكيم يا تسوكو سان. كيف يكون شخص صغير السن مثلك حكيماً إلى هذا الحد؟

- أتمنى بصدق أن أكون كذلك يا سيدي. حينئذٍ يمكن أن أكون أكثر فائدة.

- أردت رؤيتي؟

- نعم. اعتقدت أن الأمر مهم بما يكفي لآتيك دون دعوة.

أخرج ألفيتو دلائل بلاكتورن البحرية ووضعها على الأرض أمامه، وقدم التفسيرات التي اقترحها ديل أكوا. رأى وجه توراناجا يتجهم، وقد سرَّه ذلك.

- هل يوجد دليل على قرصنته؟

- نعم يا سيدي. حتى إن الدلائل البحرية تحتوي على الكلمات الحرفية لأوامرهم، والتي تتضمن: «إذا لزم الأمر الرسو على اليابسة بقوة والمطالبة بأي أرض تُصل إليها أو تُكتشف». يمكنني إجراء ترجمة دقيقة لجميع المقاطع ذات الصلة إذا رغبت في ذلك.

قال توراناجا: «ترجم كل شيء بسرعة».

- يوجد شيء آخر يعتقد الآب الزائر أنك يجب أن تعرفه.

أخبر ألفيتو توراناجا كل شيء عن الخرائط والتقارير والسفينة السوداء كما رُتّب الأمر، وسرَّ لرؤية رد الفعل السعيد.

قال توراناجا: «ممتاز، هل أنت متأكد من أن السفينة السوداء ستصل مبكرًا؟ متأكد تمامًا؟».

أجاب ألفيتو بحزم: «نعم».

يا إلهي، اجعل الأمور تسير كما نأمل.

- جيد. أخبر زعيمك الإقطاعي أنني أتطلع إلى قراءة تقاريره. نعم. أتصور أن الأمر سيستغرق منه بضعة أشهر للحصول على الحقائق الصحيحة؟
- قال إنه سيُعد التقارير في أقرب وقت ممكن. سنرسل إليك الخرائط كما تريد. هل من الممكن أن يحصل القبطان على تصاريحه قريبًا؟ سيساعد ذلك كثيرًا إذا وصلت السفينة السوداء مبكرًا يا زعيم تورانا.
- هل تضمن أن تصل السفينة مبكرًا؟
- لا يمكن لأحد أن يضمن الرياح والعواصف والبحر. ولكن السفينة ستغادر ماكاو مبكرًا.
- ستحصل على التصاريح قبل غروب الشمس. هل يوجد أي شيء آخر؟ لن أكون متاحًا لمدة ثلاثة أيام، ليس قبل انتهاء اجتماع الأوصياء.
- لا يا سيدي. شكرًا لك. أدعو أن يحفظك الأبدى سالمًا، كما هو الحال دائمًا. انحنى الأب ألفيتو وانتظر إشارة لينصرف، لكن بدلًا من ذلك، قام تورانا بطرد حراسه.
- كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الأب ألفيتو دايميو دون حراس. أشار تورانا إلى جانبه على المنصة: «تعال واجلس هنا يا تسوكو سان». لم يسبق أن دُعي ألفيتو إلى المنصة من قبل. هل هذا تصويت بالثقة أم حُكم؟ قال تورانا: «الحرب قادمة».
- أجاب، وفكر أن هذه الحرب لن تنتهي أبدًا: «نعم».
- الزعيمان المسيحيان أونوشي وكياما يعارضان رغباتي بغربة.
- لا يمكنني الإجابة نيابةً عن أي دايميو يا سيدي.
- توجد شائعات سيئة، أليس كذلك؟ عنهم وعن الدايميو المسيحيين الآخرين.
- سيضع الرجال الحكماء دائمًا مصلحة الإمبراطورية في قلوبهم.
- نعم. ولكن في هذه الأثناء، وعلى خلاف رغبتني، فإن الإمبراطورية تنقسم إلى معسكرين. معسكري ومعسكر إيشيدو. لذلك تقع جميع مصالح الإمبراطورية في أحد جانبيه أو الآخر. لا يوجد موقف وسط. أين تكمن مصالح المسيحيين؟

- على جانب السلام. إن المسيحية ديانة يا سيدي، وليست عقيدة سياسية.
- الأب العملاق خاصتك هو رئيس الكنيسة هنا. أسمعك تتحدث... يمكنك التحدث باسم هذا البابا.
- ممنوع علينا التدخل في سياساتكم يا سيدي.
- احتد صوت تورانا: «هل تعتقد أن إيشيدو سيفضلك؟ إنه يعارض ديانتكم تمامًا. لطالما فضلتك. يريد إيشيدو تطبيق مراسيم الطرد الخاصة بالتايكو على الفور وإغلاق البلاد تمامًا أمام كل الأجانب. أما أنا فأريد توسيع نطاق التجارة».
- لا نملك سيطرة على أي من الدايميو المسيحيين.
- إذن، كيف يمكنني التأثير عليهم؟
- لا أعلم ما يكفي لأحاول تقديم المشورة لك.
- تعلم ما يكفي يا صاحبي القديم، لتفهم أنه إذا وقف كياما وأونوشي ضدي إلى جانب إيشيدو وبقية الغوغاء التابعين له، فإن جميع الدايميو المسيحيين الآخرين سيحذون حذوهم قريبًا. عندئذٍ سيقف عشرون رجلًا مقابل كل رجل من رجالي.
- إذا جاءت الحرب، فسأدعو أن تنتصر.
- سأحتاج أكثر من مجرد دعوات إذا كان عشرون رجلًا يواجهون واحدًا من رجالي.
- ألا توجد طريقة لتجنب الحرب؟ فإنها لن تنتهي أبدًا حالما تبدأ.
- أعتقد ذلك أيضًا. ومن ثم سيُهزم الجميع، نحن والأجانب والكنيسة المسيحية. ولكن إذا انحاز جميع الدايميو المسيحيين إلى جانبي الآن -علانية- فلن تكون هناك حرب. ستُكَبَح طموحات إيشيدو إلى الأبد. حتى لو ارتفع شأنه وتمرد، فإن الأوصياء يمكنهم سحقه مثل يرقة أرز. شعر ألفيتو بالخناق يشتد حول عنقه: «نحن هنا فقط لنشر كلمة الرب. وليس للتدخل في سياساتكم يا سيدي».
- لقد عرض قائدكم السابق خدمات الدايميو المسيحيين في كيوشو على التايكو قبل أن نخضع ذلك الجزء من الإمبراطورية.

- لقد أخطأ في فعل ذلك. لم يكن لديه تفويض من الكنيسة أو من الدايملو أنفسهم.

- عرض أن يمنح التايكو سفناً برتغالية لنقل قواتنا إلى كيوشو، وعرض جنوداً برتغاليين مسلحين لمساعدتنا. حتى ضد كوريا وضد الصين.

- سأكرر يا سيدي أنه أخطأ في فعل ذلك، دون تفويض من أحد.

- سيتعين قريباً على الجميع اختيار جانب يا تسوكو سان. نعم. قريباً جداً.

شعر ألفيتو بالتهديد جسدياً: «أنا مستعد دائماً لخدمتك».

- هل ستموت معي إذا هُزمت؟ هل سترتكب الجونشي... هل ستتبعني أو ترافقني إلى الموت كخادم مخلص؟

- حياتي وموتي في يد الرب.

حرك توراناغا سيفيه قليلاً. ثم انحنى للأمام: «نعم. إلهك المسيحي، سيتعهد أونوشي وكياما بالولاء لي في غضون أربعين يوماً، وسيقوم مجلس الوصاية بإلغاء مراسيم التايكو».

سأل ألفيتو نفسه بعجز: إلى أي مدى أجرؤ على المضي؟ إلى أي مدى؟ قال: «لا يمكننا التأثير فيهم كما نعتقد».

- ربما ينبغي لقائدك أن يأمرهم بذلك. يأمرهم! إيشيدو سيخونك ويخونهم. أنا أعرفه جيداً. وكذلك السيدة أوتشيبا. أليس لها بالفعل تأثير على الوريث ضدك؟

أراد الأب ألفيتو أن يصرخ قائلاً: نعم. ولكن أونوشي وكياما قد حصلوا سرّاً على تعهد مكتوب من إيشيدو يسمح لهما بتعيين جميع معلمي الوريث، وسيكون أحدهم مسيحياً. وقد أقسم أونوشي وكياما قسمًا مقدساً بأنهما مقتنعان بأنك ستخون الكنيسة حالما تقضي على إيشيدو: «لا يستطيع رئيس الآباء أمرهما بذلك يا سيدي. سيُعد ذلك تدخلًا لا يغتفر في سياستكم».

- أونوشي وكياما في غضون أربعين يوماً، وإلغاء مراسيم التايكو. ولا مزيداً من الكهنة البغضاء. سيمنعهم الأوصياء من القدوم إلى اليابان.

- ماذا؟

- أنت وكهنتك فقط. لا أحد من الآخرين - ذوي الملابس السوداء القذرين المتسولين - ذوي الشعر حفاة الأقدام. أولئك الذين يصرخون بتهديدات غبية ولا يخلقون سوى المتاعب. هؤلاء. يمكنك أن تأخذ رؤوسهم جميعًا إذا أردت. أولئك الموجودون هنا.

صرخ كيان ألفيتو كله محذرًا: لم يكن توراناغا صريحًا إلى هذا الحد من قبل. زلة واحدة مني الآن ستسيء إليه وستجعله عدوًا للكنيسة إلى الأبد.

فكر فيما يعرضه توراناغا، الحصرية في جميع أنحاء الإمبراطورية. الشيء الوحيد الذي يضمن نقاء الكنيسة وسلامتها بينما تزداد قوة. الشيء الوحيد الذي لا يقدر بثمن. الشيء الذي لا يستطيع أحد توفيره - حتى البابا! لا أحد - باستثناء توراناغا. مع دعم كياما وأونوشي له علانية، يمكن لتوراناغا سحق إيشيدو والسيطرة على المجلس.

لم يكن ليصدق ألفيتو قط أن توراناغا سيكون بهذه الصراحة. أو أن يقدم الكثير. هل يمكن جعل أونوشي وكياما يغيران موقفهما؟ هذان الاثنان يكرهان بعضهما بعضًا. لقد تحالفا معًا لمعارضة توراناغا لأسباب يعلمانها وحدهما. لماذا؟ وما الذي سيجعلهما يخونان إيشيدو؟

قال: «أنا لست مؤهلًا لإجابتك يا سيدي، أو للحديث في مثل هذا الأمر، أليس كذلك؟ أقول لك فقط إن هدفنا هو إنقاذ النفوس».

- سمعت أن ابني ناجا مهتم بإيمانكم المسيحي.

سأل ألفيتو نفسه: هل يهدد توراناغا أم أنه يعرض صفقة؟ هل يعرض السماح لناجا باعتراف الإيمان - سيكون ذلك انقلابًا عظيمًا - أم يقول: «إذا لم تتعاونوا فسأمره بالامتناع؟» قال: «الزعيم ابنك هو واحد من العديد من النبلاء ذوي العقول المنفتحة تجاه الأديان يا سيدي».

أدرك ألفيتو فجأة حجم المعضلة التي يواجهها توراناغا. إنه محاصر. فكر بابتهاج: يجب أن يبرم صفقة معنا. عليه أن يحاول. وكل ما نريده، فعليه أن يمنحنا إياه إذا أردنا أن نبرم صفقة معه. في النهاية اعترف علانية أن الدايميو المسيحيين هم من يحملون ميزان القوة. كل ما نريده! ماذا يمكننا أن نملك أيضًا؟ لا شيء على الإطلاق. باستثناء...

خفض عينيه عمدًا إلى الدلائل البحرية التي كان قد وضعها أمام توراناغا. شاهد يده تمتد وتضع الدلائل بأمان في كم الكيمونو الخاص به.

قال تورانا جا بصوت غريب ومرهق: «نعم يا تسوكو سان. ثم يوجد الهمجي الجديد، القرصان. أعداء بلادك. سيأتون إلى هنا قريبًا بأعداد كبيرة، أليس كذلك؟ يمكن ردهم... أو تشجيعهم. مثل هذا القرصان. أليس كذلك؟». علم ألفيتو أنهم الآن يملكون كل شيء. هل يجب أن أطلب رأس بلاكثورن على طبق من فضة مثل رأس القديس يوحنا المعمدان لإبرام هذه الصفقة؟ هل يجب أن أطلب إذنًا ببناء كاتدرائية في إيدو، أو واحدة داخل أسوار قلعة أوساكا؟ للمرة الأولى في حياته شعر بأنه يتخبط، تائهاً في سعيه وراء السلطة. لا نريد أكثر مما يُعرض. أتمنى لو أستطيع إبرام الصفقة الآن. لو كان الأمر متروكًا لي وحدي، لقمّت بالمقامرة. أنا أعرف تورانا جا وسأراهن عليه. كنت سأوافق على المحاولة وأقسم يمينًا مقدسًا. نعم، كنت سأحرم أونوشي أو كياما من الكنيسة إذا لم يوافقا، للحصول على تلك التنازلات لصالح الكنيسة الأم. روحان مقابل عشرات الآلاف، أو مئات الآلاف، بل الملايين. كنت لأقول: هذا عادل. نعم، نعم، نعم، من أجل مجد الرب. لكن لا أستطيع حسم أي شيء كما تعلم جيدًا. أنا مجرد رسول، وجزء من رسالتي...

- أنا بحاجة إلى المساعدة يا تسوكو سان. أنا بحاجة إليها الآن.

- سأفعل كل ما بوسعي فعله يا تورانا جا ساما. أعدك بذلك.

ثم قال تورانا جا بحسم: «سأنتظر أربعين يومًا. نعم. أربعون يومًا».

انحنى ألفيتو. لاحظ أن تورانا جا رد الانحناء بانحناء أعمق وأكثر رسمية مما فعل من قبل، وكأنه ينحني أمام التايكو نفسه. نهض الكاهن مرتجفًا. ثم خرج من الغرفة عابراً الردهة. وسرعان ما تسارعت خطواته. ثم بدأ يسير بعجل.

راقب تورانا جا اليسوعي من الكوة وهو يعبر الحديقة في الأسفل. فُتح الباب مجددًا، لكنه سبَّ حراسه وأمرهم بأن يتركوه وحده تحت وطأة الموت. تابعت عيناه ألفيتو باهتمام عبر البوابة المحصنة، ومن ثم إلى الباحة الأمامية حتى اختفى الكاهن في متاهة التحصينات الداخلية.

ثم بدأ تورانا جا يبتسم وسط الصمت الموحش. وطوى الكيمونو وبدأ يرقص. كانت رقصة البحارة.



الفصل الحادي والعشرون

بعد غروب الشمس بقليل، تحركت كيري بتثاقل وقلق على الدرجات، برفقة خادمتين. توجهت صوب الهودج ذي الستائر الذي يقف بجانب كوخ الحديقة. رداء فضفاض غطى كيمونو السفر خاصتها وجعلها تبدو أكثر ضخامة، وكانت تعتمر قبعة كبيرة للغاية مربوطة تحت فكها.

كانت السيدة سازوكو تنتظرها بصبر على الشرفة، وهي حامل في شهورها الأخيرة، وكانت ماريكو بجانبها. كان بلاكتورن متكئاً على الحائط بالقرب من البوابة المحصنة. كان يرتدي كيمونو بنيّاً مربوطةً بحزام وجوارب التابي وأحذية عسكرية. كان يصطف الحراس المرافقون لهم في الساحة الأمامية خارج البوابة في صفوف منتظمة، وهم ستون ساموراي مدججون بالسلاح، وكان يحمل رجلٌ من كل ثلاثة منهم شعلة. على رأس هؤلاء الجنود، تحدث يابو مع بونتارو -زوج ماريكو- وهو رجل قصير ممتلئ الجسم ويكاد يكون بلا رقبة. كان كلاهما يرتدي دروعاً مع أقواس وجِعباً على أكتافهما، وكان بونتارو يرتدي خوذة حرب من الفولاذ ذات قرون. جلس الحمالون وحاملو المحفات بصبر في صمت منضبط بالقرب من الأمتعة الكثيرة.

حمل النسيم الرقيق نفحة من وعد الصيف، لكن لم يلاحظه أحد سوى بلاكتورن، وحتى هو كان مدرّكاً للتوتر الذي يحيط بهم جميعاً. وكان أيضاً يدرك تماماً أنه وحده غير المسلح.

توجهت كيري نحو الشرفة: «لا يجب أن تنتظري في البرد يا سازوكو سان. ستصابين بالبرد. يجب أن تتذكري الطفل الآن. لا تزال ليالي الربيع هذه مليئة بالرطوبة».

- لا أشعر بالبرد يا كيري سان. إنها ليلة جميلة وأنه لمن دواعي سروري وجودي هنا.

- هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم. كل شيء مثالي.

- أتمنى ألا أذهب. نعم. أكره المغادرة.

قالت ماريكو بطمأنينة وهي تنضم إليهم. كانت تعتمر قبعة عريضة الحواف مشابهة، لكن قبعتها كانت زاهية بينما قبعة كيري قاتمة: «لا يوجد داعٍ للقلق. ستستمتعين بالعودة إلى إيدو. كما أن سيدنا سيتبعنا في غضون أيام قليلة».

- من يدري ما سيحمله الغد يا ماريكو سان؟

- الغد بيد الرب.

قالت سازوكو: «غداً سيكون يوماً جميلاً، وإذا لم يكن كذلك، فهو كذلك. من يهتم بالغد؟ الحاضر جيد. أنت جميلة وكلنا سنفتقدك يا كيري سان، وأنت أيضاً يا ماريكو سان».

ألقت نظرة مشتتة على البوابة، حيث صرخ بونتارو بغضب على أحد الساموراي الذي أسقط شعلة.

يابو -الذي كان أكبر سناً من بونتارو- كان يتولى قيادة المرافقة رسمياً. لقد رأى كيري تصل، فعاد من البوابة. وتبعه بونتارو.

قالت كيري وهي تنحني بارتباك: «أوه، الزعيم يابو... والزعيم بونتارو، أنا آسفة جداً لجعلكم تنتظرون. كان الزعيم توراناغا على وشك النزول، لكنه في النهاية قرر العدول عن ذلك. قال إن عليكم المغادرة الآن. أرجو أن تتقبلوا اعتذاري».

- لا توجد حاجة إلى الاعتذار.

كان يابو يتوق لمغادرة القلعة في أقرب وقت ممكن، ومغادرة أوساكا أيضاً، والعودة إلى إيزو. لا يزال يصعب عليه تصديق أنه سيغادر برأسه، ومعه الهمجي والبنادق وكل شيء. لقد أرسل رسائل عاجلة بواسطة الحمام الزاجل إلى زوجته في إيدو للتأكد أن كل شيء جاهز في عاصمته ميشيما، ورسائل إلى أومي في قرية أنجيرو. قال: «هل أنت جاهزة؟».

ترقرقت الدموع في عيني كيري: «فقط دعني ألتقط أنفاسي ثم سأصعد إلى الهودج. أتمنى لو لم يكن عليّ المغادرة». نظرت حولها تبحث عن بلاكثورن، وأخيراً لمحته واقف في الظل: «من المسؤول عن أنجين سان؟ حتى نصل إلى السفينة؟».

قال بونتارو بحدّة: «لقد أمرته بالسّير بجوار هودج زوجتي. إذا لم تستطع السيطرة عليه، فسأفعل أنا».

- ربما يجب أن ترافق السيدة سازوكو يا زعيم يابو...

- حراس!

دوت صرخة تحذير من الباحة الأمامية. هرع بونتارو ويابو عبر الباب المحصن بينما اندفع الرجال خلفهم وتدفق آخرون من المباني الداخلية.

كان إيشيدو يقترب من الطريق بين أسوار القلعة على رأس مائتي ساموراي من الرماحيين. توقف في الباحة الأمامية خارج البوابة، ورغم عدم وجود أي رجل مُعَادٍ على أيٍّ من الجانبين ولم يضع أي رجل يده على سيفه أو سهمًا في قوسه، فإن الجميع كانوا مستعدين.

انحنى إيشيدو باحترام: «مساء جميل يا زعيم يابو».

- نعم، إنه جميل بالطبع.

أومأ إيشيدو بلا مبالاة إلى بونتارو الذي كان بمثل لا مبالاة الآخر، ورد بأقل قدر من الأدب المسموح به. كان كلاهما من القادة المفضلين للتايكو. قاد بونتارو أحد الأفواج في كوريا عندما كان إيشيدو القائد العام. اتهم كلٌ منهما الآخر بالخيانة. فقط التدخل الشخصي وأمر مباشر من التايكو هو الذي حال دون إراقة الدماء والثأر.

فحص إيشيدو الساموراي البنين. ثم وجدت عيناه بلاكتورن. رأى الرجل ينحني نصف انحناء وهو بادله المثل. ومن خلال البوابة استطاع رؤية النساء الثلاث والهودج الآخر. استقرت عيناه على يابو مجددًا: «يُخيل إليكم أنكم جميعًا ذاهبون إلى معركة يا يابو سان، بدلًا من مجرد مرافقة تشريفية للسيدة كيريتسوبو».

- أصدر هيرو ماتسو سان الأوامر، بسبب قاتل آميدا...

توقف يابو عندما تقدم بونتارو بغضب إلى الأمام وغرّز ساقيه الضخمتين في وسط البوابة: «نحن دائمًا على استعداد للمعركة. مع أو دون دروع. يمكننا مواجهة عشرة رجال مقابل كل رجل منا وخمسين من آكلي الثوم. نحن لا نولّي ظهورنا ونفر كالجناء تاركين رفاقنا ليُهْزَمُوا».

كانت ابتسامة إيشيدو مليئة بالازدراء، وصوته مُحَرِّضًا: «حقًا؟ ربما ستتاح لك الفرصة قريبًا، لتواجه رجالًا حقيقيين وليس آكلي الثوم».

- قريبًا متى؟ لماذا ليس الليلة؟ لماذا ليس هنا؟

تحرك يابو بحذر بينهما. لقد كان أيضًا في كوريا وكان يعلم أنه توجد حقيقة في كلا الجانبين وأنه لا يمكن الوثوق بأي منهما، وبالأخص بونتارو أكثر من إيشيدو. قال بتهدة، راغبًا بشدة في تجنب صدام من شأنه أن يحبسهم إلى الأبد داخل القلعة: «ليس الليلة لأننا بين الأصدقاء يا بونتارو سان. نحن بين الأصدقاء يا بونتارو سان».

استدار بونتارو عائدًا إلى إيشيدو: «أي أصدقاء؟ أنا أعرف الأصدقاء وأعرف الأعداء. أين هذا الرجل... هذا الرجل الحقيقي الذي تحدثت عنه يا إيشيدو سان؟ ها؟ أم الرجال؟ دعه... دعهم جميعًا يزحفوا خارج جحورهم ويقفوا أمامي - أنا تودا بونتارو زعيم ساكورا- إذا كان لدى أي منهم الشجاعة».

استعد الجميع.

حدق إيشيدو إليه بحقد.

قال يابو: «هذا ليس الوقت المناسب يا بونتارو سان. أصدقاء أو أعداء...». بصق بونتارو على الأرض قائلاً: «أصدقاء؟ أين؟ في كومة الأوساخ هذه؟». توجهت يد أحد رجال الرماديين تجاه مقبض سيفه، وتبعه عشرة من البنين، وتبعهم خمسون رجلًا من الرماديين متأخرين بثانية، والآن ينتظر الجميع خروج سيف إيشيدو للإشارة إلى الهجوم.

ثم خرج هيرو ماتسو من ظلال الحديقة عبر البوابة المؤدية إلى الباحة الأمامية، وسيفه القاتل مسلولًا في يديه ونصفه خارج غمده.

قال بهدوء. حينئذ خففت الأيدي قبضتها على مقابض السيوف. الساموراي على كل الأبراج المحصنة - من الرماديين والبنين - أرخوا قبضتهم على أوتار أقواسهم المشدودة بالأسهم: «يمكن العثور على الأصدقاء في كومة الأوساخ أحيانًا يا بني. لدينا أصدقاء في جميع أنحاء القلعة. وفي جميع أنحاء أوساكا. نعم. يستمر زعيمنا توراناغا في إخبارنا ذلك».

وقف كالصخر أمام ابنه الحي الوحيد، ورأى تعطشه للدماء في عينيه. اتخذ هيرو ماتسو موقعه القتالي عند المدخل الداخلي في اللحظة التي شوهد فيها إيشيدو يقترب. ثم تحرك بهدوء كالقطط في الظلال عندما مضى الخطر الأول. حدق إلى عيني بونتارو مضيئًا: «أليس كذلك يا بني؟».

أوماً بونتارو برأسه بجهد جبار وتراجع خطوة إلى الوراء. لكنه لا يزال يسد الطريق المؤدي إلى الحديقة.

حوّل هيرو ماتسو انتباهه إلى إيشيدو: «لم نتوقع حضورك الليلة يا إيشيدو سان».

- جئت لأقدم احترامي للسيدة كيريتسوبو. لم أبلغ حتى قبل لحظات بأن هناك من سيغادر.

- هل ابني على حق؟ هل يجب أن نقلق بشأن عدم وجود أصدقاء بيننا؟ هل نحن رهائن يجب أن نتوسل لطلب المعروف؟

- لا. لكن أنا والزعيم توراناغا اتفقنا خلال زيارته. كان من المقرر تقديم إشعار قبل يوم بوصول أو مغادرة الشخصيات البارزة حتى أتمكن من تقديم الاحترام المناسب.

أخبره هيرو ماتسو: «كان قراراً مفاجئاً من الزعيم توراناغا. لم يعتبر مسألة سفر إحدى سيداته إلى إيدو مهمة بما يكفي لإزعاجك. نعم، بالكاد يستعد الزعيم توراناغا لمغادرته هو نفسه».

- هل اتُخذَ قرار بشأن ذلك؟

- نعم. في اليوم الذي ينتهي فيه اجتماع الأوصياء. ستُبلغ في الوقت المناسب وفقاً للاتفاقية.

- جيد. بالطبع قد يتأجل الاجتماع مجدداً. فإن صحة الزعيم كياما تزداد سوءاً.

- هل تأجل؟ أم لا؟

- لقد ذكرت فقط أنه قد يتأجل. نأمل أن نتمتع بحضور الزعيم توراناغا لفترة طويلة قادمة، أليس كذلك؟ هل سيصطاد معي غداً؟

- طلبتُ منه إلغاء جميع رحلات الصيد حتى الاجتماع. لا أعتبر الأمر آمناً، لا أعتبر المنطقة كلها آمنة بعد الآن. إذا كان باستطاعة القتلة القذرين اختراق حراسك بهذه السهولة، فكم ستكون الخيانة أسهل خارج الأسوار؟

تجاهل إيشيدو الإهانة. لقد كان يعلم أن ذلك بالإضافة إلى الإهانات سيزيد من غضب رجاله ولكن ليس من المناسب له أن يشعل فتيل الاشتعال بعد. لقد

كان سعيدًا بتدخل هירו ماتسو لأنه كاد يفقد السيطرة. سيطر عليه مشهد سقوط رأس بونتارو في التراب وأسنانه تصطك ببعضها. قال: «كما تعلم جيدًا، فقد صدرت الأوامر بالفعل لجميع قادة الحرس في تلك الليلة بالدخول إلى العدم العظيم. للأسف الأميديين يضعون لأنفسهم قوانين خاصة. ولكن سيُقضى عليهم قريبًا جدًا. سيُطلب من الأوصياء التعامل معهم على الفور وإلى الأبد. الآن ربما أتمكن من تقديم احترامي إلى كيريتسوبو سان».

تقدم إيشيدو للأمام. خطا حرسه الشخصيين من الرماديين خلفه. توقف الجميع فجأة. كان لدى بونتارو سهم في قوسه، ورغم أن السهم كان موجهاً نحو الأرض، فإن القوس كان منحنيًا بالفعل إلى أقصى حد له. قال: «يُمنع مرور الرماديين عبر هذه البوابة. هذا متفق عليه وفقًا للاتفاقية».

- أنا حاكم قلعة أوساكا وقائد حرس الوريث، لدي الحق في الذهاب إلى أي مكان.

سيطر هירו ماتسو على الموقف مجددًا: «صحيح، أنت قائد حرس الوريث ولديك حق الذهاب إلى أي مكان. ولكن يمكن لخمسـة رجال مرافقتك عبر تلك البوابة. ألم يُتفق على ذلك بينك وبين سيدي في أثناء وجوده هنا؟».

- خمسـة أو خمسـون، لا فرق. هذه الإهانة هي...

- إهانة؟ لا يقصد ابني أي إهانة. إنه يتبع الأوامر التي اتفق عليها زعيمه الإقطاعي معك. خمسـة رجال. خمسـة.

كانت الكلمة بمنزلة أمر، وأدار هירו ماستو ظهره لإيشيدو ونظر إلى ابنه: «يشرفنا الزعيم إيشيدو برغبته في تقديم الاحترام للسيدة كيريتسوبو».

كان سيف الرجل العجوز خارج غمده بمقدار خمسـة سنتيمترات ولم يكن أحد متأكدًا مما إذا كان سيقطع رأس إيشيدو إذا بدأ القتال أم يقطع رأس ابنه إذا صوب السهم. علم الجميع أنه لا توجد أي عاطفة بين الأب والابن، بل احترام متبادل لوحشية كلٍّ منهما: «حسنًا يا بني، ماذا تقول لقائد حرس الوريث؟».

كان العرق يتصبب على وجه بونتارو. وبعد لحظة تنحَّى جانبًا وأرخى قبضته على القوس. لكنه أبقى السهم مشدودًا.

لقد شاهد إيشيدو بونتارو مرات عديدة في قوائم المنافسات يطلق الأسهم على مسافة مائة وخمسين مترًا، ستة أسهم تُطلق قبل أن يصيب الأول الهدف،

وكلها بالدقة نفسها. كان ليسعد بشدة أن يأمر بالهجوم الآن ويمحو هذين الاثنين، الأب والابن، وكل البقية. لكنه أدرك أن البدء بهما وليس بتوراناجا سيكون حماقة كبيرة، وعلى أي حال، ربما عندما تندلع الحرب الحقيقية سيميل هيرو ماتسو إلى ترك توراناجا والقتال معه. قالت السيدة أوتشيبا إنها ستقترب من القبضة الحديدية العجوز عندما يحين الوقت. لقد أقسمت إنه لن يتخلّى عن الوريث أبدًا، وإنها ستجذبه إليها بعيدًا عن توراناجا، وربما تجعله يغتال سيده حتى تتجنب أي صراع. سأل إيشيدو نفسه مجددًا: ما مدى تحكمها به؟ وما السر؟ وما المعرفة التي تخفيها عنه؟ كان قد أمر بإخراج السيدة أوتشيبا من إيذو قبل اجتماع الأوصياء إذا كان ذلك ممكنًا. لن تساوي حياتها حبة أرز بعد عزل توراناجا، وهو ما اتفق عليه جميع الأوصياء الآخرين. العزل والسيبوكو الفوري، قسرًا إذا لزم الأمر. إذا هربت فهذا جيد. وإذا لم تفعل فلا يهم. سيتولى الوريث الحكم بعد ثماني سنوات.

شق طريقه عبر البوابة إلى الحديقة برفقه هيرو ماتسو ويابو. ويتبعه خمسة حراس. انحنى بأدب وتمنى لكيريتسوبو الصحة. ثم استدار وغادر مع كل رجاله بعد أن اقتنع بأن كل شيء على ما يرام.

زفر هيرو ماتسو وأخذ يحك أكوامه: «من الأفضل أن تغادر الآن يا يابو سان. لن يسبب لك يرقة الأرز هذا أي مشكلة أخرى».

- حسنًا. سأغادر على الفور.

مسحت كيري العرق عن جبينها. وبدأت دموعها تنهمر: «إنه كامى شرير. أنا خائفة على سيدنا. لا أريد الرحيل».

قال هيرو ماتسو: «لن يُلحق أي أذى بالزعيم توراناجا، أعدك بذلك يا سيدتي. يجب أن تذهبي الآن».

حاولت كيري كبت شهقاتها وفكت الحجاب السميك الذي يتدلى من حافة قبعتها العريضة: «هل يمكنك مرافقة السيدة سازوكو إلى الداخل يا يابو ساما؟ رجاء؟».

- بالطبع.

انحنت السيدة سازوكو وانطلقت مسرعة، وتبعها يابو. صعدت الفتاة الدَّرَج. ولكنها تعثرت وسقطت عندما اقتربت من القمة. صرخت ماريكو: «الطفلة! هل أُصيبت بأذى؟».

توجهت أعينهم جميعاً نحو الفتاة المطروحة على الأرض. ركضت ماريكو نحوها لكن يابو وصل إليها أولاً. وحملها. كانت سازوكو مدهوشة أكثر من كونها متألّمة. قالت وهي تلهث: «أنا بخير. لا تقلقوا، أنا بخير تمامًا. لقد كان تصرفاً أخرج مني».

عندما تأكد يابو، عاد إلى الباحة الأمامية استعداداً للمغادرة الفورية. عادت ماريكو إلى البوابة وشعرت براحة كبيرة. كان بلاكتورن يحدّق إلى الحديقة. سألت: «ما الأمر؟».

قال بعد توقف: «لا شيء. ما الذي صرخت به السيدة كيريتسوبو؟». أوضحت: «الطفلة! هل أُصيبت بأذى؟ إن السيدة سازوكو حامل. كنا جميعاً خائفين أن السقوط قد يؤذيها».

- طفلة توراناغا ساما؟

قالت ماريكو وهي تنظر إلى الهودج: «نعم».

كانت كيري الآن داخل الستائر الشفافة المغلقة، وقد أزال الحجاب عن وجهها. فكرت ماريكو وهي تعلم أنها تحاول فقط إخفاء دموعها: يا لها من مسكينة! سأكون مرعوبة بالقدر نفسه لمغادرة سيدي لو كنت مكانها.

توجهت عيناها نحو سازوكو التي لوحّت مجدداً من أعلى الدرجات ثم دخلت. أغلق الباب الحديدي خلفها بقوة. فكرت ماريكو: بدا صوته وكأنه ناقوس موت. هل سنراهم مجدداً؟

سأل بلاكتورن: «ماذا أراد إيشيدو؟».

- لقد كان... لا أعرف الكلمة الصحيحة. لقد كان يحقق... يقوم بجولة تفقدية دون سابق إنذار.

- لماذا؟

قالت غير راغبة في إخباره السبب الحقيقي: «إنه حاكم القلعة».

كان يابو على رأس القافلة يصرخ موجهاً الأوامر، ثم انطلق.

دخلت ماريكو هودجها وتركت الستائر مفتوحة جزئياً. أشار بونتارو إلى بلاكتورن بأن يتنحى جانباً. فأطاع.

انتظروا مرور هودج كيري. حذق بلاكثورن إلى الهيئة المحجوبة والمرئية جزئياً، وسمع بكاءها الخافت. كانت الخادمتان المذعورتان آسا وسونو تسيران إلى جانبها. ثم التفت مرة أخيرة. كان هيرو ماتسو يقف وحيداً بجانب الكوخ الصغير متكئاً على سيفه. الآن أغلقت الحديقة وحُجبت عن نظره حيث أغلق الساموراي الباب الحصين الضخم. استقر العارض الخشبي الضخم في مكانه. ليس هناك حراس في الباحة الأمامية الآن. كانوا جميعاً فوق الأبراج المحصنة.

سأل بلاكثورن بقلق: «ما الذي يحدث؟».

- ماذا يا أنجين سان؟

- يبدو أنهم محاصرون. البنيون يواجهون الرماديين. هل يتوقعون حدوث متاعب؟ مزيد من المتاعب؟

قالت ماريكو: «أنا آسفة. إنه من الطبيعي إغلاق الأبواب ليلاً».

بدأ يمشي إلى جانبها مع تحرك الهودج الخاص بها، حيث اتخذ بونتارو وبقية الحرس الخلفي موقعهم خلفه. كان بلاكثورن يراقب الهودج أمامه، ومشية الحاملين المتمايلة والشكل الضبابي خلف الستائر. كان مضطرباً للغاية رغم محاولته إخفاء ذلك. عندما صرخت كيريتسوبو فجأة، نظر إليها على الفور. كان الجميع ينظرون إلى الفتاة المطروحة على الدرج. دافعه هو النظر إلى هناك أيضاً لكنه رأى كيريتسوبو تندفع بسرعة مفاجئة إلى داخل الكوخ الصغير. للحظة ظن أن عينيه تخدعانه لأنه في الليل جعلها رداؤها والكمونو الداكن وقبعتها الداكنة وحجابها الداكن غير مرئية تقريباً. شاهد حيث اختفت الهيئة للحظة ثم ظهرت مجدداً واندفعت نحو الهودج وأغلقت الستائر بقوة. للحظة التقت أعينهم. لقد كان توراناغا.



الفصل الثاني والعشرون

الموكب الصغير الذي يحيط بالهودجين تحرك ببطء عبر متاهة القلعة وعبر نقاط التفتيش المستمرة. حيث في كل مرة ينحنون برسمية، وتُفحص المستندات بدقة من جديد، ويتولى قائد جديد ومجموعة من الرمايين المرافقين مهمة مرافقتهم، ثم يُسمَح لهم بالمرور. عند كل نقطة تفتيش كان بلاكتورن يراقب بقلق متزايد وهو يرى قائد الحرس يقترب للتدقيق في الستائر المسدلة لهودج كيريتسوبو. في كل مرة كان الرجل ينحني بأدب أمام الهيئة النصف مرئية، ويسمع النحيب المكتوم، وبمرور الوقت يلوح لهم للمضي قدماً مجدداً.

كان بلاكتورن يسأل نفسه بياس: من يعلم أيضاً؟ لا بد أن الخادما يعرفن، وهذا يفسر سبب خوفهن الشديد. كان هيرو ماتسو يعلم بالتأكيد، والسيدة سازوكو الطُعم، بالتأكيد. ماريكو؟ لا أظن ذلك. يابو؟ هل سيثق به توراناغا؟ ذلك المجنون الذي بلا عنق بونتارو؟ على الأرجح لا.

من الواضح أن هذه محاولة هروب سرية للغاية. فكر بلاكتورن متمنياً لو كانوا بأمان ويبحرون على متن القادس: ولكن لماذا يخاطر توراناغا بحياته خارج القلعة؟ أليس هو أكثر أماناً في الداخل؟ لماذا السرية؟ من الذي يهرب منه؟ إيشيدو؟ القتل؟ أم شخص آخر في القلعة؟ على الأرجح جميعهم. إذا اكتُشِفَ توراناغا فستنهال عليهم المصائب، وسيكون القتال حتى الموت ولن تُطلب أو تُمنح أي رحمة. أنا أعزل، وحتى لو كان لدي مسدسان أو مدفع عشرون رطلاً ومائة رجل عدواني، فإن الرمايين سيغرقوننا. ليس لدي مكان أهرب إليه ولا مكان للاختباء. إنها ورطة بغض النظر عن الطريقة التي تراها بها.

سألت ماريكو بلطف: «هل أنت متعب يا أنجين سان؟ إذا أردت، سأمشي ويمكنك الركوب».

أجاب بمرارة مفتقدًا حذاءه، فهو لا يزال ينتعل النعال غير المريح: «شكرًا لك. ساقاي بخير. كنت أتمنى فقط أن نكون بأمان في عرض البحر، هذا كل شيء».

- هل البحر آمن دائمًا؟

- أحيانًا يا سيدتي. ليس دائمًا.

بالكاد سمع بلاكثورن صوته. فقد كان يفكر: يا إلهي، أمل ألا أكشف أمر تورانا. سيكون ذلك فظيعة. لكن الأمر أسهل بكثير لو لم أره. لقد كان مجرد حظ سيئ، واحدة من تلك الحوادث التي يمكن أن تعطل مخططًا خُطِّطَ له ونُفِّذَ بمثالية. إن المرأة العجوز كيريتسوبو ممثلة رائعة، والشابة أيضًا. كان سبب عدم انخداعي بالحيلة هو أنني لم أفهم ما صرخت به. لسوء الحظ أنني رأيت تورانا. بوضوح مرتديًا شعرًا مستعارًا وواضحةً مساحيق التجميل ويرتدي كيمونو وراءً تمامًا مثل كيريتسوبو، لكنه لا يزال تورانا. عند نقطة التفتيش التالية، اقترب قائد الرمايين الجديد أكثر من أي وقت مضى، وانحنى الخادمتان بدموع في أعينهما وأعاقتا طريقه دون محاولة الظهور وكأنهما تعيقان طريقه. نظر القائد إلى بلاكثورن ثم توجه صوبه. بعد تدقيق مريب، تحدث مع ماريكو التي هزت رأسها وأجابه. همهم الرجل وعاد إلى يابو، وأعاد الوثائق وأشار للموكب بالاستمرار.

سأل بلاكثورن: «ماذا قال؟».

- لقد تساءل من أين أنت... أين منزلك.

- ولكنك هزيت رأسك. كيف كان هذا إجابة؟

قالت: «عذرًا، لقد قال... تساءل عما إذا كان أسلاف شعبك البعيدين مرتبطين بالكامي-الروح- الذي يعيش في الشمال، على مشارف الصين. كنا نعتقد حتى وقت قريب جدًا أن الصين هي المكان المتحضر الوحيد الآخر على الأرض، باستثناء اليابان، نعم؟ الصين هائلة لدرجة أنها تشبه العالم نفسه». أغلقت الموضوع. في الواقع لقد سأل القائد عما إذا كانت تعتقد أن هذا الهمجي ينحدر من هاريمواكيري، الكامي الذي يعتني بالقطط، مضيفًا أنه كرية الرائحة كحيوان الظربان في موسم التزاوج، كما يفترض أن تكون رائحة الكامي.

أجابت بأنها لا تعتقد ذلك، وقد شعرت بالخجل في داخلها من وقاحة القائد لأن أنجين سان ليس له رائحة كريهة مثل تسوكو سان أو الأب الزائر أو الهمج العاديين. كانت رائحته تكاد تكون غير ملحوظة الآن.

عرف بلاكتورن أنها لم تكن صديقة معه. فكر: أتمنى لو أستطيع التحدث بلغتهم الغربية. وأتمنى أكثر أن أتمكن من مغادرة هذه الجزيرة الملعونة والعودة إلى سفينة إيراسموس، مع طاقم كامل ومؤونة وفيرة من الطعام والشراب والبارود والرصاص، وبعد أن نكون قد بعنا بضاعتنا ونعود إلى الوطن مجددًا. متى سيحدث ذلك؟ قال توراناغا قريبًا. هل يمكن الوثوق به؟ كيف نقل السفينة إلى إيدو؟ هل جرها؟ هل أبحرها البرتغاليون؟ أتساءل كيف حال رودريجيز. هل تعفنت ساقه؟ لا بد أنه يعلم الآن ما إذا كان سيعيش بساقين أو بساق واحدة - إذا كان البتر لن يقتله - أو إذا كان سيموت. يا يسوع في السماء، احميني من الجروح ومن جميع الأطباء. ومن الكهنة.

نقطة تفتيش أخرى. بغض النظر عن محاولات بلاكتورن فإنه لم يستطع فهم كيف يمكن للجميع أن يظلوا مهذبين وصابرين، ينحنون دائمًا ويسمحون بتسليم الوثائق واستعادتها، ويبتسمون دائمًا ولا تظهر أي علامة على الانزعاج على أي من الجانبين. إنهم مختلفون جدًا عنا.

ألقي نظرة على وجه ماريكو الذي كان مخفيًا جزئيًا خلف حجابها وقبعتها العريضين. فكر بأنها تبدو جميلة جدًا وكان سعيدًا لأنه ناقشها حول خطئها. قال لنفسه: على الأقل لن أضطر إلى تحمّل المزيد من هذا الهراء. يا لهم من غربيي أطوار أوغاد، كلهم أوغاد ملطخين بالدماء.

بعد أن قبل اعتذارها صباحًا، بدأ يسألها عن إيدو والعادات اليابانية وعن إيشيدو والقلعة. لقد تجنّب موضوع الجماع. وقد أجابت هي باستفاضة لكنها تجنبت أي تفسيرات سياسية وكانت إجاباتها مفيدة لكنها غير ضارة. وسرعان ما غادرت هي والخادمتان للاستعداد لرحيلها، وبقي وحيدًا مع الحراس الساموراي.

كونه محاصرًا برفقتهم طوال الوقت كان يجعله متوترًا. فكر: يوجد دائمًا أحدهم حولي، يوجد الكثير منهم. إنهم كالنمل. أرغب في الحصول على السلام الذي يوفره باب مغلق من خشب البلوط، ويكون قفل الباب من جهتي وليس جهتهم. لا أطيع الانتظار للعودة على متن السفينة مجددًا، إلى الهواء الطلق، وإلى عرض البحر. حتى على متن تلك القادس المثيرة للاشمئزاز.

في أثناء سيره الآن عبر قلعة أوساكا، أدرك أن توراناغا سيكون في بيئته الخاصة، في البحر، حيث هو نفسه الملك. سيكون لدينا متسع من الوقت للحديث، وستترجم ماريكو كل شيء وسأسوي كل شيء. اتفاقيات التجارة والسفينة وإعادة الفضة لنا، والدفع إذا أراد التجارة بالبنادق والبارود. سأقوم بترتيبات للعودة العام المقبل بشحنة كاملة من الحرير. ما حدث للراهب دومينجو كان أمرًا فظيئًا، لكنني سأستفيد من معلوماته جيدًا. سأستقل إيراسموس وأبحر بها عبر نهر اللؤلؤ إلى كانتون وسأكسر الحصار البرتغالي والصيني. أعد لي سفينتي وسأصبح غنيًا. أغنى من دريك. عندما أعود إلى الوطن سأتواصل مع جميع البحارة من بليموث إلى زاو ديرزي وسنسيطر على التجارة في كل آسيا. وسأخصي دريك في ذات المكان حيث أحرق لحية فيليب. فدون الحرير ستموت ماكاو، ودون ماكاو ستموت ملقا، ثم جوا. يمكننا طوي الإمبراطورية البرتغالية مثل البساط. «هل تريد تجارة الهند يا جلالة الملك؟ إفريقيا؟ آسيا؟ اليابان؟ إليك الطريقة التي يمكنك من خلالها تحقيق ذلك في غضون خمس سنوات».

- انهض يا سيد جون.

نعم، كان لقب سيد في متناول اليد، أخيرًا وبعد طول انتظار. وربما أكثر. أصبح القباطنة والملاحون أمراء وفرسانًا وزعماء وحتى إيرلات. الطريقة الوحيدة لرجل إنجليزي من عامة الشعب لتحقيق الأمان، الأمان الحقيقي للمكانة داخل المملكة، كانت من خلال خدمة الملكة، باركها الرب. والطريق إلى رضاها هو جلب الكنوز لها لمساعدتها في دفع تكاليف الحرب ضد إسبانيا النتنة، وهذا البابا الوغد.

فكر بلاكثورن بشماته: ثلاث سنوات ستمنحني ثلاث رحلات، أنا أعلم عن الرياح الموسمية والعواصف الكبرى، لكن إيراسموس ستبحر بعكس اتجاه الرياح وسنشحن كميات أصغر. انتظر دقيقة... لماذا لا تقوم بالمهمة على أكمل وجه وتنسى الكميات الصغيرة؟ لماذا لا نأخذ السفينة السوداء لهذا العام؟ حينها ستحصل على كل شيء.

كيف؟

بسهولة، إذا لم تكن لديها سفن حراسة واستولينا عليها على حين غرة. ولكن ليس لدي ما يكفي من الرجال. لحظة، يوجد رجال في ناجازاكي! أليس هذا هو المكان الذي يوجد فيه جميع البرتغاليين؟ ألم يقل دومينجو إنها تشبه

ميناء برتغالي تقريباً؟ وقال رودريجز الشيء نفسه. ألا يوجد دائماً بحارة مجبورون على الصعود إلى متن سفنهم، ودائماً على استعداد للقفز من السفينة لتحقيق ربح سريع بمفردهم، بغض النظر عن أيّ كان القبطان أو العلم؟ يمكنني تعيين طاقم مع وجود إيراسموس وفضتنا. أعلم أنني أستطيع. لست بحاجة إلى ثلاث سنوات. امان سيكونان كافيين. امان آخران مع سفينتي وطاقم، ثم سأوجه إلى الوطن. سأصبح غنياً وشهيراً. وسنفترق أنا والبحر، أخيراً وبعد طول انتظار. للأبد.

توراناجا هو المفتاح. كيف ستتعامل معه؟

اجتازوا نقطة تفتيش أخرى، وانعطفوا حول الزاوية. كانت توجد في المقدمة البوابة الحديدية الأخيرة والمدخل الأخير للقلعة المحصنة، وفي الخلف الجسر المتحرك الأخير والخندق الأخير. على الجانب الآخر كانت النقطة الحصينة النهائية. عدد كبير من المشاعل حوّل الليل إلى نهار قرمزي. ثم خرج إيشيدو من الظلال.

رأه البنيون في اللحظة نفسها تقريباً. اجتاحهم العداء. كاد بونتارو يقفز بجوار بلاكثورن ليقترّب من مقدمة القافلة.

قال بلاكثورن: «هذا الوغد يتوق إلى القتال».

- سيدي؟ معذرة يا سيدي، ماذا قلت؟

- فقط... قلت إن زوجك يبدو... يبدو أن إيشيدو يثير غضبه بشدة وبسرعة كبيرة.

لم تقدم أي رد.

توقف يابو. وبلا مبالاة قدم تصريح المرور إلى قائد البوابة وتقدم نحو إيشيدو: «لم أتوقع رؤيتك مجدداً، إن حراسك أكفاء جداً».

- شكراً لك.

كان إيشيدو يراقب بونتارو والهودج المغلق خلفه.

قال بونتارو، وصليل أسلحته منذر بالشؤم: «يجب أن تكون مرة واحدة كافية للتحقق من تصريحنا. مرتين على الأكثر. من نحن... طرف في حرب؟ هذا مهين».

- لم أقصد أي إهانة يا بونتارو سان. أمرت بتشديد الأمن بسبب القاتل.

حقوق إيشيدو في بلاكتورن لفترة وجيزة وتساءل مجدداً عما إذا كان يجب أن يتركه يذهب أم يحتجزه كما يريد أونوشي وكياما. ثم نظر إلى بونتارو مجدداً. فكر: حثالة! سيوضع رأسك على رأس رمح قريباً. كيف يمكن لامرأة جميلة مثل ماريكو أن تظل متزوجة من فرد مثلك؟

كان القائد الجديد يفحص الجميع بدقة ويتأكد من أنهم يتطابقون مع القائمة. قال وهو يعود إلى مقدمة القافلة: «كل شيء على ما يرام يا يابو ساما، لا تحتاج إلى تصريح المرور بعد الآن. سنحتفظ به هنا».

- جيد.

التفت يابو إلى إيشيدو وأضاف: «سنلتقي قريباً».

أخرج إيشيدو لفافة من الورق من كمه: «أردت أن أطلب من السيدة كيريتسوبو إذا كان بإمكانها أن تأخذ هذا معها إلى إيدو. لابنة أخي. فمن غير المحتمل أن أذهب إلى إيدو لبعض الوقت».

مد يابو يده قائلاً: «بالتأكيد».

سار إيشيدو نحو الهودج: «لا ترعج نفسك يا يابو سان. سأسألها بنفسي».

اعترضته الخادمتان بخنوع. مدت آسا يدها: «هل يمكنني أن آخذ الرسالة يا سيدي. إن سيدتي...».

- لا.

لمفاجأة إيشيدو وجميع من في الجوار، لم تتحرك الخادمتان بعيداً عن الطريق.

- ولكن سيدتي...

زمجر بونتارو: «تحركا».

تراجعت كلتا الخادمتين بتواضع شديد، وهما تشعران بالخوف الآن.

انحنى إيشيدو للستار: «يا كيريتسوبو سان، أتساءل عما إذا كنت ستفضلين بحمل هذه الرسالة معك إلى إيدو؟ إلى ابنة أخي؟».

كان هناك تردد بسيط بين النحيب وانحنى الهيئة بالموافقة.

- شكراً لك.

رفع إيشيدو اللفافة الصغيرة على بعد سنتيمترين من الستائر.

توقف النحيب. وأدرك بلاكتورن أن تورانا جا محاصر. يفرض الأدب أن يأخذ تورانا جا اللفافة وحينها يمكن أن تكشفه يده.

انتظر الجميع ظهور اليد.

- كيريتسوبو سان؟

لا يوجد حتى الآن أي تحرك. ثم تقدم إيشيدو بخطى سريعة إلى الأمام، وأزاح الستائر جانبًا، وفي اللحظة نفسها أطلق بلاكتورن صيحة وبدأ يرقص صعودًا وهبوطًا كالمجنون. استدار إيشيدو والآخرين نحوه مذهولين.

للحظة كان تورانا جا على مرأى الجميع خلف إيشيدو. فكر بلاكتورن أنه ربما يمكن اعتبار تورانا جا كيريتسوبو على بعد عشرين خطوة، لكن كان الأمر مستحيلًا هنا على بعد خمس خطوات، رغم أن الحجاب يغطي وجهه. وفي أثناء تلك الثانية التي لا تنتهي أبدًا قبل أن يغلق تورانا جا الستائر مجددًا، علم بلاكتورن أن يابو قد تعرف عليه، وماريكو بالتأكيد، وبونتارو على الأرجح، وربما بعض الساموراي. اندفع إلى الأمام وأمسك باللفافة ودفعها عبر شق في الستائر واستدار وهو يتلعثم قائلاً: «إنه سوء حظ في بلدي أن يقدم أمير رسالة بنفسه مثل لقيط من العامة... سوء حظ...».

لقد حدث كل شيء فجأة وبسرعة كبيرة لدرجة أن سيف إيشيدو لم يكن مسلولاً حتى انحنى بلاكتورن وأصبح يهذي أمامه مثل لعبة عفريت العلبة، ثم سيطرت عليه ردود فعله ووجه السيف نحو حلقه.

وجدت عينا بلاكتورن اليائستان ماريكو: «بحق المسيح، ساعديني... سوء حظ... سوء حظ».

صرخت. وتوقف النصل على بعد شعرة من رقبته. شرحت ماريكو ما قاله بلاكتورن. خفض إيشيدو سيفه واستمع لحظة ثم قاطعها بغضب شديد، ثم صرخ بغضب متزايد وضرب بلاكتورن على وجهه بظهر يده.

جن جنون بلاكتورن. قبض على قبضتيه الضخمتين وألقى بنفسه على إيشيدو.

لولا يابو الذي كان سريعًا بما يكفي للقبض على ذراع إيشيدو الممسكة بالسيف، لكان رأس بلاكتورن يتدحرج في التراب. بعد جزء من الثانية أمسك بونتارو ببلاكتورن الذي كان قد وضع يديه بالفعل حول حلق إيشيدو. استغرق الأمر أربعة من البنين لسحبه بعيدًا عن إيشيدو، ثم ضربه بونتارو

بقوة على مؤخرة عنقه، مما أذهله. قفز الرماذيون للدفاع عن سيدهم، لكن ذوي الزي البني أحاطوا ببلاكثورن والهودجين، وللحظة كانت ستحدث مواجهة، وكانت ماريكو والخادما ينتحبن ويبكين عمداً مما ساعد على خلق مزيد من الفوضى والتشتت.

بدأ يابو في استرضاء إيشيدو، وكررت ماريكو باكية مراراً وتكراراً في هستيريا مصطنعة أن الهمجي المجنون يعتقد أنه كان يحاول فقط إنقاذ إيشيدو، القائد العظيم -الذي اعتقد أنه أمير- من كامى شرير. قالت: «إن لمس الوجه يعد أسوأ إهانة لهم، تماماً مثلنا، هذا ما جعله يجن للحظات. إنه همجي أحرق ولكنه داييمو في بلاده وكان يحاول فقط مساعدتك يا سيدي». ثار إيشيدو وركل بلاكثورن الذي كان يستعيد وعيه للتو. سمع بلاكثورن الضجة بهدوء شديد. واتضح نظره. كان الرماذيون يحيطون بهم، بمعدل عشرين مقابل واحد، وسيوفهم مسلولة، لكن حتى الآن لم يمت أحد وكان الجميع ينتظرون في انضباط.

رأى بلاكثورن أن كل الاهتمام كان عليه. لكنه الآن يعلم أن لديه حلفاء. استدار إيشيدو نحوه مجدداً واقترب منه وهو يصرخ. شعر بتشديد قبضة البنين وعلم أن الضربة قادمة، لكن هذه المرة وبدلاً من محاولة مقاومة قبضتهم كما توقعوا، بدأ ينهار، ثم استقام على الفور وتحرر من قبضتهم وهو يضحك بجنون، وبدأ يرقص رقصة البحارة بهستيرية. أخبره الراهب دومينجو أن الجميع في اليابان يعتقد أن الجنون سببه كامى فقط، وبالتالي فإن المجانين هم مثل جميع الأطفال الصغار والشيوخ، ليسوا مسؤولين ويتمتعون بامتيازات خاصة في بعض الأحيان. لذلك راح يقفز بجنون، ويغني متناغماً مع كلامه لماريكو: «ساعديني... أنا بحاجة إلى مساعدة رجاء... لا أستطيع الاستمرار في هذا لفترة أطول... ساعديني...».

كان يتظاهر بالجنون بيأس، مدرّكاً أنه الشيء الوحيد الذي قد ينقذهم. صاحت ماريكو حالماً أدركت حيلة بلاكثورن: «إنه مجنون... ممسوس...».

- نعم.

قال يابو وهو لا يزال يحاول التعافي من صدمة رؤية توراناغا، ولا يعلم بعد ما إذا كان أنجين سان يمثل أم أنه أصيب بالجنون حقاً.

كادت ماريكو تفقد صوابها. لم تكن تعلم ما يجب عليها فعله. ظلت تردد نفسها بلا شعور: أنجين سان أنقذ الزعيم تورانا، لكن كيف علم؟ كان وجه بلاكتورن صاحبًا باستثناء الندبة القرمزية الناتجة عن الضربات. رقص بلا توقف منتظرًا المساعدة بقلق ولكن لم يبادر أحد. ثم توقف عن الرقص فجأة وهو يلعن يابو وبونتارو بصمت لكونهما جبناء وماريكو لكونها غبية، وانحنى لإيشيدو مثل دمية متشنجة، وتقدم نحو البوابة بمزيج من المشي والرقص. صاح وصوته يكاد يخنقه، محاولاً قيادة الطريق كعازف مزمار: «اتبعوني، اتبعوني».

اعترض الرماديون طريقه. زأر بغضب مصطنع وأمرهم بخطرسة بالابتعاد عن طريقه، ثم انفجر ضاحكًا بهستيرية على الفور.

أمسك إيشيدو القوس والسهم. وتفرق الرماديون. كان بلاكتورن على وشك المرور عبر البوابة. استدار لمواجهة مصيره مدرّكًا أنه لا جدوى من الهرب. وبدأ رقصه الجنوني مجددًا بعجز.

كان صوت إيشيدو أجش، شد وتر القوس ووجهه: «إنه مجنون، كلب مجنون. ويجب التعامل مع الكلاب المجنونة».

قفزت ماريكو على الفور من موقعها الوقائي بالقرب من هودج تورانا، وبدأت تسير نحو بلاكتورن. وصاحت: «لا تقلق يا زعيم إيشيدو. لا يوجد داعٍ للقلق... إنه جنون مؤقت... هل يُسمح لي...».

وعندما اقتربت تمكنت من رؤية إرهاب بلاكتورن والابتسامة المجنونة الثابتة، فخافت رغماً عنها. قالت على عجل: «بإمكاني المساعدة الآن يا أنجين سان، يجب علينا محاولة... الخروج. سأتبعك. لا تقلق، فهو لن يطلق علينا النار. رجاءً توقف عن الرقص الآن».

توقف بلاكتورن على الفور واستدار متجهًا بهدوء نحو الجسر. وهي تبعته على بعد خطوة كما جرت العادة، تتوقع السهام وتسمع صوتها. راقبت ألف عين، المجنون العملاق والمرأة الصغيرة على الجسر وهما يبتعدان.

عاد يابو إلى رشده قائلاً: «إذا كنت تريد قتله، فدعني أفعل ذلك يا إيشيدو ساما. من غير اللائق أن تقتله. القائد لا يقتل بيديه. يجب أن يقتله الآخرون نيابةً عنه».

اقترب جدًا وخفض صوته مضيئًا: «اتركه على قيد الحياة. لقد أصابه الجنون من ضربتك. إنه دايميو في بلاده، والضربة... كانت كما قالت ماريكو سان، أليس كذلك؟ ثق بي، إنه ذو قيمة لنا حيًّا».

- ماذا؟

- إنه أكثر قيمة حيًّا. ثق بي. يمكنك قتله في أي وقت. لكننا نحتاجه حيًّا. قرأ إيشيدو اليأس والحقيقة على وجه يابو. خفض القوس. قال: «حسنًا. لكن سأريده حيًّا يومًا ما. سأعلقه من كاحليه فوق الحفرة».

ابتلع يابو ريقه وانحنى نصف انحناء. وأشار بتوتر للموكب بالمضي قدمًا، خوفًا من أن يتذكر إيشيدو الهودج و«كيريتسوبو».

بادر بونتارو بالتحرك متظاهرًا بالاحترام وأمر البنين بالانطلاق. لم يشك في حقيقة ظهور توراناجا فجأة بينهم مثل كامى، بل اهتم فقط بحقيقة أن سيده معرض للخطر وكونه أعزل تقريبًا. رأى أن إيشيدو لم يرفع عينيه عن ماريكو وأنجين سان، لكنه انحنى له باحترام رغم ذلك ووضع نفسه خلف هودج توراناجا لحماية سيده من أي سهام إذا بدأ القتال هنا.

تقترب القافلة الآن من البوابة. تولى يابو مكانه كحارس خلفي وحيد. توقع أن يتوقف الموكب في أي لحظة. فكر في أنه بالتأكيد قد رأى بعض الرماحيين توراناجا. كم سيستغرق الأمر قبل أن يخبروا إيشيدو؟ ألن يعتقد أنني كنت جزءًا من محاولة الهروب؟ ألن يدمرني هذا إلى الأبد؟

التفتت ماريكو للخلف للحظة في منتصف الطريق عبر الجسر. وقالت: «إنهم يتبعوننا يا أنجين سان، كلا الهودجين قد تجاوزا البوابة وهما الآن على الجسر».

لم يجب بلاكثورن أو يلتفت للخلف. لقد استلزم الأمر كل ما تبقى من إرادته للبقاء واقفًا. لقد فقد نعاله، ووجهه يحترق من الضربة، ورأسه يخفق من الألم. سمح له آخر الحراس بالمرور عبر البوابة وخارجها. كما سمحوا لماريكو بالمرور دون توقف. ثم الهودجين.

قاد بلاكثورن الطريق إلى أسفل التل المنحدر، متجاوزًا الأرض العراء وعبر الجسر البعيد. وفقط عندما كان في منطقة غابة بعيدة تمامًا عن أنظار القلعة، انهار.

الفصل الثالث والعشرون

- أنجين سان... أنجين سان.

سمح لماريكو وهو شبه واع بمساعدته على شرب القليل من الساكي. توقف الموكب، حيث اصطف البنيون بإحكام حول الهودج المغطى بالستائر، والرماديون المرافقون أمامهم وخلفهم. صرخ بونتارو على إحدى الخادמות التي أحضرت على الفور القارورة من إحدى حقائب الأمتعة، وطلب من حراسه الشخصيين إبعاد الجميع عن هودج «كيريتسوبو سان»، ثم هرع إلى ماريكو: «هل أنجين سان بخير؟».

أجابت ماريكو: «نعم، نعم، أعتقد ذلك».

انضم إليهم يابو.

قال يابو بلا مبالاة في محاولة للتخلص من قائد الرمايين: «يمكننا المتابعة يا قائد. سنترك بضعة رجال وماريكو سان. يمكن لها وللرجال اللحاق بنا عندما يتعافى الهمجي».

أخبره القائد: «بكل احترام يا يابو سان، سننتظر. لقد كلفت بإيصالكم جميعًا بأمان إلى القادس. كمجموعة واحدة».

نظر الجميع إلى الأسفل عندما اختنق بلاكثورن قليلاً من النبيذ. قال بصوت أجش: «شكراً لك. هل نحن بأمان الآن؟ من يعلم أيضاً أن...».

قاطعته عمدًا وحذرتة بعينيها بينما كان ظهرها موجهًا نحو القائد: «أنت بأمان الآن يا أنجين سان، أنت بأمان الآن ولا يوجد داعٍ للقلق. هل تفهم؟ لقد أصابتك نوبة ما. فقط انظر حولك... أنت بأمان الآن».

فعل بلاكثورن كما أمرت. رأى القائد والرماديين وفهم. كان يستعيد قوته بسرعة الآن بمساعدة الساكي: «أنا آسف يا سيدتي. أعتقد أنه كان مجرد زعر. ربما أنا أتقدم في العمر. أصاب بالجنون كثيرًا ولا أتذكر أبدًا ما يحدث بعد ذلك. إن التحدث بالبرتغالية مرهق، أليس كذلك؟».

تحول إلى اللغة اللاتينية وأضاف: «هل تستطيعين فهمي؟».

- بالتأكيد.

- هل هذه اللغة «أسهل»؟

قالت شاعرة بالراحة لإدراكه الحاجة إلى الحذر: «ربما».

حتى إنه استخدم اللغة اللاتينية والتي كانت بالنسبة لليابانيين لغة غير مفهومة تقريبًا ولا يمكن تعلمها إلا من قبل عدد قليل من الرجال في الإمبراطورية، والذين كانوا جميعًا مدربين من قبل اليسوعيين ومكرسين بالكامل لجمعية الكهنة. كانت المرأة الوحيدة في عالمهم التي تستطيع التحدث والقراءة والكتابة باللاتينية والبرتغالية. قالت: «كلتا اللغتين صعبة، ولكل منهما أخطار».

- من يعلم أيضًا بـ«الأخطار»؟

- زوجي، وهو من يقودنا.

- هل أنت متأكدة؟

- أشار كلاهما إلى ذلك.

تحرك قائد الرمادين بقلق وقال شيئًا لماريكو.

- إنه يسأل عما إذا كنت لا تزال تشكل خطرًا، وإذا كان يجب تقييد يديك وقدميك. قلت لا. لقد شفيت الآن من شللك.

قال عائدًا إلى اللغة البرتغالية: «نعم، أصاب بالنوبات في كثير من الأحيان. إذا ضربني أحدهم في وجهي فهذا يجعلني أجن. أنا آسف. لا يمكنني قط تذكر ما يحدث خلالها. إنه قضاء الرب».

رأى أن القائد يركز على شفتيه وفكر: لقد كشفتك أيها الوغد، أراهن أنك تفهم البرتغالية.

انحنى سوني الخادمة برأسها بالقرب من ستائر الهودج. استمعت ثم عادت إلى ماريكو.

- معذرة يا ماريكو ساما، لكن سيدتي تسأل عما إذا كان المجنون على ما يرام بما يكفي لمواصلة المسيرة؟ تسأل عما إذا كنت ستمنحينه هودجك لأن سيدتي تشعر بأننا يجب أن نسرع بسبب المد. كل المتاعب التي سببها المجنون جعلتها أكثر انزعاجًا. ولكن بسبب علمها بأن

المجانين هم فقط من ابتلتهم الآلهة، فإنها ستصلي من أجل تعافيه،
وستعطيه الأدوية بنفسها لعلاج فور صعودنا إلى متن السفينة.
ترجمت ماريكو.

نهض بلاكثورن وترنح على قدميه: «نعم. أنا بخير الآن».

- يقول يابو سان إنك ستركب الهودج يا أنجين سان.

ابتسمت ماريكو عندما بدأ بالاحتجاج وأضافت: «أنا حقًا قوية جدًا ولا
داعي للقلق، سأسير بجانبك حتى تتمكن من التحدث إذا كنت ترغب في ذلك».
سمح لنفسه بأن يُساعد للدخول إلى الهودج. ثم انطلقوا مجددًا على
الفور. كانت حركة الهودج مريحة فاستلقى منهكًا. انتظر حتى ابتعد قائد
الرماديين بخطى واسعة إلى مقدمة الموكب، ثم همس باللاتينية محذرًا إياها:
«هذا القائد يفهم اللغة الأخرى».

بادلته الهمس بالهدوء نفسه: «نعم. وأعتقد أنه يفهم بعض اللاتينية
أيضًا».

مشت للحظة ثم أضافت: «بجدية أنت رجل شجاع. أشكرك لإنقاذه».

- لقد تحليت أنتِ بشجاعة أكبر.

- لا، بل وضع الإله قدميَّ على الطريق، وجعلني مفيدة قليلًا. أشكر
مجددًا.

كانت المدينة ليلاً كدنيا الخيال. كان لدى المنازل الثرية عديدٌ من الفوانيس
الملونة المضاءة بالزيت والشموع، معلقة فوق مداخلها وفي حدائقها، بينما
كانت أبواب الشوجي تعطي إشراقًا شفافًا جميلًا. حتى المنازل الفقيرة
كانت مبهجة بسبب الشوجي. أضاءت الفوانيس طريق المشاة والحمالين
والساموراي الذين يركبون الخيول.

- نحن نحرق الزيت للمصابيح في المنازل وكذلك الشموع، ولكن مع
حلول الليل يذهب معظم الناس للنوم.

شرحت ماريكو وهما يمضيان عبر شوارع المدينة المتعرجة والملتوية،
بينما ينحني المارة وأشد الفقر منهم يجثون على ركبهم حتى يمروا، والبحر
يتلألأ تحت ضوء القمر.

- الأمر نفسه لدينا أيضًا. كيف تطبخون؟ على موقد حطب؟

استعداد بلاكتورن قوته بسرعة ولم يعد يشعر أن قدميه كالهلام. لقد رفضت استعادة الهودج لذلك استلقى هناك مستمتعاً بالهواء والمحادثة.

- نستخدم موقد الفحم. لا نتناول الطعام كما تفعلون أنتم، لذا فإن طهي الطعام لدينا أبسط. فقط الأرز وبعض السمك، إما نيئاً أو مطهوّاً على الفحم مع صلصة حارة وخضراوات مخلّلة، وربما القليل من الحساء. لا لحوم... لا لحوم على الإطلاق. نحن شعب مقتصد، يجب أن نكون كذلك لأنه لا يمكن زراعة سوى مساحة قليلة جداً من أرضنا، ربما خمس تربتنا صالحة للزراعة. ونحن عددنا كبير. يعد الاقتصاد فضيلة لدينا، حتى في كمية الطعام التي نتناولها.

- أنتِ شجاعة. أشكرك. لم تطلّق السهام بسبب حمايتك لي من الخلف.

- لا يا قبطان السفن. لقد حدث ذلك بمشيئة الرب.

- أنتِ شجاعة وجميلة.

سارت بصمت للحظة. فكرت: لم يسبق لأحد أن وصفني بالجميلة من قبل... لا أحد. قالت: «لستُ شجاعة ولستُ جميلة. السيوف جميلة. والشرف جميل».

- الشجاعة جميلة وأنتِ تملكينها بوفرة.

لم تحب ماريكو. كانت تتذكر هذا الصباح وجميع الكلمات والأفكار الشريرة. كيف يمكن لرجل أن يكون شجاعاً وغيبياً، لطيفاً وقاسياً، دافئاً وبغيضاً. كل ذلك في الوقت نفسه؟ لقد تحلّى أنجين سان بشجاعة لا حدود لها لإبعاد انتباه إيشيدو عن الهودج، وكان ذكياً تماماً في تظاهره بالجنون وبالتالي إبعاد توراناغا عن الفخ. كم كان توراناغا حكيماً بالهروب بهذه الطريقة! حذرت نفسها: ولكن كوني حذرة يا ماريكو. فكري في توراناغا وليس في هذا الغريب. تذكرني شره وأوقفي شعور الدفء الذي لم تشعر به من قبل، الدفء الذي تتحدث عنه المحظيات وتصفه كتب القصص وكتب العلاقات.

قالت: «نعم، الشجاعة جميلة وأنت تملكها بوفرة».

ثم عادت إلى البرتغالية مجدداً: «اللاتينية لغة مرهقة للغاية».

- هل تعلمتها في المدرسة؟

- لا يا أنجين سان، لقد حدث ذلك لاحقًا. بعد زواجي عشت في أقصى الشمال لفترة طويلة. كنت وحيدة باستثناء الخدم والقرويين، ولم أكن أملك سوى الكتب البرتغالية واللاتينية، بعض كتب قواعد اللغة والكتب الدينية، والكتاب المقدس. كان تعلم اللغات يساعد على قضاء الوقت جيدًا ويشغل ذهني. لقد كنت محظوظة جدًا.

- أين كان زوجك؟

- في الحرب.

- كم من الوقت كنت وحيدة؟

- لدينا مقولة مفادها أن الوقت ليس له مقياس معين، يمكن أن يكون الوقت مثل الصقيع أو البرق أو الدمعة أو الحصار أو العاصفة أو الغروب، أو حتى مثل الصخرة.

أخبرها: «هذا قول حكيم. لغتك البرتغالية جيدة جدًا يا سيدتي. وكذلك اللاتينية. أفضل من لغتي».

- لديك لسان معسول يا أنجين سان.

- إنها الحقيقة.

قالت دون غرور: «الحقيقة كلمة جيدة. الحقيقة هي أنه في يوم من الأيام أتى أب مسيحي إلى القرية. كنا مثل روحين تائهتين. مكث لأربع سنوات وساعدني كثيرًا. أنا سعيدة لأنني أستطيع التحدث جيدًا، أراد والدي أن أتعلم اللغات».

- لماذا؟

- كان يعتقد أنه يجب أن نعرف الشيطان الذي يتعين علينا التعامل معه.

- كان رجلًا حكيمًا.

- لا. ليس حكيمًا.

- لماذا؟

- سأخبرك القصة يومًا ما. إنها محزنة.

- لماذا كنت وحيدة لفترة طويلة؟

- لماذا لا ترتاح؟ لا يزال أمامنا طريق طويل.

- هل تريدين ركوب الهودج؟

حاول النهوض مجددًا لكنها هزت رأسها.

- لا، شكرًا لك. رجاءً ابقَ حيث أنت. أنا أستمتع بالمشي.

- حسنًا. لكن هل لا ترغبين في التحدث بعد الآن؟

- يمكننا التحدث إذا كان ذلك يرضيك. ماذا تريد أن تعرف؟

- لماذا كنتِ وحيدة لفترة طويلة؟

- أرسلني زوجي بعيدًا. لقد أساء وجودي إليه. كان محققًا تمامًا في فعل ذلك. لقد شرفني بعدم تطليقي. ثم شرفني أكثر بقبولي أنا وابنتنا مجددًا.

نظرت إليه ماريكو وأضافت: «ابني يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا. أنا حقًا سيدة عجوز».

- لا أصدقك يا سيدتي.

- إنها الحقيقة.

- كم كان عمرك عندما تزوجتِ؟

- كبيرة يا أنجين سان. كبيرة جدًا.

- لدينا مقولة مفادها بأن العمر مثل الصقيع أو الحصار أو الغروب، أو حتى مثل الصخرة أحيانًا.

ضحكت. فكر مفتونًا بها: كل شيء بها جميل للغاية. قال: «إن التقدم في العمر يليق بك يا سيدتي الجليلة».

- إن التقدم في العمر لا يليق بالمرأة قط يا أنجين سان.

- أنتِ حكيمة وجميلة.

جاءت اللغة اللاتينية بسهولة شديدة، ورغم أنها بدت أكثر رسمية وفخامة، فإنها كانت أكثر حميمية. فكر: انتبه لنفسك.

رددت لنفسها: لم يسبق لأحد أن وصفني بالجميلة من قبل، أتمنى لو كان ذلك صحيحًا. قالت: «إنه ليس من الحكمة هنا اهتمام رجل بامرأة رجل آخر. عاداتنا صارمة للغاية. على سبيل المثال، إذا وُجدت امرأة متزوجة بمفردها مع رجل في غرفة مغلقة الباب -فقط إذا كانا بمفردهما ويتحدثان على انفراد- فبموجب القانون يحق لزوجها أو أخيه أو والده قتلها على الفور. أما الفتاة غير المتزوجة، فيمكن للأب بالطبع أن يفعل بها ما يشاء دائمًا».

- هذا ليس عدلاً أو تحضراً.

ندم على زلة لسانه على الفور.

كانت ماريكو سعيدة بإهانتها لها مجدداً، لأنها كسرت التعويذة وبددت الدفء: «نحن نرى أنفسنا متحضرين للغاية يا أنجين سان. قوانيننا حكيمة جداً. يوجد الكثير من النساء الأحرار وغير المرتبطات، حتى لا يأخذ الرجل واحدة تنتمي إلى شخص آخر. إنه في الحقيقة حماية للنساء. واجب الزوجة هو فقط تجاه زوجها. اصبر وسترى مدى تحضرنا وتقدمنا. للنساء مكانة، وللرجال مكانة. يجوز للرجل أن يكون له زوجة رسمية واحدة فقط في المرة الواحدة - ولكن بالطبع العديد من الخيلات - لكن النساء هنا يتمتعن بحرية أكبر بكثير من السيدات الإسبانيات أو البرتغاليات، وفقاً لما قيل لي. يمكننا الذهاب بحرية إلى حيث نشاء متى نشاء. يجوز لنا ترك أزواجنا وتطليقهم إذا أردنا. يجوز لنا رفض الزواج من الأساس إذا أردنا ذلك. نحن نملك ثروتنا وممتلكاتنا، وأجسادنا وأرواحنا. ولدينا قوى هائلة إذا أردنا استخدامها. من الذي يعتني بكل ثروتك ومالك في منزلك؟».

- أنا أفعل ذلك بطبيعة الحال.

- هنا الزوجة تعتني بكل شيء. المال لا يساوي شيئاً بالنسبة للساموراي. إنه أقل من الازدراء بالنسبة لرجل حقيقي. أنا أدير جميع شؤون زوجي. وهو من يتخذ كل القرارات. أنا فقط أنفذ رغباته وأدفع فواتيره. وهذا يجعله حراً تماماً للقيام بواجبه تجاه سيده، وهو واجبه الوحيد. أجل يا أنجين سان، يجب أن تتحلّى بالصبر قبل أن تنتقد.

- لم يكن المقصود من كلامي النقد يا سيدتي. إننا نؤمن فقط بقدسية الحياة، ولا يجوز قتل أحد بسهولة ما لم توافق محكمة شرعية - محكمة الملكة - على ذلك.

رفضت السماح لنفسها بالهدوء: «تقول الكثير من الأشياء التي لا أفهمها يا أنجين سان. ولكن ألم تقل «ليس عدلاً ولا تحضراً»؟».

- نعم.

- إذن فهذا نقد، أليس كذلك؟ طلب مني الزعيم توراناغا أن أوضح أنه من غير اللائق الانتقاد دون معرفة. يجب أن تتذكر أن حضارتنا وثقافتنا

عمرها آلاف السنين. ثلاثة آلاف منها موثقة. نعم، نحن شعب قديم.

قديم مثل الصين. كم مضى على ثقافتكم؟

- ليست فترة طويلة يا سيدتي.

- إمبراطورنا «جو نيجو» هو السابع بعد المائة من سلالة المتصلة،

يعود مباشرة إلى جيمو تننو، أول أبناء الأرض، الذي ينحدر من الأجيال

الخمسة من الأرواح الأرضية، وقبلهم، الأجيال السبعة من الأرواح

السماوية التي أتت من كوني توكوتاشي نو ميكوتو -الروح الأولى-

التي ظهرت عندما انشقت الأرض عن السماء. حتى الصين لا تستطيع

ادعاء مثل هذا التاريخ. كم جيلاً حكم ملوكم أرضكم؟

- ملكتنا هي ثالث سلالة تيودور يا سيدتي. لكنها عجوز الآن وليس لديها

أطفال لذا فهي الأخيرة.

ردت بفخر: «مائة وسبعة أجيال يا أنجين سان، يعودون إلى الألوهية».

رأى تفاخرها فاستهجن: «إذا كنتِ تؤمنين بذلك يا سيدتي، فكيف يمكنكِ

أيضاً أن تقولِي إنكِ كاثوليكية؟».

- أنا مسيحية منذ عشر سنوات فقط وبالتالي أنا مبتدئة، ورغم أنني أومن

بالإله المسيحي، بالرب الآب والابن والروح القدس، من كل قلبي، فإن

إمبراطورنا ينحدر مباشرة من الآلهة أو من الرب. إنه إلهي. يوجد الكثير

من الأشياء التي لا أستطيع شرحها أو فهمها. لكن ألوهية إمبراطوري لا

شك فيها. نعم، أنا مسيحية، لكنني يابانية في المقام الأول.

سأل نفسه: هل هذا هو المفتاح لكم جميعاً؟ أنكم يابانيون في المقام

الأول؟ لقد راقبها مذهولاً مما كانت تقوله. عاداتهم مجنونة. المال لا يعني

شيئاً لرجل حقيقي؟ هذا يفسر سبب احتقار توراناغا لي عندما ذكرت

المال في الاجتماع الأول. مائة وسبعة أجيال؟ مستحيل. الموت الفوري لمجرد

وجودك ببراءة في غرفة مغلقة مع امرأة؟ هذه همجية ودعوة مفتوحة للقتل.

إنهم يؤيدون القتل ويعجبون به. ألم يكن هذا ما قاله رودريجيز؟ ألم يفعل

أومي سان ذلك؟ ألم يقتل ذلك الفلاح؟ بدم المسيح، لم أفكر في أومي سان

لأيام. ولا القرية. أو الحفرة أو الجثو أمامه. انسَه، استمع إليها وتحلّ بالصبر

كما قالت، وجّه لها أسئلة لأنها ستوفر لك الوسائل لإخضاع توراناغا لخطتك.

الآن تورانا جا مدين لك بالكامل. لقد أنقذته. إنه يعلم ذلك، ويعلم الجميع ذلك. ألم تشكر، ليس لإنقاذك لها ولكن لإنقاذها؟

كانت القافلة تتحرك عبر المدينة متجهة إلى البحر. رأى يابو يحافظ على الوتيرة، ولفترة وجيزة دوت صرخات بيترزون في رأسه. تمتم يحدث نفسه: «شيء واحد في كل مرة».

قالت ماريكو: «نعم، لا بد أن الأمر صعب جدًا عليك. عالمنا مختلف جدًا عن عالمك. مختلف تمامًا ولكنه حكيم جدًا».

استطاعت رؤية الهيئة الضبابية لتورانجا داخل الهودج الأمامي وشكرت الرب مرة أخرى على نجاته. كيف أشرح للهمجي عنا، لكي أمدحه على شجاعته؟ أمرها تورانا جا بالشرح، ولكن كيف؟ قالت: «دعني أرو لك قصة يا أنجين سان. عندما كنت صغيرة كان والدي قائدًا لدايميو يدعى جورودا. في ذلك الوقت لم يكن الزعيم جورودا الطاغية العظيم بل دايميو لا يزال يكافح من أجل السلطة. دعا والدي جورودا هذا وكبار تابعيه إلى وليمة. لم يخطر بباله قط أنه لا يوجد مال لشراء كل الطعام والساكي والأواني المطلية والتاتامي التي تتطلبها مثل هذه الزيارة، حسب العادة. حتى لا تعتقد أن والدتي كانت مديرة سيئة، هي لم تكن كذلك. ذهب كل قرش من دخل والدي إلى الساموراي التابعين له، ورغم أنه رسميًا لم يكن لديه ما يكفي سوى لأربعة آلاف محارب، فإن أُمي -بفضل تدبيرها وادخارها وتلاعبها- رآته يقود خمسة آلاف وثلاثمائة إلى المعركة لمجد زعيمه الإقطاعي. نحن، العائلة -أُمي وخليلات والدي وإخوتي وأخواتي- بالكاد كنا نملك ما يكفي من الطعام. ولكن ما الذي يهم؟ كان لدى والدي ورجاله أجود الأسلحة وأفضل الخيول، وقد بذلوا قصارى جهدهم من أجل سيدهم.

نعم، لم يوجد ما يكفي من المال لإقامة هذه الوليمة، لذلك ذهبت أُمي إلى صانعي الشعر المستعار في كيوتو وباعت لهم شعرها. أذكر أنه كان كالظلام الدامس وكان يتدلى حتى أسفل ظهرها. لكنها باعتها. قصّهُ صانعو الشعر المستعار في اليوم نفسه وأعطوها شعرًا مستعارًا رخيصًا، فاشتريت كل ما يلزم وأنقذت شرف أبي. كان من واجبها دفع الفواتير، ودفعت. لقد قامت بواجبها. بالنسبة لنا الواجب هو الأهم».

- ماذا قال والدك عندما علم بذلك؟

- ماذا كان يجب أن يقول بخلاف شكرها؟ كان من واجبها أن تجد المال.
لإنقاذ شرفه.

- لا بد أنها أحبته كثيرًا.

- الحب كلمة مسيحية يا أنجين سان. الحب فكر مسيحي، وتصور مسيحي. ليست لدينا كلمة لـ«الحب» كما تفهمه أنت. الواجب والولاء والشرف والاحترام والرغبة، هذه الكلمات والأفكار هي ما لدينا، كل ما نحتاجه.

نظرت إليه ورغمًا عنها تذكرت اللحظة التي أنقذ فيها تورانا، وبالتالي أنقذ زوجها. لن تنسى أبدًا أنهما كانا محاصرين هناك، لكانا قد ماتا الآن لولا هذا الرجل.

تأكدت من عدم وجود أحد بالقرب منهما ثم قالت: «لماذا فعلت ما فعلته؟».
- لا أعلم. ربما لأن...

توقف. كان يوجد الكثير مما يمكن قوله: ربما لأن تورانا كان عاجزًا ولم أرد أن أتعرض للتقطيع... لأنه إذا اكتُشف أمره فسيُقاضى علينا جميعًا... لأنني كنت أعلم أنه لا أحد يعلم سواي وكان الأمر متروكًا لي للمخاطرة... لأنني لم أرد أن أموت... يوجد الكثير لأفعله لذا لا يجب أن أهدر حياتي، وتورانا هو الوحيد الذي يستطيع أن يعيد لي سفينتي وحريتي. بدلًا من ذلك أجاب باللاتينية: «لأنه قال: أعطوا ما لقيصر لقيصر».

قالت باللغة نفسها: «نعم، هذا ما كنت أحاول قوله. لقيصر تلك الأشياء، وللرب تلك الأشياء. هكذا هو الأمر معنا. الرب هو الرب وإمبراطورنا من الرب. والقيصر هو القيصر، يُكرم كما يُكرم القيصر». ثم قالت متأثرة بتفهمه وحنان صوته: «أنت حكيم. في بعض الأحيان أعتقد أنك تفهم أكثر مما تقول».

سأل بلاكثورن نفسه: ألا تفعل ما أقسمت إنك لن تفعله أبدًا؟ ألا تلعب دور المنافق؟ نعم ولا. أنا لا أدين لهم بشيء. أنا سجين. لقد سرقوا سفينتي وبضاعتي وقتلوا أحد رجالي. إنهم وثنيون... حسنًا، بعضهم وثنيون والباقيون كاثوليك. أنا لا أدين بشيء للوثنيين والكاثوليك. لكنك ترغب في مجامعتها وكنت تمدحها، أليس كذلك؟

لعنة الرب على كل الضمائر.

كان البحر أقرب الآن على بعد أقل من كيلومتر. رأى عديدًا من السفن، والفرقاطة البرتغالية مع أنوار الملاحاة الخاصة بها. ستكون غنيمة ثمينة. يمكنني الاستيلاء عليها مع عشرين رجلًا قويًا. عاد إلى ماريكو. امرأة غريبة من عائلة غريبة. لماذا أهانت بونتارو، ذاك القرد؟ كيف يمكنها أن تعيش معه أو تتزوجه؟ ما الأمر المحزن؟

قال وأبقى صوته لطيفًا: «يا سيدتي، لا بد أن والدتك كانت امرأة نادرة. أن تفعل ذلك».

- نعم. ولكنها ستعيش إلى الأبد بسبب ما فعلته. الآن هي أسطورة. لقد كانت ساموراي كما... كما كان والدي ساموراي.

- اعتقدت أن الرجال فقط هم الساموراي.

- لا يا أنجين سان. الرجال والنساء ساموراي على حد سواء، محاربون لديهم مسؤوليات تجاه أسيادهم. كانت والدتي ساموراي حقيقية، وتقانيها لزوجها يفوق كل شيء.

- هل هي في منزلك الآن؟

- لا. لا هي ولا والدي ولا أي من إخوتي أو أخواتي أو عائلتي. أنا آخر سلالة عائلتي.

- هل كانت هناك كارثة؟

شعرت ماريكو فجأة بالإرهاق. قالت لنفسها: لقد سئمت من التحدث باللاتينية والبرتغالية المزعجة، وسئمت من كوني معلمة. أنا لست معلمة. أنا فقط امرأة تعرف واجبها وتريد القيام به بسلام. لا أريد أيًا من هذا الدفء مجددًا ولا أريد أي شيء من هذا الرجل الذي يزعجني كثيرًا. لا أريده على الإطلاق.

- كانت كارثة نوعًا ما يا أنجين سان. سأخبرك عنها يومًا ما.

أسرعت الخطى قليلًا وابتعدت مقتربة من الهودج الآخر. ابتسمت الخادمتان بارتباك.

سألت سونو: «هل تبعد المسافة كثيرًا يا ماريكو سان؟».

قالت مطمئنة: «أمل ألا تكون بعيدة جدًا».

ظهر قائد الرماديين فجأة من الظلام على الجانب الآخر من الهودج. تساءلت كم مما قالته لأنجين سان قد سُمع.

سأل القائد: «هل ترغبين بمحفة يا ماريكو سان؟ هل تشعرين بالتعب؟». أبطأت عمدًا لكي تبعده عن هودج تورانا جا وقالت: «لا، لا، شكرًا لك. أنا لست متعبة على الإطلاق».

- هل يحسن الهمجي التصرف؟ ألا يزعجك؟

- لا. يبدو أنه هادئ تمامًا الآن.

- عمّ كنتما تتحدثان؟

- عن شتى أنواع الأشياء. كنت أحاول شرح بعض قوانيننا وعاداتنا له. أشارت إلى برج القلعة المحفور على السماء أعلاه. وأضافت: «طلب مني الزعيم تورانا جا محاولة إعادته إلى رشده».

نظر القائد بإيجاز إلى القلعة، ثم عاد إلى بلاكثورن: «نعم، الزعيم تورانا جا. لماذا يهتم الزعيم تورانا جا به كثيرًا يا سيدتي؟».

- لا أعلم. أفترض لأنه غريب الأطوار.

انعطفوا حول زاوية متجهين إلى شارع آخر توجد به منازل خلف جدران الحدائق. كان يوجد القليل من الناس. وراءهم توجد أرصفة الميناء والبحر. الصواري تبرز فوق المباني والهواء مشبعًا برائحة الأعشاب البحرية. قال: «عمّ تحدثتما أيضًا؟».

- لديهم بعض الأفكار الغريبة جدًّا. يفكرون في المال طوال الوقت.

- تقول الإشاعة إن أمته بأكملها تتكون من قراصنة تجار قذرين. ليس بينهم ساموراي واحد. ماذا يريد الزعيم تورانا جا منه؟

- معذرة ولكني لا أعلم.

- تقول الإشاعة إنه مسيحي، يزعم أنه مسيحي. هل هو كذلك؟

- ليس من نوعنا من المسيحيين يا قائد. هل أنت مسيحي يا قائد؟

- إن سيدي مسيحي لذا فأنا مسيحي. سيدي هو الزعيم كياما.

- يشرفني أن أعرفه جيدًا. لقد شرف زوجي بخطبة إحدى حفيداته لابني.

- نعم، أعلم يا سيدة تودا.

- هل صحة الزعيم كياما أفضل الآن؟ أفهم أن الأطباء لا يسمحون لأحد برؤيته.

- لم أره منذ أسبوع. لم يره أحد منا. ربما يكون الجدري الصيني. الرب يحميه منه، والرب يلعن كل الصينيين. (نظر تجاه بلاكثورن): يقول الأطباء إن هؤلاء الهمج جلبوا الوباء إلى الصين، وإلى ماكاو، ومن ثم إلى شواطئنا.

قالت باللاتينية: «نحن جميعًا في كنف الرب».
أجاب القائد دون تفكير واقعًا في الفخ: «آمين».

لاحظ بلاكثورن زلة لسانه أيضًا ورأى لمحة من الغضب على وجه القائد وسمعه يقول شيئًا ما من خلال أسنانه لماريكو التي احمرَّ وجهها وتوقفت أيضًا. ترجل من الهودج ومشى نحوهما. «إذا كنت تتحدث اللاتينية يا قائد، فسيكون من اللطف أن تتحدث معي قليلًا. أنا متشوق للتعرف على هذا البلد العظيم الذي أنت منه».

- نعم، أستطيع التحدث بلغتك يا أجنبي.
- ليست لغتي يا قائد، بل لغة الكنيسة وجميع المثقفين في عالمي. أنت تتحدثها جيدًا. كيف ومتى تعلمتها؟
كان الموكب يمر بجانبهم وكان جميع الساموراي -الرماديين والبنيين- يراقبونهم. توقف بونتارو بالقرب من هودج توراناغا، واستدار نحوهما. تردد القائد قليلًا ثم بدأ السير مجددًا، وسعدت ماريكو بانضمام بلاكثورن إليهم. ساروا في صمت للحظة.
قال بلاكثورن لماريكو: «يتحدث القائد اللغة بطلاقة وبراعة، أليس كذلك؟».

- بلى، حقًا. هل تعلمتها في مدرسة لاهوتية يا قائد؟
قال القائد ببرود، متجاهلاً لها تمامًا، وهو يكره تذكر المدرسة اللاهوتية في ماكاو التي أمره كياما بالالتحاق بها وهو طفل لتعلم اللغات: «وأنت يا أجنبي، الآن وبعد أن أصبحنا نتحدث مباشرة، أخبرني ببساطة لماذا سألت هذه السيدة: «من يعلم أيضًا...». من يعلم أيضًا ماذا؟».

- لا أتذكر، كان عقلي شاردًا.
 - شاردًا، حقًا؟ إذن لماذا قلت: «أعطوا ما لقيصر لقيصر»؟
 - مجرد دعابة. كنت في نقاش مع هذه السيدة التي تروي قصصًا مؤثرة يصعب فهمها أحيانًا.
 - نعم، يوجد الكثير لنفهمه. ما الذي جعلك تفقد صوابك عند البوابة؟ ولماذا تعافيت بسرعة من نوبتك؟
 - لقد حدث ذلك بفضل الرب.
- أصبحوا يسرون بجوار الهودج مجددًا، وكان القائد غاضبًا لأنه وقع في الفخ بسهولة. لقد حذره سيده الزعيم كياما، من أن المرأة ذكية فائقًا: «لا تنس أنها تحمل وصمة الخيانة في كل كيائها، وأن القراصنة من نسل إبليس الشيطان. راقب واستمع وتذكر. ربما ستدين نفسها وتصبح شاهدة أخرى ضد تورانا لصالح الأوصياء. اقتل القرصان فور بدء الكمين».
- انطلقت السهام من جناح الليل وأول سهم اخترق حلق القائد، وبينما كان يشعر بأن رئتيه تمتلئان بنيران منصهرة والموت يبتلعه، كان آخر تفكير راوده هو التعجب لأن الكمين لم يكن ليُنصب هنا في هذا الشارع بل أبعد، بجانب أرصفة الميناء، ولم يكن الهجوم ليُشن عليهم بل على القرصان.
- سهم آخر اخترق عمود الهودج بالقرب من رأس بلاكتورن. واخترق سهمان الستائر المغلقة لهودج كيريتسوبو أمامهما، وأصاب سهم آخر الفتاة آسا في خصرها. وعندما بدأت في الصراخ، أسقط الحمالون الهودجين وفروا هاربين في الظلام. تدرج بلاكتورن للاحتماء آخذًا ماريكو معه إلى الجانب الخلفي للهودج المقلوب، وتشتت الرماديون والبنيون. ثم انهال وابل من السهام على كلا الهودجين. اخترق أحدهما الأرض حيث كانت ماريكو تقف للتو. كان بونتارو يحاول تغطية هودج تورانا بجسده بأفضل ما يستطيع، وقد انغرز سهم في ظهر درعه المصنوع من الجلد والسلاسل الحديدية والخيزران، ثم عندما توقف الإطلاق، اندفع إلى الأمام ومزق الستائر. كان السهمان مغروزين في صدر تورانا وجانبه لكنه لم يصب بأذى، وأخرج السهمين من الدرع الواقى الذي كان يرتديه تحت الكيمونو. ثم نزع القبعة العريضة الحواف والشعر المستعار. فتش بونتارو الظلام بحثًا عن العدو، وكان على أهبة الاستعداد وسهمه جاهز في قوسه، بينما كان تورانا

يصارع للخروج من الستائر، ثم سحب سيفه من تحت الغطاء وترجل. شرعت ماريكو بالتحرك لمساعدة تورانا جا لكن بلاكتورن سحبها للوراء مع صرخة تحذير حيث هاجمت السهام الهودجين مجددًا، مما أسفر عن مقتل اثنين من البنين وواحد من الرماديين. أُطلق سهم آخر بالقرب من بلاكتورن لدرجة أنه جرح جلد خده. وسهم آخر ثبت تنورة الكيمونو الخاص به على الأرض. كانت الخادمة سونو بجوار الفتاة التي تتلوى من الألم، والتي كانت تكتم صرخاتها بشجاعة. ثم صرخ يابو وأشار وانطلق. يمكن رؤية هيئات ضبابية على أحد الأسطح المبلطة. انطلق وابل أخير من السهام من الظلام، وبالطبع يستهدف الهودجين. اعترض بونتارو وآخرين من البنين طريقهم إلى تورانا جا. قُتل رجل واحد. اخترق سهم مفصل في درع كتف بونتارو فزمجر من الألم. كان يابو والبنين والرماديون الآن بالقرب من الجدار يطاردونهم، لكن المهاجمين اختفوا في الظلام، ورغم أن اثني عشر من البنين والرماديين اندفعوا نحو الزاوية لاعتراض طريقهم، فإنهم علموا جميعًا أن الأمر لا طائل منه. تحسس بلاكتورن طريقه للوقوف وساعد ماريكو على النهوض. كانت متأثرة لكنها لم تُصب بأذى.

قالت: «شكرًا لك».

أسرعت نحو تورانا جا لتساعد في حجبها عن الساموراي الرماديين. كان بونتارو يصرخ على بعض رجاله لإطفاء المشاعل القريبة من الهودج. ثم قال أحد الرماديين: «تورانا جا!».

ورغم أنه قالها بهدوء، فإن الجميع سمعوه.

تحت ضوء المشاعل الخافت، جعلت مستحضرات التجميل الملطخة بالعرق مظهر تورانا جا غريبًا.

انحنى أحد ضباط الرماديين على عجل. ها هو ذا عدو سيده حرًا طليقًا خارج أسوار القلعة بشكل لا يصدق. قال: «ستنتظر هنا يا زعيم تورانا جا». ثم صرخ في وجه أحد رجاله قائلاً: «وأنت، أبلغ الزعيم إيشيدو على الفور».

انطلق الرجل مسرعًا.

قال تورانا جا بهدوء: «أوقفه».

أطلق بونتارو سهمين. سقط الرجل ميتًا. استل الضابط سيفه ذو الحدين وانطلق نحو تورانا جا وهو يصرخ صرخة قتال مدوية ولكن بونتارو كان مستعدًا وتصدى للضربة. وفي الوقت نفسه، استل الرماديون والبنيون سيوفهم وبدؤوا بالقتال. اندلعت معركة عنيفة في الشارع. كان بونتارو والضابط متكافئين تمامًا، يناوران ويضربان. فجأة انفصل أحد الرماديين من المجموعة وانطلق نحو تورانا جا لكن ماريكو التقطت مشعلًا على الفور، وركضت إلى الأمام دافعة إياه في وجه الضابط. شق بونتارو مهاجمه إلى نصفين، ثم استدار ومزق الرجل الثاني، وقتل آخر كان يحاول الوصول إلى تورانا جا بينما اندفعت ماريكو مبتعدة عن الطريق، وهي تحمل سيفًا الآن بين يديها، وعيناها لا تفارقان تورانا جا أو حارسه الشخصي الوحشي بونتارو.

تحالف أربعة من الرماديين معًا وألقوا بأنفسهم على بلاكتورن، الذي كان لا يزال واقفًا بالقرب من هودجه. شعر بالعجز وهو يشاهد قدومهم نحوه. قفز يابو وأحد البنين لاعتراض طريقهم وقاتلا ببسالة. قفز بلاكتورن بعيدًا وأمسك بمشعل ليستخدمه كصولجان ويحركه حتى يفقد المهاجمين توازنهم مؤقتًا. قتل يابو واحدًا، وتسبب بعاهة لآخر، ثم اندفع أربعة من البنين للتخلص من آخر اثنين من الرماديين. ثم دون تردد ألقى يابو والبنني الجريح بأنفسهما في الهجوم مجددًا لحماية تورانا جا. ركض بلاكتورن إلى الأمام والتقط نصف سيف ونصف رمح طويل وأسرع نحو تورانا جا. وقف تورانا جا وحده بلا حراك وسيفه مغمدًا وسط العراك الصاخب.

قاتل الرماديون بشجاعة. انضم أربعة منهم في هجوم انتحاري على تورانا جا. لكن تصدى لهم البنيون واستغلوا تفوقهم. أعاد الرماديون جميع صفوفهم وشنوا هجومًا آخر. ثم أمر ضابط كبير ثلاثة منهم بالانسحاب طلبًا للمساعدة والباقي بحراسة الانسحاب. انطلق الثلاثة من الرماديين، ورغم أن بونتارو لاحقهم وأطلق على أحدهم، فإن اثنين تمكنا من الفرار. ومات البقية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الرابع والعشرون

كانوا يسرعون عبر الشوارع الخلفية المهجورة، يتسللون للوصول إلى رصيف الميناء والقادس. كانوا عشرة أفراد، يتقدمهم توراناغا، ثم يابو وماريكو وبلاكثورن وستة من الساموراي. أما البقية فقد أرسلوا بقيادة بونتارو مع الهودجين وقوافل الأمتعة عبر المسار المخطط لهم، مع تعليمات بالتوجه بتأن نحو القادس. كان جثمان آسا الخادمة في أحد الهودجين. في أثناء فترة هدوء في القتال، انتزع بلاكثورن السهم الشائك من جسدها. لقد رأى توراناغا الدم الداكن الذي تدفق نتيجة انتزاع السهم، وشاهد في حيرة كيف احتضنها الربان بدلاً من السماح لها بالموت بهدوء وبكرامة، ثم بعد توقف القتال تمامًا، شاهد كيف وضعها الربان برفق في الهودج. كانت الفتاة شجاعة ولم تتذمر على الإطلاق، فقط نظرت إليه حتى أتاها الموت. تركها توراناغا في الهودج المغلق بالسلائر كطعم، ووُضع أحد الجرحى في الهودج الثاني كطعم أيضًا.

من بين الخمسين من البنين الذين شكلوا المرافقة، قُتل خمسة عشر وأصيب أحد عشر بجروح قاتلة. وأُرسل الأحد عشر بسرعة وبشرف إلى الفراغ العظيم، ثلاثة بأيديهم، وثمانية بمساعدة بونتارو بناءً على طلبهم. ثم جمع بونتارو البقية حول الهودجين المغلقين وغادر. كان ثمانية وأربعون من الرمادين يرقدون صرعى في الغبار.

كان توراناغا يعلم أنه غير محمي على نحو خطر ولكنه كان راضيًا. فكر: كل شيء سار على ما يرام، مع الأخذ في الاعتبار تقلبات القدر. كم أن الحياة مثيرة للاهتمام! في البداية كنت على يقين من أن رؤية الربان لي وأنا أبدل مكاني مع كيريتسوبو هو نذير شؤم. ثم أنقذني الربان وتصرف كالمجنون بمثالية، وبفضله هربنا من إيشيدو. لم أخطط أن يكون إيشيدو عند البوابة الرئيسية، بل في الباحة الأمامية فقط. كان ذلك إهمالًا. لماذا كان إيشيدو هناك؟ ليس من عادة إيشيدو أن يكون بذلك الحذر. من نصحه؟ كياما؟

أونوشي؟ أم يودوكو؟ إنها امرأة عملية، ستشك -يمكنها- في مثل هذه الحيلة. لقد كانت خطة جيدة -الهروب السري السريع- ووُضعت منذ أسابيع، لأنه كان من الواضح أن إيشيدو سيحاول إبقائه في القلعة، وسيقلب الأوصياء الآخرين ضده من خلال وعدهم بأي شيء، وسيضحي طوعاً برهينته في إيدو، السيدة أوتشيبا، وسيستخدم أي وسيلة لإبقائه تحت المراقبة حتى الاجتماع النهائي للأوصياء، حيث سيحاصرونه ويعزلونه ويرسلونه.

قال هيرو ماتسو عندما استدعاه توراناغا بعد الغسق مباشرة الليلة الماضية لشرح ما سيُحاول القيام به ولماذا كان -توراناغا- متردداً: «لكنهم سيعزلونك حتى لو هربت، سيعزلك الأوصياء خلف ظهرك بسهولة كما يفعلون علانية. إذن فأنت ملزم بارتكاب السيوكو عندما يأمرن، وهم سيأمرن بذلك».

قال توراناغا: «نعم، أنا ملزم بفعل ذلك بصفتي رئيس مجلس الوصاية إذا صوت الأربعة ضدي. ولكن هنا...». أخرج لفافة ورقية من كفه: «هذه استقالتي الرسمية من مجلس الوصاية. ستعطيها لإيشيدو عندما يعلم عن هروبي».

- ماذا؟

- لن أبقى ملزماً بقسم الوصاية إذا استقلت، أليس كذلك؟ لم يمنعني التايكو قط من الاستقالة، أليس كذلك؟ أعطِ إيشيدو هذا أيضاً.

سلم هيرو ماتسو ختم منصبه الرسمي كرئيس.

- لكنك الآن معزول تماماً. أنت هالك.

- أنت مخطئ. استمع، نصّت وصية التايكو على تشكيل مجلس وصاية من خمسة أوصياء على المملكة. الآن أصبحوا أربعة. ولكي يكون ذلك قانونياً، قبل أن يتمكنوا من ممارسة تفويض الإمبراطور، يتعين على الأربعة انتخاب أو تعيين عضو جديد، عضو خامس، أليس كذلك؟ على إيشيدو وكياما وأونوشي وسوجياما أن يتفقوا، أليس كذلك؟ ألا يجب أن يكون الوصي الجديد مقبولاً من قبلهم جميعاً؟ بالطبع. الآن يا رفيقي القديم، من في العالم بأكمله سيوافق هؤلاء الأعداء على مشاركة السلطة العليا معه؟ من؟ وبينما هم يتجادلون، لن يصدرنا أي قرارات و...

قال هيرو ماتسو على عجل: «نحن نستعد للحرب وأنت لم تعد ملزمًا ويمكنك وضع القليل من العسل هنا والمرارة هناك، وهؤلاء الأوغاد صانعو الأوساخ سيأكلون أنفسهم. يا يوشي توراناغا نو مينووارا، أنت رجل بين الرجال. سأكل مؤخرتي إن لم تكن أحكم رجل في البلاد».

فكر توراناغا: نعم، لقد كانت خطة جيدة، وقد لعبوا جميعًا أدوارهم جيدًا: هيرو ماتسو وكيري وجميلتي سازوكو. والآن هم محتجزون بإحكام وسيبقون على هذا النحو أو سيُسمح لهم بالمغادرة. أعتقد أنه لن يُسمح لهم بالمغادرة أبدًا.

سأشعر بالأسف لفقدانهم.

كان يقود المجموعة بدقة، وكانت وتيرته سريعة ولكن محسوبة، السرعة التي اعتداد الاصطياد بها، السرعة التي يمكنه مواكبتها باستمرار لمدة يومين وليلة واحدة إذا لزم الأمر. ما زال يرتدي عباءة السفر وكيمنو كيري، لكن التناير كانت مرفوعة لأعلى لتكون بعيدة عن الطريق، وسرواله العسكري يبدو مختلفًا.

عبروا شارعًا مهجورًا آخر واتجهوا نحو زقاق. لقد كان يعلم أن الإنذار سيصل قريبًا إلى إيشيدو وحينها سيبدأ البحث بجدية. قال لنفسه: يوجد متسع من الوقت.

نعم، لقد كانت خطة جيدة. ولكنني لم أتوقع الكمين. لقد كلفني ثلاثة أيام من الأمان. كانت كيري متأكدة من أنها قادرة على إبقاء الخدعة سرًا لمدة ثلاثة أيام على الأقل. لكن السر قد انكشف الآن ولن أتمكن من التسلل إلى السفينة والإبحار. لمن كان الكمين منصوبًا؟ لي أم للربان؟ بالطبع للربان. ولكن ألم توجه السهام نحو الهودجين معًا؟ أجل، لكن الرماة كانوا بعيدين جدًا وسيصعب الرؤية، وسيكون من الحكمة والأكثر أمانًا قتل كليهما، تحسبًا لأي طارئ.

من أمر بشن الهجوم، كياما أم أونوشي؟ أم البرتغاليون؟ أم الكهنة المسيحيون؟

استدار توراناغا ليتفقد الربان. رأى أنه لم يكن يبطن، وكذلك المرأة التي كانت تسير بجانبه، رغم إرهاق كليهما. كان بإمكانه رؤية كتلة القلعة وبرجها الرئيسي الشاهق في الأفق. فكر: كانت الليلة هي المرة الثانية التي

أكاد أموت فيها هناك. هل ستصبح هذه القلعة عدوي اللدود حقًا؟ أخبرني التايكو في كثير من الأحيان: «ما دامت قلعة أوساكا على قيد الحياة، فإن نسلي لن يموت أبدًا، وأنت يا توراناغا مينووارا، سيُكتب رثاؤك على جدرانها. ستتسبب أوساكا في موتك يا تابعي المخلص». وكان دائمًا يضحك ضحكة خادعة تثير الرعب في روحه.

هل يعيش التايكو داخل يايمون؟ سواء كان كذلك أم لا، فإن يايمون هو وريثه الشرعي.

صرف توراناغا نظره عن القلعة بجهد وانعطف إلى زاوية أخرى وفر هاربًا في متاهة من الأزقة. وفي النهاية توقف أمام بوابة متهاكة. كان يوجد شكلٌ سمكة محفورًا على خشبها. طرق الباب برمز خاص. وفتح الباب في الحال. انحنى الساموراي غير المهندم على الفور: «سيدي؟».

قال توراناغا وانطلق مجددًا: «أحضر رجالك واتبعني».

- بكل سرور.

لم يرتد هذا الساموراي زي الكيمونو البني الموحد، بل كان يرتدي فقط خرقًا رثة من لباس الرونين، لكنه كان من نخبة القوات السرية الخاصة التي أدخلها توراناغا إلى أوساكا تحسبًا لمثل هذه الحالة الطارئة. تبعه خمسة عشر رجلًا يرتدون ملابس مماثلة، ومسلحين تسليحًا جيدًا على حد سواء، وسرعان ما تولوا مواقعهم في الطليعة والخلف، بينما ركض آخر لنشر الإنذار إلى مجموعات سرية أخرى. سرعان ما أصبح لدى توراناغا خمسون جنديًا. ومائة آخرون يحمون جانبيه. وسيجهّز ألفا آخرين عند الفجر إذا احتاجهم. استرخى وأبطأ وتيرته مدرّكًا أن الربان والمرأة يتعبان بسرعة كبيرة. وهو كان يحتاجهما أن يكونا أقوىاء.

وقف توراناغا تحت ظلال المستودع يتفحص القادس ورصيف الميناء والشاطئ الأمامي. ويقف بجانبه يابو وساموراي آخر. ترك الآخرون على شكل مجموعة متماسكة على بعد نحو ثمانين مترًا داخل الزقاق.

انتظرت مجموعة من مائة ساموراي رمادي بالقرب من سلم القادس على بعد بضع مئات من الأمتار، عبر مساحة واسعة من التربة المدكوكة التي تحول دون أي هجوم مفاجئ. كانت القادس نفسها راسية بجانبه ومثبتة

بدعامات مغروزة في الرصيف الحجري يمتد لمسافة تسعين مترًا في البحر. المجاذيف متوقفة، وكان بإمكانه رؤية الكثير من البحارة والمحاربين على متن السفينة بغير وضوح.

سأل بهدوء: «هل هم من رجالنا أم من رجالهم؟».

أجاب يابو: «إن المسافة تجعل من الصعب التأكد».

كان المد مرتفعًا. خلف القادس، كانت قوارب الصيد الليلية تذهب وتعود، وكانت الفوانيس بمنزلة إضاءة للرحلة والصيد. وشمالًا على طول الشاطئ كانت توجد صفوف من قوارب الصيد ذات الأحجام المختلفة على الشاطئ، التي يعتني بها عدد قليل من الصيادين. وكانت توجد الفرقاطة البرتغالية «سانتا تيريزا» على بعد نحو أربعمئة متر جنوبًا بجانب رصيف حجري آخر. كانت مجموعات من الحماليين مشغولين بتحميل البراميل والحزم على متن السفينة تحت ضوء المشاعل. ومجموعة أخرى كبيرة من الرماديين تتسكع بالقرب منهم. كان هذا الأمر معتادًا لأنه بموجب القانون، كانت جميع السفن البرتغالية والسفن الأجنبية في الميناء تحت المراقبة الدائمة. فقط في ناجازاكي تتحرك السفن البرتغالية بحرية تامة.

قال توراناغا لنفسه: لو كان بالإمكان تشديد الأمن هناك، فسيصبح نومنا أكثر أمانًا ليلًا. نعم، ولكن هل يمكننا تقييد حركتهم مع الحفاظ على التجارة المتنامية باستمرار مع الصين؟ هذا هو الفخ الذي وضعنا الهمج الجنوبيون فيه ولا مهرب منه ما دامت كيوشو تحت سيطرة الدايميو المسيحيين وكانت توجد حاجة للكهنة. أفضل ما يمكننا فعله هو ما فعله التايكو. أعط الأجنبي القليل، وتظاهر بأنك ستسترجعه، حاول خداعهم، مع العلم أن الحياة ستصبح مستحيلة دون تجارة الصين.

همس الساموراي: «بعد إذنك يا سيدي، سأهاجم على الفور».

قال يابو: «أنصح بعدم القيام بذلك. لا نعلم ما إذا كان رجالنا على متن السفينة. وقد يكون هناك ألف رجل مختبئين هنا في كل مكان. هؤلاء الرجال....».

أشار إلى الرماديين بالقرب من السفينة البرتغالية وأكمل: «سيطلقون إنذارًا. لن نتمكن أبدًا من الاستيلاء على السفينة وإبحارها قبل أن يحاصرونا. نحن بحاجة إلى عشرة أضعاف عدد الرجال الذين نملكهم الآن».

قال الساموراي: «سيعلم القائد الزعيم إيشيدو قريبًا. حينئذٍ ستمتلى أوساكا بأكملها بعدد من الأعداء يفوق عدد الذباب في ساحة المعركة الجديدة. لديّ مائة وخمسون رجلًا مع أولئك الموجودين على أجنحتنا. سيكون هذا كافيًا».

- ليس كافيًا من أجل السلامة. لا سيما إذا لم يكن بحارتنا مستعدين على المجازيف. من الأفضل خلق إلهاء من شأنه صرف انتباه الرمايين وأي شخص مختبئ. وهؤلاء أيضًا. مكتبة سر من قرأ أشار يابو مجددًا إلى الرجال بالقرب من الفرقاطة.

قال توراناغا: «أي نوع من الإلهاء؟».

- إضرام النار في الشارع.

احتج الساموراي مذعورًا: «هذا مستحيل!».

كان الحرق العمد جريمة يعاقب عليها بالإحراق العلني لجميع أفراد عائلة المذنب، من كل جيل من العائلة. كانت العقوبة هي الأشد صرامة بموجب القانون لأن الحريق كان أكبر خطر يهدد أي قرية أو بلدة أو مدينة في الإمبراطورية. حيث كان الخشب والورق هما مادتا البناء الوحيدتان، باستثناء البلاط على بعض الأسقف. كان كل منزل وكل مستودع وكل كوخ وكل قصر بمنزلة صندوق من البارود. أضاف: «لا يمكننا إضرام النار في الشارع».

سأله يابو: «ما الأهم، تدمير بعض الشوارع أم موت سيدنا؟».

- ستنتشر النيران يا يابو سان. لا يمكننا حرق أوساكا. يوجد مليون شخص هنا... أو أكثر.

- هل هذا جوابك عن سؤالي؟

استدار الساموراي شاحبًا نحو توراناغا: «سأفعل أي شيء تطلبه يا سيدي. هل هذا ما تريدني أن أفعل؟».

اكتفى توراناغا بالنظر إلى يابو.

أشار الدايميو بإبهامه بازدراء نحو المدينة: «قبل عامين احترق نصفها وانظر إليها الآن. وقبل خمس سنوات حدث الحريق العظيم. كم مئات الآلاف فُقدوا آنذاك؟ ما أهمية ذلك؟ إنهم مجرد أصحاب متاجر وتجار وحرفيين وإيتا. ليس الأمر كما لو أن أوساكا قرية مليئة بالفلاحين».

لقد قدر تورانا جا قوة الرياح منذ فترة طويلة. كانت خفيفة ولن تزيد من اشتعال النيران. ربما. لكن يمكن أن يتحول الحريق بسهولة إلى محرقة جماعية تلتهم كل المدينة. باستثناء القلعة. لو أنها ستلتهم القلعة فقط، لما ترددت لحظة.

استدار على عقبه وعاد نحو الآخرين: «خذي الربان والسامواري الستة واذهبي إلى القادس يا ماريكو سان. تظاهري بأنك على حافة الذعر. أخبري الرماديين أنه حدث كمينٌ - من قبل قطاع الطرق أو رونين - أنت لست متأكدة من أيهما. أخبرهم أين حدث ذلك، وأنتِ أرسلتِ على وجه السرعة من قبل قائد الرماديين المرافقين لنا لطلب المساعدة من الرماديين هنا، وأن المعركة لا تزال محتدمة، وأنتِ تعتقدين أن كيريتسوبو قد قُتِلت أو أُصيبت. اطلبي منهم الإسراع. سيجذب هذا معظمهم إذا كنتِ مقنعة».

- أفهم تمامًا يا سيدي.

- إذن بغض النظر عما يفعله الرماديون، اصعدي على متن السفينة مع الربان. إذا كان بحارتنا هناك وكانت السفينة آمنة ومأمونة، عودي إلى سلم السفينة وتظاهري بالإغماء. هذه هي إشارتنا. افعلي ذلك بالضبط عند سلم السفينة. (ركز تورانا جا عينيه على بلاكثورن): أخبريه بما ستفعلينه، لكن ليس بأنك ستفقدن الوعي.

ابتعد لإعطاء أوامر لبقية رجاله وتعليمات خاصة سرية للسامواري الستة. عندما انتهى تورانا جا، سحب يابو جانبًا: «لماذا سترسل الهمجي؟ ألن يكون من الآمن تركه هنا؟ الآمن بالنسبة لك؟».

- الآمن بالنسبة له يا يابو سان، وليس لي. إنه طعم مفيد.

- إضرار النار في الشارع سيكون أكثر أمانًا.

- نعم.

فكر تورانا جا أنه من الأفضل أن يكون يابو إلى جانبه بدلًا من أن يكون إلى جانب إيشيدو. أنا سعيد لأنني لم أجعله يقفز من البرج بالأمس.

- سيدي؟

- نعم يا ماريكو سان.

- معذرةً لكن أنجين سان يسأل عما سيحدث إذا كانت السفينة محتلة من قبل العدو؟

- أخبريه أنه لا يوجد داعٍ للذهاب معك إذا لم يكن قوياً كفاية.

حافظ بلاكثورن على هدوئه عندما أخبرته بما قاله توراناها: «أخبري الزعيم توراناها أن خطته ليست في صالحك، وأنه يجب أن تبقي هنا. يمكنني الإشارة إذا كان كل شيء على ما يرام».

أخبرته ماريكو بحزم: «لا يمكنني فعل ذلك يا أنجين سان، هذا ليس ما أمر به سيدنا. إن أي خطة يضعها ستكون حكيمة حتماً».

أدرك بلاكثورن أنه لا جدوى من الجدل. فكر: اللعنة على عنادهم وغطرستهم، لكن يا إلهي، يا لهم من شجعان! هؤلاء الرجال وهذه المرأة.

لقد راقبها وهي تقف في الكمين وفي يديها سيف القتل الطويل الذي يكاد يصل إلى طولها، ومستعدة للقتال حتى الموت من أجل توراناها. لقد رأها تستخدم السيف مرة واحدة ببراعة، ورغم أن بونتارو هو من قتل المهاجم، فإنها سهلت الأمر بإجبار الرجل على التراجع. لا يزال الكيمونو الخاص بها مغطى بالدماء وكان ممزقاً في بعض الأماكن، ووجهها متسخاً.

سأل بينما يهرعون نحو الأرصفة: «أين تعلمت استخدام السيف؟».

قالت بواقعية وأظهرت له كيف يُحفظ الخنجر الصغير بأمان في الحزام، جاهزاً للاستخدام الفوري: «يجب أن تعلم أن جميع سيدات الساموراي يتعلمن استخدام النصل للدفاع عن شرفهن وشرف أسيادهن. لكن بعضنا يتعلم أيضاً القليل عن السيف والرمح يا أنجين سان. يرى بعض الآباء أن بناتهن وكذلك أبنائهن يجب أن يكونوا مستعدين لخوض المعركة من أجل أسيادهم. بالطبع بعض النساء أكثر ميلاً للحرب من البعض الآخر ويسعدن بخوض المعارك مع أزواجهن أو آبائهن. كانت والدتي واحدة من هؤلاء. قرر والدي ووالدتي أنني يجب أن أتدرب على السيف والرمح».

قال: «لولا وجود قائد الرماديين في الطريق، لكان السهم الأول قد اخترقك مباشرة».

صححته بتأكيد شديد: «لكان اخترقك يا أنجين سان. لكنك أنقذت حياتي بسحبي إلى بر الأمان».

أدرك الآن وهو ينظر إليها أنه لا يريد أن يلحق بها أي مكروه. قال: «دعيني أذهب مع الساموراي يا ماريكو سان. ابقِي أنتِ هنا. رجاءً».

- هذا غير ممكن يا أنجين سان.

- إذن فأنا أريد خنجرًا. بل الأفضل اثنين إن أمكن.

نقلت طلبه إلى توراناا الذي وافق. وضع بلاكثورن خنجرًا واحدًا تحت الحزام داخل الكيمونو. أما الآخر فقد ربطه -موجهًا المقبض إلى الأسفل- على ساعده من الداخل بشريط من الحرير مزقه من طرف الكيمونو.

- يسأل سيدي: هل يحمل جميع الإنجليز خناجر سرًا في أكمامهم بهذه الطريقة؟

- لا. لكن معظم البحارة يفعلون ذلك.

قالت: «هذا ليس معتادًا هنا، أو مع البرتغاليين».

- أفضل مكان لوضع خنجر احتياطي هو حذاؤك. عندها يمكنك إلحاق ضرر بالغ وبسرعة كبيرة. إذا لزم الأمر.

ترجمت هذا الكلام، ولاحظ بلاكثورن أعين توراناا ويابو اليقظة، وشعر أنهما لا يحبان كونه مسلحًا. فكر: جيد، ربما يمكنني البقاء مسلحًا.

تساءل مجددًا عن توراناا. بعد صد هجوم الكمين وقتل الرمايين، شكره توراناا من خلال ماريكو أمام كل البنين على «ولائه». لم يقدم شيئًا أكثر، لا وعودًا ولا اتفاقيات ولا مكافآت. لكن بلاكثورن كان يعلم أن كل ذلك سيتلقاه لاحقًا. أخبره الراهب العجوز أن الولاء هو الشيء الوحيد الذي يكافؤون عليه. كان قد قال: «الولاء والواجب يا سيدي. هذه هي ديانتهم، البوشيدو. في حين أننا نمُنح حياتنا للرب وابنه المبارك يسوع ومريم والدة الإله، فإن هذه الحيوانات تسلم نفسها لأسيادها وتموت مثل الكلاب. تذكر يا سيدي من أجل خلاص روحك، أنهم حيوانات».

فكر بلاكثورن: إنهم ليسوا حيوانات، وكثير مما قلته يا أبت هو خاطئ ومبالغة متعصبة.

قال لماريكو: «نحن بحاجة إلى إشارة، إذا كانت السفينة آمنة أم لا».

ترجمت مجددًا، ببراعة هذه المرة: «يقول الزعيم توراناا إن أحد جنودنا سيفعل ذلك».

- لا أعتبر أنه من الشجاعة إرسال امرأة للقيام بعمل رجل.
- رجاءً تحلّ بالصبر معنا يا أنجين سان. لا فرق بين الرجال والنساء. النساء هن على قدم المساواة كساموراي. وستكون المرأة أفضل بكثير من الرجل في هذه الخطة.
- تحدث إليها توراناغا بإيجاز.
- هل أنت مستعد يا أنجين سان؟ يجب أن نذهب الآن.
- الخطة فاسدة وخطرة، وقد سئمت من أن أكون بطة منزوعة الريش ملعونة يضحون بها، لكنني جاهز.
- ضحكت وانحنى مجدداً لتوراناجا ثم انطلقت. وتسابق بلاكثورن والساموراي الستة بعدها.

كانت رشيقة للغاية ولم يستطع اللحاق بها عندما انحرفوا حول الزاوية واتجهوا عبر الساحة المفتوحة. لم يشعر قط بأنه عارٍ لهذا الحد. رصداه الرماديو في اللحظة التي ظهروا فيها وانطلقوا للأمام. سرعان ما حاصروهم، وشرعت ماريكو في الثرثرة بحماس مع الساموراي والرماديين. ثم انضم هو أيضاً إلى اللغط بمزيج لاهث من البرتغالية والإنجليزية والهولندية مشيراً إليهم بالإسراع، وتحسس سلم السفينة ليتكئ عليها، دون الحاجة للتظاهر بأنه منهك للغاية. حاول رؤية ما يوجد داخل السفينة لكنه لم يستطع تمييز أي شيء بوضوح، فقط العديد من الرؤوس التي تظهر من شفير السفينة. كان بإمكانه رؤية الرؤوس المحلوقة للكثير من الساموراي والبحارة. لكنه لم يستطع تمييز لون الكيمونو.

كان أحد الرمادين يتحدث إليه بسرعة من الخلف، فاستدار وأخبره أنه لا يفهم، وبأنه يجب عليه الذهاب إلى هناك بسرعة، أن يعود إلى الشارع حيث تدور المعركة الملعونة. قال: «هل تفهمني؟ أخرج مؤخرتك من هنا واذهب إلى الجحيم. هل تفهمني؟ المعركة هناك».

كانت ماريكو توبخ الضابط الأعلى للرماديين بغضب. عاد الضابط نحو السفينة وأصدر الأوامر. وعلى الفور، بدأ أكثر من مائة من الساموراي -جميعهم من الرمادين- يتدفقون خارج السفينة. أرسل القليل منهم شمالاً على طول الشاطئ لاعتراض طريق الجرحى ومساعدتهم إذا لزم الأمر. وأُرسل أحداهم مسرعاً لطلب المساعدة من الرمادين بالقرب من القادس البرتغالية.

وترك عشرة رجال خلفه لحراسة مقدمة السفينة، وقاد البقية على عجل نحو الشارع البعيد عن الرصيف متوجهين إلى وسط المدينة.

اقتربت ماريكو من بلاكتورن وسألته: «هل تبدو السفينة على ما يرام بالنسبة لك؟».

- إنها تطفو.

أمسك بلاكتورن بحبال سلم السفينة بجهد كبير وسحب نفسه إلى سطح السفينة. تبعته ماريكو. وبعدها صعد اثنان من البنين.

أفسح البحارة الذين كانوا يزاحمون الجانب الأيسر من شفير السفينة الطريق. كان أربعة من الرماديين يحرسون سطح مؤخرة السفينة واثنان آخران في المقدمة. وجميعهم مسلحين بالأكواس والسهام وكذلك السيوف.

استجوبت ماريكو أحد البحارة. وأجابها الرجل بلطف. قالت لبلاكتورن: «إنهم جميعًا بحارة عُينوا لنقل كيريتسوبو سان إلى إيدو».

- اسأله...

توقف بلاكتورن عندما تعرف على رفيقه القصير بدين الجسد والذي جعله قبطانًا للقادس بعد العاصفة. قال باليابانية: «مساء الخير يا قبطان سان».

رد رفيقه وهو يبتسم ويهز رأسه: «مساء الخير يا أنجين سان. أنا لستُ القبطان سان».

وأشار إلى بحار رشيق ذي ضفيرة قصيرة رمادية يقف وحيدًا على سطح مؤخرة السفينة: «هذا هو القبطان سان».

قال بلاكتورن بصوت عالٍ وانحنى: «حقًا؟ مرحبًا يا قبطان سان».

وخفض صوته قائلاً: «اكتشفي ما إذا كان يوجد أيُّ من الرماديين بالأسفل يا ماريكو سان».

رد القبطان التحية قبل أن تتمكن من الإجابة، ثم صاح على رفيقه. أوما رفيقه وأجاب مطولاً. أبدى بعض البحارة موافقتهم. وأعجب القبطان وكل من على متن السفينة كثيرًا بما سمعوه.

ثم صاح القبطان: «حسنًا، انحنوا لأنجين سان».

انحنى جميع من كانوا على متن السفينة لبلاكثورن كتحية، باستثناء الساموراي.

قالت ماريكو: «هذا البحار أخبر القبطان أنك أنقذت السفينة خلال العاصفة يا أنجين سان. لم نخبرنا عن العاصفة أو عن رحلتك».

- لا يوجد الكثير لأرويه. كانت مجرد عاصفة أخرى. رجاء اشكري القبطان وأخبريه بأنني سعيد بالعودة على متن السفينة مجددًا. أسأليه عما إذا كنا مستعدين للمغادرة عند وصول الآخرين. (وأضاف بهدوء): اكتشفي ما إذا كان يوجد أي من الرماديين بالأسفل. فعلت ما أُمِرت به.

اقترب القبطان وسأله عن مزيد من المعلومات، ثم استوعبت إشارة القبطان بشأن أهمية وجود بلاكتثورن على متن السفينة فانحنت لبلاكثورن، وقالت: «إنه يشكرك على إنقاذ سفينته يا أنجين سان ويقول إنهم مستعدون». وأضافت بنبرة خافتة: «أما بالنسبة للسؤال الآخر، فهو لا يعلم».

ألقي بلاكتثورن نظرة خاطفة نحو الشاطئ. لا يوجد أي أثر لبونتارو أو القافلة في الشمال. كان الساموراي الذي أرسل مسرعًا نحو الجنوب باتجاه سانتا تيريزا لا يزال على بعد تسعين مترًا من وجهته، ولم يلحظه أحد بعد. قال عندما لم يعد بإمكانه تحمل الانتظار: «ماذا الآن؟».

كانت تسأل نفسها: هل السفينة آمنة؟ قرري.

قال وهو ينظر إلى الفرقاطة: «سيصل ذلك الرجل في أي لحظة».

- ماذا؟

أشار: «ذاك... ذاك الساموراي».

- أي ساموراي؟ معذرة ولكني لا أستطيع الرؤية لمسافة بعيدة يا أنجين سان. أستطيع رؤية كل شيء على السفينة، رغم أن ضباب رؤيتي يحجب الرماديين في مقدمة السفينة. أي رجل؟

أخبرها، وأضاف باللاتينية: «الآن هو بالكاد على بُعد أربعين مترًا. الآن يمكن رؤيته. نحن بحاجة ماسة إلى مساعدة. من سيعطي الإشارة؟ يجب أن تُعطى بسرعة».

سألت بالبرتغالية: «زوجي، هل يوجد أي أثر له؟».

هز رأسه.

قالت لنفسها: يقف ستة عشر من الرماديين بين سيدي وسلامته. احميه يا مريم.

ثم سلمت روحها للرب، خوفاً من اتخاذ القرار الخاطئ، وتوجهت بضعف إلى أعلى سلم السفينة وتظاهرت بالإغماء.

فوجئ بلاكثورن. رأى رأسها يرتطم بوحشية بالألواح الخشبية. بدأ البحارة يتجمعون، واقترب الرماديون من الرصيف ومن على ظهر السفينة بينما هرع إليها. حملها وأعادها عبر الرجال باتجاه سطح مؤخرة السفينة.

- أحضروا بعض الماء... ماء، حسناً؟

حدق إليه البحارة دون فهم. بحث يائساً في ذهنه عن الكلمة اليابانية. لقد أخبره الراهب العجوز بها خمسين مرة. يا إلهي، ما هي؟ قال: «نعم. ماء، ماء، هل تفهمون؟».

بدأ رجل ما في الانطلاق مسرعاً: «نعم، ماء. حسناً يا أنجين سان».

فجأة علت صرخة إنذار.

كان ثلاثون من رونين توراناغا - الساموراي المتخفين - على الشاطئ مسرعين خارج من الزقاق. استدار الرماديون الذين بدؤوا في مغادرة الرصيف عائدين على سلم السفينة. أما أولئك الموجودون على سطح المؤخرة ومقدمة السفينة فقد اندفعوا لرؤية أفضل. فجأة صرخ أحدهم موجهاً الأوامر. سلح الرماة أقواسهم. واستل جميع الساموراي البنيون والرماديون بالأسفل سيوفهم، واندفع معظمهم عائدين إلى رصيف الميناء.

صاح أحد البنيين عند الإشارة: «قطاع طرق».

انفصل الاثنان البنيان الموجودان على متن السفينة في الحال، أحدهما اتجه للأمام والآخر إلى مؤخرة السفينة. انقسم الأربعة الموجودون على اليابسة، واختلطوا بالرماديين المنتظرين.

- توقف!

هجم الرونين الساموراي التابعون لتوراناغا. اخترق سهم صدر رجل فأرداه قتيلاً. وعلى الفور قتل البني الموجود على مقدمة السفينة رامي السهام الرماذي وحاول الوصول إلى الآخر ولكن هذا الساموراي كان سريعاً

جداً وتشابكا سيفاهما، وصرخ الرمادي محذراً الآخرين من الخيانة. أما البني الموجود على مؤخرة السفينة فقد شل أحد الرماديين لكن الثلاثة الآخرين تخلصوا منه بسرعة وانطلقوا نحو مقدمة السلم، وتفرق البحارة. كان الساموراي على الرصيف أدناه يقاتلون حتى الموت، حيث تفوق الرماديون على البنين الأربعة، وهم يعلمون أنهم تعرضوا للخيانة وأنه في أي لحظة سيُقضى عليهم أيضاً من قبل المهاجمين. قائد الرماديين على متن السفينة، وهو رجل ضخم البنية ذو لحية مشوبة بالشيب، واجه بلاكتورن وماريكو.

صاح، وهاجم بلا هواذة بصرخة حربية: «اقتلوا الخونة».

رأى بلاكتورن نظرات القتل في أعينهم جميعاً وهم ينظرون إلى ماريكو التي لا تزال ممددة في حالة إغماء، وأدرك أنه إذا لم يحصل على مساعدة قريباً، فسيموتان لا محالة، ولن تأتي تلك المساعدة من البحارة. تذكر أنه لا يجوز إلا للساموراي أن يقاتل الساموراي.

أمسك بالخنجر في يده وألقاه في الهواء حتى اخترق حلق الساموراي. اندفع الرماديان الآخران نحو بلاكتورن وسيوفهما القاتلة مرفوعة. أمسك بالخنجر الآخر ووقف صامداً أمام ماريكو، مدركاً أنه لا يجرؤ على تركها غير محمية. رأى من زاوية عينه أن معركة السيطرة على السلم كانت على وشك الحسم. لم يتبق سوى ثلاثة من الرماديين فقط يسيطرون على الجسر أدناه، وهم وحدهم من يمنعون تدفق المساعدة على متن السفينة. لو استطاع البقاء على قيد الحياة لأقل من دقيقة، لأصبح هو وهي آمنين. اقتلهم، اقتل الأوغاد.

لم يرَ بقدر ما شعر بسيف يضرب حلقه فقفز للخلف لتجنبه. طارده أحد الرماديين لطعنه بينما وقف الآخر فوق ماريكو وسيفه مرفوع. في تلك اللحظة رأى بلاكتورن ماريكو تعود إلى الحياة. ألقت بنفسها على ساقى الساموراي الغافل وأسقطته على سطح السفينة. ثم انتزعت السيف من يد الرمادي الميت التي لا تزال ترتعش وتحركت بسرعة نحوه ثم وثبت على الحارس وهي تصرخ. استعاد الرمادي توازنه وهاجمها وهو يعوي من الغضب. تراجعت وهاجمته بشجاعة لكن بلاكتورن أدرك أنها ستُهزم، فإن الرجل أقوى منها بكثير. تمكن بلاكتورن بطريقة ما من تفادي طعنة موت أخرى من خصمه، وركله بعيداً وألقى خنجره على مهاجم ماريكو. أصاب ظهر الرجل فأحبط هجومه، ثم وجد بلاكتورن نفسه على سطح المؤخرة، محاصراً بلا حول ولا قوة، حيث صعد أحد الرماديين على الدرجات خلفه،

والآخر الذي فاز للتو في معركة مقدمة السفينة كان يركض نحوه على طول سطح السفينة. قفز باتجاه شفير السفينة باحثاً عن الأمان في عرض البحر لكنه انزلق على سطح السفينة المبلل بالدماء.

كانت ماريكو تحقق إلى أعلى بوجه شاحب نحو الساموراي الضخم الذي لا يزال يحاصرها، وهو يتأرجح على قدميه، وحياته تنحسر بسرعة ولكن ليس بالسرعة الكافية. ضربته بكل قوتها لكنه صدَّ الضربة وأمسك بسيفها وانتزعه من قبضتها. استجمع قوته المطلقة واندفع في اللحظة نفسها التي اقتحم فيها رونين توراناغا السلم صاعدين فوق الرمايين القتلى. انقضَّ أحدهم على مهاجم ماريكو، وأطلق آخر سهمًا باتجاه سطح السفينة.

اخرق السهم ظهر الرماي مما أفقده توازنه، وممر سيفه بمحاذاة بلاكتورن وانغرز في شفير السفينة. حاول بلاكتورن الابتعاد ولكن الرجل أمسك به وأسقطه على سطح السفينة بقوة وحاول أن يخلع عينيه. أصاب سهم آخر الرماي الثاني في كتفه فأسقط سيفه وهو يصرخ من الألم والغضب، ويحاول انتزاع السهم دون جدوى. أصابه السهم الثالث فتقلب جسده. تدفق الدم من فمه وهو يختنق وعيناه تحدقان، تحسس طريقه نحو بلاكتورن وسقط عليه بينما وصل آخر رماي لإنهاء المهمة، وهو يحمل خنجرًا قصيرًا للطعن في يده. وجَّه طعنة نحو الأسفل، وبلاكتورن كان بلا حول ولا قوة، لكن يد رفيقه أمسكت بذراع الخنجر، ثم اختفى رأس العدو عن عنقه، وتدفقت نافورة من الدماء إلى الأعلى. أزالوا الجثتين من فوق بلاكتورن وساعدوه للوقوف على قدميه. مسح الدماء عن وجهه ورأى بضبابية ماريكو ممددة على سطح السفينة، والرونين يحيطون بها. ابتعد عن مساعديه وتعثَّر متجهاً نحوها، لكنَّ ركبتيه خانتاه وانهار.

الفصل الخامس والعشرون

استغرق بلاكثورن عشر دقائق ليستعيد قوته بما يكفي للوقوف دون مساعدة. خلال ذلك الوقت تخلص رونين توراناغا من المصابين بجروح خطيرة وألقوا بجميع الجثث في البحر. لقي الستة البنيون وجميع الرماديين حتفهم. لقد طهروا السفينة وأعدوها للإبحار الفوري، وأرسلوا البحارة إلى مجاذيفهم ووضعوا آخرين بجوار دعامات الصواري ينتظرون فك حبال الرسو. أطفأوا جميع المشاعل. وأرسل عدد قليل من الساموراي للاستطلاع شمالاً على طول الشاطئ لاعتراض طريق بونتارو. هرع الجزء الأكبر من رجال توراناغا جنوباً إلى حاجز الأمواج الحجري الذي يبعد نحو مائة وخمسين مترًا، حيث اتخذوا موقعًا دفاعيًا قويًا مواجهين مائة من الرماديين القادمين من الفرقاطة الذين كانوا يقتربون بسرعة بعد أن رأوا الهجوم.

بعد فحص جميع مَنْ هم على متن السفينة مرتين، وضع القائد يديه حول فمه وصاح عاليًا باتجاه الشاطئ. على الفور خرج مزيدٌ من الساموراي المتخفين في هيئة رونين تحت قيادة يابو من جنح الليل، وتشكلوا على هيئة دروع دفاعية واقية، شمالاً وجنوبًا. ثم ظهر توراناغا وبدأ يسير ببطء نحو السلم وحده. لقد تخلص من كيمونو المرأة ورداء السفر الداكن وأزال مساحيق التجميل. كان الآن يرتدي درعه وفوقه كيمونو بني بسيط، وسيوف في حزامه. أغلقت الفجوة خلفه من قبل آخر حراسه وتحركت الكتيبة بخطى مدروسة نحو رصيف الميناء.

فكر بلاكثورن: وغد. أنت وغد بارد المشاعر بلا قلب، لكنَّ لك جلالًا، لا شك في ذلك.

رأى في وقت سابق ماريكو تُحمل إلى الأسفل بمساعدة شابة، وكان يفترض أنها أصيبت لكن ليس بجروح خطيرة، لأن جميع الساموراي المصابين بجروح بالغة يُقتلون في الحال إذا لم يقتلوا أنفسهم أو لم يتمكنوا من فعل ذلك، وهي ساموراي.

كانت يداه ضعيفتين للغاية لكنه أمسك بدفة القيادة ونهض بمساعدة البحارة، وشعر بتحسن، فإن النسمة الخفيفة أزالَت بقايا شعور الغثيان. راقب تورانا جا بذهن مشوش وهو لا يزال يترنح على قدميه.

ظهر وميض مفاجئ من البرج الرئيسي وصدى خافت لأجراس الإنذار. ثم شرعت النيران تتصاعد من أسوار القلعة لتصل للنجوم. إشارات تحذير.

يا يسوع، لا بد أنهم تلقوا النبأ، لا بد أنهم علموا بهروب تورانا جا.

رأى بلاكتورن تورانا جا ينظر إلى الخلف وإلى الأعلى في خضم الصمت المطبق. بدأت الأنوار تومض في جميع أنحاء المدينة. استدار تورانا جا بهدوء وعاد إلى السفينة.

دوت صرخات بعيدة حملتها الرياح من الشمال. بونتارو. لا بد أنه هو وبقية القافلة. بحث بلاكتورن في الظلام البعيد لكنه لم ير شيئاً. باتجاه الجنوب كانت الفجوة بين الرماديين المهاجمين والبنيين المدافعين تتقلص بسرعة. قدر أعدادهم. كانت متساوية تقريباً في الوقت الحالي. ولكن إلى متى؟

- انحنوا.

جثا جميع من كانوا على متن السفينة وانحنوا باحترام عندما صعد تورانا جا إلى السطح. أشار تورانا جا إلى يابو الذي تبعه. تولى يابو زمام القيادة على الفور وأصدر أوامر بالانطلاق. ركض خمسون ساموراي من الكتيبة على السلم لاتخاذ مواقع دفاعية، مواجهين الشاطئ ويشدون أوتار أقواسهم.

شعر بلاكتورن بأحد يشد كمه.

- أنجين سان.

- نعم؟

حدق إلى وجه القبطان. تلفظ الرجل بكلمات كثيرة وأشار إلى دفة قيادة السفينة. أدرك بلاكتورن أن القبطان يظنه يمسك بدفة القيادة ويطلب الإذن بالانطلاق. أجاب: «نعم يا قبطان سان، انطلق، بسرعة».

نعم، بسرعة كبيرة، قال لنفسه متسائلاً كيف تذكر كلمة «بسرعة» بهذه السهولة.

تحركت القادس ببطء بعيداً عن الرصيف بمساعدة الريح وبراعة المجذفين. ثم رأى بلاكتورن الرماديين يضربون حاجز الأمواج عند الشاطئ ويبدأ الهجوم الضاري. في تلك اللحظة هجم ثلاثة رجال وفتاة من الظلام من خلف صف قريب من القوارب على الشاطئ، وانخرطوا في مطاردة قتالية مع تسعة من الرماديين. تعرف بلاكتورن على بونتارو والفتاة سونو.

قاد بونتارو الانسحاب اليائس إلى الرصيف وسيفه ملطخ بالدماء والأسهم مغروزة في الدرع على صدره وظهره. وكانت الفتاة مسلحة برمح لكنها كانت تتعثر وقد استنفدت كل قواها. توقف أحد البنين بشجاعة لتغطية الانسحاب. فأغرقوه الرماديون. صعد بونتارو الدرجات مسرعاً والفتاة بجواره مع آخر بني، ثم استدار وهاجم الرماديين كالثور المجنون. سقط أول اثنين من على رصيف الميناء الذي يبلغ ارتفاعه ثلاثمائة متر، أحدهما كسر ظهره على الحجارة بالأسفل وسقط الآخر وهو يعوي، وقد فقد ذراعه اليمنى. تردد الرماديون للحظة، مما منح الفتاة الوقت لتصويب رمحها، لكن جميع مَن كانوا على متن السفينة أدركوا أنها لم تكن سوى بادرة. اندفع آخر بني مسرعاً متجاوزاً سيده وألقى بنفسه رأساً على عقب على العدو. قتله الرماديون ثم هاجموه جماعياً.

أطلق الرماة من السفينة قذيفة تلو الأخرى، فقتلت أو أصابت كل الرماديين المهاجمين عدا اثنين. ارتد سيف من خوذة بونتارو ليصطدم بدرع كتفه. سحق بونتارو رأس الرمادي تحت ذقنه بساعده الدرع محطماً عنقه، ثم انقض على الآخر. لقي هذا الرجل حتفه أيضاً.

كانت الفتاة الآن على ركبتيها تحاول التقاط أنفاسها. لم يضيع بونتارو الوقت في التأكد من موت الرماديين. لقد بتر رؤوسهم ببساطة بضربات فردية متقنة. ثم عندما أصبح الرصيف آمناً تماماً، استدار باتجاه البحر ولوح لتوراناجا وهو منهك ولكن سعيد. رد عليه توراناجا بالرضا نفسه.

كانت السفينة تبعد عشرين متراً تقريباً عن رصيف الميناء، وكانت الفجوة لا تزال تتسع.

صاح بلاكتورن وهو يشير بإلحاح: «يا قبطان سان، عد إلى الرصيف. بسرعة».

أطاع القبطان وأصدر الأوامر. توقفت كل المجاذيف وبدأت بالتراجع. هرع يابو على الفور إلى مؤخرة السفينة وتحدث بحدة مع القبطان. كان الأمر واضحًا. لن تعود السفينة أدراجها.

- يوجد متسع من الوقت، بحق المسيح. انظر.

أشار بلاكتورن إلى التربة المدكوكة وإلى حاجز الأمواج حيث كان الرونين يمنعون الرماديين من التقدم.

لكن يابو هز رأسه.

أصبحت الفجوة الآن سبعة وعشرين مترًا، وكان عقل بلاكتورن يصرخ: ما خطبك، هذا بونتارو زوجها.

صرخ في وجه يابو والسفينة: «لا يمكنك تركه يموت، إنه من رجالنا، إنه بونتارو».

استدار نحو القبطان قائلاً: «عد إلى هناك، بسرعة».

لكن هذه المرة هز البحار رأسه عاجزًا وتمسك بمسار الهروب، وواصل رئيس المجذفين بقرع الطبلية الكبيرة.

اندفع بلاكتورن نحو تورانايا الذي كان ظهره مواجهًا له، ويراقب الشاطئ والميناء باهتمام. على الفور اعترض أربعة من الحراس الساموراي طريقه، وسيوفهم مشهرة في وجهه. صاح: «يا تورانايا ساما، رجاء. أصدر أمرًا بعودة السفينة، هناك، رجاء... أرجوك، عد».

- لا يا أنجين سان.

أشار تورانايا إلى إشارات التحذير الصادرة من القلعة وإلى حاجز الأمواج، ثم أدار ظهره مجددًا بحزم.

- لماذا، أيها الجبان القذر...

بدأ بلاكتورن الكلام، لكنه توقف. ثم اندفع نحو شفير السفينة وانحنى فوقه. صرخ وهو يقلد حركات السباحة: «اسبحوا! اسبحوا بحق المسيح».

فهم بونتارو. ساعد الفتاة على الوقوف وتحدث إليها ودفعها برفق باتجاه حافة الرصيف لكنها صرخت وسقطت على ركبتيها أمامه. من الواضح أنها لا تستطيع السباحة.

جال بلاكتورن ببصره في السفينة بيأس. لا يوجد وقت لإطلاق قارب صغير. والمسافة بعيدة جدًا لإلقاء حبل. ولا يملك القوة الكافية للسباحة ذهابًا وإيابًا. ولا توجد سترات نجاة. وكملاذ أخير ركض نحو أقرب مجذفين، اثنان لكل مجذاف ضخم، وأوقف عملية التجذيف. تعطلت كل المجاذيف على جانب الميناء للحظة، واصطدم مجذاف بآخر. دارت السفينة بعنف، وتوقف القرع على الطبل، وأظهر بلاكتورن للمجذفين ما يريده.

تقدم اثنان من الساموراي لتقييده لكن تورانا جا أمرهما بالابتعاد.

تعاون بلاكتورن مع أربعة من البحارة وأطلقوا المجذاف مثل سهم على الجانب صوب المياه. انطلق المجذاف لمسافة ثم انغرز بقوة في الماء، وقوة دفعه حملته إلى الميناء.

في تلك اللحظة علت صيحة انتصار من حاجز الأمواج. كانت تعزيزات من الرماديين تندفق من المدينة، ورغم أن الرونين الساموراي كانوا يصدون المهاجمين الحاليين، فإنها كانت مسألة وقت فقط قبل اختراق السد. صرخ بلاكتورن: «هيا بسرعة».

سحب بونتارو الفتاة لأعلى، وأشار إلى المجذاف ثم إلى السفينة. وانحنى بضعف. أشار لها بالرحيل وحول كامل انتباهه إلى المعركة، وثبتت ساقاه الضخمتان على رصيف الميناء.

صاحت الفتاة مرة واحدة تجاه السفينة. رد صوت امرأة عليها ثم قفزت. وظهر رأسها على سطح البحر. تحركت نحوه بالمجذاف وتمكنت من الإمساك به. حمل وزنها بسهولة وراحت تركز باتجاه السفينة. التقطتها موجة صغيرة وحملتها بأمان واقتربت من القادس. ثم دفعها خوفها إلى إرخاء قبضتها وانزلق المجذاف بعيدًا. تحركت بعنف للحظة لا نهاية لها، ثم اختفت تحت سطح الماء.

ثم لم تعد قط.

أصبح بونتارو وحيدًا الآن على الرصيف يراقب كر وفر المعركة. كانت تندفق تعزيزات إضافية من الرماديين من الجنوب للانضمام إلى الآخرين، وبينهم بعض الفرسان. وكان يعلم أن حاجز الأمواج سيغرق قريبًا تحت وطأة بحر من الرجال. فحص الشمال والغرب والجنوب بعناية. ثم أدار ظهره للمعركة وتوجه إلى الطرف الآخر من الرصيف. كانت القادس راسية بأمان

على بُعد أربعة وستين مترًا من طرف الرصيف، وتنتظر. وكانت كل قوارب الصيد قد فرت منذ فترة طويلة من المنطقة، وانتظرت بعيدًا قدر الإمكان على جانبي الميناء، وتبدو مصابيحها كعيون قطط تومض في الظلام.

عندما وصل بونتارو إلى نهاية الرصيف، خلع خوذته وقوسه وجعبته ودرعه الواقي العلوي ووضعها بجانب أغمدته. وضع سيف القتل العاري والسيف القصير العاري منفصلين. ثم بعدها تجرد من ملابسه حتى الخصر، والتقط معداته وألقى بها في البحر. تفحص سيف القتل باحترام، ثم ألقاه بكل قوته بعيدًا إلى الأعماق. واختفى بصوت بالكاد يُسمع.

انحنى بونتارو باحترام تجاه القادس، وتجاه توراناغا الذي تحرك على الفور إلى مؤخرة السفينة حيث أصبح بإمكانه رؤيته. وبادله الانحناء.

جثا بونتارو ووضع السيف القصير بعناية على الحجر أمامه، فومض ضوء القمر لفترة وجيزة على النصل. وبقي بلا حراك كأنه يصلي تقريبًا، مواجهًا القادس.

تمتم بلاكتورن، كان هدوء القادس مخيفًا لا يقطعه سوى صوت قرع الطبل: «ماذا ينتظر بحق الجحيم، ماذا ينتظر؟ لماذا لا يقفز ويسبح؟».

- إنه يستعد لتنفيذ السيوكو.

كانت ماريكو تقف بالقرب وتتكئ على امرأة شابة.

- يا إلهي، ماريكو، هل أنت بخير؟

قالت وهي بالكاد تنصت إليه. كان وجهها منهكًا لكن ليس أقل جمالًا: «بخير».

رأى الضماد الخشن على ذراعها اليسرى بالقرب من الكتف حيث تمزق الكم، وذراعها مستندة إلى قطعة قماش ممزقة من كيمونو. تلطخت الضمادة بالدماء وسالت قطرة على ذراعها.

- أنا سعيد للغاية بـ...

ثم أدرك ما قالت: «سيوكو؟ سيقتل نفسه؟ لماذا؟ يوجد متسع من الوقت ليصل إلى هنا! إذا لم يكن يجيد السباحة، انظر... يوجد مجداف سيحمله بسهولة. هناك، بالقرب من الرصيف، هل تريه؟ ألا يمكنك رؤيته؟».

قالت: «نعم، لكن زوجي يستطيع السباحة يا أنجين سان. يجب على جميع ضباط الزعيم تورانا... يجب أن يتعلموا... إنه يصر على ذلك. لكنه قرر عدم السباحة».

- بحق المسيح، لماذا؟

اندلع قتال مفاجئ باتجاه الشاطئ، أُطلقت بضع بنادق، واختُرِقَ الجدار. تراجع بعض الرونين الساموراي وبدأ القتال الفردي الشرس مجددًا. هذه المرة كبخوا الهجوم برأس حربة العدو وصدوه.

- أخبريه أن يسبح.

- لن يفعل يا أنجين سان. إنه يستعد للموت.

أشار إصبع بلاكتورن نحو القتال: «إذا أراد الموت بحق المسيح، فلماذا لا يذهب إلى هناك؟ لماذا لا يساعد رجاله؟ إذا أراد الموت، لماذا لا يموت وهو يقاتل، كرجل؟».

لم تشيخ ماريكو عينيها عن الرصيف، متكئة على الشابة: «لأنه قد يُؤسر، وإذا سبَح فقد يُؤسر أيضًا، وعندئذ سيضعه العدو في عرض أمام عامة الناس، ويهينه، ويفعل أشياء فظيعة. لا يمكن أسر الساموراي ويبقى ساموراي. هذا أسوأ عار - أن يُؤسر من قبل عدو- لذلك يفعل زوجي ما يجب على الرجل الساموراي فعله. يموت الساموراي بكرامة. فما الحياة لساموراي؟ لا شيء على الإطلاق. كل الحياة معاناة، أليس كذلك؟ من حقه وواجبه أن يموت بشرف، أمام شهود».

قال بلاكتورن من بين أسنانه: «يا لها من خسارة سخيفة».

- تحلّ بالصبر معنا يا أنجين سان.

- الصبر على ماذا؟ على مزيدٍ من الأكاذيب؟ لماذا لا تثقين بي؟ ألم أكسب ثقتك؟ لقد كذبت، أليس كذلك؟ تظاهرتِ بالإغماء وكانت تلك هي الإشارة. أليس كذلك؟ سألتكِ فكذبتِ.

- لقد تلقيتُ أمرًا... كان أمرًا بحمايتكِ. بالطبع أنا أثق بك.

- لقد كذبتِ.

قال وهو يعلم أنه يتصرف بغير عقلانية، لكنه لم يعد يهتم، فهو يمقت التهاون الجنوني بالحياة ويشتهي النوم والسلام، ويشتهي طعامه وشرابه وسفينته وشعبه. تتمم بالإنجليزية: «أنتم جميعًا حيوانات».

وهو يعلم أنهم ليسوا كذلك، وابتعد.

سألت الشابة بصعوبة لإخفاء نفورها: «ماذا كان يقول يا ماريكو سان؟». كانت أطول من ماريكو بنصف رأس، وعظامها أكبر ووجهها مربع، وأسنانها صغيرة كالإبر. لقد كانت أوساجي فوجيكو، ابنة شقيقة ماريكو، وكانت تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا.

أخبرتها ماريكو بما قاله.

- يا له من رجل فظ، يا له من سلوك بغيض. مقزز، أليس كذلك؟ كيف تتحملين البقاء بالقرب منه؟

- لأنه أنقذ شرف سيدنا. لولا شجاعته، أنا متأكدة من أن الزعيم توراناكا كان سيؤسّر... لكننا أُسّرنا جميعًا.

ارتعدت كلتا المرأتين.

- الآلهة حمتنا من ذلك العار.

ألقت فوجيكو نظرة على بلاكثورن الذي كان يتكئ على شفير السفينة عند سطحها، وهو يحدق إلى الشاطئ. فحصت ملامحه للحظة. قالت: «يبدو كقرد ذهبي بعيون زرقاء... مخلوق يخيف الأطفال. إنه فظيع، أليس كذلك؟». ارتجفت فوجيكو وتجاهلته ونظرت مجددًا إلى بونتارو. بعد لحظة قالت: «أنا أغبط زوجك يا ماريكو سان».

أجابت ماريكو بحزن: «نعم، ولكنني أتمنى لو كان لديه أحدٌ يساعده».

حسب العادة، كان يوجد دائمًا ساموراي آخر يساعد في السيوكو، ويقف خلف الرجل الجاثي مباشرة، ليقوم بقطع رأسه بضربة واحدة قبل أن يصبح الألم لا يطاق ولا يمكن السيطرة عليه ويجلب العار للرجل في أهم لحظة في حياته. لم يستطع سوى قلة من الرجال الموت بكرامة دون مساعدة.

قالت فوجيكو: «إنها الكارما».

- نعم. أشفق عليه. هذا هو الشيء الوحيد الذي كان يخشاه... ألا يكون لديه مساعد.

- نحن أكثر حظًا من الرجال، أليس كذلك؟

كانت نساء الساموراي ينتحرن بالسيبوكو بطعن أنفسهن في حلقهن وبالتالي لم يحتجن إلى المساعدة.
قالت ماريكو: «بلى».

دوى صوت صراخ وصرخات قتال تحملها الرياح، فشئت انتباههما. اخترق حاجز الأمواج مرة أخرى. واندفعت مجموعة صغيرة مكونة من خمسين من الرونين الساموراي التابعين لتوراناجا من الشمال لدعمهم، وبينهم بعض الفرسان. كُبح الاختراق مجددًا بضراوة، ولم يُطلب أو يُمنح أي عفو، تراجع المهاجمون إلى الخلف واكتسبوا بضع لحظات إضافية.

كان بلاكتورن يسأل بمرارة: وقت لماذا؟ لقد أصبح توراناجا بأمان الآن. لقد أبحر. لقد خانكم جميعًا.
عاد قرع الطبل مجددًا.

غاصت المجاذيف في الماء، وانخفضت مقدمة السفينة وبدأت تشق طريقها عبر الأمواج، وخلفها ظهر أثر السفينة. لا تزال إشارات التحذير مشتعلة من أسوار القلعة أعلاه. كانت المدينة بأكملها شبه يقظة.

ضربت الفرقة الرئيسية من الرماحيين حاجز الأمواج. توجهت أنظار بلاكتورن إلى بونتارو. قال بالإنجليزية: «أيها المسكين الوغد، أيها المسكين الوغد الأحمق».

استدار على عقبيه وسار على الدرج على طول سطح السفينة الرئيسي نحو القيدوم لمراقبة المياه الضحلة في المقدمة. لم يلاحظ أحد رحيله عن مؤخرة السفينة باستثناء فوجيكو والقبطان.

واصل المجذفون التجذيف بانضباط دقيق وكانت السفينة تشق طريقها. كان البحر هادئًا والرياح مواتية. تذوق بلاكتورن الملح ورحب به. ثم اكتشف السفن التي تكدست عند مدخل الميناء على بعد نصف فرسخ. نعم لقد كانت سفن صيد، لكنها كانت مكتظة بالساموراي.

قال بصوت عالٍ وهو يعلم بطريقة ما أنهم أعداء: «نحن محاصرون».
اهتزت السفينة. وكل من شاهد المعركة على الشاطئ تحولوا في انسجام تام.

نظر بلاكثورن إلى الخلف. الرماذيون يسيطرون بهدوء على حاجز الأمواج، بينما آخرون يتجهون بهدوء نحو الرصيف باتجاه بونتارو، لكن أربعة فرسان -من البنين- يسرعون عبر التربة المدكوكة من الشمال، وكان يوجد حصان خامس، حصان احتياطي، مقيّدًا بالقائد. صعد هذا الرجل على الدرجات الحجرية العريضة إلى الرصيف مع الحصان الاحتياطي وأسرع على امتداده بينما اندفع الثلاثة الآخرون نحو الرماذيين المتقدمين. نظر بونتارو حوله أيضًا لكنه ظل جاثيًا، وعندما أمسك الرجل بلبام الحصان خلفه، أشار إليه بالرحيل وأمسك الخنجر بكلتا يديه، والنصل موجه لجسده. على الفور وضع توراناغا يديه حول فمه وصرخ: «بونتارو سان! اذهب معهم الآن... حاول الهروب».

اجتاحت الصرخة الأمواج وترددت حتى سمعها بونتارو بوضوح. تردد مصدومًا والسكين في وضع الاستعداد. دوى النداء مجددًا، مُلحًا وحتميًا. انتشل بونتارو نفسه من الموت بجهد، وتأمل الحياة والهروب الذي أمر به ببرود. كان الخطر جسيمًا. قال لنفسه: من الأفضل أن أموت هنا. ألا يعلم توراناغا ذلك؟ هنا موت مشرف. أما هناك، أسر شبه مؤكد. إلى أين المفر؟ طوال الطريق إلى إيدو نحو ثلاثمائة ري؟ أنت متأكد من أنك ستؤسر.

شعر بالقوة في ذراعه، ورأى الخنجر الثابت الراسخ ذا النصل المدبب كالإبرة يحوم بالقرب من بطنه العاري، وكان يتوق إلى التخلص من عذاب الموت أخيرًا. أخيرًا موت للتكفير عن كل العار: عار ركوع والده أمام راية توراناغا عندما كان يتعين عليهم الحفاظ على الولاء ليايمون -وريث التايكو- كما تعهدوا أن يفعلوا. وعار قتل الكثير من الرجال الذين خدموا بشرف قضية التايكو ضد المغتصب توراناغا. وعار المرأة ماريكو وابنه الوحيد، كلاهما وصمة عار إلى الأبد، الابن بسبب الأم وهي بسبب والدها، القاتل الوحشي أكيتشي جينساي. وعار معرفة أن اسمه تشوه إلى الأبد بسببهما.

كم من عذاب لم أتحملة بسببها؟

صرخت روحه تتوق إلى النسيان. الآن كان قريب جدًا وسهل وشريف. ستكون الحياة التالية أفضل. كيف يمكن أن تكون أسوأ؟

ومع ذلك، وضع السكين جانبًا وأطاع، وألقى بنفسه مجددًا في هاوية الحياة. لقد أمره زعيمه الإقطاعي بالمعاناة النهائية وقرر إلغاء محاولته للسلام. ما المطلوب من الساموراي غير الطاعة؟

قفز لأعلى وألقى بنفسه على السرج، وثبت كعبيه في جنبي الحصان، وهرب هو والرجل الآخر معًا. وخرج فرسان رونين آخرون من الليل لحراسة انسحابهم وقتلوا الرماة المتقدمين. ثم اختفوا هم أيضًا، وكان عدد قليل من الفرسان الرماة يلاحقونهم.

انفجر الضحك فوق السفينة.

كان توراناغا يضرب شفير السفينة بقبضته بسعادة، وكان يابو والساموراي يهدرون. حتى ماريكو كانت تضحك.

صاح بلاكتورن بغضب: «هرب رجل واحد، ولكن ماذا عن جميع القتلى؟ انظروا إلى الشاطئ... لا بد أنه يوجد ثلاثمائة أو أربعمائة جثة هناك. انظروا إليهم بحق المسيح».

لكن صرخته لم تُسمع وسط الضحك.

ثم دوت صيحة إنذار من مراقب القيدوم. وتوقف الضحك.



الفصل السادس والعشرون

قال تورانا جا بهدوء: «هل نستطيع اختراقهم يا قبطان؟».

كان يراقب قوارب الصيد المجموعة على بعد أربعمائة وخمسين مترًا، والممر المغربي الذي تركوه بينها.

- لا يا سيدي.

قال يابو: «ليس لدينا بديل، لا يوجد شيء آخر يمكننا فعله».

حدق بغضب إلى الخلف حيث ينتظر الرماذيون المتجمعون على الشاطئ وعلى الرصيف، وكانت إهاناتهم الخافتة والساخرة تُحمل على الريح.

كان تورانا جا ويابو الآن في مقدمة السفينة. توقف القرع على الطبل وترنحت القادس في بحر هادئ. انتظر كل من على متن السفينة ليروا ما سيقرر. كانوا يعلمون أنهم محاصرون بإحكام. كارثة على الشاطئ، وكارثة أمامهم وستحدث كارثة إذا انتظروا. ستقترب الشباك أكثر فأكثر ثم سيأسرون. بإمكان إيشيدو الانتظار لأيام إذا لزم الأمر.

كان يابو يغلي غضبًا. قال لنفسه: لو أننا هرعنا مباشرة إلى مدخل الميناء بعد أن صعدنا إلى متن السفينة بدلًا من إضاعة الوقت بلا فائدة على بونتارو، لكننا الآن بأمان في عرض البحر. تورانا جا يفقد صوابه. سيظن إيشيدو أنني خنته. لا يوجد شيء يمكنني فعله... إلا إذا تمكنا من الخروج عن طريق القتال، وحتى حينئذ أنا ملزم بالقتال من أجل تورانا جا ضد إيشيدو. لا يوجد شيء يمكنني فعله. باستثناء أن أعطي إيشيدو رأس تورانا جا. أليس كذلك؟ سيجعلك هذا الوصي ويجلب لك الكانتو، أليس كذلك؟ ثم مع ستة أشهر من الوقت والساموراي المسلحين بالبنادق، لماذا لا أصبح حتى رئيس مجلس الوصاية؟ أو لماذا لا تكون الجائزة الكبرى! تخلص من إيشيدو وتصبح القائد العام للوريث، والزعيم الحامي وحاكم قلعة أوساكا، القائد المسيطر على كل

الثروة الأسطورية في البرج الرئيسي، مع سلطة على الإمبراطورية حتى يبلغ يايمون، وبعد ذلك سلطة لا يضاهيك فيها سوى يايمون. لم لا؟
أو حتى الجائزة الأكبر على الإطلاق. شُوجَن. تخلص من يايمون ثم ستصبح شُوجَن.

كل هذا من أجل رأس واحد وبعض الآلهة الخيرة.

شعرت ركبتا يابو بالضعف بينما كان شوقه يزداد. فكر: يا له من أمر سهل تنفيذه، ولكن لا توجد طريقة لانتزاع الرأس والهروب... بعد.
أمر توراناغا أخيرًا: «أصدر الأوامر لوحداث الهجوم».

وبينما كان يابو يعطي الأوامر وبدأ الساموراي يستعدون، حول توراناغا انتباهه إلى الهمجي الذي كان لا يزال بالقرب من مقدمة السفينة، حيث توقف عندما أطلق الإنذار، متكئًا على الصاري الرئيسي القصير.

فكر توراناغا: أتمنى لو أن بإمكانني فهمه. في لحظة يبدو شجاعًا جدًا، واللحظة التالية ضعيفًا جدًا. لحظة ثمينًا جدًا، واللحظة التالية عديم الجدوى. لحظة قاتلًا، واللحظة التالية جبانًا. لحظة مطيعًا، واللحظة التالية خطرًا. إنه رجل وامرأة، خير وشر. إنه لا شيء سوى نقیضین، ولا يمكن التنبؤ به. لقد درسه توراناغا بعناية في أثناء الفرار من القلعة، في أثناء الكمين وبعده. لقد سمع من ماريكو والقبطان وآخرين عما حدث خلال القتال على متن السفينة. لقد شهد غضبه المذهل قبل لحظات قليلة، ثم سمع الصرخة ورأى من خلال عينيه الملتئمتين الاشمئزاز الظاهر على وجه الرجل عندما أرسل بونتارو بعيدًا، ثم عندما كان يفترض أن يكون هناك ضحك، لم يكن يصدر منه سوى غضب.

لماذا لا يضحك المرء عندما يتفوق على عدو؟ لماذا لا يضحك المرء ليفرغ المأساة من داخله عندما تقاطع الكارما الموت الجميل لساموراي حقيقي، وعندما تتسبب الكارما في موت فتاة جميلة بلا فائدة؟ أليس فقط من خلال الضحك نصبح واحدًا مع الآلهة وبالتالي يمكننا تحمل الحياة والتغلب على كل الرعب والهدر والمعاناة هنا على الأرض؟ مثل هذه الليلة، ونحن نشاهد كل هؤلاء الرجال الشجعان يلقون حتفهم هنا، على هذا الشاطئ، في هذه الليلة اللطيفة، من خلال كارما مقدرة منذ آلاف الأرواح، أو ربما حتى حياة واحدة.
أليس من خلال الضحك فقط يمكننا أن نظل بشرًا؟

لماذا لا يدرك الربان أن الكارما تحكمه أيضًا مثلي، ومثلنا جميعًا، ومثلما كان حتى هذا المسيح يسوع، لأنه إذا عُرِفَت الحقيقة، فإن الكارما الخاصة به هي وحدها التي جعلته يموت مُهانًا مثل مجرم عادي مع مجرمين آخرين عاديين، على التلة التي يتحدث عنها الكهنة الهمج. كل شيء كارما.

يا للوحشية أن يُصلب رجل على قطعة من الخشب ويُترك ليموت. إنهم أسوأ من الصينيين الذين يستمتعون بالتعذيب. قال توراناغا: «اسأله يا يابو سان».

- سيدي؟

- اسأله ماذا يجب أن نفعل. الربان. أليست هذه معركة بحرية؟ ألم تخبرني أن الربان عبقرى في البحر؟ جيد، دعنا نر ما إذا كنت على حق. دعه يثبت ذلك.

كان فم يابو خطأ قاسيًا محكمًا، وشعر توراناغا بخوف الرجل وأسعده ذلك.

صاح يابو: «يا ماريكو سان، اسألي الربان عن كيفية الخروج... كيفية اختراق تلك السفن».

انصاعت ماريكو وابتعدت عن شفير السفينة، ولا تزال الفتاة تساعدنا. قالت: «لا، أنا بخير الآن يا فوجيكو سان، شكرًا لك».

تركتها فوجيكو تذهب وراقبت بلاكتورن بكره. كانت إجابة بلاكتورن قصيرة.

قالت ماريكو: «يقول باستخدام المدافع يا يابو سان».

- أخبريه أنه يتعين عليه أن يفعل أفضل من ذلك إذا أراد الاحتفاظ برأسه. قاطعه توراناغا: «يجب أن نتحلّى بالصبر معه يا يابو سان. أخبريه بأدب يا ماريكو سان: «للأسف ليس لدينا مدافع. هل توجد طريقة أخرى للخروج؟ إنه أمر مستحيل عن طريق البر». ترجمي بالضبط ما يقول».

فعلت ماريكو ذلك. وقالت: «أنا آسفة يا زعيم، لكنه يقول لا. هكذا تمامًا. «لا». ليس بأدب».

حرك تورانا جا حزامه وحك تحت درعه. وقال بلطف: «حسنًا إذن، يقول أنجين سان مدافع وهو الخبير، إذن فهي مدافع. اذهب إلى هناك يا قبطان». وأشار بإصبعه الحادة والمتصلبة بوحشية إلى الفرقاطة البرتغالية. مضيقًا: «جهز الرجال يا يابو سان. إذا لم يعيرني الهمج الجنوبيون مدافعهم، فسيتعين عليك أخذها. أليس كذلك؟».

قال يابو بلين: «بكل سرور».

- لقد كنت على حق، إنه عبقرى حقًا.

- ولكنك أنت من وجد الحل يا تورانا جا سان.

- من السهل إيجاد الحلول عندما تكون الإجابة موجودة، أليس كذلك؟ ما الحل لقلعة أوساكا يا حليفي؟

- لا يوجد حل. كان التايكو مثاليًا في ذلك.

- نعم. ما هو حل الخيانة؟

- بالطبع، الموت المخزي. لكن لا أفهم لماذا تسألني ذلك.

- مجرد فكرة عابرة يا حليفي.

نظر تورانا جا نحو بلاكثورن: «نعم، إنه رجل ذكي. أنا في حاجة ماسة إلى الرجال الأذكياء. هل سيعطيني الهمج مدافعهم يا ماريكو سان؟».

قالت: «بالطبع. لماذا لا ينبغي لهم فعل ذلك؟».

لم يخطر ببالها مطلقًا أنهم سيرفضون. كانت لا تزال تشعر بالقلق على بونتارو. كان من الأفضل بكثير السماح له بالموت هناك. لماذا المخاطرة بشرفه؟ تساءلت لماذا أمر تورانا جا بونتارو بالرحيل برًا في اللحظة الأخيرة. كان بإمكان تورانا جا بسهولة أن يأمره بالسباحة إلى القارب. ذلك أكثر أمانًا وكان يوجد متسع من الوقت. حتى إنه بإمكانه أن يأمر بذلك عندما وصل بونتارو في البداية إلى نهاية الرصيف. لماذا الانتظار؟ أجابت نفسها الأكثر سرية أنه بلا بد أن سيدهم يملك سبب وجيه للانتظار وإصدار مثل هذا الأمر.

سأل تورانا جا: «وإذا لم يفعلوا ذلك؟ هل أنت مستعدة لقتل المسيحيين يا ماريكو سان؟ أليس هذا هو قانونهم الأكثر صرامة؟ لا تقتل؟».

أجابت: «نعم، إنه كذلك. لكن من أجلك يا سيدي، سنذهب بكل سرور إلى الجحيم، أنا وزوجي وابني».

- نعم. أنتِ ساموراي حقيقية ولن أنسى أنك رفعتِ سيفًا للدفاع عني.
- رجاءً لا تشكرني. إذا كنتُ قد ساعدت بأي شكل بسيط، فقد كان واجبي. إذا كان يوجد مَنْ يجب تذكّره، فليكن زوجي أو ابني. إنهم أكثر قيمة بالنسبة لك.
- في هذه اللحظة، أنتِ أكثر قيمة بالنسبة لي. وربما يمكنكُ أن تصبحي أكثر قيمة.
- أخبرني كيف يا سيدي. وسيتم ذلك.
- تخلي عن هذا الإله الأجنبي.
- تجمد وجهها: «سيدي؟».
- تخلي عن إلهك. لديك الكثير من الولاءات.
- هل تقصد أن أصبح مرتدة يا سيدي؟ أتخلي عن المسيحية؟
- نعم، إلا إذا استطعتِ وضع هذا الإله حيث ينتمي، في أعماق روحك، وليس في مقدمتها.
- قالت بصوت مرتعش: «اعذرني يا سيدي، لكن ديني لم يتدخل قط في ولائي لك. لقد أبقيت ديني دائمًا مسألة شخصية، طوال الوقت. كيف خذلتك؟».
- لم تخذليني بعد. لكنك ستفعلين.
- أخبرني ما يجب أن أفعله لإرضائك.
- قد يصبح المسيحيون أعدائي، أليس كذلك؟
- أعداؤك هم أعدائي يا سيدي.
- يعارضني الكهنة الآن. وقد يأمرّون جميع المسيحيين بمحاربتني.
- لا يمكنهم فعل ذلك يا سيدي. إنهم رجال سلام.
- وإذا استمروا في معارضتي؟ إذا حاربني المسيحيون؟
- لن تضطر أبدًا إلى الخوف من ولائي. أبدًا.
- ربما يكون أنجين سان هذا صادق، وكهنتك هم مَنْ يتكلمون بالسنة كاذبة.
- يوجد كهنة صالحون وكهنة سيئون يا سيدي. لكنك زعيم الإقطاعي.

قال توراناها: «جيد جدًا يا ماريكو سان. سأقبل ذلك. أنتِ مأمورة بأن تصبحي صديقة لهذا الهمجي، وأن تتعلمي كل ما يعرفه، وأن تبلغني بكل ما يقوله، وأن تتعلمي التفكير مثله، وأن لا تعترفي بشيء عما تفعلينه، وأن تعاملني جميع الكهنة بريبة، وأن تبلغيني بكل ما يطلبه منك الكهنة أو يقولونه لك. يجب أن يتناسب إلهك بين كل هذا، في مكان آخر... أو لا مكان على الإطلاق».

حركت ماريكو خصلة شعر بعيدًا عن عينيها: «أستطيع فعل كل ذلك يا سيدي، وأظل مسيحية في الوقت نفسه. أقسم بذلك».

- جيد. أقسمي بهذا الإله المسيحي.

- أقسم بالإله.

- جيد.

ثم التفت توراناها ونادى: «فوجيكو سان».

- نعم يا سيدي؟

- هل أحضرتِ معكِ خادمت؟

- نعم يا سيدي. اثنتان.

- أعطي إحدهما لماريكو سان. وأرسلني الأخرى لإحضار الشاي.

- يوجد ساكي إذا رغبت.

- شاي. هل ترغب في الشاي أم الساكي يا يابو سان؟

- الشاي، رجاءً.

- أحضري ساكي لأنجين سان.

سلط الضوء على الصليب الذهبي الصغير المعلق على رقبة ماريكو، رأت

نظرة توراناها تتجه نحوه. فسألت: «أنت... أتريد مني ألا أرتديه يا سيدي؟ أن أتخلص منه؟».

قال: «لا. ارتديه كتذكير لقسمك».

كان الجميع يراقبون الفرقاطة. شعر توراناها بأحد ينظر إليه فألقى نظرة

حواله. ورأى الوجه القاسي والعينين الزرقاوين الباردتين وأحس بالكراهية...

لا، ليس كراهية، بل الشك. فكر: كيف يجروُ الهمجي على الشك بي.

قال: «أسألي أنجين سان لماذا لم يقل ببساطة إنه يوجد الكثير من المدافع على السفينة الهمجية؟ لجعلهم يرافقوننا للخروج من هذا المأزق؟».

ترجمت ماريكو. أجاب بلاكتورن.

- إنه يقول...

ترددت ماريكو للحظة، ثم تابعت على عجل: «عذرًا يا سيدي، لقد قال: من الجيد له أن يستخدم رأسه».

ضحك توراناها: «اشكركه على رأسه. لقد كان مفيدًا للغاية. أمل أن يبقى على كتفيه. أخبريه أننا الآن متساويان».

- قال: لا، لسنا متساويين يا توراناها ساما. ولكن أعطني سفينتي وطاقمًا وسأطهر البحار من أي عدو.

- يا ماريكو سان، هل تعتقدين أنه كان يقصدني أنا أيضًا وكذلك الآخرين... الإسبان والهمج الجنوبيين؟

طُرح السؤال ببساطة.

هَبَّ النسيم وحرك خصلات من شعرها نحو عينيها. دفعتها بعيدًا بإرهاق: «معذرة لكني لا أعلم. ربما، وربما لا. هل تريدني أن أسأله؟ أنا آسفة، لكنه... إنه غريب جدًا. أخشى أنني لا أفهمه. على الإطلاق».

- لدينا متسع من الوقت. نعم. مع الوقت سيشرح نفسه لنا.

رأى بلاكتورن الفرقاطة تتحرر بهدوء من مراسيها لحظة ابتعاد حراسها الرماديين على عجل. شاهدها تطلق قارب التجذيف الخاص بها، الذي حرك سريعًا السفينة بعيدًا عن رصيفها عند رصيف الميناء، إلى مجرى المياه. الآن كانت تقع على بعد بضع مئات الأمتار قبالة الشاطئ في المياه العميقة، آمنة، ومرساة القيدوم الخفيفة تثبتها برفق جانبيًا تجاه الشاطئ. كانت هذه المناورة المعتادة لجميع السفن الأوروبية في الموانئ الغربية أو المعادية عندما يهددهم خطر من الشاطئ. كان يعلم أيضًا أنه رغم عدم وجود -ولم تكن قد وُجدت- أي حركة غير متوقعة على سطح السفينة، فبحلول الآن ستكون جميع المدافع جاهزة، وسيتمسحون بالبنادق، والقنابل العنقودية وقذائف المدافع والرصاص بوفرة، والسيوف منتظرة في رفوفها، والرجال المسلحون يراقبون في الأعلى من خلف الستائر. ستكون أعينهم تفحص جميع نقاط

البوصلة. كانوا سيلاحظون القادس في اللحظة التي غيرت مسارها. المدفعان الخلفيان الثلاثين رطلًا الموجهان مباشرة نحوهما، سيصوبان صوبهما بدقة. كان الجنود البرتغاليون الأفضل في العالم، بعد الإنجليز.

قال لنفسه بمرارة شديدة: وسيعرفون عن أمر تورانا، لأنهم أذكاء ولا بد أنهم سألوا حمّالهم أو الرماة عن سبب كل هذه المشكلات. أو ربما يكون اليسوعيون الملعونون الذين يعرفون كل شيء قد أرسلوا الآن أخبارًا عن هروب تورانا، وعني.

شعر بأن شعره القصير يتجعد. أي واحد من تلك الأسلحة قادرٌ على تفجيرنا تمامًا. نعم، لكننا آمنون لأن تورانا على متن السفينة. الحمد للرب على وجود تورانا.

قالت ماريكو: «يسأل سيدي: ما عادتكم عندما تريدون الاقتراب من سفينة حربية؟».

- إذا كانت لديكم مدافع فستطلقون تحية. أو يمكنك الإشارة بالعلم، تطلبون الإذن بالاقتراب.

- يقول سيدي: وإذا لم يكن لديكم علم؟

رغم أنهم كانوا لا يزالون خارج نطاق المدافع، فإنه بالنسبة لبلاتكثورن، كان الأمر تقريبًا كما لو كان يتسلق بالفعل أسفل أحد البراميل، رغم أن منافذ المدافع لا تزال مغلقة. كانت السفينة تحمل ثمانية مدافع على كل جانب من سطحها الرئيسي، واثنين في المؤخرة واثنين في المقدمة. قال لنفسه: إيراسموس يمكنها الاستيلاء عليها بلا شك، بشرط أن يكون الطاقم على قدر المسؤولية. أودُّ الاستيلاء عليها. استيقظ، توقف عن أحلام اليقظة، نحن لسنا على متن إيراسموس، بل على متن هذه القادس المحطمة، والسفينة البرتغالية هي أملنا الوحيد. تحت بنادقها نحن آمنون. بارك حظك على وجود تورانا.

- أخبروا القبطان أن يرفع علم تورانا على أعلى صارية السفينة. ذلك سيكون كافيًا يا سيدتي. سيجعل الأمر رسميًا ويخبرهم من على متنها، لكنني أراهن أنهم يعرفون بالفعل.

نُفذ ذلك بسرعة. بدا جميع من على متن القادس أكثر ثقة الآن. لاحظ بلاتكثورن التغيير. حتى إنه شعر بتحسن تحت العلم.

- يقول سيدي: ولكن كيف نخبرهم أننا نرغب في الاقتراب؟

- أخبريه أنه من دون أعلام الإشارة أمامه خياران: إما أن ينتظر خارج نطاق المدافع ويرسل وفدًا من على متنها في قارب صغير، أو نذهب مباشرة إلى مسافة تسمح بالقاء تحية.

- يقول سيدي، أيهما تنصح به؟

- اقترب مباشرة. لا داعي للحذر. الزعيم تورانا جا على متن السفينة. إنه الدايملو الأهم في الإمبراطورية. بالطبع ستساعدنا و... يا يسوع!

- سيدي؟

لكنه لم يجب، فترجمت بسرعة ما قيل واستمعت إلى سؤال تورانا جا التالي. قالت: «يسأل سيدي: ما الذي ستفعله الفرقاطة؟ رجاءً اشرح رأيك والسبب الذي جعلك تتوقف».

- أدركت فجأة أنه في حالة حرب مع إيشيدو الآن. أليس كذلك؟ لذلك قد لا تميل الفرقاطة إلى مساعدته.

- بالطبع سيساعدونه.

- لا. أي طرف يُفيد البرتغاليين أكثر، الزعيم تورانا جا أم إيشيدو؟ إذا كانوا يعتقدون أن إيشيدو سيفيدهم، فسيفجروننا تمامًا ويغرقوننا.

قالت ماريكو على الفور: «من غير المعقول أن يطلق البرتغاليون النار على أي سفينة يابانية».

حدق بلاكتورن إلى الشاطئ: «صدقيني سيفعلون يا سيدتي. وأراهن أن تلك الفرقاطة لن تسمح لنا بالاقتراب. لن أفعل ذلك لو كنت ربانها. يا يسوع المسيح!».

غادر الرماذيون العنيفون الآن رصيف الميناء وانتشروا بموازة الشاطئ. فكر: لا توجد فرصة هناك. ولا تزال قوارب الصيد تسد عنق الميناء بشرًّا. لا توجد فرصة هناك أيضًا. قال: «أخبري تورانا جا أنه توجد طريقة أخرى فقط للخروج من الميناء. وهي الأمل في حدوث عاصفة. ربما نتمكن من تجاوزها، حيث لا تستطيع قوارب الصيد ذلك. ثم يمكننا التسلل عبر الشبكة».

استجوب تورانا جا القبطان فأجابه باستفاضة، ثم قالت ماريكو لبلاكتورن: «يسأل سيدي: هل تعتقد أنه ستكون هناك عاصفة؟».

- أنفي يخبرني ذلك. ولكن ليس قبل عدة أيام. ربما يومان أو ثلاثة. هل يمكننا الانتظار كل هذا الوقت؟
- أنكف يخبرك؟ هل للعاصفة رائحة؟
- لا يا سيدتي. إنه مجرد تعبير.
- ففكر توراناا ملئاً. ثم أعطى أمراً.
- سنقترب إلى مسافة تسمح بالتحية يا أنجين سان.
- إذن أخبريه أن يمضي خلفها مباشرة. بهذه الطريقة نكون الهدف الأصغر. أخبريه أنهم خونة... فأنا أعلم مدى خيانتهم عندما تتعرض مصالحهم للتهديد. إنهم أسوأ من الهولنديين. إذا ساعدت تلك السفينة توراناا على الهروب، فسيستهدف إيشيدو جميع البرتغاليين وهم لن يخاطروا بذلك.
- يقول سيدي إننا سنحصل على تلك الإجابة قريباً.
- نحن مكشوفون يا سيدتي. ليس لدينا أي فرصة أمام تلك المدافع. إذا كانت السفينة معادية -حتى لو كانت محايدة ببساطة- فمصيرنا الغرق.
- يقول سيدي: نعم، ولكن سيكون من واجبك إقناعهم بالمساعدة.
- كيف يمكنني فعل ذلك؟ أنا عدوهم.
- يقول سيدي: في الحرب والسلام، يمكن للعدو الجيد أن يكون أكثر قيمة من الحليف الجيد. ويقول إنك ستفهم تفكيرهم، وستفكر في طريقة لإقناعهم.
- الطريقة الوحيدة المؤكدة هي بالقوة.
- يقول سيدي: جيد. أوافق. رجاءً أخبرني كيف يمكنك قرصنة تلك السفينة.
- ماذا؟
- قال: جيد، أوافق. كيف يمكنك قرصنة تلك السفينة، كيف تغزوها؟ أنا بحاجة إلى استخدام مدافعهم. معذرةً أليس هذا واضحاً يا أنجين سان؟

صاح القبطان قائد الأسطول فيريرا: «ومجددًا أقول إنني سأقصفها حتى تغرق».

أجاب ديل أكوأ مراقبًا القادس من مؤخرة السفينة: «لا».

- هل هي في نطاق المدافع بعدُ يا مدفعي؟

أجاب قائد المدفعية: «لا يا دون فيريرا. ليس بعد».

- لماذا تقترب منا إذن إن لم يكن لأسباب عدائية، يا صاحب النيافة؟ لماذا لا تفر ببساطة؟ الطريق خالٍ.

كانت الفرقاطة بعيدة جدًا عن مدخل الميناء بحيث لا يرى أي شخص على متنها قوارب الصيد العدائية التي تتربص في كمينٍ.

قال فيريرا: «لا نخاطر بشيء يا صاحب النيافة، ونكسب كل شيء. نتظاهر بأننا لا نعلم بوجود توراناغا على متنها. كنا نظن أن قطاع الطرق -قطاع الطرق بقيادة القرصان الهرطوقي- سيهاجمونا. لا تقلق، سيكون من السهل استفزازهم بمجرد دخولهم النطاق».

أمر ديل أكوأ: «لا».

التفت الأب ألفيتو من شفير السفينة: «ترفع القادس علم توراناغا يا قبطان».

قال فيريرا بسخرية: «ألوان زائفة. هذه أقدم خدعة بحرية في العالم. لم نرَ توراناغا. ربما ليس على متنها».

- لا.

- يا إلهي، ستكون الحرب كارثة. ستضر برحلة السفينة السوداء لهذا العام، إن لم تكن ستدمرها. لا يمكنني تحمل ذلك. لن أسمح لأي شيء بالتدخل في الرحلة.

قال ديل أكوأ: «شؤوننا المالية في وضع أسوأ من شؤونك يا قبطان. إذا لم نتاجر هذا العام، ستُفلس الكنيسة، هل هذا واضح؟ لم نتلَقَ أي أموال من جوا أو لشبونة منذ ثلاث سنوات بالإضافة إلى خسارة أرباح العام الماضي... يا إلهي أعطني الصبر! أنا أدرك أكثر منك ما هو على المحك. الجواب هو لا».

كان رودريجز جالسًا بألم في كرسيه البحري، وساقه موضوعة في جيبيرة تستريح على كرسي مبطن ومثبت بأمان بالقرب من صندوق البوصلة. قال:

«القبطان على حق يا صاحب النيافة. لماذا تقترب منا، إن لم تكن تحاول فعل شيء؟ لماذا لا تفر، أليس كذلك؟ لدينا فرصة ذهبية هنا يا صاحب النيافة».

قال فيريرا: «بلى، وهذا قرار عسكري».

التفت ألفيتو نحوه بحدة: «لا، إن صاحب النيافة هو الحكم في هذا الأمر يا قبطان. يجب ألا نؤذي تورانا. يجب أن نساعد».

قال رودريجز: «لقد أخبرتني عشرات المرات أنه فور اندلاع الحرب ستستمر إلى الأبد. ألم تندلع الحرب بالفعل؟ لقد شهدنا بدايتها. سيؤثر ذلك بالتأكيد على التجارة. بموت تورانا تنتهي الحرب وتؤمن جميع مصالحننا. أقول أن ندمر السفينة ونرسلها إلى الجحيم».

أضاف فيريرا وهو يراقب رودريجز: «حتى إننا سنتخلص من الهرطوقي أيضاً. تمنع حرباً من أجل مجد الرب، ويذهب هرطوقي آخر إلى العذاب».

أجاب ديل أكو متجنباً السبب الحقيقي: «سيشكل هذا تدخلاً غير مبرر في سياساتهم».

- نحن نتدخل طوال الوقت، أليس كذلك يا صاحب النيافة؟ الجمعية اليسوعية مشهورة بذلك. نحن لسنا فلاحين بسطاء أغبياء.
- لا أقول إنك كذلك. ولكن بينما أنا على متن السفينة فإنك لن تغرق تلك السفينة.
- إذن تفضل بالذهاب إلى الشاطئ.

اقترح رودريجز: «كلما مات هذا القاتل بسرعة، كان ذلك أفضل يا صاحب النيافة. هو أو إيشيدو، ما الفرق؟ كلاهما وثنى، ولا يمكننا الوثوق بأي منهما. إن القبطان على حق. لن نحصل على فرصة كهذه مجدداً. وماذا عن سفينتنا السوداء؟».

كان رودريجز سيحصل على نسبة خمسة عشر بالمئة من الأرباح بصفته رباناً. لقد لقي الربان الحقيقي للسفينة السوداء حتفه بسبب مرض الجدري في ماكاو قبل ثلاثة أشهر ونُقل رودريجز من سفينته الخاصة سانتا تيريزا إلى هذا المنصب الجديد، لسعادته الغامرة. ذكر رودريجز نفسه بتجهم: كان الجدري هو السبب الرسمي، رغم أن كثيرين قالوا إن الربان الآخر تعرض للطعن في ظهره على يد رونين في نزاع في بيت بغاء. يا إلهي، هذه فرصتي العظيمة، ولا شيء سيقف في طريقي.

قال فيريرا: «سأتولى كامل المسؤولية. إنه قرار عسكري. نحن متورطون في حرب أهلية. سيفينتي في خطر».

ثم التفت مجددًا نحو قائد المدفعية: «هل هم في النطاق بعد؟».

نفخ قائد المدفعية على طرف الفتيلة مما جعلها تتوهج وتحدث شررًا: «حسنًا يا دون فيريرا، هذا يعتمد على ما ترغب فيه. يمكنني اقتطاع قيدومها الآن أو مؤخرتها، أو أضرب وسطها، أيهما تفضل. ولكن إذا كنت تريد أن يموت رجل، رجل معين، فإن تأخير لحظة أو اثنتين سيجعلهم في نطاق القتل».

- أريد أن يموت تورانا جا، والهرطوقي.

- أتعني الإنجليزي يا ربان؟

- نعم.

- سيتعين على أحد ما تحديد القرد الياباني. أما الربان فأنا سأتعرف عليه بلا شك.

قال رودريجز: «إذا كان ثمن قتل تورانا جا هو موت الربان، فأنا أؤيد ذلك يا قبطان. وإلا فإنه ينبغي أن ينجو».

- إنه هرطوقي، وعدو لبلدنا، ورجس، وقد سبب لنا بالفعل مشكلات أكثر من عش الأفاعي.

- لقد أوضحت سابقًا أن الإنجليزي ربان أولًا وأخيرًا، أحد أفضل الربانة في العالم.

- هل للربانة امتيازات خاصة؟ حتى الهراطقة؟

- نعم، يا إلهي. يجب أن نستغله كما يستغلوننا. سيكون إهدارًا ملعونًا أن نقتل مثل هذه الخبرة. فدون الربانة لن توجد إمبراطورية ولا تجارة ولا شيء. أقسم إنه دوني لن توجد سفينة سوداء ولا ربح ولا طريق للعودة إلى الوطن، لذا رأيي مهم للغاية.

فجأة دوى صوت من أعلى الصاري: «إلى مَنْ على سطح السفينة، إن القادس تغير مسارها».

كانت القادس تتجه مباشرة نحوهم ولكنها الآن قد تحولت بضع درجات إلى الميناء، مبتعدة صوب الميناء.

صاح رودريجيز على الفور: «توجهوا إلى مراكز العمل. يا مراقبين يمين الصاري عاليًا... ارفعوا جميع الأشرعة، وارفعوا المرسى».

هرع الرجال على الفور للتنفيذ.

- ما الخطب يا رودريجيز؟

- لا أعلم يا قبطان، لكننا نخرج إلى البحر المفتوح. تلك اللعينة تبهر باتجاه الريح.

قال فيريرا: «ما أهمية ذلك؟ يمكننا إغراقهم في أي وقت، لا يزال لدينا مؤن يجب إحضارها على متن السفينة ويجب على الآباء العودة إلى أوساكا».

- نعم. لكن لا يمكن لأي عدو أن يبحر باتجاه ريح سفينتي. تلك اللعينة لا تعتمد على الريح، يمكنها أن تذهب عكس اتجاهه. قد تكون قادمة لتهاجمنا من قيوم السفينة حيث لدينا مدفع واحد فقط ومن ثم تقتحمنا للاستيلاء علينا.

ضحك فيريرا باحتقار: «لدينا عشرون مدفع على متن السفينة، وهم ليس لديهم شيء. هل تعتقد أن قارب الهرطوقي القذر هذا يجرؤ على محاولة مهاجمتنا؟ أنت بسيط التفكير».

- نعم يا قبطان، لهذا السبب لدي واحدة. أُصدر أمرُ لسانتا تيريزا بالإبحار.

كانت الأشرعة تتطاير خارج حبالها وتحملها الرياح، وتصدر الصواري أصوات احتكاك. كان البحاران من المناوبة على سطح السفينة في مواقع القتال. بدأت الفرقاطة في التحرك ولكن سيرها كان بطيئًا. حث رودريجيز: «هيا أيتها اللعينة».

قال قائد المدفعية: «نحن مستعدون يا دون فيريرا، لقد وضعتها في مرمى نظري. لكن لا يمكنني إبقاؤها هكذا لفترة طويلة. مَنْ هو هذا توراناغا؟ أشر عليه».

لا توجد مشاعل على متن القادس، وكان المصدر الوحيد للضوء هو القمر. كانت القادس لا تزال في الخلف على بُعد تسعين مترًا، لكنها استدارت الآن إلى الميناء واتجهت نحو الشاطئ البعيد، والمجاذيف تغوص وتسقط بإيقاع منتظم. قال: «هل هذا هو الربان؟ الرجل الطويل على سطح السفينة؟».

قال رودريجيز: «نعم».

- مانويل وبرديتو. سيطرا عليه وعلى سطح السفينة.

قام المدفع الأقرب بإجراء تعديلات طفيفة. أضاف: «من هو هذا تورانا؟ بسرعة. يا قائد الدفة، توجّه درجتين نحو اليمين».

- حسنًا درجتين نحو اليمين يا مدفعي.

نظرًا لإدراكه للقاء الرمي والمياه الضحلة القريبة، كان رودريجز يراقب الكفّات، وكان مستعدًا في أي لحظة لتجاوز سلطة قائد المدفعية الذي كان يتحكم في مدفع مؤخرة السفينة بحكم العادة. صرخ المدفعي: «هيا يا مدفع يسار سطح السفينة الرئيسي! حالما نطلق عليها، سنتركها تتحرك بعيدًا عن الريح. أسقط جميع منافذ المدافع، واستعد للهجوم».

امتثلت أطقم المدافع للأمر، وذهبت أعينهم إلى الضباط على سطح السفينة. والكهنة. قال: «بحق الرب يا دون فيريرا، من هو هذا تورانا؟».

- من هو يا أبت؟

لم يره فيريرا من قبل. لقد تعرف رودريجز على تورانا بوضوح على مقدمة السفينة وسط حلقة من الساموراي، لكنه لم يرغب أن يكون هو من يحدد مكانه. فكر: دع الكهنة يفعلون ذلك. استمر يا أبت، العب دور يهوذا. لماذا يجب علينا دائمًا القيام بكل الأعمال القذرة، ليس وكأنني أهتم ولو قليلًا بهذا الوثني اللعين.

كان كلا الكاهنين صامتًا.

سأل المدفعي مجددًا: «بسرعة، من سيكون تورانا؟».

أشار إليه رودريجز بنفاد صبر: «هناك، على المؤخرة. ذلك الوغد القصير البدين وسط أولئك الأوغاد الوثنيين الآخرين».

- أراه يا ربان.

قامت أطقم المدافع بآخر تعديلات طفيفة.

أخذ فيريرا الفتيل من يد مساعد المدفعي.

- هل صوبت على الهرطوقي؟

- نعم يا قبطان، هل أنت جاهز؟ سأخفض يدي، تلك هي الإشارة.

- جيد.

قال ديل أكو: «لا تقتل».

استدار فيريرا نحوه: «إنهم وثنيون وهراطقة».

- يوجد مسيحيون بينهم، وحتى لو لم يوجد...

زمجر القبطان: «لا تعيره أي اهتمام يا مدفعي. سنهاجمهم عندما تكون جاهزًا».

تقدم ديل أكوا إلى فوهة المدفع ووقف أمامها. وسيطر جسده الضخم على سطح السفينة والبحارة المسلحين الذين نصبوا كمينًا. وضع يده على صليبه: «أقول: لا تقتل».

قال فيريرا: «نحن نقتل طوال الوقت يا أبت».

- أعلم ذلك، وأخجل منه وأتوسل إلى الرب أن يغفر لي.

لم يسبق لديل أكوا أن وطئت قدماه سطح سفينة حربية تحمل مدافع معبأة وبنادق، والأصابع على الزناد مستعدة للقتل. قال: «ما دمتُ هنا، لن يكون هناك قتل ولن أتغاضى عن القتل من كمين».

- وإذا هاجمونا؟ حاولوا الاستيلاء على السفينة؟

- سأتوسل إلى الرب أن يعيننا عليهم.

- ما الفرق بين الآن ولاحقًا؟

لم يجب ديل أكوا. فكر: لا تقتل، وقد وعد تورانا جا بكل شيء، أما إيشيدو فلم يعد بشيء.

صاح كبير المدفعية: «ما الأمر يا قبطان؟ الآن هو الوقت. الآن».

أدار فيريرا ظهره للكهنة، وألقى بالفتيل وذهب إلى حاجز السفينة. صاح قائلاً: «استعدوا لصد هجوم. إذا اقتربت لمسافة أقل من خمسين مترًا دون دعوة، فأمركم جميعًا بتدميرها بالكامل بغض النظر عما يقول الكهنة».

كان رودريجز غاضبًا بالقدر نفسه لكنه أدرك عجزه التام أمام الكاهن، تمامًا كحال القبطان. أراد الصراخ قائلاً: لا تقتل؟ بالرب المبارك يسوع، ماذا عنكم؟ ماذا عن مراسم الإحراق الجماعي للهراطقة؟ وماذا عن محاكم التفتيش الخاصة بالكنيسة؟ وماذا عنكم أنتم الكهنة الذين تسرعون بإصدار أحكامكم بـ «مذنب» أو «ساحرة» أو «شيطاني» أو «هرطوقي»؟ هل تتذكرون الألفين ساحرة اللاتي أُحرقن في البرتغال وحدها، في العام الذي أبحرت فيه إلى آسيا؟ وماذا عن كل قرية وبلدة تقريبًا في البرتغال وإسبانيا، والممالك التي

زرتموها وحققوا فيها «بلاء الرب» كما يلعب المحققون ذوو القلنسوة أنفسهم بفخر، تاركين وراءهم رائحة اللحم المحروق؟ يا إلهي يسوع المسيح، احمنا! دفع خوفه واحتقاره بعيدًا وصب انتباهه على القادس. بالكاد استطاع أن يرى بلاكتورن وفكر: يا إنجليزي، من الجيد أن أراك تقف هناك تمسك دفعة القيادة، طويل القامة وواثقًا بنفسك. كنت أخشى أنك ذهبت إلى ساحة الإعدام. أنا سعيد لأنك نجوت، ولكن مع ذلك فمن حسن حظك أنك لا تملك ولو مدفعًا صغيرًا على متن السفينة، لأنني حينها كنت سأدمرك، وليذهب ما سيقوله الكهنة إلى الجحيم.

يا مريم، احميني من الكاهن السيئ.

- مرحبًا يا سانتا تيريزا.

- مرحبًا يا إنجليزي.

- هل هذا أنت يا رودريجيز؟

- نعم.

- ساقك؟

- أمك.

سر رودريجيز كثيرًا بالضحكة المزاحية التي انتقلت عبر البحر الفاصل بينهما.

لمدة نصف ساعة، قامت السفينتان بالمرأوة لتحديد موقعيهما، يتلاحقان وينحرفان ويبتعدان عن بعضهما بعضًا، تحاول القادس التوجه عكس اتجاه الريح لمحاصرة الفرقاطة على شاطئ مُدابر للرياح، بينما كانت الفرقاطة تسعى لكسب مساحة في البحر للإبحار خارج الميناء إذا رغبت بذلك. لكن لم يتمكن أي منهما من تحقيق أي تقدم، وخلال هذه المطاردة، رأى أولئك الموجودون على متن الفرقاطة لأول مرة قوارب الصيد المتكدسة عند مصب الميناء، وأدركوا أهميتهم.

- لذلك يحاول اللحاق بنا! للحماية.

قال فيريرا: «هذا سبب آخر يجعلنا نغرقه الآن وهو محاصر. سيشكرنا إيشيدو إلى الأبد».

ظل ديل أكوا عنيدًا: «توراناجا مهم للغاية. أصر على أن نتحدث إلى توراناجا أولاً. بإمكانكم إغراقه دائماً. ليس لديه مدافع. حتى أنا أعلم أن المدافع وحدها قادرة على مقاتلة المدافع».

لذلك سمح رودريجيز بتطور حالة من الجمود لإعطائهم مهلة. كانت السفينتان في وسط الميناء، آمنتين من قوارب الصيد ومن بعضهما بعضًا، كانت الفرقاطة ترتجف تحت وطأة الرياح، وجاهزة للانطلاق فورًا، أما القادس فقد أوقفت مجاذيفها وهي متجهة بجانبها على مسافة تسمح بالحديث. فقط عندما رأى رودريجيز أن القادس أوقفت كل مجاذيفها وعرضت جانبها لمدافعه، عندها استدار بدوره في مواجهة الريح للسماح لها بالاقتراب إلى مدى يمكن من خلاله الصياح وأعد نفسه لسلسلة من التحركات التالية. فكر رودريجيز مجددًا: الحمد للرب ويسوع المبارك والسيدة مريم والقديس يوسف، لدينا مدافع وليس لدى ذلك الوغد أي منها. إن الإنجليزي ذكي للغاية. قال لنفسه: ولكن من الجيد أن يواجه المرء خصمًا محترفًا. فهذا أكثر أمانًا. بهذه الطريقة لا يرتكب أحد خطأ متهورًا ولا يتعرض أحد للأذى دون داع.

- نريد إذنًا للصعود إلى متن السفينة؟

- من يا إنجليزي؟

- الزعيم توراناجا ومترجمته وحراسه.

قال فيريرا بهدوء: «لا حراس».

قال ألفيتو: «يجب أن يحضر معه بعض الحرس. إنها مسألة حفظ ماء وجه».

- اللعنة على ماء الوجه. لا حراس.

وافق رودريجيز: «أنا لا أريد الساموراي على متن السفينة».

سأل ألفيتو: «هل توافق على خمسة؟ فقط حراسه الشخصيون؟ أنت تدرك المشكلة يا رودريجيز».

فكر رودريجيز للحظة ثم أومأ: «حسنًا، خمسة يا قبطان. سنكلف خمسة رجال ليكونوا «حراسك الشخصيين» مع مسدسين لكل منهم. أنت يا أبت ستتولى وضع الخطة الآن. من الأفضل أن يتولى الأب وضع الخطة يا قبطان، فهو يعرف كيف. هيا يا أبت، ولكن أخبرنا ما يُقال».

توجه ألفيتو إلى شفير السفينة وصاح قائلاً: «لا طائل من أكاذيبكم. أعدوا أرواحكم للجحيم، أنت وعصابتك. أمامك عشر دقائق، وبعدها سيرسلكم القبطان إلى عذاب أبدي».

- نحن نرفع علم الزعيم تورانا.

- ألوان مزيفة يا قرصان.

تقدم فيريرا خطوة إلى الأمام: «ماذا تفعل يا أبت؟».

أجاب ألفيتو بهدوء: «كن صبوراً رجاءً يا قبطان، هذه مجرد مسألة شكلية. وإلا سيشعر الزعيم تورانا بالإهانة الدائمة لأننا أسأنا إلى علمه، وهو ما فعلناه بالفعل. هذا هو تورانا، إنه ليس مجرد دايميو عادي. ربما كان من الأفضل أن نتذكر أنه يملك شخصياً عدداً أكبر من القوات المسلحة مقارنة بملك إسبانيا».

كانت الرياح تهب على حبال السفينة، والصواري تصدر أصوات بسبب اهتزازها. ثم أضيئت المشاعل على مؤخرة السفينة، والآن أصبح بإمكانهم رؤية تورانا بوضوح. وصل صوته عبر الأمواج.

- يا تسوكو سان، كيف تجرؤ على تجنب سفينتي لا توجد قراصنة هنا، بل فقط في سفن الصيد عند مصب الميناء. أرغب في الاقتراب على الفور.

بادله ألفيتو الصراخ باللغة اليابانية متظاهراً بالدهشة: «لكنني أسف جداً يا زعيم تورانا، لم تكن لدينا أي فكرة، ظننا أنها مجرد خدعة. أخبرنا الرماذيون أن قطاع طرق من الرونين استولوا على القادس بالقوة. ظننا أن قطاع الطرق يبحرون تحت علم بألوان مزيفة تحت قيادة القرصان الإنجليزي. سأتي على الفور».

- لا. سأتي أنا بالقرب من السفينة على الفور.

- أتوسل إليك يا زعيم تورانا، اسمح لي أن أتي لمرافقتك. إن سيدي الأب الزائر موجود هنا وكذلك القبطان. يصرون على أن نقدم التعويضات. رجاءً تقبل اعتذارنا.

عاد ألفيتو إلى اللغة البرتغالية مجدداً وصاح بصوت عالٍ تجاه رئيس البحارة: «أطلق قارباً».

ثم عاد بالحديث إلى تورانا جا باليابانية: «سيُطلق القارب على الفور يا سيدي».

استمع رودريجز إلى التواضع المتملق في صوت ألفيتو وفكر في مدى صعوبة التعامل مع اليابانيين مقارنة بالصينيين. فإن الصينيين يفهمون فن التفاوض والمساومة والتنازل والمكافأة. أما اليابانيون فهم مفعمون بالفخر وعندما تُجرح كبرياء رجل منهم -أي ياباني، ليس بالضرورة مجرد ساموراي- فإن الموت يكون ثمنًا زهيدًا لتعويض الإهانة. أراد أن يصرخ: هيا، أنهي هذا الأمر بسرعة.

كان الأب ألفيتو يقول: «سأذهب على الفور يا قبطان. إذا أتيت أيضًا يا صاحب النيافة، فإن هذه المجاملة ستفعل الكثير لاسترضائه».

- أوافق.

سأل فيريرا: «أليس هذا خطرًا؟ يمكن استخدامكما كرهائن».

قال ديل أكو: «في اللحظة التي تظهر فيها أي علامة على الخيانة، أمركم باسم الرب بتدمير تلك السفينة وكل من يبحر فيها، سواء كنا على متنها أم لا».

خرج من مؤخرة السفينة إلى السطح الرئيسي متجاوزًا المدافع، وتمايلت أطراف رداءه المهيب. استدار عند مقدمة سلم السفينة ورسم إشارة الصليب. ثم نزل على السلم إلى القارب.

انطلق رئيس البحارة. كان جميع البحارة مسلحين بمسدسات، وكان يوجد برميل بارود مشعل تحت مقعد رئيس البحارة.

انحنى فيريرا فوق شفير السفينة ونادى بهدوء: «يا صاحب النيافة، اجلب الهرطوقي معك».

- ماذا؟ ماذا قلت؟

كان من الممتع لدل أكو التلاعب بالقبطان، الذي أهانه غروره المستمر بشدة، لأنه بالطبع كان قد قرر منذ فترة طويلة الاستيلاء على بلاكثورن، وكان يستطيع أن يسمع جيدًا. كان يفكر: يا لغبائه.

صاح فيريرا مجددًا: «اجلب الهرطوقي معك، حسنًا؟».

سمع رودريجز على سطح السفينة الرد الخافت: «حسنًا يا قبطان».

وفكر: ما الخيانة التي تحيكها يا فيريرا؟

تحرك في الكرسي بصعوبة، وجهه شاحب. كان الألم في ساقه شديدًا واستنزف منه الكثير من القوة لكبته. كانت العظام تلتئم جيدًا، والحمد لمريم كان الجرح نظيفًا. لكن الكسر لا يزال كسرًا، وحتى الاهتزاز البسيط للسفينة في أثناء الراحة كان مزعجًا. أخذ رشفة من شراب الكحول من حقيبة البحر المتهالكة التي كانت معلقة على وتد على صندوق البوصلة.

كان فيريرا يراقبه: «ساقك سيئة؟».

خدر الكحول الألم: «إنها بخير».

- هل ستكون بخير بما يكفي للقيام برحلة من هنا إلى ماكاو؟
- نعم. ولخوض معركة بحرية طوال الطريق. والعودة في الصيف، إذا كان هذا ما تقصده.
- أصبحت شفثاه رفيعتين مجددًا وارتسمت عليهما ابتسامة ساخرة ضيقة: «نعم، هذا ما أقصده يا ربان. أحتاج إلى ربان سليم».
- تخلص رودريجز من الألم: «أنا سليم. ساقى تلتئم جيدًا. لن يصعد الإنجليزي على متن سفينتنا طوعية. أنا لن أفعل».
- أراهن بمائة جنيه أنك مخطئ.
- هذا أكثر مما أجنيه في عام واحد.
- تُدفع بعد وصولنا إلى لشبونة، من أرباح السفينة السوداء.
- حسنًا. لن يجعله شيء يصعد إلى متن السفينة، ليس طوعية. أنا أغنى بمائة جنيه، يا إلهي.
- أفقر! لقد نسيت أن اليسوعيين يريدونه هنا أكثر مني.
- لماذا يريدون ذلك؟

نظر إليه فيريرا مباشرة ولم يجب، وعلى مُحياه الابتسامة الملتوية نفسها. ثم، بغرض استدراجه، قال: «سأرافق تورانا جا للخارج، لحيازة الهرطوقي».

قال رودريجز: «أنا سعيد لأنني رفيقك ووجودي ضروري لك وللسفينة السوداء. لا أريد أن أكون عدوك».

- أنا سعيد لأننا تفاهمنا أخيرًا يا ربان.

قال تورانا جا لديل أكوا من خلال المترجم ألفتيتو: «أحتاج إلى مرافقة للخروج من الميناء. أحتاجها بسرعة».

كانت ماريكو تقف بالقرب منه، تستمع أيضًا، مع يابو. كان يقف على مؤخرة القادس، وديل أكوا تحته على السطح الرئيسي، وألفتيتو بجانبه، ولكن حتى مع ذلك كانت أعينهم متساوية تقريبًا. أضاف: «أو إذا رغبت في ذلك، يمكن لسفينتك الحربية إزالة قوارب الصيد من طريقي».

قال ديل أكوا متحدثًا إليه مباشرة، ووجد الترجمة الفورية لألفتيتو غريبة كما هو الحال دائمًا: «سامحني، لكن هذا سيكون عملًا عدائيًا غير مبرر لن توصي به الفرقاطة يا زعيم تورانا جا. سيكون ذلك مستحيلًا، فعلًا حربيًا صريحًا».

- ماذا تقترح إذن؟

- عد إلى الفرقاطة رجاءً. فلنسأل القبطان. سيكون لديه حل، الآن بعد أن عرفنا مشكلتك. إنه رجل عسكري، ونحن لسنا كذلك.

- أحضره هنا.

- سيكون من الأسرع لك أن تذهب إلى هناك يا سيدي. عدا عن الشرف الذي ستقدمه لنا بالطبع.

كان تورانا جا يعلم حقيقة هذا. قبل لحظات فقط رأوا مزيدًا من قوارب الصيد المحملة بالرماة قد انطلقت من الشاطئ الجنوبي، ورغم أنهم كانوا آمنين في الوقت الحالي، فإنه كان واضحًا أن مضيق الميناء سيختنق بالأعداء في غضون ساعة.

وكان يعلم أنه لا يملك خيارًا.

كما أوضح أنجين سان في وقت سابق في أثناء المطاردة الفاشلة: «آسف يا سيدي، لا يمكنني الاقتراب من الفرقاطة. إن رودريجيز ذكي جدًا. يمكنني إيقافه عن الهروب إذا صمدت الرياح لكن لا يمكنني محاصرته إلا إذا ارتكب خطأ. علينا أن نتفاوض».

سأل من خلال ماريكو: «هل سيرتكب خطأ وهل ستصمد الرياح؟».

أجابت: «يقول أنجين سان إن الرجل الحكيم لا يراهن على الرياح، إلا إذا كانت رياحًا تجارية وفي عرض البحر. نحن هنا في ميناء حيث تتسبب

الجبـال في تيارات الريح المعاكسة وتدفعها. لن يرتكب الربان روديـجيز أي خطأ».

شاهد توراناـجا كلا الربانين وهما يتنافسان في مواجهة بعضهما بعضاً، وعلم يقيناً أنهما أساطين. وأدرك أيضاً أنه لن يصبح آمناً لا هو ولا أرضه ولا الإمبراطورية دون امتلاك سفن همجية حديثة، وبواسطتها السيطرة على بحارهما. وقد دمرته هذه الفكرة.

- ولكن كيف يمكنني التفاوض معهم؟ ما العذر الذي يمكن أن يستخدموه لمثل هذا العداء الصريح ضدي؟ أصبح من واجبي الآن دفنهم بسبب إهانتهم لشرفي المهان.

ثم شرح له أنجين سان حيلة ألوان الأعلام المزيفة: كيف تستخدم جميع السفن هذه الحيلة للاقتراب من العدو أو محاولة تفاديه، وقد شعر توراناـجا بارتياح كبير لوجود حل مقبول يحفظ ماء وجهه لهذه المشكلة.

قال ألفيتو الآن: «أعتقد أننا يجب أن نذهب في الحال يا سيدي».

وافق توراناـجا: «حسنًا. يابو سان، تولّ قيادة السفينة. ماريكو سان، أخبرني أنجين سان أن يبقى على سطح السفينة ويتولى الدفة، ثم تعالي معي».

- حسنًا يا سيدي.

كان واضحًا لتوراناـجا من حجم القارب أنه يستطيع اصطحاب خمسة حراس فقط معه. لكن هذا أيضًا كان متوقعًا وكانت الخطة النهائية بسيطة: إذا لم يستطع إقناع الفرقاطة بالمساعدة، فسيقتل هو وحراسه القبطان وربانه والكهنة ويحصنون أنفسهم في إحدى المقصورات. وفي الوقت نفسه، ستُقذف القادس على الفرقاطة من مقدمتها كما اقترح أنجين سان، وسيحاولان معًا الاستيلاء على الفرقاطة بالقوة. سيستوليان عليها أو لن يستوليا عليها، ولكن في كلتا الحالتين سيكون هناك حل سريع.

قال حينها: «إنها خطة جيدة يا يابو سان».

- اسمح لي بالذهاب بدلًا منك للتفاوض.

- لن يوافقوا.

- حسنًا، ولكن فورَ خروجنا من الفخ، اطرء جميع الهمج من مملكتنا. إذا فعلت ذلك، فستكسب مزيدًا من الدايميو أكثر مما ستخسر.

- سأفكر في الأمر.

قال تورانا جا وهو يعلم أنه هراء، أنه يجب أن يكون الدايميو المسيحيان أونوشي وكياما في صفه، وبالتالي الدايميو المسيحيون الآخرون، وإلا فإنه سيُلتهم افتراضياً. لماذا يريد يابو الذهاب إلى الفرقاطة؟ ما الخيانة التي يخطط لها إذا لم نحصل على مساعدة؟

كان ألفيتو يترجم لدليل أكوا: «هل يمكنني دعوة أنجين سان لمرافقتنا يا سيدي؟».

- لماذا؟

- خطر لي أنه قد يرغب في مقابلة زميله الأنجين رودريجز. الرجل مصاب بكسر في الساق ولا يستطيع المجيء إلى هنا. يرغب رودريجز في رؤيته مرة أخرى، وشكره على إنقاذ حياته، إذا لم تمنع.

لم يجد تورانا جا سبباً لمنع أنجين سان من الذهاب. كان الرجل تحت حمايته، وبالتالي فهو لا يمكن التعدي عليه. قال: «إذا رغبت في ذلك، حسناً. رافقي تسوكو سان يا ماريكو سان».

انحنت ماريكو. كانت تعرف أن وظيفتها الاستماع والإبلاغ والتأكد من نقل كل ما قيل بدقة دون حذف. شعرت بتحسن الآن، فقد أصبح شعرها ووجهها مثاليين مرة أخرى، مرتدية كيمونو جديداً استعارته من السيدة فوجيكو، وذراعها اليسرى في جبيرة أنيقة. ضمد جرحها أحد البحارة وهو طبيب متدرب. لم يقطع الجرح في أعلى ذراعها الوتر وكان الجرح نظيفاً. كان الاستحمام سيجعلها كاملة، لكن لم تكن هناك مرافق على متن القادس.

عادت هي وألفيتو معاً إلى سطح السفينة. رأى السكين في حزام بلاكتورن وكيف بدا الكيمونو المتسخ مناسباً له. تساءل: إلى أي مدى استطاع أن يشق طريقه إلى ثقة تورانا جا نفسه؟ قال: «مرحباً بك يا ربان بلاكتورن».

أجاب بلاكتورن بأنس: «تعفن في الجحيم يا أبت».

- ربما سنلتقي هناك يا أنجين سان. ربما سنفعل. قال تورانا جا أنه بإمكانك الصعود على متن الفرقاطة.

- أوامر؟

- قال: إذا رغبت.

- لا أرغب.
- يريد رودريجيز شكرَكَ مجدداً ورؤيتك.
- أبلغه تحياتي وقل له إنني سأراه في الجحيم، أو هنا.
- ساقه تمنعه من ذلك.
- كيف حال ساقه؟
- إنها تتعافى. بفضل مساعدتك ونعمة الرب، سيستطيع المشي بعد بضعة أسابيع بإذن الرب، رغم أنه سيعرج للأبد.
- أخبره إنني أتمنى له الشفاء. من الأفضل لك أن تذهب يا أبت، فالوقت يضيع.
- يود رودريجيز رؤيتك. توجد خمر على الطاولة ودجاج مشوي ممتاز مع خضراوات طازجة ومرق وخبز طازج جديد وزبدة ساخنة. سيكون من المؤسف إهدار مثل هذا الطعام يا ربان.
- ماذا؟
- يوجد خبز ذهبي جديد يا ربان، وبسكويت بحري طازج وزبدة وطبق جانبي من اللحم البقري. برتقال طازج من جوا وحتى أربعة لترات من نبيذ ماديرا لتهضم به، أو براندي إذا فضلت. توجد جعة أيضاً. ثم يوجد دجاج مكاو ساخن وملء بالعصارة. إن القبطان ذواق.
- لعنك الرب إلى الجحيم.
- سيفعل ذلك عندما يشاء. أنا فقط أخبرك ما هو موجود.
- سألت ماريكو: «ماذا تعني كلمة «ذواق»؟».
- قال ألفيتو مستخدماً اسم معموديتها: «إنه الشخص الذي يستمتع بالطعام ويعد مائدة فاخرة يا سيدة ماري».
- لاحظ التغير المفاجئ على وجه بلاكثورن. وكاد أن يرى غدد اللعاب تعمل ويشعر بألم معدته. الليلة عندما رأى الوليمة المعدة في المقصورة الكبيرة، والفضة اللامعة ومفرش المائدة الأبيض والكراسي، الكراسي المكسوة بالجلد الحقيقي، وشم رائحة الخبز الجديد والزبدة واللحوم الغنية، كان هو نفسه قد شعر بالضعف من الجوع، رغم أنه لم يكن جائعاً أو غير معتاد المطبخ الياباني.

قال لنفسه: من السهل جدًا اصطياد رجل، كل ما تحتاج معرفته هو الطَّعم المناسب. قال: «وداعًا يا ربان».

استدار ألفيتو وسار متجهاً نحو السلم. وتبعه بلاكثورن.

سأل رودريجيز: «ما الخطب يا إنجليزي؟».

وقف بلاكثورن مرتجفًا على السطح الرئيسي: «أين الطعام؟ ثم يمكننا التحدث. الطعام أولاً كما وعدت».

قال ألفيتو: «اتبعني رجاءً».

- إلى أين ستأخذه يا أبت؟

- بالطبع إلى المقصورة الكبيرة. يمكن لبلاكثورن تناول الطعام بينما يتحدث الزعيم تورانا جا والقبطان.

- لا. يمكنه الأكل في مقصورتي.

- من الأسهل بالتأكيد الذهاب إلى حيث يوجد مكان الطعام.

- يا رئيس البحارة، أعطِ الربان الطعام على الفور، كل ما يحتاجه في مقصورتي، أي شيء من الطاولة. يا إنجليزي، هل تريد خمراً أم نبيذاً أم جعة؟

- جعة أولاً، ثم خمر.

- اهتم بالأمر يا رئيس البحارة، خذه إلى الأسفل. واسمع يا بيسارو، أعطه بعض الملابس من خزانتي، وأحذية، وكل شيء. وابق معه حتى أناديك.

تبع بلاكثورن رئيس البحارة بيسارو بصمت إلى أسفل الدرج، كان رجلاً قوياً ضخماً البنية. بدأ ألفيتو بالعودة إلى ديل أكوا وتوراناجا اللذين كانا يتحدثان عبر ماريكو بالقرب من الدرج، لكن رودريجيز أوقفه.

- لحظة يا أبت. ماذا قلت له؟

- فقط قلت إنك تريد رؤيته وإن لدينا طعاماً على متن السفينة.

- لكنني كنت أعرض عليه الطعام؟

- لا يا رودريجيز، لم أقل ذلك. ولكن ألن ترغب في تقديم الطعام لزميل ربان جائع؟

- ذلك الوغد المسكين ليس جائعًا، بل يتضور جوعًا. إذا أكل في هذه الحالة فإنه سيلتهم الطعام كالذئب الشره، ثم سيتقيأ بسرعة كعاهرة ثملة شرهة. الآن، نحن لا نريد لأحد منا، حتى وإن كان هرطوقيًا، أن يأكل كالحيوان ويتقيأ كالحيوان أمام تورانا، أليس كذلك يا أبت؟ ليس أمام ابن عاهرة قذر، وبخاصة واحد نقي الذهن مثل ذلك اللعين. قال ألفيتو: «يجب أن تتعلم التحكم في قذارة لسانك يا بني. سيرسلك إلى الجحيم. من الأفضل لك أن تتلو ألف صلاة على مريم، وتستغني عن الطعام لمدة يومين. خبز وماء فقط. كفارة لرحمة الرب لتذكرك برحمته».

- شكراً لك يا أبت، سأفعل. بكل سرور. ولو استطعت الركوع لفعلت، ولقبّلت صليبك. نعم يا أبت، هذا الخطأ الفقير يشكرك على صبرك الذي وهبك الرب إياه. يجب أن أحفظ لساني.

نادى فيريرا من الدرج: «هل ستأتي إلى الأسفل يا رودريجز؟».

- سأبقى على سطح السفينة ما دامت القادس اللعينة هناك يا قبطان. إذا احتجتني فأنا هنا.

بدأ ألفيتو بالمغادرة. لاحظ رودريجز ماريكو. قال: «لحظة يا أبت. من هذه المرأة؟».

- إنها السيدة ماريا تودا. إحدى مترجمي تورانا.

صفّر رودريجز بلا لحن: «هل هي جيدة؟».

- جيدة جدًا.

- من الحق السماح لها بالصعود على متن السفينة. لماذا قلت «تودا»؟ هل هي إحدى خليات العجوز تودا هيرو ماتسو؟

- لا، إنها زوجة ابنه.

قال رودريجز: «من الحق إحضارها على متن السفينة». ثم استدعى أحد البحارة: «أبلغ الجميع أن المرأة تتحدث البرتغالية».

- حسنًا يا سيدي.

انطلق الرجل مسرعًا، وعاد رودريجز إلى الأب ألفيتو.

لم يبد الكاهن خائفًا على الإطلاق من الغضب الواضح: «السيدة ماريا تتحدث اللاتينية أيضًا، والكفاءة نفسها. هل يوجد شيء آخر يا ربان؟».

- لا، شكرًا. ربما من الأفضل أن أكمل صلواتي على مريم.

- نعم، عليك فعل ذلك.

رسم الكاهن إشارة الصليب وغادر. بصق رودريجز في بالوعة السفينة، وجفل أحد قادة دفة القيادة ورسم إشارة الصليب.

هسهس رودريجز: «اذهب واصلب نفسك على الصاري من جسدك الأخضر اللعين».

- نعم يا ربان، معذرةً يا سيدي. لكنني أشعر بالتوتر بالقرب من الأب الطيب. لم أقصد أي أذى.

رأى الشاب آخر حبات الرمل تسقط عبر عنق الساعة الرملية وقلبها.

- عند النصف، اذهب إلى الأسفل، وخذ معك دلوًا ملعونًا وماء وفرشة تنظيف، ونظف الفوضى في مقصورتني. أخبر رئيس البحارة أن يجلب الإنجليزي إلى الأعلى، ونظف مقصورتني. ومن الأفضل أن تكون نظيفة جدًا، وإلا سأخرج أحشاءك لأصنع أربطة جوارب. وفي أثناء قيامك بذلك، اتلُ صلواتك لروحك الملعونة.

قال الشاب بصوت ضعيف: «حسنًا يا سيدي الربان».

كان رودريجز متعصبًا ومجنونًا بشأن النظافة، وكانت مقصورته الخاصة مثل الكأس المقدسة للسفينة. لا بد لكل شيء أن يكون لا تشوبه شائبة، بغض النظر عن الطقس.



الفصل السابع والعشرون

قال ديل أكوأ بصبر: «لا بد من وجود حل يا قبطان».

- هل تريد تصرفاً عدوانياً علنياً ضد دولة صديقة؟

- بالطبع لا.

كان الجميع في المقصورة الكبيرة يعلمون أنهم جميعاً في الفخ نفسه. أي تصرف علني يضعهم مباشرة مع تورانا جا ضد إيشيدو، وهو ما يجب عليهم تجنبه تماماً في حال كان إيشيدو هو المنتصر في النهاية. يسيطر إيشيدو حالياً على أوساكا والعاصمة كيوتو ومعظم الأوصياء. والآن، من خلال الدايميو أونوشي وكياما، يسيطر إيشيدو على معظم جزيرة كيوشو الجنوبية، ومع كيوشو، يسيطر على ميناء ناجازاكي، المركز الرئيسي لكل التجارة، وبالتالي يسيطر على كل التجارة والسفينة السوداء هذا العام.

قال تورانا جا من خلال الأب ألفيتو: «ما الصعب في الأمر؟ أريد فقط أن تفجر القراصنة من مصب الميناء، حسناً؟».

جلس تورانا جا بغير راحة في مكان الشرف، على الكرسي المرتفع في الطاولة الكبيرة. جلس ألفيتو بجانبه، والقبطان أمامه، وديل أكوأ بجانب القبطان. ووقفت ماريكو خلف تورانا جا وانتظر الحراس الساموراي بالقرب من الباب، مواجهين البحارة المسلحين. وكان جميع الأوروبيين مدركين أنه رغم أن ألفيتو كان يترجم لتورانا جا كل ما قيل في الغرفة، فإن ماريكو كانت موجودة لضمان عدم قول أي شيء علانية بينهما يتعارض مع مصالح سيدها وأن الترجمة كانت كاملة ودقيقة.

انحنى ديل أكوأ للأمام قائلاً: «ربما يمكنك يا سيدي إرسال رُسلٍ إلى الشاطئ إلى الزعيم إيشيدو. ربما يكمن الحل في التفاوض. يمكننا تقديم هذه السفينة كمكان محايد للمفاوضات. ربما تتمكن بهذه الطريقة من تسوية الحرب».

ضحك توراناغا بسخرية: «أي حرب؟ لسنا في حالة حرب، أنا وإيشيدو».

- لكننا رأينا المعركة على الشاطئ يا سيدي.

- لا تكن ساذجًا. من قُتل؟ بعض الرونين عديمي القيمة. من هاجم من؟ فقط الرونين أو قطاع الطرق أو المتعصبون المخطئون.

- وفي الكمين؟ نفهم أن البنين قاتلوا الرماديين.

- كان قطاع الطرق يهاجموننا جميعًا، البنين والرماديين. قاتل رجالي فقط لحمايتي. في المناوشات الليلية غالبًا ما تحدث الأخطاء. لو أن بنين قتلوا رماديين أو رماديين قتلوا بنين فهذا خطأ مؤسف. ما قيمة بضعة رجال لأي منا؟ لا شيء. نحن لسنا في حرب.

أدرك توراناغا عدم تصديقهم فأضاف قائلاً: «أخبرهم يا تسوكو سان أن الجيوش تخوض الحروب في اليابان. هذه المناوشات ومحاولات الاغتيال السخيفة ما هي إلا تجارب يُصَرَّف النظر عنها عندما تفشل. الحرب لم تبدأ الليلة. لقد بدأت عندما مات التايكو. حتى قبل ذلك، عندما مات دون أن يترك ابنًا ناضجًا ليتبعه. ربما حتى قبل ذلك، عندما قُتل جورودا، الزعيم الحامي. الليلة ليس لها أهمية دائمة. لا أحد منكم يفهم مملكتنا أو سياستنا، كيف يمكنكم ذلك؟ بالطبع إيشيدو يحاول قتلي. وكذلك العديد من الداييميو الآخرين. لقد فعلوا ذلك في الماضي وسيفعلون ذلك في المستقبل. كان كياما وأونوشي صديقين وعدوين في آن واحد. اسمع، إذا قُتلْتُ فهذا سيسهل الأمور على إيشيدو، العدو الحقيقي، لكن فقط لفترة وجيزة. أنا في فخه الآن، وإذا نجح فخه فسيكون له ميزة مؤقتة فقط. وإذا هربت، فلن يكون هناك فخ أبدًا. ولكن افهموا جميعًا بوضوح أن موتي لن يزيل سبب الحرب ولن يمنع مزيدًا من الصراع. فقط إذا مات إيشيدو لن يكون هناك صراع. لذا لا توجد حرب مفتوحة الآن. على الإطلاق».

تحرك في الكرسي كارهًا الرائحة في المقصورة من الأطعمة الزيتية والأجساد غير المغسولة. أضاف: «لكن لدينا مشكلة فورية. أريد مدافعك. أريدهم الآن. القراصنة يحاصرونني عند مصب الميناء. لقد قلت سابقًا يا تسوكو سان أنه يجب على الجميع قريبًا اختيار جانب. والآن، أين تقف أنت وقائدك والكنيسة المسيحية بأكملها؟ وهل أصدقائي البرتغاليون معي أم ضدي».

قال ديل أكوا: «يمكنك الاطمئنان يا زعيم تورانا، نحن جميعاً ندعم مصالحك».

- جيد، إذن تخلصوا من القراصنة على الفور.

قال فيريرا: «هذا سيكون فعلاً حربياً ولا يوجد ربح منه. ربما يمكننا القيام بمقايضة، حسناً؟».

لم يترجم ألفيتو هذا بل قال بدلاً منه: «يقول القبطان: نحن نحاول فقط تجنب التدخل في سياساتكم يا زعيم تورانا. نحن تجار».

قالت ماريكو باليابانية لتورانا: «معذرة يا سيدي، هذا غير صحيح. هذا ليس ما قيل».

تنهد ألفيتو: «لقد نقلت فقط بعض كلماته يا سيدي. إن القبطان ليس على دراية ببعض الآداب لأنه غريب. ليس لديه فهم باليابان».

سأل تورانا: «لكن هل لديك أنت يا تسوكو سان؟».

- أحاول يا سيدي.

- ما الذي قاله حقاً؟

أخبره ألفيتو.

بعد توقف قال تورانا: «قال لي أنجين سان إن البرتغاليين مهتمون جداً بالتجارة، وفي التجارة ليست لديهم أخلاق أو فكاهاة. لقد فهمت وسأقبل تفسيرك يا تسوكو سان. ولكن من الآن فصاعداً يرجى ترجمة كل شيء كما قيل بالضبط».

- حسناً يا سيدي.

- أخبر القبطان هذا: عندما ينتهي الصراع سأوسع التجارة. أنا أؤيد التجارة. أما إيشيدو فلا.

لاحظ ديل أكوا المحادثة وتمنى أن يكون ألفيتو قد غطى على غباء فيريرا. قال: «نحن لسنا سياسيين يا سيدي، نحن متدينون نمثل الإيمان والمؤمنين. نحن ندعم مصالحك. نعم».

قال: «أوافق. كنت أفكر...».

توقف ألفيتو عن الترجمة وأضاء وجهه وترك اليابانية تورانا تتسرب منه للحظة. قال: «أنا آسف يا صاحب النيافة، لكن الزعيم تورانا قال: كنت

أفكر في أن أطلب منك بناء معبد كبير في إيدو، كإجراء للتعبير عن ثقتي بمصالحكم».

منذ أن أصبح تورانا جا زعيم المقاطعات الثمانية، كان ديل أكوا يناور للحصول على هذا الامتياز لسنوات. والحصول عليه الآن في ثالث أكبر مدينة في الإمبراطورية كان امتيازًا لا يقدر بثمن. عرف الزائر أن الوقت قد حان لحل مشكلة المدفع. قال باستخدام العبارة السرية التي اتفق عليها سابقًا مع ألفيتو، ملتزمًا بمسار خطتهم، مع ألفيتو حامل الراية: «اشكره يا مارتن تسوكو سان، وقل إننا سنحاول دائمًا أن نكون في خدمته. واسأله عن رأيه في الكاندرائية».

أضاف لمصلحة القبطان.

بدأ ألفيتو يتحدث إلى تورانا جا: «ربما يمكنني التحدث مباشرة للحظة يا سيدي. إن سيدي يشكرك ويقول إن ما طلبته سابقًا ربما يكون ممكنًا. سيسعى دائمًا لمساعدتك».

- السعي كلمة مجردة وغير مرضية.

نظر ألفيتو إلى الحراس الذين استمعوا بالطبع دون أن يبدو عليهم ذلك: «نعم يا سيدي. لكنني أتذكر أنك قلت سابقًا إنه من الحكمة أحيانًا أن تكون مجردًا».

فهم تورانا جا الأمر على الفور. ولوح بيده صارفًا رجاله للخارج: «انتظروا بالخارج جميعكم».

أطاعوه بصعوبة. ثم استدار ألفيتو نحو فيريرا: «لا نحتاج إلى حراسك الآن يا قبطان».

عندما انصرف الساموراي صرف فيريرا رجاله وألقى نظرة على ماريكو. كان يرتدي مسدسات في حزامه وكان لديه مسدس آخر في حذائه.

قال ألفيتو لتورانا جا: «ربما تودُّ يا سيدي أن تجلس السيدة ماريكو». فهم تورانا جا مجددًا. فكر للحظة ثم أومأ برأسه قليلًا وقال دون أن يلتفت: «يا ماريكو سان خذي واحدًا من حراسي وابحثي عن أنجين سان. ابقِي معه حتى أستدعيك».

- حسنًا يا سيدي.

أُغلق الباب خلفها.

الآن كانوا وحدهم الأربعة.

قال فيريرا: «ما العرض؟ ماذا يعرض؟».

أجاب ديل أكوا وأصابه تطرق على صليبه، داعيًا بالنجاح: «اصبر يا قائد».

بدأ ألفيتو يتحدث إلى تورانا: «سيدي، يقول الزعيم سيدي أنه سيحاول فعل كل ما طلبته خلال الأربعين يومًا. سيرسل إليك كلمة سرية عن التقدم. وسأكون الرسول بعد إذنك».

- وإذا لم ينجح؟

- لن يكون ذلك بسبب الرغبة في المحاولة أو الإقناع أو الرغبة في التفكير. إنه يعطيك كلمته.

- أمام الرب المسيحي؟

- نعم، أمام الرب.

- جيد، سأحصل على كلمته كتابيًا وتحت ختمه.

- أحيانًا لا ينبغي تخفيض الاتفاقيات الكاملة والحساسة إلى كتابة يا سيدي.

- أنت تقول إنه ما لم أضع اتفاقي كتابيًا، فلن تفعل؟

- لقد تذكرت للتو أحد أقوالك إن شرف الساموراي بالتأكيد أكثر أهمية من قطعة من الورق. الزائر يعطيك كلمته أمام الرب، كلمة شرفه، كما يفعل الساموراي. إن شرفك كافٍ تمامًا للزائر. اعتقدت فقط أنه سيتأثر لعدم الثقة به. هل تريدني أن أطلب توقيعه؟

قال تورانا أخيرًا: «حسنًا. كلمته أمام الرب يسوع، أليس كذلك؟ كلمته أمام ربه؟».

- أعطيتها نيابة عنه. لقد أقسم بالصليب المبارك أن يحاول.

- وأنت أيضًا يا تسوكو سان؟

- لديك كلمتي أيضًا، أمام إلهي، وبالصليب المبارك، أن أفعل كل ما في وسعي لمساعدته على إقناع الزعيمين أونوشي وكياما ليكونا حليفك.

- في المقابل سأفعل ما وعدت به سابقًا. في اليوم الحادي والأربعين يمكنك وضع حجر الأساس لأكبر معبد مسيحي في الإمبراطورية.
- هل يمكن تخصيص تلك الأرض على الفور يا سيدي؟
- فور وصولي إلى إيدو. الآن. ماذا عن القراصنة؟ القراصنة في قوارب الصيد؟ ستزيلهم على الفور؟
- لو كان لديك مدفع، هل كنت ستفعل ذلك بنفسك يا سيدي؟
- بالطبع يا تسوكو سان.

- أعتذر عن كوني مخادعًا يا سيدي، لكن يجب علينا وضع خطة. فإن المدافع ليست ملكنا. رجاءً أمهلني لحظة واحدة.

التفت ألفيتو إلى ديل أكوا: «كل شيء مرتب حول الكاتدرائية يا صاحب النيافة». ثم أضاف إلى فيريرا، مبتدئًا خطتهم المتفق عليها: «ستكون سعيدًا لأنك لم تغرقه يا قائد. يطلب منك الزعيم تورانا جا تحمل عشرة آلاف عملة ذهبية له عندما تغادر مع السفينة السوداء إلى جوا، لتستثمرها في سوق الذهب في الهند. سنكون سعداء للمساعدة في الصفقة من خلال مصادرنا المعتادة هناك، بوضع الذهب لك. يقول الزعيم تورانا جا أن نصف الربح لك». قرر كل من ألفيتو وديل أكوا أنه بحلول الوقت الذي ستعود فيه السفينة السوداء، بعد ستة أشهر، سيكون تورانا جا إما قد أعيد تعيينه رئيسًا لمجلس الوصاية وبالتالي سيكون أكثر من سعيد للسماح بهذه المعاملة المربحة للغاية، أو أنه سيكون ميتًا. أضاف: «يجب أن تحصل بسهولة على أربعة آلاف عملة من الربح دون أي مخاطرة».

- في مقابل أي امتياز؟ هذا أكثر من الدعم السنوي الذي يقدمه لك ملك إسبانيا لجمعية اليسوعيين بأكملها في آسيا. في مقابل ماذا؟
- يقول الزعيم تورانا جا إن القراصنة يمنعونهم من مغادرة الميناء. إنه سيعرف أفضل منك ما إذا كانوا قراصنة.

رد فيريرا بالصوت الواقعي نفسه الذي عرف كلاهما أنه فقط لمصلحة تورانا جا: «من غير الحكمة وضع ثقتك بهذا الرجل. فعدوه يملك كل أوراق القوة. وجميع الملوك المسيحيين ضده. بالتأكيد الاثنان الرئيسيان، سمعتهم بأذني. قال إن هذا الياباني هو العدو الحقيقي. أصدق كلامهما لا كلام هذا الأحق للقيط».

قال ديل أكوأ ببرود، مدرگًا للحل كما يدركه ألفيتو: «أنا متأكد أن الزعيم توراناڭا أعلم منا بمن هم القراصنة ومن ليسوا. أفترض أنه ليس لديك أي اعتراض على تعامل الزعيم توراناڭا مع القراصنة بنفسه؟».

- بالطبع لا.

قال الزائر: «لديك الكثير من المدافع الاحتياطية على متن السفينة. لماذا لا تمنحه بعضًا منها سرًا. تباع له بعضًا في الواقع. أنت تباع الأسلحة طوال الوقت. إنه يشتري الأسلحة. يجب أن تكون أربعة مدافع أكثر من كافية. سيكون من السهل نقلها في القارب، مع ما يكفي من البارود والرصاص سرًا أيضًا. ثم تُحل المشكلة».

تنهد فيريرا: «إن المدافع عديمة الفائدة على متن القادس يا سيدي العزيز. لا توجد فتحات لها ولا حبال ولا دعامات. لا يمكنهم استخدام المدافع، حتى لو كان لديهم المدفعيون، وهو ما ليس لديهم».

صُدم كلا الكاهنين: «عديمة الفائدة؟».

- تمامًا.

- لكن بالتأكيد يمكنهم التكيف يا سيد فيريرا...

- هذه القادس غير قادرة على استخدام المدافع دون إعادة تجهيزها. سيستغرق الأمر أسبوعًا على الأقل.

قال توراناڭا بارتياح، مدرگًا أنه يوجد شيء ما خاطئ مهما حاولوا إخفاءه: «Nan ja؟».

قال ألفيتو: «يسأل توراناڭا: ما الأمر؟».

علم ديل أكوأ أن وقتهم قد نفذ: «رجاءً ساعدنا يا قائد. رجاءً. أطلب منك علانية. لقد حققنا تنازلات هائلة من أجل الإيمان. يجب أن تصدقني، ونعم، يجب أن تثق بنا. يجب أن تساعد الزعيم توراناڭا في الخروج من الميناء بطريقة ما. أتوسل إليك نيابة عن الكنيسة. الكاتدرائية وحدها امتياز هائل. رجاءً».

لم يسمح فيريرا لأي من نشوة النصر بالظهور عليه بل أضاف لمسة من الجدية إلى صوته. وقال: «بما أنك تطلب المساعدة نيابة عن الكنيسة يا صاحب النيافة فبالطبع سأفعل ما تطلبه. سأخلصه من هذا الفخ. ولكنني

أريد رتبة قائد السفينة السوداء للسنة القادمة كجائزة سواء كانت السفينة الحالية ناجحة أم لا».

- هذه هبة شخصية من ملك إسبانيا. له وحده. ليست هبتي لأمنحها.
- التالي: أقبل عرض الذهب الخاص به ولكنني أريد ضماناً منك بأنني لن أواجه أي مشكلة من نائب الملك في جوا أو هنا، بشأن الذهب أو كلتا السفينتين السوداوين.

- أتجرؤ على إجباري أنا والكنيسة؟

- هذا مجرد اتفاق تجاري بينك وبينني وبين هذا القرد.
- إنه ليس قرداً يا قائد. من الأفضل أن تتذكر ذلك.
- التالي: خمسة عشر بالمائة من شحنة هذا العام بدلاً من عشرة.
- مستحيل.

- التالي: لإبقاء كل شيء مرتباً يا صاحب النيافة، فإن كلمتك أمام الرب -الآن- أن لا تهددني أنت أو أي من الكهنة تحت ولايتك بالحرمان الكنسي ما لم أرتكب فعلاً تجديفياً في المستقبل، وهو الذي لا ينطبق عليه هذا الأمر. وعلاوة على ذلك، كلمتك بأنك والآباء القديسين ستدعمونني وتساعدون السفينتين السوداوين... أيضاً أمام الرب.

- وما التالي يا قائد؟ بالتأكيد هذا ليس كل شيء؟ بالتأكيد يوجد شيء آخر؟
- أخيراً: أريد الهرطوقي.

نظرت ماريكو إلى بلاكتورن من باب المقصورة. كان مستلقياً على الأرض شبه فاقدٍ للوعي ويتقيأ أحشاءه. كان رئيس البحارة يتكئ على السرير وهو يحرق إليها، وتظهر جذور أسنانه الصفراء.

- هل هو مسموم أم ثمل؟

سألت توتومي كانا، الساموراي الذي بجانبها. وهي تحاول دون جدوى إغلاق أنفها أمام رائحة الطعام والقيء الكريهة، ورائحة البحار القبيح أمامها، والرائحة الكريهة الدائمة المنبعثة من بطن السفينة التي تتخلل السفينة بأكملها. أضافت: «يبدو كأنه قد سُمم، أليس كذلك؟».

- يبدو أنه كذلك يا ماريكو سان، انظري إلى تلك القذارة.

أشار الساموراي بيده باشمئزاز إلى المائدة. كانت مُغطاة بأطباق خشبية تحتوي على بقايا فخذٍ مُشوّه من اللحم البقري المشوي النيء من الداخل، ونصف جثة دجاجة مشوية، وخبز مقطّع وجبن وجعة مسكوبة، وزبدة وطبق من مرق دهن اللحم المقدد البارد، وزجاجة نصف فارغة من البراندي.

لم يكن أي منهما قد رأى لحمًا على مائدة من قبل.

سأل رئيس البحارة: «ماذا تريد؟ لا قردة هنا، هل تفهمني؟ لا قرر سان في هذه الغرفة».

نظر إلى الساموراي وأشار بيده ليخرج: «اخرج. اغرب عن وجهي».

عادت عيناه إلى ماريكو: «ما اسمك؟ اسمك، هاه؟».

سأل الساموراي: «ماذا يقول يا ماريكو سان؟».

ألقي رئيس البحارة نظرة على الساموراي للحظة ثم عاد للنظر إلى ماريكو مجددًا.

- ماذا يقول الهمجي يا ماريكو سان؟

أزاحت ماريكو عينيها المسحورتين عن المائدة وركزت على رئيس البحارة: «معذرةً يا سيدي، لم أفهمك. ماذا قلت؟».

- ماذا؟

فغر فم رئيس البحارة. كان رجلًا بدينًا ضخماً بعينين متقاربتين وأذنين كبيرتين، وشعر مضفر أشعث. يرتدي صليبًا يتدلى من طيات عنقه، والمسدسات تتدلى من حزامه. قال: «ماذا؟ تستطيعين التحدث بالبرتغالية؟ قردة تتحدث البرتغالية بطلاقة؟ أين تعلمتِ التحدث بتحضر؟».

- ال... الأب المسيحي علمني.

- سأكون ابنًا ملعونًا! يا مريم، توجد زهرة سان تستطيع التحدث بتحضر.

تقيًا بلاكثورن مجددًا وحاول بضعف النهوض من الأرض.

أشارت إلى السرير: «هل يمكنك... رجاء هل يمكنك وضع الرбан هناك؟».

- حسنًا، إذا كان هذا القرد سيساعد.

- مَنْ؟ معذرة، ماذا قلت؟ مَنْ؟

- هو، القرد الياباني. هو.

هزت الكلمات أعماقها، واستجمعت كل قواها لتبقى هادئة. أشارت إلى الساموراي: «كانا سان، رجاءً ساعد هذا الهمجي. يجب وضع أنجين سان هناك».

- بكل سرور يا سيدتي.

رفع الرجلان بلاكثورن معًا وأسقطاه على السرير، رأسه ثقيل ويتحدث بغباء.

قالت ماريكو باليابانية، وهي لا تزال مصدومة مما أطلق البحار على كانا: «يجب غسله».

- حسنًا يا ماريكو سان. اطلبي من الهمجي استدعاء الخدم.

- حسنًا.

توجهت عيناها غير المصدقتين نحو الطاولة مجددًا: «هل يأكلون هذا حقًا؟».

تابع البحار نظراتها. انحنى على الفور ونزع ساق دجاجة وعرضها عليها. قال: «هل أنت جائعة؟ خذي يا زهرة صغيرة سان، إنها لذيذة. إنه دجاج ماكاو حقيقي طازج اليوم».

هزت رأسها.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه البحار المملوء بالشيب، وقام بغمس ساق الدجاجة في المرق السميك ووضعها تحت أنفها: «المرق يجعلها أفضل. من الجيد أن تكون قادرًا على التحدث بلباقة، أليس كذلك؟ لم أفعل ذلك من قبل. هيا، ستعطيك القوة... حيث تحتاجينها. أخبرتك إنه دجاج ماكاو».

- لا... لا، شكرًا لك. أكل اللحوم... أكل اللحوم ممنوع. إنه ضد القانون، وضد البوذية والشتنوتو.

ضحك البحار: «ليس في ناجازاكي. الكثير من اليابانيين يأكلون اللحوم طوال الوقت. يفعلون ذلك كلما استطاعوا الحصول عليه، ويشربون خمرا أيضًا. أنت مسيحية، أليس كذلك؟ هيا، جربي يا أيها السيدة الصغيرة. كيف ستعرفين حتى تجربي؟».

- لا، لا، شكرًا لك.

- لا يستطيع الإنسان العيش دون لحم. هذا طعام حقيقي. يجعلك قوية حتى تتمكني من التحرك مثل القاقم. خذي...
- عرض ساق الدجاج على كانا: «أتريد؟».
- هز كانا رأسه باشمئزاز: «لا».
- هز البحار كتفيه وألقى بالساق بلا مبالاة على الطاولة: «لا! حسنًا. ماذا فعلت لذرّاعك؟ هل أُصِبت في القتال؟».
- نعم، لكن ليس بشدة.
- حركت ماريكو ذراعها قليلًا لتُريه وابتلعت الألم.
- يا مسكينة! ماذا تريدان هنا يا سيدتي؟
- أريد رؤية أن... رؤية الربان. لقد أرسلني الزعيم توراناغا. هل الربان ثمل؟
- نعم، بسبب الطعام والشراب. لقد أكل ذلك الوغد بسرعة كبيرة وشرب بسرعة أكبر. شرب نصف الزجاجاة دفعة واحدة. الإنجليز جميعهم على الشاكلة نفسها. لا يستطيعون تحمل الخمر وليس لديهم شجاعة. (جابت عيناه جسدها): لم أر قط زهرة صغيرة مثلك من قبل. ولم أتحدث قط إلى قردة يابانية تستطيع التحدث بتحضر من قبل.
- هل تدعو جميع السيدات والساموراي اليابانيين بالقردة اليابانيين والقردة؟
- ضحك البحار ضحكة قصيرة: «يا سيدتي، كانت زلة لسان. هذا للأشخاص المعتادين، أتعرفين هؤلاء القوادين والعاشرات في ناجازاكي. لا أقصد الإساءة. لم أتحدث قط مع سيدة متحضرة من قبل، أقسم إنني لم أعلم أنه توجد أي واحدة».
- ولا أنا يا سيدي. لم يسبق لي التحدث مع برتغالي متحضر من قبل، باستثناء الأب المقدس. نحن يابانيون ولسنا قردة يابانيون، حسنًا؟ والقردة حيوانات، أليس كذلك؟
- أظهر البحار أسنانه المكسورة: «حسنًا. نتحدثين مثل الدونا. نعم. لا أقصد الإساءة يا سيدتي».

بدأ بلاكتورن بالتمتمة. ذهبت إلى السرير وهزته برفق قائلة: «أنجين سان، أنجين سان».

- نعم... نعم؟ آه... مرحبًا... أنا آس... أنا...

فتح بلاكتورن عينيه لكن ثقل الألم ودوران الغرفة أجبره على الاستلقاء.

- رجاء استدع خادمًا يا سيدي. يجب غسله.

- يوجد عبيد، لكنهم ليسوا لهذا الغرض يا سيدتي. اتركي الإنجليزي. ما

الذي سيفعله قليل من القيء لهرطوقي؟

سألت بصدمة: «لا يوجد خدم؟».

أضاف بابتسامة ملتوية: «لدينا عبيد، أوغاد سود، لكنهم كسالى، لا أستطيع الوثوق بأحد منهم ليغسله بنفسه».

عرفت ماريكو أنها لا تملك خيارًا آخر. قد يحتاج الزعيم تورانا جا إلى أنجين سان في الحال وكان ذلك واجبها. قالت: «أحتاج إلى بعض الماء إذن. لغسله».

- يوجد برميل في الدرج. في الطابق السفلي.

- رجاء أحضر لي بعضًا يا سيدي.

أشار البحار بإصبعه إلى كانا: «أرسله».

- لا. ستجلبه أنت رجاء. الآن.

نظر البحار إلى بلاكتورن: «هل أنتِ عشيقته؟».

- ماذا؟

- عشيقة الإنجليزي؟

- ماذا تعني يا سيدي؟

- امرأته، رفيقته، تعرفين يا سيدتي، حبيبة الربان، خليلته، عشيقته.

- لا. لا يا سيدي، لست عشيقته.

- عشيقته إذن؟ هذا القر... هذا الساموراي؟ أم الملك ربما، الذي وصل للتو

على متن السفينة؟ تورانا... شيء ما؟ هل أنتِ واحدة من نسائه؟

- لا.

- ولا أي شخص على متن السفينة؟

هزت رأسها: «هلا أحضرت بعض الماء رجاء؟».

أوماً البحار وخرج.

قال الساموراي: «هذا أكثر رجل قبيح وذو رائحة كريهة رأيته على الإطلاق. ماذا كان يقول؟».

- لقد... سأل الرجل إذا... إذا كنت واحدة من عشيقات الربان.

ذهب الساموراي إلى الباب.

- كانا سان.

- أطالب بالحق في الانتقام من هذه الإهانة على الفور بالنيابة عن زوجك. كما لو أنه يمكنكِ التعايش مع همجي.

- رجاء أغلق الباب يا كانا سان.

- أنتِ تودا ماريكو سان! كيف يجرؤ على إهانتك؟ يجب الانتقام من الإهانة.

- سيتم ذلك يا كانا سان، وأشكرك. نعم. أعطيك الحق. لكننا هنا بأمر من الزعيم توراناغا. لن يكون من الصواب فعلك لذلك حتى يعطي موافقته.

أغلق كانا الباب على مضض: «أوافق. لكنني أطلب رسمياً أن تلتمسي من الزعيم توراناغا قبل مغادرتنا».

- نعم، شكرًا لك على اهتمامك بشرفي.

سألت نفسها بصدمة: ماذا سيفعله كانا لو عرف كل ما قيل. ماذا سيفعل الزعيم توراناغا؟ أو هيرو ماتسو؟ أو زوجي؟ قردة؟ يا مريم، ساعديني على تمالك نفسي وصفاء ذهني. غيرت الموضوع بسرعة لتخفيف غضب كانا: «يبدو أنجين سان عاجزًا تمامًا كالطفل. يبدو أن الهمج لا يستطيعون تحمل الخمر. مثل بعض رجالنا».

- نعم، لكن هذا ليس بسبب الخمر. لا يمكن أن يكون كذلك. إنه بسبب ما أكله.

تحرك بلاكتورن بصعوبة محاولاً استعادة وعيه.

- ليس لديهم خدم على متن السفينة يا كانا سان، لذلك سأضطر إلى أن أكون بديلة لإحدى سيدات أنجين سان.

بدأت بنزع ملابس بلاكتورن بصعوبة بسبب زراعتها.

كان كانا ماهراً جداً: «دعيني أساعدكِ. كنت أفعل ذلك لأبي عندما كان الساكي يؤثر عليه».

- من الجيد أن يشمل الرجل من حين لآخر. إنه يطلق الأرواح الشريرة.

- نعم، لكن أبي كان يعاني بشدة في اليوم التالي.

- زوجي يعاني بشدة. لأيام.

قال كانا بعد لحظة: «عسى أن يمنح بوذا الزعيم بونتارو النجاة».

- نعم.

نظرت ماريكو حول المقصورة وأضافت: «لا أفهم كيف يمكنهم العيش في مثل هذه القذارة. إنه أسوأ من أفقر الناس لدينا. كنت على وشك فقدان الوعي في المقصورة الأخرى من الرائحة الكريهة».

- إنه مثير للاشمئزاز. لم أكن على متن سفينة همجية من قبل.

- لم أكن في البحر من قبل.

فُتِح الباب ووضع البحار الدلو أرضاً. صُدم من عري بلاكتورن وأخرج بطانية من تحت السرير وغطاه. قال: «سيموت من البرد. بصرف النظر عن ذلك فإنه من العار فعل ذلك لرجل، حتى هو».

- ماذا؟

لمعت عيناه: «لا شيء. ما اسمكِ يا سيدتي؟».

لم تجب. دفعت البطانية جانباً وغسلت بلاكتورن جيداً، سعيدة بوجود شيء تفعله، وكارهة المقصورة والوجود البغيض للبحار، متسائلة عما يتحدثون عنه في المقصورة الأخرى. هل سيدنا بأمان؟

عندما انتهت طويت الكيمونو والملابس الداخلية المتسخة: «هل يمكن غسل هؤلاء يا سيدي؟».

- ماذا؟

- يجب تنظيف هؤلاء على الفور. هل يمكنك أن تستدعي عبداً، رجاءً؟

- أخبرتك أنهم مجموعة كسالى من الأوغاد السود. سيستغرق الأمر منهم أسبوعاً أو أكثر. تخلصي منهم يا سيدتي، إنهم لا يستحقون العناء. قال القائد الربان رودريجز أن نعطيه ملابس مناسبة. ها هي ذي.

فتح خزانة بحرية وقال: «قال أن نعطيه أي ملابس من هنا».

- لا أعلم كيف ألبس رجلًا بهذه الملابس.

- يحتاج إلى قميص وبنطال وغطاء للعورة وجوارب وأحذية وسترة بحرية.

أخرج البحار الملابس وأراها لها. ثم بدأت هي والساموراي بالباس بلاكثورن، الذي كان لا يزال نصف واعٍ.

رفعت غطاء العورة مثلث الشكل الشبيه بالحقيبة مع الأربطة المتصلة به وقالت: «كيف يرتدي هذا».

قال البحار محرجًا وهو يلمس الغطاء خاصته: «يا مريم، إنه يرتديها في الأمام، هكذا. اربطيه في مكانه فوق البنطال، كما أخبرتك. فوق عورته».

نظرت إلى الغطاء الخاص بالبحار وهي تدرسه. شعر بنظرتها واضطرب. وضعت غطاء العورة على بلاكثورن وأحكمته في مكانه، ومعلمًا وضعت هي والساموراي الأربطة الخلفية بين ساقيه وربطته حول خصره. قالت للساموراي بهدوء: «هذه أغبى طريقة لباس رأيته على الإطلاق».

أجاب كانا: «لا بد أنها غير مريحة للغاية. هل يرتديه الكهنة يا ماريكو سان؟ تحت ردائهم؟».

- لا أعلم.

دفعت خصلة شعر عن عينيها وقالت: «يا سيدي. هل يرتدي أنجين سان ثيابه بالشكل صحيح الآن؟».

- نعم. باستثناء أحذيته. إنها هناك. يمكنها الانتظار.

اقترب البحار إليها وأغلقت أنفها. خفض صوته ووجه ظهره للساموراي: «أتريدان علاقة سريعة؟».

- ماذا؟

- أنا معجب بك يا سيدتي؟ ما رأيك؟ يوجد سرير في المقصورة المجاورة. أرسلني صديقك إلى الأعلى. الإنجليزي سيظل غائبًا عن الوعي لساعة أخرى. سأدفع المبلغ المعتاد.

- ماذا؟

- ستكسبين قطعة من النحاس أو حتى ثلاثة إذا كنتِ مثل القاقم. وستحصلين على أفضل علاقة بين هنا ولشبونة. ما رأيك؟

رأى الساموراي رعبها: «ما الأمر يا ماريكو سان؟».
اندفعت ماريكو متجاوزةً البحار بعيدًا عن السرير. كلماتها تعثرت:
«لقد... قال...».

أشهر كانا سيفه على الفور لكنه وجد نفسه يحدق إلى فوهتي مسدسين
جاهزين. ومع ذلك بدأ في الاندفاع.

شهقت ماريكو: «توقف يا كانا سان. منع الزعيم توراناغا أي هجوم حتى يأمر به».

- هيا أيها القرد، تعال إليّ أيها القذر اللعين. أنت! أخبري هذا القرد أن
يغمد سيفه وإلا سيصبح بلا رأس بأسرع من أن يطلق ربحًا.

كانت ماريكو تقف على بعد ثلاثين سنتيمترًا من البحار. كانت يدها
اليمنى لا تزال في حزامها، وكان مقبض الخنجر لا يزال في كفها. لكنها
تذكرت واجبها وأبعدت يدها. قالت: «أعد سيفك إلى غمده يا كانا سان، رجاءً.
يجب أن نطيع الزعيم توراناغا. يجب أن نطيعه».

بذل كانا جهدًا كبيرًا لفعل ما قيل له.

- لدي رغبة في أن أرسلك إلى الجحيم أيها القرد الياباني.

قالت ماريكو محاولةً أن تبدو مهذبة: «أرجو أن تعذره يا سيدي وأنا أيضًا.
لقد كان خطأ، خطأ...».

- ذلك الوغد ذو وجه القرد أشهر السيف. لم يكن ذلك خطأ، بحق المسيح.

- أرجوك اعذرني يا سيدي، أنا آسفة جدًا.

بلل البحار شفتيه: «سأنسى الأمر إذا كنت ودودة يا أيتها الزهرة الصغيرة.
سأذهب معك إلى المقصورة المجاورة، وأخبري هذا القرد... أخبريه أن يبقى
هنا وسأنسى الأمر».

- ما اسمك يا سيدي؟

- بيسارو. مانويل بيسارو، لماذا؟

- لا شيء. رجاءً اعذر سوء الفهم يا سيد بيسارو.

- ادخلي إلى المقصورة المجاورة. الآن.

- ماذا يحدث؟ ماذا...؟

لم يكن بلاكثورن يعرف ما إذا كان مستيقظًا أم لا يزال في كابوس، لكنه
شعر بالخطر: «ماذا يحدث بحق الرب».

- هذا القرد الياباني النتن أشهر سيفه عليّ.

قالت ماريكو: «كان... خطأ يا أنجين سان. اعتذرت للسيد بيسارو».

- ماريكو؟ هل هذه أنت ماريكو سان؟

- نعم يا أنجين سان. هذه أنا.

اقتربت أكثر. لم تتوقف مسدسات البحار عن التصويب نحو كانا. كان عليها المرور بجانبه وتطلب الأمر جهداً أكبر حتى لا تخرج خنجرها وتطعنه. في تلك اللحظة انفتح الباب. دخل قائد الدفة الشاب إلى المقصورة مع دلو من الماء. حذق إلى المسدسات وهرب.

قال بلاكثورن محاولاً جعل عقله يعمل: «أين رودريجيز؟».

قال البحار بصوت حاد: «في الأعلى، حيث يجب أن يكون الربان الجيد. هذا القرد الياباني أشهر سيفه عليّ، بحق الإله».

- ساعديني على الصعود إلى سطح السفينة.

أمسك بلاكثورن بحواف السرير. أمسكت ماريكو بذراعه لكنها لم تستطع رفعه. لوّح الخادم بمسدسه تجاه كانا قائلاً: «أخبريه أن يساعد وأخبريه أنه إذا كان يوجد إله في السماء فسيُعلّق على عارضة الشراع قبل أن يتحرك».

أبعد المساعد الأول سانتياجو أذنه عن الثقب السري في جدار المقصورة الكبيرة، وكانت عبارة «حسنًا، لقد سُوّي كل شيء إذا» من ديل كوا لا تزال ترن في ذهنه. تسلل بلا صوت عبر المقصورة المظلمة متوجّهاً إلى الممر وأغلق الباب بهدوء. كان رجلًا طويلًا هزيلًا ذا وجه متجدد، ويصفف شعره. ملابسه أنيقة، حافي القدمين مثل معظم البحارة. وفي عجلة من أمره، صعد مسرعًا على الدَرَج ثم ركض عبر سطح السفينة الرئيسي حتى وصل إلى مؤخرة السفينة حيث كان رودريجيز يتحدث إلى ماريكو. استأذن وانحنى ليضع فمه بالقرب من أذن رودريجيز وبدأ قول كل ما سمعه، وكان قد أرسل ليسمعه، حتى لا يكون أحد آخر على سطح السفينة طرفًا في الأمر.

كان بلاكثورن جالسًا في مؤخرة السفينة متكئًا على شفير السفينة، ورأسه مستندًا إلى ركبتيه المثنيتين. جلست ماريكو بظهر مستقيم مواجهةً رودريجيز، على الطريقة اليابانية التقليدية، وكانا الساموراي يجلس بجوارها

بنظرة مكتئبة. انتشر البحارة المسلحون على السطح ومنصة المراقبة في الأعلى، ويوجد اثنان آخران عند عجلة القيادة. كانت السفينة لا تزال تتجه نحو الريح، والهواء والليل كانا نقيين، والسحب المظلمة أصبحت أقوى والمطر لم يكن بعيدًا. كانت القادس تقابلهم على بُعد تسعين مترًا تقريبًا، تحت رحمة مدافعهم، وكانت المجاذيف مرفوعة باستثناء اثنين على كل جانب حافظا عليها في مكانها، وكان المد الخفيف يحركها. كانت سفن الصيد المتربصة مع الرماة الساموراي العدائيين أقرب ولكنهم لم يتعدوا بعد.

كانت ماريكو تراقب رودريجز والمساعد بانتباه. لم تستطع سماع ما كان يُقال، وحتى لو كانت قادرة على ذلك، فإن تدريبها سيجعلها تفضل غلق أذنيها. الخصوصية في المنازل الورقية كانت أمرًا مستحيلًا دون الأدب والمراعاة، فدون الخصوصية لن توجد الحياة المتحضرة، لذا كان يُدرب جميع اليابانيين على الاستماع وعدم استراق السمع، لصالح الجميع.

عندما صعدت ماريكو إلى السطح مع بلاكثورن، استمع رودريجز إلى تفسير البحار وتفسيرها المتلثم بأن الخطأ كان منها، وأنها قد أساءت فهم كلام البحار، مما دفع كانا لإشهار سيفه لحماية شرفها. استمع البحار بابتسامة، ومسدساته لا تزال موجهة نحو ظهر الساموراي.

- سألت فقط ما إن كانت عشيقة الإنجليزي، بحق الرب، فقد كانت تتصرف بحرية في غسله وإلباسه ملابسه الداخلية.

- اخفض مسدساتك يا بحار.

- أقول لك إنه خطر. اربطه.

- سأراقبه. اذهب للأمام.

- كان هذا القرد سيقتلني لو لم أكن أسرع. ضعه على عارضة الشارع. هذا ما كنا نفعله في ناجازاكي.

- لسنا في ناجازاكي. اذهب إلى الأمام. الآن.

وعندما ذهب البحار، سأل رودريجز: «ماذا قال لك يا سيدتي؟ ماذا قال بالضبط؟».

- إنه... لا شيء يا سيدي. رجاء.

- أعتذر عن وقاحة ذلك الرجل معك ومع الساموراي. رجاءً اعتذري للساموراي نيابةً عني، واطلبي منه العفو. وأنا أطلب منكما رسميًا أن

تنسوا إهانات البحار. لن يساعد زعيمكما أو زعمي وجود مشكلات على متن السفينة. أعدكم بأنني سأتعامل معه بالطريقة التي أراها مناسبة في الوقت المناسب.

تحدثت ماريكو مع كانا، ووافق أخيرًا تحت إقناعها.

- يقول كانا سان: حسنًا، لكنه إذا رأى البحار بيسارو على الشاطئ سيقطع رأسه.

- ذلك عادل أمام الرب. نعم. شكرًا يا كانا سان.

ثم أضاف رودريجز باليابانية بابتسامة: «وشكرًا جزيلاً لك يا ماريكو سان».

- هل تتحدث اليابانية؟

- لا، فقط كلمة أو اثنتين. لدي زوجة في ناجازاكي.

- حقًا! لقد قضيت فترة طويلة في اليابان؟

- هذه هي جولتي الثانية من لشبونة. لقد قضيت سبع سنوات مجمعة

في هذه المياه. هنا وذهابًا إيابًا إلى ماكاو وجوا. (أضاف رودريجز):

لا تعيريه أي انتباه، إنه إيتا. ولكن قال بوذا إنه حتى الإيتا لهم حق في

الحياة. أليس كذلك؟

قالت ماريكو: «بالطبع».

كان اسمه ووجهه محفورين إلى الأبد في ذهنها.

- زوجتي تتحدث بعض البرتغالية، ولكن ليس بنفس إتقانك. أنت

مسيحية، بالطبع؟

- نعم.

- زوجتي معتنقة المسيحية. والدها ساموراي، وإن كان من الرُتب الدنيا.

زعيمها الإقطاعي هو الزعيم كياما.

قالت ماريكو بأدب: «إنها محظوظة لأن لديها زوجًا مثلك».

لكنها سألت نفسها بذهول: كيف يمكن لأحد أن يتزوج ويعيش مع همجي؟

سألت رغم أخلاقها المتأصلة: «هل تأكل السيدة -زوجتك- اللحم، مثل... مثل

الذي كان في المقصورة؟».

أجاب رودريجز بضحكة، أسنانه بيضاء وجميلة وقوية: «لا. ولا أتناول اللحم

في منزلي في ناجازاكي أيضًا. أفعل ذلك في البحر وفي أوروبا. إنه عادتنا. قبل

مجيء بوذا منذ ألف عام، كانت عادتكم أيضًا، أليس كذلك؟ قبل أن يعيش بوذا ليوضح فكرة الطاو «الطريق». كان كل الناس يأكلون اللحم. حتى هنا يا سيدتي. حتى هنا. الآن بالطبع نحن أكثر وعيًا، بعضنا على الأقل، أليس كذلك؟».

فكرت ماريكو في ذلك. ثم قالت: «هل يدعوننا جميع البرتغاليين بالقردة؟ والقردة اليابانيين؟ من وراء ظهورنا؟».

سحب رودريجز القرط الذي كان يرتديه وقال: «ألا تنادوننا بالهمج؟ حتى في وجوهنا؟ نحن متحضرين، على الأقل نعتقد ذلك يا سيدتي. في الهند -أرض بوذا- يطلقون على اليابانيين «الشياطين الشرقيين» ولا يسمحون لأي منهم بالهبوط إذا كان مسلحًا. وتدعون الهنود بـ«السود» وغير البشر. ماذا يطلق الصينيون على اليابانيين؟ ماذا تطلقون على الصينيين؟ ماذا تطلقون على الكوريين؟ آكلي الثوم، أليس كذلك؟».

- لا أعتقد أن الزعيم تورانجا سيسعد أو الزعيم هيرو ماتسو، أو حتى والد زوجتك.

- قال يسوع المبارك: أخرج أولًا الخشبة من عينك، وحينئذ تبصر جيدًا أن تخرج القذى الذي في عيني.

فكرت في ذلك مجددًا الآن وهي تشاهد المساعد الأول يهمس بعجلة للربان البرتغالي. إنه صحيح: نحن نستهزئ بالآخرين. ولكننا مواطنون في أرض الآلهة، وبالتالي مختارون خصوصًا من قبل الآلهة. نحن وحدنا من بين جميع الشعوب محميون بإمبراطور إلهي. ألسنا إذن فريدين ومتفوقين على الآخرين؟ وإذا كنت يابانيًا ومسيحيًا؟ لا أعلم. امنحيني فهمك يا مريم. هذا الربان رودريجز غريب مثل الربان الإنجليزي. لماذا هم مميزون جدًا؟ هل بسبب تدريبهم؟ إنه ما يفعلونه هو أمر لا يصدق، أليس كذلك؟ كيف يمكنهم الإبحار حول الأرض والمشى على البحر بسهولة كما نفعل على الأرض؟ هل تعرف زوجة رودريجز الإجابة؟ أود مقابلتها والتحدث معها.

خفض المساعد الأول صوته أكثر.

صاح رودريجز ولعن بلا إرادة: «ماذا قال».

حاولت ماريكو الاستماع رغمًا عن نفسها. لكنها لم تستطع سماع ما كرره المساعد الأول. ثم رأتهما ينظران إلى بلاكثورن فتبعتهما نظراتهما، وشعرت بالاضطراب بسبب قلقهما.

- سأل رودريجيز بحذر مدرّكًا لوجود ماريكو: «ماذا حدث أيضًا يا سانتياجو؟».
- أخبره المساعد هامسًا من خلف يده.
- إلى متى سيبقون في الأسفل؟
- كانوا يشربون نخب بعضهم بعضًا. ونخب الصفقة.
- أوغاد.

- أمسك رودريجيز بقميص المساعد وأضاف: «لا تنبس بكلمة عن هذا، أقسم على حياتك».
- لا داعي لذلك يا ربان.
- يوجد دائمًا حاجة إلى القسم. (نظر رودريجيز إلى بلاكثورن): أيقظوه.
- ذهب المساعد إليه وهزه بعنف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ما الخطب؟
- اضربه.
- صفعه سانتياجو.
- يا إلهي، سأ...
- كان بلاكثورن واقفًا على قدميه ووجهه مشتعل، لكنه تمايل وسقط.
- عليك اللعنة، استيقظ يا إنجليزي.
- أشار رودريجيز بإصبعه بغضب إلى قائدي الدفة وقال: «ألقوه في البحر».
- ماذا؟
- الآن.
- بينما حمل الرجلان بلاكثورن بسرعة، قالت ماريكو: «ربان رودريجيز، لا يجب أن...».
- ولكن قبل أن تتمكن هي أو كانا من التدخل، كان الرجلان قد قذفا بلاكثورن من السفينة. سقط ستة أمتار وارتطم بالماء مخلفًا سحابة من الرذاذ واختفى. بعد لحظة ظهر على السطح وهو يختنق ويتخبط، ويصارع الماء المثلج الذي أفاق عقله.
- كان رودريجيز يكافح للخروج من كرسيه البحري: «يا إلهي، ساعدوني».

ركض أحد قادة الدفة للمساعدة بينما وضع المساعد الأول يده تحت إبطه.
قال: «يا يسوع، كن حذرًا، انتبه لقدمي يا أحق».

ساعداه على الاقتراب من شفير السفينة. كان بلاكثورن لا يزال يسعل ويتخبط، ولكن الآن وهو يسبح إلى جانب السفينة كان يصرخ باللعنات على أولئك الذين ألقوه في البحر.

أمر رودريجز: «اتجهوا درجتين نحو اليمين».

انحرفت السفينة عن مهب الريح قليلًا وابتعدت عن بلاكثورن. صرخ قائلاً: «ابق بعيدًا عن سفينتي». ثم قال لمساعدته الأول بسرعة: «خذ القارب واحمل الإنجليزي وضعه على متن القادس. بسرعة. أخبره...». خفض صوته.

شعرت ماريكو بالامتنان لعدم غرق بلاكثورن: «يا ربان، إن أنجين سان تحت حماية الزعيم تورانا. أطالب بإنقاذه فورًا».

- لحظة واحدة يا ماريكو سان.

واصل رودريجز الهمس لسانتياجو الذي أوماً برأسه ثم انطلق مسرعًا. قال: «أنا آسف يا ماريكو سان، لكن الأمر كان عاجلاً. كان لا بد من إيقاظ الإنجليزي. كنت أعلم أنه يستطيع السباحة. يجب أن يكون يقظًا وسريعًا».

- لماذا؟

- أنا صديقه. هل أخبرك ذلك من قبل؟

- نعم. لكن إنجلترا والبرتغال في حالة حرب. وكذلك إسبانيا.

- نعم. لكن على الربابنة أن يكونوا فوق الحرب.

- إذن لمن تدين بالولاء؟

- للعالم.

- أليس ذلك لمملكك؟

- بلى ولا يا سيدتي. أنا مدين للإنجليزي بحياة. (كان رودريجز يراقب القارب. وأمر قائد الدفة): استمر في الانطلاق بثبات... والآن وجهها في اتجاه الريح.

- حسنًا يا سيدي.

انتظر متفحصًا الريح والمياه الضحلة والشاطئ البعيد. صاح مسؤول القياس بقياسات عمق المياه.

- معذرة يا سيدتي، ماذا كنتِ تقولين؟

نظر إليها رودريجز للحظة، ثم عاد مرة أخرى لفحص وضع السفينة والقارب. كانت تراقب القارب أيضًا. الرجال سحبوا بلاكثورن من البحر وكانوا يجذفون بقوة نحو القادس، وهم جالسون بدلاً من الوقوف ودفع المجاذيف. لم تعد تستطيع رؤية وجوههم بوضوح. الآن أصبح أنجين سان ضبابيًا مع الرجل الآخر الذي بجانبه، الرجل الذي همس إليه رودريجز. قالت: «ماذا قلت له يا سيدي؟».

- مَنْ؟

- هو. السيد الذي أرسلته خلف أنجين سان.

كان الرد جازمًا وغامضًا: «فقط تمنيت للإنجليزي الخير والتوفيق».

ترجمت ما قيل إلى كانا.

تنفس رودريجز الصعداء عندما رأى القارب بجانب القادس وقال: «السلام عليك يا مريم، يا والدة الإله...».

صعد القبطان قائد الأسطول واليسوعيون من الأسفل. وتبعهم تورانا جا وحراسه. قال فيريرا: «أطلق القارب يا رودريجز. سينزل الآباء إلى الشاطئ».

- ثم ماذا؟

- ثم نبحر صوب إيدو.

رد رودريجز ببراءة مصطنعة: «لماذا هناك؟ كنا سنبحر صوب ماكاو».

- سنأخذ تورانا جا إلى إيدو أولاً.

- سنفعل ماذا؟ ولكن ماذا عن القادس؟

- ستبقى أو تحارب من أجل الخروج.

بدا رودريجز أكثر دهشة ونظر إلى القادس ثم نظر إلى ماريكو. رأى الاتهام الصريح في عينيها.

قال الربان لها بهدوء: «اصبري».

سأل الأب ألفيتو: «ماذا؟ الصبر؟ لماذا الصبر يا رودريجز؟».

- ترديد الصلاة على مريم يا أبت. كنت أقول للسيدة إنها تعلمك الصبر.
- كان فيريرا يحدق إلى القادس: «ماذا يفعل قاربنا هناك؟».
- أعدت الهرطوقي على متن سفينته.
- ماذا؟
- أعدت الإنجليزي إلى سفينته. ما المشكلة يا قبطان؟ الإنجليزي أهانني فألقيت بالتافه في البحر. كنت سأتركه يغرق لكنه يستطيع السباحة لذا أرسلت المساعد ليجلبه ويعيده إلى سفينته حيث بدا لي أن ذلك في صالح الزعيم تورانا. ما الخطب؟
- أعدته على متن السفينة.
- سيتعين عليّ إرسال فرقة هجوم مسلحة يا قبطان. هل هذا ما تريد؟ كان يطرنا بوابل من اللعنات. لن يعود طواعية هذه المرة.
- أريد عودته على متن السفينة.
- ما الخطب؟ ألم تقل إن القادس ستبقى وتحارب أو ما شابه؟ إذن ماذا؟ إذن الإنجليزي غارق في المشكلات. جيد. من يحتاج إلى هذا الأحمق على أي حال؟ بالتأكيد يفضل الآباء أن يكون بعيدًا عن أنظارهم. أليس كذلك يا أبت؟
- لم يرد ديل أكوا ولا ألفيتو. وهذا ما عطل الخطة التي وضعها فيريرا ووافقوا عليها هم وتوراناجا: أن يذهب الكهنة إلى الشاطئ على الفور لتهدئة إيشيدو وكياما وأونوشي، مدّعين أنهم صدقوا قصة تورانا عن القراصنة ولم يكونوا على علم «بهروبه» من القلعة. وفي الوقت نفسه، ستهاجم الفرقاطة مدخل الميناء، تاركة القادس لاستدراج قوارب الصيد. وإذا وقع هجوم واضح على الفرقاطة فسيُصد بالمدافع، ولن يكون هناك مجال للتراجع.
- استنتج فيريرا: «لكن لا ينبغي للقوارب أن تهاجمنا، فسيكون لديهم القادس للاستيلاء عليها. سيكون من مسؤوليتك يا صاحب النيافة إقناع إيشيدو بأنه لم يكن لدينا خيار آخر. ففي النهاية، تورانا هو رئيس مجلس الوصاية. وأخيرًا، سيبقى الهرطوقي على متن السفينة».
- لم يسأل أي من الكهنة عن السبب. ولم يتطوع فيريرا بالتفسير.

وضع الزائر يدًا رقيقة على القبطان وأدار ظهره إلى السفينة. قال: «ربما يكون من الأفضل وجود الهرطوقي هناك».

وفكر: كم هو غريب تدبير الرب.

أراد فيريرا أن يصرخ: لا. كنت أريد رؤيته يغرق. رجل يقع في البحر في الفجر الباكر، بلا أثر وبلا شهود وبكل سهولة. لن يدرك توراناغا الأمر أبدًا، حادث مأسوي، بقدر ما يتعلق الأمر به. وكان هذا هو مصير بلاكثورن المستحق. كان القبطان يعلم أيضًا رعب الموت في البحر بالنسبة لربان. سأل توراناغا: «ما الأمر؟».

شرح الأب ألفيتو أن الربان كان على متن القادس وسبب ذلك. التفت توراناغا إلى ماريكو التي أومأت وأضافت ما قاله رودريجز سابقًا.

ذهب توراناغا إلى جانب السفينة وحقق إلى الظلام. كان مزيد من قوارب الصيد تُطلق من الشاطئ الشمالي، وستحل قوارب أخرى مكانها قريبًا. كان يعرف أن أنجين سان مصدر إحراج سياسي وأن هذه كانت طريقة بسيطة منحتة إياها الآلهة إذا رغب في التخلص من أنجين سان. فكر: هل أريد ذلك؟ من المؤكد أن الكهنة المسيحيين سيصبحون أكثر سعادة إذا اختفى أنجين سان. وكذلك أونوشي وكياما، اللذان يخشيان الرجل لدرجة أن أحدهما أو كليهما حاولا اغتياله. لماذا كل هذا الخوف؟

إنها الكارما أن يكون أنجين سان على متن القادس وليس هنا بأمان. أليس كذلك؟ لذا سيغرق أنجين سان مع السفينة، إلى جانب يابو والآخرين والمدافع، وهذه أيضًا كارما. يمكنني أن أخسر المدافع، يمكنني أن أخسر يابو، ولكن أنجين سان؟

نعم.

لأنه لا يزال لدي ثمانية آخرين من هؤلاء الهمج الغرباء احتياطيًا. ربما تساوي معرفتهم الجماعية أو تتجاوز معرفة هذا الرجل الواحد. الأمر المهم هو العودة إلى إيدو بأسرع وقت ممكن للتحضير للحرب التي لا يمكن تجنبها. كياما وأونوشي؟ من يدري ما إذا كانا سيدعمانني. ربما سيفعلون، وربما لا. لكن قطعة أرض وبعض الوعود لا تساوي شيئًا أمام الدعم المسيحي الذي سأحظى به بعد أربعين يومًا.

- إنها الكارما يا تسوكو سان. أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.
- ألقى ألفيتو نظرة على القبطان وهو يشعر بالرضى التام وأضاف: «يقترح الزعيم تورانا جا عدم فعل شيء. إنها إرادة الرب».
- هل هي حقاً؟
- بدأ القرع على متن القادس فجأة. وغرزت المجاذيف بقوة في الماء.
- ثار فيريرا: «ما الذي يفعله باسم المسيح؟».
- ثم، بينما كانوا يراقبون القادس تبتعد عنهم، انخفض علم تورانا جا من أعلى الصاري.
- قال رودريجز: «يبدو أنهم يخبرون كل قارب صيد ملعون في الميناء بأن الزعيم تورانا جا لم يعد على متن السفينة».
- ماذا سيفعل؟
- لا أعلم.
- سأل فيريرا: «لا تعلم؟».
- لا، ولكن لو كنت مكانه لكنت سأبحر وأتركنا في الوحل، أو أحاول ذلك.
- لقد وجّه الإنجليزي أصابع الاتهام إلينا الآن. ماذا سنفعل؟
- أنت مأمور بالتوجّه إلى إيدو.
- أراد القبطان أن يضيف: إذا صدمت القادس سيكون أفضل. لكنه لم يفعل. لأن ماريكو كانت تستمع.
- أبحر الكهنة بامتنان إلى الشاطئ على متن القارب.
- صاح رودريجز وألم ساقه يزداد: «ارفعوا الأشرعة! جنوباً نحو الجنوب الغربي. فليتجه الجميع للعمل».
- قال فيريرا: «رجاءً أخبري الزعيم تورانا جا أنه من الأفضل أن ينزل إلى الأسفل. سيكون أكثر أماناً».
- إنه يشكرك ويقول إنه سيبقى هنا.
- هز فيريرا كتفه، وذهب إلى حافة سطح السفينة: «جهزوا جميع المدافع. وحملوا القذائف. اتجهوا إلى مواقع القتال».

الفصل الثامن والعشرون

صاح بلاكتورن باليابانية حائاً قائد المجذفين على زيادة الجهد: «أسرعوا». نظر خلفه إلى الفرقاطة التي كانت تقترب منهم بسرعة، مبحرة باتجاه الرياح وجميع الأشعة مرفوعة، ثم إلى الأمام مجدداً، مقدراً المسار التالي الذي ستضطر إلى استخدامه. تساءل إن كان قد أحسن التقدير، فالمساحة البحرية هنا ضيقة بالقرب من المنحدرات، بضعة أمتار فقط تفصل بين الهلاك والنجاح. وبسبب الريح، كان على الفرقاطة أن تلتف للوصول إلى فم الميناء، بينما كان بإمكان القادس المناورة كما تشاء. لكن الفرقاطة كانت تتمتع بميزة السرعة. وفي الالتفاف الأخير، جعل رودريجز الأمر واضحاً بأن على القادس الابتعاد عن الطريق عندما تحتاج سانتا تيريزا إلى مساحة للإبحار.

كان يابو يثرثر معه مجدداً لكنه لم يعره أي اهتمام. قال محاولاً التحدث باليابانية: «لا أفهم يا يابو سان! استمع، إن تورانا جا ساما قال إنني أنجين سان، أفضل ربان الآن. أنا القبطان الرئيسي الآن. هل تفهم يا يابو سان؟». أشار إلى الاتجاه على البوصلة للقبطان الياباني، الذي أشار إلى الفرقاطة التي بالكاد تبعد عنه خمسة وأربعين متراً فقط، متجاوزة إياهم بسرعة على مسار تصادمي آخر.

قال بلاكتورن: «ابقوا على مساركم».

كان النسيم يبرد ملابسه المبللة بماء البحر، ما جعله يشعر بالبرد لكنه ساعد على صفاء ذهنه. تفقد السماء. ليست هناك سحب بالقرب من القمر الساطع والرياح مواتية. فكر: لا يوجد خطر هناك. فليُبقِ الرب القمر ساطعاً حتى نمرّ.

نادى باللغة الإنجليزية: «يا قبطان».

كان يدرك أنه لا يهم إذا تحدثت بالإنجليزية أو البرتغالية أو الهولندية أو اللاتينية لأنه كان وحيداً. أضاف ببعض اليابانية: «أرسل شخصاً ليجلب الساكي. ساكي. هل تفهم؟».

- نعم يا أنجين سان.

أرسل أحد البحارة مسرعاً. وبينما كان الرجل يركض نظر إلى الخلف خائفاً من حجم الفرقاطة القادمة وسرعتها. حافظ بلاكثورن على مساره، محاولاً إجبار الفرقاطة على الالتفاف قبل أن تكسب كل المساحة اللازمة للابتعاد عن الريح. لكنها لم تتوانَ قط واتجهت مباشرة نحوه. لكنه ابتعد عن طريقها في اللحظة الأخيرة، ثم سمع أمر رودريجز عندما كان دقلها المائل فوق سطح السفينة الخلفي تقريباً: «اتجهوا إلى يسار! أطلقوا الأشرعة الأمامية، واستمروا بثبات». ثم صاح نحوه بالإسبانية: «فمك في مؤخرة الشيطان يا إنجليزي».

- كانت والدتك هناك أولاً يا رودريجز.

ثم انحرفت الفرقاطة عن الريح لتشق طريقها الآن إلى الشاطئ البعيد، حيث ستضطر إلى الاستدارة مجدداً للوصول إلى اتجاه الريح والانعطاف من هذا الجانب مجدداً قبل أن تتمكن من الاستدارة مرة أخيرة والتوجه إلى فم الميناء.

للحظة كانت السفن قريبة جداً لدرجة أنه كاد أن يلمسها، وكان رودريجز وتورانجا وماريكو والقبطان العام يتمايلون على سطح السفينة الخلفي. ثم ابتعدت الفرقاطة وأصبحوا يتأرجحون في أعقابها.

- أسرعوا، أسرعوا.

ضاعف المجذفون جهودهم، وبإشارات أمر بلاكثورن مزيداً من الرجال بالتجذيف حتى لم يتبق لديهم احتياطي. كان عليه الوصول إلى الميناء قبل الفرقاطة وإلا سيصبحون في ورطة.

كانت القادس تقطع المسافة بسرعة. لكن كذلك كانت الفرقاطة أيضاً. وعلى الجانب الآخر من الميناء دارت كراقصة ورأى أن رودريجز قد رفع الأشرعة العلوية والسفلية.

- إنه لعينٌ مأكراً مثل أي برتغالي.

وصل الساكي لكن المرأة التي ساعدت ماريكو أخذته من يد البحار وعرضته عليه بغير استقرار. كانت قد بقيت على سطح السفينة بشجاعة، رغم أنها كانت خارج بيئتها الطبيعية. كانت يداها قويتين وشعرها مصففاً بعناية وترتدي كيمونو فاخرًا، ذا مظهر راقٍ وأنيق. كانت القادس تتمايل بفعل الأمواج المتلاطمة. تعثرت الفتاة وأسقطت الكوب. لم تتغير تعابير وجهها لكنه رأى احمرارًا من الخجل.

قال وهي تحاول البحث عنه: «لا يهم. لا يهم. ما اسمك؟».

- أوساجي فوجيكو يا أنجين سان.

- فوجيكو سان. هيا، أعطيني إياه رجاءً.

مد يده وأخذ القارورة وشرب منها مباشرة، ابتلع النبيذ متلهفًا للشعور بحرارته إلى جسده. ركز على المسار الجديد، متجنبًا المياه الضحلة التي أخبره إياه سانتياجو بأمر من رودريجز. أعاد فحص الاتجاه من الرأس الذي منحهم مسارًا واضحًا خاليًا من الأخطار إلى الميناء بينما أنهى النبيذ الدافئ، متسائلًا بصورة عابرة كيف يُدْفى، ولماذا يقدمونه دائمًا دافئًا وبكميات صغيرة.

كان ذهنه صافيًا الآن، وشعر بالقوة الكافية إذا كان حريصًا. لكنه علم أنه لا يملك احتياطيًا للاعتماد عليه، تمامًا كما لم تكن لدى السفينة احتياطات.

ناولها القارورة ونسي أمرها: «الساكي، رجاءً يا فوجيكو سان».

تقدمت الفرقاطة في المسار المواجه للرياح بسرعة وتجاوزته بتسعين مترًا متجهة إلى الشاطئ. سمع الألفاظ البذيئة التي تحملها الرياح ولم يكلف نفسه عناء الرد، مدخرًا طاقته.

- أسرعوا، نحن نخسر.

حماس السباق وكونه وحيدًا مجددًا وفي القيادة -بقوة إرادته أكثر من كونه في موقع القيادة- بالإضافة إلى الامتياز النادر لامتلاك يابو تحت سلطته، ملأه بفرح غير مقدس. قال: «لولا أن السفينة ستغرق وسأغرق معها، لجعلتها تصطدم بالصخور لأراك تغرق يا يابو ذو الوجه اللعين. من أجل بيتروزون المسن».

لكن ألم ينقذ يابو رودريجز عندما لم تستطع؟ ألم يهاجم قطاع الطرق عندما تعرضت للكمين؟ وكان شجاعاً الليلة. نعم، إنه ذو وجه لعين، لكنه أيضاً شجاعٌ ذو وجه لعين وهذه هي الحقيقة.

عُرضت عليه قارورة الساكي مجدداً. قال: «شكراً».

كانت الفرقاطة مائلة وتبحر في اتجاه معاكس للريح، مما أسعده كثيراً. قال بصوت عالٍ للريح: «لا يمكنني فعل أفضل من ذلك، لكن لو كانت تحت سيطرتي لمررت عبر القوارب وأبحرت إلى عرض البحر ولن أعود أبداً. كنت سأبحر بها إلى الوطن، وأترك اليابان لليابانيين والبرتغاليين المزعجين». رأى يابو والقبطان يحدقان إليه: «لن أفعل ذلك حقاً، ليس بعد. توجد سفينة سوداء للاستيلاء عليها ونهبها. والانتقام، أليس كذلك يا يابو سان؟».

- ما الأمر يا أنجين سان؟ ما الأمر؟

أجاب باليابانية ملوِّحاً بيده للفرقاطة: «أنا الأفضل. رقم واحد».

أفرغ القارورة. فأخذتها منه فوجيكو.

- ساكي يا أنجين سان؟

- لا، شكراً.

كانت السفينتان على مقربة من قوارب الصيد المحتشدة الآن، وكانت القادس تتجه مباشرة إلى الممر الذي تُرك عمداً بينهما، بينما كانت الفرقاطة في آخر مرحلة من مسارها وتستعد للانعطاف نحو فم الميناء. اشتد الريح هنا مع ابتعاد الرؤوس البحرية الواقية، والبحر المفتوح يقع على بعد ثمانمائة متر. نفخت العواصف أشرعة الفرقاطة، وأصبحت الأشرعة تُصدر صوتاً كطلقات المسدس، وبدأ يظهر زبد البحر على مقدمة السفينة وفي أعقابها.

كان المجدفون مُغطَّين بالعرق ومُستنفدين القوى. سقط رجل واحد ثم تلاه آخر. كان الرونين الساموراي الخمسون اتخذوا موضعهم بالفعل. وأمامهم، كان الرماة في قوارب الصيد على جانبي القناة الضيقة يسلمون أقواسهم. رأى بلاكثورن مواقد صغيرة في العديد من القوارب وعلم أن الأسهم ستكون نارية عندما تُطلق.

كان قد استعد للقتال قدر استطاعته. فهم يابو أنه سيتعين عليهم القتال، وفهم الأسهم النارية على الفور. كان قد أقام بلاكثورن حواجز خشبية واقية حول الدفة. فتح بعض الصناديق التي تحتوي على البنادق وأمر أولئك

القادرين على تسليحها بالبارود والرصاص. وأحضر عدة براميل صغيرة من البارود إلى سطح السفينة وأشعلها.

عندما ساعده المساعد الأول سانتياجو على الصعود إلى متن القارب، أخبره أن رودريجز سيساعده بعون الرب.
سأل: «لماذا؟».

- أخبرني رباني أنه ألقاك في البحر لكي تفيق يا سيدي.
- لماذا؟

- لأنه قال لي أن أخبرك يا سيدي الربان أنه كان يوجد خطر على متن سانتا تيريزا، خطر عليك.
- أي خطر؟

- يخبرك أنه يجب أن تقاتل لكي تخرج من هنا، إذا استطعت. لكنه سيساعدك.
- لماذا؟

- من أجل محبة مريم، أكتم فمك الهرطوقي واستمع، ليس لدي الكثير من الوقت.

ثم أخبره المساعد عن المياه الضحلة والاتجاهات وطريق القناة والخطة. وأعطاه مسدسين. قال: «يسأل رباني: ما مدى براعتك في التصويب».
كذب: «ضعيف».

- أخبرني رباني أن أقول لك أخيرًا: اذهب في حفظ الرب.
- وإياه... وإياك.
- بالنسبة لي، فإني أرسلك إلى الجحيم.
- أختك.

أشعل بلاكتورن البراميل تحسبًا إذا بدأ المدفع ولم توجد خطة، أو إذا ثبت خطأ الخطة، وكذلك ضد تعدي الأعداء. فإن حتى برميل صغير كهذا مع فتيل مشتعل، يطفو على جانب الفرقاطة من شأنه أن يغرقها مثلما سيفعل سبعون مدفعًا دفعة واحدة. فكر: لا يهم حجم البرميل، ما دام سيدمرها.
صاح وتمسك بالدفة: «أسرعوا من أجل حياتكم».

شكر الرب على رودريجز وعلى سطوع القمر.

ضاق الميناء عند الفم إلى ثلاثمائة وستين مترًا. كانت المياه العميقة تمتد تقريبًا من شاطئ إلى آخر، والرؤوس الصخرية ترتفع بحدة من البحر.

كانت المسافة بين قوارب الصيد المتربصة خمسة وتسعين مترًا.

كانت سانتا تيريزا تقتحم الأمواج بقوة الآن والرياح خلفها من الجانب الأيمن، تاركةً في أعقابها أثرًا قويًا، وكانت تزداد قربًا منهم بسرعة. احتفظ بلاكتورن بسيطرته علي وسط القناة وأشار إلى يابو للاستعداد. كان كل الرونين الساموراي قد أمروا بالاختباء تحت شفير السفينة لكي يكونوا غير مرئيين، حتى أعطي بلاكتورن الإشارة، حيث سيوجد كل رجل -بالبنديقية أو السيف- على اليسار أو اليمين، حسب الحاجة، ويابو يقود القتال. كان القبطان الياباني يعرف أن على رجاله المجذفين اتّباع الطُّرق وأن على قائد المجذفين طاعة أنجين سان. وكان على أنجين سان وحده توجيه السفينة.

كانت الفرقاطة على بعد خمسة وأربعين مترًا خلفهم، في وسط القناة، متجهة مباشرة نحوهم، وكان واضحًا أنها تسعى للاستحواذ على المسار الأوسط.

على متن الفرقاطة، همس فيريرا لرودريجز: «اصطدم بها».

كانت عيناه على ماريكو التي كانت تقف على بعد عشر خطوات بالقرب من الحاجز مع تورانا.جا.

- لا نجروُ على ذلك... ليس مع وجود تورانا.جا والفتاة هناك.

نادى فيريرا: «سيدتي، من الأفضل أن تذهبي إلى الأسفل، أنت وسيدك. سيكون أكثر أمانًا في غرفة المدافع».

ترجمت ماريكو إلى تورانا.جا الذي فكر للحظة ثم نزل إلى غرفة المدافع. قال كبير المدفعية للآ أحد بالتحديد: «لعنة الرب على عيني، أودُّ أن أطلق النار وأغرُق شيئًا ما. لقد مرَّ عامٌ ملعون منذ أن أغرقنا حتى قرصان موبوء».

- نعم، تستحق القردة حمامًا.

على سطح السفينة، كرر فيريرا: «اصطدم بالقادس يا رودريجز».

- لماذا تقتل عدوك بينما يفعل الآخرون ذلك من أجلك؟
- يا مريم! أنت سيئ بمثل سوء الكاهن، ليس لديك دم في عروقتك.
- أجاب رودريجيز بالإسبانية أيضًا: «نعم، ليس لدي دم القتل. لكن أنت؟ لديك. أليس كذلك؟ وربما دم إسباني؟».
- سأل فيريرا بالبرتغالية، وقد استحوذ عليه اقتراب القتل: «هل ستصطدم بها أم لا».
- إذا بقيت حيث هي، نعم.
- إذن دعها تبقي حيث هي.
- ماذا كنت تخطط للإنجليزي؟ لماذا كنت غاضبًا لأنه لم يكن على متن سفينتنا؟
- لا أحبك ولا أثق بك الآن يا رودريجيز. لقد انحزت أو بدا أنك انحزت مرتين إلى جانب الهرطوقي ضدي أو ضدنا. إذا كان يوجد ربان آخر مقبول في كل آسيا، لكنك أغرقتك يا رودريجيز، وأبحرت مع سفينتي السوداء.
- ستغرق إذن. تفوح منك رائحة الموت وأنا وحدي من يستطيع حمايتك.
- رسم فيريرا إشارة الصليب على نفسه مؤمنًا بالخرافات: «يا مريم، أنت ولسانك القذر! بأي حق تقول ذلك؟».
- كانت أُمي عجربة وهي الطفل السابع لطفل سابغ، مثلي.
- كاذب.
- ابتسم رودريجيز قائلاً: «آه، يا سيدي القبطان، ربما أنا كذلك».
- وضع يديه حول فمه وصاح: «إلى محطات القتال». ثم إلى قائد الدفة: «استمر بثبات، وإذا لم تتحرك تلك اللعينة، أغرقها».

أمسك بلاكثورن الدفة بقوة، بينما ذراعاه وساقاه تؤلمه. كان قائد المجذفين يقرع الطبل بقوة، والمجذفون يبذلون جهدًا أخيرًا. كانت الفرقاطة الآن على بعد ثمانية عشر مترًا خلفهم، الآن ثلاثة عشر، الآن تسعة. ثم انحرف بلاكثورن بقوة إلى اليسار. كادت الفرقاطة أن تصطدم بهم، وانحدرت جانبًا نحوهم، ثم أصبحت بجانبهم. ثم انحرف بلاكثورن بقوة

إلى اليمين ليكون موازيًا للفرقاطة، على بعد تسعة أمتار منها. ثم، معًا -جنبًا إلى جنب- كانا مستعدين لاجتياز المضيق بين الأعداء.

صاح بلاكثورن: «ادفعوا، ادفعوا أيها الأوغاد».

كان يرغب في البقاء إلى جانبها بالضبط، لأنهما كانا محميين فقط هنا بهيكل الفرقاطة وأشرعتها. أطلقت بعض الطلقات النارية، ثم وابل من الأسهم المشتعلة، لكنهم لم يسببوا أضرارًا حقيقية، ولكن بعضها أصاب أشرعة الفرقاطة السفلية بالخطأ واندلعت النيران.

توقف جميع الساموراي القادة في القوارب عن إطلاق السهام في رعب. لم يهاجم أحد سفينة همجية جنوبية من قبل. ألا يجلبون وحدهم الحرير الذي يجعل حرارة كل الصيف الرطبة محتملة، ويرد كل شتاء محتمل، وكل ربيع وخريف ممتعين؟ ألا يتمتع الهمج الجنوبيون بالحماية بمراسيم إمبراطورية؟ ألن يثير إحراق إحدى سفنهم غضبهم لدرجة أنهم لن يعودوا أبدًا مجددًا؟

لذلك احتفظ القادة برجالهم تحت السيطرة بينما كانت سفينة توراناجا تحت جناح الفرقاطة، لا يجرؤون على المخاطرة بأدنى فرصة أن يكون أحدهم سببًا لوقف السفن السوداء دون موافقة مباشرة من إيشيدو. وفقط عندما أطفأ البحارة على متن الفرقاطة النيران، تمكنوا من تنفس الصعداء.

عندما توقفت الأسهم، بدأ بلاكثورن بالاسترخاء أيضًا. وكذلك رودريجيز. فقد كانت الخطة تنجح. كان رودريجيز قد خمن أن القادس لديها فرصة تحت جناحه، فرصتها الوحيدة. لقد ذكر سانتياجو: «لكن رباني يقول إنه عليك أن تستعد لما هو غير متوقع يا إنجليزي».

قال فيريرا: «ادفع هذا الوغد جانبًا. اللعنة، أمرتك بدفعه إلى القردة».

أمر رودريجيز بالتزام: «اتجهوا خمس درجات إلى اليسار».

كرر قائد الدفة: «خمس درجات إلى اليسار».

سمع بلاكثورن الأمر. لذا أدار الدفة على الفور ناحية اليسار خمس درجات ودعا الرب. إذا استمر رودريجيز في مساره لفترة طويلة، فسيصطدمون بقوارب الصيد وسيخسر. وإذا تباطأ في الإبحار وتأخر، علم أن قوارب العدو ستغرقه سواء كانوا يعتقدون أن توراناجا على متن السفينة أم لا. يجب أن يبقى بجانبه.

- خمس درجات إلى اليمين.

أمر رودريجز في الوقت المناسب. لم يُرد مزيدًا من الأسهم المشتعلة أيضًا؛ فهناك الكثير من البارود على السطح. تمتم للرياح: «تعال يا لعين. ضع شجاعتك في أشرعتي وأخرجنا من هنا».

أدار بلاكثورن الدفة مجددًا خمس درجات إلى اليمين للحفاظ على مكانه مع الفرقاطة، وكانت السفينتان تتسابقان جنبًا إلى جنب، ومجاذيف القادس على الجانب الأيمن تكاد تلامس الفرقاطة، ومجاذيف الجانب الأيسر تكاد تغرق قوارب الصيد. الآن فهم القبطان، وكذلك المجذفون وقائدهم. وضعوا قوتهم الأخيرة في المجاذيف. صرخ يابو بأمر فأسقط الرونين الساموراي أقواسهم واندفعوا للمساعدة وانضم يابو إليهم.

جنبًا إلى جنب. لم يتبق سوى بضع مئات من الأمتار فقط.

ثم اندفع الرماذيون في بعض قوارب الصيد، وهم أكثر جرأة من الآخرين، وتقدموا في طريقهم وألقوا خطاطيفهم. أغرق قيدوم القادس القوارب. ألقى الخطاطيف في البحر قبل أن تمسك بها. وغرق الساموراي الذين كانوا ممسكين بهم. ولم يتوقف التجذيف.

- اتجهوا نحو اليسار أكثر.

- لا أجروا يا قبطان. فإن تورانا جا ليس أحرق، وانظر، يوجد شعاب مرجانية أمامنا.

رأى فيريرا الصخور بالقرب من قوارب الصيد الأخيرة: «ادفعه نحوها».

- درجتان إلى اليسار.

انحرفت الفرقاطة مجددًا وكذلك فعل بلاكثورن. استهدفت كلتا السفينتين قوارب الصيد المحتشدة. رأى بلاكثورن الصخور أيضًا. غرق قارب آخر وأطلق عليه وابل من الأسهم. حافظ على مساره ما دام استطاع، ثم صاح لتحذير رودريجز ثم أدار الدفة: «خمس درجات إلى اليمين».

انحرف رودريجز لتجنب الاصطدام. لكنه هذه المرة اتبع مسارًا تصادميًا بسيطًا لم يكن جزءًا من الخطة.

قال رودريجز مدفوعًا بالمطاردة والخوف: «تقدم أيها الوغد، دعنا نزن شجاعتك».

كان على بلاكتورن الاختيار على الفور بين الصخور والفرقاطة. بارك المجذفين الذين ظلوا متمسكين بمجاذيفهم، والطاقم وكل من كان على متن السفينة الذين أعطوه من خلال انضباطهم امتياز الاختيار. وهو اختار. انحرف أكثر إلى اليمين، وأخرج مسدسه وصوبه. صاح: «أفسحوا الطريق، بحق الرب».

وسحب الزناد. انطلقت الرصاصة فوق سطح الفرقاطة تمامًا بين القبطان ورودريجز.

جفل رودريجز بينما انحنى القبطان. أيها الإنجليزي اللعين! هل كان ذلك حظًا أم تصويبا جيدًا أم كنت تهدف إلى القتل؟

رأى المسدس الثاني في يد بلاكتورن، وتوراناجا يحدق إليه. لكنه تجاهل توراناجا باعتباره شخصًا غير مهم.

يا أم الإله المباركة، ماذا أفعل؟ هل ألتزم بالخطة أم أغيرها؟ أليس من الأفضل قتل هذا الإنجليزي؟ من أجل المصلحة العامة؟ أخبريني، نعم أم لا.

أجب نفسك يا رودريجز، على روحك الأبدية! ألسنت رجلاً؟

استمع إذن: سيأتي هراطقة آخرون مثل هذا الإنجليزي الآن، مثل القمل، سواء قُتل هذا أم لم يقتل. أنا مدين له بحياة وأقسم إنني لا أملك دم القتل في داخلي، ليس لقتل ربان.

أمر وأفسح الطريق: «أدرِ الدفة إلى اليمين».

- يسأل سيدي لماذا كدت تصطدم بالقادس؟

- كانت مجرد لعبة يا سيدتي، لعبة يلعبها الربابنة. لاختبار أعصاب الآخر.

- وطلقة المسدس؟

- لعبة مماثلة لاختبار أعصابي. كانت الصخور قريبة جدًا وربما كنت أدفع الإنجليزي أكثر من اللازم. نحن أصدقاء، أليس كذلك؟

- يقول سيدي إنه من الغباء لعب مثل هذه الألعاب.

- أرجو أن تقدم له اعتذاري. المهم أنه بأمان والآن القادس آمنة، لذلك أنا سعيد. إنها الحقيقة.

- هل رتبت الهروب، هذه الحيلة، مع أنجين سان؟

- اتضح أنه ذكي جدًا وكان توقيته مثاليًا. أضاء القمر طريقه، وكان البحر في صالحه، ولم يرتكب أحد خطأ. لكنني لا أعلم لماذا لم يفرقه الأعداء. كانت إرادة الرب.

قال فيريرا وهو يحدق إلى القادس خلفهم دون أن يلتفت: «هل كانت حقًا؟».

كانا قد تجاوزا فم الميناء الآن وخرجا بأمان إلى طرق أوساكا، والقادس على بعد بضع مئات الأمتار خلفهما، ولم تكن أي من السفينتين مسرعة. توقفت معظم مجاذيف القادس مؤقتًا، تاركين ما يكفي فقط للمضي قدمًا بهدوء بينما كان معظم المجذفين يستعيدون عافيتهم.

لم يعر رودريجز القبطان فيريرا أي اهتمام. فقد كان منشغلًا مع تورانا. أخبر رودريجز نفسه: أنا سعيد لأننا في صف تورانا. كان قد درسه بعناية خلال السباق، سعيد بهذه الفرصة النادرة. كانت عينا الرجل في كل مكان، يراقب المدفعية والمدافع والأشعة وفريق الإطفاء بفضول شره، يطرح الأسئلة من خلال ماريكو على البحارة أو المساعد: ما الغرض من هذا؟ كيف تحملون المدفع؟ ما مقدار البارود؟ كيف تطلقون النار؟ ما فائدة هذه الحبال؟

- يقول سيدي: ربما كانت مجرد كارما. هل تفهم الكارما يا ربان؟

- نعم.

- إنه يشكرك على استخدام سفينتك. الآن سيعود إلى سفينته الخاصة.

استدار فيريرا على الفور: «ماذا؟ سنصل إلى إيدو قبل القادس. إن الزعيم تورانا مرحب به للبقاء على متن السفينة».

- يقول سيدي: لا داعي لإزعاجك أكثر من ذلك. سيبحر بسفينته الخاصة.

- رجاء اطلبي منه البقاء. سأستمتع بصحبته.

- الزعيم تورانا يشكرك ولكنه يرغب في الذهاب على الفور إلى سفينته الخاصة.

- حسنا. افعل كما يقول يا رودريجز. أرسل إشارة لها وأخفض القارب.

شعر فيريرا بخيبة أمل. كان يريد رؤية إيدو، وكان يريد التعرف إلى تورانا الآن بعد أن أصبح الكثير من مستقبلهم مرتبطًا به. لم يصدق ما قاله

توراناجا عن وسائل تجنب الحرب. نحن في حرب إلى جانب هذا القرد ضد إيشيدو سواء أحببنا ذلك أم لا. وأنا لا أحب ذلك. انحنى بأدب قائلاً: «سأشعر بالأسف لعدم وجودي بصحبة الزعيم توراناجا».

بادله توراناجا الانحناء وتحدث بإيجاز.

- يشكرك سيدي.

ثم أضافت إلى رودريجز: «يقول سيدي إنه سيكافئك على ما فعلته للقادس عندما تعود مع السفينة السوداء».

أجاب رودريجز منحنياً: «لم أفعل شيئاً. كان مجرد واجب. أرجو أن تعذريني لعدم نهوضي من مقعدي... بسبب ساقبي، حسناً؟ اذهبي في رعاية الرب يا سيدتي».

- شكراً لك يا ربان. اذهب أنت كذلك.

بينما كانت تتلمس طريقها بصعوبة إلى أسفل السلم خلف توراناجا، لاحظت أن البحار بيسارو كان يقود القارب. تسللت قشعريرة إلى جلدها وكادت أن تتقيأ. دفعت بالتشنج بعيداً، شاكرة لأن توراناجا أمر الجميع بالخروج من هذه السفينة الكريهة الرائحة.

ناداهم فيريرا قائلاً: «رياح مواتية ورحلة آمنة».

لَوْح لهم مرة واحدة وردُّوا التحية ثم انطلق القارب.

أمر كبير المدفعية: «انزلوا عندما يعود القارب وتختفي تلك القادس اللعينة عن الأنظار».

توقف أمام رودريجز على سطح السفينة. ثم أشار إلى القادس قائلاً: «ستندم على إبقائه على قيد الحياة».

- هذا بيد الرب. إن الإنجليزي ربان «مقبول» إذا تمكنت من تجاوز دينه يا قبطان.

- لقد فكرت في ذلك.

- و؟

- كلما أسرعنا في الوصول إلى ماكاو كان ذلك أفضل. سجل رقمًا قياسيًا يا رودريجز.

ذهب فيريرا إلى الأسفل.

كانت ساق رودريجز تؤلمه بشدة. أخذ رشفة من كيس الشراب. قال لنفسه: ليذهب فيريرا إلى الجحيم. ولكن، رجاءً يا إلهي، ليس قبل أن نصل إلى لشبونة.

انحرف الريح قليلاً ووصلت سحابة إلى هالة القمر، المطر ليس ببعيد والفجر يشرق في السماء. وجه انتباهه الكامل إلى سفينته وأشرعتها واتجاهها. وعندما شعر بالرضا التام، شاهد القارب. وأخيراً القادس.

تجرع مزيداً من الشراب، راضياً لأن خطته نجحت بدقة. حتى طلقة المسدس التي حسمت الأمر. وراضٍ عن قراره.

كان قراري وقد اتخذته.

قال بحزن شديد: «ومع ذلك يا إنجليزي، إن القبطان محق. فقد جاءت الهرطقة معك إلى الجنة».



الفصل التاسع والعشرون

- أنجين سان؟

استيقظ بلاكثورن من نوم عميق: «نعم؟».

- تفضل بعض الطعام والشاي.

للحظة لم يستطع تذكر من هو أو أين مكانه. ثم استطاع التعرف على مقصورته في القادس. كان شعاع من ضوء الشمس يخترق الظلام. شعر براحة كبيرة. لا قرع طبول الآن، وحتى في أعماق نومه، أخبرته حواسه أن المرساة قد خففت وأن سفينته آمنة بالقرب من الشاطئ، والبحر هادئ.

رأى خادمة تحمل صينية، وماريكو بجانبها -لم تعد ذراعها في جبيرة- وكان مستلقياً في سرير الربان، السرير نفسه الذي استخدمه خلال رحلة رودريجيز من قرية أنجيرو إلى أوساكا، والذي كان الآن مألوفاً بطريقة ما تقريباً مثل سريرهم ومقصورتهم على متن إيراسموس. إيراسموس! سيكون من الرائع العودة إلى السفينة ورؤية الفتیان مرة أخرى.

تمدد برفاهية، ثم أخذ كوب الشاي الذي قدمته له ماريكو.

- شكراً لك. هذا لذيذ. كيف حال ذراعك؟

ثنت ماريكو ذراعها لتريه: «أفضل بكثير، شكراً لك. كان مجرد جرح سطحي».

- تبدين بحال أفضل يا ماريكو سان.

- نعم، أنا أفضل الآن.

عندما عادت إلى السفينة عند الفجر مع توراناكا كانت تبدو على وشك الإغماء. قال لها: «من الأفضل البقاء في الأعلى، سيغادرك الإعياء بسرعة».

- يسأل سيدي: لماذا أطلقت النار من المسدس؟

قال لها: «كانت مجرد لعبة يلعبها الربابنة».

- سيدي يمدحك على مهارتك البحرية.

- لقد كنا محظوظين. ساعدنا القمر. وكان الطاقم رائعًا. هل يمكنك أن تسألني القبطان سان يا ماريكو سان إذا كان يعرف هذه المياه؟ أنا آسف، لكن أخبرني تورانا جا ساما أنني لا أستطيع البقاء مستيقظًا لفترة أطول. أو هل يمكننا التوقف لمدة ساعة أو نحو ذلك في البحر؟ يجب أن أنا.

تذكر بإبهام أنها أخبرته أن تورانا جا قال إن بإمكانه النزول إلى الأسفل، وإن القبطان سان قادرٌ تمامًا لأنهم سيقون في المياه الساحلية ولن يخرجوا إلى البحر.

تمدد بلاكثورن مجددًا وفتح كوة المقصورة. كان يوجد شاطئ صخري على بعد مائتي متر تقريبًا. سأل: «أين نحن؟».

- قبالة ساحل مقاطعة توتومي يا أنجين سان. أراد الزعيم تورانا جا السباحة وإراحة المجذفين لبضع ساعات. سنكون في أنجيرو غداً.

- قرية الصيد؟ هذا مستحيل. إنه ظهر اليوم وفي الفجر كنا قبالة أوساكا. هذا مستحيل.

أجابت: «كان ذلك بالأمس يا أنجين سان. لقد نمت يومًا وليلة ونصف يوم آخر. قال الزعيم تورانا جا أن نترك تنام. الآن يعتقد أن السباحة ستكون جيدة لإيقاظك. بعد الطعام».

كان الطعام اثنين من أوعية الأرز والسمك المشوي على الفحم مع الصلصة الداكنة المالحة المرة الحلوة الحامضة التي أخبرته أنها مصنوعة من الفول المخمر.

- شكرًا لك. نعم أريد السباحة. ستة وثلاثون ساعة تقريبًا؟ لا عجب أنني أشعر بالراحة.

أخذ الصينية من الخادمة، وهو يشعر بالشره. لكنه لم يأكل على الفور. سأل: «لماذا هي خائفة؟».

- إنها ليست كذلك يا أنجين سان. هي فقط متوترة قليلًا. رجاء اعذرها فهي لم ترَ قط أجنبياً عن قرب.

- أخبرني أنها عندما يكون القمر مكتملاً، ينبت للهمج قرونٌ ويخرج النار من أفواهنا مثل التنانين.

ضحكت ماريكو: «لن أفعل بالتأكيد». أشارت إلى الطاولة: «يوجد مسحوق معجون أسنان وفرشاة ومياه ومناديل نظيفة». ثم قالت باللاتينية: «يسعدني أن أراك بخير. إنه كما قيل في المسيرة، أنت شجاع جدًا».

تلاقت أعينهما ثم سمح لتلك اللحظة بالمرور. انحنت بأدب. وانحنت الخادمة. وأغلق الباب خلفهما.

أمر نفسه: لا تفكر فيها. فكر في تورانا جا أو أنجيرو. لماذا نتوقف عند أنجيرو غدًا؟ لإنزال يابو؟ ببس المصير.

سيكون أومي في أنجيرو. ماذا عن أومي؟

لماذا لا تطلب رأس أومي من تورانا جا؟ إنه يدين لك بواجب أو اثنين. أو لماذا لا تطلب قتال أومي سان؟ كيف؟ بالمسدسات أم بالسيف؟ لن تكون لديك فرصة بالسيف وستصبح جريمة قتل إذا كان لديك سلاح. من الأفضل عدم فعل أي شيء والانتظار. ستحصل على فرصة قريبًا وسأنتقم من كليهما. أنت تتمتع برعاية تورانا جا الآن. كن صبورًا. اسأل نفسك ما تحتاجه منه. سنكون قريبًا في إيدو، لذلك ليس لديك الكثير من الوقت. ماذا عن تورانا جا؟ كان بلاكتورن يستخدم عيدان الطعام كما رأى الرجال في السجن يستخدمونها، يرفع وعاء الأرز إلى شفثيه ويدفع الأرز للزج من شفة الوعاء إلى فمه بالعيدان. كانت قطع السمك أكثر صعوبة. لم يكن ماهرًا بعد، لذلك استخدم أصابعه، سعيديًا بتناول الطعام بمفرده، مدركًا أنه سيكون من الوقاحة تناول الطعام بأصابعه أمام ماريكو أو تورانا جا أو أي ياباني.

كان لا يزال جائعًا عندما انتهى من الطعام كله.

قال بصوت عالٍ: «أريد الحصول على المزيد من الطعام. يا إلهي، أريد بعض الخبز الطازج والبيض المقلي والزبدة والجبن...».

خرج على سطح السفينة. كان معظمهم عراة. كان بعض الرجال يجففون أنفسهم، والبعض الآخر يتشمس، وكان البعض يقفزون في الماء. في البحر بجانب السفينة، كان الساموراي والبحارة يسبحون أو يرشون الماء مثل الأطفال.

- مرحبًا يا أنجين سان.

قال: «مرحبًا يا تورانا جا ساما».

كان توراناغا عاريًا تمامًا، يصعد على السلم الذي أنزل إلى البحر. قال مشيرًا إلى البحر، وهو يصفع الماء على بطنه وكتفيه، شاعرًا بالدفع تحت الشمس الساطعة: «Sonata wa oyogitamo ka?».

قال بلاكتورن بافتراض أنه سئل عما إذا كان يريد السباحة: «نعم يا توراناغا ساما، شكرًا».

أشار توراناغا مجددًا إلى البحر وتحدث لفترة قصيرة، ثم دعا ماريكو للترجمة. نزلت ماريكو من سطح السفينة، حامية رأسها بمظلة شمسية قرمزية، والكيمونو القطني الأبيض غير الرسمي مربوط بغير تكلف.

- يقول توراناغا ساما إنك تبدو مرتاحًا جدًا يا أنجين سان. إن الماء انتعاش.

قال مصححًا لها بأدب: «منعش. نعم».

- آه، شكرًا لك... منعش. يقول من فضلك اسبح الآن.

كان توراناغا يميل بلا مبالاة ضد الشفير، يمسح الماء من أذنيه بمنشفة صغيرة، وعندما لم تخرج من أذنه اليسرى، أمال رأسه وقفز على كعبه الأيسر حتى خرجت. رأى بلاكتورن أن توراناغا مقتول العضلات وقوي جدًا، باستثناء بطنه. نزع ثيابه باضطراب، واعيًا بوجود ماريكو، نزع قميصه وغطاء العورة وسرواله حتى أصبح عاريًا تمامًا.

- يسأل الزعيم توراناغا إذا كان جميع الرجال الإنجليز مشعرين مثلك؟ الشعر فاتح اللون جدًا؟

قال: «بعضهم كذلك».

- نحن... رجالنا ليس لديهم شعر على صدورهم أو أذرعهم مثلك. ليس كثيرًا. يقول إن لديك بنية جيدة جدًا.

- هو كذلك أيضًا. رجاء اشكريه.

ابتعد بلاكتورن عنها متجهًا إلى رأس السلم، مدرّكًا لوجودها هي والفتاة الشابة فوجيكو، التي كانت جاثية على سطح السفينة تحت مظلة صفراء، وخادمة بجانبها تراقبه أيضًا. ثم لم يستطع أن يتمالك كرامته بما يكفي للمشى عاريًا طوال الطريق إلى البحر، لذا قفز من الجانب في المياه الزرقاء الباهتة. كانت غطسة رائعة وكانت برودة البحر تصل إليه بإنعاش. كان القاع الرملي على عمق خمسة أمتار، وكانت الأعشاب البحرية تلوح في قاع البحر،

وجمّوع من الأسماك غير الخائفة من السباحين. توقف غطسه بالقرب من قاع البحر ولعب مع الأسماك، ثم صعد إلى السطح وبدأ في السباحة نحو الشاطئ بحركة بذراعيه فوق رأسه قد تبدو كسولة وسهلة جدًا ولكنها سريعة جدًا علّمه إياها ألبان كارادوك.

كان الخليج الصغير مهجورًا: يوجد به العديد من الصخور، وشاطئ صغير مرصوف بالحصى، ودون أي علامة على حياة. كانت الجبال ترتفع مئات الأمتار إلى سماء زرقاء لا حدود لها.

استلقى على صخرة يتشمس. سبح معه أربعة ساموراي ولم يكونوا بعيدين عنه. ابتسموا ولوحوا. ثم عاد للسباحة مجددًا في وقت لاحق، وتبعوه. كان توراناغا لا يزال يراقبه.

صعد على سطح السفينة. ووجد ملابسه قد اختفت. كانت فوجيكو وماريكو وخادمتان لا تزالان هناك. انحنت إحدى الخادمت وعرضت عليه منشفة صغيرة جدًا، أخذها وبدأ في تجفيف نفسه، ملتفتًا بغير راحة إلى الشفير.

قال لنفسه: أمرك بأن تكون مرتاحًا. أنت مرتاح عاريًا في غرفة مغلقة مع فيليسييتي، أليس كذلك؟ أنت فقط تشعر بالحرج في الأماكن العامة عندما تكون النساء حولك - عندما تكون هي حولك-. لماذا؟ لا يلاحظون العري وهذا منطقي تمامًا. أنت في اليابان. عليك أن تفعل كما يفعلون. ستصبح مثلهم وتتصرف كملك.

قالت ماريكو: «يقول الزعيم توراناغا إنك تسبح بمهارة. هل يمكنك تعليمه تلك الحركة؟».

قال: «سأود ذلك».

وأجبر نفسه على الالتفاف والانحناء مثل توراناغا. كانت ماريكو تبتسم إليه. فكر: تبدو جميلة جدًا.

- الطريقة التي غطست بها إلى البحر. نحن... نحن لم نر ذلك من قبل. نحن نقفز دائمًا. يريد أن يتعلم كيفية القيام بذلك.

- الآن؟

- نعم، رجاءً.

- يمكنني تعليمه... على الأقل، يمكنني المحاولة.

كانت خادمة تحمل كيمونو قطنيًا لبلاكثورن، فارتداه بامتنان وربطه بالحزام. الآن، بعدما أصبح مسترخيًا تمامًا، شرح كيفية الغطس، وكيفية وضع رأسك بين ذراعيك والوثب لأعلى وللخارج ولكن الحذر من تخبُّط البطن.

- من الأفضل أن تبدأ من قدم السلم وأن تسقط نوعًا ما برأسك أولاً في البداية، دون القفز أو الركض. هذه هي الطريقة التي نعلم بها الأطفال.

استمع توراناغا وطرح الأسئلة، ثم قال من خلال ماريكو عندما اقتنع: «جيد. أعتقد أنني أفهم».

اتجه نحو قمة السلم. ثم ألقي توراناغا بنفسه في الماء قبل أن يتمكن بلاكثورن من إيقافه، على بعد أربعة أمتار. كان تخبُّط البطن قاسيًا. لم يضحك أحد. عاد توراناغا مبتلًا إلى سطح السفينة وحاول مجددًا. ومجددًا هبط بتسطح. فشل الساموراي الآخرون أيضًا.

قال بلاكثورن: «إنه ليس سهلًا. لقد استغرق الأمر مني وقتًا طويلًا لتعلمه. خذ قسطًا من الراحة وسنجرّب مرة أخرى غدًا».

- يقول الزعيم توراناغا: «الغد هو الغد. سأتعلم الغطس اليوم».

وضع بلاكثورن الكيمونو الخاص به جانبًا وشرح مجددًا. قلده الساموراي. وفشلوا مجددًا. وكذلك فشل توراناغا. ست مرات.

بعد غطسة توضيحية أخرى، تسلق بلاكثورن إلى قدم السلم ورأى ماريكو بينهم عارية، تستعد لإلقاء نفسها في الفضاء. كان جسدها رائعا، والضمادة على ذراعها العلوية جديدة. قال: «انتظري يا ماريكو سان! من الأفضل أن تجربي من هنا. المرة الأولى».

- حسنًا يا أنجين سان.

خطت نحوه، والصليب الصغير يعزز عريها. أظهر لها كيف تنحني وتسقط للأمام في البحر، بينما أمسكها من خصرها لقلبها بحيث يدخل رأسها أولاً.

ثم حاول توراناغا بالقرب من خط الماء وكان ناجحًا إلى حد ما. حاولت ماريكو مرة أخرى فأثارت لمسة بشرتها بلاكثورن فارتبك للحظات وسقط في الماء، موجهاً إياهم من هناك حتى هدأ. ثم ركض إلى سطح السفينة ووقف على الشفير وأظهر لهم غطسة الرجل الميت، والتي اعتقد أنها قد

تكون أسهل، حيث إنه يعلم أن النجاح مهم لتوراناجا. قال: «لكن عليك أن تبقى متصلبًا، حسنًا؟ مثل السيف. حينها لا يمكنك الفشل».

سقط للخارج. كانت الغطسة مباشرة وبدأ يسبح في الماء منتظرًا.

تقدم العديد من الساموراي لكن توراناجا أشار إليهم بالابتعاد. رفع ذراعيه بثبات، وعموده الفقري مستقيمًا. كان صدره وخصره قرمزي اللون من تخططات البطن. ثم ترك نفسه يسقط للأمام كما أظهر له بلاكتورن. دخل رأسه في الماء أولاً وانقلبت ساقاه فوقه، لكنها كانت غطسة وأول غطسة ناجحة لأي منهم واستقبلته حرارة الاستحسان عندما ظهر على السطح. فعلها مرة أخرى، كانت هذه المرة أفضل. ثم تبعه رجال آخرون، نجح البعض وفشل البعض الآخر. ثم حاولت ماريكو.

رأى بلاكتورن الصدر الصغير والخصر الضئيل والبطن المسطح والساقين المنحنيتين. ظهرت لمحة من الألم على وجهها عندما رفعت ذراعيها فوق رأسها. لكنها حافظت على تماسكها كالسهم وسقطت إلى الخارج بشجاعة. اخترقت الماء بمهارة. لكن لم يلاحظها أحد تقريبًا.

قال وهو يمد يده لرفعها بسهولة من الماء إلى منصة السلم: «كانت غطسة رائعة. رائعة حقًا. يجب أن تتوقفي الآن. فقد ينفتح الجرح في ذراعك».

وقفت بجانبه بالكاد تصل إلى كتفه، وتشعر بالرضا التام عن نفسها: «نعم، شكرًا لك يا أنجين سان. هذا شعور نادر، السقوط للخارج والحاجة إلى البقاء متماسكًا، والأهم من ذلك، السيطرة على الخوف. نعم، كان هذا شعورًا نادرًا جدًا بالفعل».

صعدت السلم وارتدت الكيمونو الذي أعطته لها الخادمة. ثم نزلت إلى الأسفل بعدما جففت وجهها برفق.

فكر: يا إلهي، يا لها من امرأة.

عند غروب الشمس استدعى توراناجا بلاكتورن. كان جالسًا على سطح السفينة على الفتون النظيف بالقرب من موقد فحم صغير يتصاعد منه دخان ناتج من قطع صغيرة من الخشب العطري. كانت تستخدم لتعطير الهواء وإبعاد البعوض وذباب الغسق. كان الكيمونو الخاص به مكويًا بعناية ومرتبًا، والأكتاف الضخمة الشبيهة بالأجنحة للرداء الخارجي أعطته حضورًا

هائلاً. كان يابو وماريكو أيضاً مرتدين ملابس رسمية. كما كانت فوجيكو حاضرة أيضاً. جلس عشرون ساموراي في صمت يقومون بالحراسة. الشموع موضوعة في حوامل والقادس لا تزال تتأرجح بهدوء على مرساها في الميناء.

- هل تريد ساكي يا أنجين سان؟

- شكراً يا توراناغا ساما.

انحنى بلاكثورن وقبل الكوب الصغير من فوجيكو، رفعه تحية لتورانانا وشربه. وأعيد ملء الكوب على الفور. كان بلاكثورن يرتدي كيمونو بنياً وكان يشعر براحة وحرية أكثر من ملابسه الخاصة.

- يقول الزعيم توراناغا إننا سنبقى هنا الليلة. غداً سنصل إلى أنجيرو.

يريد أن يسمع المزيد عن بلدك والعالم الخارجي.

- بالتأكيد. ماذا يريد أن يعرف؟ إنها ليلة جميلة، أليس كذلك؟

استقر بلاكثورن بارتياح مدرّكاً أنوثتها. مدرك جداً. غريب، أنا أكثر وعياً بها الآن بعد أن لبست ملابسها مقارنةً بها عندما كانت لا ترتدي شيئاً.

- نعم، جداً. سيصبح الجو رطباً قريباً يا أنجين سان. إن الصيف ليس وقتاً جيداً.

أخبرت توراناغا بما قالت وأضافت: «قال لي سيدي أن أخبرك أن إيدو مستنقعية. البعوض سيئ في الصيف، لكن الربيع والخريف جميلان. نعم، حقاً إن فصلَي ولادة وموت العام جميلان».

- إنجلترا معتدلة المناخ. الشتاء قاسٍ، ربما شتاء واحد كل سبعة أعوام. وكذلك الصيف. ونعاني المجاعة نحو مرة واحدة كل ست سنوات، رغم أننا في بعض الأحيان نعاني عامين سيئين متتاليين.

- نعاني المجاعة أيضاً. كل المجاعات سيئة. كيف الحال في بلدك الآن؟

- لقد واجهنا محاصيل سيئة ثلاث مرات في العقد الماضي ولم توجد شمس لتنضج الذرة. لكن هذا كله بيد الرب. الآن إنجلترا قوية جداً. نحن مزدهرون. يعمل شعبنا بجد. نصنع جميع الأقمشة والأسلحة بأنفسنا. معظم الأقمشة الصوفية في أوروبا تأتي منا. قليل من الحرير يأتي من فرنسا لكن الجودة رديئة وهو مخصص فقط للأثرياء جداً.

قرر بلاكتورن عدم إخبارهم عن الطاعون أو الاضطرابات أو الثورات الناجمة عن احتكار الأراضي المشاع، ونزوح الفلاحين إلى المدن. لكنه أخبرهم بدلاً من ذلك عن الملوك والملكات الصالحين، والقادة الرشيديين والبرلمانات الحكيمة والحروب الناجحة.

- يريد الزعيم توراناغا أن يكون واضحًا تمامًا. هل تدعي أن القوة البحرية وحدها تحميك من إسبانيا والبرتغال؟

- نعم. هذا فقط. سيطرتنا على البحار تبقينا أحرارًا. أنتم أيضًا أمة جزيرية مثلنا. ألا تكونون أيضًا بلا دفاع ضد العدو الخارجي إذا لم تملكو سيطرة على بحاركم؟

- يوافقك سيدي في الرأي.

- آه، هل غُزيتم أيضًا؟

رأى بلاكتورن عبوسًا خفيفًا عندما التفتت إلى توراناغا وذكر نفسه بالاعتصار على الإجابات وليس الأسئلة.

عندما تحدثت إليه مجددًا كانت أكثر جدية: «يقول الزعيم توراناغا إنه يجب أن أجيب عن سؤالك يا أنجين سان. نعم غُزينا مرتين. قبل أكثر من ثلاثمائة عام -سيكون عام 1274 وفقًا لتقويمك- جاء المغول بقيادة قوبلاي خان، الذي كان قد غزا للتو الصين وكوريا، لمواجهةنا عندما رفضنا الخضوع لسلطته. هبط بضعة آلاف من الرجال في كيوشو لكن الساموراي تمكنوا من التصدي لهم وبعد فترة انسحب العدو. لكنهم عادوا مجددًا بعد سبع سنوات. وهذه المرة كان الغزو يتألف من قرابة ألف سفينة صينية وكورية مع مائتي ألف جندي عدو -مغول وصينيين وكوريين- معظمهم من الفرسان. كان هذا أكبر جيش غزو جُمع على الإطلاق في كل تاريخ الصين. كنا عاجزين أمام قوة هائلة كهذه يا أنجين سان. بدؤوا مجددًا بالهبوط في خليج هاكاتا في كيوشو ولكن قبل أن يتمكنوا من نشر جميع جيوشهم، جاء ريح عظيم -تيفون- من الجنوب ودمر الأسطول بكل ما فيه. وسرعان ما قُتل أولئك الذين تُركوا على الشاطئ. كانت كاميكازي -ريحا إلهية- يا أنجين سان». قالت بإيمان تام: «كاميكازي أرسلتها الآلهة لحماية أرض الآلهة من الغزاة الأجانب. ثم لم يعد المغول قط وبعد نحو ثمانين عامًا أو نحو ذلك طُردت سلالته -تشين- من الصين». أضافت ماريكو بارتياح كبير: «حمتنا الآلهة منهم. وستظل تحميننا الآلهة من الغزو. فهذه أرضهم بعد كل شيء، أليس كذلك؟».

فكر بلاكتورن في الأعداد الهائلة من السفن والرجال في الغزو، والتي جعلت الأسطول الإسباني ضد إنجلترا يبدو غير مهم. قال بالجدية نفسها: «لقد ساعدتنا عاصفة أيضًا يا سيدتي. يعتقد الكثيرون أنها أرسلت من الرب أيضًا - بالتأكيد كانت معجزة - ومن يدري، ربما كانت كذلك». ألقى نظرة على الموقد حيث تناثر الفحم وتراقصت النيران: «كاد المغول أن يغزونا في أوروبا أيضًا».

أخبرها كيف جاءت حشود جنكيز خان - جد قوبلاي خان - إلى أبواب فيينا تقريبًا قبل أن يتوقف هجومه ثم يعود أدراجه تاركًا جبالًا من الجماجم في أعقابها: «اعتقد الناس في تلك الأيام أن جنكيز خان وجنوده أرسلهم الرب لمعاقبة العالم على خطاياهم».

- يقول الزعيم تورانا جا إنه كان مجرد همجي بارعًا جدًا في الحرب.
- نعم. ومع ذلك، نحن في إنجلترا نبارك حظنا لأننا جزيرة. نشكر الرب على ذلك وعلى القناة. وأسطولنا البحري. مع قرب الصين وقوتها - ومع الحرب بينكم وبين الصين - أنا مدهوش من عدم امتلاككم أسطولًا بحريًا كبيرًا. ألا تخشون هجومًا آخر؟

لم تجب ماريكو ولكنها ترجمت لتوراناجا ما قيل. ثم تحدث تورانا جا إلى يابو عندما انتهت، الذي أومأ برأسه وأجاب بالجدية نفسها. تحدث الرجلان لفترة. أجابت ماريكو عن سؤال آخر من تورانا جا، ثم تحدثت إلى بلاكتورن مجددًا.

- كم عدد السفن التي تحتاجها للسيطرة على بحاركم يا أنجين سان؟
- لا أعلم بالضبط، ولكن الآن الملكة تمتلك تقريبًا مائة وخمسين سفينة خفية. هذه السفن مبنية فقط للحرب.

- يسأل سيدي عن عدد السفن التي تبنيها ملكتك سنويًا؟
- من عشرين إلى ثلاثين سفينة حربية، الأفضل والأسرع في العالم. لكن تُبنى السفن عادة من قبل مجموعات خاصة من التجار ثم تباع للملكة.

- للحصول على الربح؟

تذكر بلاكتورن رأي الساموراي في الربح والمال. قال: «تعطي الملكة بسخاء أكثر من التكلفة الفعلية لتشجيع البحث وأنماط البناء الجديدة. سيصبح هذا بالكاد ممكنًا دون دعم ملكي. على سبيل المثال، إن سفينتي إيراسموس هي فئة جديدة، تصميم إنجليزي بُنيَ بموجب ترخيص في هولندا».

- هل يمكنك بناء مثل هذه السفينة هنا؟

- نعم. إذا كان لديّ نجارون ومترجمون وجميع المواد والوقت. سأضطر أولاً إلى بناء سفينة أصغر. لم أبني واحدة بنفسني من قبل لذلك سيتعين عليّ التجربة... بالطبع.

أضاف محاولاً كبح حماسه مع تطور الفكرة: «بالطبع إذا أراد الزعيم تورانا سافينة أو سفناً، ربما يمكن ترتيب تجارة. ربما يمكنه طلب بناء عدد من السفن الحربية في إنجلترا. يمكننا إبحارها إليه هنا، وستكون مجهزة ومسلحة كما يريد».

ترجمت ماريكو وزاد اهتمام كلا من تورانا ويابو. قالت: «يسأل: هل يمكن تدريب بحارتنا على إبحار مثل هذه السفن؟».

- بالتأكيد، مع الوقت. يمكننا ترتيب إقامة معلمي الإبحار -أو أحدهم- في مياهكم لمدة عام. ثم يمكنه إعداد برنامج تدريبي لكم. وفي غضون سنوات قليلة سيصبح لديكم أسطول بحري خاص بكم. أسطول بحري حديث. لا مثيل له.

تحدثت ماريكو لفترة. استجوبها تورانا مجدداً بدقة وكذلك فعل يابو.

- يسأل يابو سان: لا مثيل لها؟

- نعم. أفضل من أي شيء يمكن أن يمتلكه الإسبان أو البرتغاليون.

ساد الصمت. بدا أن الفكرة اجتاحت تورانا رغم محاولته إخفاء ذلك.

- يسأل سيدي: هل أنت متأكد من أنه يمكن ترتيب ذلك؟

- نعم.

- كم من الوقت سيستغرق؟

- عامان لأبحر إلى الوطن. وعامان لبناء سفينة أو سفن. وعامان للعودة.

يجب دفع نصف التكلفة مقدماً والباقي عند التسليم.

انحنى تورانا للأمام بتمعن ووضع مزيّداً من الخشب العطري على الموقد. راقبوه جميعاً وانتظروا. ثم تحدث مطولاً مع يابو. لم تترجم ماريكو ما قيل وكان بلاكتورن يعرف أنه من الأفضل عدم السؤال، رغم رغبته الشديدة في أن يكون طرفاً في المحادثة. درسهم جميعاً، حتى الفتاة فوجيكو التي

استمعت أيضًا باهتمام، لكنه لم يستطع استخلاص أي شيء منهم. علم أن هذه كانت فكرة رائعة يمكنها جلب ربح هائل وضمان له عودة آمنة إلى إنجلترا.

- كم عدد السفن التي يمكنك إبحارها يا أنجين سان؟

- من الأفضل أن يكون لديك أسطول مكون من خمس سفن في كل مرة. يمكنك توقع خسارة سفينة واحدة على الأقل بسبب العاصفة أو الإعصار أو التدخل الإسباني والبرتغالي، أنا متأكد من أنهم سيبدلون قصارى جهدهم لمنعك من امتلاك سفن حربية. في غضون عشر سنوات سيكون أن يمتلك الزعيم توراناها أسطولًا مكونًا من خمس عشرة إلى عشرين سفينة.

تركها تترجم ذلك، ثم تابع ببطء: «يمكن أن يجلب لك الأسطول الأول نجارين رئيسيين وبناء سفن ومدفعيين وبحارة وقادة. في غضون عشرة إلى خمسة عشر عامًا، يمكن لإنجلترا تزويد الزعيم توراناها بثلاثين سفينة حربية حديثة، أكثر من كافية للهيمنة على مياهمك الرئيسية. وبحلول ذلك الوقت، إذا أردت فإنه يمكنك بناء بدائل خاصة بك هنا. نحن س...». كان سيقول «سنبيع» لكنه غير الكلمة وقال: «ستتشرف ملكتنا بمساعدتك في تشكيل أسطول بحري خاص بك، ونعم، إذا رغبت في ذلك فإننا سندربه ونزوده بالإمدادات».

فكر ببهجة: أوه نعم، عندما تُوضع اللمسة الأخيرة للخطة، ونتولى مسؤوليتها ونوفر الأميرال وستقدم لك الملكة تحالفًا ملزمًا - جيدًا لك وجيدًا لنا- والذي سيكون جزءًا من التجارة، ومن ثم معًا يا صديقي توراناها، سنطرد الكلب الإسباني والبرتغالي من هذه البحار ونتملكها إلى الأبد. فكر بسعادة: يمكن أن يكون هذا أكبر اتفاق تجاري تبرمه أي دولة على الإطلاق. ومع أسطول ياباني إنجليزي يطهر هذه البحار، سنهيمن نحن الإنجليز على تجارة الحرير بين اليابان والصين. سيكون ذلك ملايين كل عام.

إذا تمكنت من تحقيق ذلك، فسأغير مجرى التاريخ. سيصبح لدي ثروة وامتيازات تتجاوز أحلامي. سأصبح سلفًا. وأن تصبح سلفًا هو أفضل شيء يمكن أن يحاول الرجل فعله، حتى لو فشل في المحاولة.

- يقول سيدي: من المؤسف أنك لا تتحدث لغتنا.

- نعم، لكنني متأكد من أنك تترجمين بمثالية.

- إنه لا يقول ذلك انتقادًا لي يا أنجين سان، بل ملاحظة. إنها الحقيقة. سيكون من الأفضل كثيرًا لسيدي أن يتحدث مباشرة كما يمكنني التحدث إليك.

- هل لديكم أي قواميس يا ماريكو سان؟ وقواعد نحوية، قواميس للقواعد، برتغالية يابانية أو لاتينية يابانية؟ إذا تمكن الزعيم توراناغا من مساعدتي بالكتب والمعلمين، سأحاول تعلم لغتكم.

- ليس لدينا مثل هذه الكتب.

- لكن لدى اليسوعيين. لقد قلت ذلك بنفسك.

- آه!

تحدثت إلى توراناغا، ورأى بلاكتورن أعين يابو وتوراناغا تضيء، وارتسمت الابتسامات على وجهيهما.

- يقول سيدي إنك ستُساعد يا أنجين سان.

أعطت فوجيكو بلاكتورن ويابو مزيدًا من الساكي بأمر من توراناغا. لم يشرب توراناغا سوى الشاي، وكذلك فعلت ماريكو. قال بلاكتورن غير قادر على كبح نفسه: «ماذا كان رده على اقتراحي؟ ما جوابه؟».

- من الأفضل أن تتحلَّى بالصبر يا أنجين. سيجيب في الوقت المناسب.

- رجاءً اسأليه الآن.

ترددت ماريكو قبل أن تلتفت إلى توراناغا: «رجاءً اعذرني يا سيدي لكن أنجين سان يسأل باحترام كبير، ما رأيك في خطته؟ إنه يطلب إجابة بتواضع وبأدب شديد».

- سيحصل على جوابي في الوقت المناسب.

قالت ماريكو لبلاكتورن: «يقول سيدي إنه سيفكر في خطتك ويتأمل بعناية ما قلته. يطلب منك التحلَّى بالصبر».

- شكرًا لك يا توراناغا ساما.

- سأذهب للنوم الآن. سنغادر عند الفجر.

وقف توراناغا. وتبعه الجميع إلى الأسفل باستثناء بلاكتورن الذي ترك وحيدًا مع الليل.

عند أول بشائر الفجر أطلق توراناغا أربعة من الحمام الزاجل الذي أرسل إلى السفينة مع الأمتعة الرئيسية عندما كانت السفينة تتجهز. دارت الطيور مرتين ثم انفصلت، اثنان يتجهان إلى أوساكا، واثنان إلى إيدو. كانت الرسالة المشفرة إلى كيريتسوبو أمرًا يجب نقله لهيرو ماتسو ينص على محاولتهم جميعًا للمغادرة بسلام في الحال. كان عليهم حبس أنفسهم إذا مُنِعوا. وفي اللحظة التي يُقْتَحَم فيها الباب، كان عليهم إشعال النار في ذلك الجزء من القلعة والقيام بالسيبوكو.

أما الرسالة المشفرة إلى ابنه سودارا في إيدو كانت تنص على أنه هرب وكان آمنًا، وأمر بمواصلة التحضيرات السرية للحرب.

- اذهب إلى البحر يا قبطان.

- حسنًا يا سيدي.

بحلول الظهيرة، كانوا قد عبروا الخليج بين مقاطعتي توتومي وإيزو وكانوا قبالة رأس إيتو، أقصى نقطة جنوبية في شبه جزيرة إيزو. كانت الرياح مواتية والموج معتدلًا، وساعد الشراع الرئيسي الوحيد في مرورهم.

ثم، بالقرب من الشاطئ في قناة عميقة بين البر الرئيسي وبعض الجزر الصخرية الصغيرة، عندما انعطفوا شمالًا، كان يوجد دوي مخيف على الشاطئ. توقف كل المجدفين.

قال بلاكثورن بعينين مثبتتين على الشاطئ: «ما هذا باسم المسيح...».

فجأة انشق صدع هائل بين المنحدرات وسقط مليون طن من الصخور إلى البحر. بدا وكأن المياه تغلي للحظة. وخرجت موجة صغيرة باتجاه القادس ثم مرت بجانبها. توقف الانهيار. ثم صدر الدوي مجددًا، لكنه أعمق الآن وأكثر قسوة، ولكن أبعد. تدفقت الصخور من المنحدرات. واستمع الجميع باهتمام وانتظروا بينما يراقبون وجه المنحدر. أصوات الطيور البحرية والأمواج والرياح. ثم أشار توراناغا إلى قائد الطبل، الذي استأنف الإيقاع مجددًا. بدأ المجدفون. وعادت الحياة على السفينة إلى طبيعتها.

قال بلاكثورن: «ماذا كان ذلك؟».

قالت ماريكو في حيرة: «مجرد زلزال. ليس لديكم زلازل؟».

- لا. إطلاقًا. لم أرَ واحدًا من قبل.

- أوه، لدينا زلازل متكررة يا أنجين سان. لم يكن هذا شيئًا، مجرد واحد صغير. سيكون مركز الصدمة الرئيسي في مكان آخر، حتى في البحر.

أو ربما كان هذا مجرد واحد صغير هنا، بمفرده. كنت محظوظًا لرؤية واحد صغير.

زفر وكان قلبه لا يزال ينبض بسرعة: «كان الأمر كما لو أن الأرض كلها تهتز. كنت سأقسم إنني رأيت... سمعت عن الهزات. في الأرض المقدسة والعثمانيين، يكون لديهم أحيانًا. يا يسوع! كنت سأقسم إنني رأيت هذا المنحدر بأكمله يهتز».

- لقد اهتز يا أنجين سان. عندما تكون على الأرض، إنه أسوأ شعور في العالم كله. لا يوجد تحذير يا أنجين سان. تأتي الهزات على هيئة موجات، أحيانًا جانبية، وأحيانًا صعودًا وهبوطًا، وأحيانًا ثلاث أو أربع هزات سريعة. أحيانًا واحدة صغيرة تتبعها واحدة أكبر بعد يوم واحد. لا يوجد نمط. أسوأ زلزال تعرضت له كان في الليل، قبل ست سنوات بالقرب من أوساكا، في اليوم الثالث من شهر سقوط الأوراق. انهار منزلنا علينا يا أنجين سان. لم نُصَبْ بأذى أنا وابني. حفرنا بأنفسنا للخروج. استمرت الصدمات لمدة أسبوع أو أكثر، بعضها سيئ، وبعضها سيئ للغاية. دُمر القصر الجديد الكبير للتايكو في فوجيمي بالكامل. وفقد مئات الآلاف من الناس في ذلك الزلزال وفي الحرائق التي تلتها. هذا هو الخطر الأكبر يا أنجين سان، الحرائق التي تتبعه دائمًا. تموت مدننا وقرانا بسهولة شديدة. أحيانًا يكون هناك زلزال سيئ بعيدًا في البحر ويقال إنه يسبب ولادة الأمواج العظيمة. يبلغ ارتفاعها من ثلاثة إلى ستة أمتار. لا يوجد تحذير أبدًا وليس لديها موسم معين. تأتي موجة عظيمة من البحر إلى شواطئنا وتندفع إلى الداخل. يمكن أن تختفي المدن. دُمر نصف إيدو قبل عدة سنوات بسبب مثل هذه الموجة.

- هذا طبيعي بالنسبة لكم؟ كل عام؟

- نعم. كل عام في أرض الآلهة لدينا زلازل وحرائق وفيضانات وأمواج عظيمة والعواصف الوحشية -التي فون-. الطبيعة قوية جدًا معنا.

تجمعت الدموع في زوايا عينيها وأضافت: «ربما هذا هو السبب في أننا نحب الحياة كثيرًا يا أنجين سان. أترى، علينا أن نحبها. الموت جزء من الهواء والماء والأرض لدينا. يجب أن تعرف يا أنجين سان، إن الموت هو تراثنا في أرض الدموع هذه».

الكتاب الثالث



الفصل الثلاثون

- هل أنت متأكد من أن كل شيء جاهز يا مورا؟

- نعم يا أومي سان، نعم، أعتقد ذلك. لقد اتبعنا أوامرك بالضبط... وأوامر إيجوراشي سان.

أخبره إيجوراشي -مساعد يابو الرئيسي- بمرارة شديدة: «من الأفضل ألا يحدث أي خطأ وإلا سيكون هناك رئيس قرية آخر بحلول غروب الشمس». كانت عينه الوحيدة حمراء من قلة النوم. كان قد وصل أمس من إيدو مع أول فوج من الساموراي وبأوامر محددة.

لم يجب مورا، بل أوما برأسه باحترام وأبقى عينيه على الأرض.

كانوا يقفون على الشاطئ بالقرب من الرصيف، أمام صفوف جاثية من القرويين الصامتين والمرعوبين والمستنزفين على حد سواء -كل رجل وامرأة وطفل، باستثناء المرضى في السرير- في انتظار وصول القادس. كان الجميع يرتدون أفضل ملابسهم. كانت الوجوه مغسولة، وكانت القرية بأكملها نظيفة ولامعة وجعلوها صحية كما لو كان هذا اليوم هو الذي يسبق رأس السنة عندما تُنظف الإمبراطورية بأكملها وفقاً للعرف القديم. نُظِّمَت قوارب الصيد بعناية، ورُتِّبَت الشُّبَّاك، ولُفَّت الحبال. حتى الشاطئ على طول الخليج قد جُرف.

قال أومي: «لن يحدث أي خطأ يا إيجوراشي سان».

لم يحظَ بالنوم الكافي في الأسبوع الماضي، منذ أن جاءت أوامر يابو من أوساكا عبر أحد الحمام الزاجل التابع لتوراناجا. في الحال حشد القرية وكل رجل قادر على العمل في محيط عشرين ري لإعداد أنجيرو لوصول الساموراي ويابو. والآن بعد أن همس إيجوراشي بالسر الخاص جداً لأذنيه فقط، أن الدايميو العظيم توراناجا كان يرافق عمه وهرب بنجاح من فخ

إيشيدو، كان أكثر من سعيد لأنه أنفق الكثير من المال. أضاف: «لا توجد حاجة إلى القلق يا إيجوراشي سان. هذه إقطاعيتي ومسؤوليتي».

- أتفق. نعم إنها كذلك.

لوح إيجوراشي بازدرء إلى مورا وهو يبتعد ثم أضاف بهدوء: «أنت المسؤول. ولكن دون إهانة، أخبرك أنك لم ترَ قط سيدنا عندما يحدث خطأ ما. إذا نسينا أي شيء، أو لم يفعل هؤلاء أكلو الروث ما يفترض أن يفعلوه، فسيحول سيدنا إقطاعيتك بأكملها وتلك الواقعة شمالاً وجنوباً إلى أكوام من السمد قبل غروب شمس الغد».

تقدم عائداً ليترأس رجاله.

وصلت الفرق الأخيرة من الساموراي هذا الصباح من ميشيما، عاصمة يابو الشمالية. الآن كانوا مع الآخرين أيضاً، مصطفىين في تشكيل عسكري مكتظ على الشاطئ، في الساحة وعلى التل، وكانت لافتاتهم ترفرف مع النسيم الخفيف، والرماح المنتصب تلمع تحت أشعة الشمس. ثلاثة آلاف ساموراي، نخبة جيش يابو. خمسمائة فارس.

لم يكن أومي خائفاً. لقد فعل كل ما كان من الممكن فعله وتحقق شخصياً من كل ما يمكن التحقق منه. إذا حدث خطأ ما، فإنها كانت الكارما. فكر بحماس: لكن لن يحدث أي خطأ. أنفقَ أو خُصِّصَ خمسمائة كوكو لهذه التحضيرات، أكثر من دخله السنوي بالكامل قبل أن يزيد يابو من إقطاعيته. كان قد أصيب بالذهول من المبلغ لكن زوجته ميدوري قالت إنه يجب عليهم الإنفاق ببذخ، وإن التكلفة ضئيلة مقارنة بالشرف الذي يمنحه له الزعيم يابو. همست: «وبوجود الزعيم توراناغا هنا، مَنْ يدري ما الفرص العظيمة التي ستحظى بها؟».

فكر أومي بفخر: إنها على حق.

أعاد فحص الشاطئ وساحة القرية. بدا كل شيء مثاليًا. كانت ميدوري والدته تنتظران تحت المظلة التي أُعدَّت لاستقبال يابو وضيفه توراناغا. لاحظ أومي أن لسان والدته كان يتحرك وتمنى لو كان بإمكان ميدوري تجنب سوطها المستمر. سوى طية في الكيمونو المثالي بالفعل وضبط سيفيه وتطلع إلى البحر.

كان يو الصياد يهمس بحذر: «استمع يا مورا سان، أتعلم أنني خائف جدًا لدرجة أنني إذا تبولت سأتبول غبارًا».

كان أحد كبار القرية الخمسة وكانوا جاثين مع مورا أمام البقية. قمع مورا ابتسامته: «إذن لا تفعل يا صديقي المسن».

كان يو رجلًا عريض الكتفين قوي كالصخر بيدين واسعتين وأنف مكسور، وعلى وجهه تعبيرًا متألمًا. قال: «لن أفعل. لكن أعتقد أنني سأطلق الريح».

كان يو مشهورًا بفكاهته وشجاعته وكمية الريح لديه. في العام الماضي عندما كان لديهم مسابقة إطلاق الريح مع القرية الواقعة شمالًا، كان بطل الأبطال وقد جلب شرفًا كبيرًا لأنجيرو.

ضحك هارو، وهو صياد قصير هرم: «لا، ربما يكون من الأفضل عدم فعل ذلك، قد يغار أحد هؤلاء الأوغاد».

هسهس مورا: «أمرت بعدم مناداة الساموراي بذلك حتى لو كان يوجد واحد فقط بالقرب من القرية».

كان يفكر بتعب: أتمنى ألا نكون قد نسينا أي شيء. نظر إلى جانب الجبل، إلى الأسوار الخشبية المحيطة بالحصن المؤقت الذي بنوه بسرعة كبيرة وجهد. ثلاثمائة رجل يحفرون ويبنون ويحملون. كان المنزل الجديد الآخر أسهل. حيث كان على التل أسفل منزل أومي مباشرة، وكان يمكنه رؤيته، أصغر من منزل أومي ولكن بسقف مبلط وحديقة مؤقتة وحمام صغير. فكر مورا: أعتقد أن أومي سينتقل إلى هناك ويعطي الزعيم يابو منزله.

نظر إلى الرأس حيث ستظهر القادس في أي لحظة الآن. سيصل يابو قريبًا إلى الشاطئ ثم سيصبح الجميع في أيدي الآلهة وجميع الكامي والإله الأب وابنه المخلص ومريم المباركة. يا إلهي!

احمينا يا مريم المباركة! هل سيكون من المبالغة طلب وضع عينك العظيمة على قرية أنجيرو الخاصة هذه؟ فقط للأيام القليلة القادمة؟ نحن بحاجة إلى لطف خاص لحمايتنا من زعيمنا وسيدنا، وعد مورا: نعم، سأشعل خمسين شمعة وبالتأكيد سأربي أبنائي على الإيمان الحقيقي.

كان مورا سعيدًا جدًا اليوم لأنه مسيحي؛ يمكنه التوسط مع الإله الوحيد وكان ذلك حماية إضافية لقريته. أصبح مسيحيًا في شبابه لأن زعيمه الإقطاعي

اعتنق المسيحية وأمر على الفور جميع أتباعه بأن يصبحوا مسيحيين. وعندما قُتل هذا الزعيم قبل عشرين عامًا من أجل توراناجا ضد التايكو، ظل مورا مسيحيًا تكريمًا لذكراه. فكر: الجندي الصالح ليس له سوى سيد واحد. سيد حقيقي واحد.

كان نينجين، وهو رجل ذو وجه مستدير وأسنان بارزة، مضطربًا جدًا بسبب وجود العديد من الساموراي. قال: «أنا آسف جدًا يا مورا سان لكن ما فعلته خطر... فظيع، أليس كذلك؟ كان الزلزال الصغير هذا الصباح علامة من الآلهة، نذير شؤم. لقد ارتكبت خطأ فادحًا يا مورا سان».

- ما حدث قد حدث يا نينجين. انس الأمر.

- كيف يمكنني ذلك؟ إنه في قبوي و...

قال يو ولم يعد يبتسم: «بعضه في قبوك. لدي الكثير أيضًا».

قال مورا بحذر: «لا يوجد شيء في أي مكان. لا شيء يا أصدقاء القدامى. لا شيء موجود».

بناءً على أوامره، سُرق ثلاثون كوكو من الأرز على مدار الأيام القليلة الماضية من مخزن الساموراي وأخفوها حول القرية، جنبًا إلى جنب مع مؤن ومعدات أخرى وأسلحة.

احتج يو: «ليس الأسلحة. الأرز نعم، ولكن ليس الأسلحة».

انتحب نينجين: «الحرب قادمة. إنه من غير القانوني امتلاك أسلحة».

استهزأ مورا: «هذا قانون جديد، وُضع بالكاد قبل اثني عشر عامًا. قبل ذلك كان بإمكاننا الحصول على أي أسلحة نريدها ولم نكن مقيدين بالقرية. كان بإمكاننا الذهاب إلى حيث نريد وأن نكون ما نريد. أن نكون فلاحًا جنديًا وصيادًا وتاجرًا، وحتى ساموراي... يمكن للبعض، أنت تعرف أنها الحقيقة».

- نعم، لكن الأمر مختلف الآن يا مورا سان، تغير. أمر التايكو بتغييره.

- سرعان ما سيصبح كما كان دائمًا. سنصبح جنودًا مجددًا.

توسل نينجين: «إذن دعنا ننتظر، رجاءً. الآن هذا ضد القانون. إذا تغير القانون فإنها الكارما. التايكو هو من وضع القانون: لا أسلحة. لا شيء. تحت طائلة الموت الفوري».

- افتحوا أعينكم جميعاً! التايكو ميت. وأقول لكم إن أومي سان سيحتاج قريباً إلى رجال مدربين ومعظمنا خاض الحرب، أليس كذلك؟ لقد اصطدنا وحاربنا، كل شيء في موسمه. أليس هذا صحيحاً؟

وافق يو رغم خوفه: «نعم يا مورا سان، لم نكن مقيدين قبل التايكو».

انتحب نينجين: «سيقبضون علينا، يجب أن يقبضوا علينا. لن يرحمونا. سيغلوننا مثلما فعلوا بالهمجي».

- كف عن الكلام عن الهمجي.

قال مورا: «استمعوا يا أصدقاء، لن نحصل على مثل هذه الفرصة مرة أخرى. لقد أرسلها الرب. أو الآلهة. يجب أن نأخذ كل سكين وسهم ورمح وسيف وبندقية ودرع وقوس يمكننا الحصول عليه. سيعتقد الساموراي أن الساموراي الآخرين سرقوهم، ألم يأت هؤلاء الأوغاد من جميع أنحاء إيزو؟ وأي ساموراي يثق حقاً بآخر؟ يجب أن نستعيد حقنا في الحرب، أليس كذلك؟ قُتل والدي في المعركة وكذلك والده ووالده، كم عدد المعارك التي خضتها يا نينجين... عشرات، أليس كذلك؟ ماذا عنك يا يو؟ عشرون؟ ثلاثون؟».

- أكثر. ألم أخدم مع التايكو، اللعنة على ذكراه؟ كان رجلاً قبل أن يصبح التايكو. هذه هي الحقيقة. ثم غيره شيء ما، أليس كذلك؟ لا تنس أن مورا سان هو رئيس القرية يا نينجين. ويجب ألا ننسى أن والده كان رئيساً أيضاً. إذا قال رئيس القرية أسلحة، إذن سنحصل على الأسلحة.

كان مورا الآن جاثياً تحت أشعة الشمس مقتنعاً بأنه فعل الشيء الصحيح، وأن هذه الحرب الجديدة ستستمر إلى الأبد وأن عالمهم سيعود كما كان دائماً. ستكون القرية هنا، والقوارب وبعض القرويين. لأن كل الرجال -الفلاح والدايميو والساموراي وحتى الإيتا- كان على جميع الرجال أن يأكلوا والأسماك تنتظر في البحر. لذا فإن الجنود القرويين سيأخذون وقتاً للراحة من الحرب من وقت لآخر، كما كانوا يفعلون دائماً، وسيطلقون قواربهم ...

قال يو وأشار لا إرادياً وسط الصمت المفاجئ: «انظر».

كانت القادس تحيط بالرأس.

كانت فوجيكو جاثية بتواضع أمام توراناغا في المقصورة الرئيسية التي كان يستخدمها في أثناء الرحلة، وكانا بمفردهما.

توسلت: «رجاء يا سيدي، أزل هذا الحكم عن رأسي».

- إنه ليس حكمًا، بل أمرًا.

- سأطيع بالطبع. لكن لا أستطيع أن أفعل...

انفجر تورانا جا غاضبًا: «لا تستطيعين؟ كيف تجرئين على المجادلة! أخبرك أن تصبحي خيلة الربان ولديك الجراءة للمجادلة؟».

قالت فوجيكو بسرعة وكلماتها تتدفق: «أعتذر من كل قلبي يا سيدي، لم يكن هذا مرادًا كمجادلة. أردت فقط أن أقول إنني لا أستطيع فعل هذا بالطريقة التي تريدها. أترجاك أن تفهم. سامحني يا سيدي، لكن من المستحيل أن أكون سعيدة... أو أظهار بالسعادة». أخفضت رأسها إلى الفوتون: «أتوسل إليك بتواضع أن تسمح لي بالقيام بالسيبوكو».

- لقد قلت من قبل إنني لا أوافق على الموت بلا معنى. لدي استخدام لك.

- رجاء يا سيدي، أريد أن أموت. أتوسل إليك بتواضع. أريد الانضمام إلى زوجي وابني.

قطع صوت تورانا جا صوتها مغرقًا أصوات القادس: «لقد رفضت هذا الشرف بالفعل. أنت لا تستحقين ذلك بعد. وهذا بسبب جدك فقط، لأن الزعيم هيرو ماتسو هو أقدم أصدقائي، لقد استمعت بصبر إلى تدمرك الوقح حتى الآن. يكفي هذا الهراء يا امرأة. توقفي عن التصرف كفلاحه حمقاء».

- أتوسل إليك أن تسمح لي بقص شعري وأصبح راهبة. بوذا سوف...

- لا. لقد أعطيتك أمرًا. أطيعيه.

قالت دون أن ترفع رأسها بوجه شاحب: «أطيع؟».

ثم قالت لنفسها: اعتقدت أنني أمرت بالذهاب إلى إيدو.

- أمرت بالبقاء على متن هذه السفينة. تنسين موقعك وتنسين تراثك وتنسين واجبك. تنسين واجبك! أشعر بالاشمئزاز منك. اذهبي واستعدي.

- أريد أن أموت، رجاء دعني أنضم إليهما يا سيدي.

- وُلِدَ زوجك ساموراي عن طريق الخطأ. كان مشوهًا، لذلك سيكون نسله مشوهًا أيضًا. هذا الأحمق كاد أن يدمرني. تنضمين إليهما؟ ما هذا الهراء! ممنوع عليك السيبوكو. الآن اخرجي.

لكنها لم تتحرك.

- ربما من الأفضل إرسالك إلى الإيتا. إلى أحد بيوتهم. ربما يذكرك ذلك بأخلاقك وواجبك.

هزت رعشة جسدها، لكنها أجابت بعناد: «على الأقل سيكونون يابانيين».

- أنا زعيمك الإقطاعي. ستفعلين ما أمرك.

ترددت فوجيكو. ثم هزت كتفها قائلة: «حسنًا يا سيدي. أعذر عن سوء أخلاقي».

وضعت يديها بشكل مسطح على الفوتون وأخفضت رأسها، صوتها تائب. لكنها لم تكن مقتنعة في قلبها وكان يعلم وكانت تعلم ما كانت تنوي فعله. قالت: «أعذر بصدق عن إزعاجك يا سيدي، وعن تدمير الـ«وا» انسجامك، وعن سوء أخلاقي. كنتُ على حق. لقد كنتُ مخطئة».

نهضت وذهبت بهدوء إلى باب المقصورة.

قال توراناغا: «إذا منحتك ما تريدين، فهل ستفعلين بدورك ما أريد، بكل قلبك؟».

بادلته النظر ببطء: «لمدة كم من الوقت يا سيدي؟ أتوسل أن أسأل كم من الوقت يجب أن أكون خلية للهمجي؟».

- سنة واحدة.

استدارت ومدت يدها إلى مقبض الباب.

قال توراناغا: «سنة أشهر».

توقفت يد فوجيكو. ارتجفت ووضعت رأسها على الباب: «حسنًا. شكرًا لك يا سيدي. شكرًا لك».

نهض توراناغا وتوجه نحو الباب. فتحت الباب وانحنى له ثم أغلقته خلفه. تدفقت الدموع من عينيها بصمت.

كانت ساموراي.

خرج توراناغا إلى سطح السفينة وهو يشعر بالرضا عن نفسه. لقد حقق ما يريد بأقل قدر من المتاعب. إذا ضُغِطَ على الفتاة أكثر من اللازم، وكانت عصت أوامرهِ وقتلت نفسها دون إذن. لكنها الآن ستحاول إرضاءه، وكان من

المهم أن تصبح خلية الربان بسعادة، على الأقل ظاهرياً، وستة أشهر ستكون أكثر من كافية. فكر بارتياح: من الأسهل التعامل مع النساء أكثر من الرجال. أسهل بكثير في بعض الأشياء.

ثم رأى ساموراي يابو مجتمعين حول الخليج واختفى شعوره بالرفاهية. قال يابو: «أهلاً بك في إيزو يا زعيم تورانا. أمرت بعض الرجال بالقدوم إلى هنا ليكونوا مرافقين لك».

- جيد.

كانت القادس لا تزال على بعد مائة وثمانين مترًا من الرصيف، تقترب بدقة وكانوا يستطيعون رؤية أومي وإيجوراشي والفوتون والمظلة.

قال يابو: «لقد تم كل شيء كما ناقشنا في أوساكا، ولكن لماذا لا تقيم معي لبضعة أيام؟ سيشرفني ذلك وسيكون مفيدًا جدًا. يمكنك الموافقة على اختيار المائتين وخمسين رجلًا لفوج البنادق، ولقاء قائدهم».

- لا شيء يسعدني أكثر لكن يجب أن أذهب إلى إيدو بأسرع ما يمكنني يا يابو سان.

- يومان أو ثلاثة أيام؟ رجاء. بضعة أيام خالية من القلق ستكون جيدة لك، أليس كذلك؟ صحتك مهمة بالنسبة لي... ولجميع حلفائك. بعض الراحة والطعام الجيد والصيد.

كان تورانا يبحث يائسًا عن حل. البقاء هنا مع خمسين حارسًا فقط كان أمرًا لا يمكن تصوره. سيكون تحت سلطة يابو تمامًا، وسيكون ذلك أسوأ من وضعه في أوساكا. على الأقل كان إيشيدو يمكن التنبؤ به وملتزمًا بقواعد معينة. لكن يابو؟ قال لنفسه: يابو خائن كسمكة قرش ولا يجب أن تستهين بالقروش. خاصة في موطنهم. وخاصة بحياتك الخاصة. كان يعلم أن الصفقة التي أبرمها مع يابو في أوساكا كانت لها نفس جوهر وزن بولهم عندما وصل إلى الأرض، حالما يعتقد يابو أنه يمكنه الحصول على تنازلات أفضل من إيشيدو. وكان تقديم يابو لرأس تورانا على طبق خشبي لإيشيدو سيجلب ليابو على الفور أكثر مما كان تورانا على استعداد لتقديمه.

قتله أم النزول إلى الشاطئ؟ كانت هذه هي الخيارات.

قال: «أنت مراعى جدًا، لكن يجب أن أذهب إلى إيدو».

لم أعتقد قط أن يابو سيكون لديه الوقت لجمع الكثير من الرجال هنا. هل استطاع فك شفرتنا؟

- رجاءً اسمح لي بالإصرار يا تورانا جا ساما. الصيد جيد جدًا هنا. لدي صقور مع رجالي. القليل من الصيد بعد الحبس في أوساكا سيكون جيدًا، أليس كذلك؟

- نعم، سيكون من الجيد الصيد اليوم. أشعر بالأسف لفقدان صقوري هناك.

- لكنهم لم يُفقدوا. بالتأكيد سي جلبهم هيرو ماتسو معه إلى إيدو؟

- أمرت بإطلاق سراحهم حالما نكون في أمان. بحلول الوقت الذي كانوا سيصلون فيه إلى إيدو، كانوا سيخرجون من التدريب ويكونون مدللين. إنها واحدة من قواعدي القليلة: أن نظير فقط الصقور التي دربتها، وألا أسمح لأي سيد آخر بامتلاكهم. وبهذه الطريقة يرتكبون أخطائي فقط.

- إنه قانون جيد. أود أن أسمع الآخرين. ربما بينما نتناول الطعام، الليلة؟

فكر تورانا جا بمرارة: أحتاج إلى هذا القرش. قتله الآن أمر سابق لأوانه.

ألقي حبلان إلى الشاطئ ليُمسك بهما ويثبتا. شدَّ الحبلان وأصدرا صريرًا تحت الضغط وانحرفت القادس ببراعة إلى جانب الشاطئ. وكانت المجازيف متوقفة. انزلق السلم إلى مكانه ثم وقف يابو على رأسه.

في الحال، صاح الساموراي المتجمعون هتافهم القتالي في انسجام:

«كاسيجي، كاسيجي».

والزئير الذي أطلقوه أرعب النوارس وجعلهم يلقون في السماء. ثم

انحنى الساموراي وكأنهم رجل واحد.

انحنى يابو مجددًا ثم التفت إلى تورانا جا وأشار إليه بيديه: «دعنا نذهب

إلى الشاطئ».

نظر تورانا جا إلى الساموراي المتجمعين، والقرويين الساجدين في

الغبار، وسأل نفسه: هل هذا هو المكان الذي سأموت فيه بالسيف كما تنبأ

المنجم؟ بالتأكيد تحقق الجزء الأول من التنبؤ: اسمي الآن مكتوب على جدران

أوساكا.

وضع هذه الفكرة جانبًا. عند رأس السلم صرخ بصوت عالٍ ووقع تجاه الخمسين ساموراي الذين يرتدون الآن كيمونو بنيًا مثلث: «أنتم جميعًا، ابقوا هنا. وأنت يا قبطان، ستستعد للمغادرة الفورية. وماريكو سان، ستبقى في أنجيرو لمدة ثلاثة أيام. اصطحي الريان وفوجيكو سان إلى الشاطئ على الفور وانتظريني في الساحة».

ثم واجه الشاطئ وزاد من حدة صوته لدهشة يابو: «سأفحص فوجك الآن يا يابو سان».

تحرك على الفور متخطيًا له ونزل على السلم بكل الغطرسة الواثقة التي يملكها القائد المحارب الذي كان عليه.

لم يفز أي قائد بمزيدٍ من المعارك ولم يكن أحد أكثر دهاءً إلا التايكو، وكان ميتًا. لم يخض أي قائد مزيدًا من المعارك، أو كان أكثر صبرًا أو خسر عددًا قليلًا من الرجال. ولم يَهْزَم قط.

انتشرت الدهشة على طول الشاطئ عندما تعرفوا عليه. كانت هذه الزيارة غير متوقعة تمامًا. تداول اسمه من فم إلى آخر وقوة الهمس والرغبة التي ولدها أسعدته. شعر بيابو يتبعه لكنه لم ينظر إلى الوراء.

قال بألفة لم يشعر بها: «إنه من الجيد رؤيتك يا إيجوراشي سان. سنتفحص رجالك معًا».

- حسنًا يا سيدي.

- وأنت لا بد أنك كاسيجي أومي سان. والدك رفيق قديم لي في الحرب. اتبعنا أيضًا.

أجاب أومي وازداد حجمه بالشرف الذي يقدم له: «حسنًا يا سيدي، شكرًا لك».

حدد توراناغا وتيرة سريعة. لقد اصطحبهم معه لمنعهم من التحدث بسرية مع يابو في الوقت الحالي، مدرِّكًا أن حياته تعتمد على الحفاظ على المبادرة.

كان يسأل وهو يعلم بالفعل أن هذا هو المكان الذي فقد فيه الساموراي عينه: «ألم تقاتل معنا في أوداوارا يا إيجوراشي سان؟».

- نعم يا سيدي. كان لي الشرف. كنت مع الزعيم يابو وخدمنا في جناح التايكو الأيمن.

- إذن كنت في مكان الشرف، حيث كان القتال في أوجه. لدي الكثير لأشكرك أنت وسيدك عليه.

- لقد دمرنا العدو يا سيدي. كنا نقوم بواجبنا فقط.

رغم أن إيجوراشي كان يكره تورانا، فإنه فخور بأنه تذكر الفعل وشكره.

الآن كانوا قد وصلوا إلى جبهة الكتيبة الأولى. تحدث تورانا بصوت عالٍ: «نعم، أنت ورجال إيزو ساعدتمونا كثيرًا. ربما لولاكم لما كنت قد اكتسبت الكانتو. أليس كذلك يا يابو ساما؟».

أضاف متوقفاً فجأة ومعطياً يابو اللقب الإضافي علانية، وبالتالي الشرف الإضافي.

اختل توازن يابو مجدداً بسبب الإطراء. شعر بأنه يستحق ذلك، لكنه لم يتوقع ذلك من تورانا، ولم يكن من المقصود قط السماح بذلك الفحص الرسمي. قال: «ربما، لكنني أشك في ذلك. أمر التايكو بالقضاء على عشيرة بيبو. لذلك قُضِيَ عليها».

كان ذلك منذ عشر سنوات، عندما واجهت عشيرة بيبو القوية والعريقة وحدها بقيادة بيبو جينزايمون القوات المشتركة للقائد ناكامورا، التايكو المستقبلي، وتورانا الذي كان يمثل العقبة الرئيسية الأخيرة أمام هيمنة ناكامورا الكاملة على الإمبراطورية. امتلكت بيبو الثماني مقاطعات -الكانتو- لعدة قرون. أحاط مائة وخمسون ألف رجل بقلعة مدينة أوداوارا التي كانت تحرس الممر المؤدي عبر الجبال إلى حقول الأرز الغنية المذهلة خلفها. استمر الحصار لمدة أحد عشر شهراً. وصلت خلية ناكامورا الجديدة، السيدة النبيلة أوتشيبا الجميلة والبالغة من العمر ثمانية عشر عاماً بالكاد، إلى منزل سيدها خارج الأسوار، وابنها الرضيع بين ذراعيها، وكان ناكامورا يدلل طفله الأول. ومع السيدة أوتشيبا جاءت أختها الصغرى جينجيكو، التي اقترحت ناكامورا أن يزوجها لتورانا.

قال تورانا: «سيشرفني بالتأكيد أن أقرب بين منازلنا يا سيدي، ولكن بدلاً من زواجي من السيدة جينجيكو كما تقترح، دعها تتزوج ابني ووريثي سودارا».

استغرق الأمر من تورانا جا عدة أيام لإقناع ناكامورا لكنه وافق. ثم عندما أعلن القرار للسيدة أوتشيبا، أجابت على الفور: «أعارض الزواج بكل تواضع يا سيدي».

ضحك ناكامورا. «أنا أيضًا. سودارا يبلغ من العمر عشرة أعوام فقط وجينجيكو ثلاثة عشر عامًا. ومع ذلك، فهما الآن مخطوبان وسيتزوجان في عيد ميلاده الخامس عشر».

- لكن يا سيدي، إن الزعيم تورانا جا هو بالفعل صهرك، أليس كذلك؟ بالتأكيد هذه الصلة كافية؟ تحتاج إلى روابط أوثق مع فوجيموتو وتاكاشيما، حتى في البلاط الإمبراطوري.

قال ناكامورا بصوته الحاد الفظ: «إنهم أغبياء في البلاط، وجميعهم رهائن. استمعي يا أوتشيان: لدى تورانا جا سبعون ألف ساموراي. عندما ندمر بيبو سيكون لديه الكانتو ومزيد من الرجال. سيحتاج ابني إلى قادة مثل يوشي تورانا جا، مثلما أحتاجهم. نعم، وفي يوم من الأيام سيحتاج ابني إلى يوشي سودارا. من الأفضل أن يكون سودارا عم ابني. خطبت أختك لسودارا، لكن سودارا سيعيش معنا لبضع سنوات، أليس كذلك؟».

وافق تورانا جا على الفور متخليًا عن ابنه ووريثه كرهينة: «بالطبع يا سيدي».

- جيد. لكن استمع، أولًا ستقسم أنت وسودارا بالولاء الأبدي لابني. حدث ذلك بالفعل. ثم خلال الشهر العاشر من الحصار مات هذا الطفل الأول ليناكامورا، بسبب الحمى أو الضغينة أو الكامي الشرير.

قالت أوتشيبا بغضب: «لتلعن جميع الآلهة أوداوارا وتورانا جا. وجودنا هنا هو خطأ تورانا جا، إنه يريد الكانتو. وهو المسؤول عن موت ابننا. إنه عدوك الحقيقي. يريد موتك وموتي. اقتله... أو اجعله يعمل. دعوه يقُد الهجوم، ودعه يدفع بحياته مقابل حياة ابننا. أطالب بالانتقام...».

لذا قاد تورانا جا الهجوم. استولى على قلعة أوداوارا عن طريق تفجير الجدران وعن طريق الهجوم الأمامي. ثم سحق ناكامورا المحطم المدينة حتى تحولت إلى غبار. ثم بسقوطها ومطاردة عشيرة بيبو بالكامل، خضعت الإمبراطورية وأصبح ناكامورا أول كوامباكو ثم تايكو. لكن مات الكثيرون في أوداوارا.

فكر توراناغا: الكثير، هنا على ساحل أنجيرو. شاهد يابو: «من المؤسف أن التايكو مات، أليس كذلك؟».

- بلى.

- كان صهري قائدًا عظيمًا. ومعلمًا رائعًا أيضًا. أنا مثله، لا أنسى صديقًا أبدًا، أو عدوًا.

- سيصبح الزعيم يايمون في سن الرشد قريبًا. روحه هي روح تايكو. الزعيم تورا...

لكن قبل أن يتمكن يابو من إيقاف الفحص، كان توراناغا قد مضى بالفعل ولم يوجد الكثير مما يمكن فعله سوى المتابعة.

انتقل توراناغا بين الرتب، ينضح بالمرح، يختار رجلًا هنا وآخر هناك، يتعرف على بعضهم، وعيناه لا تزالان ثابتتين وهو يبحث في ذاكرته عن الوجوه والأسماء. كانت لديه تلك الصفة النادرة جدًا للقادة المميزين الذين يفحصون حتى يشعر كل رجل -ولو للحظة- أن القائد نظر إليه وحده، وربما حتى تحدث معه وحده دونًا عن رفاقه. كان توراناغا يفعل ما ولد من أجل فعله، وما فعله ألف مرة: السيطرة على الرجال بإرادته.

بحلول الوقت الذي مر فيه بآخر ساموراي، كان يابو وإيجوراشي وأومي منهكين. لكن توراناغا لم يكن كذلك، ومجددًا قبل أن يتمكن يابو من إيقافه، سار بسرعة إلى نقطة مراقبة ووقف عاليًا وحده.

صاح بصوت جهوري: «يا ساموراي إيزو، يا تابعي وصديقي وحليفي كاسيجي يابو ساما! يشرفني أن أكون هنا. يشرفني أن أرى جزءًا من قوة إيزو، جزءًا من قوات حليفي العظيم. استمعوا يا ساموراي، السحب الداكنة تتجمع فوق الإمبراطورية وتهدد سلام التايكو. يجب أن نحمي هدايا التايكو لنا ضد الخيانة في الأماكن العليا. ليكن كل ساموراي مستعدًا. دعوا كل سلاح يكون حادًا. معًا سندافع عن إرادته وسننتصر. لتولي الآلهة اليابانية الكبار والصغار الانتباه، وليفجروا دون رحمة كل أولئك الذين يعارضون أوامر التايكو». ثم رفع ذراعيه وصاح بهتافهم القتالي: «كاسيجي».

وبشكل لا يصدق، انحنى للفوج وأمسك القوس.

حدقوا جميعًا إليه. ثم فجأة سمع هتافًا بـ «توراناغا». من الكتيبة مرارًا وتكرارًا. وبادلوه الساموراي الانحناء.

حتى يابو انحنى، مغلوبًا من قوة اللحظة.

قبل أن يتمكن يابو من الاستقامة، انطلق توراناغا نزولًا على التل مجددًا بوتيرة سريعة. أمر يابو: «اذهب معه يا أومي سان».

كان سيكون من غير اللائق له أن يركض خلف توراناغا بنفسه.
- حسنًا يا سيدي.

عندما ذهب أومي، قال يابو لإيجوراشي: «ما الأخبار من إيدو؟».

- قالت السيدة يوريكو زوجتك أولاً أن أخبرك بوجود قدرٍ هائلٍ من الاحتشاد في جميع أنحاء الكانتو. لا يرى على السطح شيءٌ يثير الاهتمام ولكن تحته كل شيء يغلي. إنها تعتقد أن توراناغا يستعد للحرب، هجوم مفاجئ، ربما ضد أوساكا نفسها.
- ماذا عن إيشيدو؟

- لم يحدث شيء قبل مغادرتنا. كان ذلك قبل خمسة أيام. ولا توجد أخبار عن هروب توراناغا. سمعت عن ذلك فقط بالأمس عندما أرسلت زوجتك حمامة زاجلة من إيدو.

- هل أنشأ زوكيموتو بالفعل خدمة الرسائل هذه؟

- نعم يا سيدي.

- جيد.

- نصت رسالتها: «هرب توراناغا بنجاح من أوساكا مع سيدنا في قادس. أعدوا الترتيبات لاستقبالهم في أنجيرو». اعتقدت أنه من الأفضل إبقاء هذا سرًا عن الجميع باستثناء أومي سان، لكننا مستعدون جميعًا.
- كيف؟

- أمرت بـ«تدريب» حربي يا سيدي في جميع أنحاء إيزو. في غضون ثلاثة أيام سيُغلق كل طريق وممر يؤدي إلى إيزو، إذا كان هذا ما تريد. يوجد أسطول قراصنة وهمي في الشمال يمكنه إغراق أي سفينة غير مصحوبة بالقوات ليلاً أو نهارًا، إذا كان هذا ما تريد. ويوجد مكان هنا لك ولضيف، مهما كان مهمًا، إذا كان هذا ما تريده.

- جيد. أي شيء آخر؟ أي أخبار أخرى؟

كان إيجوراشي متردداً في تمرير الأخبار التي لم يفهم آثارها: «نحن مستعدون لأي شيء هنا. ولكن هذا الصباح وصلت رسالة مشفرة من أوساكا: استقال توراناغا من مجلس الوصاة».

- مستحيل، لماذا يفعل ذلك؟

- لا أعلم. لا أستطيع فهم هذا الأمر. لكن يجب أن يكون صحيحاً يا سيدي. لم نحصل على معلومات خاطئة من هذا المصدر من قبل.

سأل يابو بحذر وهو يذكر أصغر خلية لتوراناغا، التي كانت خادمتها جاسوسة له: «السيدة سازوكو».

أوماً إيجوراشي برأسه: «نعم. لكنني لا أفهم الأمر على الإطلاق. الآن سيقوم الأوصياء بمحاكمته، أليس كذلك؟ سيأمرون بقتله. سيكون من الجنون الاستقالة، أليس كذلك؟».

- لا بد أن إيشيدو قد أجبره على فعل ذلك. ولكن كيف؟ لم توجد أي شائعات. لن يستقيل توراناغا من تلقاء نفسه. أنت على حق، سيكون ذلك فعلاً مجنوناً. سيخسر إذا فعل ذلك. لا بد أنه غير حقيقي.

مشى يابو على التل في حالة من الاضطراب وشاهد توراناغا يعبر الساحة باتجاه ماريكو والهمجي، مع وجود فوجيكو بالقرب منه. الآن كانت ماريكو تمشي بجانب توراناغا، والآخرين ينتظرون في الساحة. كان توراناغا يتحدث بسرعة وعجلة. ثم رآه يابو يعطيها لفافة ورقية صغيرة وتساءل عن محتواها وعمماً قيل. سأل نفسه متمنياً لو كانت زوجته يوريكو هنا لمساعدته بمشورتها الحكيمة: ما الخدعة الجديدة التي يخطط لها توراناغا؟

توقف توراناغا بالقرب من الرصيف. لم يصعد على متن السفينة ولم يلجأ إلى حماية رجاله. كان يعلم أن القرار النهائي سيُتخذ على الشاطئ. لا يمكنه الهروب. فلم يُحل أي شيء بعد. شاهد يابو وإيجوراشي يقتربان. وأخبره عدم اكتراث يابو الكثير.

- إذن يا يابو سان؟

- ستبقى لبضعة أيام يا زعيم توراناغا؟

- من الأفضل لي المغادرة على الفور.

أمر يابو الجميع بالخروج من نطاق السمع. في لحظة كان الرجلان بمفردهما على الشاطئ.

- تلقيتُ أخبارًا مقلقة من أوساكا. لقد استقلت من مجلس الوصاية؟
- نعم. استقلت.
- إذن قتلتَ نفسك ودمرتَ قضيتك وكل تابعيك وحلفائك وأصدقائك. دفنت إيزو وقتلتني.
- بالتأكيد يمكن لمجلس الوصاية أن يأخذ إقطاعيتك. وحياتك إذا أرادوا ذلك. نعم.
- أقسم بالآلهة الحية والميتة والتي لم تولد بعد... (كافح يابو للسيطرة على غضبه): أعتذر عن سوء أخلاقي لكن... لكن تصرفك الغريب... نعم، أنا أعتذر.
- لا توجد أي فائدة حقيقية يمكن اكتسابها من إظهار العاطفة التي كان الجميع يعرف أنها غير لائقة ومشوهة. أضاف: «نعم، من الأفضل لك البقاء هنا يا زعيم توراناغا».
- أعتقد أنني أفضل المغادرة على الفور.
- ما الفرق بين هنا أو إيدو؟ سيأتي أمر الأوصياء على الفور. أتخيل أنك سترغب في تنفيذ السيوكو على الفور. بكرامة. وبسلام. سيشرفني أن أكون مساعدك.
- شكرًا لك. لكن لم يصل أي أمر قانوني بعد لذا سيبقى رأسي حيث هو.
- ما الذي سيحدثه يوم أو يومان؟ من المحتم أن يأتي الأمر. سأقوم بجميع الترتيبات، نعم، وسيكونون مثاليين. يمكنك الاعتماد عليّ.
- شكرًا لك. نعم، يمكنني فهم لماذا تريد رأسي.
- سأفقد رأسي أيضًا. إذا أرسلت رأسك إلى إيشيدو أو أخذته وطلبت منه العفو، فقد يقنعه ذلك، لكنني أشك، أليس كذلك؟
- لو كنتُ مكانك لربما طلبت رأسك. لسوء الحظ لن ينفعك رأسي بشيء على الإطلاق.
- بصق يابو بعنف على الأرض: «أميل إلى الاتفاق معك. لكن الأمر يستحق المحاولة. أستحق الموت لكوني غيبًا جدًا بوضع نفسي في قبضة هذا الأحمق».
- لن يتردد إيشيدو في قتلك. لكنه سيستولي على إيزو أولاً. نعم، ستخسر إيزو بوجوده في السلطة.

- لا تستفزني. أعلم أن هذا ما سيحدث.

قال تورانا جا مستمتعًا بفقدان يابو لهيبته: «أنا لا أستفذك يا صديقي. قلت فقط إنه مع وجود إيشيدو في السلطة، ستخسر أنت وإيزو، لأن قريبه إيكوا جيكيو يطمع في إيزو، أليس كذلك؟ ولكن يا يابو سان، لا يملك إيشيدو القوة بعد».

وأخبره كصديق عن سبب استقالته.

لم يستطع يابو تصديق الأمر: «المجلس عاجز».

ابتسم تورانا جا: «لا يوجد مجلس. لن يكون هناك مجلس حتى يصبح عدد أعضائه خمسة مجددًا. فكر في الأمر يا يابو سان. الآن أنا أقوى من أي وقت مضى، أليس كذلك؟ إيشيدو محايد، وكذلك جيكيو. الآن لديك كل الوقت الذي تحتاجه لتدريب أسلحتك. الآن تملك سوروبجا وتوتومي. الآن تملك رأس جيكيو. وفي غضون بضعة أشهر ستري رأسه على رأس الرمح ورؤوس كل عشيرته، وستدخل إلى أراضيك الجديدة مهيبًا». استدار فجأة وصرخ: «إيجوراشي سان».

وسمع خمسمائة رجل الأمر.

جاء إيجوراشي مسرعًا ولكن قبل أن يقطع الساموراي ثلاث خطوات صاح تورانا جا: «أحضر الحرس الشرفي معك. خمسون رجلًا، على الفور». لم يجرؤ على منح يابو لحظة راحة لاكتشاف العيب الهائل في حجته: أنه إذا كان إيشيدو معوقًا الآن ولم تكن لديه قوة، فإن تقديم رأس تورانا جا على طبق خشبي سيكون ذا قيمة هائلة لإيشيدو وبالتالي ليابو. أو حتى أفضل، أن يُقيد تورانا جا كمجرم عادي ويُسلم حيًّا عند أبواب قلعة أوساكا سيجلب ليابو الخلود ومفاتيح الكانتو.

بينما كان الحرس الشرفي يتشكل أمامه، قال تورانا جا بصوت عالٍ: «تكريماً لهذه المناسبة يا يابو ساما، ربما تقبل هذا كرمز للصداقة».

ثم أخرج سيفه الطويل وأمسكه بكلتا يديه، وقدمه له.

أخذ يابو السيف كما لو كان يحلم. كان لا يقدر بثمن. كان تراثًا من مينووارا ومشهورًا في جميع أنحاء البلاد. كان تورانا جا يمتلك هذا السيف لمدة خمسة عشر عامًا. قدمه له ناكامورا أمام جلاله جميع الدايميو المهمين في الإمبراطورية باستثناء بيبو جينزايمون، كجزء من دفع ثمن اتفاق سري.

حدث هذا بعد معركة ناجاكود مباشرة، قبل فترة طويلة من زواجه من السيدة أوتشيبيا. كان توراناغا قد هزم للتو القائد ناكامورا التايكو عندما كان ناكامورا لا يزال مجرد متطفل دون تفويض أو قوة رسمية أو لقب رسمي وكان سعيه للسلطة المطلقة لا يزال متوازنًا. بدلاً من جمع جيش ساحق ودفن توراناغا كما كانت سياسته المعتادة، قرر ناكامورا أن يكون متصالحًا. عرض على توراناغا معاهدة صداقة وتحالفًا ملزمًا، وإلتزام هذه المعاهدة عرض عليه أخته غير الشقيقة كزوجة. لم يزعج الأمر ناكامورا ولا توراناغا على الإطلاق أن المرأة كانت متزوجة بالفعل وكانت في منتصف العمر. وافق توراناغا على الاتفاق. وفي الحال زوج المرأة وهو كان أحد تابعي ناكامورا -شكرًا للآلهة لأن دعوة الطلاق لم يرافقها دعوة بالسيبوكو- أعادها بامتنان إلى أخيها غير الشقيق. وتزوجها توراناغا على الفور بكل الأبهة والاحتفالات التي استطاع جمعها، وفي اليوم نفسه أبرم معاهدة صداقة سرية مع عشيرة بيبو القوية، أعداء ناكامورا العلنيون، الذين كانوا في هذا الوقت ما زالوا جالسين بازدياء في الكانتو على الباب الخلفي غير المحمي لتوراناغا.

ثم أطلق توراناغا صقوره وانتظر الهجوم الحتمي لناكامورا. لكن لم يأت شيء. بدلاً من ذلك أرسل ناكامورا بغرابة والدته النبيلة والحبوبة إلى معسكر توراناغا كرهينة، ظاهرياً لزيارة ابنة زوجها -زوجة توراناغا الجديدة- لكنها تظل رهينة على أي حال، وفي المقابل دعا توراناغا إلى الاجتماع الكبير لجميع الدايميو الذي نظمه في أوساكا. فكر توراناغا ملياً وطويلاً. ثم قبل الدعوة، واقترح على حليفه بيبو جينزايمون أنه سيكون من الحكمة عدم ذهاب كليهما. بعد ذلك حرك سرّاً ستين ألف ساموراي نحو أوساكا استعداداً لخيانة ناكامورا المتوقعة، وترك ابنه البكر نوبورو مسؤولاً عن زوجته الجديدة ووالدتها. كدس نوبورو على الفور الحطب الجاف على حافة مقر إقامتهم وأخبرهم بصراحة أنه سيضرم فيهم النار إذا حدث أي شيء لوالده. ابتسم توراناغا متذكراً. في الليلة السابقة لوصوله إلى أوساكا، قام ناكامورا غير التقليدي كعادته بزيارته سرّاً بمفرده ودون سلاح.

- أهلاً بك يا تورا سان.

- أهلاً بك يا زعيم ناكامورا.

- استمع: لقد خضنا الكثير من المعارك معًا، نحن نعرف الكثير من الأسرار، وتشاركنا الكثير من الأشياء لذا لا يجب أن نسبب الأذى لأنفسنا أو لبعضنا بعضًا.

قال تورانا باحذر: «أتفق».

- استمع إذن: أنا على بعد مسافة سيف من الفوز بالمملكة. للحصول على القوة الكاملة، يجب أن أحظى باحترام العشائر القديمة، حاملي الإقطاع الوراثي والورثة الحاليون لفوجيموتو وتاكاشيما ومينووارا. فوزَ حصولي على القوة، يمكن لأي دايميو أو أي ثلاثة أن يذهبوا للجحيم. لا يهمني الأمر.

- أنت تحظى باحترامي، لطالما حظيت به.

ضحك الرجل الصغير ذو الوجه الشبيه بالقرد بصوت عالٍ: «لقد انتصرت في ناجاكود بإنصاف. أنت أفضل قائد عرفته على الإطلاق، وأعظم دايميو في المملكة. ولكننا الآن سنتوقف عن لعب الألعاب، أنت وأنا. استمع: غدا أريد أن تنحني لي أمام جميع الدايميو، كخادم. أريدك يا يوشي تورانا باحذر مينووارا أن تكون خادمًا راغبًا. علانية. لا أريدك أن تتملقني ولكن تصرف بأدب وتواضع واحترام. إذا كنت تابعي، فسيسارع الباقون لوضع رؤوسهم في الأرض وذبولهم في الهواء. والقليل ممن لن يفعلوا... حسنًا، فليحذروا».

- هذا سيجعلك زعيم اليابان كلها. أليس كذلك؟

- بلى. الأول في التاريخ. وستكون قد منحتني السلطة. أعترف أنني لا أستطيع فعل ذلك من دونك. لكن استمع: إذا فعلت ذلك من أجلي، فستكون في المرتبة الأولى بعدي. كل الشرف الذي تريده. أي شيء. يوجد ما يكفي لكينا.

- هل يوجد حقًا؟

- نعم. أستولي على اليابان أولًا. ثم كوريا. ثم الصين. أخبرت جورودا أنني أريد ذلك وهذا ما سأحصل عليه. ثم يمكنك الحصول على اليابان، كمقاطعة تابعة للصين الخاصة بي.

- لكن الآن يا زعيم ناكامورا؟ الآن عليّ الاستسلام، أليس كذلك؟ أنا تحت سلطتك، أليس كذلك؟ أنت في موقف قوي للغاية أمامي، وعشيرة بيبو تهدد ظهري.

قال زعيم الحرب الفلاح: «سأتعامل معهم قريبًا جدًا. رفض هؤلاء الأوغاد دعوتي للحضور هنا غداً. لقد أعادوا إرسال رسالتي مغطاة بفضلات الطيور. هل تريد أراضيهم؟ الكانتو كله؟».

قال: «لا أريد شيئاً منهم أو من أي شخص».

قال ناكامورا بمرح: «كاذب. استمع يا تورا سان: أنا على وشك بلوغ الخمسين. لم تلد أي من زوجاتي قط. لدي القوة الكافية، وفي حياتي لا بد أنني أقمت علاقة مع مائة أو مائتي امرأة من جميع الأنواع والأعمار وبكل طريقة، لكن لم تلد أي منهن قط طفلاً، حتى طفلاً ميتاً. لدي كل شيء لكن ليس لدي أبناء ولن يكون لدي أبداً. هذه الكارما الخاصة بي. لديك أربعة أبناء أحياء ومن يدري كم عدد البنات. أنت تبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً لذا يمكنك إنجاب عشرة أبناء آخرين بسهولة كبيرة وهذه هي الكارما الخاصة بك. أنت أيضاً مينووارا وهذه كارما. قل إنني سأبنى أحد أبنائك وأجعله وريثي؟».

- الآن؟

- قريباً. قل في غضون ثلاث سنوات. لم يكن من المهم أن يكون لدي وريث من قبل ولكن الأمور مختلفة الآن. قُتل سيدنا الراحل جورودا بسبب غبائه. الآن الأرض ملكي... يمكن أن تكون ملكي. حسناً؟

- ستجعل الاتفاقيات رسمية، رسمية علانية في غضون عامين؟

- نعم. في غضون عامين. يمكنك الوثوق بي فإن مصالحنا هي نفسها. استمع: في غضون عامين علانية، لنتفق أنت وأنا على أي ابن. بهذه الطريقة سنتقاسم كل شيء، حسناً؟ استقرت سلالتنا المشتركة في المستقبل، لذلك لا توجد مشكلات هناك وهذا جيد لك وجيد لي. ستكون المكافآت ضخمة. أولاً الكانتو. حسناً؟

- ربما سيستسلم بيبو جينزايمون... إذا استسلمت.

- لا أستطيع السماح لهم بذلك يا تورا سان. أنت تطمع في أراضيهم.

- لا أطمع في شيء.

كانت ضحكة ناكامورا بشوشة: «نعم. لكن يجب عليك ذلك. الكانتو تستحقك. إنها آمنة خلف جدران الجبال، ويسهل الدفاع عنها. مع الدلتا ستتحكم في أراضي الأرز الأكثر ثراءً في الإمبراطورية. سيكون ظهرك إلى

البحر وستحصل على دخل مليوني كوكو. لكن لا تجعل كاماكورا عاصمتك. أو أوداوارا».

- لطالما كانت كاماكورا عاصمة الكانتو.

- لماذا لا يجب أن تطمع في كاماكورا يا تورا سان؟ ألم تحتو على الضريح المقدس للكامي الحامي لعائلتك منذ ستمائة عام؟ أليس هاتشيمان -كامي الحرب- هو إله مينووارا؟ كانوا أسلافك حكماء باختيار إله الحرب لعبادته.

- لا أطمع في شيء ولا أعبد شيئاً. الضريح مجرد ضريح ولم يكن إله الحرب معروفاً بالبقاء في أي ضريح.

- أنا سعيد لأنك لا تطمع في أي شيء يا تورا سان، إذن لن يخيب أي شيء آمالك. أنت مثلي في ذلك. لكن كاماكورا ليست عاصمة لك. توجد سبعة ممرات تؤدي إليها لذا يصعب الدفاع عنها. وهي ليست على البحر. لا، أنا لا أنصح بكاماكورا. استمع: سيكون من الأفضل والأكثر أماناً بالنسبة لك أن تذهب أبعد فوق الجبال. تحتاج إلى ميناء. رأيت واحداً مرة -إيدو- هي قرية صيد الآن، لكنك ستجعلها مدينة عظيمة. يسهل الدفاع عنها وهي مثالية للتجارة. أنت تفضل التجارة. وأنا أفضل التجارة. جيد. لذا يجب أن يكون لديك ميناء. أما بالنسبة لأوداوارا فسنقضي عليها كدرس للآخرين.

- سيكون ذلك صعباً جداً.

- نعم. لكنه سيكون درساً جيداً لجميع الدايميو الآخرين، أليس كذلك؟

- الاستيلاء على هذه المدينة بالقوة سيكون مكلفاً.

ضحك بسخرية مجدداً: «قد يكون مكلفاً لك إذا لم تنضم إليّ. يجب أن أذهب عبر أراضيك الحالية للوصول إليها، هل تعلم أنك خط الدفاع الأمامي لعشيرة بيبو؟ مجرد بيدق في يدهم؟ نستطيع كلانا معاً إبقائي بعيداً لمدة عام أو عامين أو حتى ثلاثة. لكنني سأصل في النهاية. نعم. لماذا نضيع المزيد من الوقت عليهم؟ لقد ماتوا جميعاً -باستثناء زوج ابنتك إذا كنت تريد- أعلم أن لديك تحالفاً معهم، لكنه لا يساوي شيئاً. إذن ما جوابك؟ ستكون المكافآت ضخمة. أولاً الكانتو -لك- ثم سأحصل على اليابان كلها. ثم كوريا بسهولة. ثم الصين، صعبة ولكن ليست مستحيلة. أعلم أن الفلاح لا يمكن أن

يصبح شُوجَن، لكن «ابننا» سيصبح شُوجَن، ويمكنه أيضًا التربع على عرش التنين في الصين، أو ابنه. الآن انتهى الحديث. ما جوابك يا يوشي توراناغا نو مينووارا، ستصبح تابعا أم لا؟ لا شيء آخر له قيمة بالنسبة لي».

قال توراناغا بعد أن حصل على كل ما أراده وخطط له: «دعنا نتبول على الصفقة».

وفي اليوم التالي قدم بسخاء سيفه وأراضيه وشرفه وتراثه إلى زعيم الحرب الفلاح المتغطرس أمام جلالة الدايميو المذهولين. لقد توسل أن يُسمح له بخدمة ناكامورا وعائلته إلى الأبد. وأحنى يوشي توراناغا نو مينووارا رأسه بمهانة في الأرض. لقد كان التايكو المستقبلي الآن سخيًا وضم أراضيه ووهبه على الفور الكانتو كإقطاعية فور غزوها، وأمر بحرب شاملة على عشيرة بيبو بسبب إهانتهم للإمبراطور. وأعطى توراناغا أيضًا هذا السيف الذي حصل عليه مؤخرًا من إحدى خزائن الإمبراطور. كان السيف قد صُنِع على يد صانع السيوف ميوشي جو قبل قرون، وكان قد سبق أن ملكه أشهر محارب في التاريخ، مينووارا. كان يوشيتومو هو أول شُوجَن من مينووارا.

تذكر توراناغا ذلك اليوم. واستذكر أيامًا أخرى: بعد بضع سنوات عندما أنجبت السيدة أوتشيبا صبيًا، ويومًا آخر عندما بغرابة بعد وفاة الابن الأول للتايكو، وُلِدَ يايمون الابن الثاني.

هكذا فشلت الخطة بأكملها. الكارما.

رأى يابو يحمل سيف أسلافه باحترام.

سأل يابو: «هل هو حاد كما يقولون؟».

- نعم.

انحنى يابو مدرّكًا أنه سيصبح في المرتبة الأولى في البلاد بعد توراناغا بسبب الهدية: «إنه لشرف كبير لي. سأعتز بهديتك».

بادلته توراناغا الانحناء، ثم سار متوجهًا نحو السلم دون سلاح. كلفه الأمر كل إرادته لإخفاء غضبه وعدم ترك قدميه تتعثّر، ودعا إلى أن طمع يابو سيبقيه مسحورًا لبضع لحظات أخرى.

سمع أمرًا قادمًا إلى سطح السفينة: «ارفعوا المرساة».

ثم استدار نحو الشاطئ ولوح بسعادة.

كسر شخص ما الصمت وصاح باسمه، ثم تابع الآخرون الصياح. هتافات عامة تدل على الموافقة على الشرف الذي قدمه لزعيمهم. دفعت الأيدي الراغبة السفينة إلى البحر. جاهد المجذفون بقوة. وشقت القادس طريقها.

- اذهب إلى إيدو بسرعة يا قبطان.

- حسنًا يا سيدي.

نظر توراناغا إلى الخلف وعيناه تفحصان الشاطئ، متوقعًا الخطر في أي لحظة. وقف يابو بالقرب من الرصيف ولا يزال منبهزًا بالسيف. كانت ماريكو وفوجيكو تنتظران بجانب المظلة مع النساء الأخريات. كان أنجين سان على حافة الساحة حيث قيل له أن ينتظر، يقف جامدًا شامخًا وغاضبًا بوضوح. التقت أعينهم. ابتسم توراناغا ولوح له.

بادله التلويح ولكن ببرود، وهذا أسعد توراناغا كثيرًا.

سار بلاكتورن بكآبة إلى الرصيف.

- متى سيعود يا ماريكو سان؟

- لا أعلم يا أنجين سان.

- كيف سنذهب إلى إيدو؟

- سنبقى هنا. على الأقل سأبقى لمدة ثلاثة أيام. ثم سأذهب إلى هناك.

- عن طريق البحر؟

- عن طريق البر.

- ماذا عني؟

- ستبقى هنا.

- لماذا؟

- أبديت اهتمامًا بتعلم لغتنا. ويوجد عمل لك هنا.

- أي عمل؟

- لا أعلم، آسفة. سيخبرك الزعيم يابو. تركني سيدي هنا لأترجم لمدة ثلاثة أيام.

شعر بلاكثورن بالقلق. كانت مسدساته في حزامه لكن لم يملك خناجر ولم يكن لديه مزيدٌ من البارود أو الرصاص. كان كل ذلك في المقصورة على متن القادس.

سأل: «لماذا لم تخبريني أننا سنبقى هنا؟ قلتِ فقط أن آتي إلى الشاطئ». أجابت: «لم أكن أعلم أنك ستبقى هنا أيضًا. أخبرني الزعيم تورانا جا بذلك منذ لحظة، في الساحة».

- لماذا لم يخبرني ذلك حينها؟ يخبرني بنفسه؟

- لا أعلم.

- كان من المفترض أن أذهب إلى إيدو. هذا هو مكان طاقمي. وسفينتي. ماذا عنهم؟

- قال فقط أنك ستبقى هنا.

- لكم من الوقت؟

- لم يخبرني يا أنجين سان. ربما يعلم الزعيم يابو. رجاءً تحلّ بالصبر. استطاع بلاكثورن رؤية تورانا جا واقفًا على سطح السفينة يراقب الشاطئ. قال: «أعتقد أنه كان يعلم طوال الوقت أنني سأبقى هنا، أليس كذلك؟».

لم تجب. قالت لنفسها: كم هو طفولي أن تتحدث بصوت عالٍ عما تفكر فيه. وكم كان تورانا جا ذكيًا باستثنائية للهروب من هذا الفخ.

وقفت فوجيكو والخادمتان بجانبها ينتظرن بصبر في الظل مع والدة وزوجة أومي، اللتين قابلتهما لفترة وجيزة، ونظرت إلى ما وراءهما إلى القادس. كانت تبهر بسرعة الآن. لكنها كانت لا تزال في نطاق السهام. كانت تعلم أنها يجب عليها أن تبدأ في أي لحظة الآن. دعت وركزت كل انتباهها على تورانا جا: يا إلهي دعني أكن قوية.

كان بلاكثورن يسأل: «هل هذا صحيح؟ هل هذا صحيح؟».

- ماذا؟ أوه أنا آسفة ولكنني لا أعلم يا أنجين سان. يمكنني فقط إخبارك أن الزعيم تورانا جا حكيم جدًّا. أحكم رجل. لذا فمهما كان سبب تصرفه، فإنه جيد.

درست العينين الزرقاوين والوجه القاسي مدركة أن بلاكتورن لا يفهم ما حدث هنا. أضافت: «رجاء كن صبورًا يا أنجين سان. لا يوجد شيء تخاف منه. أنت تابعه المفضل وتحت...».

- أنا لست خائفًا يا ماريكو سان. لقد سئمت من أن أضل أدفع حول اللوحة كقطعة البيدق. وأنا لست تابعًا لأحد.

- هل مصطلح «مساعد» أفضل؟ أو كيف تصف الرجل الذي يعمل لدى شخص آخر أو يساعد شخصًا آخر من أجل...

ثم رأت الدم يتدفق إلى وجه يابو.

صاح: «البنادق... البنادق لا تزال على متن القادس».

عرفت ماريكو أن الوقت قد حان. هرعت إليه بينما كان يستدير ليووجه الأوامر لإيجوراشي.

قالت متجاوزة إياه: «عفوًا يا زعيم يابو، لا داعي للقلق بشأن بنادقك. قال الزعيم توراناغا أن يطلب عفوك على عجلته لكن لديه أشياء عاجلة للقيام بها نيابة عنكما في إيدو. قال إنه سيعيد القادس على الفور. مع البنادق. ومع المزيد من البارود. وأيضًا مع المائتين وخمسين رجلًا الذين تحتاجهم منه. سيكونون هنا في غضون خمسة أو ستة أيام».

- ماذا؟

شرحت ماريكو بصبر وأدب مجددًا كما أمرها توراناغا. ثم أخرجت لفافة ورقية من كمها حالما فهم يابو. وقالت: «يطلب منك سيدي أن تقرأ هذه. إنها تخص أنجين سان».

ثم قدمت له اللفافة رسميًا.

لكن يابو لم يأخذ اللفافة. وإنما اتجهت عيناه إلى القادس. كانت بعيدة الآن وتبحر بسرعة كبيرة. خارج المدى. فكر بارتياح: لكن ما أهمية ذلك وهو الآن قد تخلص من قلقه. سأستعيد البنادق قريبًا والآن أنا خارج فخ إيشيدو وأملك أشهر سيوف توراناغا وسرعان ما سيعلم جميع الدايميو في البلاد بموقعي الجديد في جيوش الشرق، في المرتبة الثانية بعد توراناغا فقط. لا يزال بإمكان يابو رؤية توراناغا ولوح له وبادله الآخر التلويح. ثم اختفى توراناغا عن سطح السفينة.

أخذ يابو اللفافة ووجه عقله إلى الحاضر. وإلى أنجين سان.

كان بلاكثورن يراقبهما من على بعد عشرين مترًا تقريبًا وشعر بقشعريرة تحت وطأة نظرة يابو الثاقبة. سمع ماريكو تتحدث بصوتها الرخيم لكن ذلك لم يطمئنه. اشتدت قبضة يده خفية على المسدس.

صاحت ماريكو: «هل يمكنك القدوم إلى هنا يا أنجين سان».

رفع يابو عينيه عن اللقافة عندما اقترب بلاكثورن منهما، وأومأ بودية. أعاد اللقافة إلى ماريكو عندما انتهى يابو من القراءة وتحدث بإيجاز، موجهاً كلامه لكل منهما على حدة.

قدمت ماريكو اللقافة إلى بلاكثورن باحترام. أخذها وفحص الحروف غير المفهومة.

- يقول الزعيم يابو إنك مرحب بك في هذه القرية. هذه اللقافة تحت ختم الزعيم تورانا جا يا أنجين سان. عليك الاحتفاظ بها. لقد منحك شرفًا نادرًا. لقد جعل الزعيم تورانا جا منك هاتاموتو. إنه منصب مساعد خاص من طاقمه الشخصي. لديك حمايته المطلقة يا أنجين سان. وبالطبع الزعيم يابو يعترف بذلك. سأشرح لك الامتيازات لاحقًا لكن الزعيم تورانا جا أعطاك أيضًا راتبًا قدره عشرون كوكو شهريًا. هذا قرابة...

قاطع يابو حديثها ملوحًا بيده نحو بلاكثورن ثم نحو القرية وتحدث طويلًا. ترجمت ماريكو: «يؤكد الزعيم يابو أنك مرحب بك هنا. إنه يأمل أن تكون راضيًا، وأن يتم كل شيء لجعل إقامتك مريحة. سيوفر منزل لك. ومعلمون. ويطلب منك تعلم اللغة اليابانية بأسرع ما يمكن. سيطرح عليك بعض الأسئلة الليلة ويخبرك عن بعض العمل الخاص».

- رجاءً اسأليه عن العمل؟

- هل يمكنني أن أنصحك بالتخلي بمزيدٍ من الصبر يا أنجين سان. الآن ليس الوقت المناسب، حقًا.

- حسنًا.

قال يابو باليابانية: «هل تفهم يا أنجين سان؟».

- نعم يا يابو سان. شكرًا.

أعطى يابو الأوامر لإيجوراشي بتفريق الكتيبة، ثم انطلق نحو القرويين الذين كانوا لا يزالون جاثين على الرمال.

وقف أمامهم في ظهر الربيع الدافئ الجميل، وسيف تورانا جا لا يزال في يده. تدفقت كلماته عليهم. أشار يابو بالسيف نحو بلاكتورن وخاطبهم لبضع لحظات ثم توقف فجأة. سرت رعشة بين القرويين. انحنى مورا وقال «حسنًا» عدة مرات ثم التفت وسأل القرويين سؤالًا واتجهت كل الأعين نحو بلاكتورن. صاح مورا: «هل فهمتم؟».

وأجاب الجميع «نعم».

واختلطت أصواتهم مع تلاطم الأمواج على الشاطئ.

سأل بلاكتورن ماريكو: «ماذا يحدث؟».

لكن مورا صاح: «ألقوا التحية».

انحنى القرويون مجددًا مرة ليابو ومرة لبلاكتورن. انطلق يابو دون النظر إلى الوراء.

- ماذا يحدث يا ماريكو سان؟

- لقد قال... أخبرهم الزعيم يابو أنك ضيفه المكرم هنا. وأنتك أيضًا التاب... المساعد المكرم للزعيم تورانا جا. وأنتك هنا أساسًا لتعلم لغتنا. لقد منح القرية الشرف والمسؤولية بتعليمك. القرية مسؤولة يا أنجين سان. يجب على الجميع هنا مساعدتك. أخبرهم أنه إذا لم تتعلم بشكل مرضٍ خلال ستة أشهر، فستُحرق القرية، ولكن قبل ذلك سيُصلب كل رجل وامرأة وطفل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الحادي والثلاثون

كان اليوم يمضي الآن والظلال تطول والبحر يتلون بالأحمر وريح لطيفة تهب.

كان بلاكثورن يصعد المسار من القرية نحو المنزل الذي أشارت إليه ماريكو وقالت إنه سيكون له. كانت تتوقع أن تصطحبه إلى هناك لكنه شكرها رافضاً ومر عبر القرويين الجاثين متجهاً نحو النتوء الخليجي ليكون بمفرده ويفكر.

لقد وجد أن جهد التفكير كبير جداً. لا شيء يبدو أنه يناسب. لقد سكب ماء البحر على رأسه لمحاولة تصفية ذهنه لكن ذلك لم يساعد. في النهاية استسلم وسار بلا هدف على طول الشاطئ متجاوزاً الرصيف وعابراً الساحة مروراً بالقرية، حتى وصل إلى هذا المنزل الذي كان سيعيش فيه الآن، وحيث تذكر أنه لم يوجد مسكن من قبل. كان يوجد مسكن آخر مترامي الأطراف عالياً يهيمن على التل المقابل، جزء منه من القش وجزء من البلاط محاط بسور عالٍ مع العديد من الحراس عند البوابة المحصنة.

الساموراي يتجولون في القرية أو يقفون يتحدثون في مجموعات. معظمهم قد انطلقوا بالفعل خلف ضباطهم في مجموعات منظمة عبر الطرق وعلى التل متوجهين إلى معسكرهم. أولئك الساموراي الذين قابلهم بلاكثورن، رحب بهم بلا مبالاة وبادلوه التحية. لم يرَ أي قرويين.

توقف بلاكثورن خارج البوابة المدمجة في السور. كان يوجد مزيدٌ من الشخصيات الغريبة المرسومة فوق عتبة الباب وكان الباب نفسه مشقوقاً بنقوش مبتكرة مصممة لإخفاء وكشف الحديقة خلفه في الوقت نفسه.

قبل أن يتمكن من فتح الباب، انفتح للداخل وانحنى له رجل مسن خائف. قال باليابانية بصوت يرتجف مثير للشفقة: «مساء الخير يا أنجين سان».

حاول بلاكثورن التحدث باليابانية: «مساء الخير. استمع يا أيها الرجل العجوز، اممم... ما اسمك؟».

كاد العجوز يسيل لعابه من شدة الارتياح: «اسمي يا أنجين ساما؟ آه، اسمي أويكي يا... أويكي يا».

كرر بلاكثورن الاسم عدة مرات لمساعدته على تذكره وأضاف «سان». هز الرجل رأسه بعنف قائلاً: «أنا آسف ولكنني لست «سان» يا أنجين ساما. أويكي يا، أويكي يا».

- حسنًا يا أويكي يا.

لكن بلاكثورن فكر: لماذا ليس «سان» مثل أي شخص آخر؟ أشار بلاكثورن له بيده حتى يغادر. تعثر الرجل المسن خارجًا بسرعة. قال بصوت عالٍ: «يجب أن أكون أكثر حذرًا. يجب أن أساعدهم».

دخلت خادمة بخوف إلى الشرفة من خلال باب شوجي مفتوح وانحنت. - مساء الخير يا أنجين سان.

وأجاب وهو يتعرف عليها بصعوبة من السفينة: «مساء الخير». وأشار لها بالمغادرة أيضًا.

سمع صوت احتكاك الحرير ببعضه. أتت فوجيكو من داخل المنزل. وكانت ماريكو معها.

- هل كانت نزهتك ممتعة يا أنجين سان؟

- نعم، ممتعة يا ماريكو سان.

بالكاد لاحظ وجودها أو فوجيكو أو المنزل أو الحديقة.

ضحكت ماريكو بتوتر مضطربة من نظرة عينيه: «هل تريد شاي؟ أو ربما ساكي؟ أو حمام ربما؟ الماء ساخن. الحمام غير مكتمل تمامًا، لكننا نأمل أن يكون كافيًا».

- ساكي رجاء. نعم، بعض الساكي أولًا يا ماريكو سان.

تحدثت ماريكو إلى فوجيكو التي اختفت داخل المنزل مجددًا. أحضرت خادمة بصمت ثلاث وسائد وذهبت. جلست ماريكو بأناقة على واحدة.

- اجلس يا أنجين سان، لا بد أنك متعب.

- شكرًا لك.

جلس على درجات الشرفة ولم ينزع نعاله. أحضرت فوجيكو قارورتان من الساكي وكوب شاي كما أخبرتها ماريكو، وليس الكوب الخزفي الصغير الذي كان يجب استخدامه.

قالت ماريكو: «من الأفضل أن تعطيه الكثير من الساكي بسرعة، من الأفضل أن نجعله ثملًا تمامًا لكن الزعيم يابو يحتاجه الليلة. قد يساعد الحمام والساكي في تهدئته ربما».

شرب بلاكتورن الكوب المقدم له من النبيذ الدافئ دون تذوقه. ثم شرب الثاني. والثالث.

كانوا قد شاهدوه وهو يصعد التل من خلال شق باب الشوجي الذي كان بالكاد مفتوح.

سألت فوجيكو بخوف: «ما خطبه؟».

- إنه منزع مما قاله الزعيم يابو، الوعد للقرية.

- لماذا قد يزعجه ذلك؟ إنه غير مهدد. حياته ليست مهددة.

- إن الهمج مختلفون جدًا عنا يا فوجيكو سان. على سبيل المثال، يعتقد أنجين سان أن القرويين هم أشخاص مثل أي شخص آخر، مثل الساموراي، وربما يكون بعضهم أفضل من الساموراي.

ضحكت فوجيكو بتوتر: «هذا هراء، أليس كذلك؟ كيف يمكن للفلاحين أن يساوا الساموراي؟».

لم تجب ماريكو. استمرت فقط في مراقبة أنجين سان. قالت: «يا له من رجل مسكين».

التوت شفة فوجيكو العلوية الصغيرة بازدياء: «يا لها من قرية مسكينة. إنه إهدار غبي للفلاحين والصيادين. كاسيجي يابو سان أحرق. كيف يمكن لهمجي أن يتعلم لغتنا في نصف عام؟ كم استغرق الهمجي تسوكو سان؟ أكثر من عشرين عامًا، أليس كذلك؟ وأليس هو الهمجي الوحيد الذي كان قادرًا على التحدث حتى بيابانية مقبولة؟».

- نعم، ليس الوحيد، رغم أنه أفضل من سمعته على الإطلاق. نعم، الأمر صعب عليهم. لكن أنجين سان رجل ذكي وقال الزعيم توراناغا إنه في

غضون نصف عام، وبعزله عن الهمج وتناوله لطعامنا وعيش حياته كما نعيش وشرب الشاي والاستحمام كل يوم، سيصبح أنجين سان قريباً مثل واحدٍ منا.

كان وجه فوجيكو متجهماً: «انظري إليه يا ماريكو سان... قبيح جداً ومخيف وغريب. من الغريب التفكير أنه بقدر ما أكره الهمج، حالما يخطو عبر البوابة، سأصبح ملتزمة به ويصبح زعمي وسيدي».

- إنه شجاع، شجاع جداً يا فوجيكو. وأنقذ حياة الزعيم توراناغا وهو ذو قيمة كبيرة له.

- نعم أعلم، وهذا يجب أن يجعلني أقل كراهيةً له، لكن آسفة هذا لم ينجح. ومع ذلك سأحاول بكل قوتي تغييره ليصبح واحداً منا. أدعو بوذا أن يساعدني.

أرادت ماريكو أن تسأل ابنة أختها: لماذا التغير المفاجئ؟ لماذا أنت مستعدة الآن لخدمة أنجين سان وطاعة الزعيم توراناغا بكل طوعية، في حين أنك رفضت الطاعة هذا الصباح وأقسمت على أن تقتلي نفسك دون إذن أو قتل الهمجي في اللحظة التي ينام فيها؟ ماذا قال الزعيم توراناغا ليغيرك يا فوجيكو؟

لكن ماريكو كانت تعلم أنه من الأفضل ألا تسأل. لم يشركها توراناغا في هذه الثقة. ولن تخبرها فوجيكو. لقد دُرِّبَت الفتاة جيداً من قبل والدتها، أخت بونتارو التي دربها والدها هيرو ماتسو.

سألت نفسها مغرمة جداً بالقائد المسن والد زوجها: هل سيتمكن الزعيم هيرو ماتسو من الهروب من قلعة أوساكا. وماذا عن كيري سان والسيدة سازوكو؟ أين بونتارو زوجي؟ أين أُسرَ؟ أم أنه كان يملك الوقت ليموت؟ راقبت ماريكو فوجيكو وهي تصب آخر قطرات الساكي. وشربَ هذا الكوب أيضاً مثل الآخرين بلا تعبير.

قال بلاكثورن: «رجاءً. ساكي».

أحضر المزيد من الساكي. ونفذ. قال: «رجاءً، ساكي».

قالت فوجيكو: «يا ماريكو سان، لا يجب أن يشرب سيدي المزيد، أليس كذلك؟ سيُثمل. رجاءً اسأليه عما إذا كان يريد الاستحمام الآن. سأرسل لطلب حضور سوو».

سألته ماريكو: «أسفة لكنه يقول إنه سيستمح لاحقًا».

طلبت فوجيكو بصبر المزيد من الساكي وأضافت ماريكو بهدوء للخادمة: «أحضري بعض السمك المشوي على الفحم».

فرغت القارورة الجديدة بالعزم الصامت نفسه. لم يجذبه الطعام لكنه أخذ قطعة تحت إقناع ماريكو الرقيق. لكنه لم يأكلها.

أحضر المزيد من النبيذ، واستهلكت قارورتان إضافيتان.

قالت فوجيكو: «رجاءً قدّمي اعتذاري لأنجين سان. أسفة جدًا لكن لم يوجد ساكي في منزله. أخبريه بأنني أعتذر عن هذا النقص. لقد أرسلت الخادمة لإحضار المزيد من القرية».

- جيد. لقد شرب أكثر مما يكفي، رغم أنه لا يبدو عليه أي تأثير. لماذا لا تتركينا الآن يا فوجيكو؟ الآن سيكون الوقت المناسب لتقديم العرض الرسمي نيابة عنك.

انحنى فوجيكو أمام بلاكثورن وغادرت، سعيدة لأن العرف يقتضي دائمًا بأن تُدار الأمور المهمة من قبل طرف ثالث على انفراد. وبالتالي يمكن الحفاظ على كرامة كلا الطرفين.

شرحت ماريكو لبلاكثورن بشأن النبيذ.

- كم من الوقت سيستغرق الحصول على المزيد؟

- ليس طويلًا. ربما تود الاستحمام الآن. سأحرص على إرسال الساكي فور وصوله.

- هل قال توراناغا أي شيء عن خطتي قبل أن يغادر؟ عن الأسطول البحري؟

- لا. أسفة لكنه لم يقل شيئًا عن ذلك.

كانت ماريكو تراقب العلامات الدالة على السكر. لكنها لدهشتها لم تظهر أيُّ منها، حتى احمرار طفيف أو تلثم في الكلام. مع هذا القدر من النبيذ المستهلك بهذه السرعة، سيكون أي ياباني مخمورًا. سألت: «هل النبيذ ليس على ذوقك يا أنجين سان؟».

- ليس حقًا. إنه ضعيف جدًا. لا يجعلني أشعر بشيء.

- تريد النسيان؟

- لا... أريد حلاً.
- أي شيء يمكن القيام به للمساعدة، سيحدث.
- يجب أن أحصل على كتب وورق وأقلام.
- سأبدأ في جمعهم لك غداً.
- لا، الليلة يا ماريكو سان. يجب أن أبدأ الآن.
- قال الزعيم توراناغا إنه سيرسل إليك كتاباً -ماذا أطلقت عليه؟- كتب القواعد اللغوية وكتب الكلمات الخاصة بالآباء القديسين.
- كم سيستغرق هذا؟
- لا أعلم. لكنني سأمكث هنا لمدة ثلاثة أيام. ربما يكون هذا مفيداً لك. وفوجيكو سان هنا للمساعدة أيضاً.
- ابتسمت سعيدة من أجله وأضافت: «يشرفني أن أخبرك أنها أعطيت لك كخليفة وأنها...».
- ماذا؟
- طلب منها الزعيم توراناغا أن تكون خليلتك فقالت إنها ستتشرف ووافقت. هي ست...
- لكنني لم أوافق.
- معذرة؟ أنا آسفة لكنني لا أفهم.
- لا أريدها. لا كخليفة ولا حولي. أجدها قبيحة.
- فغر فم ماريكو بدهشة: «لكن ما علاقة ذلك بكونها خليفة؟».
- أخبريها أن ترحل.
- لكن يا أنجين سان، لا يمكنك الرفض. سيكون هذا إهانة فظيعة للزعيم توراناغا ولها وللجميع. ما الضرر الذي ألحقته بك؟ لا شيء على الإطلاق. أوساجي فوجيكو موافق...
- ترددت كلمات بلاكتورن في أنحاء الشرفة والمنزل: «استمعي إليّ، أخبريها أن ترحل».
- قالت ماريكو على الفور: «آسفة جداً يا أنجين سان، نعم أنت محق في أن تكون غاضباً. لكن...».

قال بلاكتورن ببرود: «أنا لست غاضبًا. ألا... ألا يمكنكم فهم أنني سئمت من أن أكون دمية؟ لا أريد هذه المرأة حولي، أريد سفينتي وطاقمي، وهذا كل شيء. لن أبقى هنا لسته أشهر وأكره تقاليدكم. إنه أمر رهيب ملعون من الرب أن يهدد رجل بدفن قرية كاملة فقط لتعليمي اليابانية، وبالنسبة للخيليات... هذا أسوأ من العبودية. إنه إهانة ملعونة لترتيب ذلك دون سؤالي مسبقًا».

كانت ماريكو تسأل نفسها بلا حول: ماذا يحدث الآن؟ ما علاقة القبح بالخيلة؟ وعلى أي حال إن فوجيكو ليست قبيحة. كيف يمكن أن يكون غير مفهوم هكذا؟ ثم تذكرت وصية توراناغا: «أنتِ مسؤولة شخصيًا يا ماريكو سان، أولًا عن ألا يتدخل يابو سان في مغادرتي بعد أن أعطيته سيفي، وثانيًا، أنتِ مسؤولة تمامًا عن تهدة أنجين سان في أنجيرو».

- سأبذل قصارى جهدي يا سيدي. لكنني أخشى أن أنجين سان يحيرني.
- عامله كصقر. هذا هو مفتاحه. أنا أروض الصقور في يومين. لديك ثلاثة.

نظرت بعيدًا عن بلاكتورن وحثت عقلها على العمل. فكرت: يبدو وكأنه صقر عندما يكون في حالة غضب. لديه نفس الوحشية العنيفة غير المفهومة، وعندما لا يكون في حالة غضب، لديه نفس النظرة المتعجرفة غير المترعزة، ونفس الأنانية الكاملة، مع وحشية متفجرة ليست بعيدة.

قالت بلهجة مهدئة: «أتفق. لقد فرض عليك الأمر بطريقة رهيبة، وأنتِ محق تمامًا في أن تكون غاضبًا. نعم، وبالتأكيد كان على الزعيم توراناغا أن يسألك رغم أنه لا يفهم تقاليدك. لكن لم يتبادر إلى ذهنه أنك ستعارض. لقد حاول فقط تكريمك كما لو كنت ساموراي مفضلًا له. لقد جعلك هاتاموتو، هذا يكاد يكون مثل قريب يا أنجين سان. يوجد نحو ألف هاتاموتو فقط في جميع أنحاء الكانتو. وبالنسبة للسيدة فوجيكو، كان يحاول فقط مساعدتك. ستعتبر السيدة أوساجي فوجيكو... بيننا يا أنجين سان، كان هذا سيعتبر شرفًا عظيمًا».

- لماذا؟

- لأن نسبها عريق وهي ماهرة جدًا. والدها وجدها من الدايميو. بالطبع هي ساموراي، وبالطبع... (أضافت ماريكو برقة): سيكون تكريمًا لها أن تقبلها. وهي بحاجة إلى منزل وحياة جديدة.

- لماذا؟

- أصبحت أرملة مؤخرًا. تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا فقط يا أنجين سان، إنها فتاة مسكينة، لكنها فقدت زوجها وابنًا وهي مليئة بالندم. ستمنحها حياة جديدة بأن تكون خلية رسمية لك.

- ماذا حدث لزوجها وابنها؟

ترددت ماريكو، منزعة من صراحة بلاكتورن غير المهذبة. لكنها كانت تعلم عنه بما يكفي لتفهم أن هذه كانت عاداته ولم تكن مقصودة كقطة أدب. قالت: «لقد أعدموا يا أنجين سان. وستحتاج إلى شخص لرعاية منزلك في أثناء مكوثك هنا. ستكون السيدة فوجيكو...».

- لماذا أعدموا؟

- كاد زوجها يتسبب في مقتل الزعيم توراناغا. رجاء...

- أمر توراناغا بقتلهم؟

- نعم. لكنه كان محققًا. اسألها وستوافق يا أنجين سان.

- كم كان عمر الطفل؟

- بضعة أشهر يا أنجين سان.

- هل أمر توراناغا بقتل طفل رضيع بسبب شيء فعله الأب؟

- نعم. هذه عاداتنا. يُرجى التحلي بالصبر معنا. نحن غير أحرار في بعض الأمور. تختلف عاداتنا عن عاداتكم. نحن ننتمي بموجب القانون إلى زعيمنا الإقطاعي. ينص القانون على أن الأب يمتلك حياة أطفاله وزوجته وخيلاته وخدمه. وبموجب القانون فإن حياته مملوكة لزعيمه الإقطاعي. هذه هي عاداتنا.

- إذن يمكن للأب قتل أي شخص في منزله؟

- نعم.

- إذن أنتم أمة من القتلة.

- لا.

- لكن عاداتكم تبرر القتل. اعتقدت أنك مسيحية.

- أنا كذلك يا أنجين سان.

- ماذا عن الوصايا؟
- لا أستطيع التفسير حقًا. لكنني مسيحية وساموراي ويابانية، وهؤلاء لا يتعارضون مع بعضهم بعضًا. بالنسبة لي فهم ليسوا كذلك. يُرجى التحلّي بالصبر معي ومعنا. رجاءً.
- هل ستقتلين أطفالك إذا أمر توراناجا بذلك؟
- نعم. لدي ابن واحد فقط لكن نعم، أعتقد أنني سأفعل. بالتأكيد سيكون من واجبي القيام بذلك. هذا هو القانون، إذا وافق زوجي.
- أمل أن يغفر الرب لك. ولكل منكم.
- الرب يتفهم يا أنجين سان. سيتفهم. ربما سيفتح عقلك حتى تفهم. أنا آسفة لا أستطيع الشرح جيدًا، أليس كذلك؟ أعذر عن نقصي. (راقبته في صمت مضطربة منه): لا أفهمك أيضًا يا أنجين سان. أنت تحيرني. وعاداتك تحيرني. ربما إذا كنا صبورين يمكننا أن يتعلم كلانا. السيدة فوجيكو على سبيل المثال. كخليلة ستعتني بمنزلك وخدمك. واحتياجاتك... أي من احتياجاتك. يجب أن يكون لديك شخص يفعل ذلك. ستشرف على إدارة منزلك، كل شيء. ولست بحاجة إلى إقامة علاقة معها، إذا كان ذلك يقلقك، إذا لم تجدها مرضية. لست بحاجة حتى إلى أن تكون مهذبًا معها، رغم أنها تستحق الأدب. ستخدمك كما تشاء وبأي طريقة تشاء.
- يمكنني معاملتها بأي طريقة أشاء؟
- نعم.
- هل يمكنني أن أجامعها أو لا؟
- بالطبع. ستجد لك شخصًا يرضيك لتلبية احتياجاتك الجسدية إذا رغبت في ذلك، أو لن تتدخل.
- هل يمكنني معاملتها كخادمة؟ كعبدة؟
- نعم. لكنها تستحق الأفضل.
- هل يمكنني طردها؟ أمرها بالخروج؟
- إذا أساءت إليك، نعم.
- ماذا سيحدث لها؟

- عادةً ستعود إلى منزل والديها في حالة من العار، وقد يقبلونها أو لا يقبلونها. شخص مثل السيدة فوجيكو ستفضل قتل نفسها قبل تحمل هذا العار. لكنها... يجب أن تعرف أن الساموراي الحقيقي لا يُسمح لهم بقتل أنفسهم دون إذن زعيمهم. يفعل البعض ذلك بالطبع، لكنهم فشلوا في أداء واجبهم ولا يستحقون أن يُعتبروا ساموراي. لن أقتل نفسي مهما كان العار، ليس دون إذن الزعيم توراناغا أو إذن زوجي. لقد منعها الزعيم توراناغا من إنهاء حياتها. إذا أرسلتها بعيدًا ستصبح منبوذة.

- لماذا؟ لماذا لن تقبلها عائلتها؟

تنهدت ماريكو: «آسفة يا أنجين سان، لكن إذا أرسلتها بعيدًا، فسيكون عارها قويًا لدرجة أنه لن يقبلها أحد».

- لأنها ملوثة؟ من اقترابها من همجي؟

قالت ماريكو على الفور: «أوه لا يا أنجين سان، فقط لأنها فشلت في واجبها تجاهك. إنها خليلتك الآن. أمر الزعيم توراناغا بذلك ووافقت. أنت سيد المنزل الآن».

- أنا؟

- نعم، صدقني يا أنجين سان، لديك امتيازات. وكهاتاموتو أنت مبارك. وميسور الحال. أعطاك الزعيم توراناغا راتبًا قدره عشرون كوكو شهريًا. مقابل هذا المبلغ من المال كان يتعين على الساموراي عادة تزويد سيده بنفسه واثنين آخرين من الساموراي مسلحين ومطعمين وفرسان لمدة عام كامل، وبالطبع يعتني بأسرهم أيضًا. لكن ليس عليك أن تفعل ذلك. أرجوك فكر في فوجيكو كشخص يا أنجين سان. أرجوك أن تملأ قلبك بالرحمة المسيحية. إنها امرأة جيدة. سامحها على قبحها. ستصبح خليفة جديدة.

- ليس لديها منزل؟

استعادت ماريكو السيطرة على نفسها: «نعم. هذا هو منزلها. أرجو أن تقبلها رسميًا. يمكنها مساعدتك كثيرًا وتعليمك إذا رغبت في التعلم. إذا كنت تفضل ذلك، فكر بها على أنها لا شيء... مثل هذا العمود الخشبي أو ستار الشوجي، أو كصخرة في حديقتك، أي شيء تريده لكن اسمح لها بالبقاء. إذا

لم تكن تريدها كخليفة فكنّ رحيماً. اقبلها ثم يمكنك قتلها كرب للأسرة وفقاً لقانوننا».

- هذا هو الحل الوحيد لديكم، أليس كذلك؟ القتل.

- لا يا أنجين سان. لكن الحياة والموت هما الشيء نفسه. ومن يدري، ربما تقدم خدمة أعظم لفوجيكو بأخذ حياتها. إنه حقك الآن أمام كل القانون. حقك. إذا كنت تفضل جعلها منبوذة، فهذا أيضاً حقك.

قال بلاكثورن: «إذن أنا محاصر مجدداً. في كلتا الحالتين ستقتل. ستذبح القرية بأكملها إذا لم أتعلم لغتكم. وإذا لم أفعل ما تريدونه، فسيقتل شخص بريء دائماً. لا يوجد مخرج».

- يوجد حل سهل جداً يا أنجين سان. الموت. ليس عليك تحمل ما لا يطاق.

- الانتحار جنون وخطيئة مهلكة. اعتقدت أنك مسيحية.

- قلت إنني كذلك. ولكن بالنسبة لك يا أنجين سان، بالنسبة لك يوجد العديد من الطرق للموت بشرف دون انتحار. سخرت من زوجي لأنه لم يرغب في الموت قتلاً، أليس كذلك؟ هذه ليست عادتنا لكنها على ما يبدو عادتك. فلماذا لا تفعل ذلك؟ لديك مسدس. اقتل الزعيم يابو. تعتقد أنه وحش، أليس كذلك؟ حتى محاولة قتله اليوم ستجعلك في الجنة أو الجحيم.

نظر إليها كارهاً ملامحها الهادئة، يرى جمالها من خلال كراهيته. قال: «من الضعف أن تموت هكذا دون سبب. كلمة «غباء» أفضل».

- أنت تقول إنك مسيحي. لذلك تؤمن بيسوع الطفل -وبالرب- وبالجنة. لا يجب أن يخيفك الموت. أما بالنسبة لـ«دون سبب»، فالأمر يعود لك لتقدير القيمة أو عدمها. قد يكون لديك سبب كافٍ للموت.

- أنا تحت سلطتكم. أنت تعرفين ذلك. وأنا أيضاً.

انحنى ماريكو ولمسته بتعاطف: «انس القرية يا أنجين سان. يمكن أن يحدث ألف مليون شيء قبل مرور تلك الستة أشهر. تسونامي أو زلزال، أو تحصل على سفينتك وتبحر بعيداً، أو يموت يابو، أو نموت جميعاً، أو من يدري؟ اترك مشكلات الرب للرب والكارما للكارما. أنت هنا اليوم ولا شيء يمكنك فعله سيغير ذلك. اليوم أنت على قيد الحياة هنا ومكرم ومبارك بالحظ

الجيد. انظر إلى هذا الغروب، إنه جميل، أليس كذلك؟ هذا الغروب موجود. الغد غير موجود. يوجد الحاضر فقط. انظر رجاءً. إنه جميل جدًا ولن يحدث أبدًا مجددًا، أبدًا، ليس هذا الغروب، أبدًا في كل الأبدية. انغمس فيه، اجعل نفسك واحدًا مع الطبيعة ولا تقلق بشأن الكارما، الخاصة بك أو بي أو بالقرية».

راقب الشمس حتى اختفت.

قال: «أتمنى لو كنت أنت خليلتي».

- أنا أنتمي إلى الزعيم بونتارو، وحتى يموت لا يمكنني التفكير أو قول ما قد يُفكر أو يُقال.

فكر بلاكتورن: كارما.

هل أقبل الكارما؟ الخاصة بي؟ بها؟ بهم؟

الليل جميل.

وكذلك هي، وهي تنتمي إلى شخص آخر.

نعم، إنها جميلة. وحكيمة جدًا: اترك مشكلات الرب للرب والكارما للكارما. لقد أتيت إلى هنا دون دعوة. أنت هنا. أنت تحت سلطتهم.

لكن ما هو الجواب؟

أخبر نفسه: الجواب سيأتي. لأنه يوجد إله في السماء، إله في مكان ما. سمع وقع الأقدام. كانت بعض المشاعل تقترب من التل. عشرون ساموراي يتقدمهم أومي.

- أنا آسفة يا أنجين سان، لكن أومي سان يأمرك بتسليمه مسدساتك.

- أخبريه أن يذهب إلى الجحيم.

- لا أستطيع يا أنجين سان. لا أجروء.

أبقى بلاكتورن يده متراخيه على قبضة المسدس، وعينه على أومي. كان قد تعمد أن يبقى جالسًا على درجات الشرفة. كان يوجد عشرة ساموراي داخل الحديقة خلف أومي والباقي بالقرب من المحفة المنتظرة. خرجت فوجيكو من داخل المنزل فور دخول أومي دون دعوة ووقفت الآن على الشرفة، شاحبة الوجه خلف بلاكتورن. قال: «لم يعترض الزعيم تورانا جاقط ولأيام كنت مسلحًا حوله وحول يابو سان».

قالت ماريكو باضطراب: «نعم يا أنجين سان، لكن رجاء تفهم، إن ما يقوله أومي سان صحيح. إنه من عاداتنا ألا تدخل بحضور دايميو وأنت مسلح. لا يوجد شيء يخيف... لا يوجد شيء يقلقك. يابو سان صديقك. أنت ضيفه هنا».

- أخبرني أومي سان أنني لن أعطيه مسدساتي.

ثم انفجر غضب بلاكتورن عندما ظلت صامته وهز رأسه متحدثاً باليابانية: «لا يا أومي سان. هل تفهم؟ لا».

تجهم وجه أومي. وأصدر أمراً صارماً. تقدم اثنان من الساموراي. وسحب بلاكتورن مسدساته. توقف الساموراي. ووجه كلا المسدسين مباشرة إلى وجه أومي.

قال بلاكتورن: «لا».

ثم وجه كلامه إلى ماريكو: «أخبريه أن يأمرهم بالتراجع وإلا سأطلق النار».

فعلت ذلك. لم يتحرك أحد. وقف بلاكتورن ببطء على قدميه ولم تتحرك المسدسات قط عن هدفه. كان أومي ثابتاً تماماً بلا خوف وعيناه تتبعان حركات بلاكتورن الشبيهة بحركات القط.

- رجاء يا أنجين سان. هذا خطرٌ جداً. يجب أن تقابل الزعيم يابو. لا يمكنك الذهاب بالمسدسات. أنت هاتاموتو، أنت محمي وأنت أيضاً ضيف الزعيم يابو.

- أخبرني أومي سان أنه إذا اقترب مني هو أو أي من رجاله لمسافة ستة أمتار فسأفجر رأسه.

- يقول أومي سان بأدب: للمرة الأخيرة يُطلب منك تسليمي المسدسات. الآن.

- الآن.

- لماذا لا تتركها هنا يا أنجين سان؟ لا يوجد شيء تخشاه. لن يلمس أحد...

- تعتقدين أنني أحمق؟

- إذن أعطيها لفوجيكو سان.

- ماذا تستطيع أن تفعل؟ سيأخذها منها -أي شخص سيأخذها- ثم سأصبح بلا دفاع.

احتد صوت ماريكو: «لماذا لا تستمع يا أنجين سان؟ فوجيكو سان خليلتك. إذا أمرتها ستحمي المسدسات بحياتها. هذا هو واجبها. لن أخبرك مجددًا لكن تودا نو أوساجي فوجيكو هي ساموراي».

كان بلاكثورن يركز انتباهه على أومي وبالكاد يستمع إليها: «أخبري أومي سان أنني لا أحب الأوامر. أنا ضيف الزعيم توراناغا. وضيف الزعيم يابو. أنت «تطلب» من الضيوف القيام بالأشياء. لا تأمرهم، ولا تقتحم منزل أحدهم دون دعوة».

ترجمت ماريكو هذا. استمع أومي بلا تعابير ثم أجاب بإيجاز وهو يراقب المسدسين غير الثابتين.

- يقول: أنا كاسيجي أومي، أطلب منك تسليم مسدسيك، وأطلب منك أن تأتي معي لأن كاسيجي يابو ساما يأمرك بمقابلته. لكن كاسيجي يابو ساما يأمرني أن أترك بتسليم أسلحتك. أنا آسف يا أنجين سان، للمرة الأخيرة أطلب منك تسليمي إياها.

ضاق صدر بلاكثورن. كان يعلم أنه سيهاجم وكان غاضبًا من غبائه. لكن يأتي وقت لا يمكنك فيه تحمل المزيد فتسحب سلاحًا أو سكينًا ثم تنسكب الدماء بسبب الكبرياء الغبية. معظم الأوقات يكون غيبًا. إذا كان من المقرر أن أموت، فأقسم إن أومي سيموت أولاً.

شعر بالقوة رغم شعوره ببعض الدوار. ثم بدأت كلمات ماريكو تتردد في أذنيه: «إن فوجيكو ساموراي، إنها خليلتك». وبدأ عقله في العمل. قال: «لحظة واحدة. رجاء قل لي هذا لفوجيكو سان يا ماريكو سان. بالضبط: سأعطيك مسدساتي. يجب عليك حمايتها. لا أحد سواي يلمسها».

فعلت ماريكو ما طلبه، وسمع فوجيكو تقول من خلفه: «حسنًا».

سألها: «هل فهمت يا فوجيكو سان؟».

أجابت بصوت رقيق متوتر: «فهمت يا أنجين سان».

- رجاء أخبري أومي سان أنني سأذهب معه الآن يا ماريكو سان. أنا آسف لسوء الفهم. نعم، أنا آسف لسوء الفهم.

تراجع بلاكتورن ثم استدار. استلمت فوجيكو المسدسين والعرق يتصبب من جبينها. واجه أومي ودعا الرب أن يكون على حق. سأل: «هل سنذهب الآن؟».

تحدث أومي إلى فوجيكو ومد يده. لكنها هزت رأسها. أصدر أمرًا قصيرًا. تقدم نحوها اثنان من الساموراي. دفعت على الفور مسدسًا في حزامها العريض، وأمسكت الآخر بكلتا يديها ومدت ذراعيها ووجهته نحو أومي. ارتد الزناد قليلًا وتحرك. قالت: «لا تتحركا. رجاء».

أطاع الساموراي. وتوقفا.

تحدث أومي بسرعة وغضب واستمعت إليه وعندما أجابت كان صوتها هادئًا ومهذبًا لكن المسدس لم يبتعد عن وجهه، وكانت الرافعة نصف مشدودة الآن، واختتمت قائلة: «لا، أنا أسفة يا أومي سان».

انتظر بلاكتورن.

تحرك ساموراي قليلًا. ارتفعت الرافعة بخطورة تقريبًا إلى قمة قوسها. لكن ذراعها ظلت ثابتة.

أمرت: «لا تتحرك».

لم يشك أحد في أنها ستطلق النار. حتى بلاكتورن. قال أومي شيئًا بإيجاز لها ولرجالها. عادوا. وخفضت المسدس لكنه كان لا يزال جاهزًا.

سأل بلاكتورن: «ماذا قال؟».

- فقط إنه سيبلغ يابو سان بهذه الحادثة.

- جيد. أخبريه أنني سأفعل الشيء نفسه.

استدار بلاكتورن إليها وقال: «شكرًا يا فوجيكو سان».

ثم تذكر طريقة حديث توراناغا ويابو مع النساء، ثم وجه كلامه بتسلط نحو ماريكو: «هيا يا ماريكو سان... دعينا نذهب».

بدأ يتجه نحو البوابة.

نادت فوجيكو: «أنجين سان».

- نعم؟

توقف بلاكتورن. كانت فوجيكو تنحني له وتحدث بسرعة إلى ماريكو.

اتسعت عينا ماريكو ثم أومأت وأجابت، وتحدثت إلى أومي الذي أوماً أيضاً، غاضباً بوضوح لكنه كبح جماحه.

- ماذا يحدث؟

- رجاءً تحلّ بالصبر يا أنجين سان.

نادت فوجيكو، وأنتها إجابة من داخل المنزل. دخلت خادمة إلى الشرفة. في يديها سيفان. سيوف ساموراي.

أخذت فوجيكو السيوفين باحترام وقدمتهما لبلاكثورن بانحناءة، متحدثة بهدوء.

قالت ماريكو: «تشير خليلتك بحق إلى أن الهاتاموتو ملزم بالطبع بارتداء السيوفين الخاصين الساموراي. بل إنه من واجبه القيام بذلك. تعتقد أنه لن يكون من اللائق الذهاب إلى الزعيم يابو دون سيوف، وأن ذلك سيكون غير مهذب. وفقاً لقانوننا فإنه من واجبك حمل السيوف. تسأل عما إذا كنت ستفكر في استخدام هذه رغم أنها غير جديرة، حتى تتمكن من شراء سيوفك الخاصة».

حدق بلاكثورن إليها، ثم إلى فوجيكو ثم إليها مجدداً. قال: «هل هذا يعني أنني ساموراي؟ أن الزعيم توراناغا جعلني ساموراي؟».

- لا أعلم يا أنجين سان. لكن لم يسبق وجود هاتاموتو لم يكن ساموراي من قبل. قط.

استدارت ماريكو واستجوبت أومي. الذي هز رأسه بملل وأجاب. قالت: «أومي سان لا يعرف أيضاً. بالتأكيد من امتيازات الهاتاموتو الخاصة أن يرتدي السيوف في جميع الأوقات، حتى في حضور الزعيم توراناغا. إنه واجبه لأنه حارس شخصي موثوق تماماً. كما أن الهاتاموتو وحده له الحق في مقابلة الزعيم مباشرة».

أخذ بلاكثورن السيف القصير ووضعه في حزامه، ثم الآخر الطويل، سيف القتل، وضعه تماماً كما كان يرتدي أومي سيفه. شعر بتحسن كونه مسلحاً. قال بهدوء: « Arigato gozaimashita - شكراً جزيلاً - يا فوجيكو سان».

خففت عينيها وأجابت بلطف. ترجمت ماريكو.

- تقول فوجيكو سان: بإذن منك يا سيدي، لأنك يجب أن تتعلم لغتنا جيداً وبسرعة، تود بتواضع أن تشير إلى أنه يكفي تماماً للرجل أن يقول

(domo). بينما (Arigato)، مع أو دون (gozaimashita)، هو نوع من الأدب غير الضروري، وهو تعبير تستخدمه النساء فقط.

- حسنًا. شكرًا. فهمت يا فوجيكو سان.

نظر إليها بلاكثورن بوضوح لأول مرة بمعرفته الجديدة. رأى العرق على جبينها والبريق على يديها. العينان الضيقتان والوجه المربع وأسنانها الشبيهة بأسنان النمس. قال: «رجاءً أخبري خليلتي أنه في هذه الحالة لا أعتبر «arigato gozaimashita» مجاملة غير ضرورية لها».

ألقي يابو نظرة على السيفين مجددًا. كان بلاكثورن جالسًا القرفصاء على وسادة أمامه في مكان الشرف، وماريكو وإيجوراشي إلى جانبه. كانوا في الغرفة الرئيسية للقلعة.

أنهى أومي حديثه.

هز يابو كتفيه وقال: «لقد تعاملت مع الأمر بسوء يا ابن أخي. بالطبع من واجب الخليفة حماية أنجين سان وممتلكاته. بالطبع لديه الحق في ارتداء السيوف الآن. نعم، لقد تعاملت مع الأمر بسوء. أوضحت أن أنجين سان ضيفي المكرم هنا. اعتذر له».

نهض أومي على الفور وجثا أمام بلاكثورن وانحنى. قال: «أعتذر عن خطئي يا أنجين سان».

سمع ماريكو تقول إن الهمجي قبل الاعتذار. انحنى مجددًا وعاد بهدوء إلى مكانه وجلس مرة أخرى. لكنه لم يكن هادئًا من الداخل. كان الآن مهووسًا بفكرة واحدة: قتل يابو.

كان قد قرر القيام بما لا يمكن تصوره: قتل زعيمه الإقطاعي ورئيس عشيرته.

ولكن ليس لأنه اضطر إلى الاعتذار علنًا أمام الهمجي. كان يابو محققًا في هذا. علم أومي أنه كان أحرق بغير داع، لأنه رغم أن يابو أمره بغيباء بأخذ المسدسات على الفور الليلة الماضية، فإنه كان يعلم أنه يجب التلاعب بهما وتركهما في المنزل، لسرقتهما أو تحطيمهما لاحقًا.

قال لنفسه: وكان أنجين سان محققًا تمامًا في إعطاء المسدسات لخليلته، تمامًا كما كانت هي أيضًا محقة في فعل ما فعلته. وكانت ستطلق النار

بالتأكيد، وكان هدفها دقيقًا. لم يكن سرًّا أن أوساجي فوجيكو كانت تسعى للموت، أو سبب ذلك. علم أومي أيضًا أنه لولا قراره السابق هذا الصباح بقتل يابو، لكان قد تقدم إلى الموت ثم كان سيأخذ رجاله المسدسات منها. كان سيموت بوقار كما كانت هي أيضًا سيطلب منها الموت بشرف. وكان الرجال والنساء سيروون القصة المأسوية لأجيال. الأغاني والقصائد وحتى مسرحيات النو، كلها ملهمة ومأسوية وشجاعة، حول الثلاثة: الخليفة الوفية والساموراي الوفي اللذين ماتا بدورهما بسبب الهمجي المدهش الذي جاء من البحر الشرقي.

لا، لم يكن قرار أومي له علاقة بهذا الاعتذار العلني، رغم أن الظلم زاد من الكراهية التي أصبحت تسيطر عليه الآن. كان السبب الرئيسي هو أن يابو قد أهان اليوم علنًا والدته أومي وزوجته أمام الفلاحين بإبقائهما ينتظران لساعات في الشمس مثل الفلاحين، ثم طردهما دون اعتراف بهما كالفلاحين. قالت والدته: «لا يهم يا بني. إنه حقه».

قالت ميدوري زوجته ودموع الخزي تتدفق على وجنتيها: «إنه زعيمنا الإقطاعي. رجاء اعذره».

تابع أومي: «ولم يدعُ أيًا منكما لاستقباله هو وضباطه في القلعة. في الوجبة التي رتبتموها! الطعام والساكي وحدهما يكلفان كوكو».

- إنه واجبنا يا بني. من واجبنا أن نفعل ما يريده الزعيم يابو.
- وماذا عن الأمر المتعلق بوالدي؟
- ليس أمرًا بعد. إنها إشاعة.
- نصت رسالة والدي على أنه سمع أن يابو سيأمره بخلق رأسه ويصبح راهبًا، أو بشق بطنه. تتفاخر زوجة يابو بذلك سرًّا.
- تلك كانت همسة لأبيك من جاسوس. لا يمكنك الوثوق بالجواسيس دائمًا. آسفة يا بني لكن والدك ليس حكيمًا دائمًا.
- ماذا سيحدث لك يا أمي، إذا لم تكن إشاعة؟
- مهما حدث فهي كارما. يجب أن تقبل الكارما.
- لا، هذه الإهانات لا تطاق.
- رجاء يا بني، تقبلها.

- لقد أعطيت يابو مفتاح السفينة، ومفتاح أنجين سان والهمج الجدد، وطريق الخروج من فخ تورانا. مساعدتي جلبت له الكثير من الاحترام. مع الهدية الرمزية للسيف، أصبح الآن في المرتبة الثانية بعد تورانا. في جيوش الشرق. وماذا حصلنا في المقابل؟ إهانات قذرة.

- تقبل الكارما الخاصة بك.

- يجب عليك ذلك يا زوجي، أتوسل إليك أن تستمع إلى السيدة والدتك.

- لا أستطيع العيش مع هذا العار. سأنتقم ثم سأقتل نفسي وستزول هذه الإهانات مني.

- للمرة الأخيرة يا بني، تقبل الكارما، أتوسل إليك.

- الكارما الخاصة بي هي تدمير يابو.

تنهدت العجوز: «حسنًا. أنت رجل. لديك الحق في اتخاذ القرار. ما هو مقدر سيحدث. لكن قتل يابو بحد ذاته ليس شيئًا. يجب أن نخطط. يجب إزالة ابنه أيضًا، وإيجوراشي. خاصة إيجوراشي. ثم سيقود والدك العشيرة كما هو حقه».

- كيف نفعل ذلك يا أمي؟

- سنخطط، أنت وأنا. وكن صبورًا، حسنًا؟ ثم يجب أن نستشير والدك. حتى أنت يا ميدوري يمكنك تقديم المشورة، لكن حاولي ألا تجعلها عديمة القيمة، حسنًا؟

- ماذا عن الزعيم تورانا؟ أعطى يابو سيفه.

- أعتقد أن الزعيم تورانا يريد فقط أن تكون إيزو قوية ودولة تابعة. ليس كحليف. إنه لا يريد حلفاء أكثر مما أراد التايكو. يعتقد يابو أنه حليف. أعتقد أن تورانا يكره الحلفاء. ستزدهر عشيرتنا كأتباع لتورانا. أو كأتباع لإيشيدو. من نختار؟ وكيف نقتله؟

تذكر أومي شعور السعادة الذي استحوز عليه فور اتخاذ القرار النهائي. شعر به الآن. لكن لم يظهر أي شيء على وجهه بينما كانت الخادومات المختارات بعناية من ميشيما يقدمن الشاي والنبذ ليابو. راقب يابو وأنجين سان وماريكو وإيجوراشي. كانوا جميعًا ينتظرون يابو ليبدأ.

كانت الغرفة كبيرة وجيدة التهوية، كبيرة بما يكفي لاستيعاب ثلاثين ضابطاً لتناول الطعام والشراب والتحدث. كان يوجد العديد من الغرف الأخرى والمطابخ للحراس والخدم، وحديقة مسيجة، ورغم أن كل شيء كان مؤقتاً، فإنه بُني على نحو ممتاز في الوقت المتاح له ويسهل الدفاع عنها. لم يزعجه على الإطلاق أن التكلفة جاءت من إقطاعية أومي المتزايدة. كان هذا واجبه.

نظر عبر باب الشوحي المفتوح. كان يوجد العديد من الحراس في الباحة الأمامية. إسطنبول. والقلعة محاطة بخندق. السور مبني من أعواد خيزران عملاقة مربوطة بإحكام. أعمدة مركزية كبيرة تدعم السقف المبلط. كانت الجدران عبارة عن شاشات شوحي خفيفة، بعضها مغلق ومعظمها مغطى بورق شمع كما هو معتاد. ووضعت ألواح جيدة للأرضيات على دعائم مرتفعة على التربة المدكوكة ومغطاة بالتاتامي.

بأمر من يابو، نهب أومي أربع قرى للحصول على مواد لبناء هذا المنزل والآخر، وجلب إيجوراشي تاتامي وفوتون وأشياء عالية الجودة لا يمكن الحصول عليها في القرية.

كان أومي فخوراً بعمله، وكان معسكر الإقامة لثلاثة آلاف ساموراي جاهزاً على الهضبة فوق التل الذي يحرس الطرق المؤدية إلى القرية والشاطئ. الآن كانت القرية مغلقة بإحكام وأمنة من البر. أما من البحر فسيوجد دائماً تحذير كافٍ للزعيم الإقطاعي للهروب.

كان أومي يسأل نفسه: لكن ليس لدي زعيم إقطاعي. من سأخدم الآن؟ إيكوا جيكيو؟ أم توراناغا مباشرة؟ هل سيعطيني توراناغا ما أريده في المقابل؟ أم إيشيدو؟ من الصعب الوصول إلى إيشيدو، أليس كذلك؟ ولكن يوجد الكثير لأخبره به الآن...

بعد الظهيرة استدعى يابو إيجوراشي وأومي والقادة الأربعة الرئيسيين وشرع في خطته السرية لتدريب خمسمائة ساموراي مسلحين بالبنادق. كان من المقرر أن يكون إيجوراشي قائداً، وكان أومي سيقود أحد المئات. لقد رتبوا كيفية دمج رجال توراناغا في الوحدات عند وصولهم، وكيفية تحييد هؤلاء الغرباء إذا ثبت غدرهم.

اقترح أومي أن تُدرَّب مجموعة أخرى شديدة السرية تتألف من ثلاث وحدات إضافية مكونة من مائة ساموراي، كل منها تتدرب بسرية على الجانب

الآخر من شبه الجزيرة كبدايل، كاحتياطي، كتدبير احترازي ضد أي خطوة غادرة من تورانا.جا.

سأل إيجوارشي: «من سيقود رجال تورانا.جا؟ من سيرسل كقائد ثانٍ؟».

قال يابو: «لن يفرق. سأعين مساعديه الضباط الخمسة الذين سيتحملون مسؤولية شق حلقة إذا لزم الأمر. سيكون الرمز لقتله هو وكل الغرباء «شجرة البرقوق». غداً ستختار الرجال يا إيجوارشي سان. سأوافق على كل واحد منهم شخصياً ولا يجب أن يعلم أي منهم بعد عن خطتي العامة لكتيبة البنادق».

الآن بينما كان أومي يراقب يابو، استمتع بنشوة الانتقام الجديدة. سيكون قتل يابو سهلاً، لكن القتل يجب أن يكون منسقاً. فقط بعدها سيتمكن والده أو أخيه الأكبر من تولي السيطرة على العشيرة وإيزو.

دخل يابو في صلب الموضوع: «رجاء أخبرني أنجين سان يا ماريكو سان أنني أريده أن يبدأ غداً في تدريب رجالي على إطلاق النار مثل الهمج وأريد أن أتعلم كل ما يتعلق بالحرب الخاص بهؤلاء الهمج».

ذكرته ماريكو: «معدرة ولكن لن تصل البنادق قبل ستة أيام يا يابو سان».

أجاب يابو: «لدي ما يكفي بين رجالي للبدء. أريده أن يبدأ غداً».

تحدثت ماريكو إلى بلاكتورن.

سأل: «ماذا يريد أن يعرف عن الحرب؟».

- قال كل شيء.

- ماذا بالتحديد؟

سألت ماريكو يابو.

- يقول يابو سان: هل كنت جزءاً من أي معارك برية؟

- نعم. في هولندا. وواحدة في فرنسا.

- يقول يابو سان: ممتاز. يريد أن يعرف الاستراتيجية الأوروبية. يريد أن

يعرف كيف تُخاض المعارك في أراضيكم. بالتفصيل.

فكر بلاكتورن للحظة. ثم قال: «أخبرني يابو سان أنه يمكنني تدريب أي

عدد من الرجال له وأعرف بالضبط ما يريد معرفته».

لقد تعلم الكثير عن طريقة حرب اليابانيين من الراهب دومينجو. كان

الراهب خبيراً ومهتماً بشدة. قد قال العجوز: «على كل حال يا سيدي هذه

المعرفة ضرورية، أليس كذلك... لمعرفة كيفية قتال الوثنيون؟ يجب على كل أب حماية رعيته. أليس الفاتحون المجيدون هم رأس الحربة للكنيسة الأم؟ وألم أكن معهم في مقدمة القتال في العالم الجديد والفلبين ودرستهم لأكثر من عشرين عامًا؟ أعرف الحرب يا سيدي، أعرف الحرب. لقد كان واجبي، إرادة الرب أن أعرف الحرب. ربما أرسلك الرب إلي لتعليمك في حالة موتي. استمع، ريعتي هنا في هذا السجن كانوا معلمين حول الحروب اليابانية يا سيدي. لذلك الآن أعرف كيف تقاتل جيوشهم وكيف يمكن هزيمتهم. كيف يمكنهم هزيمتنا. تذكر يا سيدي، أبوح لك بسر على روحك: لا تجمع أبدًا بين وحشية اليابانيين مع الأسلحة الحديثة والأساليب الحديثة. أو على اليابسة سيدمرونا».

كرس بلاكثورن نفسه للرب. وبدأ بالتحدث: «أخبري الزعيم يابو أنه يمكنني مساعدته كثيرًا. وكذلك الزعيم توراناغا. يمكنني جعل جيوشهم لا تقهر».

- يقول الزعيم يابو إنه إذا أثبتت معلوماتك فائدتها يا أنجين سان، فإنه سيزيد راتبك من مائتين وأربعين كوكو من الزعيم توراناغا إلى خمسمائة كوكو بعد شهر واحد.

- اشكركه. ولكن أخبريه أنني إذا فعلت كل هذا من أجله، فسأطلب معروفًا في المقابل: أريد منه إلغاء مرسومه بشأن القرية وأريد سفينتي وطاقمي بعد خمسة أشهر.

قالت ماريكو: «لا يمكنك التفاوض معه كالتاجر يا أنجين».

- رجاءً أسأله. كطلب متواضع. من ضيف مكرم وتابع مستقبلي ممتن. عبس يابو وأجاب مطولاً.

- يقول يابو سان إن القرية غير مهمة. يحتاج القرويون إلى نار تحت أقدامهم ليجعلهم يفعلون أي شيء. لا يجب أن تشغل بالك بهم. أما بالنسبة للسفينة فهي في رعاية الزعيم توراناغا. إنه متأكد من أنك ستستعيدها قريبًا. طلب مني تقديم طلبك إلى الزعيم توراناغا لحظة وصولي إلى إيبدو. سأفعل ذلك يا أنجين سان.

- رجاءً اعتذري للزعيم يابو، لكن يجب أن أطلب منه إلغاء المرسوم. الليلة.

- قال للتولا يا أنجين سان. لن يكون من اللائق.

- نعم، أفهم. لكن رجاء اسأليه مجددًا. إنه مهم جدًّا بالنسبة لي... إنه التماس.

- يقول إنه عليك التحلي بالصبر. لا تشغل بالك بالقرويين.

أوماً بلاكتورن برأسه ثم قرر: «شكرًا لك. أفهم. نعم. رجاء اشكري يابو سان لكن أخبريه أنني لا أستطيع العيش مع هذا العار». شحب وجه ماريكو: «ماذا؟».

- لا أستطيع العيش مع عار وجود القرية على ضميري. لقد أهنت. لا أستطيع تحمل هذا. إنه ضد إيماني المسيحي. سيتعين عليّ الانتحار على الفور.

- انتحار؟

- نعم. هذا ما قررت فعله.

قاطعه يابو: «ما الأمر يا ماريكو سان؟».

ترجمت بتردد ما قاله بلاكتورن. استجوبها يابو وأجابت. ثم قال يابو: «لو لم يكن رد فعلك بهذا الشكل يا ماريكو سان، لاعتقدت أنها مجرد مزحة. لماذا أنت قلقة؟ لماذا تعتقدين أنه يعني ما يقول؟».

تلاشى صوتها تدريجيًّا: «لا أعلم يا سيدي. يبدو أنه... لا أعلم...».

- أومي سان؟

- الانتحار ضد جميع المعتقدات المسيحية يا سيدي. لا ينتحرون كما نفعل نحن. مثلما يفعل الساموراي.

- أنتِ مسيحية يا ماريكو سان. هل هذا صحيح؟

- نعم يا سيدي. الانتحار خطيئة مهلكة، تتعارض مع كلمة الرب.

- إيجوراشي سان؟ ماذا تعتقد؟

- إنه تهديد فارغ. إنه ليس مسيحيًّا. أتتذكر اليوم الأول يا سيدي؟ أتتذكر ما فعله بالكاهن؟ وما سمح لأومي سان بفعله لإنقاذ الصبي؟

ابتسم يابو متذكرًا ذلك اليوم والليلة التي تلتها.

- نعم. أنا أنفق. إنه ليس مسيحيًّا يا ماريكو سان.

- آسفة لكنني لا أفهم يا سيدي. ماذا عن الكاهن؟

أخبرها يابو بما حدث في اليوم الأول بين بلاكتورن والكاهن.
قالت بصدمة واضحة: «لقد دنس صليباً؟».

أضاف إيجوراشي: «وألقي القطع في التراب. إنه كله تهديد فارغ يا سيدي. إذا كان هذا الأمر الخاص بالقرية يهينه، فكيف يمكنه البقاء هنا بعدما أهانه أومي سان بالتبول عليه؟».

قالت ماريكو: «ماذا؟ أنا آسفة يا سيدي لكنني لا أفهم مجدداً».

قال يابو لأومي: «اشرح لها الأمر».

أطاع أومي. كانت تشعر بالاشمئزاز مما أخبرها به لكنها أخفت مشاعرها.
أنهى أومي: «بعد ذلك أصبح أنجين سان خاضعاً تماماً يا ماريكو سان.
وسيبقى دائماً خاضعاً دون أسلحة».

تجرع يابو بعض الساكي وقال: «أخبريه بذلك يا ماريكو سان: الانتحار ليس عادة همجية. إنه يتعارض مع إلهه المسيحي. فكيف يمكنه الانتحار؟».

ترجمت ماريكو. كان يابو يراقب بلاكتورن بعناية وهو يجيب.

- يعتذر أنجين سان بتواضع كبير لكنه يقول: سواء كانت عادة أم لا، إله أم لا، فإن عار القرية كبير جداً لدرجة لا يمكن تحمله. يقول إنه... إنه في اليابان، إنه هاتاموتو ولديه الحق في العيش وفقاً لقوانيننا. (كانت يداها ترتجفان): هذا ما قاله يا يابو سان. الحق في العيش وفقاً لعاداتنا... قانوننا.

- لا توجد للهمج حقوق.

قالت: «الزعيم توراناغا جعله هاتاموتو. هذا يعطيه الحق، أليس كذلك؟».
لمست نسمة هواء الشوجي، محدثة صوتاً خفيفاً.

- كيف يمكنه الانتحار؟ هاه؟ أسأليه.

أخرج بلاكتورن السيف القصير الحاد كالإبرة ووضعه برفق على التاتامي، موجهًا مقدمة النصل إليه.

قال إيجوراشي ببساطة: «إنه تهديد فارغ. من سمع من قبل بهمجي يتصرف كشخص متحضر؟».

عبس يابو وتباطأت دقات قلبه بسبب الإثارة: «إنه رجل شجاع يا إيجوراشي سان. لا شك في ذلك. وغريب. ولكن هذا؟».

أراد يابو رؤية الفعل، وأن يشهد مقياس الهمج، ورؤية كيف يواجهون الموت، وتجربة نشوة الرحيل معه. بذل جهدًا لوقف تزايد متعته الخاصة. سأل بصوت أجش: «بماذا تنصح يا أومي سان؟».

- لقد قلتَ للقرية يا سيدي: «إذا لم يتعلم أنجين سان بشكل مرضٍ». أنا أنصحك بإجراء تنازل طفيف. قل له إن كل ما يتعلمه خلال الخمسة أشهر سيكون «مرضيًا»، لكن عليه أن يقسم في المقابل ألا يكشف هذا للقرية أبدًا.

- لكنه ليس مسيحيًا. كيف سيُلزِمه هذا القسم؟

- أعتقد أنه نوع من المسيحيين يا سيدي. إنه ضد الكهنة ذوي الرداء الأسود وهذا هو المهم. أعتقد أن القسم بإلهه الخاص سيكون ملزمًا. كما يجب أن يقسم باسم إلهه هذا أنه سيكرس عقله تمامًا للتعليم وخدمتك. لأنه ذكي سيتعلم الكثير خلال خمسة أشهر. وبذلك يُحفظ شرفك، ويُحفظ شرفه - سواء كان موجودًا أم لا-. لن تخسر شيئًا بل ستكتسب كل شيء. الأهم من ذلك أنك ستكتسب ولاءه بمحض إرادته.

- هل تعتقد أنه سيقتل نفسه؟

- نعم.

- ماريكو سان؟

- لا أعلم يا يابو سان. عذرًا لكن لا أستطيع تقديم النصيحة. قبل بضع ساعات كنت سأقول إنه لن ينتحر. الآن لا أعلم. إنه... منذ أن جاء أومي سان إليه الليلة الماضية، لقد أصبح... مختلفًا.

- إيجوراشي سان؟

- إذا رضخت له الآن وكان ذلك تهديدًا فارغًا، فسيستخدم الحيلة نفسها طوال الوقت. إنه ماهر كثعلب كامي. لقد رأينا جميعًا مدى مكره، أليس كذلك؟ سيتعين عليك أن تقول «لا» يومًا ما يا سيدي. أنصحك أن تقول ذلك الآن، إنه تهديد فارغ.

مال أومي للأمام وهز رأسه قائلاً: «رجاءً اعذرني يا سيدي لكن يجب أن أكرر أنه إذا رفضت فإنك تخاطر بخسارة كبيرة. إذا كان ذلك تهديدًا فارغًا

-وقد يكون كذلك- فسيصبح رجلًا فخورًا مليئًا بالكراهية بسبب التماذي في إهانته ولن يساعدك بقدر ما تحتاجه. لقد طلب شيئًا كهاتاموتو وهو حقه، ويقول إنه يريد العيش وفقًا لعاداتنا بمحض إرادته. أليست هذه خطوة كبيرة للأمام يا سيدي؟ هذا أمر رائع بالنسبة لك، وبالنسبة له. أنا أنصحك بالحد. استخدمه لصالحك».

قال يابو بصوت مبحوح: «أنوي ذلك».

قال إيجوراشي: «نعم إنه قيم ونعم أريد الحصول على معرفته. لكن يجب التحكم فيه، لقد قلت ذلك عدة مرات يا أومي سان. إنه همجي. هذا كل ما هو عليه. أعلم أنه هاتاموتو اليوم ويمكنه ارتداء السيوفين من اليوم. لكن هذا لا يجعله ساموراي. إنه ليس ساموراي ولن يصبح أبدًا».

علمت ماريكو أنه من بينهم جميعًا يجب أن تكون قادرة على قراءة أنجين سان بوضوح أكبر. لكنها لم تستطع. في لحظة كانت تفهمه، وفي اللحظة التالية أصبح غير مفهوم مجددًا. في لحظة أحببته، وفي اللحظة التالية كرهته. لماذا؟

تأمل بلاكتورن بعينه الفارغة في الأفق. لكن الآن كانت توجد بعض قطرات العرق على جبينه. فكر يابو: هل ذلك بسبب الخوف؟ الخوف من كشف خداعه؟ هل هو يخدع؟

- ماريكو سان؟

- نعم يا سيدي؟

كان فم يابو جافًا فجأة وصدره يؤلمه. قال: «أخبريه... أخبري أنجين سان أن الحكم لا يزال قائمًا».

- اعذرني يا سيدي ولكنني أحثك على قبول نصيحة أومي سان.

لم ينظر يابو إليها بل إلى بلاكتورن فقط. نبض الوريد في جبينه. قال: «يقول أنجين سان إنه قرر. فليكن. دعينا نر ما إذا كان همجيًا أم هاتاموتو». كان صوت ماريكو بالكاد مسموعًا: «أنجين سان، يقول يابو سان إن الحكم لا يزال قائمًا. أنا آسفة».

سمع بلاكتورن الكلمات لكنها لم تزعجه. شعر بأنه أقوى وأكثر سلامًا أكثر من أي وقت مضى، مع وعي أكبر بالحياة مما كان عليه من قبل.

بينما كان ينتظر، لم يكن يستمع إليهم أو يراقبهم. لقد اتخذ قراره. وترك الباقي للرب. كان محبوسًا في ذهنه، يسمع الكلمات نفسها مرارًا وتكرارًا، الكلمات نفسها التي أعطته الدليل للحياة هنا، الكلمات التي أرسلت إليه بالتأكيد من الرب عبر ماريكو كوسيط: «يوجد حل سهل، الموت. للبقاء على قيد الحياة هنا يجب أن تعيش وفقًا لعاداتنا...».

«... الحكم لا يزال قائمًا».

لذا يجب أن أموت الآن.

يجب أن أكون خائفًا. لكنني لست كذلك.

لماذا؟

لا أعلم. أعلم فقط أنه حالما قررت حقًا أن السبيل الوحيد للعيش هنا كرجل هو أن أفعل ذلك وفقًا لعاداتهم، أن أخاطر بالموت، أن أموت -ربما أن أموت- فجأة اختفى الخوف من الموت. «الحياة والموت هما الشيء نفسه... اترك الكارما للكارما». أنا لست خائفًا من الموت.

بدأت الأمطار تتساقط برفق خارج الشوجي. نظر إلى الأسفل على السكين. فكر: لقد عشت حياة جيدة.

عادت عيناه إلى يابو وقال باليابانية بوضوح: «لقد فهمت».

ورغم أنه علم أن شفتيه قد شكلتا الكلمة، فإنه كان كما لو أن شخصًا آخر قد نطق بها.

لم يتحرك أحد.

شاهد يده اليمنى تلتقط السكين. ثم أمسكت يده اليسرى أيضًا بالقبضة، والشفرة ثابتة وموجهة نحو قلبه. الآن لا يوجد سوى صوت حياته، يستمر في الازدياد، يزداد بصوت أعلى وأعلى حتى لم يعد بإمكانه الاستماع إليه. صرخت روحه طالبة صمتًا أبدًا.

أثار الصراخ ردة فعله. ودفعت يداه السكين نحو هدفه بلا تردد.

كان أومي مستعدًا لإيقافه لكنه ليس مستعدًا لسرعة وشراسة طعنة بلاكثورن، وعندما أمسكت يده اليسرى بالشفرة ويده اليمنى بالمقبض، شعر بألم حاد وانسكبت الدماء من يده اليسرى. قاتل قوة الطعنة بكل قوته. كان يخسر. ثم ساعده إيجوراشي. وأوقفوا الضربة معًا. ثم أبعدوا السكين عنه.

سال تدفق خفيف من الدماء من الجلد فوق قلب بلاكتورن حيث دخل طرف السكين.

لم يتحرك كلا من ماريكو ويابو.

قال يابو: «أخبريه، أخبريه أن كل ما سيتعلمه كافٍ يا ماريكو سان. أؤمره... لا، اطلبي منه، اطلبي من أنجين سان أن يقسم كما قال أومي سان. افعلي كل شيء كما قال أومي سان».

عاد بلاكتورن من الموت ببطء. حلق إليهما وإلى السكين من مسافة بعيدة دون أن يفهم. ثم اندفع تيار حياته مجددًا لكنه لم يستطع فهم أهميته، معتقدًا أنه ميت وليس حيًا.

- أنجين سان؟ أنجين سان؟

رأى شفيتها تتحركان وسمع كلماتها لكن جميع حواسه كانت منصبة على المطر والنسيم.

- نعم؟

كان صوته لا يزال بعيدًا لكنه شم رائحة المطر وسمع قطراته وتذوق ملح البحر في الهواء.

قال لنفسه بدهشة: أنا على قيد الحياة. أنا على قيد الحياة وهذا مطر حقيقي بالخارج والرياح حقيقية ومن الشمال. يوجد موقد حقيقي به فحم حقيقي وإذا التقطت الكوب سيكون بداخله سائل حقيقي وسيكون له طعم. أنا لست ميتًا. أنا حي.

جلس الآخرون في صمت ينتظرون بفارغ الصبر، يتعاملون معه برفق تكريماً لشجاعته. لم يسبق لأي رجل في اليابان أن رأى ما رأوه. كان كلٌ منهم يسأل بصمت: ماذا سيفعل أنجين سان الآن؟ هل سيكون قادرًا على الوقوف على قدميه والابتعاد أم ستتركه روحه؟ كيف سأتصرف لو كنت مكانه؟

أحضرت خادمة بصمت ضمادة وربطت يد أومي حيث قطعها السكين بعمق، موقفة تدفق الدماء. كان كل شيء هادئًا جدًا. من وقت لآخر كانت ماريكو تناديه بهدوء وهم يتناولون الشاي أو الساكي، ولكن باعتدال شديد، يستمتعون بالانتظار والمراقبة والتذكر.

بالنسبة لبلاكثورن، بدا أن هذه اللا حياة ستدوم للأبد. ثم رأت عيناه. وسمعت أذناه.

- أنجين سان؟

أجاب من خلال أعظم تعب عرفه على الإطلاق: «نعم».

كررت ماريكو ما قاله أومي كما لو أنه جاء من يابو. كان عليها أن تقول ذلك عدة مرات قبل أن تتأكد من أنه فهم بوضوح.

جمع بلاكتورن آخر قواه، وشعر بحلاوة الانتصار. قال: «كلمتي تكفي، كما أن كلمته تكفي. ومع ذلك سأقسم بالرب كما يريد. نعم. كما سيقسم يابو سان بإلهه بشرف متساوٍ للوفاء بجانبه من الصفة».

- يقول الزعيم يابو أنه موافق، إنه يقسم بالرب بوذا.

أقسم بلاكتورن كما أراد يابو أن يقسم. وتناول بعض الشاي. لم يسبق أن ذاق طعمه بهذه الجودة. بدا الكوب ثقيلًا جدًا ولم يستطع حمله لفترة طويلة. قال وهو يراقب قطرات المطر تتكسر وتختفي، مدهوشًا بوضوح رؤيته غير المتوقع: «المطر رائع، أليس كذلك».

أخبرته بلطف: «نعم».

مدركة أن حواسه كانت على مستوى لم يصل إليه أي شخص آخر لم يذهب بحرية لمواجهة الموت، وعاد من خلال كارما مجهولة، بمعجزة.

- لماذا لا تستريح الآن يا أنجين سان؟ يشكرك الزعيم يابو ويقول إنه سيتحدث معك أكثر غدًا. يجب أن تستريح الآن.

- نعم. شكرًا لك. سيكون ذلك جيدًا.

- هل تعتقد أنك تستطيع الوقوف؟

- نعم أعتقد ذلك.

- يسأل يابو سان عما إذا كنت تريد محفة؟

فكر بلاكتورن في ذلك. في النهاية قرر أن الساموراي سيمشي... سيحاول المشي.

قال: «لا، شكرًا لك».

بقدر ما كان يود الاستلقاء، وأن يُحمل للعودة، وإغلاق عينيه والنوم على الفور. في الوقت نفسه كان يعلم أنه سيشعر بالخوف من النوم بعد، في حالة

كان هذا حلمًا بعد الموت وأن السكين لم يكن موجودًا على الفوتون ولكن لا يزال مدفونًا في جسده الحقيقي، وأن هذه هي الجحيم، أو بداية الجحيم. التقط السكين ببطء وفحصه مستمتعًا بالشعور الحقيقي. ثم وضعه في غمده، كل شيء يستغرق الكثير من الوقت. تتم: «أنا آسف لأنني بطيء جدًا».

قالت ماريكو بفخر، ممثلة بالشرف من أجله: «لا يجب أن تتأسف يا أنجين سان. لقد ولدت من جديد الليلة. هذه حياة أخرى، حياة جديدة. يُعطى القليلون الفرصة للعودة. لا تتأسف. نحن نعلم أنه يتطلب قوة عظيمة. معظم الرجال ليس لديهم ما يكفي من القوة بعد ذلك حتى يقفوا. هل يمكنني مساعدتك؟».

- لا. لا شكرًا لك.

- ليس من العار أن تُساعد. سيشرفني السماح لي بمساعدتك.

- شكرًا لك. لكنني... أريد المحاولة. أولًا.

لكن لم يستطع الوقوف في الحال. كان عليه استخدام يديه للوقوف على ركبتيه ثم كان عليه التوقف للحصول على مزيد من القوة. لاحقًا نهض وتمايل قليلًا. تمايل لكنه لم يسقط.

انحنى يابو وماريكو وأومي وإيجوراشي.

مشى بلاكتورن مثل الثمل في الخطوات القليلة الأولى. تمسك بعمود ووقف للحظة. ثم بدأ من جديد. تعثر لكنه كان يبتعد، وحده. كرجل. أبقى يده على السيف الطويل في حزامه وكان رأسه مرفوعًا.

زفر يابو وشرب الساكي بعمق. عندما تمكن من التحدث قال لماريكو: «رجاءً اتبعيه. تأكدي من وصوله إلى المنزل بأمان».

- حسنًا يا سيدي.

التفت يابو إلى إيجوراشي عندما ذهبت وقال: «يا أيها الأحق عديم الفائدة».

انحنى إيجوراشي برأسه على الفور على البساط في توبة.

- قلت تهديدًا فارغًا، أليس كذلك؟ كاد غباؤك يكلفني كنزًا لا يقدر بثمن.

- نعم يا سيدي، أنت على حق يا سيدي. أطلب الإذن بإنهاء حياتي على الفور.

- سيكون ذلك جيدًا جدًا بالنسبة لك، اذهب وعش في الإسطبلات حتى أستدعيك. نم مع الخيول الغبية. أنت أحمق برأس حصان.

- حسنًا يا سيدي. أنا أعتذر يا سيدي.

- اخرج، سيتولى أومي سان قيادة البنادق الآن. اخرج.

ومضت الشموع وتراقصت ألسنة اللهب. سكبت إحدى الخادومات قطرة صغيرة من الساكي على الطاولة الصغيرة المطلية بالورنيش أمام يابو فلعلها ببلاغة. اعتذر الآخرون على الفور. سمح لهم بتهدئته وقبل المزيد من النبيذ. قال: «تهديد فارغ؟ قال إنه تهديد فارغ. يا له من أحمق! لماذا أنا محاط بالأغبياء؟».

لم يقل أومي شيئًا، لكنه كان يضحك داخليًا.

- لكنك لست أحمق يا أومي سان. نصيحتك قيمة. سأضاعف إقطاعيتك من اليوم. ستة آلاف كوكو. للعام القادم. خذ ثلاثين ري حول أنجيرو كإقطاعية لك.

انحنى أومي للفوتون. فكر بازدراء: يستحق يابو الموت، إنه يسهل التلاعب به. قال: «لا أستحق شيئًا يا سيدي. قمت بواجبي فقط».

- نعم. لكن يجب على الزعيم الإقطاعي مكافأة الإخلاص والواجب.

كان يابو يرتدي سيف يوشيتومو الليلة. كان لمسّه يعطيه متعة كبيرة. نادى أحد الخدم: «سوزو، استدع زوكيموتو هنا».

سأل أومي: «متى ستبدأ الحرب؟».

- هذا العام. ربما يكون لديك ستة أشهر، وربما لا. لماذا؟

- ربما يجب أن تبقى السيدة ماريكو أكثر من ثلاثة أيام. لحمايتك.

- لماذا؟

- هي لسان أنجين سان. خلال نصف شهر -معها- يمكنه تدريب عشرين رجلًا يمكنهم تدريب مائة يمكنهم تدريب البقية. ثم لا يهم سواء عاش أم مات.

- لماذا يموت؟

- ستستدعي أنجين سان مجدداً، في التحدي التالي أو الذي يليه يا سيدي. قد تكون النتيجة مختلفة في المرة القادمة، من يدري؟ قد تريد قتله.
- كلا الرجلين يعرف، كما كان يعرف إيجوراشي وماريكو أن قسم يابو بأي إله كان بلا معنى، وبالطبع لم يكن ينوي الوفاء بأي وعد. أضاف: «قد ترغب في الضغط عليه. فما الفائدة من الجثة فور حصولك على المعلومات؟».
- لا شيء.
- عليك أن تتعلم استراتيجية الحرب الهمجية ولكن يجب أن تفعل ذلك بسرعة. قد يستدعيه الزعيم تورانا، لذلك يجب أن تحتفظ بالمرأة لأطول فترة ممكنة. يجب أن يكون نصف شهر كافياً لاستخراج كل ما يعرفه من ذهنه، الآن بعد أن حظيت على انتباهه الكامل. سيتعين عليك التجربة وتكييف أساليبهم لتناسب مع طرقنا. نعم، سيستغرق ذلك نصف شهر على الأقل. أليس كذلك؟
- وماذا عن تورانا، سان؟
- سيوافق إذا طُرح عليه الأمر بشكل صحيح عليه يا سيدي. يجب عليه ذلك. البنادق ملكه بقدر ما هي ملكك. واستمرار وجودها هنا له قيمة بطرق أخرى.
- قال يابو برضا، حيث خطرت له فكرة احتجازها كرهينة أيضاً على السفينة عندما كان يخطط لتقديم تورانا كضحية لإيشيدو: «نعم، يجب حماية تودا ماريكو بالتأكيد. سيكون الأمر سيئاً إذا وقعت في أيدي الشر».
- نعم. وربما يمكن أن تكون وسيلة للتحكم في هيرو ماتسو وبونتارو وعشيرتهم بأكملها، حتى تورانا.
- صغ الرسالة عنها.
- قال أومي عرضياً: «لقد سمعت والدتي من إيدو اليوم يا سيدي. طلبت مني أن أخبرك أن السيدة جينجيكو قدمت لتورانا حفيده الأول».
- أصبح يابو منتبهاً على الفور. حفيد تورانا! هل يمكن التحكم في تورانا من خلال هذا الرضيع؟ حفيد يضمن سلالة تورانا، أليس كذلك؟ كيف يمكنني الحصول على الرضيع كرهينة؟ سأل: «ماذا عن أوتشيبا، السيدة أوتشيبا؟».

- لقد غادرت إيدو مع جميع حاشيتها. قبل ثلاثة أيام. الآن هي في أمان في إقليم الزعيم إيشيدو.

فكر يابو في أوتشيبا وأختها جينجيكو. كم هما مختلفتان جدًا! أوتشيبا حيوية وجميلة وماكرة وعنيدة، المرأة الأكثر رغبة في الإمبراطورية وأم الوريث. أما جينجيكو أختها الصغرى فهي هادئة ومتألمة وذات وجه مسطح وبسيط مع قسوة كانت أسطورة حتى الآن، والتي ورثتها من والدتها التي كانت إحدى شقيقات جورودا. أحببت الأختان بعضهما بعضًا، لكن أوتشيبا كرهت توراناغا ونسله، بينما كرهت جينجيكو التايكو ويامون ابنه. تساءل يابو مجددًا كما تساءل جميع الداياميو سرًا لسنوات: هل حقًا كان التايكو هو والد ابن أوتشيبا. ما الذي لن أقدمه لأعرف الإجابة عن ذلك. ما الذي لن أقدمه لأمتلك تلك المرأة.

قال يابو بتردد: «الآن بعد أن لم تعد السيدة أوتشيبا رهينة في إيدو... قد يكون هذا جيدًا وسيئًا، أليس كذلك؟».

- جيد، جيد فقط. الآن يجب أن يبدأ إيشيدو وتوراناغا قريبًا جدًا. يجب أن تبقى السيدة ماريكو، لحمايتك.

حذف أومي عن عمد لقب «ساما» من هذين الاسمين.

- اعتنِ بالأمر. اكتب الرسالة لإرسالها إلى توراناغا.

طرق سوزو الخادم على الباب بحذر وفتح الباب. دخل زوكيموتو إلى الغرفة: «سيدي؟».

- أين كل الهدايا التي أمرت بإحضارها من ميشيما لأومي سان؟

- كلها في المستودع يا سيدي. ها هي القائمة. يمكن اختيار الحصانين من الإسطبلات. هل تريدني أن أفعل ذلك الآن؟

- لا. سيختارهم أومي سان غدًا.

ألقي يابو نظرة على القائمة المكتوبة بعناية: «عشرون كيمونو (من الجودة الثانية)، سيفان ودرع واحد (مرمم ولكن في حالة جيدة)، حصانان وأسلحة لمائة ساموراي. سيف واحد وخوذة ودرع صدري وقوس وعشرون سهماً ورماح لكل رجل (أفضل جودة). القيمة الإجمالية: أربعمائة وستة وعشرون كوكو. أيضًا الصخرة المسماة بـ «حجر الانتظار» القيمة: لا تقدر بثمن».

قال بمزاج أفضل متذكراً تلك الليلة: «نعم، الصخرة التي وجدتھا في كيوشو. كنت ستعيد تسميتها «الهمجي المنتظر»، أليس كذلك؟».

قال أومي: «نعم يا سيدي، إذا كان ذلك لا يزال يرضيك. لكن هل يمكنك تشريفي غداً بتحديد المكان الذي يجب أن توضع فيه في الحديقة؟ لا أعتقد أنه يوجد مكاناً جيداً بما فيه الكفاية».

- غداً سأقرر. نعم.

ترك يابو عقله يستقر على الصخرة، وعلى تلك الأيام البعيدة مع سيده المحترم التايكو، وأخيراً على ليلة الصراخ. تسرب الحزن إليه. فكر: الحياة قصيرة ومحزنة وقاسية. نظر إلى سوزو. ابتسم الخادم بتردد، كان ذا وجهه بيضاوي نحيف ورقيق للغاية مثل الاثنين الآخرين. أحضروا الثلاثة بواسطة محفة من منزله في ميشيما. الليلة كانوا جميعاً حفاة الأقدام ويرتدون كيمونو من أجود أنواع الحرير، وكانت بشرتهم بيضاء جداً. تأمل: غريب كيف يمكن للصبية أن يكونوا بهذه الرشاقة، وأكثر أنوثة وجاذبية من الفتيات من نواحٍ عديدة. ثم لاحظ زوكيموتو وقال: «ماذا تنتظر؟ هاه؟ اخرج».

نهض زوكيموتو بتثاقل وجسده يتصبب عرقاً وهرع بعيداً بامتنان: «حسناً يا سيدي. طلبت مني أن أذكرك بالضرائب يا سيدي».

قال يابو: «ستضاعف كل الضرائب دفعة واحدة يا أومي سان».

- حسناً يا سيدي.

- الفلاحون القذرون! لا يعملون بجد كافٍ. إنهم كسالى... جميعهم. أحافظ على الطرق آمنة من اللصوص، والبحار آمنة، وأمنحهم حكومة جيدة، فماذا يفعلون؟ يقضون الأيام في شرب الشاي والساكي وأكل الأرز. حان الوقت لكي يتحمل فلاحو بلدي مسؤولياتهم.

قال أومي: «نعم يا سيدي».

بعد ذلك انتقل يابو إلى الموضوع الذي استحوذ على عقله: «أذهلني أنجين سان الليلة. لكنه لم يذهلك أنت؟».

- نعم أذهلني يا سيدي. أكثر منك. لكن كنت حكيماً في جعله يلتزم بكلمته.

- أنت تقول إن إيجوراشي كان على حق؟

- لقد كنت معجبًا بحكمتك فقط يا سيدي. كان عليك أن تقول له «لا» في وقت ما. أعتقد أنك كنت حكيماً جداً في قول ذلك الآن، الليلة.
- اعتقدت أنه قتل نفسه. نعم. أنا سعيد لأنك كنت مستعداً. لقد خططت لأن تكون مستعداً. أنجين سان رجل استثنائي، بالنسبة لهمجي، أليس كذلك؟ إنه لأمر مؤسف أنه همجي وساذج للغاية.
- نعم.

تثاءب يابو. قبل الساكي من سوزو وقال: «نصف شهر، كما تقول؟ يجب أن تبقى ماريكو سان على الأقل تلك المدة يا أومي سان. ثم سأقرر بشأنها، وبشأنه. يجب أن يتعلم درساً آخر قريباً».

ضحك كاشفاً عن أسنانه السيئة وأضاف: «إذا كان أنجين سان يعلمنا، فيجب أن نعلمه، أليس كذلك؟ يجب أن يتعلم السيوكو بطريقة صحيحة. سيكون ذلك شيئاً يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟ اعتنِ بالأمر. نعم، أوافق على أن أيام الهمجي باتت معدودة».

الفصل الثاني والثلاثون

وصل الرسول من أوساكا في الظهرية بعد اثني عشر يومًا. رافقه موكب مكون من عشرة ساموراي. كانت خيولهم مغطاة بالعرق وعلى وشك الموت. الأعلام على رؤوس حرابهم تحمل رمز مجلس الوصاية القوي. الجو حارٌ وغائمٌ ورطبٌ.

كان الرسول ساموراي نحيفًا وقويًا من رتبة عليا، واحدًا من كبار مساعدي إيشيدو. اسمه نيبارا جوزين ومعروفًا بقسوته. كان زيه الكيمونو الرمادي ممزقًا وملطخ بالطين، وعيناه حمراوان من الإرهاق. رفض الطعام أو الشراب وطالب بوقاحة مقابلة فورية مع يابو.

قال: «اعذر مظهري يا يابو سان، لكنّ لديّ أمرًا عاجلاً. نعم، أطلب عفوك. يقول سيدي: أولًا لماذا تدرب جنود توراناغا مع جنودك، وثانيًا لماذا يتدربون باستخدام هذا العدد الكبير من البنادق؟».

احمر وجه يابو من وقاحته لكنه حافظ على هدوئه، مدرّكًا أن جوزين ستكون لديه تعليمات محددة وأن مثل هذا السلوك الفظ يدل على وضع غير مرغوب من السلطة. كما أنه شعر بالقلق الشديد لوجود تسريب آخر في أمنه.

قال بأدب لم يخدع أيًا من الحاضرين: «أنت مرحب بك جدًّا يا جوزين سان. يمكنك أن تطمئن سيدك أنني دائمًا ما أضع مصالحه في الحسبان».

كانوا على الشرفة في القلعة. جلس أومي خلف يابو مباشرة. بينما إيجوراشي الذي عُفي عنه قبل أيام قليلة كان أقرب إلى جوزين، وكانوا محاطين بحراس مقربين. سأل: «ماذا يقول سيدك أيضًا؟».

أجاب جوزين: «سيكون سيدي سعيدًا لأن مصالحك هي مصالحه. الآن بخصوص البنادق والتدريب: يرغب سيدي في معرفة سبب كون ناجا -ابن توراناغا- هو القائد الثاني. القائد الثاني في ماذا؟ يسأل الزعيم إيشيدو بأدب: ما الأمر المهم جدًّا لدرجة أن يكون ابن توراناغا هنا. هذا الأمر يهمه. نعم. كل

ما يفعله حلفاؤه يهمه. لماذا على سبيل المثال يبدو أن الهمجي مسؤول عن التدريب؟ تدريب ماذا؟ نعم يا يابو ساما، هذا مثير للاهتمام أيضًا».

حرك جوزين سيوفه ليشعر بمزيد من الراحة، سعيدًا لأن ظهره محميًا من قبل رجاله. أضاف: «التالي: يجتمع مجلس الوصاية مجددًا في اليوم الأول من القمر الجديد. في غضون عشرين يومًا. أنت مدعو رسميًا إلى أوساكا لتجديد قسم ولاتك».

اضطربت معدة يابو: «اعتقدت أن توراناغا ساما قد استقال؟».

- نعم يا يابو سان، استقال بالتأكيد. لكن الزعيم إيتو تيروزومي سيحل مكانه. وسيصبح سيدي الرئيس الجديد للمجلس.

شعر يابو بالذعر. كان توراناغا قد قال إن الأوصياء الأربعة لن يتفقوا أبدًا على خامس. كان إيتو تيروزومي دايميو صغيرًا من مقاطعة نيجاتو في غرب هونشو، لكن عائلته كانت عريقة، تنحدر من سلالة فوجيموتو، لذلك سيكون مقبولًا كوصي، رغم أنه كان رجلًا ضعيفًا ومخنثًا ودمية. قال يابو بدفاعية محاولًا كسب الوقت للتفكير: «سيكون لي الشرف في تلقي دعوتهم».

- اعتقد سيدنا أنك قد ترغب في المغادرة على الفور. ثم ستكون حينها في أوساكا لحضور الاجتماع الرسمي. يأمرني أن أخبرك أن جميع الداييميو يحصلون على الدعوة نفسها. الآن. لذلك سيكون لدى الجميع فرصة للوجود هناك في الوقت المناسب في اليوم الحادي والعشرين. سُمح بإقامة حفل مشاهدة الزهور من قبل جلالة الإمبراطور جو نيجو، لتكريم هذه المناسبة.

قدم له جوزين لفافة رسمية.

- هذه ليست تحت ختم مجلس الوصاية.

- لقد أصدر سيدي الدعوة الآن، مدرّكًا أنه بصفته تابعًا مخلصًا للتايكو الراحل وبصفته تابعًا مخلصًا ليايمون ابنه ووريثه والحاكم الشرعي للإمبراطورية عندما يبلغ سن الرشد، فإنك ستفهم أن المجلس الجديد سيوافق بالتأكيد على فعله. أليس كذلك؟

كافح يابو للتحكم في تعبيرات وجهه: «سيكون بالتأكيد امتيازًا أن أشهد الاجتماع الرسمي».

قال جوزين: «جيد».

أخرج لفافة أخرى وفتحها ورفعها قائلاً: «هذه نسخة من خطاب تعيين الزعيم إيتو، مقبولة وموقعة ومصدق عليها من قبل الأوصياء الآخرين، الزعيم إيشيدو وكياما وأونوشي والزعيم سوجياما».

لم يكلف جوزين نفسه عناء إخفاء نظرة الانتصار، مدرِّكاً أن هذا أغلق الفخ تماماً على توراناغا وأيّ من حلفائه، وأن اللفافة جعلته هو ورجاله أيضاً محصنين.

أخذ يابو المخطوطة. ارتجفت أصابعه. لا يوجد شك في صحتها. لقد صدق على توقيعها من قبل السيدة يودوكو زوجة التايكو التي أكدت أن الوثيقة حقيقة وموقعة بحضورها، واحدة من ست نسخ أرسلت في جميع أنحاء الإمبراطورية، وأن هذه النسخة بالتحديد كانت موجهة إلى زعماء إيوارى وميكاوا وتوتومي وسوجورا وإيزو والكانتو. كانت مؤرخة قبل أحد عشر يوماً.

- لقد قبلها زعماء إيوارى وميكاوا وسوروجا وتوتومي بالفعل. هذه هي أختامهم. أنت قبل الأخير في قائمتي. الأخير هو الزعيم توراناغا.

قال يابو: «رجاء اشكر سيدك وأخبره أنني أتطلع إلى الترحيب به وتهنئته».

- جيد. سأحتاج ذلك كتابياً. الآن سيكون مناسباً.

- هذا المساء يا جوزين سان. بعد وجبة المساء.

- حسناً. والآن يمكننا الذهاب ورؤية التدريب.

قال يابو: «لا يوجد تدريب اليوم. جميع رجالي في مسيرات قسرية».

أرسل الخبر إلى يابو في اللحظة التي دخل فيها جوزين ورجاله إلى إيزو، وأمر على الفور رجاله بوقف إطلاق النار والاستمرار فقط في التدريب على الأسلحة الصامتة بعيداً عن أنجيرو. أضاف: «غداً يمكنك القدوم معي في الظهيرة، إذا رغبت».

نظر جوزين إلى السماء. كان الوقت بعد الظهيرة الآن: «جيد. أحتاج إلى قسط من الراحة. لكنني سأعود عند الغسق بعد إذنك. ثم ستخبرني أنت وقائدك أومي سان، والقائد الثاني ناجا سان من أجل مصلحة سيدنا عن التدريب والبنادق وكل شيء. وعن الهمجي».

- إنه... نعم. بالطبع.

ثم أشار يابو إلى إيجوراشي وقال: «رتب الغرف لضييفنا الكريم ورجاله». قال جوزين على الفور: «شكرًا لك لكن هذا ليس ضروريًا. الأرض تكفي كفراش للساموراي، وسرجي يكفي كوسادة. أحتاج لحمام فقط إذا سمحت... هذه الرطوبة، أليس كذلك؟ سأخيم على القمة... بالطبع بعد إذنك».

- كما يحلو لك.

انحنى جوزين بتصنع وابتعد محاطًا برجاله. كان جميعهم مسلحين بالكامل. ترك اثنان من الرماة يمسكان بخيولهما.

حالما ابتعدوا بما فيه الكفاية، تشوه وجه يابو بالغضب: «من خانني؟ من؟ أين الجاسوس؟».

كان إيجوراشي شاحبًا بالقدر نفسه وأشار للحراس بالابتعاد عن نطاق السمع. قال: «إيدو يا سيدي. بالتأكيد. الأمن مثالي هنا».

قال يابو وكاد يمزق ملابسه: «يا إلهي، أنا خُذِعت. نحن معزولون. إيزو والكانتو معزولتان. انتصر إيشيدو. لقد انتصر».

قال أومي بسرعة: «ليس قبل عشرين يومًا يا سيدي. أرسل رسالة على الفور إلى الزعيم توراناغا. أبلغه بأن...».

هسهس يابو: «أحمق! بالطبع يعرف توراناغا بالفعل. في حين لدي جاسوس واحد، لديه هو خمسون. لقد تركني في الفخ».

قال أومي بغير خوف: «لا أعتقد ذلك يا سيدي، إيواري وميكاوا وتوتومي وسوجورا كلهم عدائيون تجاهه، أليس كذلك؟ وتجاه أي شخص متحالف معه. لن يحذروه أبدًا، لذا ربما لا يعرف بعد. أبلغه واقترح...».

صاح يابو: «ألم تسمع؟ يوافق جميع الأوصياء الأربعة على تعيين إيتو، لذا أصبح المجلس قانونيًا مجددًا وسيجتمع المجلس في غضون عشرين يومًا».

- الإجابة عن ذلك بسيطة يا سيدي. اقترح على توراناغا أن يغتال إيتو تيروزومي أو أحد الأوصياء الآخرين على الفور.

فغر فاه يابو: «ماذا؟».

- إذا كنت لا ترغب في فعل بذلك، أرسلني، دعني أجرب. أو إيجوراشي سان. سيصبح إيشيدو عاجزًا مجددًا بموت الزعيم إيتو.

قال يابو بعجز: «لا أعلم ما إذا كنت قد جنت أم ماذا. هل تفهم ما قلتها للتو؟».

- أتوسل إليك يا سيدي، رجاءً تحلّ بالصبر معي. أعطاك أنجين سان معرفة لا تقدر بثمن، أليس كذلك؟ أكثر مما حلّمنا به على الإطلاق. الآن يعرف توراناها هذا أيضًا من خلال تقاريرك، وربما من تقارير ناجا سان السرية. إذا استطعنا كسب الوقت الكافي، فإنّ بنادقنا الخمسمائة والثلاثمائة الأخرى ستمنحك قوة قتالية مطلقة، ولكن مرة واحدة فقط. عندما يرى العدو -أيًا كان- الطريقة التي تستخدم بها الرجال وقوة النيران سيتعلم بسرعة. لكنهم سيخسرون تلك المعركة الأولى. معركة واحدة -إذا كانت المعركة الصحيحة- ستمنح توراناها النصر التام.
- لا يحتاج إيشيدو إلى أي معركة. سيحصل على تفويض الإمبراطور في غضون عشرين يومًا.

- إيشيدو فلاح. إنه ابن فلاح كاذب ويهرب من رفاقه في المعركة. حدّق يابو في أومي، ووجهه مبقع: «أنت... هل تعرف ما الذي تقوله؟».
- هذا ما فعله في كوريا. كنت هناك. رأيته ورآه والدي كذلك. تركنا إيشيدو نحن وبونتارو سان لنقاتل طريقنا للخروج. إنه مجرد فلاح خائن، كلب التايكو بالتأكيد. لا يمكنك الوثوق بالفلاحين. لكن توراناها من مينووارا. يمكنك الوثوق به. أنصحك بالنظر فقط في مصالح توراناها.
- هز يابو رأسه بعدم تصديق: «هل أنت أصم؟ ألم تسمع نيبارا جوزين؟ انتصر إيشيدو. سيتولى المجلس الحكم في غضون عشرين يومًا».

- ربما يتولى الحكم.
- حتى لو كان إيتو... كيف يمكنك؟ هذا غير ممكن.
- بالتأكيد يمكنني المحاولة ولكن لا يمكنني أبدًا القيام بذلك في الوقت المناسب. لا يمكن لأحد منا، ليس قبل عشرين يومًا. لكن توراناها يمكنه ذلك.

علم أومي أنه وضع نفسه في فك التنين: «أتوسل إليك أن تأخذ هذا بعين الاعتبار».

مسح يابو وجهه بيديه، وكان جسده مبتلًا. قال: «إذا عُقد اجتماع المجلس ولم أكن حاضرًا بعد هذا الاستدعاء، فسأكون أنا وكل عشيرتي أمواتًا، بما

في ذلك أنت. أحتاج إلى شهرين على الأقل لتدريب الكتيبة. حتى لو كنا قد دربناهم الآن فلن نتمكن أنا وتوراناجا من الانتصار على الجميع. لا، أنت مخطئ، يجب أن أؤيد إيشيدو».

قال أومي: «لا يتعين عليك مغادرة أوساكا قبل عشرة أيام... أربعة عشر يومًا إذا ذهبت بمسيرة إجبارية. أخبر توراناجا عن نيبارا جوزين على الفور. ستنقذ إيزو وعائلة كاسيجي. رجاءً. سيخونك إيشيدو ويقضي عليك. إن إيكأوا جيكيو قريبه، أليس كذلك؟».

صاح إيجوراشي: «ولكن ماذا عن جوزين؟ والبنادق؟ والخطة الكبرى؟ إنه يريد معرفة كل شيء الليلة».

قال أومي: «أخبره. بالتفصيل. ما هو إلا تابع. أفصح له عن خطتك».

بدأ في التلاعب بهم. عرف أنه يخاطر بكل شيء لكن كان عليه محاولة حماية يابو من التحالف مع إيشيدو وتدمير أي فرصة لديهم.

عارض إيجوراشي بشدة: «في اللحظة التي يكتشف فيها جوزين ما نقوم به، سيرسل رسالة إلى الزعيم إيشيدو. إنه أمر مهم للغاية. سيستولي إيشيدو على الخطط وسيقضى علينا».

- سنطارد الرسول ونقتله متى شئنا.

احمرَّ وجه يابو: «تلك اللقافة كانت موقعة من قبل أعلى سلطة في البلاد. يسافرون جميعًا تحت حماية الأوصياء. يجب أن تكون مجنونًا لتقترح مثل هذا الشيء. سيجعلني ذلك خارجًا عن القانون».

هز أومي رأسه محافظًا على وجهه واثقًا: «أعتقد أن يودوكو ساما والآخرين قد خُدِعوا، كما خُدِعَ جلالته الإمبراطور من قبل الخائن إيشيدو. يجب أن نحمي البنادق يا سيدي. يجب أن نوقف أي رسول...».

- اصمت. نصيحتك جنونية.

انحنى أومي تحت وطأة الكلمات. لكنه رفع رأسه وقال بهدوء: «إن رجاءً اسمح لي بالقيام بالسيبوكو يا سيدي. ولكن أولاً رجاءً اسمح لي بالانتهاء. سأفشل في واجبي إذا لم أحاول حمايتك. أطلب منك هذا الطلب الأخير بصفتي تابعًا مخلصًا».

- أكمل.

- لا يوجد مجلس وصاية الآن، لذلك لا يوجد حماية قانونية الآن لذلك الوقح

جوزين ورجاله إلا إذا كنت ستلتزم بوثيقة غير قانونية من خلال...

كان أومي سيقول «الضعف» لكنه غير الكلمة وحافظ على صوته هادئاً بثقة: «... من خلال أن تكون مخدوعاً مثل الآخرين يا سيدي. لا يوجد مجلس. لا يمكنهم «أمر» بفعل أي شيء أو أمر أي شخص. يمكنهم ذلك فور انعقاده، نعم، وعندها سيكون عليك الطاعة. ولكن الآن، كم عدد الداييميو الذين سيطيعون قبل إصدار الأوامر القانونية؟ فقط حلفاء إيشيدو، أليس كذلك؟ أليس إيواري وميكاوا وتوتومي وسوجورا يحكمهم أقاربه ويتحالفون معه علناً؟ هذه الوثيقة تعني الحرب بالتأكيد، نعم، لكنني أرجو أن تخوضها بشروطك وليس بشروط إيشيدو. تعامل مع هذا التهديد بالازدراء الذي يستحقه. لم يهزم توراناغا قط في معركة. لكن إيشيدو هُزم. تجنب توراناغا أن يكون جزءاً من الهجوم المدمر الذي شنّه التايكو على كوريا. بينما إيشيدو لم يفعل ذلك. إن توراناغا يدعم السفن والتجارة. وإيشيدو لا يدعم. سيريد توراناغا الحصول على الأسطول البحري الهمجى، ألم تقترح عليه الأمر؟ وإيشيدو لن يريد. سيغلق إيشيدو الإمبراطورية. بينما سيبقيها توراناغا مفتوحة. سيمنح إيشيدو إقطاعك الوراثة إيزو وإيكاوا جيكيو إذا انتصر. بينما سيمنحك توراناغا مقاطعة جيكيو بأكملها. أنت حليف توراناغا الرئيسي. ألم يعطك سيفه؟ ألا يمنحك السيطرة على البنادق؟ ألا تضمن البنادق انتصاراً واحداً، بالمفاجأة؟ ماذا يقدم لك الفلاح إيشيدو في المقابل؟ إنه يرسل لك رونين ساموراي بلا أخلاق، مع أوامر متعمدة لإهانتك في إقطاعك الخاص. أقول إن توراناغا مينووارا هو خيارك الوحيد. يجب أن تقف معه».

انحنى وانتظر بصمت.

نظر يابو إلى إيجوراشي: «إذن؟».

أجاب إيجوراشي ووجهه يعكس قلقه: «أنا أوافق مع أومي سان يا سيدي. أما بالنسبة لقتل رسول... فسيكون ذلك خطراً، لا رجعة فيه بعد ذلك يا سيدي. من المؤكد أن جوزين سيرسل واحداً أو اثنين غداً. ربما يمكنهم أن يختفوا، يُقتلوا على يد قطاع طرق...». توقف في منتصف الجملة ثم تابع: «الحمام الزاجل. كانت توجد سلتان منهم على خيول جوزين».

قال أومي: «يجب أن نسम्मهم الليلة».

- كيف؟ سيكونون محميين.

- لا أعلم. ولكن يجب أن نتخلص منهم أو تشويههم قبل الفجر.

قال يابو: «أرسل رجالاً لمراقبة جوزين فوراً يا إيجوراشي. تأكد مما إذا كان سيرسل أحد حماماته الآن... اليوم».

أضاف أومي بسرعة: «أقترح أن ترسل جميع صقورنا والصيادين إلى الشرق، فوراً».

قال إيجوراشي: «سيشتبه في وجود خيانة إذا رأى طائرته يسقط، أو أنه عُثِث بطيوره».

هز أومي كتفيه: «يجب إيقافه».

نظر إيجوراشي إلى يابو.

أوماً يابو بتردد: «افعل ذلك».

عندما عاد إيجوراشي قال: «خطر لي أمرٌ يا أومي سان. الكثير مما قلته كان صحيحاً، بشأن جيكيو والزعيم إيشيدو. ولكن إذا كنت تنصح بجعل الرسل «يختفون»، فلماذا التلاعب بجوزين من الأساس؟ لماذا تخبره بأي شيء؟ لماذا لا تقتلهم جميعاً دفعة واحدة؟».

قال أومي: «لمَ لا؟ إلا إذا كان ذلك سيسعد يابو ساما. أوافقك الرأي بأن خطتك أفضل يا إيجوراشي سان».

كان الرجلان ينظران إلى يابو الآن. سألهما: «كيف يمكنني الحفاظ على سرية البنادق؟».

أجاب أومي: «اقتل جوزين ورجاله».

- ألا توجد طريقة أخرى؟

هز أومي رأسه. وهز إيجوراشي رأسه.

قال يابو وهو يرتجف محاولاً التفكير في طريقة للخروج من الفخ: «ربما يمكنني المساومة مع إيشيدو. أنت على حق بشأن الوقت. لدي عشرة أيام، أربعة عشر على الأكثر. كيف أتعامل مع جوزين وأترك وقتاً كافياً للمناورة؟».

قال أومي: «سيكون من الحكمة التظاهر بأنك ذاهب إلى أوساكا. ولكن لا ضرر من إبلاغ توراناغا على الفور، أليس كذلك؟ يمكن لأحد حمامنا الزاجل أن يصل إلى إيدو قبل غروب الشمس. ربما. لا ضرر في ذلك».

قال إيجوراشي: «يمكنك إخبار الزعيم تورانا جا عن وصول جوزين، وعن اجتماع المجلس بعد عشرين يومًا، نعم. ولكن الرسالة الآخري، عن اغتيال الزعيم إيتو، هذا أمر خطِر جدًا لكتابتته حتى لو... خطِر جدًا، أليس كذلك؟».

- أوافقك الرأي. لا تقول شيئًا عن إيتو. يجب أن يفكر تورانا جا في ذلك بنفسه. إنه واضح، أليس كذلك؟

- نعم يا سيدي. غير وارد ولكن واضح.

انتظر أومي في الصمت وعقله يبحث باهتياج عن حل. كانت عينا يابو عليه لكنه لم يكن خائفًا. نصائحه كانت منطقية ومقدمة فقط لحماية العشيرة والعائلة ويابو زعيم العشيرة الحالي. ولم يمنعه قرار أومي بإزاحة يابو وتغيير القيادة من تقديم المشورة ليابو بحكمة. وكان مستعدًا للموت الآن. إذا كان يابو غيبًا لدرجة عدم تقبله الحقيقة الواضحة لأفكاره، فلن تكون هناك عشيرة ليقودها قريبًا على أي حال. كارما.

انحنى يابو إلى الأمام وهو لا يزال مترددًا: «هل هناك أي طريقة لإزالة جوزين ورجاله دون أن أتعرض للخطر، والبقاء غير ملتزم لمدة عشرة أيام؟».

قال أومي ببساطة: «ناجا. اجعل ناجا طعمًا للفخ بطريقة ما».

عند الغسق، وصل بلاكتورن وماريكو إلى بوابة منزله، وتبعهما فرسان. كان كلاهما متعبًا. كانت تمتطي الحصان كالرجل، مرتدية سروالًا واسعًا وفوقه عباءة بحزام. كانت تعتمر قبعة ذات حواف واسعة وقفازات لحماية نفسها من الشمس. حتى النساء الفلاحات كن يحاولن حماية وجوههن وأيديهن من أشعة الشمس. فمنذ زمن بعيد، كلما كانت البشرة أغمق كان الشخص عاديًا، وكلما كانت أكثر بياضًا كانت أكثر قيمة.

أخذ الخدم الذكور الأرسنة وقادوا الخيول بعيدًا. صرف بلاكتورن حراسه بعبارات يابانية مقبولة ورحب بفوجيكو التي كانت تنتظره بفخر على الشرفة كالمعتاد.

قالت رسميًا كالمعتاد: «هل يمكنني تقديم بعض الشاي لك يا أنجين سان؟».

فأجاب كالمعتاد: «لا. سأستحم أولًا. ثم سأشرب الساكي وأتناول بعض الطعام».

وكالعادة بادلها الانحناء وسار عبر الممر إلى الجزء الخلفي من المنزل، إلى الحديقة، ثم على طول المسار الدائري إلى الحمام المبني من الطين. أخذ خادم ملابسه ودخل وجلس عاريًا. ثم فرك خادم آخر جسده بالصابون وغسل رأسه ثم سكب عليه الماء لإزالة الرغوة والأوساخ. ثم دخل تدريجيًا -لأن الماء كان ساخنًا جدًا- في الحمام الضخم ذي الجوانب الحديدية واستلقى بعد أن أصبح نظيفًا.

هتف مغتبطًا: «يا إلهي، هذا رائع».

وترك الحرارة تتسرب إلى عضلاته، وأغلق عينيه والعرق يتصبب من جبينه.

سمع الباب يفتح وصوت سوو يقول: «مساء الخير يا سيدي». يتبعها الكثير من الكلمات اليابانية التي لم يفهمها. لكنه كان متعبًا جدًا الليلة ليحاول التحدث مع سوو. وكما شرحت ماريكو مرارًا: «الاستحمام ليس مجرد تنظيف للجلد. الاستحمام هدية لنا من الرب أو الآلهة، متعة ممنوحة من الآلهة يجب الاستمتاع بها والتعامل معها على هذا النحو».

قال: «لا أريد الحديث يا سوو. الليلة يريد التفكير».

- حسنًا يا سيدي. معذرة ولكن يجب أن تقول: الليلة أريد التفكير.

- الليلة أريد التفكير.

كرر بلاكتورن اليابانية الصحيحة، محاولًا إدخال الأصوات غير المفهومة تقريبًا في رأسه، سعيدًا بأن يُصحح ولكنه ضجر من ذلك.

كان قد سأل ماريكو في الصباح الباكر: «أين كتاب القاموس والقواعد؟ هل أرسل يابو ساما طلبًا آخر للحصول عليه؟».

- نعم. رجاءً كن صبورًا يا أنجين سان. سيصل قريبًا.

- لقد وُعدت بوصوله مع السفينة والقوات. لكنه لم يصل. وصلت القوات والبنادق ولكن لا كتب. أنا محظوظ بوجودك هنا. كان الأمر سيكون مستحيلًا دونك.

- صعب ولكن ليس مستحيلًا يا أنجين سان.

- كيف أقول: «لا، أنتم تفعلونها بشكل خاطئ. يجب أن تركزوا جميعًا كفريق واحد، وتتوقفوا كفريق واحد، وتصوبوا وتطلقوا كفريق واحد؟».

سألت: «لمن توجه حديثك يا أنجين سان؟».

ثم شعر مجددًا بإحباطه يتزايد: «كل شيء صعب للغاية يا ماريكو سان».

- أوه، لا يا أنجين سان. اليابانية بسيطة جدًا في التحدث مقارنة باللغات الأخرى. لا توجد أدوات تعريف ولا «ال». لا توجد تصرفات للأفعال أو صيغة المصدر. جميع الأفعال منتظمة وتنتهي بـ«ماس»، ويمكنك قول تقريبًا كل شيء باستخدام الزمن الحاضر فقط إذا أردت. بالنسبة للسؤال، فقط أضف «كا» بعد الفعل. للنفي فقط غير «ماس» إلى «ماسن». ما الذي يمكن أن يكون أسهل؟ يوكيماسو تعني «أنا أذهب»، ولكنها تعني أيضًا أنت «تذهب» وهو وهي ونحن وهم و«سيذهبون» أو حتى «قد ذهبوا». حتى الأسماء في الجمع والمفرد هي نفسها. تسوما تعني زوجة أو زوجات. بسيط جدًا.

- حسنًا، كيف يمكنك معرفة الفرق بين يوكيماس «أنا أذهب» ويوكيماس «هم ذهبوا»؟

- من خلال النبذة يا أنجين سان، والنبذة. اسمع: يوكيماس... يوكيماس.

- ولكن كلاهما بدا متماثلًا تمامًا.

- يا أنجين سان، هذا لأنك تفكر بلغتك. لفهم اليابانية يجب أن تفكر باليابانية. لا تنس لغتنا هي لغة اللانهاية. الأمر غاية في البساطة يا أنجين سان. فقط غير مفهومك عن العالم. تعلم اليابانية هو تعلم فن جديد، منفصل عن العالم... الأمر غاية في البساطة.

تمتم بالإنجليزية وشعر بتحسن: «الأمر غاية في الهراء».

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- لا شيء. ولكن ما تقولينه ليس له معنى.

قالت ماريكو: «تعلم الحروف المكتوبة».

- لا أستطيع. سيستغرق ذلك وقتًا طويلًا. إنها بلا معنى.

- انظر، إنها في الواقع صور بسيطة يا أنجين سان. الصينيون أذكاء جدًا. نحن استعرنا طريقة كتابتهم منذ ألف عام. انظر، خذ هذا الحرف أو الرمز الذي يمثل خنزير.

- لا يبدو كخنزير.

- كان كذلك في السابق يا أنجين سان. دعني أُرِكَ. هنا. أضف رمز «سقف» فوق رمز «خنزير»، على ماذا تحصل؟
- خنزير وسقف.

- لكن ماذا يعني ذلك؟ الحرف الجديد؟
- لا أعلم.

- «منزل». في قديم الزمان كان الصينيون يعتقدون أن الخنزير تحت سقف هو المنزل. إنهم ليسوا بوذيين، بل يأكلون اللحوم، لذلك كان الخنزير بالنسبة لهم -بالنسبة للفلاحين- يمثل ثروة، وبالتالي يمثل منزلاً جيداً. وهكذا ظهر هذا الحرف.

- لكن كيف تقولينه؟

- يعتمد ذلك إذا كنت صينيّاً أو يابانيّاً.

- يا إلهي.

ضحكت: «يا إلهي، بالفعل. إليك حرف آخر. رمز «سقف» ورمز «خنزير» ورمز «مرأة». «سقف» مع «خنزيرين» تحته يعني «اطمئنان». أما «سقف» مع «امرأتين» تحته يساوي «خلاف». أليس كذلك؟»
- بالتأكيد.

- بالطبع، الصينيون غباؤهم كبير في كثير من الأشياء، ونساؤهم لم يُدرَّبْنَ كما تُدرَّبُ النساء هنا. لا يوجد خلاف في منزلك، أليس كذلك؟
فكر بلاكثورن في ذلك الآن، في اليوم الثاني عشر من إعادة ولادته. لا. لم يوجد خلاف. لكن لم يوجد منزل أيضاً. فوجيكو كانت فقط مثل مدبرة منزل موثوقة، والليلة عندما يذهب إلى سريره لينام، ستكون الفوتون مطوية وستكون جاثمة بجانبها بصبر وبلا تعابير. سترتدي كيمونو النوم الخاص بها، والذي كان مشابهاً لكيمونو النهار ولكنه أنعم ومع حزام فضفاض فقط بدلاً من حزام قاسٍ عند الخصر.

كان سيقول: «شكراً لك يا سيدتي. تصبحين على خير».

كانت ستتحني وتذهب بصمت إلى الغرفة عبر الممر، بجانب الغرفة التي تنام فيها ماريكو. ثم كان سيدخل تحت شبكة البعوض الحريرية الفاخرة. لم يعرف مثل هذه الشبكات من قبل. ثم كان سيستلقي بسعادة، وفي الليل

عندما يسمع الحشرات القليلة تطن في الخارج، كان سيستغرق في التفكير في السفينة السوداء، ومدى أهمية السفينة السوداء لليابان.

لن توجد تجارة مع الصين دون البرتغاليين. ولا أقمشة حرير للملابس أو للشبكات. كان يعرف قيمتها حتى الآن وقد بدأت الرطوبة فقط.

إذا تحرك في الليل، كانت الخادمة ستفتح الباب تقريبًا على الفور لتسأله عما إذا كان يريد شيئًا. وذات مرة لم يفهم لذا أشار للخادمة بالانصراف وذهب إلى الحديقة وجلس على الدرجات ينظر إلى القمر. وفي غضون بضع دقائق جاءت فوجيكو وهي مشوشة وناعسة، وجلست بصمت خلفه.

- هل أحضر لك شيئًا يا سيدي؟

- لا، شكرًا. رجاء اذهبي للنوم.

قالت شيئًا لم يفهمه. أشار لها مجددًا بالابتعاد لذلك تحدثت بحدة إلى الخادمة التي كانت ترافقها مثل الظل. بعد قليل جاءت ماريكو.

- هل أنت بخير يا أنجين سان؟

- نعم. لا أعلم لماذا أزعجوك. يا إلهي، أنا فقط أنظر إلى القمر. لم أستطع النوم. أردت فقط الحصول على بعض الهواء.

تحدثت فوجيكو معها بتردد وهي غير مرتاحة ومتألّمة من الحدة في صوته: «تقول إنك طلبت منها العودة إلى النوم. أرادت فقط أن تعرف أنه ليس من عاداتنا أن تنام الزوجة أو الخليفة بينما سيدها مستيقظ، هذا كل ما في الأمر يا أنجين سان».

- إذن ستضطر إلى تغيير عاداتها. غالبًا ما أكون مستيقظًا في الليل. بمفردي. إنها عادة اكتسبتها من وجودي في البحر... فأنا أنام قليلًا على اليابسة.

- حسنًا يا أنجين سان.

شرحت ماريكو وذهبت المرأتان بعيدًا. لكن بلاكثورن عرف أن فوجيكو لم تعد للنوم ولن تنام حتى ينام هو. كانت دائمًا مستيقظة وتنتظر مهما كان الوقت الذي يعود فيه إلى المنزل. في بعض الليالي كان يمشي على الشاطئ بمفرده. حتى مع إصراره على أن يكون بمفرده، كان يعلم أنه كان مُلاحقًا ومُراقبًا. ليس لأنهم كانوا خائفون من أن يحاول الهروب. بل فقط لأن

تلك كانت عاداتهم أن يكون الأشخاص المهمين دائماً محاطين بالرعاية. في أنجيرو كان هو مهمًا.

تقبل وجودها مع مرور الوقت. كما قالت ماريكو في البداية: «فكر فيها كصخرة أو باب شوجي أو جدار. من واجبها أن تخدمك».

كان الوضع مختلفًا مع ماريكو.

كان سعيدًا لأنها بقيت. فلم يكن ليتعلم قط دون وجودها، ناهيك بشرح تعقيدات الاستراتيجية. كان يباركها هي والأب دومينجو وألبان كارادوك ومعلميه الآخرين.

فكر مجددًا: لم أعتقد قط أن المعارك ستُستخدم في شيء جيد. ذات مرة عندما كانت سفينته تحمل شحنة من الصوف الإنجليزي إلى أنتويرب، هاجم الجيش الإسباني المدينة وكل رجل ذهب إلى المتاريس والخنادق. صُد الهجوم المفاجئ وهزم المشاة الإسبان ببراعة. كانت تلك أول مرة يرى فيها وليام -دوق أورانج- يستخدم الكتائب مثل قطع الشطرنج. يتقدمون ويتراجعون متظاهرين بالذعر ليعيد جميع صفوفه، ثم يهاجمون مجددًا، وتطلق البنادق وابل من النيران يفتت الأكباد ويصم الأذان، ويخترق صفوف المحصنين لتتركهم يحتضرون ويصرخون، وتملؤك الرائحة الكريهة للدماء والبارود والبول والخيول والروث، وفرحة القتل الجنونية التي تسيطر عليك وقوة عشرين رجلًا في ذراعيك.

قال بصوت عالٍ في حوض الاستحمام: «يا إلهي، إنه لأمر رائع أن تنتصر».

قال سوو: «ماذا؟».

أجاب باليابانية: «لا شيء، كنت أحدث... كنت فقط أفكر... أفكر بصوت عالٍ».

- أفهم يا سيدي. نعم. عذرًا.

ترك بلاكثورن نفسه ينحرف بعيدًا.

ماريكو. نعم، كانت لا تقدر بثمن.

بعد تلك الليلة الأولى التي كاد أن ينتحر فيها، لم يتحدث أحد عن ذلك مجددًا. ماذا كان هناك ليُقال؟

فكر: أنا سعيد بأنه يوجد الكثير للقيام به. لا وقت للتفكير إلا هنا في الحمام لبضع دقائق. لا وقت كافٍ للقيام بكل شيء. فهو مأمور بالتركيز على التدريب والتعليم وليس على التعلم، لكن راغب في التعلم، محاولاً التعلم، بحاجة إلى التعلم للوفاء بالوعد ليابو. الساعات غير كافية. إنه دائماً مرهق ومنهك بحلول وقت النوم، وينام على الفور ليستيقظ عند الفجر ويصل بسرعة إلى الهضبة. يبدأ التدريب طوال الصباح، ثم يتناول وجبة صغيرة، لم تكن مرضية إطلاقاً ولا تحتوي على لحم. ثم كل فترة بعد الظهر حتى الليل - أحياناً حتى وقت متأخر جداً من الليل - يكون مع يابو وأومي وإيجوراشي وناجا وزوكيموتو وعدد قليل من الضباط الآخرين، يتحدثون عن الحرب ويجيبون عن الأسئلة حول الحرب. كيف تُشن الحرب. كيف يحارب الهمج وكيف يحارب اليابانيون. في البر وفي البحر. الكتاب دائماً يدونون ملاحظات. الكثير من الملاحظات.

أحياناً يجلس مع يابو فقط.

لكن ماريكو موجودة دائماً - جزء منه - تتحدث نيابة عنه. وعن يابو. أصبحت ماريكو مختلفة الآن تجاهه، فلم يعد غريباً. في أيام أخرى يعيد الكتاب قراءة الملاحظات، دائماً يتحققون ويكونون دقيقين، يراجعون ويتحققون مجدداً حتى الآن، بعد اثني عشر يوماً ونحو مائة ساعة من الشرح التفصيلي المكثف، كان دليل الحرب يتشكل. دقيق. ومدمر.

مدمر لمن؟ ليس لنا نحن الإنجليز أو الهولنديين، الذين سيأتون هنا بسلام وكتجار فقط. مدمر لأعداء يابو وأعداء تورانا، ولأعدائنا البرتغاليين والإسبان عندما يحاولون غزو اليابان. كما فعلوا في كل مكان آخر. في كل الأراضي المكتشفة حديثاً. أولاً يصل الكهنة. ثم الفاتحون.

فكر باطمئنان كبير: لكن ليس هنا. ليس هنا... الآن. الدليل مدمر ويمنع ذلك. لن يكون هناك غزو هنا، مع بضع سنوات لانتشار المعرفة.

- أنجين سان؟

- نعم يا ماريكو سان؟

كانت تنحني له وتتحدث باليابانية.

تشكلت الكلمات ببطء في رأسه: «الزعيم يابو لا يحتاج لرؤيتك الليلة يا أنجين سان».

قال بسعادة: «الأفضل. شكرًا».

- معذرةً يا أنجين سان... أنت...

قاطعها وحرارة الماء تستنزف طاقته: «نعم يا ماريكو سان، أعلم أنني كان يجب أن أقولها بطريقة مختلفة، لكنني لا أريد التحدث باليابانية الآن. ليس الليلة. الآن أشعر وكأنني تلميذ أُخرج من المدرسة لعطلة عيد الميلاد. هل تدركين أن هذه ستكون أول ساعات الحرية التي أحصل عليها منذ وصولي؟». ابتسمت بسخرية: «نعم، نعم أعلم. وهل تدرك يا سيد ربان براكفون أن هذه ستكون أول ساعات الحرية التي أحصل عليها منذ وصولي؟».

ضحك. كانت ترتدي رداء حمام قطني سميك مربوط بغير إحكام، ومنشفة حول رأسها لحماية شعرها. كل مساء حالما يبدأ تدليكها، كانت تستحم، أحيانًا بمفردها، وأحيانًا مع فوجيكو.

قال وهو يبدأ بالخروج: «تفضلي، يمكنك الحصول عليهم الآن».

- لا، رجاءً، لا أريد إزعاجك.

- إذن شاركنيني. إنه رائع.

- شكرًا. لا أستطيع الانتظار لأزيل العرق والغبار.

نزعت رداءها وجلست على المقعد الصغير. بدأت الخادمة بوضع الصابون عليها، بينما كان سوو ينتظر بصبر بجانب طاولة التدليك. قالت بسعادة: «يبدو الأمر أشبه بعطلة مدرسية حقًا».

في المرة الأولى التي رآها بلاكتورن عارية في اليوم الذي سبحت فيه تأثر كثيرًا. الآن عريها بحد ذاته لم يكن يلمسه جسديًا. الحياة بالقرب منها بأسلوب اليابانيين في منزل ياباني حيث الجدران كانت من ورق والغرف متعددة الاستخدامات، كان قد رآها عارية أو عارية جزئيًا مرات كثيرة. حتى إنه رآها وهي تقضي حاجتها.

- ما الأمر الأكثر طبيعية يا أنجين سان؟ الأجساد الطبيعية، والاختلافات بين الرجال والنساء الطبيعية، أليس كذلك؟

- نعم، لكن الأمر هو أننا فقط... مدربون بطريقة مختلفة.

- لكن الآن أنت هنا وعاداتنا هي عاداتك، والطبيعي هو الطبيعي. أليس كذلك؟

كان الطبيعي هو التبول أو التغوط في العراء إذا لم توجد مراحيض أو دلاء، فقط رفع الكيمونو أو فتحه والجلوس أو الوقوف، والجميع ينتظر بأدب دون النظر، نادرًا ما يوجد ساتر للخصوصية. لماذا يحتاج المرء إلى الخصوصية؟ وسرعان ما يجمع أحد الفلاحين الفضلات ويخلطها بالماء لتسميد المحاصيل. كانت فضلات الإنسان والبول هي المصدر الأساسي الوحيد للأسمدة في الإمبراطورية. لم يوجد الكثير من الخيول والثيران، ولا مصادر حيوانية أخرى على الإطلاق. لذا كانت كل الجزيئات البشرية تُحفظ وتُباع للمزارعين في جميع أنحاء البلاد.

وبعد أن ترى النبلاء والعامّة يرفعون أو يفتحون ثيابهم ويجلسون أو يقفون، لم يتبقَّ شيء لتشعر بالإحراج بشأنه.

- هل يوجد خطب يا أنجين سان؟

- لا.

قالت وهي راضية جدًا: «جيد، قريبًا ستحب الأسماك النيئة والأعشاب البحرية الطازجة، وحينها ستصبح هاتاموتو حقًا».

سكبت الخادمة الماء على جسدها، وبعد أن انتهت من تنظيفها، دخلت ماريكو إلى الحمام واستلقت مقابله بتهيدة طويلة تعكس شعورًا بالنشوة، والصليب الصغير يتدلى بين صدرها.

قال: «كيف تفعلين ذلك؟».

- ماذا؟

- الدخول بهذه السرعة. الماء حار جدًا.

- لا أعلم يا أنجين سان، لكنني طلبت منهم أن يضيفوا مزيدًا من الحطب لرفع حرارة الماء. أما بالنسبة لك، فوجيكو تحرص دائمًا على أن يكون الماء... كما نسميه نحن... فاترًا.

- إذا كان هذا فاترًا، فأنا عمُّ رجل هولندي.

- ماذا؟

- لا شيء.

دفع الماء جعلهما يشعران بالنعاس، فاسترخيا لبعض الوقت دون أن يتبادلا كلمة.

قالت لاحقاً: «ماذا تود أن تفعل هذا المساء يا أنجين سان؟».

- إذا كنا في لندن لكنا...

توقف بلاكثورن. قال لنفسه: لن أفكر بهم، أو بلندن. لقد مضى كل ذلك، ولم يعد له وجود. هنا فقط موجود.

- إذا؟

كانت تراقبه بعناية، مدركةً لتغيُّر مزاجه.

قال محاولاً السيطرة على مشاعره: «كنا سنذهب إلى المسرح لمشاهدة مسرحية، هل لديكم مسرحيات هنا؟».

- أجل يا أنجين سان. المسرحيات شائعة جداً لدينا. كان التايكو يحب أن يؤدي فيها لتسلية ضيوفه، وحتى الزعيم توراناغا يستمتع بذلك. وبالطبع يوجد العديد من الفرق الجواله التي تقدم عروضها لعامة الناس. لكن مسرحياتنا تختلف عن مسرحياتكم، حسبما أظن. هنا يرتدي الممثلون والممثلات الأقنعة. نسمي هذه المسرحيات «نو». إنها مزيج من الموسيقى والرقص، وغالباً ما تكون حزينة ومأسوية، وتعكس أحداثاً تاريخية. بعضها كوميدية. هل كنا سنشاهد كوميدياً، أم ربما مسرحية دينية؟

- لا، كنا سنذهب إلى مسرح «جلوب» لمشاهدة شيء من أعمال كاتب مسرحي يُدعى شكسبير. أنا أحبه أكثر من بن جونسون أو مارلو. ربما كنا سنشاهد «ترويض النمرة» أو «حلم ليلة منتصف الصيف» أو «روميو وجولييت». لقد اصطحبت زوجتي لمشاهدة «روميو وجولييت» وأعجبتها كثيراً.

وبدا يشرح لها الحبكة.

وجدتها ماريكو في الغالب غير مفهومة. قال: «سيكون من غير الممكن هنا أن تعصي فتاة والدها هكذا. لكن هذا محزن جداً، أليس كذلك؟ محزن لفتاة صغيرة ومحزن للشاب. كانت في الثالثة عشرة فقط؟ هل تتزوج كل فتياتكم في هذا العمر المبكر؟».

- لا، السن المعتادة هي الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. كانت زوجتي في السابعة عشرة عندما تزوجنا. كم كان عمرك عندما تزوجت؟
- خمسة عشر عامًا فقط يا أنجين سان.
- عبر ظلُّ من الحزن جبينها، لكنه لم يلاحظه. سألت: «وماذا كنا سنفعل بعد المسرحية؟».
- كنت سأصطحبك لتناول الطعام. كنا سنذهب إلى مطعم ستونز تشوب هاوس في فيتر لين، أو إلى تشيشاير تشيز في فليت ستريت. تلك الأماكن تقدم طعامًا مميزًا.
- ماذا كنت ستأكل؟
- قال بابتسامة كسولة، محاولًا التركيز على الحاضر: «أفضل ألا أتذكر، لا أستطيع التذكر. هنا حيث نحن الآن، وهنا سنأكل، وأنا أستمتع بالسّمك النيء والكارما هي الكارما». غاص أعمق في الحوض: «الكارما كلمة عظيمة وفكرة رائعة. لقد ساعدتني كثيرًا يا ماريكو سان».
- استرخت ماريكو في دفة الماء: «إنه لمن دواعي سروري أن أقدم لك القليل من الخدمة. أعدت لك فوجيكو طعامًا خاصًا الليلة».
- حقًا؟
- نعم، لقد اشتريت... أعتقد أنكم تسموه طائر التدرج. إنه طائر كبير. أحد الصقارين اصطاده لها.
- طائر التدرج؟ هل أنت جادة؟ حقًا؟
- أجابت: «حقًا. طلبت فوجيكو منهم أن يصطادوه من أجلك. وطلبت مني أن أخبرك ذلك».
- وكيف سيُطهى؟
- أخبرها أحد الجنود الذين رأوا البرتغاليين يطهون هذه الطيور. تطلب منك فوجيكو أن تكون صبورًا إذا لم يُطه بالطريقة الصحيحة.
- ولكن كيف ستطهيه... كيف سيقوم الطهاة بذلك؟
- صحح نفسه، فكان الخدم هم من يتولون مهام الطبخ والتنظيف.
- قيل لها أن الخطوة الأولى هي نزع الريش، ثم... ثم إزالة الأحشاء.

سيطرت ماريكو على شعورها بالاشمئزاز وأكملت: «ثم يُقطع الطائر إلى قطع صغيرة ويُقلى بالزيت، أو يُسلق بالملح والتوابل». تجعد أنفها قليلاً: «وأحياناً يُغطى بالطين ويوضع في الجمر ليُخبز. لا توجد لدينا أفران يا أنجين سان. لذا سيُقلى. أمل أن يكون هذا مناسباً».

- أنا متأكد أنه سيكون مثاليًا.

قال وهو يعلم في قرارة نفسه أنه قد لا يكون صالحًا للأكل.

ضحكت ماريكو: «أحياناً تكون واضحاً جداً يا أنجين سان».

- أنتِ لا تدركين مدى أهمية الطعام.

ابتسم رغماً عنه وأضاف: «أنتِ على حق. لا ينبغي أن أكون مهتماً بالطعام. لكنني لا أستطيع مقاومة الجوع».

- ستتعلم قريباً كيف تتحكم في ذلك. ستتعلم حتى كيف تشرب الشاي من كوب فارغ.

- ماذا؟

- ليس هذا المكان المناسب لشرح ذلك يا أنجين سان، ولا الوقت المناسب. لهذا الأمر تحتاج أن تكون مستيقظاً ويقظاً للغاية. الغروب الهادئ أو الفجر هما الوقت المناسب. سأريك الطريقة يوماً ما، بسبب ما فعلته. أوه، إنه شعور رائع أن نستلقي هنا، أليس كذلك؟ الاستحمام هو حقاً هبة من الرب.

سمع بلاكثورن الخدم خارج الجدار وهم يوقدون النار. تحمل الحرارة المتزايدة قدر استطاعته، ثم خرج من الماء بمساعدة سوو، واستلقى على المنشفة السمكية وهو يلهث. تلمست أصابع الرجل العجوز جسده برفق. كاد بلاكثورن أن يصرخ من المتعة. قال: «هذا رائع جداً».

- لقد تغيرت كثيراً في الأيام القليلة الماضية يا أنجين سان.

- هل تغيرت؟

- أجل، منذ ولادتك من جديد... نعم، كثيراً.

حاول بلاكثورن أن يتذكر الليلة الأولى لكنه لم يتذكر إلا القليل. بطريقة ما كان قد تمكن من العودة إلى غرفته على قدميه. ساعدته فوجيكو والخدم على الوصول إلى الفراش. استيقظ بعد نوم عميق بلا أحلام عند الفجر وذهب

للسباحة. ثم بينما كان يجفف جسده تحت أشعة الشمس، شكر الرب على القوة والإشارة التي قدمتها له ماريكو. وفي وقت لاحق وهو يعود إلى المنزل، حيًا القرويين وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم قد تحرروا من لعنة يابو، تمامًا كما تحرر هو.

وأرسل لاستدعاء مورا عندما وصلت ماريكو.

- يا ماريكو سان، رجاء أخبري مورا: لدينا مشكلة، أنت وأنا. وسنحلها معًا. أريد الانضمام إلى مدرسة القرية. لأتعلّم التحدث مع الأطفال.

- ليس لديهم مدرسة يا أنجين سان.

- لا يوجد؟

- لا. يقول مورا إنه يوجد دير على بُعد بضعة رّي إلى الغرب، ويمكن للرهبان تعليمك القراءة والكتابة إذا رغبت. ولكن هذه قرية يا أنجين سان. يحتاج الأطفال هنا إلى تعلّم طرق صيد السمك والإبحار وصنع الشباك وزراعة الأرز والمحاصيل. لا يوجد وقت للقيام بشيء آخر، باستثناء القراءة والكتابة. كما أنه يتولى الآباء والأجداد تعليم أبنائهم، كما هو الحال دائمًا.

- إذن كيف سأتعلّم عندما تذهبين؟

- سيرسل الزعيم توراناكا الكتب.

- سأحتاج إلى أكثر من الكتب.

- كل شيء سيكون مرضيًا يا أنجين سان.

- نعم. ربما. ولكن أخبري رئيس القرية إنه في حال ارتكبت أي خطأ، يجب على الجميع -الجميع، حتى الأطفال- تصحيحه. فورًا. أنا أمر بذلك.

- يقول لك شكرًا يا أنجين سان.

- هل يتحدث أحد هنا البرتغالية؟

- يقول: لا.

- هل يوجد أحد قريب يتحدثها؟

- لا يا أنجين سان.

- يجب أن يكون لدي أحد عندما ترحلين يا ماريكو سان.

- سأخبر يابو سان بما قلته.

- مورا سان، أنتَ...

- يقول إنه يجب عليك عدم استخدام «سان» معه أو مع أي من القرويين. فهم أقل منك. ليس من اللائق أن تقول «سان» لهم أو لأي شخص أقل منك.

كانت فوجيكو قد انحنت أيضًا على الأرض في ذلك اليوم الأول. قالت ماريكو: «فوجيكو سان ترحب بك في المنزل يا أنجين سان. تقول إنك قد منحتها شرفًا عظيمًا وتطلب منك السماح إذا كانت قد تصرفت بفضاظة على السفينة. إنها تشعر بالشرف كونها خليلتك ورئيسة منزلك. تسأل إذا كنت ستحتفظ بالسيوف لأن ذلك سيسعدها كثيرًا. إنهما ملك والدها الذي تُوفي. لم تعطهما لزوجها لأنه كان لديه سيوف خاصة به».

- اشكريها وأخبريها أنه يشرفني كونها خليلتي.

انحنت ماريكو برسمية أيضًا: «أنت الآن تعيش حياة جديدة يا أنجين سان. نحن ننظر إليك بأعين جديدة. من عادتنا أن نكون رسميين أحيانًا، بجدية كبيرة. لقد فتحت عيني. جدًا. كنت في الماضي مجرد همجي بالنسبة لي. أرجو أن تسامح غبائي. ما فعلته يثبت أنك ساموراي. الآن أنت ساموراي. أرجو أن تسامح تصرفاتي السيئة السابقة».

شعر بطول القامة في ذلك اليوم. ولكن قرب موته الذاتي قد غيره أكثر مما كان يدرك وأثر فيه إلى الأبد، أكثر من مجموع كل المرات التي كان على وشك الموت فيها.

سأل نفسه: هل كنت تعتمد على أومي؟ أن أومي سيصد الضربة؟ ألم تعطه تحذيرًا كافيًا؟

أجاب بلاكثورن سؤاله بصدق: لا أعلم. أعلم فقط أنني سعيد لأنه كان مستعدًا. تلك حياة أخرى مضت.

قال بصوت عالٍ: «هذه حياتي التاسعة. الأخيرة».

توقفت أصابع سوو على الفور.

سألت ماريكو: «ماذا؟ ماذا قلت يا أنجين سان؟».

أجاب وهو منشغل البال: «لا شيء. كان لا شيء».

قال سوو: «هل أَلَمْتُك يا سيدي؟».

- لا.

قال سوو شيئاً آخر لم يفهمه.

- عذراً؟

قالت ماريكو بشرود: «يريد تدليك ظهرك الآن».

استدار بلاكتورن على بطنه وكرر اليابانية ونساها على الفور. كان يمكنه رؤية ماريكو من خلال البخار. كانت تتنفس بعمق، ورأسها مائل قليلاً إلى الورا، وجلدها وردي.

سأل نفسه: كيف تتحمل الحرارة. أعتقد أنه بسبب التدريب، منذ الطفولة.

كانت أصابع سوو تشعره بالمتعة، وبدأ يشعر بالنعاس للحظة.

بماذا كنت أفكر؟

كنت تفكر في حياتك التاسعة، حياتك الأخيرة، وكنت خائفاً، وتذكر الخرافة. ولكن من السخيف هنا في أرض الآلهة هذه أن تؤمن بالخرافات. الأمور مختلفة هنا وهذه هي الأبدية. اليوم هو الأبدية.

غداً يمكن أن تحدث أشياء كثيرة.

اليوم سألتزم قواعدهم.

سألتزم.

أحضرت الخادمة الطبق المغطى. حملته عاليًا فوق رأسها كما جرت العادة، لكي لا يتلوث الطعام بأنفاسها. جلست على ركبتيهما بقلق ووضعته بعناية على الطاولة الصغيرة أمام بلاكتورن. يوجد على كل طاولة صغيرة أطباق وعيدان طعام وأكواب ساكي ومناديل وباقة زهور صغيرة. فوجيكو وماريكو جالستين أمامه. كانتا ترتديان زهورًا وأمشاطًا فضية في شعرهما. كيمونو فوجيكو مزخرفًا بأسماء خضراء على خلفية بيضاء، وحزامها ذهبي. أما ماريكو فكانت ترتدي الأسود والأحمر مع بطانة رقيقة من الفضة مزينة بالأقحوان وحزامًا أحمر وفضيًا. كلتاها كانت تضع العطر كما هو الحال دائماً. وكانت البخور تحترق لردع الحشرات الليلية.

كان بلاكتورن قد تمالك نفسه منذ وقت طويل. كان يعلم أن أي إشارة استياء منه ستدمر الأمسية. فكر: إذا كان من الممكن اصطيد طيور التدرج، فسيتوفر طرائد أخرى. كان لديه حصان وبنادق وكان يمكنه الصيد بنفسه، لو كان لديه الوقت الكافي لذلك.

انحنت فوجيكو وأزال الغطاء عن الطبق. كانت قطع اللحم المقلية صغيرة ومحمرة وتبدو مثالية. بدأ لعبه يسيل من رائحة الطعام.

بيبء أخذ قطعة من اللحم بعيدان الطعام محاولاً ألا تسقط، وبدأ بمضغ اللحم. كان قاسياً وجافاً، لكنه لذيذ بعد فترة طويلة من عدم تناول اللحم. تناول قطعة أخرى. وتنهَّد برضا: «إنه الأفضل، يا إلهي إنه الأفضل».

احمرت وجنتا فوجيكو وصبَّتْ له ساكي لتخفي وجهها. كانت ماريكو تهوِّي نفسها بالمروحة، والمروحة الحمراء تبدو كحشرة اليعسوب. شرب بلاكتورن النبيذ وأكل قطعة أخرى وصب المزيد من النبيذ وعرض كأسه الملائى على فوجيكو كطقس. رفضت كما هي العادة، ولكن الليلة أصرَّ فتجرعت الكأس وهي تختنق قليلاً. رفضت ماريكو أيضاً وأُجبرت على الشرب أيضاً. ثم هجم على طائر التدرج بأقل قدر ممكن من الاستمتاع. لم تمس النساء حصصهن الصغيرة من الخضراوات والأسماك. لم يزعجه ذلك لأن من عادات النساء أن يأكلن قبل الطعام أو بعده، حتى يتسنى لهن تكريس كل اهتمامهن لسيدهم.

أكل طائر التدرج بالكامل وثلاثة أطباق من الأرز وشرع في شرب الساكي، وهو ما يُعد من حسن السلوك أيضاً. شعر بالشبع لأول مرة منذ شهور. وخلال الوجبة كان قد أنهى ست قوارير من النبيذ الساخن، بينما تناولت ماريكو وفوجيكو اثنتين بينهما. كانتا الآن متوردتي الوجه وتقهقهان وتبدوان في حالة هزلية.

ضحكت ماريكو ووضعت يدها أمام فمها: «أتمنى لو كنت أستطيع شرب الساكي مثلك يا أنجين سان. أنت تشرب الساكي أفضل من أي رجل عرفته. أراهن أنك ستكون الأفضل في إيزو. يمكنني كسب الكثير من المال إذا راهنت عليك».

- ظننت أن الساموراي يرفضون المقامرة.

- نعم، إنهم يرفضونها كلياً، فهم ليسوا تجاراً أو فلاحين. لكن ليس جميع الساموراي أقوياء مثل غيرهم، والعديد منهم... كيف تقول... يراهنون مثل الحانة الجنوبية... مثلما يفعل البرتغاليون.

- هل تراهن النساء؟

- نعم. كثيراً جداً. ولكن فقط مع السيدات الأخريات وبمبالغ محدودة ودوماً حتى لا يكتشف أزواجهن.

ترجمت بمرح لفوجيكو، التي كانت أكثر احمراراً منها.

- تسأل خليلتك إذا كان الإنجليز يراهنون؟ هل تحب الرهان؟

- إنها هوايتنا الوطنية.

وأخبرهم عن سباق الخيول وألعاب الكرة وترويض الثيران والصيد بالكلاب الضالة والصقور والبولينج وشركات الأسهم الجديدة وخطابات التوكيل وإطلاق النار والسهام واليانصيب والملاكمة والبطاقات والمصارعة والنرد والدومينو والأوقات في المعارض حيث توضع القطع النقدية على الأرقام وتراهن على عجلات الحظ.

- تسأل فوجيكو: ولكن كيف تجد الوقت للعيش والحرب والنوم.

- يوجد دائماً وقت لتلك الأمور.

التقت أعينهما للحظة ولكن لم يتمكن من قراءة أي شيء في عينيها، فقط السعادة وربما الكثير من النبيذ.

توسلت ماريكو إليه ليغني أغنية البحارة لفوجيكو، فغناها وهنّؤه وقالوا إنها كانت أفضل شيء سمعوه على الإطلاق.

- اشربن المزيد من الساكي.

- لا يجب عليك أن تسكب يا أنجين سان، تلك مسؤولية النساء. ألم أخبرك؟

- بلى. اشربي المزيد، تفضلي.

- من الأفضل أن لا أشرب. أظن أنني سأسقط.

كانت ماريكو تلوّح بمروحتها بشدة واهترزت خيوط الشعر التي خرجت من تسريحتها المثالية.

قال: «لديك أذنان جميلتان».

- وأنت أيضًا. نحن -أنا وفوجيكو سان- نعتقد أن أنفك مثالي أيضًا، ويستحق أن يكون داييميو.

ابتسم وانحنى لهما باحترام. وبادلتاه الانحناء. تحركت ثنانيا كيمونو ماريكو قليلًا عن عنقها، كاشفة عن حافة الكيمونو الداخلي القرمزي ومقدمة صدرها، مما أثاره.

- هل تريد الساكي يا أنجين سان؟

مد الكأس بأصابع ثابتة. سكبت وهي تراقب الكأس، وطرف لسانها يلامس شفيتها بتركيز.

قبلت فوجيكو على مضض بعضًا أيضًا، رغم أنها قالت إنها لم تعد تشعر بساقيها. كان حزنها الهادئ قد زال الليلة وبدت كأنها عادت شابة مجددًا. لاحظ بلاكتورن أنها لم تكن قبيحة كما ظن سابقًا.

كان رأس جوزين مشوشًا، ليس بسبب الساكي بل بسبب استراتيجية الحرب المذهلة التي وصفها يابو وأومي وإيجوراشي بصراحة كبيرة. فقط ناجا القائد الثاني وابن عدوه اللدود لم يتفوه بكلمة طوال المساء، وظل باردًا ومتغطرسًا ومستقيمًا، مع أنف توراناجا الكبير المميز على وجه مشدود.

قال جوزين: «مذهل يا يابو ساما. الآن أفهم سبب السرية. سيفهم سيدي ذلك أيضًا. أنت حكيم، حكيم جدًا. وأنت يا ناجا سان، كنت صامتًا طوال المساء. أود سماع رأيك. كيف ترى هذه الحركة الجديدة... هذه الاستراتيجية الجديدة؟».

أجاب الشاب: «يعتقد والدي أنه يجب دراسة جميع احتمالات الحرب يا جوزين سان».

- لكن أنت، ما رأيك؟

- أرسلت هنا فقط لأطيع وأراقب وأستمع وأتعلم وأختبر. وليس لإبداء الآراء.

- بالطبع. ولكن كقائد ثانٍ... أعني، كقائد ثانٍ بارز، هل تعتبر التجربة ناجحة؟

- يجب أن يجيب يابو ساما أو أومي سان على ذلك. أو والدي.

- لكن يابو ساما قال إنه يمكن للجميع التحدث بحرية الليلة. ما الذي يجب إخفاؤه؟ نحن جميعًا أصدقاء، أليس كذلك؟ من المؤكد أن ابناً شهيراً لأب شهير يجب أن يكون له رأي، أليس كذلك؟ ضيق ناجا عينيه تحت وطأة هذا التهمك لكنه لم يرد.

قال يابو: «يمكن للجميع التحدث بحرية يا ناجا سان. ما رأيك؟».

قال ناجا ببرود: «أعتقد أنه يمكن لهذه الفكرة أن تكسب مناوشة واحدة أو ربما معركة واحدة مع عنصر المفاجأة. نعم. ولكن بعد ذلك؟ بعد ذلك سيستخدم جميع الأطراف نفس الخطة وستموت أعداد كبيرة من الرجال دون ضرورة، مقتولين دون شرف على يد مُعتدٍ لن يعرف حتى من قتل. أشك في أن والدي سيسمح باستخدامها فعلياً في معركة حقيقية».

سأل يابو بحدة، غير مكترث بجوزين: «هل قال ذلك؟».

- لا يا يابو ساما. أعطي رأيي الخاص. بالطبع.

سأل يابو بلهجة مظلمة: «لكن كتيبة المدافع... ألا توافق عليها؟ هل تجدها مثيرة للاشمئزاز؟».

نظر إليه ناجا بعينين ثابتتين تشبهان أعين الزواحف: «مع كامل احترامي، بما أنك طلبت رأيي، نعم، أجد ذلك مثيراً للاشمئزاز. لطالما عرف أجدادنا من قتلوا أو من هزمهم. هذا هو البوشيدو، طريقنا، طريق المحارب، طريق الساموراي الحقيقي. ينتصر الرجل الأفضل، أليس كذلك؟ ولكن الآن هذا؟ كيف تثبت شجاعتك لسيدك؟ كيف يمكنه أن يكافئ الشجاعة؟ إطلاق الرصاص شجاعة، نعم، ولكنه أيضاً حماقة. أين الشجاعة في ذلك؟ إن البنادق تتعارض مع قانون الساموراي. الهمج يقاتلون بهذه الطريقة، الفلاحون يقاتلون بهذه الطريقة. هل تدرك أن التجار القذرين والفلاحين، حتى الإيتا، يمكن أن يقاتلوا بهذه الطريقة؟».

ضحك جوزين وتابع ناجا بنبرة أكثر تهديداً: «بعض الفلاحين المتعصبين يمكنهم بسهولة قتل أي عدد من الساموراي بالبنادق الكافية. نعم، الفلاحون يمكنهم قتل أي واحد منا، حتى الزعيم إيشيدو الذي يريد أن يجلس في مكان والدي».

استاء جوزين: «الزعيم إيشيدو لا يطمع في أراضي والدك. هو فقط يسعى لحماية الإمبراطورية من أجل وريثها الشرعي».

- والدي لا يشكل تهديدًا للزعيم يايمون أو للمملكة.

- بالطبع، ولكنك كنت تتحدث عن الفلاحين. الزعيم التايكو كان يومًا ما فلاحًا. الزعيم إيشيدو كان يومًا ما فلاحًا. وأنا كنت يومًا ما فلاحًا. ورونيًا.

لم يرغب ناجا في الشجار. كان يعلم أنه ليس نذًا لجوزين الذي اشتهر بمهارته في استخدام السيف والفأس. قال: «لم أقصد إهانة سيدك أو إهانتك أو أي شخص يا جوزين سان. كنت أقول فقط إنه يجب علينا نحن الساموراي أن نتأكد تمامًا من أن الفلاحين لا يمتلكون البنادق وإلا فلن يكون أيُّ منا بأمان».

قال جوزين: «لن يقلقنا التجار والفلاحون أبدًا».

أضاف يابو: «أتفق، وأيضًا يا ناجا سان، أتفق على جزء مما تقوله. نعم. لكن البنادق حديثة. قريبًا ستُخاض جميع المعارك بالبنادق. أعترف أن هذا مقيت لكن هذه هي طريقة الحرب الحديثة. وبعد ذلك سيصبح الأمر كما كان دائمًا، سينتصر الساموراي الأكثر شجاعة دائمًا».

- لا، آسف، لكنك مخطئ يا يابو ساما. ماذا قال لنا هذا الهمجي الملعون... جوهر استراتيجيتهم الحربية؟ إنه يعترف بحرية أن كل جيوشهم مجندة ومرتزة. أليس كذلك؟ مرتزة. ليس لديهم شعور بالواجب تجاه سادتهم. الجنود يقاتلون فقط من أجل المال والذهب، ليغتصبوا ويشبعوا بطونهم. ألم يقل إن جيوشهم هي جيوش فلاحين؟ هذا ما جلبته البنادق إلى عالمهم وهذا ما ستجلبه البنادق إلى عالمنا. لو كانت لدي السلطة، لقطعتُ رأس هذا الهمجي الليلة ولحظرتُ جميع البنادق إلى الأبد.

سأل جوزين بسرعة: «هل هذا ما يعتقده والدك؟».

أجاب ناجا، غاضبًا من السماح لنفسه بأن يُستدرج للحديث من الأساس: «والدي لا يخبرني أو يخبر أحدًا ما يفكر فيه، كما تعلم جيدًا. أنا لا أتحدث نيابةً عن والدي، ولا أحد يتحدث نيابةً عنه. أرسلت هنا لأطيع ولأستمع وليس لأتكلّم. أعذر عن التحدث. لم أكن لأتحدث إلا إذا طلبت مني. أعذر إذا أهنتك أو أهنتك يا يابو ساما أو أنت يا أومي سان».

قال يابو: «لا حاجة إلى الاعتذار. لقد طلبت آراءك. لماذا قد يشعر أي شخص بالإهانة؟ هذه مناقشة، أليس كذلك؟ بين القادة. هل كنت ستحظر البنادق؟».

- نعم. أعتقد أنه سيكون من الحكمة أن تراقب من كُتب كل بندقية في منطقتك.

- يُحظر على جميع الفلاحين حمل أي نوع من الأسلحة. فلاحِيّ وشعبي تحت سيطرة تامة.

تكلف جوزين الابتسام للشاب النحيف بازدرء: «أفكارك مثيرة للاهتمام يا ناجا سان. ولكنك مخطئ بشأن الفلاحين. إنهم ليسوا أكثر من مجرد مقدمي خدمات للساموراي. إنهم ليسوا أكثر تهديدًا من كومة من الروث».

قال ناجا وكبرياؤه تسيطر عليه: «في الوقت الحالي. لهذا السبب سأحظر الأسلحة الآن. أنت محق يا يابو سان إن العصر الجديد يتطلب أساليب جديدة. ولكن بسبب ما قاله هذا الأنجين سان، هذا الهمجي، سأتخطى قوانيننا الحالية. سأصدر مراسيم تقضي بأن أي شخص غير ساموراي يُقبض عليه وبحوزته سلاحًا أو يتاجر بالأسلحة سيخسر حياته على الفور وحياة جميع أفراد عائلته من جميع الأجيال. علاوة على ذلك، سأحظر صناعة أو استيراد الأسلحة. سأحظر على الهمج حيازتهم أو جلبهم إلى شواطئنا. نعم، لو كان لدي السلطة - والتي لا أسعى إليها ولن أسعى إليها أبدًا - لأبقيت الهمج خارج بلادنا تمامًا، باستثناء عدد قليل من الكهنة وميناء واحد للتجارة، والذي سأحيطه بسور عالٍ ومحاربين موثوقين. وأخيرًا كنت سأقتل هذا الهمجي الكريه أنجين سان على الفور حتى لا تنتشر معرفته القذرة. إنه مرض».

قال جوزين: «يا ناجا سان، لا بد أنه من الجميل أن تكون شابًا صغيرًا. أعلم أن سيدي يتفق مع الكثير مما قلته عن الهمج. لقد سمعته يقول مرات عديدة: «أبعدوهم، اطردهم، أركلوا مؤخراتهم إلى ناجازاكي واحتفظوا بهم هناك». ستقتل أنجين سان، أليس كذلك؟ مثير للاهتمام. سيدي لا يحب أنجين سان أيضًا. لكن بالنسبة له...». توقف ثم أضاف: «آه، نعم، لديك فكرة جيدة بشأن الأسلحة. أستطيع رؤية ذلك بوضوح. هل يمكنني إخبار سيدي ذلك؟ فكرتك عن القوانين الجديدة؟».

- بالطبع.

شعر ناجا بالارتياح وهذا الآن بعدما تحدث عن ما كان يكتمه منذ اليوم الأول.

سأل يابو: «هل قدمت رأيك هذا للزعيم تورانا؟».

أجاب ناجا على الفور بصدق: «لم يطلب الزعيم تورانا رأيي. آمل أن يشرفني ذات يوم ويطلب رأيي كما فعلت».

وتساءل عما إذا كان أي منهم قد اكتشف كذبه.

قال أومي: «بما أن هذه مناقشة حرة يا سيدي، أقول إن هذا الهمجي كنز. أعتقد أننا يجب أن نتعلم من الهمجي. يجب أن نعرف عن الأسلحة والسفن الحربية لأنهم يعرفون عنها. يجب أن نعرف كل ما يعرفونه فور معرفتهم به، وحتى الآن، يجب أن يبدأ بعضنا في تعلم التفكير مثلهم حتى نتفوق عليهم قريباً».

قال ناجا بثقة: «ما الذي يمكنهم معرفته يا أومي سان؟ نعم، الأسلحة والسفن. لكن ماذا أيضاً؟ كيف يمكنهم تدميرنا؟ لا يوجد ساموراى بينهم. ألا يعترف هذا الأنجين علانية بأن حتى ملوكهم قتلة ومتعصبون دينياً؟ نحن ملايين وهم مجرد حفنة. يمكننا اجتياحهم بأيدينا فقط».

- هذا الأنجين سان فتح عيني يا ناجا سان. اكتشفت أن بلادنا والصين ليستا كل العالم، بل هما جزء صغير جداً منه. في البداية اعتقدت أن الهمجي كان مجرد فضول. أما الآن فلا. أشكر الآلهة عليه. أعتقد أنه أنقذنا وأعلم أنه يمكننا التعلم منه. لقد منحنا بالفعل القوة على الهمج الجنوبيين، وعلى الصين.

- ماذا؟

- فشل التايكو لأن أعدادهم كبيرة جداً بالنسبة لنا، رجل لرجل، سهم لسهم، أليس كذلك؟ بالأسلحة والمهارات الهمجية يمكننا الاستيلاء على بكين.

- بالخيانة الهمجية يا أومي سان!

- بل بالمعرفة الهمجية يا ناجا سان، يمكننا الاستيلاء على بكين. من يستولي على بكين يسيطر في النهاية على الصين. ومن يسيطر على الصين يمكنه السيطرة على العالم. يجب أن نتعلم ألا نخجل من أخذ المعرفة من أي مكان تأتي منه.

- أقول إننا لا نحتاج إلى شيء من الخارج.

- لا أقصد الإهانة يا ناجا سان، أقول إن علينا حماية أرض الآلهة هذه بأي وسيلة. إن واجبنا الأساسي هو حماية المكانة الإلهية الفريدة التي نحتلها على الأرض. فقط هذه هي أرض الآلهة، أليس كذلك؟ فقط إمبراطورنا إلهي. أوافق على أن هذا الهمجي يجب أن يُكمم. لكن ليس بالموت. بالعزل الدائم هنا في أنجيرو، حتى نتعلم كل ما يعرفه.

خدش جوزين ذقنه بتفكير: «سأخبر سيدي آراءك. أوافق على أن الهمجي يجب أن يُعزل. كما يجب أن يتوقف التدريب فوراً».

أخرج يابو لفافة من كمه: «ها هو تقرير كامل عن التجربة للزعيم إيشيدو. عندما يرغب الزعيم إيشيدو في وقف التدريب، بالطبع سيتوقف التدريب».

استلم جوزين اللفافة وسأل: «وماذا عن الزعيم توراناغا؟».

وجه نظره نحو ناجا. لم يقل ناجا شيئاً ولكنه حذق إلى اللفافة.

قال يابو: «ستتمكن من سؤاله عن رأيه مباشرة. لديه تقرير مشابه. أفترض أنك ستغادر إلى إيدو غداً؟ أم تود مشاهدة التدريب؟ لا أحتاج إلى أن أخبرك أن الرجال ليسوا ماهرين بعد».

- أود رؤية «هجوم» واحد.

- رتب ذلك يا أومي سان. ستقوده بنفسك.

- حسناً يا سيدي.

التفت جوزين إلى مساعده وأعطاه اللفافة: «خذ هذه إلى الزعيم إيشيدو يا ماسوموتو. ستغادر فوراً».

- حسناً يا جوزين سان.

قال يابو إلى إيجوراشي: «زوده بمرشدين إلى الحدود وخيول جديدة».

غادر إيجوراشي مع الساموراي على الفور.

تتأهب جوزين وتمدد: «أرجو أن تعذروني. لكن كل ركوب الخيل الذي قمت به في الأيام القليلة الماضية قد أرهقني. يجب أن أشرك على الأمسية الاستثنائية يا يابو ساما. أفكارك بعيدة المدى. وكذلك أفكارك يا أومي سان. وأنت يا ناجا سان. سأثني عليكم للزعيم توراناغا ولسيدي. والآن إذا سمحتم لي، أنا متعب للغاية وأوساكا بعيدة جداً».

قال يابو: «بالطبع. كيف كانت أوساكا؟».

- جيدة جدًا. هل تتذكر قطاع الطرق، الذين هاجموكم برًا وبحرًا؟
- بالطبع.

- لقد قطعنا أربعمائة وخمسين رأسًا تلك الليلة. العديد منهم كانوا يرتدون زي توراناغا.

- الرونين بلا شرف. بلا أي شرف.

- بعض الرونين لديهم شرف.

قال جوزين متألمًا من الإهانة. لقد عاش دائمًا مع عار كونه رونين في السابق. قال: «بعضهم كان يرتدي زي الرماذي الخاص بنا. لم ينجُ أحد. كلهم ماتوا».

- وماذا عن بونتارو سان؟

- لا، لقد...

توقف جوزين. لقد زل لسانه بكلمة «لا»، ولكن الآن بعد أن قالها لم يعد يمانع. قال: «لا نعلم على وجه اليقين... لم يجد أحد رأسه. ألم تسمعوا شيئًا عنه؟».

قال ناجا: «لا».

- ربما أسر. ربما قطعوه إلى أشلاء ونثروه. يود سيدي أن يعرف عندما تحصلون على أخبار. كل شيء على ما يرام الآن في أوساكا. تجري التحضيرات للاجتماع. ستكون هناك احتفالات فاخرة للاحتفال بالعصر الجديد، وبالطبع لتكريم جميع الدايميو.

سأل ناجا بأدب: «وماذا عن الزعيم تودا هيرو ماتسو؟».

- القبضة الحديدية العجوز قوي وفظ كما كان دائمًا.

- هل لا يزال هناك؟

- لا. غادر مع جميع رجال والدك قبل بضعة أيام من مغادرتي.

- وماذا عن أهل بيت والدي؟

- سمعت أن السيدة كيريتسوبو والسيدة سازوكو طلبتا البقاء مع سيدي. نصح الطبيب السيدة بالراحة لشهر، فإن صحتها كما تعلم. لقد اعتقد أن الرحلة لن تكون جيدة للمولود المنتظر.

وأضاف موجهاً كلامه إلى يابو: «لقد سقطت في الليلة التي غادرت فيها، أليس كذلك؟».

- بلى.

سأل ناجا بقلق بالغ: «آمل أنه لم يكن أمرًا خطيرًا».

قال جوزين: «لا يا ناجا سان، لا شيء خطير». ثم وجه كلامه مجددًا ليابو: «هل أبلغت الزعيم توراناغا بوصولي؟».

- بالطبع.

- جيد.

- الأخبار التي جلبتها لنا ستثير اهتمامه جدًا.

- نعم. رأيت حمامة زاجلة تحوم وتطير شمالًا.

- لدي هذه الخدمة الآن.

لم يصف يابو أن الحمامة التابعة لجوزين قد لوحظت أيضًا، أو أن الصقور قد اعترضتها بالقرب من الجبال، أو أن الرسالة قد فُكَّ شيفرتها: «في أنجيرو. كل شيء صحيح كما ورد. يابو وناجا وأومي والهمجي هنا».

- سأغادر غدًا بعد إذنك، بعد «الهجوم». هل ستعطيني خيولًا جديدة؟

يجب ألا أبقى الزعيم توراناغا منتظرًا. أتطلع لرؤيته. وكذلك سيدي. في أوساكا. آمل أن ترافقه يا ناجا سان.

- سأكون هناك إذا أمرت بذلك.

أبقى ناجا عينيه منخفضتين لكنه كان يحترق بغضب مكبوت.

غادر جوزين وسار مع حراسه إلى معسكره. أعاد ترتيب الحراس وأمر رجاله بالنوم ودخل إلى خيمته الصغيرة التي بنوها لمواجهة المطر القادم. تحت ضوء الشمعة، وتحت شبكة البعوض، أعاد كتابة الرسالة السابقة على قطعة رقيقة من ورق الأرز وأضاف: «الأسلحة الخمسمائة مدمرة. هجمات مفاجئة بالأسلحة مخططة، أرسل التقرير الكامل مع ماسوموتو». ثم أرخها وأطفأ الشمعة. خرج من أسفل الشبكة في الظلام وأخذ إحدى الحمامات من السلال ووضع الرسالة في الحاوية الصغيرة على قدمها. ثم تسلل بهدوء إلى أحد رجاله وسلمه الطائر.

همس: «خذها إلى الأدغال، وأخفها في مكان آمن حيث يمكنها أن تعيش حتى الفجر. بعيدًا بقدر ما تستطيع. لكن كن حذرًا، فتوجد أعين في كل مكان. إذا اعترضك أحدهم، قل إنني أمرتك بأن تقوم بدورية، ولكن أخف الحمامة أولاً».

ابتعد الرجل بصمت كالصراصير.

كان جوزين مسرورًا بنفسه ونظر نحو القرية أسفل التل. كانت توجد أضواء مضاءة في القلعة وعلى المنحدر المقابل، في المنزل الذي عرف أنه يخص أومي. كانت توجد أضواء قليلة أيضًا في المنزل الذي يقع أدناه مباشرة، والذي كان يسكنه الهمجي في ذلك الوقت.

فكر جوزين وهو يلوح بيده لإبعاد بعوضة: ذلك الجرو ناجا على حق، الهمجي طاعون قدر.

- تصبحين على خير يا فوجيكو سان.

- تصبح على خير يا أنجين سان.

أغلقت الشوجي خلفها. خلع بلاكتورن الكيمونو واللباس الداخلي وارتدى كيمونو النوم الأخف، ودخل تحت شبكة البعوض، واستلقى.

أطفأ الشمعة. غمره الظلام الدامس. كان المنزل هادئًا الآن. والنوافذ الصغيرة مغلقة وكان يستطيع سماع صوت الأمواج. وحجبت الغيوم القمر.

كان النبيذ والضحك قد جعلاه يشعر بالنعاس والابتهاج، واستمع إلى صوت الأمواج وشعر بنفسه ينجرف معها، حيث بدأ عقله يتشوش. من حين لآخر يسمع كلب ينبح في القرية أسفل التل. فكر متذكرًا كلبه بول ترير في موطنه: يجب أن أربي كلبًا. أتساءل إن كان لا يزال حيًا؟ كان اسمه جروج، لكن ابنه تيودور كان دائمًا يناديه «أوج أوج».

آه يا تيودور، يا فتى. لقد مر وقت طويل.

أتمنى لو أستطيع رؤيتكم جميعًا، حتى كتابة رسالة وإرسالها إلى الوطن. فكر: لنر، كيف سأبدوها؟

- أحبائي: هذه هي أول رسالة أتمكن من إرسالها إلى الوطن منذ وصولنا إلى اليابان. الأمور جيدة الآن بعد أن تعلمت كيفية العيش وفقًا

لعاداتهم. الطعام سيئ جدًا ولكن الليلة تناولت طائر التدرج وقريبًا سأستعيد سفينتي. من أين أبدأ قصتي؟ اليوم أنا مثل زعيم إقطاعي في هذا البلد الغريب. لدي منزل وحصان وثمانية خدم ومدبرة منزل وحلاق خاص بي ومترجم خاص بي. أنا حليق الذقن الآن وأصبحت أخلق يوميًا، شفرات الحلاقة الفولاذية التي لديهم هنا بالتأكيد هي الأفضل في العالم. راتبي ضخم يكفي لإطعام مائتين وخمسين عائلة يابانية لمدة عام. في إنجلترا هذا يعادل تقريبًا ألف جنيه ذهبي سنويًا. عشرة أضعاف راتبي من الشركة الهولندية...

بدأ الشوجي ينفتح. امتدت يده إلى مسدسه تحت الوسادة واستعد مجبرًا نفسه على الاستيقاظ. ثم سمع صوت الحرير الذي يكاد يكون غير ملحوظ ورائحة عطر خفيفة.

سمع همس مشحون بالوعد: «أنجين سان؟».

سأل بالهدوء نفسه محددًا في الظلام، غير قادر على الرؤية بوضوح: «نعم؟».

اقتربت الخطوات. وسمع صوت جلوسها على ركبتيها وإزاحة الشبكة جانبًا، ثم انضمت إليه داخل الشبكة المحيطة. أمسكت بيده ورفعتها إلى صدرها، ثم إلى شفتيها.

- ماريكو سان؟

امتدت أصابع على الفور في الظلام ولمست شفتيه، محذرة إياه من الكلام. أومأ برأسه مدرّكًا المخاطرة الهائلة التي كانوا يخوضونها. أمسك برسغها الصغير وقبّله. وامتدت يده الأخرى إلى وجهها في الظلام الدامس ولامسه بلطف. قبّلت أصابعه واحدة تلو الأخرى. كان شعرها مفكوكًا ويمتد حتى خصرها الآن. تحسست يداها جسدها. الملمس الجميل للحرير ولا شيء تحته. كان مذاقها حلواً. لمس لسانه أسنانها، ثم حام حول أذنيها مكتشفًا إياها. فتحت رداءه وتركت رداءها يسقط جانبًا، وكان تنفسها أضعف الآن. اقتربت منه أكثر وسحبت الغطاء فوق رأسيهما. ثم بدأت تحبه بأيديها وشفاهها. بلمسات أكثر حنانًا وسعيًا ومعرفةً مما عرفه في حياته.



الفصل الثالث والثلاثون

استيقظ بلاكتورن عند الفجر وحيّدًا. في البداية كان متأكدًا أنه كان يحلم، لكن رائحة عطرها كانت لا تزال عالقة، وعرف أنه لم يكن حلمًا. طرق خفيف.

- نعم؟

- صباح الخير يا أنجين سان، معذرة.

فتحت خادمة الشوجي لفوجيكو، ثم أحضرت صينية بها شاي ووعاء من عصيدة الأرز وكعك الأرز الحلو.

قال شاكرًا لها: «صباح الخير يا فوجيكو سان، شكرًا».

كانت دائمًا تحضر أول وجبة له شخصيًا، تفتح الشبكة وتنتظر بينما يأكل، وتضع الخادمة كيمونو نظيفًا وجوارب تابي ولباسًا داخليًا.

ارتشف الشاي متسائلًا عما إذا كانت فوجيكو تعرف عن الليلة الماضية. لم يكن على وجهها أي دلالة.

سأل بلاكتورن: «كيف حالك؟».

- بخير، شكرًا لك. وأنت؟

أخرجت الخادمة ملابسها النظيفة من الخزانة المخفية التي كانت تندمج بأناقة مع باقي الغرفة المكسوة بالورق، ثم تركتهما وحدهما.

- هل نمت جيدًا؟

- نعم يا أنجين سان، شكرًا جزيلاً.

ابتسمت ووضعت يدها على رأسها متظاهرة بالألم، مشيرة إلى أنها كانت ثملة ونامت كالحجر. قالت: «وأنت؟».

- نمت جيدًا جدًا.

صححت له الجملة.

شكرها وكرر الجملة بالطريقة الصحيحة.

- جيد. جيد جداً.

ثم سمع ماريكو تنادي من الممر: «فوجيكو سان؟».

- نعم يا ماريكو سان؟

ذهبت فوجيكو إلى الشوجي وفتحته قليلاً. لم يستطع رؤية ماريكو. ولم يفهم ما كانت تقوله.

فكر: آمل ألا يعرف أحد، أدعو أن يبقى الأمر سرّاً، بيننا فقط. ربما من الأفضل لو كان حلماً.

بدأ يرتدي ملابسه. عادت فوجيكو وجلست لتثبت المشابك على جوارب التابي.

- ماريكو سان؟ ما الأمر؟

أجابت: «لم يكن شيئاً مهماً يا أنجين سان».

ذهبت إلى التوكونوما، الكوة التي تحتوي على اللفافة المعلقة وباقة الزهور، حيث كانت توضع سيوفه دائماً. أعطتها له. وضعها في حزامه. لم يعد يشعر بأن السيوف غريبة عليه، رغم أنه تمنى لو كان بإمكانه ارتداؤها بخجل أقل.

أخبرته أن والدها حصل على السيوف لشجاعته بعد معركة دموية معينة في أقصى شمال كوريا، قبل سبع سنوات خلال الغزو الأول. كانت الجيوش اليابانية قد اجتاحت المملكة، منتصرة، تشق طريقها شمالاً. ثم عندما كانوا بالقرب من نهر يالو، اندفعت جحافل الصينيين عبر الحدود للانضمام إلى المعركة مع الجيوش اليابانية، وهزموهم من خلال أعدادهم الهائلة. كان والد فوجيكو جزءاً من الحرس الخلفي الذي غطى الانسحاب إلى الجبال شمال سيول، حيث استداروا وخاضوا المعركة إلى طريق مسدود. كانت هذه الحملة والحملة الثانية أكثر الحملات العسكرية تكلفة على الإطلاق. عندما توفي التايكو العام الماضي، أمر توراناغا نيابةً عن مجلس الوصاية على الفور بإعادة ما تبقى من جيوشهم إلى الوطن، مما أثار ارتياح الغالبية العظمى من الداييميو، الذين كانوا يمقتون الحملة الكورية.

خرج بلاكتورن إلى الشرفة. انتعل نعاله وأوماً إلى خدمه، الذين كانوا مصطفىين في صف مرتب ليودعوه كما جرت العادة.

كان يوماً كثيباً. السماء ملبدة بالغيوم ورياح دافئة رطبة تهب من البحر. كانت الأحجار المرصوفة في الحصى على الطريق مبللة بالمطر الذي سقط في الليل.

خارج البوابة توجد الخيول وعشرة من الساموراي الذين يرافقونه. وماريكو.

كانت قد امتطت الحصان بالفعل وترتدي عباءة صفراء باهتة فوق بنطلون حريري أخضر باهت، وقبعة واسعة الحواف مع حجاب مثبت بشرائط صفراء، وقفازات. ومظلة المطر جاهزة في غمد السرج.

قال برسمية: «صباح الخير. صباح الخير يا ماريكو سان».

- صباح الخير يا أنجين سان. كيف حالك؟

- أنا بخير بفضلك. وأنت؟

ابتسمت: «بخير، شكرًا لك».

لم تظهر أي تلميح ولو ضئيل بأنه يوجد شيءٌ مختلفٌ بينهما. لكنه لم يتوقع أي شيء، ليس في العلن، عالمًا بخطورة الوضع. كان عطرها يفوح وودّ تقبيلها هنا، أمام الجميع.

قال وامتطى السرج: «هيا بنا».

أشار إلى الساموراي للانطلاق أمامه. سار بحصانه على مهل وانضمت ماريكو بجانبه. استرخى عندما أصبحا وحدهما.

- ماريكو.

- نعم؟

ثم قال باللاتينية: «أنتِ جميلة وأنا أحبكِ».

- أشكرك، لكن كثرة النبيذ الليلة الماضية يجعل رأسي يشعر بأنه ليس جميلًا اليوم، ليس حقًا، والحب كلمة مسيحية.

- أنتِ جميلة ومسيحية، والنبيذ لم يستطع التأثير بكِ.

- أشكرك على الكذبة يا أنجين سان، نعم، أشكرك.

- لا. يجب أن أشكركِ.

- حقًا؟ لماذا؟

- لا تسألني «لماذا» أبدًا، لا تسألني «لماذا». أشكرُك بصدق.
 قالت: «إذا كان النبيذ واللحم يجعلانك دافئًا ولطيفًا ونبيلًا، إذنًا يجب أن أخبر خليلتك بأن تحرك السماء والأرض للحصول عليهما لك كل مساء».
 - نعم. أود أن يكون كل شيء كما كان، دائمًا.
 قالت: «أنت سعيد على غير العادة اليوم. جيد، جيد جدًا. ولكن لماذا؟ لماذا حقًا؟».

- بسببك. أنت تعرفين السبب.
 - لا أعرف شيئًا يا أنجين سان.
 مازحها: «لا شيء؟».
 - لا شيء.
 تفاجأ. كانا وحدهما تمامًا، وأمنين.
 سألت: «لماذا كلمة «لا شيء» تنتزع الفرح من ابتسامتك؟».
 - غباء، غباء مطلق. لقد نسيت أنه من الحكمة أن أكون حذرًا. كل ما في الأمر أننا كنا وحدنا وأردت التحدث عن الأمر. وفي الحقيقة، أردت أن أقول المزيد.

- أنت تتحدث بالألغاز. لا أفهمك.
 كان مصدومًا مجددًا. قال: «ألا تريدين التحدث عن الأمر؟ إطلاقًا؟».
 - عن ماذا يا أنجين سان؟
 - ما حدث في الليلة الماضية؟
 - مررتُ ببابك في الليل عندما كانت خادمتي كوي معك.
 - ماذا!!
 - نحن، خليلتك وأنا، اعتقدنا أنها ستكون هدية ممتعة لك. لقد أرضتكَ، أليس كذلك؟

كان بلاكتورن يحاول استعادة توازنه. كانت خادمة ماريكو بنفس حجمها لكنها أصغر عمرًا وليست جميلة بالقدر نفسه، نعم، كان الظلام دامسًا ورأسه مشوشًا من النبيذ لكن لا، لم تكن الخادمة.
 قال بالبرتغالية: «هذا ليس ممكنًا».

سألتها باللغة نفسها: «ما الذي ليس ممكنًا يا سيدي؟».

عاد إلى اللاتينية مجددًا، حيث لم يكن المرافقون بعيدين، والرياح تهب في اتجاههم: «رجاء لا تمازحيني. لا أحد يمكنه سماعنا. أستطيع التعرف على الحضور ورائحة العطر».

- هل كنت تظنها أنا؟ أوه، لم تكن أنا يا أنجين سان. كنت سأتشرف ولكن لا أستطيع أبدًا... مهما أردت. أوه لا يا أنجين سان. لم تكن أنا بل كوي خادمتي. كنت سأتشرف ولكنني أنتمي إلى رجل آخر حتى وإن كان ميتًا.

كتم غضبه بصعوبة: «نعم، ولكنها لم تكن خادمتك. لكن دعي الأمر كما تشائين».

قالت بلهجة مهدئة: «كانت خادمتي يا أنجين سان. عطرناها بعطري وأوصيناها بالألا تتحدث، بل تكتفي باللمس. لم يخطر ببالنا لحظة أنك ستظن أنها أنا. لم يكن ذلك لخداعك بل لتسهيل الأمر عليك، لأننا نعلم أن الحديث عن أمور الجماع ما زال يسبب لك إحراجًا».

كانت تنظر إليه بعينين بريئتين ومتسعتين وأضافت: «هل أمتعتك يا أنجين سان؟ أنت أمتعتها».

- المزاح بشأن أمور باللغة الأهمية أحيانًا يكون بلا دعابة.

- الأمور ذات الأهمية الكبرى تُعامل دائمًا بأهمية كبرى. لكن خادمة في الليل مع رجل لا تُعتبر ذات أهمية.

- أنا لا أعتبرك بلا أهمية.

- أشكرك. وأنا كذلك بالقدر نفسه. لكن خادمة في الليل مع رجل هي مسألة خاصة وليست ذات أهمية. إنها هدية منها له، وأحيانًا منه لها. لا أكثر.

- مطلقًا؟

- أحيانًا. ولكن هذه المسألة الخاصة بالجماع لا تحمل هذه الجدية الكبيرة التي تتحدث عنها.

- مطلقًا؟

- فقط عندما يجتمع الرجل والمرأة معًا مخالفين القانون. في هذه الأرض.

شدّ لجام حصانه، وأدرك أخيرًا سبب نكرانها. قال: «أعتذر. نعم، أنتِ على حق وأنا مخطئ تمامًا. لم يكن ينبغي أن أتكلم. أعتذر».

- لماذا تعتذر؟ على ماذا؟ أخبرني يا أنجين سان، هل كانت تلك الفتاة ترتدي صليبًا؟

- لا.

- أنا دائمًا أرتديه. دائمًا.

قال تلقائيًا بالبرتغالية: «الصليب يمكن نزعهِ. هذا لا يثبت شيئًا. ويمكن إعارته مثل العطر».

- أخبرني حقيقة أخيرة: هل رأيت الفتاة حقًا؟ رأيتهَا حقًا؟

- بالطبع. رجاءً دعينا ننسَ أنني قد...

- كانت الليلة شديدة الظلام، والقمر مغطى بالغيوم. رجاءً قل الحقيقة يا أنجين سان. فكر، هل رأيت الفتاة حقًا؟

فكر بسخط: بالطبع رأيتهَا.

تبّأ، فكر بصدق. لم ترها. كان رأسك مشوشًا. ربما كانت الخادمة، لكنك اعتقدت أنها ماريكو لأنك أردت ماريكو ولم تر سوى ماريكو في عقلك، معتقدًا أن ماريكو ستريديك بالقدر نفسه. أنت أحمق. أحمق لعين.

قال: «في الحقيقة، لا. في الحقيقة يجب أن أعتذر بصدق. كيف أعتذر؟».

ردت بهدوء: «لا توجد حاجة إلى الاعتذار يا أنجين سان. لقد أخبرتك مرارًا وتكرارًا أن الرجل لا يعتذر أبدًا، حتى عندما يكون مخطئًا. وأنت لم تكن مخطئًا».

عينها مازحتاه الآن: «وخادمتي لا تحتاج إلى اعتذار».

قال ضاحكًا: «شكرًا لك. أنتِ تجعليني أشعر بأنني أقل غباءً».

- السنوات تهرب منك عندما تضحك. يصبح أنجين سان الجدي صبيًا مجددًا.

- أخبرني والدي أنني ولدت عجوزًا.

- حقًا؟

- كان يظن ذلك.
- كيف كان؟
- كان رجلًا رائعًا. مالك سفينة وقبطان. قتله الإسبان في مكان يسمى أنتويرب عندما سيطروا على تلك المدينة. أحرقوا سفينته. كنت في السادسة من عمري، لكنني أتذكره كرجل ضخم وطويل وطيب الطبع بشعر ذهبي. أخي الأكبر آرثر كان عمره ثمانية... مررنا بأوقات صعبة حينها يا ماريكو سان.
- لماذا؟ رجاء أخبرني. رجاء.
- إنه شيء طبيعي جدًا. كانت كل أموالنا مرتبطة بالسفينة وتلك فقدناها... وبعد ذلك بفترة قصيرة ماتت أختي. ماتت جوعًا. كانت هناك مجاعة في عام 71 وطاعون آخر.
- نعاني الطاعون أحيانًا. الجدري. هل كنتم كثيرين في عائلتك؟
- قال وهو سعيد بالحديث لتخفيف الألم الآخر: «كنا ثلاثة. ويليأ أختي، كانت في التاسعة عندما ماتت. آرثر كان التالي، أراد أن يكون فنانًا، نحاتًا، لكنه اضطر إلى أن يصبح متدربًا في مهنة قطع الحجارة لمساعدتنا. قُتل في الأسطول الإسباني. كان عمره خمسة وعشرين عامًا، مسكين، انضم إلى سفينة دون تدريب، كم كان ذلك مضيعة. أنا آخر فرد من عائلة بلاكثورن. زوجة آرثر وابنته تعيشان مع زوجتي وأطفالي الآن. ما زالت والدتي على قيد الحياة، وكذلك الجدة العجوز جاكوبا، عمرها خمسة وسبعون عامًا وقاسية كقطعة من خشب البلوط الإنجليزي رغم أنها كانت أيرلندية. على الأقل كانوا أحياء عندما غادرت قبل أكثر من عامين».
- بدأ الألم يعود. وعد نفسه: سأفكر فيهم عندما أبدأ رحلتي للعودة، لكن ليس قبل ذلك.
- قال وهو يراقب البحر: «ستكون هناك عاصفة غدا. عاصفة قوية يا ماريكو سان. وبعد ثلاثة أيام سيكون لدينا طقس جميل».
- إنه موسم العواصف. غالبًا ما تكون السماء مغطاة بالغيوم ومليئة بالمطر. يصبح الجو رطبًا عندما يتوقف المطر. ثم تبدأ الأعاصير.
- كان يفكر: أتمنى لو كنت في البحر مجددًا. هل سبق لي أن كنت في البحر؟ هل كانت السفينة حقيقية؟ ما هو الواقع؟ ماريكو أم الخادمة؟

- أنت لا تضحك كثيرًا، أليس كذلك يا أنجين سان؟
- لقد كنت أبحر لفترة طويلة. البحارة دائمًا جديون. تعلمنا مراقبة البحر. نحن دائمًا نراقب ومنتظر الكارثة. إذا رفعت عينيك عن البحر للحظة، ستضرب سفينتك وتجعلها حطامًا.
- قالت: «أنا أخاف من البحر».
- وأنا كذلك. قال لي صياد عجوز مرة: «الرجل الذي لا يخاف من البحر سيفرق قريبًا لأنه سيبحر في يوم لا ينبغي له أن يبحر فيه. ولكننا نخاف من البحر لذلك نغرق فقط بين الحين والآخر. (نظر إليها): ماريكو سان...
- نعم؟
- قبل قليل أقنعتني... حسنًا، لنقل إنني كنت مقتنعًا. الآن لم أعد كذلك. ما هي الحقيقة؟ الحقيقة. يجب أن أعلم.
- الأذان لتسمع بها. بالطبع كانت الخادمة.
- هذه الخادمة. هل يمكنني أن أطلبها متى أردت؟
- بالطبع. لكن الرجل الحكيم لن يفعل.
- لأنني قد أشعر بخيبة أمل؟ المرة القادمة؟
- ربما.
- أجد صعوبة في امتلاك خادمة ثم فقدانها، صعوبة في ألا أقول شيئًا...
- الجماع هو متعة. للجسد. لا حاجة إلى قول شيء.
- ولكن كيف أخبر خادمة بأنها جميلة؟ بأنني أحبها؟ بأنها ملأتني بالنشوة؟
- ليس من اللائق أن «تحب» خادمة بهذه الطريقة. ليس هنا يا أنجين سان. هذه العاطفة ليست حتى لزوجة أو خلية. (تجعدت عيناها فجأة): ولكن فقط تجاه شخص مثل كيكو سان، المحظية الجميلة جدًا والتي تستحق ذلك.
- أين يمكنني أن أجد هذه الفتاة؟
- في القرية. سيشرفني أن أقوم بدور الوسيط بينكما.
- بحق المسيح، أعتقد أنك تعنين ذلك.

- بالطبع. الرجل يحتاج إلى العواطف بكل أنواعها. هذه السيدة تستحق الحب، إذا كنت تستطيع تحمل ثمنها.
- ماذا يعني ذلك؟
- ستكون مكلفة جدًا.
- لا يمكن شراء الحب. هذا النوع لا يساوي شيئًا. «الحب» ليس له ثمن. ابتسمت: «الجماع دائمًا له ثمن. دائمًا. ليس بالضرورة المال يا أنجين سان. ولكن الرجل يدفع، دائمًا، مقابل الجماع بطريقة أو بأخرى. الحب الحقيقي نسميه الواجب، هو من روح إلى روح ولا يحتاج إلى مثل هذا التعبير، لا يحتاج إلى تعبير جسدي، ربما باستثناء هدية الموت».
- أنتِ مخطئة. أتمنى أن أريك العالم كما هو.
- أنا أعرف العالم كما هو، وكما سيكون إلى الأبد. هل تريد هذه الخادمة الحقيمة مجددًا؟
- نعم. أنت تعرفين أنني أريد...
- ضحكت ماريكو بسعادة: «إذا سُرسل إليك عند الغروب. سنرافقها أنا فوجيكو».
- ضحك معها: «تَبَّ، أعتقد أنك ستفعلين ذلك أيضًا».
- من الجيد أن أراك تضحك يا أنجين سان. تغيرت كثيرًا منذ عودتك إلى أنجيرو. تغيير كبير جدًا.
- لا. ليس كثيرًا. ولكن الليلة الماضية حلمت حلمًا. كان ذلك الحلم تجسيدًا للكمال.
- الرب هو الكمال. وأحيانًا يكون غروب الشمس أو بزوغ القمر أو أول زعفران في العام.
- أنا لا أفهمك على الإطلاق.
- رفعت الغطاء عن قبعتها ونظرت إليه مباشرة: «ذات مرة قال لي رجل آخر: «أنا لا أفهمك على الإطلاق». فقال زوجي: «اعذرني يا سيدي، لكن لا يمكن لأي رجل أن يفهمها. والدها لا يفهمها، ولا الآلهة، ولا إلهها الهمجي، ولا حتى أمها تفهمها»».
- كان ذلك توراناغا؟ الزعيم توراناغا؟

- أوه، لا يا أنجين سان. كان ذلك التايكو. الزعيم توراناغا يفهمني. إنه يفهم كل شيء.
 - حتى أنا؟
 - يفهمك جدًا.
 - أنت متأكدة من ذلك، أليس كذلك؟
 - بلى. بلى جدًا.
 - هل سينتصر في الحرب؟
 - نعم.
 - هل أنا تابعه المفضل؟
 - نعم.
 - هل سيأخذ أسطولي؟
 - نعم.
 - متى سأستعيد سفينتي؟
 - لن تستعيدها.
 - لماذا؟
- اختفت جديتها: «لأنك ستحظى بخادمتك في أنجيرو وستكون مشغولاً بالجماع لدرجة أنك لن تمتلك الطاقة للمغادرة، حتى لو على يديك وركبتك، عندما تطلب منك الذهاب على متن سفينتك، وعندما يطلب منك الزعيم توراناغا أن تصعد إلى متنها وتتركنا جميعاً».
- ها أنتِ مجددًا، في لحظة تكوني جادة جدًا، والأخرى لا.
 - هذا فقط لأجيبك يا أنجين سان، ولأضع بعض الأمور في مكانها الصحيح. ولكن قبل أن تغادرنا يجب أن ترى السيدة كيكو. إنها تستحق شغفًا عظيمًا. إنها جميلة وموهوبة جدًا. يجب أن تكون استثنائيًا من أجلها.
 - أشعر بالرغبة في قبول هذا التحدي.
 - أنا لا أتحدى أحدًا. ولكن إذا كنت مستعدًا لأن تصبح ساموراي وليس... ليس أجنبيًا، إذا كنت مستعدًا لمعاملة الجماع كما هو عليه، فسأتشرف بأن أكون وسيطة.

- ماذا يعني ذلك؟
- عندما تكون في مزاج جيد، وعندما تكون مستعداً لتسليّة خاصة جدّاً، اطلب من خليلتك أن تطلب مني.
- لماذا فوجيكو سان؟
- لأنه من واجب خليلتك أن تحرص على إسعادك. من عاداتنا أن نجعل الحياة بسيطة. نحن نحب البساطة، لذا يمكن للرجال والنساء أن يتعاملوا مع الجماع كما هو عليه: جزء مهم من الحياة، بالتأكيد، ولكن بين الرجل والمرأة توجد أمور أكثر أهمية. التواضع على سبيل المثال. الاحترام. الواجب. حتى هذا «الحب» الذي تتحدث عنه. فوجيكو «تحبك».
- لا، هي لا تحبني.
- ستمنحك حياتها. ماذا يوجد أكثر من ذلك لتمنحه؟
- أبعد عينيه عنها بعد فترة ونظر إلى البحر. كانت الأمواج تتلاطم على الشاطئ مع اشتداد الرياح. التفت إليها وسألها: «إن لن يُقال شيء؟ بيننا؟».
- لا شيء. هذا من الحكمة.
- وماذا إذا لم أوافق؟
- يجب أن توافق. أنت هنا. هذا هو موطنك.

انطلقت مجموعة المهاجمين المؤلفة من خمسمائة فارس على قمة التل في تشكيل عشوائي، متجهة نحو أرضية الوادي المليئة بالصخور حيث كانت القوات المدافعة المكونة من ألفي مقاتل مصطفىة في تشكيل قتالي. كان كل فارس منهم يحمل بندقية معلقة على ظهره وحزاماً يحمل جعبات للرصاص والصوان وقرن بارود. كانت ملابسهم مثل معظم الساموراي مزيّجاً من الكيمونو والخرق، لكن أسلحتهم كانت دائماً أفضل ما يمكن لكل منهم تحمل تكلفته. فقط توراناغا وإيشيدو -مقلدين له- كانا يصران على أن تكون قواتهما موحدة الزي وملتزمة عليه. اعتبر جميع الدايميو الآخرين هذا التبذير الظاهري تصرفاً سخيفاً وهدراً للأموال، وتجديداً غير ضروري. حتى بلاكثورن كان يوافقهم الرأي. لم تكن جيوش أوروبا موحدة الزي قط، فأى ملك يمكنه تحمل تكاليف ذلك، باستثناء حرسه الشخصي؟

كان يقف على تلة مع يابو ومعاونيه وجوزين ورجاله وماريكو. كانت هذه أول تجربة شاملة لهجوم. انتظر بقلق. كان يابو متوترًا على غير العادة، وأومي وناجا شديدي الحساسية إلى حد العدائية تقريبًا. بخاصة ناجا. سأل ماريكو: «ما خطب الجميع؟».

- ربما يريدون أن يحسنوا التصرف أمام سيدهم وضعيفه.

- هل هو أيضًا دايميو؟

- لا. ولكنه مهم، أحد قادة الزعيم إيشيدو. سيكون من الجيد إذا كان كل شيء مثاليًا اليوم.

- كنت أتمنى لو أخبرت أنه توجد تجربة.

- ماذا كان سيحقق ذلك؟ كل ما يمكنك فعله، قد فعلته.

فكر بلاكثورن وهو يشاهد الخمسمائة: نعم، لكنهم ليسوا مستعدين بعد. من المؤكد أن يابو يعلم ذلك أيضًا، والجميع يعلم. قال لنفسه بثقة أكبر: لذا إذا حدثت كارثة، حسنًا، هذه هي الكارما. ووجد عزاء في هذه الفكرة.

زاد المهاجمون من سرعتهم بينما كان المدافعون ينتظرون تحت رايات قادتهم، يهزؤون من «العدو» كما اعتادوا أن يفعلوا، مصطفىين في تشكيل عشوائي بعمق ثلاثة أو أربعة رجال. سرعان ما سيترجل المهاجمون خارج نطاق الأسهم. ثم سيتقدم أشجع المحاربين من كلا الجانبين بفخر لإلقاء القفاز معلنين عن نسبهم وتفوقهم بأوضح الإهانات. ثم تبدأ النزالات الفردية، وتزداد تدريجيًا في العدد حتى يأمر أحد القادة بالهجوم العام، ثم يصبح كل رجل لنفسه. عادة ما يهزم العدد الأكبر العدد الأصغر، ثم يُستدعى الاحتياط ويشارك في القتال وتستمر المعركة مجددًا حتى تنهار معنويات أحد الجانبين، ويبدأ عدد قليل من الجبناء في الانسحاب، وسرعان ما ينضم إليهم الكثيرون وتبدأ الفوضى. لم تكن الخيانة غير معتادة. أحيانًا تغير كتائب بأكملها جانبها بأوامر سيدها، ليُرحب بها كحلفاء... دائمًا ما يُرحب بها ولكن لا يُوثق بها أبدًا. أحيانًا يهرب القادة المهزومون لإعادة تجميع قواتهم للقتال مجددًا. وأحيانًا يبقون ويقاثلون حتى الموت، وأحيانًا يُنفذون السيوكو بشرف. ونادرًا ما يُؤسرون. وكان بعضهم يعرضون خدماتهم على المنتصرين. أحيانًا يُقبل ذلك ولكن غالبًا ما يُرفض. الموت كان مصير المهزومين، سريعًا للشجعان ومليئًا بالعار للجبناء. وكان هذا هو النمط التاريخي لجميع المناوشات في

هذه الأرض، حتى في المعارك الكبرى، حيث الجنود هنا مثل الجنود في كل مكان، باستثناء أنهم هنا كانوا أكثر شراسة، وكان الكثير منهم مستعدين للموت من أجل أسيادهم مقارنة بأي مكان آخر على الأرض.

دوى صوت حوافر الخيول في الوادي.

سأل جوزين: «أين قائد الهجوم؟ أين أومي سان؟».

أجاب يابو: «بين الرجال، كن صبوراً».

- لكن أين رايته؟ ولماذا لا يرتدي درع المعركة والريش؟ أين راية القائد؟ إنهم مجرد مجموعة من قطاع الطرق القذرين.

- كن صبوراً. لقد أمر جميع الضباط بالبقاء غير مميزين. لقد أخبرتك. وأرجو ألا تنسى أننا نتظاهر بأن معركة تدور، وأن هذا جزء من معركة كبيرة، مع وجود احتياط وأسلحة...

انفجر جوزين: «أين سيوفهم؟ لا يرتدي أحدهم سيوفاً. ساموراي دون سيوف؟ سيُذبحون».

- كن صبوراً.

الآن كان المهاجمون يترجلون. تقدم أول المحاربين من صفوف المدافعين لإظهار شجاعتهم. وبدأ عدد متساوٍ في التصدي لهم. ثم فجأة اندفعت الكتلة غير المتناسقة من المهاجمين إلى خمس كتائب محكمة الانضباط، كلٌ منها بأربعة صفوف من خمسة وعشرين رجلاً، ثلاث كتائب أمامية واثنان احتياطيتان على بعد أربعين خطوة. اندفعوا كشخص واحد نحو العدو. ثم توقفوا عندما اقتربوا من المدى بأمر من قائدهم وأطلقت الصفوف الأمامية طلقات مدوية في الوقت نفسه. دوت الصرخات وبدأ الرجال يسقطون قتلى. انبطح جوزين ورجاله تلقائياً، ثم راقبوا بذهول الصفوف الأمامية وهي تجثو وتبدأ في إعادة تحميل أسلحتهم، بينما أطلقت الصفوف الثانية النيران عليهم، ثم الثالثة والرابعة بالنمط نفسه. سقط مزيدٌ من المدافعين مع كل طلقة، وامتلاً الوادي بالصراخ والصيحات والفوضى.

صرخ جوزين بصوت أعلى من الضجيج: «أنت تقتل رجالك!».

- إنها ذخيرة فارغة، ليست حقيقية. إنهم يمثلون فقط، لكن تخيل أنه هجوم حقيقي برصاص حقيقي. شاهد.

الآن «استعاد» المدافعون توازنهم من الصدمة الأولية. أعادوا تجميع صفوفهم وهجموا مرة أخرى هجومًا أماميًا. ولكن في هذه المرحلة كانت الصفوف الأمامية قد أعادت تحميل أسلحتها، وعند صدور الأمر أطلقت وابلًا آخر من الرصاص من وضعية الجثو، ثم أطلقت الصفوف الثانية وهي واقفة، وجثت فورًا لإعادة تحميل الأسلحة، ثم الثالثة والرابعة كما فعلوا من قبل، ورغم أن العديد من المسلحين كانوا بطيئين والصفوف غير منظمة، فإنه كان من السهل تخيل الدمار الرهيب الذي يمكن أن يتسبب فيه رجال مدربون. تراجع الهجوم المضاد ثم انهار، وتراجع المدافعون في فوضى متعمدة، عائدون إلى أعلى التل ليتوقعوا أسفل المراقبين. كانت الأرض مغطاة بالعديد من «القتلى».

شعر جوزين ورجاله بالصدمة فقال: «هذه البنادق ستحطم أي صف».

- انتظر. المعركة لم تنتهِ بعد.

أعاد المدافعون تنظيم صفوفهم، وحثهم قادتهم على النصر، ودفعوا بالاحتياطي وأمروا بالهجوم النهائي. اندفع الساموراي إلى أسفل التل، وهم يطلقون صرخاتهم القتالية المدوية، لينهالوا على العدو.

قال جوزين وقد انغمس في واقعية هذه المعركة الوهمية مثل الجميع: «الآن سيسحقونهم».

وكان محققًا. لم تصمد الكتائب، فقد انهاروا وفروا أمام صيحات الساموراي الحقيقية بسيوفهم ورماحهم، وأضاف جوزين ورجاله صيحاتهم الساخرة بينما كانت الفرق تندفع نحو القتل. كانت الفرق المسلحة تفرُّ مثل آكلي الثوم، على سبعين مترًا، مائة وخمسين مترًا، مئتين وعشرين، ثم فجأة أعادت الكتائب تنظيم صفوفها بأمر من قادتهم، هذه المرة في تشكيل على شكل حرف V. ثم بدأت الطلقات المدمرة مرة أخرى. تعثر الهجوم، ثم توقف. لكن استمرت الأسلحة، ثم توقفت أيضًا. وتوقفت اللعبة. لكنَّ كلَّ مَنْ في الأعلى كان يعلم أنه في الظروف الحقيقية كان سيُذبح المقاتلون الأفان.

الآن في ظل الصمت الذي تلا ذلك، بدأ المدافعون والمهاجمون في ترتيب أنفسهم. «الجثث» نهضت، والأسلحة جُمعت. كان هناك ضحك وأنين. كثير من الرجال كانوا يعرجون، وبعضهم أصيب بجروح بالغة.

قال جوزين بصدق: «أهنتك يا يابو ساما. الآن أفهم ما كنتم تقصدون».

رد يابو وهو مسرور داخليًا: «إطلاق النار كان متقطعًا. سيستغرق الأمر شهرًا لتدريبهم».

هز جوزين رأسه: «لن أحب مهاجمتهم الآن. ليس إذا كانت لديهم ذخيرة حقيقية. لا يوجد جيش يمكنه الصمود أمام ذلك الهجوم، ولا صفوف. لن تستطيع الصفوف البقاء متماسكة. ثم ستدفع الجنود العادية والفرسان عبر الفجوة وتلف الجوانب مثل لفافة قديمة». شكر جميع الكامي على أنه كان لديه الحكمة لرؤية هجوم واحد: «كان من الفضيع مشاهدة ذلك. لوهلة ظننت أن المعركة كانت حقيقية».

- لقد أمروا بجعلها تبدو حقيقية. والآن يمكنك اختبار مهاجمي إذا أردت.
- شكرًا. سيكون ذلك شرفًا لي.

كان المدافعون يتجهون إلى معسكراتهم التي كانت تقع على التل البعيد. وكان المسلحون الخمسمائة ينتظرون أدناه، بالقرب من المسار الذي يعبر التلة وينحدر إلى القرية. يتشكلون في صفوفهم، وفي مقدمتهم أومي وناجا، وكلاهما يرتدي السيوف مجددًا.

- يابو ساما؟

- نعم يا أنجين سان؟

- جيد، أليس كذلك؟

- بلى، جيد.

- شكرًا لك يا يابو ساما. أنا سرور.

صححت له ماريكو تلقائيًا: «أنا مسرور».

- آسف جدًا. أنا مسرور.

أخذ جوزين يابو جانبًا وسأله: «هل هذا كله من رأس أنجين سان؟».

كذب يابو: «لا، لكنها الطريقة التي يحارب بها الهمج. إنه فقط يقوم بتدريب الرجال على التحميل وإطلاق النار».

- لماذا لا تفعل كما نصح ناجا سان؟ لديك الآن معرفة الهمجي. لماذا تخاطر بانتشارها؟ إنه طاعون. خطر جدًا يا يابو ساما. كان ناجا سان محقًا. إنه محق... يمكن للفلاحين القتال بهذه الطريقة. بسهولة. تخلص من الهمجي الآن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إذا أراد الزعيم إيشيدو رأسه، ليس عليه سوى أن يطلب.
- تحدث بوحشية مجددًا: «أنا أطلبها. الآن. أتحدث نيابة عنه».
- سأفكر في الأمر يا جوزين سان.
- وأيضًا أطلب نيابةً عنه أن تُسحب جميع الأسلحة من تلك القوات على الفور.
- عبس يابو ثم وجه انتباهه إلى القوات. كانوا يقتربون من التل وصفوفهم المنضبطة والمنظمة جعلتهم يظهرون بصورة هزلية بعض الشيء، فقط لأن مثل هذا النظام كان غير معتاد. توقفت القوات على بعد أربعين مترًا. تقدم أومي وناجا بمفردهما وأدّيا التحية.
- قال يابو: «كان جيدًا كتمرين أول».
- أجاب أومي: «شكرًا لك يا سيدي».
- كان يعرج قليلًا ووجهه متسخًا وملينًا بالكدمات وعلامات البارود.
- قال جوزين: «يجب أن يحمل جيوشك السيوف في المعركة الحقيقية يا يابو ساما، أليس كذلك؟ يجب أن يحمل الساموراي السيوف، ففي النهاية ستنفذ ذخيرتهم، أليس كذلك؟».
- السيوف ستعيقهم في الهجوم والانحسار. سيرتدونها كالمعتاد للحفاظ على عنصر المفاجأة، لكنهم سيتخلصون منهم قبل الهجوم الأول.
- سيحتاج الساموراي دائمًا إلى السيوف. في المعركة الحقيقية. ومع ذلك أنا سعيد لأنك لن تضطر لاستخدام قوة الهجوم هذه، أو...
- كان جوزين سيضيف: «أو هذه الطريقة القذرة والغادرة في الحرب».
- لكنه قال: «أو أننا جميعًا سنضطر إلى التخلي عن سيوفنا».
- ربما سنفعل يا جوزين سان، عندما نذهب إلى الحرب.
- هل ستخلي عن سيفك الموراساما؟ أو حتى هدية توراناغا؟
- للفوز في معركة، نعم. بخلاف ذلك لا.
- إذن قد تحتاج إلى الجري بسرعة لإنقاذ حياتك عندما تتعطل بندقيتك أو يبتل بارودك.
- ضحك جوزين على مزحته. ولم يضحك يابو.
- أمر: «أره يا أومي سان».

أصدر أومي أمراً على الفور. أخرج رجاله سيف الحربة القصير المغمد الذي كان يتدلى تقريباً دون أن يُلاحظ من ظهر أحزمتهم وقاموا بتثبيته على فوهة بنادقهم.

- هجوم!

في الحال هاجم الساموراي مطلقين صرخاتهم القتالية: «كاسيجيبيبي». توقفت غابة الفولان العاري على بعد خطوة واحدة منهم. كان جوزين ورجاله يضحكون بقلق من الضراوة المفاجئة وغير المتوقعة. قال جوزين وهو يلمس إحدى الحراب ووجدها حادة جداً: «جيد، جيد جداً. ربما أنت على حق يا يابو ساما. لنأمل ألا تُختبر».

نادى يابو: «أومي سان! نظم صفوفهم. سيقوم جوزين سان باختبارهم. ثم عد إلى المعسكر. ماريكو سان وأنجين سان، اتبعوني».

تقدم إلى أسفل التل عبر الصفوف، متبوعاً بمساعديه وبلاكثورن وماريكو.

- تشكلوا عند الطريق. واستبدلوا الحراب.

امتثل نصف الرجال على الفور، واستداروا وساروا إلى أسفل المنحدر مرة أخرى. بينما بقي ناجا والمثتان والخمسون ساموراي حيث كانوا، والحراب لا تزال تهدد.

استشاط جوزين غضباً: «ماذا يحدث؟».

قال ناجا بسمّية: «أعتبر إهاناتك غير مقبولة».

- هذا هراء. لم أهنك، أو أي شخص آخر. حرابكم تُهين منصبى. يابو ساما!

استدار يابو. كان الآن على الجانب الآخر من فريق توراناغا. نادى ببرود: «ناجا سان، ما معنى هذا؟».

- لا أستطيع أن أغفر إهانات هذا الرجل لوالدي... أو لي.

- إنه محمي. لا يمكنك لمسه الآن. إنه تحت حماية المجلس.

- عذراً يا يابو ساما، لكن هذا بين جوزين سان وبينى.

- لا. أنت تحت أوامرى. أملك أن تأمر رجالك بالعودة إلى المعسكر.

لم يتحرك أي رجل. بدأت الأمطار بالهطول.

- عذراً يا يابو سان، أرجو أن تسامحني، لكن هذا بينه وبينني ومهما يحدث فأنا أعفيك من مسؤولية أفعالي وأفعال رجالي.

خلف ناجا، استل أحد رجال جوزين سيفه وهاجم ظهر ناجا غير المحمي. وعلى الفور انهال وابل من عشرين بندقية على رأسه. جثا هؤلاء العشرون وبدؤوا بإعادة التحميل. استعدت الصفوف الثانية.

طالب يابو: «من أمر بالذخيرة الحية؟».

- أنا أمرت. أنا يوشي ناجا نو توراناغا.

- ناجا سان! أمرك أن تطلق سراح نيبارا جوزين ورجاله. أنت مأمور بالعودة إلى مسكنك حتى تتمكن من استشارة الزعيم توراناغا بشأن عصيانك.

- بالطبع ستبلغ الزعيم توراناغا والكارما هي كارما. لكن يؤسفني يا زعيم يابو أن هذا الرجل يجب أن يموت أولاً. يجب أن يموتوا جميعاً. اليوم.

صرخ جوزين: «أنا محمي من قبل المجلس. لن تكسب شيئاً بقتلي».

قال ناجا: «سأستعيد شرفي، أليس كذلك؟ أنتقم من سخريتك من والدي وإهاناتك لي. لكن كان يجب عليك الموت على أي حال. أليس كذلك؟ لم أكن أكثر وضوحاً البارحة. الآن رأيت الهجوم. لا أستطيع المخاطرة بأن يتعلم إيشيدو كل هذا....».

أشار بيده إلى ساحة المعركة وأضاف: «هذا الرعب».

انفجر جوزين مباركاً حدسه في الليلة السابقة: «إنه يعلم بالفعل. أرسلت رسالة بواسطة حمامة سراً عند الفجر. لن تكسب شيئاً بقتلي يا ناجا سان».

أشار ناجا إلى أحد رجاله، تقدم ساموراي مُسن وألقى بالحمامة المختنقة على أقدام جوزين. ثم ألقي أيضاً برأس رجل على الأرض، رأس الساموراي ماسوموتو، الذي أرسله جوزين بالأمس مع اللقافة. كانت عيناه ما زالتا مفتوحتين على مصراعيهما، وشفتاه مشدودتين في تجمه مليء بالكراهية. بدأ الرأس يتدحرج عبر الصفوف حتى استقر بجانب صخرة.

صدر أنين من شفاه جوزين. ضحك ناجا وجميع رجاله. حتى يابو ابتسم. قفز أحد ساموراي جوزين نحو ناجا. فانهالت عليه عشرون بندقية، وسقط الرجل المجاور له الذي لم يتحرك أيضاً وهو يتألم مصاباً بجراح مميتة.

توقفت الضحكات.

قال أومي: «هل أمر رجالي بالهجوم يا سيدي؟».

كان من السهل جدًا مناورة ناجا.

مسح يابو المطر عن وجهه: «لا، هذا لن يحقق شيئًا. لقد مات جوزين سان ورجاله بالفعل، مهما فعلت. هذه هي الكارما الخاصة به، كما هي الخاصة بناجا سان».

نادى: «ناجا سان! للمرة الأخيرة، أمرك بإطلاق سراحهم جميعًا».

- أعذرني رجاءً ولكن يجب أن أرفض.

- حسنًا. أبلغني عندما ينتهي الأمر.

- نعم. يجب أن يكون هناك شاهد رسمي يا يابو ساما. للزعيم توراناجا والزعيم إيشيدو.

- ستبقى يا أومي سان. ستوقع شهادة الوفاة وتعد التصريح. أنا وناجا سان سنوقعها.

أشار ناجا إلى بلاكتورن وقال: «دعه يبقَ أيضًا. كشاهدي. هو مسؤول عن موتهم. يجب أن يكون شاهدًا عليهم».

- اذهب إلى هناك يا أنجين سان. إلى ناجا سان. هل تفهم؟

- نعم يا يابو سان. أفهم، لكن لماذا، عذرًا؟

- لكي تكون شاهدًا.

- آسف، لا أفهم.

- اشرح لي كلمة «شاهد» يا ماريكو سان، أنه سيكون شاهدًا على ما سيحدث، ثم اتبعيني.

استدار يابو وغادر خافيًا رضاه الكبير.

صرخ جوزين: «يابو ساما! رجاءً، يابوووو ساما!!!!».

راقب بلاكتورن. وعاد إلى المنزل عندما انتهى الأمر. عم الصمت منزله وخيم الحزن على القرية. لم يجعله الاستحمام يشعر بالنظافة. ولم يُزل الساكي القذارة من فمه. ولم ينقُ البخور الرائحة الكريهة من أنفه.

طلب يابو استدعاءه لاحقًا. حللوا الهجوم لحظة بلحظة. كان أومي وناجا حاضرين مع ماريكو، كان ناجا باردًا كالمعتاد، يستمع ونادرًا ما يعلق، ولا يزال القائد الثاني. لم يبدو أنهم تأثروا بما حدث.

عملوا حتى بعد غروب الشمس. أمر يابو بتسريع وتيرة التدريب. كان يجب تشكيل خمسمائة أخرى فورًا. وأخرى بعد أسبوع.

عاد بلاكتورن إلى المنزل وحيدًا، وتناول الطعام وحيدًا وقد حاصره اكتشافه المروع: لم يكن لديهم أي إحساس بالخطيئة، كانوا جميعًا بلا ضمير، حتى ماريكو.

لم يستطع النوم تلك الليلة. غادر المنزل وكانت الرياح تعصف به بشدة. كانت العواصف تثير الأمواج. هبت عاصفة أقوى دفعت الحطام إلى الاصطدام بأكواخ القرية. كانت الكلاب تعوي نحو السماء وتبحث عن الطعام. تحركت أسطح المنازل المصنوعة من القش وكأنها حية. كانت النوافذ تقرع، وكان الرجال والنساء يكافحون لإغلاقها وتأمينها كالأشباح الصامتة. ارتفع المد بقوة. سُحِبَت جميع قوارب الصيد إلى أماكن أكثر أمانًا على الشاطئ أبعد بكثير من المعتاد. وثبتوا كل شيء بعوارض خشبية.

سار على طول الشاطئ ثم عاد إلى منزله متكئًا على ضغط الرياح. لم يقابل أحدًا. بدأت الأمطار بالهطول وسرعان ما أصبح مبللًا.

كانت فوجيكو تنتظره على الشرفة، والريح تعصف بها، وتخدم المصباح الزيتي المحمي. كان الجميع مستيقظين. نقل الخدم الأغراض الثمينة إلى مبنى التخزين المنخفض المصنوع من الطوب والحجارة في الجزء الخلفي من الحديقة.

لم تهب العاصفة بعد.

انفصلت بلاطة من السقف عندما اندفعت الرياح تحت أحد الأقاريز واهتز السقف بأكمله. سقطت البلاطة وتكسرت بصوت عالٍ. هرع الخدم بعضهم كان يجهز دلاء من الماء، وآخرون كانوا يحاولون إصلاح السقف. كان البستاني المُسن أويكي يا يساعده الأطفال في ربط الشجيرات والأشجار الطرية بأعمدة الخيزران.

هبت عاصفة أخرى جعلت المنزل يهتز.

قال بلاكتورن: «سينهار يا ماريكو سان».

لم تقل شيئاً، والرياح تمزقها هي وفوجيكو، والدموع تسيل من زوايا أعينهما بسبب الرياح. نظر إلى القرية. كانت الحطام الآن تتطاير في كل مكان. ثم اندفعت الرياح عبر شق في الشوجي الورقي لأحد المنازل وانهار الجدار بأكمله، ولم يتبق منه سوى هيكل شبكي فقط. انهار الجدار المقابل وسقط السقف.

التفت بلاكتورن بعجز بينما تمزق الشوجي في غرفته. اختفى ذلك الجدار وكذلك الجدار المقابل. وسرعان ما تمزقت جميع الجدران. أصبح بإمكانه رؤية المنزل بأسره. لكن دعامات السقف بقيت ثابتة، ولم يتحرك السقف المبلط. ثم تطاير الفراش والفوانيس والحصير، وكان الخدم يطاردونهم.

دمرت العاصفة جدران جميع منازل القرية. ودُمرت بعض المساكن بالكامل. لكن لم يُصَب أحدٌ بجروح خطيرة. هدأت الرياح عند الفجر وبدأ الرجال والنساء في إعادة بناء منازلهم.

أُعيد بناء منزل بلاكتورن بحلول الظهر وعادت نصف القرية إلى وضعها الطبيعي. تطلبت الجدران الشبكية الخفيفة القليل من العمل لإعادة تشييدها من جديد، فقط أوتاد خشبية وأربطة للمفاصل التي كانت دائماً مشغولة ومصنعة ببراعة. كانت الأسقف المغطاة بالبلاط والقش أكثر صعوبة، لكنه لاحظ أن الناس كانوا يساعدون بعضهم بعضاً، مبتسمين وسريعين ومدربين جيداً. كان مورا يهرع عبر القرية، ينصح ويوجه ويحفز ويشرف. صعد إلى التل لتفقد التقدم.

بحث بلاكتورن عن الكلمات: «مورا، لقد جعلت... تجعل الأمر يبدو سهلاً».

- شكراً لك يا أنجين سان. نعم، شكراً، لكن كنا محظوظين لأنه لم تحدث حرائق.

- هل تشعلون الحرائق غالباً؟

- معذرةً لكنها: «هل تحدث لديكم حرائق غالباً؟»

كرر بلاكتورن: «هل تحدث لديكم حرائق غالباً؟».

- نعم. لكنني أمرت القرية بأن تكون مستعدة. مستعدة، هل تفهم؟

- نعم.

- عندما تأتي هذه العواصف...

تجمد مورا ونظر بسرعة خلف بلاكتورن. وانحنى بعمق.

كان أومي يقترب بخطواته النشيطة السهلة، وعيناه الودودتان موجّهتان فقط نحو بلاكتورن، كما لو أن مورا لم يكن موجودًا. قال: «صباح الخير يا أنجين سان».

- صباح الخير يا أومي سان. هل منزلك بخير؟

- بخير. شكرًا لك.

نظر أومي إلى مورا وقال بقسوة: «يجب أن يكون الرجال يصطادون أو يعملون في الحقول. وكذلك النساء. يابو ساما يريد ضرائبه. هل تحاول أن تخجلني أمامه بالتكاسل؟».

- لا يا أومي ساما. أرجو أن تعذرني. سأؤكد من ذلك فورًا.

- لا يجب أن يكون من الضروري إخبارك. لن أخبرك في المرة القادمة.

- أعتذر عن غيائي.

أسرع مورا مبتعدًا.

قال أومي لبلاكتورن: «أنت بخير اليوم، هل واجهت أي مشكلات في الليل؟».

- كل شيء جيد اليوم، شكرًا لك. وأنت؟

تحدث أومي لفترة طويلة. لم يفهم بلاكتورن كل ما قاله، كما لم يفهم كل ما قاله أومي لمورا، فقط بضع كلمات هنا وهناك.

- معذرةً لكنني لم أفهم.

- هل استمتعت؟ كيف وجدت يوم أمس؟ الهجوم؟ «المعركة التمثيلية»؟

- آه، فهمت. نعم، أعتقد أنه كان جيدًا.

- وماذا عن المشاهدة؟

- عفواً؟

- المشاهدة! الرونين نيبارا جوزين ورجاله؟

قلد أومي الطعنة بالحربة بضحكة. وأضاف: «شاهدت موتهم. الموت. هل تفهم؟».

- نعم. الحقيقة يا أومي سان، لا أحب القتل.

- كارما يا أنجين سان.
- كارما. هل توجد تدريبات اليوم؟
- نعم. لكن يابو ساما يريد التحدث فقط. لاحقًا. هل تفهم يا أنجين سان؟
التحدث فقط، لاحقًا.
- كرر أومي بصبر.
- التحدث فقط. فهمت.
- لقد بدأت تتحدث لغتنا جيدًا جدًا. نعم، جيدًا جدًا.
- شكرًا لك. صعب. وقت قصير.
- نعم. لكنك رجل جيد وتحاول جاهدًا. هذا مهم. سنوفر لك الوقت يا أنجين سان، لا تقلق، سأساعدك.
- كان أومي يدرك أن معظم ما قاله لم يفهم، لكنه لم يمانع، ما دام فهم أنجين سان الفكرة الأساسية. قال: «أريد أن أصبح صديقك». ثم كررها بوضوح شديد: «هل تفهم؟».
- صديق؟ أفهم «صديق».
- أشار أومي إلى نفسه ثم إلى بلاكثورن: «أريد أن أصبح صديقك».
- حقًا! شكرًا لك. إنه لشرف لي.
- ابتسم أومي مجددًا وانحنى، على قدم المساواة، ثم ابتعد.
- تمتم بلاكثورن: «صديق له؟ هل نسي؟ أنا لم أنس».
- قالت فوجيكو وهي تهرع نحوه: «أنجين سان، هل ترغب في تناول الطعام؟ سيرسل يابو ساما لاستدعائك قريبًا».
- نعم، شكرًا لك.
- سأل وهو يشير إلى المنزل: «الكثير من الأضرار؟».
- آسفة، اعذرني لكن يجب أن تقول: «هل حدثت الكثير من الأضرار؟».
- هل حدثت الكثير من الأضرار؟
- لم يحدث ضرر حقيقي يا أنجين سان.
- جيد. لا إصابات؟
- آسفة، اعذرني لكن يجب أن تقول: «هل أصيب أحد؟».

- شكرًا لك. هل أصيب أحد؟
- لا يا أنجين سان. لم يُصَب أحد.
- فجأة شعر بلاكثورن بالضجر من التصحيح المستمر، فأنهى المحادثة بأمر: «أنا جوع. طعام».
- حسنًا، فورًا. آسفة لكن يجب أن تقول: «أنا جائع». الشخص يشعر بالجوع، لكنه جائع.
- انتظرت حتى قالها بشكل صحيح، ثم ابتعدت.
- جلس على الشرفة وشاهد البستاني المُسن أويكي يا وهو يرتب الأضرار وأوراق الشجر المتناثرة. كان يمكنه رؤية النساء والأطفال وهم يصلحون القرية، والقوارب وهي تبحر وسط الأمواج. بينما اتجه القرويون الآخرون إلى الحقول، وقد هدأت الرياح. سأل نفسه: أتساءل عن الضرائب التي يجب عليهم دفعها؟ لن أحب أن أكون فلاحًا هنا. ليس فقط هنا... بل في أي مكان.
- عند ظهور أول خيط للضوء، شعر بالقلق من الدمار الظاهر في القرية. قال لماريكو: «تلك العاصفة بالكاد تلمس منزلًا إنجليزيًا. كانت عاصفة قوية بالتأكيد، لكنها ليست سيئة. لماذا لا تبنون منازل من الحجر أو الطوب؟».
- بسبب الزلازل يا أنجين سان. أي مبنى حجري سوف يتشقق وينهار بالطبع، وربما يؤدي أو يقتل السكان. أما مع أسلوبينا في البناء، فإن الأضرار تكون قليلة. ستشاهد كيف يُعاد بناء كل شيء بسرعة.
- نعم، لكن لديكم مواد قابلة للاشتعال. وماذا يحدث عندما تأتي الرياح العاتية؟ التيفون؟
- تكون الأمور سيئة للغاية حينها.
- شرحت له عن إعصار التيفون ومواسمه، من يونيو إلى سبتمبر، أحيانًا قبل ذلك، وأحيانًا بعد ذلك. وعن الكوارث الطبيعية الأخرى.
- قبل بضعة أيام حدثت هزة أخرى. كانت طفيفة. سقطت غلاية عن الموقد وقلبته. لحسن الحظ أنهم أخمدوا الجمرات. اشتعلت النار في أحد المنازل في القرية، لكن الحريق لم ينتشر. لم يرَ بلاكثورن مكافحة حرائق بهذه الكفاءة من قبل. بخلاف ذلك، لم يعر أحد في القرية الكثير من الاهتمام. لقد ضحكوا فقط ومضوا في حياتهم.

- لماذا يضحك الناس؟

- نحن نعتبر من المخجل ومن الفظاظ أن تظهر مشاعر قوية، بخاصة مشاعر الخوف، لذلك نخفيها بضحكة أو ابتسامة. بالطبع كلنا نخاف، لكن يجب ألا نظهرها أبدًا.

فكر بلاكثورن: بعضكم يظهرها.

أظهر نيبارا جوزين تلك المشاعر. مات على نحو سيئ، باكيًا من الخوف ومتوسلاً الرحمة، وكان القتل بطيئًا وقاسيًا. سُمح له بالركض، ثم طُعِن بالحرا ب بعناية وسط الضحكات، ثم أُجبر على الركض مجددًا، ثم شُلت رِجلاه. ثم سُمح له بالزحف بعيدًا، ثم دُبِح ببطء بينما كان يصرخ، ودماؤه تسيل مع البلغم، ثم تُرك ليموت.

ثم توجه ناجا إلى الساموراي الآخرين. على الفور جثا ثلاثة من رجال جوزين وكشفوا عن بطونهم ووضعوا خناجرهم القصيرة أمامهم ليقوموا بطقوس السيبوكو. وقف ثلاثة من رفاقهم خلفهم كمساعدين لهم وسيوفهم الطويلة مسلولة ومرفوعة بيدين، ولم يتعرض لهم ناجا ورجاله الآن. بينما كان الساموراي الجاثون يمسكون بخناجرهم، مدوا أعناقهم وسقطت السيوف الثلاثة بسرعة وأطاحت برؤوسهم بضربة واحدة. صرت الأسنان في الرؤوس الساقطة، ثم سكنت. وانتشر الذباب.

ثم جثا اثنان من الساموراي، وكان الرجل الأخير مستعدًا ليكون مساعدهم. قُطع رأس الأول الذي كان جالسًا بنفس طريقة رفاقه عندما أمسك بخنجره. أما الآخر فقال: «لا. أنا هيراساكي كينكو، أعرف كيف أموت، كيف يجب أن يموت الساموراي».

كان كينكو شابًا رشيقيًا، معطرًا وجميلًا تقريبيًا، ذا بشرة شاحبة وشعر مدهون بالزيت جيدًا ومرتب للغاية. أمسك خنجره باحترام ولفَّ النصل جزئيًا بحزامه لتحسين قبضته.

قال بحزم منحنياً لناجا: «أنا أحتج على موت نيبارا جوزين سان ورجاله». ألقي نظرة أخيرة على السماء وابتسم لمساعدته ابتسامة مطمئنة أخيرة: «وداعًا يا تاديو».

ثم أدخل الخنجر عميقًا في الجانب الأيسر من بطنه. شقها بالكامل بكلتا يديه وأخرجها وغرزها مجددًا عميقًا فوق فخذه مباشرة، ثم رفعها بصمت.

انسكبت أحشاؤه الممزقة في حضنه وبينما انحنى وجهه المشوه بشدة والمتألم إلى الأمام، أنزل مساعده السيف بضربة قاطعة.

التقط ناجا شخصياً هذا الرأس من عقدة الشعر ومسح الأوساخ عنه وأغلق العينين. ثم أمر رجاله بأن يتأكدوا من أن يُغسل الرأس ويُلف ويُرسَل إلى إيشيدو مع كامل الشرف، ومع تقرير كامل عن شجاعة هيراساكي كينكو.

جثا الساموراي الأخير. لم يوجد أحد ليساعده. كان أيضاً شاباً. ارتجفت أصابعه وتملكه الخوف. أدى واجبه تجاه رفاقه مرتين، وقطع مرتين بشرف وخلصهم من تجربة الألم وعار الخوف. ومرة انتظر أن يموت صديقه العزيز كما يجب أن يموت الساموراي، مضحياً بذاته في صمت مفعم بالفخر، ثم قطع مرة أخرى ببراعة تامة. رغم أنه لم يسبق له أن قتل من قبل.

ركز عينيه على خنجره الخاص. كشف عن بطنه ودعا أن يتحلّى بشجاعة رفيقه. كانت الدموع تتجمع في عينيه لكنه أجبر وجهه على أن يصبح قنأماً جامداً ومبتسماً. فكك حزامه ولف النصل جزئياً. ثم أشار ناجا إلى مساعده بالذهاب إليه لأن الشاب قد أدى واجبه على أكمل وجه.

تقدم هذا الساموراي وانحنى مقدماً نفسه رسمياً: «أوساراجي نامبو، قائد الفيلق التاسع للزعيم توراناغا. سيشرفني أن أكون مساعدك».

أجاب الشاب: «إيكومو تاديو، الضابط الأول وتابع للزعيم إيشيدو. شكراً لك. سأتشرف بقبولك كمساعد لي».

كان موته سريعاً، بلا ألم، وبشرف.

جُمعت الرؤوس. فيما بعد عاد جوزين إلى الحياة وهو يصرخ. حاولت يده الهائجتان عبثاً إعادة محتويات بطنه.

تركوه للكلاب التي جاءت من القرية.

الفصل الرابع والثلاثون

عند ساعة الحصان، أي الساعة الحادية عشرة صباحًا، بعد عشرة أيام من وفاة جوزين وجميع رجاله، وصلت قافلة من ثلاثة قوادس إلى رأس أنجيرو. كانت السفن مكتظة بالجنود. نزل توراناغا إلى الشاطئ، وإلى جانبه بونتارو. قال توراناغا: «أودُّ أولاً أن أشاهد تمرينًا للهجوم يا يابو سان، مع الخمسمائة الأصليين. فورًا».

قال يابو بودية: «هل يمكن أن يكون غدًا؟ سيعطيني ذلك الوقت للتحضير. لا بد أنك متعب....».

لكنه كان غاضبًا داخليًا من وصول توراناغا المفاجئ واثارًا من جواسيسه لعدم تحذيره مسبقًا. بالكاد لديه الوقت الكافي ليصل إلى الشاطئ مع حرس الشرف.

قال توراناغا بفضاظة متعمدة: «أنا لست متعبًا، شكرًا لك. لا أحتاج إلى «مدافعين» أو إعدادات معقدة أو صرخات أو التظاهر بالموت. أنت تنسى يا صديقي القديم، لقد قمتُ بالتمثيل في عدد كافٍ من مسرحيات نو ونظمت ما يكفي لأكون قادرًا على استخدام خيالي. أنا لست فلاحًا رونين. رجاءً أصدر الأمر فورًا».

كانوا على الشاطئ بجانب رصيف الميناء. كان توراناغا محاطًا بحراس من النخبة، وكان مزيدٌ منهم يتدفقون من القادس الراسية. كان هناك ألف سامواري آخرون مدججين بالسلاح مكتظين في السفينتين اللتين كانتا تنتظران قبالة الشاطئ. كان اليوم دافئًا والسماء صافية مع أمواج خفيفة وضباب حراري في الأفق.

- اعتنِ بالأمر يا إيجوراشي.

كتم يابو غضبه. منذ الرسالة الأولى التي أرسلها بشأن وصول جوزين قبل أحد عشر يومًا، لم يتلقَ من شبكة التجسس الخاصة به سوى القليل من

التقارير غير الحاسمة من إيدو، ولا شيء سوى ردود متقطعة ومحبطة من توراناغا على إشاراتهِ العاجلة: «استلمنا رسالتك وهي قيد الدراسة الجادة».

كانت الرسائل: «صُدمت بأخبارك عن ابني. يُرجى انتظار مزيدٍ من التعليمات». ثم قبل أربعة أيام: «أولئك المسؤولون عن وفاة جوزين سيعاقبون. يجب أن يظلوا في مناصبهم لكن يظلون رهن الاعتقال حتى أتمكن من التشاور مع الزعيم إيشيدو». وبالأمس كانت القنبلة: «تلقيت اليوم الدعوة الرسمية من مجلس الأوصياء لحضور حفل مشاهدة الزهور في أوساكا. متى تخطط للمغادرة؟ أخبرني فوراً».

قال يابو وهو في حيرة: «بالتأكيد لا يعني هذا أن توراناغا سيذهب فعلياً؟».

قال إيجوراشي: «إنه يجبرك على تحديد موقفك. مهما كان قرارك، فإنك محاصر».

قال أومي: «أتفق».

- لماذا لا تصلنا أخبار من إيدو؟ ما الذي حدث لجواسيسنا؟

قال أومي: «يبدو الأمر كما لو أن توراناغا وضع غطاءً على منطقة الكانتو بأكملها. ربما يعرف من هم جواسيسك».

ذكر إيجوراشي يابو: «اليوم هو اليوم العاشر يا سيدي، كل شيء جاهز لمغادرتك إلى أوساكا. هل تريد المغادرة أم لا؟».

الآن، هنا على الشاطئ، بارك يابو حاميه الكامي الذي أقنعه بقبول نصيحة أومي بالبقاء حتى آخر يوم ممكن، بعد ثلاثة أيام.

قال: «بشأن رسالتك الأخيرة يا توراناغا ساما، التي وصلت يوم أمس. أنت بالتأكيد لن تذهب إلى أوساكا؟».

- هل أنت ذاهب؟

- أنا أعترف بك كقائد. بالطبع، كنت أنتظر قرارك.

قال توراناغا: «قراري سهل يا يابو ساما. لكن قرارك صعب. إذا ذهبت، سيقوم الأوصياء حتمًا بقطع رأسك بسبب تدمير جوزين ورجاله. كما أن إيشيدو غاضب جدًا، وهو يملك كل الحق. أليس كذلك؟».

قال يابو: «لم أفعل ذلك يا زعيم تورانا. تدمير جوزين -بغض النظر عن كونه مستحقًا- كان ضد أوامري».

- كان من الجيد أن ناجا سان قام بذلك، أليس كذلك؟ وإلا كنت ستضطر إلى القيام بذلك بنفسك. سأناقش أمر ناجا سان لاحقًا، لكن هيا، سنتحدث بينما نسير إلى ميدان التدريب. لا داعي لإضاعة الوقت.

انطلق تورانا.جا بخطى سريعة، وتبعه حراسه من كُتب. نظر إليه وقال: «نعم، أنت حقًا في مأزق يا صديقي القديم. إذا ذهبت، ستفقد رأسك وستفقد إيزو، وبالطبع ستذهب عائلة كاسيجي بأكملها إلى ميدان الإعدام. أما إذا بقيت هنا، سيأمر المجلس بالأمر نفسه. ربما ينبغي لك أن تفعل ما اقترحت عليّ فعله في المرة الأخيرة التي كنت فيها في أنجيرو. سيسعدني أن أصبح مساعدك. ربما سيسهم رأسك في تهدئة غضب إيشيدو عندما ألتقيه».

قال يابو: «رأسي ليس له قيمة عند إيشيدو».

- لا أوافقك الرأي.

اعترضهم بونتارو قائلاً: «عذرًا يا سيدي. أين تريد أن يبيت الرجال؟».

- على الهضبة. اجعل معسكرك الدائم هناك. سيبقى مائتا حارس معي في القلعة. عندما تنتهي من الترتيبات، انضم إليّ. أريدك أن تشاهد تمرين التدريب.

هرع بونتارو مبتعدًا.

سأل يابو: «معسكر دائم؟ هل ستبقى هنا؟».

- لا، فقط رجالي. إذا كان الهجوم جيدًا كما سمعت، سنشكل تسع كتائب هجومية من خمسمائة ساموراي لكل منها.

- ماذا؟

- نعم. لقد جلبت ألف ساموراي آخرين مختارين لك الآن. ستوفر أنت الألف الأخرى.

- لكن لا يوجد ما يكفي من الأسلحة والإمدادات...

- معذرةً لكنك مخطئ. لقد جلبت ألف بندقية والكثير من البارود والرصاص. الباقي سيصل خلال أسبوع مع ألف رجل آخر.

- سنشكل تسع كتائب هجومية؟

- نعم. سيكونون وحدة واحدة. وسيقودها بونتارو.
- ربما يكون من الأفضل إذا قدتهم أنا. سيكون...
- لكنك نسيت أن المجلس سيجتمع في غضون عدة أيام. كيف يمكنك قيادة كتيبة إذا كنت ستذهب إلى أوساكا؟ ألم تستعد للمغادرة؟
- توقف يابو: «نحن حلفاء. اتفقنا على أنك القائد وتبادلنا القسم. لقد حافظت عليه، وسأحافظ عليه. الآن أسأل، ما خطتك؟ هل نحارب أم لا؟».
- لم يعلن أحد الحرب عليّ. بعد.
- كان يابو يتوق إلى أن يستل سيف يوشيتومو ويسفك دماء توراناغا على الأرض، مرة واحدة وإلى الأبد، مهما كان الثمن. كان يشعر بأنفاس حراس توراناغا حوله لكنه لم يعد يكثرث الآن. قال: «أليس المجلس هو ناقوس موتك أيضًا؟ لقد قلت ذلك بنفسك. حالما يجتمعون، يجب عليك الطاعة. أليس كذلك؟».
- بالطبع.
- أشار توراناغا لحراسه بالابتعاد، متكئًا بسهولة على سيفه، وساقاه القصيرتان عريضتان وثابتتان.
- إذن ما قرارك؟ ماذا تقترح؟
- أولاً أن أشاهد هجومًا.
- ثم؟
- ثم أذهب للصيد.
- هل ستذهب إلى أوساكا؟
- بالطبع.
- متى؟
- عندما يحلو لي.
- أتعني ليس عندما يحلو لإيشيدو.
- أعني عندما يحلو لي.
- قال يابو: «سنصبح معزولين. لا يمكننا محاربة كل اليابان، حتى مع كتيبة هجومية، ولا يمكننا تدريبهم في عشرة أيام».

- نعم.

- إذن ما الخطة؟

- ماذا حدث بالضبط مع جوزين وناجا سان؟

روى له يابو القصة بصدق، متجنبًا فقط ذكر أن أومي قد تلاعب بناجا.

- وماذا عن الهمجي؟ كيف يتصرف أنجين سان؟

قال يابو: «جيد. جيد جدًا».

وأخبره عن محاولة السيوكو في الليلة الأولى، وكيف أنه طوع أنجين سان لمصلحتهما المتبادلة.

قال توراناغا ببطء: «كان ذلك ذكيًا. لم أكن لأتوقع أنه سيجرب السيوكو. مثير للاهتمام».

- كان من حسن الحظ أنني أخبرت أومي بأن يكون مستعدًا.

- نعم.

انتظر يابو بفارغ الصبر المزيد لكن توراناغا ظل صامتًا. قال يابو أخيرًا: «هذه الأخبار التي أرسلتها بشأن تعيين الزعيم إيتو كوصي، هل كنت على علم بذلك قبل أن أرسل إليك الخبر؟».

لم يجب توراناغا لوهلة. ثم قال: «كنت قد سمعت شائعات. الزعيم إيتو هو اختيار مثالي لإيشيدو. هذا الأحقق المسكين لطالما استمتع بأن يُخدع بينما يدس أنفه في شؤون رجل آخر. سيكونان رفقاء سرير جيدين».

- صوته في المجلس سيدمر، حتى لو كان كذلك.

- إذا كان هناك مجلس.

قال يابو: «إذن لديك خطة؟».

قال توراناغا: «لدي دائمًا خطة -أو خطط- ألم تكن تعلم؟ لكن أنت، ما خطتك يا حليفي؟ إذا كنت تريد المغادرة، غادر. إذا كنت تريد البقاء، ابق. اختر».

ثم سار مبتعدًا.

قدمت ماريكو لتوراناغا لفافة مليئة بالكتابة الدقيقة.

سألها: «هل هذا كل شيء؟».

أجابت ماريكو: «نعم يا سيدي».

لم تحب الجو الخانق في المقصورة أو كونها على متن القادس مجددًا، حتى وإن كانت راسية بجانب الرصيف. قالت: «سيتكرر الكثير مما في دليل الحرب، لكنني كنت أدون ملاحظات كل ليلة وسجلت كل شيء كما حدث... أو حاولت ذلك. إنه أشبه بمذكرات لما قيل وحدث منذ رحيلك».

- جيد. هل قرأها أحد آخر؟

استخدمت مروحتها لتهوئة نفسها وقالت: «ليس على حد علمي. رأوني خلية أنجين سان وخدمه وأنا أكتبها، لكنني احتفظت بها في مكان مغلق».

- ما استنتاجاتك؟

ترددت ماريكو للحظة. نظرت إلى باب المقصورة وإلى الكوة المغلقة. قال تورانا: «فقط رجالي على متن السفينة ولا أحد في الأسفل. باستثناءنا».

- حسنًا يا سيدي. لقد تذكرت للتو قول أنجين سان إنه لا توجد أسرار على متن سفينة. عذرًا.

فكرت للحظة ثم قالت بثقة: «كتيبة البنادق ستفوز بمعركة واحدة. يمكن للهمج تدميرنا إذا هبطوا بقواتهم مع البنادق والمدافع. يجب أن يكون لديك أسطول بحري همجي. حتى الآن، كانت معرفة أنجين سان ذات قيمة هائلة بالنسبة لك، لدرجة أنه ينبغي أن تبقى سرًا، فقط لأذنك. ستكون معرفته مدمرة لك إذا كانت في الأيدي الخطأ».

- من يشاركه معرفته الآن؟

- يابو سان يعرف الكثير لكن أومي سان يعرف أكثر، فهو الأكثر حدسًا. إيجوراشي سان وناجا سان والجنود، الجنود بالطبع يفهمون الاستراتيجية، لكن ليست التفاصيل الدقيقة ولا المعرفة السياسية والعامة لأنجين سان. أنا أعرف أكثر من أي شخص آخر. لقد كتبت كل شيء قاله وسأل عنه أو علق عليه يا سيدي. بأفضل ما أستطيع. بالطبع لقد أخبرنا فقط عن أشياء معينة، لكن نطاقه واسع وذاكرته قريبة من الكمال. بالصبر يمكنه أن يزودك بصورة دقيقة للعالم وعاداته وأخطاره. إذا كان يقول الحقيقة.

- هل هو يقول الحقيقة؟
- أعتقد ذلك.
- ما رأيك في يابو؟
- يابو سان رجل عنيف بلا مبادئ على الإطلاق. لا يحترم شيئاً سوى مصالحه الخاصة. الواجب والولاء والتقاليد لا تعني له شيئاً. لديه لمحات من الدهاء العظيم، بل وحتى الذكاء. إنه خطر سواء كان حليفاً أو عدواً.
- كلها فضائل جديرة بالثناء. ما الذي يُقال ضده؟
- حاكم سيئ. لو كان لدى فلاحيه أسلحة، لثاروا.
- لماذا؟
- ضرائب باهظة. ضرائب غير قانونية. إنه يأخذ خمسة وسبعين جزءاً من كل مائة من الأرز والأسماك والمحاصيل. بدأ يفرض ضرائب على الرؤوس والأراضي والقوارب، كل بيع، وكل برميل من الساكي، كل شيء عليه ضرائب في إيزو.
- ربما يجب أن أوظفه هو أو أمين مخازنه لإدارة الكانتو. حسناً، ما يفعله هنا هو شأنه الخاص، فلاحيه لن يحصلوا أبداً على أسلحة لذا لا يوجد ما يدعو للقلق. لا يزال بإمكانني استخدام هذا المكان كقاعدة إذا دعت الحاجة.
- لكن يا سيدي، الحد القانوني هو ستون جزءاً.
- كان ذلك الحد القانوني. التايكو جعله قانونياً لكنه مات. ماذا أيضاً عن يابو؟
- يتناول القليل من الطعام، صحته تبدو جيدة، لكن المدك سوو يعتقد أنه يعاني مشكلاتٍ في الكلى. لديه بعض العادات الغريبة.
- مثل ماذا؟
- أخبرته عن ليلة الصراخ.
- من أخبرك ذلك؟
- سوو. وزوجة أومي سان ووالدته.

- اعتاد والد يابو أن يغلي أعداءه أيضًا. إنه مضيعة للوقت. لكنني أستطيع فهم حاجته للقيام بذلك أحيانًا. ماذا عن ابن أخيه أومي؟
- ذكي جدًا. وحكيم جدًا. ومخلص تمامًا لعمه. تابع ماهر ومثير للإعجاب.
- وعائلة أومي؟

- والدته... صارمة بما يكفي مع ميدوري زوجته. إن الزوجة ساموراي، لطيفة وقوية وجيدة جدًا. جميعهم مخلصون ليابو سان. حاليًا لا توجد لدى أومي سان خليلات، رغم أن كيكو - أشهر محظية في إيزو - تكاد تكون بمنزلة خلية له. أعتقد أنه سيجلبها إلى منزله إذا تمكن من شراء عقدها.

- هل سيساعدني في مواجهة يابو إذا أردت ذلك؟
- تأملت في ذلك ثم هزت رأسها: «لا يا سيدي. لا أعتقد ذلك. أعتقد أنه تابع لعمه».

- ماذا عن ناجا؟
- إنه ساموراي جيد بقدر ما يمكن أن يكون الرجل. لقد أدرك على الفور خطر جوزين سان ورجاله عليك، وأغلق الأمور حتى يتشاور معك. رغم كراهيته لكتيبة البنادق، فإنه يدرب الوحدات بجد لجعلها مثالية.
- أعتقد أنه كان غيبًا للغاية لكونه دمية في يد يابو.
- سوّت طية في الكيمونو الخاص بها، ولم تقل شيئًا.
- هَوّى توراناغا نفسه: «الآن، ماذا عن أنجين سان؟».
- كانت تتوقع هذا السؤال، والآن بعد أن طرحه، اختفت كل الملاحظات الذكية التي كانت تنوي قولها من رأسها.
- حسنًا؟

- يجب أن تحكم من خلال اللقافة يا سيدي. إنه يستحيل تفسيره في بعض النواحي. بالطبع، تدريبه وراثته لا يتوافقان مع ما لدينا. إنه معقد للغاية ويتجاوز فهمنا... يتجاوز فهمي. كان منفتحًا جدًا في السابق. لكنه تغير منذ محاولته للسيبوكو. أصبح أكثر سرية.

- أخبرته ما قاله وما فعله أومي في تلك الليلة الأولى. وعن وعد يابو.
- أومي أوقفه... وليس يابو سان؟

- نعم.
- وهل اتبع يابو نصيحة أومي؟
- بالضبط يا سيدي.
- إذًا أومي هو المستشار. مثير للاهتمام. لكن بالتأكيد أنجين سان لا يتوقع من يابو أن يفي بوعده؟
- نعم، بالتأكيد.
- ضحك توراناغا: «يا له من تصرف طفولي».
- إن الضمير المسيحي متأصل فيه بعمق، آسفة. لا يستطيع تجنب الكارما الخاصة به، وجزء من هذه الكارما هو أنه محكوم تمامًا من خلال هذه الكراهية للموت، أو موت من يسميهم «الأبرياء». حتى موت جوزين أثر فيه بشدة. كان نومه مضطربًا لعدة ليالٍ، وبالكاد تحدث مع أحد لأيام.
- هل ينطبق هذا «الضمير» على جميع الهمج؟
- لا، رغم أنه يجب أن ينطبق على جميع الهمج المسيحيين.
- هل سيفقد هذا «الضمير»؟
- لا أعتقد ذلك. لكنه سيكون ضعيفًا كالدمية حتى يفقده.
- ماذا عن خليلته؟
- أخبرته كل شيء.
- كان مسرورًا لأن اختياره لفوجيكو وخطته قد نجحا: «جيد. جيد جدًا. لقد قامت بعمل رائع بخصوص الأسلحة. ماذا عن عاداته؟».
- معظمها طبيعية، باستثناء إحراج محير بشأن أمور الجماع وتردد غريب في مناقشة الأمور العادية.
- وأخبرته أيضًا عن حاجته الغربية للانعزال، وذوقه الفظيع في الطعام. وأضاف: «أما في معظم الأمور الأخرى، فهو يقظ وعاقل وحاد وتلميذ بارع وفضولي جدًا بشأننا وبشأن عاداتنا. كل ذلك مذكور في تقريرتي، ولكن باختصار، شرحتُ له شيئًا عن أسلوب حياتنا وقليلًا عننا وعن تاريخنا، وعن التايكو والمشكلات التي تواجه مملكتنا الآن».
- عن الوريث؟

- نعم يا سيدي. هل كان ذلك خطأ؟
- لا. طُلب منك تثقيفه. كيف هي لغته اليابانية؟
- جيدة جدًا، بالنظر للظروف. بمرور الوقت سيتحدث لغتنا جيدًا. إنه تلميذ جيد يا سيدي.
- ماذا عن الجماع؟
- قالت على الفور: «إحدى الخادמות».
- اختارها هو؟
- أرسلتها خليلته إليه.
- و؟
- كان الأمر مرضيًا للطرفين، كما فهمت.
- إذن لم تواجه أي صعوبة.
- لا يا سيدي.
- لكنه مناسب؟
- قالت الفتاة: «أوه نعم جدًا». استخدمت كلمة «سخي».
- ممتاز. على الأقل الكارما الخاصة به جيدة في هذا. هذه هي المشكلة مع الكثير من الرجال، يابو واحد منهم، وكياما أيضًا. أعضاء صغيرة. من المؤسف أن يولد المرء بعضو صغير. جدًا. نعم.
- نظر إلى اللقافة ثم أغلق مروحته بحدة وقال: «وأنت يا ماريكو سان؟ ماذا عنك؟».
- بخير، شكرًا لك يا سيدي. أنا سعيدة جدًا برؤيتك بصحة جيدة. هل يمكنني تهنئتك على ولادة حفيدك؟
- شكرًا، نعم. نعم، أنا سعيد. الطفل في حالة جيدة ويبدو بصحة جيدة.
- والسيدة جينجيكو؟
- تأفف توراناغا: «قوية كما كانت دائمًا. نعم». زم شفتيه متأملًا للحظة: «ربما يمكنك أن توصي بأم حاضنة للطفل. أخشى أن العثور على الشخص المناسب لن يكون سهلًا. فالسيدة جينجيكو ليست أسهل سيدة للعمل لديها، أليس كذلك؟».

كان من العرف أن يكون لأبناء الساموراي المهمين أم حاضنة حتى تتمكن الأم الطبيعية من الاهتمام بزوجها وإدارة منزله، بينما تركز الأم الحاضنة على تربية الطفل لجعله قويًا ومصدر فخر لوالديه.

أجابت ماريكو، مدركة أنه لمن الحماقة تقديم مثل هذه النصيحة، لأنه لا يمكن لأي امرأة أن ترضي كلا من توراناغا وزوجة ابنه: «أنا متأكدة أنك ستجد الشخص المثالي يا سيدي. سأفكر في الأمر بالطبع».

- شكرًا لك. لكن أنتِ يا ماريكو سان، ماذا عنك؟

- بخير يا سيدي، شكرًا لك.

- وماذا عن ضميرك المسيحي؟

- لا يوجد تعارض يا سيدي. إطلاقًا. لقد فعلت كل ما تود أن أفعله. حقًا.

- هل جاء أي كهنة إلى هنا؟

- لا يا سيدي.

- هل تحتاجين إلى واحد؟

- سيكون من الجيد أن أعترف وأتناول القربان المقدس وأتبارك. نعم، بصراحة أود ذلك... أن أعترف بالأشياء المسموح بها وأن أتبارك.

درسها توراناغا من كُتب. كانت عيناها بريئتين. قال: «لقد قمتِ بعمل جيد يا ماريكو سان. الرجاء الاستمرار كالسابق».

- حسنًا يا سيدي، شكرًا. يوجد طلب واحد. أنجين سان بحاجة ماسة إلى كتاب قواعد وقاموس.

- أخبرت تسوكو سان أن يرسلهم.

لاحظ تجاعيد جبينها لذا قال: «ألا تظنين أنه سيرسلهم؟».

- سيطيع بالطبع. ربما ليس بالسرعة التي ترغب بها.

- سأعرف ذلك قريبًا.

أضاف توراناغا بلهجة تهديدية: «لم يتبقَّ له سوى ثلاثة عشر يومًا».

دُهِشت ماريكو. سألت دون أن تفهم: «ماذا؟».

قال توراناغا بلا مبالاة مغطيًا على زلته اللحظية: «ثلاثة عشر؟ عندما كنا على متن السفينة البرتغالية، طلب إذنًا لزيارة إيدو. وافقت بشرط أن

يكون ذلك في غضون أربعين يومًا. تبقى ثلاثة عشر. أليس الأربعين يومًا هي المدة التي قضاها هذا الكاهن، هذا النبي، موسى على الجبل وهو يجمع أوامر «الرب» التي نُقِشت على الحجر؟».

- نعم يا سيدي.

- هل تؤمنين بأن ذلك حدث حقًا؟

- نعم. لكني لا أفهم كيف أو لماذا.

- مناقشة «أمور الرب» مضيعة للوقت. أليس كذلك؟

- إذا كنت تبحث عن الحقائق، نعم يا سيدي.

- بينما كنت تنتظرين هذا القاموس، هل حاولت صنع واحد؟

أضافت بوضوح: «نعم يا تورانا جا ساما. أخشى أنه ليس جيدًا. للأسف يبدو أن الوقت ضيق والمشكلات كثيرة. هنا... في كل مكان».

هز رأسه موافقًا، ومدرِّكًا أنها كانت ترغب بشدة في طرح العديد من الأسئلة: عن المجلس الجديد وتعيين الزعيم إيتو والحكم على ناجا وما إذا كانت الحرب ستكون وشيكة. قال: «نحن محظوظون بعودة زوجكِ إلينا، أليس كذلك؟».

توقفت مروحتها وقالت: «لم أعتقد إطلاقًا أنه سينجو بحياته. إطلاقًا. لقد صليت وأحرقت البخور لذكراه كل يوم».

أخبرها بونتارو هذا الصباح كيف أن مجموعة أخرى من ساموراي تورانا جا قامت بتغطية انسحابه من الشاطئ، وكيف وصل إلى أطراف أوساكا دون متاعب. ثم انطلق بسرعة إلى التلال والمسارات الجانبية في اندفاعه نحو إيدو مع خمسين رجلًا مختارين وخيول احتياطية، متنكرين في هيئة قطاع طرق. لحق به مطارده مرتين، لكن عددهم لم يكن كافيًا لمحاصرته، فقاتل طريقه للخروج. في إحدى المرات تعرض لكمين وفقد كل رجاله باستثناء أربعة، ثم هرب مجددًا وتوغل في الغابة، مسافرًا ليلاً، نائمًا خلال النهار. واقتات بالتوت ومياه الينابيع، وقليل من الأرز الذي انتزعه من المزارع النائبة، ثم يندفع مرة أخرى، والصيادون دائمًا يتتبعون أثره. استغرقه الأمر عشرين يومًا للوصول إلى إيدو. ونجا معه رجلان.

قالت: «كان الأمر أشبه بالمعجزة تقريبًا، ظننت أنني كنت ممسوسة بكامي عندما رأيته هنا بجانبك على الشاطئ».

- إنه ذكي، قوي جدًا وذكي للغاية.

- هل لي أن أسأل عن أخبار الزعيم هيرو ماتسو يا سيدي؟ وأوساكا؟
والسيدة كيريتسوبو والسيدة سازوكو؟

أخبرها توراناغا بلهجة غير ملزمة أن هيرو ماتسو وصل إلى إيبدو قبل يوم من مغادرته، رغم أن سيداته قررن البقاء في أوساكا بسبب تدهور صحة السيدة سازوكو. ليس هناك حاجة إلى مزيد من التفصيل، فكلهما يعرف أن هذا مجرد عذر للحفاظ على ماء الوجه وأن القائد إيشيدو لن يسمح بمغادرة رهينتين قيمتين مثل هاتين ما دام توراناغا خارج قبضته.

قال: «لا يوجد شيء يمكن فعله. إنها الكارما، أليس كذلك؟».

- بلى.

التقط اللفافة وقال: «الآن يجب أن أقرأ هذه. شكرًا لك يا ماريكو سان. لقد أحسنت عملًا. رجاءً أحضري أنجين سان إلى القلعة عند الفجر».

- يا سيدي، الآن بعد أن وصل سيدي، سأتولى...

- وافق زوجك بالفعل على أنه في أثناء وجودي هنا، ستبقيين حيث أنتِ وتقومين بدور المترجمة، ومسؤوليتك الأساسية ستكون تجاه أنجين سان في الأيام القليلة المقبلة.

- لكن يا سيدي، يجب أن أجهز المنزل لسيدي. سيحتاج إلى خدم ومنزل.

- ذلك سيكون إهدارًا للمال والوقت والجهد في الوقت الحالي. سيبقى مع الجنود -أو في بيت أنجين سان- أيًا كان ما يفضله.

لاحظ لمحّة من الانزعاج فسأل: «ما الخطب؟».

- يجب أن يكون مكاني مع سيدي. لأخدمه.

- مكانك هو حيث أريده أن يكون. أليس كذلك؟

- بلى، أرجو المَعذرة. بالطبع.

- بالطبع.

غادرت.

قرأ اللفافة بعناية. وقرأ دليل الحرب. ثم أعاد قراءة أجزاء من اللفافة. وضعهما في مكان آمن وعيّن حراسًا على المقصورة وخرج.

كان الوقت فجرًا. اليوم ينبئ بالدفع والغيوم. ألقى الاجتماع مع أنجين سان كما كان ينوي، وامتطى حصانه إلى الهضبة مع مائة حارس. وهناك جمع صيادي الصقور وثلاثة صقور واصطاد لمسافة عشرين ري. بحلول الظهيرة كان قد اصطاد ثلاثة طيور تدرج وطائرين كبيرين من دجاج الأرض وأرنب بري وزوجين من السمان. أرسل طائر تدرج واحد والأرنب إلى أنجين سان، والباقي إلى القلعة. بعض الساموراي لديه لم يكونوا بوذيين، وكان متسامحًا مع عاداتهم الغذائية. أما هو فقد أكل القليل من الأرز البارد مع معجون السمك وبعض الأعشاب البحرية المخضلة مع شرائح الزنجبيل. ثم تكور على الأرض ونام.

الآن كان الوقت متأخرًا في النهار وبلاكثورن في المطبخ يصفر بمرح. محاطًا بالطاهي الرئيسي والطاهي المساعد ومعد الخضراوات ومعد الأسماك ومساعدوهم، جميعهم مبتسمون ولكن في داخلهم يشعرون بالارتباك لأن سيدهم هنا في مطبخهم مع سيدتهم، وأيضًا لأنها أخبرتهم أنه سيكرمهم بتعليمهم كيفية التحضير والطهي بأسلوبه. وأخيرًا بسبب الأرنب البري.

كان قد علق طائر التدرج تحت أفاريز كوخ خارجي مع تعليمات دقيقة بأن لا يلمسه أحد ولا أحد سواه. سأل بجدية ساخرة: «هل يفهمون يا فوجيكو سان؟ لا لمس سواي؟».

- نعم يا أنجين سان. جميعهم يفهمون. معذرة ولكن يجب أن تقول «لا أحد يلمسه غيري».

كان يقول دون أن يوجه كلامه لأحد على وجه الخصوص: «الآن، فن الطبخ الراقى. الدرس الأول».

سألت فوجيكو: «معذرة، ماذا تقول؟».

- شاهدوا!

شعر بالشباب مجددًا. فقد كانت واحدة من أولى مهامه تنظيف الطرائد التي كان هو وشقيقه يصطادانها بمخاطرة كبيرة من الأراضي المحيطة بتشاتهم. اختار سكينًا طويلًا منحنيًا. شحب وجه طاهي السوشي. فقد كان هذا سكينه المفضل، بشفرة مشحونة بعناية لضمان أن تكون شرائح السمك النيء دائمًا مقطعة بدقة. كل أفراد الطاقم يعرفون ذلك وكنتموا أنفاسهم

وابتسموا أكثر لإخفاء إحراجهم له، بينما زاد من اتساع ابتسامته لإخفاء شعوره بالخجل أيضًا.

شق بلاكتورن بطن الأرنب وأخرج بعناية كيس المعدة والأحشاء. تقيأت إحدى الخادمت الصغيرات وهربت بصمت. قررت فوجيكو أن تغرمها راتب شهر، متمنية في الوقت نفسه لو كانت هي أيضًا فلاحا لكي تهرب بشرف.

راقبوه وهم في حالة ذهول بينما كان يقطع الكفوف والأقدام، ثم دفع الأرجل الأمامية إلى داخل الجلد، وأزال الجلد من الأرجل. فعل الشيء نفسه مع الأرجل الخلفية وعمل على إزالة الجلد حتى خرجت الأرجل الخلفية العارية عبر شق البطن، ثم سحب الجلد فوق الرأس بحركة سريعة مثل معطف شتوي مهمل. وضع الحيوان الذي سُلخ جزئيًا على طاولة التقطيع وقطع رأسه، تاركًا الرأس بعينيه البائستين المحدقتين متصلًا بالجلد. أعاد قلب الجلد إلى وضعه الطبيعي مجددًا ووضع جانبيًا. تنهد الجميع في المطبخ. لم يسمعهم بينما كان يركز على تقطيع الأرجل إلى مفاصل وتقطيع الذبيحة إلى أرباع. هربت خادمة أخرى دون أن يلاحظها أحد.

قال بلاكتورن بابتسامة عريضة: «الآن أريد وعاء».

لم يجبه أحد. فقط كانوا يحدقون بنفس الابتسامات الثابتة. رأى قدرًا حديدًا كبيرًا. كان نظيفًا تمامًا. رفعه بيديه الملطختين بالدماء وملأه بالماء من وعاء خشبي، ثم علق القدر فوق الموقد، الذي كان موضوعًا داخل حفرة في الأرض محاطة بالحجارة. أضاف قطع اللحم.

قال: «الآن بعض الخضراوات والتوابل».

سألت فوجيكو بصوت أجش: «عذرًا؟».

لم يعرف الكلمات اليابانية لذلك نظر حوله. كان يوجد بعض الجزر وبعض الجذور التي تشبه اللفت في سلة خشبية. نظفهم وقطعهم وأضافهم إلى الحساء مع الملح وبعض من صلصة الصويا الداكنة.

- يجب أن يكون لدينا بعض البصل والثوم ونبيد بورت.

سألت فوجيكو مجددًا بعجز: «عذرًا؟».

- لا أعلم الكلمات.

لم تصح له، فقط التقطت ملعقة وقدمتها له. هز رأسه وأمر: «ساكي».

اندفع الطاهي المساعد وأعطاه البرميل الخشبي الصغير.

- شكرًا.

صب بلاكتورن كوبًا منه، ثم أضاف كوبًا آخر لزيادة الطعم. كان سيشرب القليل من البرميل لكنه يعلم أن شربه باردًا ودون مراسم سيُعد تصرفًا غير لائق، وبالتأكيد ليس هنا في المطبخ.

قال: «يا يسوع، أود شرب البيرة».

- عذرًا يا أنجين سان؟

- لا أعلم الكلمات.

ثم أشار إلى القدر الذي يغلي وقال: «لكن هذا الحساء سيكون رائعًا. الأفضل، أليس كذلك».

قالت دون اقتناع: «بلى».

قال بلاكتورن: «أرسلوا رسولًا لشكر الزعيم توراناغا».

ولم يصحح أحد لغته اليابانية السيئة.

- حسنًا.

فور خروجها، اندفعت فوجيكو إلى المرحاض، الكوخ الصغير الذي يقف وحيدًا بالقرب من الباب الأمامي في الحديقة. كانت مريضة جدًا.

قالت خادمتها نيجاتسو: «هل أنت بخير يا سيدتي؟».

وهي امرأة في منتصف العمر، سمينة وكانت تعتني بفوجيكو طوال حياتها.

- اذهبي. لكن أولًا أحضري لي بعض الشاي. لا، ستضطرين إلى الذهاب إلى المطبخ... أوه أوه أوه.

- لدي شاي هنا يا سيدتي. فكرنا أنك ستحتاجين إلى بعض الشاي لذا قمنا بغلي الماء على موقد آخر. تفضلي.

- أنتِ ذكية جدًا.

قرصت فوجيكو خد نيجاتسو المستدير بمودة بينما جاءت خادمة أخرى لتقوم بتهويتها. مسحت فمها بمنشفة ورقية وجلست بامتنان على الوسائد على الشرفة. قالت: «هذا أفضل».

وكان بالفعل أفضل في الهواء الطلق، في الظل، وشمس الظهيرة الجميلة تُلقي بظلالها المظلمة والفراشات تبحث عن غذائها، والبحر في الأسفل هادئ وقزحي اللون.

- ما الذي يحدث يا سيدتي؟ لم نجرؤ حتى على إلقاء نظرة.

- لا يهم. السيد... السيد... لا يهم. عاداته غريبة لكن هذه الكارما الخاصة بنا.

نظرت بعيداً عندما جاء الطاهي الرئيسي من خلال الحديقة وخفق قلبها. انحنى برسمية، كان رجلاً نحيلًا ومفتولاً بقدمين كبيرتين وأسنان بارزة جداً. قالت فوجيكو بابتسامة متجهمة قبل أن ينطق بكلمة: «اطلب سكاكين جديدة من القرية. وقدرًا جديدًا لطهي الأرز. ولوح تقطيع جديدًا وحاويات ماء جديدة. كل الأدوات التي تراها ضرورية. الأدوات التي استخدمها السيد يجب أن تُحتفظ لأغراضه الخاصة. وخصص له مساحة خاصة، ابن مطبخًا آخر إذا شئت، حيث يمكن للسيد أن يطبخ إذا رغب... حتى تصبح ماهرًا».

قال الطاهي: «شكرًا لك يا فوجيكو ساما. اعذريني على مقاطعتك، ولكن، آسف جدًا، أرجوك اعذريني، أعرف طاهيًا ممتازًا في القرية المجاورة. ليس بوذيًا وسبق له أن عمل مع الجيش في كوريا لذا فهو يعرف كل شيء عن... كيفية... كيفية الطهي للسيد بشكل أفضل مني بكثير».

قالت: «سأخبرك عندما أحتاج إلى طاهٍ آخر. وسأخبرك عندما أحسبك غير كفاءٍ أو متمرّض. حتى ذلك الحين، ستظل الطاهي الرئيسي هنا. لقد قبلت الوظيفة لمدة ستة أشهر».

قال الطاهي بكرامة ظاهرة رغم أنه كان يرتجف من الداخل، لأن فوجيكو نو أنجين ليست سيدة يمكن العبث معها: «حسنًا يا سيدتي. أرجوك اعذريني، ولكنني عُينت لأطهي. أنا فخور بكوني طاهيًا. لكنني لم أقبل أبدًا أن... أكون جزائرًا. إن الإيتا هم من يعملون كجزارين. بالطبع لا يمكننا أن نحضر إيتا هنا ولكن هذا الطاهي الآخر ليس بوذيًا مثلي، مثل أبي، وجدّي من قبله، وجده من قبله يا سيدتي، وهم لم... لم... قط... أرجوك، هذا الطاهي الجديد سي...».

- ستطبخ هنا كما كنت تطبخ دائمًا. أجد طهيك ممتازًا، وتستحق أن تكون طاهيًا رئيسيًا في إيدو. حتى إنني أرسلت إحدى وصفاتك إلى السيدة كيريتسوبو في أوساكا.

- حَقًّا؟ شُكْرًا لك. إِنَّكَ تشرفيني كثيرًا. أي واحدة يا سيدتي؟
- الأنقليس الصغير الطازج وقناديل البحر مع المحار المقطع، مع لمسة من الصويا التي تعدها بمهارة. ممتازة، أفضل ما تذوقته على الإطلاق.
- قال بتواضع: «شُكْرًا لك يا سيدتي».
- بالطبع حساؤك لا يزال دون المستوى المطلوب.
- أعتذر بشدة.
- قالت وهي تجرب طريقة لدفعه إلى الانصراف: «سأتحدث إليك عن ذلك لاحقًا. شُكْرًا لك يا طاهي».
- ظل الرجل الصغير صامدًا بشجاعة وقال: «أرجو المَعذرة يا سيدتي، ولكن بكل بتواضع، إذا طلب السيد... عندما يطلب السيد...».
- عندما يطلب منك السيد الطهي أو الذبح أو أي شيء آخر، يجب أن تسرع للقيام بذلك. فورًا. كما يفعل أي خادم مخلص. في الوقت الحالي قد يستغرق منك وقتًا طويلًا لتصبح بارعًا، لذا ربما من الأفضل أن تقوم بترتيبات مؤقتة مع هذا الطاهي الآخر لزيارتك في الأيام النادرة التي قد يرغب فيها السيد في تناول الطعام على طريقته.
- ابتسم الطاهي وانحنى وهو راضٍ عن شرفه: «شُكْرًا لك. أرجو المَعذرة على طلبتي للتوضيح».
- بالطبع ستدفع من راتبك للطاهي البديل.
- ضحكت نيجاتسو من خلف يدها عندما أصبحتا بمفردهما مجددًا وقالت: «يا سيدتي تشان، هل لي أن أهنئك على انتصارك الكامل وحكمتك؟ الطاهي الرئيسي كاد ينفجر من الغضب عندما ذكرت أنه سيضطر إلى الدفع أيضًا».
- شُكْرًا لك يا مربية سان.

كان بإمكان فوجيكو شم رائحة الأرنب الذي بدأ ينضج. فكرت وشعرت بالإرهاق: ماذا لو طلب مني أن أتناوله معه. حتى لو لم يطلب، فلا يزال يتعين عليّ تقديمه. كيف يمكنني تجنب الشعور بالمرض؟ أمرت نفسها: لن تشعري بالمرض. إنها الكارما الخاصة بك. لا بد أنك كنت مروعة تمامًا في حياتك السابقة. نعم. لكن تذكري، كل شيء على ما يرام الآن. تبقى فقط خمسة

أشهر وستة أيام. لا تفكري في ذلك، فكري فقط في سيدك، الذي هو رجل شجاع وقوي، رغم أنه يمتلك عادات طعام مريعة...

وصلت الخيول إلى البوابة. ترجل بونتارو وأشار لبقية رجاله بالابتعاد. ثم سار عبر الحديقة برفقة حراسه الشخصيين فقط، وهو مغبراً ومتسحاً من العرق. كان يحمل قوسه الضخم وعلى ظهره جعبته. انحنت فوجيكو وخادمتها بحرارة، وهما يكرهانه. كان عمها مشهوراً بنوبات غضبه الجامحة التي لا يمكن السيطرة عليها، والتي تجعله ينفجر دون تحذير أو يفتعل شجاراً مع أي شخص تقريباً. في معظم الأوقات، كان يعاني من ذلك خدمه أو نساؤه فقط. قالت فوجيكو: «تفضل بالدخول يا خال. كم هو لطف منك أن تزورنا بهذه السرعة».

- فوجيكو سان. هل... ما هذه الرائحة؟

- سيدي يُعد بعض اللحوم التي أرسلها له الزعيم توراناغا، إنه يُظهر لخدمي التعساء كيفية الطهي.

جعد بونتارو أنفه بامتعاض: «إذا كان يرغب في الطهي، أفترض أنه يستطيع، رغم أن... نعم، يمكن للسيد أن يفعل أي شيء في منزله، وفقاً للقانون، ما لم يزعج الجيران».

من الناحية القانونية، يمكن أن تكون مثل هذه الرائحة سبباً للشكوى وقد يكون من السيئ جداً إزعاج الجيران. لم يقم الأدنى رتبة بأي تصرف يُزعج رؤساءهم. خلاف ذلك، وإلا فستساقط الرؤوس. ولهذا السبب كان يعيش الساموراي في جميع أنحاء البلاد بحذر وأدب بالقرب من ساموراي من الرتبة نفسها إذا أمكن، والفلاحون بجانب الفلاحين، والتجار في شوارعهم الخاصة، والإيتا المعزولين خارج المدن. كان أومي جارهم المباشر. فكرت: أنه أعلى رتبة منهم. أخبرت بونتارو بقلق متسائلة عما إذا كان يدبر شر جديد: «أمل بصدق ألا ينزعج أحد. هل كنت ترغب في رؤية سيدي؟».

بدأت في النهوض لكنه منعها.

قال برسمية: «لا، رجاء لا تزعجيه، سأنتظر».

خفق قلبها. فلم يكن بونتارو معروفاً بأخلاقه، وكان أدبه خطراً جداً.

قال: «أعتذر عن قدومي بهذه الطريقة دون إرسال رسولٍ لطلب موعد أولاً. لكن الزعيم توراناغا أخبرني أنه ربما يُسمح لي باستخدام الحمام والحصول

على غرفة هنا. من حين لآخر. هل يمكنك أن تسألني أنجين سان لاحقًا، إذا كان سيأذن لي بذلك؟».

قالت متبعة النمط المعتاد من آداب السلوك، وهي تكره فكرة وجود بونتارو في منزلها: «بالطبع. أنا متأكدة أنه سيكون شرفًا له يا خال. هل يمكنني تقديم الشاي أو الساكي لك في أثناء انتظارك؟».

- ساكي، شكرًا.

سارعت نيجاتسو بوضع وسادة على الشرفة وهرعت للحصول على الساكي، بقدر ما كانت ترغب في البقاء.

سَلَّم بونتارو قوسه وسهامه إلى حراسه، وخلع نعاله المترب وخطا على الشرفة. سحب سيفه القاتل من حزامه، ثم جلس متربِّعًا ووضع السيف على ركبتيه.

- أين زوجتي؟ مع أنجين سان؟

- لا يا بونتارو ساما، أعتذر، لقد أمرت بالذهاب إلى القلعة حيث...

- أمرت؟ من قبل مَنْ؟ كاسيجي يابو؟

- لا، من الزعيم توراناغا يا سيدي، عندما عاد من الصيد بعد ظهر اليوم.

- أوه، الزعيم توراناغا؟

هدأ غضب بونتارو وتجهم وهو ينظر عبر الخليج إلى القلعة. كانت راية توراناغا ترفرف بجانب راية يابو.

- هل تود أن أرسل أحدًا ليستدعيها؟

هز رأسه: «يوجد وقت كافٍ لها». زفر ناظرًا إلى ابنة أخته، ابنة أخته الصغرى: «أنا محظوظ بأن أملك زوجة بارعة مثلها، أليس كذلك؟».

- بلى يا سيدي. بلى، أنت محظوظ. لقد كانت ذات قيمة كبيرة في ترجمة معرفة أنجين سان.

حدَّق بونتارو إلى القلعة، ثم استنشق الهواء مجددًا بينما كانت رائحة الطهي تفوح من جديد. قال: «يبدو الأمر كما لو كنت في ناجازاكي، أو في كوريا. إنهم يطهون اللحوم طوال الوقت، يسلقونها أو يشوونها. رائحة كريهة... لم أشم شيئًا مثلها من قبل. الكوريون حيوانات، مثل أكلي لحوم البشر. تصل رائحة الثوم الكريهة حتى إلى ملابسك وشعرك».

- لا بد أن الأمر كان فظيئاً.

احمرّت وجنتا بونتارو واحتد صوته: «كانت الحرب جيدة. كان بإمكاننا الانتصار بسهولة. واقتحام الصين. وتمدين البلدين. لكننا لم نفعل. فشلنا واضطررنا إلى العودة بعارنا لأننا خُدعنا. خُدعنا من قبل خونة قذرين في مناصب عليا».

قالت بنبرة مهدئة وهي تقول الكذبة بسهولة، عالمة أنه لا توجد أمة على وجه الأرض يمكنها غزو الصين، ولا أحد يمكنه تمدين الصين التي كانت متمدنة منذ العصور القديمة: «نعم، إنه أمر محزن، لكنك محق. محق جداً يا بونتارو ساما».

كان الوريد على جبين بونتارو ينبض وكان يتحدث إلى نفسه تقريرياً: «سيدفعون الثمن. جميعهم. الخونة. إنها مسألة انتظار بجانب النهر لفترة كافية حتى تطفو جثث أعدائك، أليس كذلك؟ سأنتظر وسأبصق على رؤوسهم قريباً، قريباً جداً. لقد وعدت نفسي بذلك».

نظر إليها وأضاف: «أكره الخونة والزناة. وكل الكاذبين».

قالت مرتجفة: «نعم، أتفق. أنت محق جداً يا بونتارو ساما».

كانت تعلم أنه لا يوجد حد لوحشيته. عندما كان بونتارو في السادسة عشرة من عمره كان قد أعدم والدته -إحدى خليلات هيرو ماتسو الأصغر- بسبب خيانتها المفترضة بينما كان والده هيرو ماتسو في الحرب يقاتل من أجل الطاغية الزعيم جورودا. ثم بعد سنوات قتل ابنه الأكبر من زوجته الأولى بسبب إهانات مفترضة وأرسلها إلى عائلتها، حيث قتلت نفسها غير قادرة على تحمل العار. لقد ارتكب أفعالاً فظيعة تجاه نسائه وتجاه ماريكو. وتشاجر بعنف مع والد فوجيكو واتهمه بالجبن في كوريا، مما شوه سمعته لدى التايكو الذي أمره على الفور بخلق رأسه ليصبح راهباً، ليموت بعدها مدنساً بعد أن التهمه عاره.

تطلب الأمر من فوجيكو كل إرادتها لتبدو هادئة. قالت: «كنا فخورين جداً لسماعنا أنك نجوت من العدو».

وصل الساكي. وبدأ بونتارو يشرب بكثرة.

عندما انقضى الوقت المناسب للانتظار، نهضت فوجيكو: «أرجو المعذرة للحظة».

ذهبت إلى المطبخ لتحذر بلاكثورن وتطلب إذنه لبقاء بونتارو في المنزل، وتخبره هو والخدم ما يجب القيام به.

سأل بلاكثورن بامتعاض: «لماذا هنا؟ لماذا يبقى هنا؟ هل ضروري؟». اعتذرت فوجيكو وحاولت شرح أنه بالطبع لا يمكن رفض بونتارو. عاد بلاكثورن إلى طهيه بكآبة وعادت فوجيكو إلى بونتارو، وقد بدأ صدرها يؤلمها.

- يقول سيدي إنه يتشرف بوجودك هنا. منزله هو منزلك.

- ما شعورك بأن تكوني خلية لأحد الهمج؟

- أتخيل أنه فظيع. لكن بالنسبة لأنجين سان، الذي هو هاتاموتو وبالتالي ساموراي؟ أعتقد أنه مثل الرجال الآخرين. هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها خلية. أفضل أن أكون زوجة. أنجين سان مثل الرجال الآخرين، رغم أن بعض أساليبه غريبة جدًا.

- من كان يظن أن واحدة من عائلتنا ستكون زوجة لأحد الهمج... حتى وإن كان هاتاموتو. مكتبة سر من قرأ

- لم يكن لدي خيار. لقد أطعت الزعيم توراناغا فقط، وجدي، قائد عائلتنا. واجب المرأة هو الطاعة.

أنهى بونتارو كأسه من الساكي وأعادت ملأه. قال: «نعم».

- الطاعة مهمة للمرأة. وماريكو سان مطيعة، أليس كذلك؟

نظرت إلى وجهه القبيح الشبيه بالقرد: «بلى يا سيدي. هي لم تجلب لك سوى الشرف يا سيدي. فدون السيدة زوجتك، لم يكن الزعيم توراناغا ليتوصل إلى معرفة أنجين سان».

ابتسم ابتسامة ملتوية: «سمعت أنك صوبت المسدسات في وجه أومي سان».

- كنت أؤدي واجبي فقط يا سيدي.

- أين تعلمت استخدام الأسلحة؟

- لم أتعامل مع مسدس حتى ذلك الحين. لم أعرف إذا كانت المسدسات محملة. لكنني كنت سأسحب الزناد.

ضحك بونتارو: «أومي سان اعتقد ذلك أيضًا».

ملأت كأسه مجددًا وقالت: «لم أفهم لماذا لم يحاول أومي سان أخذها مني. لقد أمره زعيمه بأخذها، لكنه لم يفعل».

- كنت سأفعل.

- نعم يا خال. أعلم. أرجو المعذرة، كنت سأسحب الزناد.

- نعم. لكنك كنت ستخطئين التصويب.

- نعم، على الأرجح. منذ ذلك الحين تعلمت كيف أطلق النار.

- هل علمك؟

- لا. أحد ضباط الزعيم ناجا.

- لماذا؟

- لم يكن والدي ليسمح أبدًا لبناته بتعلم استخدام السيف أو الرمح. كان يعتقد -بحكمة أويدها- أنه ينبغي لنا أن نكرس وقتنا لتعلم أمور أكثر رقة. ولكن أحيانًا تحتاج المرأة إلى حماية سيدها ومنزله. المسدس هو سلاح جيد للمرأة، جيد جدًا. لا يتطلب قوة كبيرة ولا تدريبًا مكثفًا. والآن يمكنني أن أكون أكثر فائدة لسيدي، حيث سأفجر رأس أي رجل من أجل حمايته، ومن أجل شرف منزلنا.

شرب بونتارو كأسه بالكامل: «كنت فخورًا عندما سمعت أنك تصديت لأومي سان بهذه الطريقة. كنت على حق. الزعيم هيرو ماتسو سيكون فخورًا أيضًا».

انحنت برسمية: «شكرًا لك يا خال. لكنني قمت بواجب عادي فقط. يسألك سيدتي إن كنت ستسمح له بشرف التحدث معك الآن، إذا كان ذلك يرضيك».

استكمل الطقوس وقال: «رجاء اشكريه، ولكن هل يمكنني أن أستحم أولًا؟ إذا كان ذلك يرضيه، سأراه عندما تعود زوجتي».

الفصل الخامس والثلاثون

انتظر بلاكثورن في الحديقة. مرتديا الكيمونو البني الرسمي الذي أعطاه إياه تورانا، مع سيفين في حزامه ومسدس مُحمَّل مُخبأً تحت الحزام. من تفسيرات فوجيكو المتسعة ومن الخدم لاحقًا، استنتج أنه عليه أن يستقبل بونتارو رسميًا، لأن الساموراي قائدًا مهمًا وهاتاموتو، وكان أول ضيف في المنزل. لذا استحم وغيَّر ملابسه بسرعة وذهب إلى المكان الذي أعدَّوه.

رأى بونتارو لفترة وجيزة بالأمس عندما وصل. كان بونتارو مشغولًا مع تورانا ويابو بقية اليوم، ومع ماريكو، وترك بلاكثورن وحده لينظم عرض الهجوم المستعجل مع أومي وناجا. وكان الهجوم مرضيًا.

عادت ماريكو إلى المنزل في وقت متأخر جدًا. أخبرته بإيجاز عن هروب بونتارو، وأيام مطاردته من قبل رجال إيشيدو ومراوغتهم، وأخيرًا اختراق المقاطعات المعادية للوصول إلى الكانتو. قالت: «كان الأمر صعبًا للغاية، لكن ربما لم يكن بتلك الصعوبة يا أنجين سان. زوجي قوي وشجاع جدًا».

- ماذا سيحدث الآن؟ هل سترحلين؟
- الزعيم تورانا، يأمر بأن يبقى كل شيء كما كان. لن يتغير شيء.
- لقد تغيرت يا ماريكو. انطفأت شرارة فيك.
- لا. هذا من خيالك يا أنجين سان. إنه فقط شعوري بالراحة لأنه على قيد الحياة بعد أن كنت متأكدة من موته.
- نعم. ولكن هذا أحدث فرقًا، أليس كذلك؟
- بالطبع. أشكر الرب أن سيدي لم يُقبض عليه... وأنه عاش ليطيع الزعيم تورانا. هلا عذرتني يا أنجين سان. أنا متعبة الآن. آسفة، أنا متعبة جدًا جدًا.
- هل يوجد ما يمكنني فعله؟

- ماذا يجب أن تفعل يا أنجين سان؟ باستثناء أن تكون سعيدًا من أجلي ومن أجله. لم يتغير شيء حقًا. لم ينتهِ شيء لأنه لم يبدأ شيء. كل شيء كما كان. زوجي حي.

سأل بلاكتورن نفسه في الحديقة: ألا تتمنى أن يكون ميتًا؟ لا.

إنذن لماذا تخفي المسدس؟ هل تشعر بالذنب؟

لا. لم يبدأ شيء.

حقًا؟

لا.

لقد ظننت أنك كنت ستحصل عليها. أليس ذلك هو نفسه الحصول عليها فعليًا؟

رأى ماريكو تدخل الحديقة من المنزل. كانت تبدو كتمثال خزفي تسير خلف بونتارو متأخرة عنه بنصف خطوة، وبدت ضخامة جسده أكبر مقارنة بها. كانت فوجيكو والخدم معها.

انحنى بلاكتورن وتحدث باليابانية: «مرحبًا بك في منزلي يا بونتارو سان».

انحنوا جميعًا. جلس بونتارو وماريكو على الوسائد المقابلة له. جلست فوجيكو خلفه. وبدأت نيجاتسو والخادمة كوي في تقديم الشاي والساكي. شرب بونتارو الساكي. وكذلك فعل بلاكتورن.

- شكرًا يا أنجين سان. كيف حالك؟

- بخير. ماذا عنك؟

- بخير. بدأت تتحدث اليابانية جيدًا.

سرعان ما ضاع بلاكتورن في المحادثة، حيث كان بونتارو يتلعثم في كلامه، ويتحدث بلا مبالاة وسرعة.

- معذرة يا ماريكو سان، لم أفهم ذلك.

- يرغب زوجي في شكرك على محاولتك إنقاذه. بالمجذاف. أتتذكر؟ عندما كنا نهرب من أوساكا.

- فهمت. شكرًا. رجاءً أخبريه أنني ما زلت أعتقد أنه كان يجب علينا العودة إلى الشاطئ. كان هناك وقت كافٍ. غرقت الخادمة بلا داعٍ.

- يقول إن ذلك كان كارما.
- أجاب بلاكثورن: «كان ذلك موتًا غير ضروري».
- ندم على الوقاحة. لاحظ أنها لم تترجم ذلك.
- يقول زوجي إن خطة الهجوم جيدة جدًا، جيدة جدًا بالتأكيد.
- شكرًا. أخبريه أنني سعيد لأنه نجا دون إصابة. ولأنه سيقود الكتيبة. وبالطبع أنه مرحب به للإقامة هنا.
- شكرًا يا أنجين سان. يقول بونتارو ساما: نعم، خطة الهجوم جيدة جدًا. لكن بالنسبة له سيحمل دائمًا قوسه وسيفه. يمكنه القتل من مسافة أكبر بدقة كبيرة وأسرع من البندقية.
- غدا سأطلق النار عليه وسنرى، إذا كان يرغب.
- قالت: «ستخسر يا أنجين سان، آسفة. هل يمكنني تحذيرك بعدم محاولة ذلك».
- رأى بلاكثورن عيني بونتارو تنتقل من ماريكو إليه ثم تعود لماريكو مجددًا. قال: «شكرًا لك يا ماريكو سان. أخبريه أنني أرغب في رؤيته وهو يطلق النار».
- يسأل عمّ إذا كنت تستطيع استخدام القوس؟
- نعم، لكن ليس كما يفعل الرماة المحترفون. فالأقواس عفا عليها الزمن بالنسبة لنا تقريبًا. باستثناء القوس المستعرض. لقد تدرّبتُ للبحر. هناك نستخدم فقط المدافع والبنادق أو السيوف. أحيانًا نستخدم السهام النارية ولكن فقط ضد أشرعة العدو في المعارك القريبة.
- يسأل عن كيفية استخدامها، كيف تصنعونها، هذه السهام النارية؟ هل هي مختلفة عن سهامنا، تلك التي استخدمت ضد القادس في أوساكا؟
- بدأ بلاكثورن يشرح وواجه الانقطاعات المعتادة وطلبات الاستفسار المزعجة. كان الآن معتادًا على عقولهم الفضولية جدًا حول أي جانب من جوانب الحرب، لكنه وجد أنه من المرهق التحدث من خلال مترجم. حتى وإن كانت ماريكو ممتازة، فإن ما تقوله نادرًا ما يكون دقيقًا. دائمًا ما يكون الرد الطويل مختصرًا، ويتغير بعض مما يقال بالطبع، ويحدث سوء الفهم. لذا كان يجب تكرار التفسيرات بلا داع.

لكنه كان يعلم أنه لم يكن ليصبح ذا قيمة كبيرة دون ماريكو. ذكر نفسه: إن معرفته هي الشيء الوحيد الذي يبقيه بعيداً عن الهاوية. لكن هذه ليست مشكلة، لأنه لا يزال يوجد الكثير ليقال والكثير من المعارك للفوز بها. معركة حقيقية للفوز بها. أنت بأمان حتى ذلك الحين. لديك أسطول بحري لتخطط له. ومن ثم العودة إلى الوطن. بأمان.

رأى سيوف بونتارو وسيوف الحراس وشعر بسيفه ودفء المسدس المشحم وعلم بصدق أنه لن يصبح آمناً في هذه الأرض أبداً. لا هو ولا أي شخص آمن، حتى توراناغا.

- أنجين سان، يسأل بونتارو ساما إذا أرسل إليك رجالاً غداً، هل يمكنك أن تريهم كيفية صنع هذه السهام؟

- من أين يمكننا الحصول على القطران؟

- لا أعلم.

استجوبته ماريكو حول مكان العثور عليه عادة وكيف يبدو أو ما رائحته، وعن البدائل الممكنة. ثم تحدثت إلى بونتارو مطولاً. كانت فوجيكو صامتة طوال الوقت وعيناها وأذناها منتبهة، لم يفتها أي شيء. وكانت الخادמות يتلقين أوامرهن بحركة طفيفة من مروحة فوجيكو إلى الكوب الفارغ، يملأن قوارير الساكي باستمرار.

- يقول زوجي إنه سيناقش الأمر مع الزعيم توراناغا. ربما يوجد القطران في مكان ما في الكانتو. لم نسمع به من قبل. إذا لم يوجد قطران، فلدينا زيوت سميكة - زيوت حوت - قد تكون بديلاً عنه. يسأل إذا كنتم تستخدمون أحياناً الصواريخ الحربية، مثل الصينيين؟

- نعم. لكنها لا تعتبر ذات قيمة كبيرة إلا في الحصار. استخدمها الأتراك عندما واجهوا فرسان سانت جون في مالطا. تُستخدم الصواريخ عادة لإحداث حريق وذعر.

- يطلب منك إعطائه تفاصيل عن هذه المعركة.

- كانت قبل أربعين عاماً، في أعظم...

توقف بلاكثورن وانشغل عقله. كان هذا الحصار الأكثر أهمية في أوروبا. فقد جاء ستون ألفاً من الأتراك المسلمين، وهم خيرة الإمبراطورية العثمانية، لمواجهة ستمائة من الفرسان المسيحيين الذين دعمهم عدد قليل

من المساعدين المالطيين، محاصرين في مجمع قلعتهم الكبيرة في سانت إلمو على الجزيرة الصغيرة في مالطا في البحر الأبيض المتوسط. وقد صمد الفرسان بنجاح أمام الحصار الذي استمر ستة أشهر، وأجبروا العدو بغرابة على التراجع في عار. كان هذا الانتصار قد أنقذ ساحل البحر المتوسط بأكمله، وبالتالي المسيحية، من أن تدمره جحافل الكفار.

أدرك بلاكتورن فجأة أن هذه المعركة أعطته أحد مفاتيح قلعة أوساكا: كيفية استثمارها وكيفية إزعاجها وكيفية اختراق أبوابها وكيفية الاستحواذ عليها.

- ماذا كنت تقول يا سيدي؟

- كانت قبل أربعين عامًا، في أعظم بحر داخلي لدينا في أوروبا يا ماريكو سان. البحر الأبيض المتوسط. كان مجرد حصار مثل أي حصار، ليس جديدًا بالحديث عنه.

كذب. فقد كانت هذه المعرفة لا تقدر بثمن، ومن المؤكد أنه لا ينبغي منحها بسهولة، وبالطبع ليس الآن. شرحت ماريكو مرات عديدة أن قلعة أوساكا كانت تقف بلا هوادة بين توراناغا والنصر. كان بلاكتورن متأكدًا أن الحل لقلعة أوساكا قد يكون جواز سفره للخروج من الإمبراطورية مع كل الثروات التي يحتاجها في هذه الحياة.

لاحظ أن ماريكو بدت مضطربة. لذا سأل: «سيدتي؟».

- لا شيء يا سيدي.

بدأت في ترجمة ما قاله. لكنه كان يعلم أنها تعلم أنه يخبئ شيئًا. رائحة الحساء شتت انتباهه.

- فوجيكو سان.

- نعم يا أنجين سان؟

- متى العشاء؟ قد يكون الضيوف جائعين.

- معذرة، سأقدمه بعد غروب الشمس.

رأها بلاكتورن تشير إلى الشمس وأدرك أنها قالت «بعد غروب الشمس». أوما برأسه وهمهم، وهو ما يساوي في اليابان «شكرًا، أفهم».

التفتت ماريكو مجدداً إلى بلاكثورن وقالت: «يرغب زوجي في أن تخبره عن معركة خُصتها».

- جميعها موجودة في دليل الحرب يا ماريكو سان.

- يقول إنه قرأه باهتمام كبير، لكنه يحتوي فقط على تفاصيل موجزة. يرغب خلال الأيام القادمة في معرفة كل شيء عن جميع معاركك. واحدة الآن، إذا كان هذا يرضيك.

- جميعها موجودة في دليل الحرب. ربما غداً يا ماريكو سان.

كان بحاجة إلى بعض الوقت لتأمل فكرته الجديدة المباغثة حول قلعة أوساكا وتلك المعركة، وكان قد تعب من الكلام، وتعب من الاستجواب المتكرر، ولكن الأهم من ذلك كله أنه كان يريد أن يأكل.

- رجاءً يا أنجين سان، هل يمكن أن ترويها مجدداً، لمرة واحدة فقط، من أجل زوجي؟

سمع التوسل الحذر في صوتها فاستسلم وقال: «بالطبع. أي واحدة تعتقدين أنه سيحب سماعها؟».

- تلك التي كانت في هولندا. بالقرب من «زيلاند»... هل هذا هو النطق الصحيح؟

قال: «نعم».

ثم بدأ يروي قصة تلك المعركة التي كانت مثل معظم المعارك الأخرى التي يموت فيها الرجال في أغلب الأحيان بسبب أخطاء وغباء الضباط القادة.

- يقول زوجي إن الأمور ليست كذلك هنا يا أنجين سان. هنا يجب أن يكون القادة جيدين جداً وإلا سيموتون بسرعة.

- بالطبع، انتقاداتي كانت موجهة فقط للقادة الأوروبيين.

قالت على نحو غامض: «يقول بونتارو ساما أنه سيخبرك عن حروبنا وقادتنا، خصوصاً الزعيم تايكو، على مدى الأيام القادمة. تبادل عادل لمعلوماتك».

- شكراً.

انحنى بلاكثورن قليلاً، وهو يشعر بنظرات بونتارو تثقبه.

ما الذي تريده مني حقاً يا ابن العاهرة؟

كان العشاء كارثة. للجميع.

حتى قبل أن يغادروا الحديقة للذهاب إلى الشرفة لتناول الطعام، كانت الأجواء قد أصبحت مشؤومة.

أشارت ماريكو: «عذرًا يا أنجين سان، لكن ما هذا؟ هناك. زوجي يسأل: ما هذا؟».

قال بلاكثورن: «أين؟ هناك! هذا طائر التدرج. أرسله الزعيم تورانا إلىي، مع أرنب بري. سنتناول ذلك على العشاء، على الطريقة الإنجليزية... على الأقل أنا سأتناوله، رغم أنه يوجد ما يكفي للجميع».

- شكرًا لك، ولكن... نحن، زوجي وأنا لا نأكل اللحم. ولكن لماذا يتدلى الطائر هناك؟ في هذه الحرارة، ألا يجب أن يُوضع في مكان ما ويُحضر؟

- هذه هي طريقة تحضير طائر التدرج. تعلقينه حتى ينضج اللحم. قالت مرتبكة: «ماذا؟ هكذا فقط؟ عذرًا يا أنجين سان، آسفة. ولكن سيصبح فاسدًا بسرعة. لا يزال مغطى بالريش ولم... يُنظف».

- لحم طائر التدرج قاسٍ يا ماريكو سان، لذلك نتركه معلق لبضعة أيام، ربما أسبوعين، حسب الطقس. ثم ننزع الريش وننظفه ونطبخه.

- أنت... أنت تتركه في الهواء؟ ليصبح فاسدًا؟ مثل...

سأل بونتارو بنفاد صبر: «ما الأمر؟».

تحدثت إليه باعتذار فتنفس بعمق، ثم نهض وتفحصه وبدأ يضغط عليه. أصدرت بعض الذبابات طنين، ثم استقرت من جديد. تحدثت فوجيكو بتردد إلى بونتارو فاحمر وجهه.

سألت ماريكو: «قالت خليلتك أنك أمرت بألا يلمسه أحد سواك؟».

- نعم. ألا تعلقون الطرائد هنا؟ ليس الجميع بوذيين.

- لا يا أنجين سان. لا أعتقد ذلك.

قال بلاكثورن: «يعتقد بعض الناس أنه يجب تعليق الطائر من ريش ذيله حتى يسقط، ولكن هذه خرافة قديمة. تعليقه من الرقبة هو الطريقة الصحيح، ومن ثم تبقى العصارة في مكانها الصحيح. بعض الناس يتركونه

يتدلى حتى يسقط من الرقبة، ولكني شخصياً لا أحب اللحم بهذه الطريقة. كنا...».

توقف لأنه رأى وجهها قد تحول إلى اللون الأخضر.

سألت فوجيكو بسرعة: «ما الخطب يا ماريكو سان؟».

شرحت ماريكو. ضحك الجميع بتوتر ونهضت ماريكو، وهي تربّت جبينها المتعرق بضعف. قالت: «أنا آسفة يا أنجين سان، هل يمكن أن تعذرني للحظة...».

أراد أن يقول: إن طعامك غريب بالقدر نفسه. ماذا عن أمس، الحبار النيء... أبيض ولزج، لحم قاس لا طعم له تقريباً يمزج بصعوبة بلا أي نكهة سوى صلصة الصويا؟ أو أذرع الأخطبوط المقطع، النيء أيضاً، مع الأرز البارد والأعشاب البحرية؟ ماذا عن قنديل البحر الطازج مع حساء التوفو ذو اللون الأصفر والبني - فول الصويا المخمر - الذي بدا وكأنه وعاء من قياء الكلاب؟ آه نعم، قدم بجمال في وعاء هش وجذاب، ولكن لا يزال يبدو كقيء. نعم، بحق الرب يكفي لجعل أي رجل يشعر بالغثيان.

في النهاية ذهبوا إلى غرفة الشرفة وبعد الانحناءات المعتادة التي لا تنتهي والأحاديث الجانبية والشاي والساكي، بدأ الطعام بالوصول. صواني صغيرة من حساء السمك الصافي والأرز والسمك النيء، كما هو الحال دائماً. ثم وصل حساء بلاكتورن.

رفع الغطاء عن القدر. تصاعد البخار وبدأت قطرات دهنية ذهبية ترقص على السطح اللامع. الحساء الغني الذي يسيل له اللعاب والمليء بعصارة اللحم وقطع اللحم الطرية. قدمه بفخر ولكنهم جميعاً هزوا رؤوسهم وطلبوا منه أن يأكل.

قال: «شكراً».

كان من اللباقة شرب الحساء مباشرة من الأوعية الصغيرة المطلية باللك وأكل أي شيء صلب في الحساء باستخدام عيدان الطعام. كانت توجد مغرفة على الصينية. كان من الصعب عليه إخماد جوعه، لذا ملأ الوعاء وبدأ يأكل. ثم رأى أعينهم.

كانوا يراقبون باشمئزاز حاولوا إخفاءه دون جدوى. بدأت شهيته تتلاشى. حاول تجاهلهم ولكنه لم ينجح، كانت معدته تزمجر. أخفى انزعاجه ووضع

الوعاء وأعاد الغطاء وأخبرهم بخشونة أن الطعام لم يعجبه. أمر نيجاتسو بأخذه بعيداً.

قالت ماريكو بأمل: «تسأل فوجيكو عما إذا كان يجب التخلص منه إذن». - نعم.

استرخت فوجيكو وبونتارو.

سألت فوجيكو: «هل ترغب في المزيد من الأرز؟».

- لا، شكرًا.

لوحث ماريكو بمروحتها، وابتسمت مشجعة، وأعدت ملء كوب الساكي الخاص به. لكن بلاكتورن لم يهدأ له بال وقرر في المستقبل أن يطبخ في التلال على انفراد، ويأكل على انفراد، ويصطاد علناً.

فكر: فليذهبوا إلى الجحيم. إذا كان توراناغا يستطيع الصيد، فأنا أيضًا أستطيع. متى سأراه؟ إلى متى سأنتظر؟

قال بصوت عالٍ باللغة الإنجليزية وشعر حينها بتحسن: «اللعة على الانتظار واللعة على توراناغا».

سألت ماريكو بالبرتغالية: «ماذا يا أنجين سان؟».

أجاب: «لا شيء. كنت أتساءل فقط متى سأرى الزعيم توراناغا».

- لم يخبرني. أعتقد قريباً.

كان بونتارو يحتسي الساكي والحساء بصوت عالٍ كما هي العادة. بدأ هذا يزعج بلاكتورن. كانت ماريكو تتحدث بمرح مع زوجها الذي كان يهمهم وبالكاد يعترف بوجودها. لم تكن تأكل، وزاده غضباً أنها وفوجيكو كانتا تتوددان لبونتارو تقريباً وأنه اضطر إلى تحمّل هذا الضيف غير المرغوب فيه. رفع كوبه بابتسامة متجهمة وقال: «أخبري بونتارو ساما أنه في بلدي، المضيف يشرب نخب الضيف الكريم. حياة مديدة وسعيدة».

شرب.

استمع بونتارو لشرح ماريكو. أوماً بالموافقة ورفع كوبه في المقابل، ابتسم من خلال أسنانه ثم تجرعه بالكامل.

شرب بلاكتورن نخبه مجدداً: «في صحتك».

ومجدداً.

ومجددًا.

- في صحتك.

هذه المرة لم يشرب بونتارو. وضع الكوب المملوء ونظر إلى بلاكتورن من عينيه الصغيرتين. ثم نادى بونتارو شخصًا ما في الخارج. انفتح باب الشوجي في الحال. انحنى حارسه الموجود دائمًا وسلمه القوس الكبير والجبعة. أخذ بونتارو القوس وتحدث بحزم وسرعة إلى بلاكتورن.

- زوجي... يقول زوجي إنك أردت أن تراه يطلق السهم يا أنجين سان. يعتقد أن الغد بعيد جدًا. الآن هو الوقت المناسب. عند بوابة منزلك يا أنجين سان. يسألك أي عمود تختار؟

قال بلاكتورن: «لا أفهم».

ستكون البوابة الرئيسية على بعد ثلاثين خطوة، في مكان ما عبر الحديقة، ولكنها الآن مغطاة تمامًا بجدار الشوجي المغلق إلى يمينه.

كان سلوكها ملحًا: «العمود الأيسر أم الأيمن؟ رجاءً اختر».

نظر إلى بونتارو بحذر. بدا الرجل منفصلًا وغافلًا عنهم، قزم قبيح يجلس وهو ينظر إلى بعيد.

قال مبهورًا: «الأيسر».

قالت باليابانية: «الأيسر».

أخرج بونتارو سهمًا من الجعبة في الحال، ثم نصب القوس ورفعوه وهو لا يزال جالسًا، سحب الوتر إلى مستوى العين ثم أطلق السهم بسلاسة وحشية تكاد تكون شاعرية تقريبًا. انطلق السهم نحو وجه ماريكو، لامس خصلة من شعرها عند مروره واختفى عبر جدار الشوجي الورقي. ثم أطلق سهم آخر قبل أن يختفي الأول تقريبًا، ثم سهم آخر، كل واحد بالكاد يمر بجانب وجه ماريكو دون أن يصيبها. بقيت هادئة وثابتة، وجاثية كما كانت.

سهم رابع ثم سهم أخير. امتلأ الصمت بصدى رنين أوتار القوس. تنهد بونتارو وعاد ببطء. وضع القوس عبر ركبتيه. التقطت ماريكو وفوجيكو أنفاسهما وابتسمتا وانحنتا ومدحتا بونتارو وأوماً بونتارو وانحنى قليلًا. نظروا إلى بلاكتورن. كان يعلم أن ما شاهده كان أشبه بالسحر. كل السهام مرّت خلال الثقب نفسه في الشوجي.

- سلم بونتارو القوس لحارسه وأخذ كوبه الصغير. نظر إليه لحظة ثم رفعه باتجاه بلاكتورن، أفرغه وتحدث بحدة، عادت شخصيته الوحشية مجددًا.
- إنه... يطلب منك زوجي بأدب: رجاء اذهب وانظر.
- فكر بلاكتورن للحظة محاولاً تهدئة قلبه: «لا حاجة إلى ذلك. بالطبع أصاب الهدف».
- يقول إنه يود أن تتأكد.
- أنا متأكد.
- رجاءً يا أنجين سان. ستشرفه.
- لا أحتاج إلى أن أشرفه.
- نعم. ولكن هل يمكنني أن أضيف طلبتي بهدوء.
- كان التوسل في عينيها مجددًا.
- كيف أقول: «كان من الرائع مشاهدة ذلك»؟
- أخبرته. قال الكلمات وانحنى. بادل بونتارو الانحناء بلا مبالاة.
- اطلبي منه أن يأتي معي لرؤية السهام.
- يقول إنه يود منك أن تذهب بنفسك. لا يرغب في الذهاب يا أنجين سان.
- لماذا؟
- يجب أن ترى بنفسك يا سيدي إذا كان دقيقًا. وإن لم يكن كذلك، فعليك رؤية ذلك وحدك أيضًا. بهذه الطريقة لن يتعرض أي منكما للإحراج.
- وماذا لو أخطأ؟
- لن يخطئ. لكن وفقًا لعاداتنا فإن الدقة في مثل هذه الظروف المستحيلة لا أهمية لها مقارنة بالرشاقة التي يظهرها الرامي أو نبل حركاته أو قوته في إطلاق السهم وهو جالس أو عدم اهتمامه بالفوز أو الخسارة.
- كانت السهام على بعد بضعة سنتيمترات من بعضها بعضًا في منتصف العمود الأيسر. نظر بلاكتورن إلى المنزل ورأى الثقب الصغير الدقيق في الجدار الورقي على بُعد ثلاثين مترًا أو أكثر، الذي كان بمنزلة شرارة من الضوء في الظلام.

فكر: من المستحيل تقريباً أن يكون بهذه الدقة. فلم يكن بإمكانه رؤية الحديقة أو البوابة من حيث كان بونتارو جالساً، وكان الليل حالكاً في الخارج. أعاد بلاكتورن نظره إلى العمود ورفع الفانوس لأعلى. حاول أن يسحب سهماً بيد واحدة. كان رأس السهم الفولاندي مغروّزاً بعمق شديد. كان بإمكانه كسر الساق الخشبية، لكنه لم يرغب في ذلك.

كان الحارس يراقبه.

تردد بلاكتورن. تقدم الحارس لمساعدته لكنه هز رأسه: «لا، شكرًا». وعاد إلى الداخل.

- ماريكو سان، رجاءً أخبري خليلتي أنني أرغب في ترك السهام في العمود للأبد. جميعها. لتذكرني بمهارة الرامي. لم أر إطلاق سهام كهذا من قبل.

انحنى لبونتارو.

- شكرًا لك يا أنجين سان.

ترجمت ماريكو، فانحنى بونتارو وشكره على المجاملة. أمر بلاكتورن: «ساكي».

شربوا المزيد. الكثير. بدأ بونتارو يشرب بلا مبالاة، الآن متأثرًا بالنبيذ. راقبه بلاكتورن بسرية ثم سمح لانتباهه بالشروء وهو يتساءل كيف تمكّن الرجل من ضبط السهام وإطلاقها بهذه الدقة المذهلة. فكر: هذا مستحيل، ولكنني رأيتُه يفعل ذلك. أتساءل عما يفعله فينك وباكوس والبقية الآن. كان تورانا جا قد أخبره أن الطاقم قد استقر الآن في إيدو، بالقرب من إيراسموس. يا يسوع، أود أن أراهم وأعود إلى السفينة.

ألقي نظرة على ماريكو التي كانت تقول شيئاً لزوجها. استمع بونتارو، ثم فوجئ بلاكتورن برؤية وجه الساموراي يتلوى من الاشمئزاز. ثم نظر إليه بونتارو قبل أن يتمكن هو من إشاحة أنظاره بعيداً.

بدت كلمات بونتارو تقريباً وكأنها اتهام: «ما الأمر؟».

- لا شيء يا بونتارو سان.

قدم بلاكثورن الساكي للجميع على أمل تغطية خطئه. قبلت النساء مجددًا لكنهن شربن النبيذ بحذر. أنهى بونتارو كأسه على الفور، وكان مزاجه متعكرًا. ثم خاطب ماريكو مطولًا.

تحدث بلاكثورن رغمًا عن نفسه: «ما مشكلته؟ ماذا يقول؟».

- آسفة يا أنجين سان. كان زوجي يسأل عنك، عن زوجتك وخليلاتك. وعن أطفالك. وعما حدث منذ أن غادرنا أوساكا. هو...

توقفت مغيرة رأيها، ثم أضافت بصوت مختلف: «إنه مهتم جدًا بك وبأرائك».

قال بلاكثورن: «وأنا مهتم به وبأرائه يا ماريكو سان. كيف التقيتما، أنتِ وهو؟ متى تزوجتما؟ هل...».

قاطع بونتارو كلامه بسيل من اليابانية المتعجلة.

ترجمت ماريكو ما قيل على الفور. مد بونتارو يده وأخذ كوبين من الساكي، قدم واحدًا لبلاكثورن ولوح للنساء لتناول البقية.

- إنه... يقول زوجي أن أكواب الساكي أحيانًا تكون صغيرة جدًا.

ملأت ماريكو الأكواب الأخرى. احتست هي واحدًا، واحتست فوجيكو الآخر. خاطب ماريكو بعدوانية وتجمدت ابتسامة ماريكو على وجهها، وكذلك فوجيكو.

بدأت ماريكو بالتحدث: «لا، رجاءً سامحني يا بونتارو ساما».

أمر بونتارو: «الآن».

بدأت فوجيكو تتحدث بتوتر، لكن بونتارو أسكتها بنظرة واحدة.

همست فوجيكو معذرة: «أنا آسفة، سامحني».

- ماذا قال يا ماريكو سان؟

بدت وكأنها لم تسمع بلاكثورن. قالت: «أعذر يا بونتارو ساما، أنا...».

احمر وجه زوجها: «الآن».

- معذرة يا أنجين سان، لكن زوجي يأمرني... بأن أجيب عن أسئلتك، وأن أخبرك عن نفسي. أخبرته أنني لا أعتقد أن المسائل العائلية يجب أن تناقش في وقت متأخر من الليل، لكنه يأمر بذلك. لذا رجاءً كن صبورًا.

احتست رشفة كبيرة من الساكي. ثم أخرى. كانت الخصلات المتدلّية من شعرها على أذنيها تتحرك بفعل التيار الخفيف الذي أحدثته مروحة فوجيكو. تجرعت الكأس بالكامل ثم وضعتها جانباً وقالت: «اسمي قبل الزواج هو أكيتشي. أنا ابنة القائد الزعيم أكيتشي جينساي، القاتل. اغتال والدي زعيمه الإقطاعي الطاغية الزعيم جورودا غدرًا».

- يا إلهي! لماذا فعل ذلك؟

- مهما كان السبب يا أنجين سان، فهو غير كافٍ. ارتكب والدي أسوأ جريمة في عالمنا. دمي ملوث، وكذلك دم ابني.

- إذن لماذا...

توقف.

- ماذا يا أنجين سان؟

- كنت فقط سأقول إنني أفهم ما يعنيه الأمر... قتل زعيم إقطاعي. أنا متفاجئ بأنهم تركوك على قيد الحياة.

- لقد شرفني زوجي...

قاطعها بونتارو بعنف مجدداً واعتذرت وأوضحت ما سألها بلاكثورن. لوح بونتارو بازدياء لها للاستمرار.

تابعت بالطريقة اللطيفة نفسها: «شرفني زوجي بإرسالتي بعيداً. توسلت له أن يسمح لي بالسيبوكو لكنه حرم عليّ ذلك الامتياز. كان... يجب أن أوضح أن السيبوكو هو امتياز له يعطيه، أو امتياز الزعيم توراناغا. ما زلت أطلبه بتواضع مرة واحدة في السنة في ذكرى يوم الخيانة. ولكن زوجي بحكمته يرفضه دائماً». كانت ابتسامتها جميلة: «زوجي يكرمني كل يوم، وكل لحظة يا أنجين سان. لو كنت مكانه لما استطعت حتى التحدث إلى شخص... ملوث مثلي».

سأل متذكراً ما قالته عن كارثة في أثناء المسيرة من قلعة أوساكا: «لهذا السبب... لهذا السبب أنت الأخيرة في سلالتك؟».

ترجمت ماريكو السؤال لبونتارو ثم أجابت: «نعم يا أنجين سان. ولكنها لم تكن كارثة بالنسبة لهم. كانوا محاصرين في الجبال، والدي وعائلته، على يد ناكامورا، القائد الذي أصبح التايكو. ناكامورا هو من قاد جيوش الانتقام وذبح كل قوات والدي، عشرين ألف رجل، جميعهم. كان والدي وعائلته

محاصرين، ولكن كان لديه الوقت ليساعدهم جميعاً، إختوتي الأربعة وشقيقتاتي الثلاث، و... أمي وخليتيه. ثم انتحر والدي بالسيبوكو. لأنه كان ساموراي وهم كانوا ساموراي. جثوا بشجاعة أمامه، واحداً تلو الآخر، وقتلهم واحداً تلو الآخر. ماتوا بشرف. ومات بشرف. انحاز شقيقا والدي وعمه إليه في خيانتة لزعيمهم الإقطاعي. كانوا أيضاً محاصرين. وماتوا بالشرف نفسه. لم يُترك أي أكيتشي على قيد الحياة ليواجه الكراهية والازدراء من العدو سواي... لا، معذرة يا أنجين سان، أنا مخطئة... والدي وإخوته وعمه هم العدو الحقيقي. أنا الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من العدو، شاهدة حية على الخيانة القذرة. أنا أكيتشي ماريكو بقيت على قيد الحياة لأنني كنت متزوجة وبذلك انتمت إلى عائلة زوجي. كنا نعيش في كيوتو آنذاك. كنت في كيوتو عندما مات والدي. خيانتة وتمرده استمر فقط لثلاثة عشر يوماً يا أنجين سان. ولكن ما دام يعيش البشر في هذه الجزر، سيبقى اسم أكيتشي ملطخاً بالعار».

- كم كان مضى على زواجك عندما حدث ذلك؟

- شهران وثلاثة أيام يا أنجين سان.

- وكان عمرك خمسة عشر عاماً آنذاك؟

- نعم. شرفني زوجي بعدم تطليقي أو طردي كما كان يجب عليه أن يفعل. أرسلت إلى مكان بعيد. إلى قرية في الشمال. كان الجو بارداً هناك يا أنجين سان، في مقاطعة شوناي. قارس البرودة.

- كم من الوقت مكثت هناك؟

- ثماني سنوات. كان الزعيم جورودا يبلغ من العمر تسعة وأربعين عاماً عندما انتحر بالسيبوكو لمنع أسره. كان ذلك قبل ستة عشر عاماً تقريباً يا أنجين سان، ومعظم نسل...

قاطعها بونتارو مجدداً، ولسانه كالسوط.

قالت ماريكو: «اعذرني يا أنجين سان، يشير زوجي إلى أنه كان يكفي لي أن أقول إنني ابنة خائن، وأن التفسيرات الطويلة ليست ضرورية. بالطبع بعض التفسيرات ضرورية». أضافت بحذر: «أرجو أن تعذر سوء أدب زوجي، وأتوسل إليك أن تتذكر ما قلته عن الأذان التي تسمع بها وعن السياج الثماني. سامحني يا أنجين سان، لقد طُلب مني الرحيل. لا يمكنك المغادرة حتى يغادر أو يفقد الوعي من شرب الساكي. لا تتدخل».

انحنت لفوجيكو: «رجاءً سامحيني».

- لا داعي لذلك.

انحنت ماريكو برأسها لبونتارو وغادرت. ظل عطرها عالقًا.

قال بونتارو وابتسم بشراً: «ساكي».

ملأت فوجيكو الكوب.

قال بلاكتورن باضطراب: «في صحتك».

ظل يشرب نخب بونتارو لأكثر من ساعة حتى شعر بأن رأسه يدور. ثم فقد بونتارو الوعي واستلقى في فوضى الأكواب المحطمة. انفتح الشوجي على الفور. دخل حارس ومعه ماريكو. رفعوا بونتارو بمساعدة الخدم الذين بدا أنهم ظهروا من العدم، وحملوه إلى الغرفة المقابلة. غرفة ماريكو. بدأت في نزع ملابسه بمساعدة الخادمة كوي. أغلق الحارس باب الشوجي وجلس خارجه، ويده على قبضة سيفه المرخي.

انتظرت فوجيكو وهي تراقب بلاكتورن. جاءت الخادومات ونظفن الفوضى. مرر بلاكتورن يديه في شعره الطويل بتعب وأعاد ربط الشريط في جديته. ثم نهض وخرج إلى الشرفة، وخليته تتبعه.

كان الهواء منعشاً وشعر به يطهره. ولكن ليس بما يكفي. جلس بثقل على العتبة وتأمل الليل.

جثت فوجيكو خلفه وانحنت إلى الأمام. همست مشيرة برأسها إلى المنزل: «معدرة يا أنجين سان. هل تفهم؟».

- فهمت، لا مفر من ذلك.

ثم عندما رأى خوفها غير المتوقع، مسد شعرها برفق.

- شكراً لك، شكراً يا أنجين ساما.

قال متذكراً الكلمات بصعوبة: «أنتِ نامي الآن يا فوجيكو سان».

قالت مشيرة إليه باتجاه غرفته وعيناها تتوسلان: «رجاءً سامحني يا أنجين ساما، ستنام، أليس كذلك؟».

- نعم. سأذهب للسباحة الآن.

- حسناً يا أنجين ساما.

استدارت مطيعة ونادت على أحدهم. هرع اثنان من الخدم. كلاهما كان شابًا من القرية، قويًا ومعروفًا بأنه سباح ماهر.

لم يعترض بلاكثورن. كان يعلم أن اعتراضاته الليلة لن تكون ذات جدوى.

قال بصوت عالٍ وهو يتعثّر نزولًا من التل، بينما الرجال يتبعونه وعقله مشوش بفعل الشراب: «حسنًا، على أي حال، على الأقل لقد جعلته ينام. لن يتمكن من إيذاؤها الآن».

سبح بلاكثورن لمدة ساعة حتى شعر بتحسن. كانت فوجيكو تنتظره على الشرفة عندما عاد ومعها إبريق من الشاي الطازج. تناول بعضًا منه ثم ذهب إلى الفراش ونام على الفور.

استيقظ على صوت بونتارو الذي كان ينم عن الحقد. كانت يده اليمنى بالفعل تمسك بمقبض المسدس المحشو الذي كان يحتفظ به دائمًا تحت الفتون، وقلبه ينبض بقوة من استيقاظه المفاجئ.

توقف صوت بونتارو. بدأت ماريكو تتحدث. لم يتمكن بلاكثورن من فهم سوى بعض الكلمات، لكنه شعر بنبرة العقلانية والتوسل؛ لم تكن متذلة أو متذمرة أو حتى قريبة من البكاء، فقط هدوؤها الحازم. ثم انفجر بونتارو مجددًا.

حاول بلاكثورن ألا يستمع.

كانت قد أخبرته، وهي على حق. لم يكن له أي حقوق، بينما كان بونتارو يمتلك الكثير: «لا تتدخل، رجاءً كن حذرًا يا أنجين سان. تذكر ما قلته لك عن الأذان التي تسمع بها وعن الحاجز الثماني».

استلقى مجددًا بطواعية، وجسده مبلل بالعرق، وأجبر نفسه على التفكير فيما قالته.

كانت قد أخبرته في تلك الأمسية الخاصة جدًا حين كانوا يnehون آخر قوارير الساكي العديدة وكان يمزح بشأن قلة الخصوصية في كل مكان، حيث إن الناس دائمًا حولهم والجدران الورقية، والأذان والأعين دائمة التطفل: «كما ترى يا أنجين سان، هنا عليك أن تتعلم كيف تخلق خصوصيتك الخاصة. نحن نتعلم منذ الطفولة كيف نختفي داخل أنفسنا، وكيف نبني جدرانًا

منبعة نعيش خلفها. لولا ذلك، لجن جنوننا جميعاً وقتلنا بعضنا بعضاً وقتلنا أنفسنا».

- أي جدران؟

- لدينا متاهة لا حدود لها للاختباء بداخلها يا أنجين سان. طقوس وعادات ومحرمات من كل نوع، نعم. حتى لغتنا بها تعابير ليست لديك تتيح لنا تجنب أي سؤال بلبابة إذا لم نرغب في الإجابة عليه.

- لكن كيف تغلقين أذنيك يا ماريكو سان؟ هذا مستحيل.

- الأمر سهل جداً مع التدريب. بالطبع، يبدأ التدريب حالما يتمكن الطفل من التحدث، لذلك يصبح الأمر طبيعياً لنا في وقت قصير، وإلا كيف سننجو؟ في البداية تبدأ بتنقية عقلك من الناس، وتضع نفسك في مستوى مختلف. مراقبة الغروب تساعد كثيراً أو الاستماع إلى المطر. هل لاحظت الأصوات المختلفة للمطر يا أنجين سان؟ إذا استمعت حقاً، فإن الحاضر يختفي، أليس كذلك؟ الاستماع إلى سقوط الأزهار ونمو الصخور يعتبر تدريباً ممتازاً. بالطبع، ليس المفترض أن ترى الأشياء، فهي مجرد إشارات، رسائل إلى الهارا خاصتك، إلى مركزك، لتذكيرك بزوال الحياة، لمساعدتك في الوصول إلى الوا، الانسجام يا أنجين سان، الانسجام التام الذي يُعد أكثر الصفات المطلوبة في كل جوانب الحياة اليابانية، كل الفنون وكل...

ضحكت ولامس طرف لسانها شفيتها بإغراء شديد: «انظر ماذا يفعل الكثير من الساكي بي. سأهمس لك بسرّاً: لا تنخدع بابتساماتنا ورُقِينَا وطقوسنا وانحنائنا ولطافتنا واهتمامنا. أسفل كل هذا يمكن أن نكون على بعد ملايين الري، آمنين ووحيددين. هذا هو ما نسعى إليه... النسيان. أولى قصائدنا التي كُتبت -إنها موجودة في كتاب كوجيكي، أول كتاب تاريخي لنا والذي كُتب قبل نحو ألف عام- ربما تشرح لك ما أعنيه:

تراكمت ثماني سحب

ليختبئ العشاق داخلها.

الحاجز الثماني لمقاطعة إيزومو

يحاصر تلك السحب الثمانية

يا لروعة ذلك الحاجز الثُماني!

نحن حتمًا سنجن إذا لم يكن لدينا حاجز ثُماني، نعم بكل تأكيد».

قال لنفسه بينما كان غضب بونتارو يتزايد: تذكر الحاجز الثُماني، قال لنفسه: لا أعلم شيئًا عنها. أو عنه حقًا. فكر في كتيبة البنادق أو الوطن أو فيليسيستي أو كيفية الحصول على السفينة أو في باكوس أو توراناجا أو أومي سان. ماذا عن أومي؟ هل أحتاج إلى الانتقام؟ إنه يريد أن يصبح صديقي وكان جيدًا ولطيفًا منذ حادثة المسدسات و...

صوت الضربة اخترق رأسه. ثم بدأ صوت ماريكو مجددًا، ثم صوت ضربة ثانية، وفي لحظة كان بلاكتورن واقفًا، وقد فتح الشوحي. كان الحارس يقف مواجهًا له ببغض في الممر خارج باب ماريكو، وسيفه في وضع استعداد.

كان بلاكتورن يستعد لمهاجمة الساموراي عندما فُتح الباب في نهاية الممر. اقتربت فوجيكو بشعرها المنسدل فوق كيمونو النوم، ولم يبدُ أن صوت تمزيق القماش والضربات يؤثر فيها. انحنت بأدب للحارس ووقفت بينهما، ثم انحنت بتواضع لبلاكتورن وأمسكت بذراعه مشيرة له بالعودة إلى الغرفة. رأى استعداد الساموراي. كان لديه مسدس واحد ورصاصة واحدة فقط في تلك اللحظة، لذا تراجع. تبعته فوجيكو وأغلقت الشوحي خلفها. ثم هزت رأسها محذرة بخوف شديد، ووضعت إصبعها على شفتيها وهزت رأسها مجددًا، وعيناها تتوسلان إليه.

همست: «أسفة، هل فهمت؟».

لكن تركيزه كان على جدار الغرفة المجاور، الذي يمكنه تحطيمه بسهولة. نظرت إلى الجدار أيضًا، ثم وضعت نفسها بينه وبين الحائط وجلست مشيرة إليه أن يفعل المثل.

لكنه لم يستطع. وقف مستعدًا للانقضاض الذي سيدمرهم جميعًا، محرضًا بصوت الأنين الذي تلا ضربة أخرى.

ارتجفت فوجيكو في رعب: «لا».

أشار لها بالابتعاد عن طريقه.

توسلت مجددًا: «لا، لا».

- الآن.

نهضت فوجيكو على الفور وأشارت إليه بالانتظار بينما هرعت بصمت نحو السيوف الموضوعة أمام التوكوناما، زاوية الشرف الصغيرة. التقطت السيف الطويل ويدها ترتجفان، وسحبته من غمده واستعدت لتتبعه عبر الجدار. في تلك اللحظة كانت هناك ضربة أخيرة وسيل متصاعد من الغضب. انفتح الشوجي الآخر بعنف واندفع بونتارو بعيدًا دون أن يراه أحد وتبعه الحارس. عم الصمت المنزل للحظة، ثم سُمع صوت بوابة الحديقة وهي تُغلق بقوة.

توجه بلاكثورن نحو بابه. اندفعت فوجيكو لتعيق طريقه لكنه دفعها جانبًا وفتح الباب بقوة.

كانت ماريكو ما زالت جاثية على ركبتها في إحدى زوايا الغرفة المجاورة، على وجنتها كدمة بارزة، وشعرها أشعث، والكيمنو الخاص بها ممزق، وكدمات سيئة على فخذها وأسفل ظهرها.

هرع إليها ليحملها لكنها صرخت: «ارحل، أرجوك ارحل يا أنجين سان». رأى الدم يسيل من زاوية فمها. قال: «يا إلهي، ما مدى سوء حالك...». قالت بالصوت الهادئ نفسه الذي ينافي العنف في عينيها: «أخبرتك ألا تتدخل. أرجوك ارحل».

ثم رأت فوجيكو التي بقيت عند المدخل. تحدثت معها. وأمسكت فوجيكو بطاعة ذراع بلاكثورن لتقوده بعيدًا لكنه أفلت من قبضتها. قال: «توقفي، لا». قالت ماريكو: «وجودك هنا يسلبني كرامتي ويحرمني من الطمأنينة والراحة ويُهينني. ارحل».

- أريد أن أساعد. ألا تفهمين؟

- ألا تفهم أنت؟ ليس لك حق التدخل في هذا. هذا خلاف خاص بين زوج وزوجة.

- هذا ليس عذرًا للضرب...

- لماذا لا تستمع يا أنجين سان؟ يمكنه أن يضربني حتى الموت إذا أراد. لديه الحق، وأتمنى لو يفعل... حتى ذلك! حينها لن أضطر إلى تحمل

- هذا العار. هل تعتقد أنه من السهل العيش مع عاري؟ ألم تسمع ما قلته لك؟ أنا ابنة أكيتشي جينساي.
- هذا ليس خطأك. لم تفعلي شيئاً.
- إنه خطئي وأنا ابنة والدي.
- كانت ماريكو تنوي التوقف عند هذا الحد، لكن عندما نظرت إلى الأعلى ورأت تعاطفه وقلقه وحبّه، ومعرفتها بمدى احترامه للحقيقة، سمحت لبعض حواجزها بالانهيار.
- قالت: «ما حدث الليلة كان خطئي يا أنجين سان. لو بكيت كما يريد، وطلبت المغفرة كما يريد، وتوسلت وتذللّت وتملّقت كما يريد، وفتحت ساقي بخوف مصطنع كما يرغب، وقمت بكل هذه الأمور النسائية التي تفرضها عليّ واجباتي، لكان كالطفل في يدي. لكنني لن أفعل».
- لماذا؟
- لأن هذا هو انتقامي. لأنتقم منه لتركه لي على قيد الحياة بعد الخيانة. لأنتقم منه لإرسالني بعيداً لمدة ثماني سنوات وتركه لي على قيد الحياة طوال تلك الفترة. ولأنتقم منه لأنه أمرني بالعودة إلى الحياة وتركه لي على قيد الحياة.
- جلست بألم، ولفت الكيمونو الممزق حولها وأضافت: «لن أمنح نفسي له مرة أخرى. لقد فعلت ذلك مرة واحدة بحرية، رغم أنني كرهته من اللحظة الأولى التي رأيته فيها».
- إذن لماذا تزوجته؟ لقد قلت إن النساء هنا لديهن حق الرفض، وأنهن لا يجب أن يتزوجن ضد رغبتهن.
- تزوجته لإرضاء الزعيم جورودا، وإرضاء والدي. كنت صغيرة جداً حينها، ولم أكن أعلم عن حقيقة جورودا بعد، ولكن إذا كنت تريد الحقيقة، فإن جورودا كان أقسى وأحقر رجل وُلد على الإطلاق. لقد دفع والدي إلى الخيانة. هذه هي الحقيقة. جورودا. (بصقت الاسم): لولا وجوده لكنا جميعاً أحياء ومكرمين. أدعو الرب أن يكون جورودا محكوماً عليه بالجحيم للأبد.

تحركت بحذر محاولة تخفيف الألم في جانبها وأضافت: «لا يوجد بيني وبين زوجي سوى الكراهية، وهذه الكارما الخاصة بنا. سيكون من السهل جدًا عليه أن يسمح بالموت».

- لماذا لا يدعك تذهبين؟ يطلقك؟ أو حتى يمنحك ما تريدين؟

- لأنه رجل.

سرت موجة من الألم في جسدها فتجهم وجهها. كان بلاكثورن جاثيًا على ركبتيه بجانبها محتضنًا إياها. دفعته بعيدًا محاولة السيطرة على نفسها. كانت فوجيكو تشاهد بهدوء عند مدخل الباب.

- أنا بخير يا أنجين سان. رجاء دعني وشأني. لا يجب عليك ذلك. يجب

أن تكون حذرًا.

- أنا لست خائفًا منه.

دفعت شعرها عن عينيها بتعب وحدقت إليه بتمعن. تساءلت ماريكو في نفسها: لماذا لا تتركين أنجين سان ليوافقه الكارما. إنه ليس من عالمنا. بونتارو سيقتله بسهولة. حماية توراناكا الشخصية وحدها هي من حمت حياته حتى الآن. يابو وأومي وناجا وبونتارو. أي واحد منهم يمكن أن يُستفَز بسهولة ليقتله.

لم يتسبب إلا في المشكلات منذ وصوله، أليس كذلك؟ وكذلك معرفته. ناجا محق: أنجين سان يمكن أن يدمر عالمنا ما لم يُكبح جماحه.

ماذا لو علم بونتارو الحقيقة؟ أو توراناكا؟ عن الجماع...

قالت فوجيكو في تلك الليلة الأولى: «هل جننت؟».

- لا.

- إذا لماذا ستحلين مكان الخادمة؟

- بسبب الساكي وللتسلية يا فوجيكو تشان، ولأجل الفضول.

كذبت مخفية السبب الحقيقي: لأنه أثارها، ولأنها أرادت، لأنها لم يكن لها حبيب من قبل. إذا لم يحدث ذلك الليلة، فلن يحدث أبدًا، وكان يجب أن يكون أنجين سان، وأنجين سان فقط.

لذلك ذهبت إليه وانتشيت، ثم بالأمس عندما وصلت القادس، قالت فوجيكو على انفراد: «هل كنت ستذهبين لو علمت أن زوجك على قيد الحياة؟».

كذبت: «لا. بالطبع لا».

- ولكنك الآن ستخبرين بونتارو ساما، أليس كذلك؟ عن الجماع مع أنجين سان؟

- لماذا أفعل ذلك؟

- اعتقدتُ أن هذه قد تكون خطتك. إذا أخبرتِ بونتارو ساما في الوقت المناسب، فسينفجر غضبه عليكِ وستموتين بامتنان قبل أن يدرك ما فعله.

- لا يا فوجيكو سان، لن يقتلني أبدًا. للأسف. سيرسلني إلى الإيتا إذا وجد العذر الكافي -إذا استطاع الحصول على موافقة الزعيم توراناغا- ولكنه لن يقتلني أبدًا.

- الزنا مع أنجين سان، هل سيكون ذلك كافيًا؟

- نعم.

- ماذا سيحدث لابنك؟

- سيرث عاري، إذا كنتُ ملطخة السمعة، أليس كذلك؟

- رجاءً أخبريني إذا شعرتِ يومًا أن بونتارو ساما يشك فيما حدث. ما دمتُ الخلية، فإن من واجبي حماية أنجين سان.

فكرت ماريكو حينها: نعم، إنه من واجبك يا فوجيكو. وذلك سيعطيكِ الحق للانتقام العلني الذي تتوقين إليه من متهم والدك. ولكن والدك كان جبانًا، أسفة يا فوجيكو المسكينة. كان هيرو ماتسو هناك، وإلا لكان والدك حيًا الآن وبونتارو ميتًا، لأن بونتارو كان مكروهاً أكثر مما احتقروا والدك. حتى السيوف التي تعتزين بها كثيرًا، لم تُمنح كشرف معركة، بل تم شراؤهما من ساموراي جريح. أسفة ولكنني لن أكون الشخص الذي يخبرك ذلك، رغم أن هذه هي الحقيقة أيضًا.

كان بلاكتورن يقول مجددًا: «أنا لست خائفًا منه».

قالت والألم يملكها: «أعلم. ولكن أرجوك، أتوسل إليك، كن خائفًا منه لأجلي».

توجه بلاكتورن نحو الباب.

كان بونتارو ينتظره على بعد خمسة وسبعين مترًا في وسط الطريق المؤدي إلى القرية، قصير القامة وضخم ومميت. والحارس يقف بجانبه. الفجر ملبدًا بالغيوم. وقوارب الصيد تبحر بالفعل في المياه الضحلة، والبحر هادئ.

رأى بلاكتورن القوس في يد بونتارو، والسيوف، وسيوف الحارس. كان بونتارو يتمايل قليلًا، وهذا ما أعطاه أملًا في أن يكون تصويبه غير دقيق، مما قد يمنحه الوقت الكافي للاقترب. لم يوجد أي مكن بجانب الطريق. لذا بلا اهتمام، قام بلاكتورن بتجهيز المسدسين وتوجه نحو الرجلين.

فكر من خلال ضباب شهوته الدموية: فليذهب المكن إلى الجحيم مع الغطاء، أدرك في الوقت نفسه أن ما يفعله جنون، وأنه لا يملك أي فرصة ضد الاثنين ساموراي أو القوس بعيد المدى، وأنه ليس له أي حق في التدخل. بعد ذلك، وبينما كان لا يزال بعيدًا عن مدى إطلاق المسدس، انحنى بونتارو بعمق، وكذلك فعل الحارس. توقف بلاكتورن مستشعرًا وجود فخ. نظر حوله لكن لا يوجد أحد بالقرب. ثم كما لو كان في حلم، رأى بونتارو يجثو ببطء على ركبتيه ويضع قوسه جانبًا ويداه مسطحتان على الأرض، ثم انحنى له كما ينحني الفلاح لزعيمة. وفعل الحارس الشيء نفسه.

حدق بلاكتورن إليهما مذهولًا. ثم تقدم ببطء عندما تأكد أن عينيه لا تخدعانه، والمسدسان جاهزان ولكن ليسا مصوبين، متوقعًا الغدر. ثم توقف عندما أصبح في مدى قريب، توقف. لم يتحرك بونتارو. كانت العادات تقتضي أن يجثو ويرد التحية لأنهم متساوون أو شبه متساويين، لكنه لم يستطع فهم سبب وجود طقوس الاحترام الغريبة في موقف مثل هذا حيث ستسيل الدماء. استعد بلاكتورن لسحب الزنادين: «انهض يا ابن العاهرة».

لم يقل بونتارو شيئًا، ولم يفعل شيئًا، ولكنه أبقى رأسه منحنيًا ويديه مسطحتين. كان ظهر الكيمونو الخاص به مبللًا بالعرق.

- ما الأمر؟

استخدم بلاكتورن عمدًا أكثر الطرق إهانةً للسؤال، راغبًا في استدراج بونتارو للنهوض، وللبدء، مدرّكًا أنه لا يستطيع إطلاق النار عليه بهذه الطريقة، ورأسه يكاد يلامس الأرض.

ثم عندما أدرك أنه من الوقاحة أن يقف بينما هم يجثون، وأن «ما الأمر» كانت إهانة شبه لا تحتمل وبالتأكيد غير ضرورية، جثا بلاكثورن ممسكاً بالمسدسين، ووضع يديه على الأرض وبادلته الانحناء. جلس على كعبيه. وسأل بتهذيب متكلف: «نعم؟».

على الفور بدأ بونتارو يتمتم. بخضوع. ويعتذر. عن ماذا ولماذا بالضبط، لم يكن بلاكثورن يعلم. كان يستطيع فهم كلمة هنا وأخرى هناك وكلمة ساكي عدة مرات، لكن من الواضح أنه كان اعتذاراً وتوسلاً متواضعاً للمغفرة. استمر بونتارو لفترة طويلة. ثم توقف ووضع رأسه على الأرض مجدداً.

اختفى غضب بلاكثورن الأعمى بحلول هذا الوقت. قال بصوت مبجوح: «Shigata ga nai».

وهي تعني «لا يمكن تجنبه» أو «لا يمكن فعل شيء»، أو «ماذا يمكن أن تفعل؟» دون أن يعلم بعد ما إذا كان الاعتذار مجرد طقس قبل الهجوم: «هذا لا يمكن تجنبه. أنا لا أفهم بالضبط... لكن لا تقلق».

نظر بونتارو إليه وجلس: «شكراً... شكراً لك يا أنجين ساما. أعتذر بشدة». كرر بلاكثورن: «هذا لا يمكن تجنبه».

والآن بعد أن اتضح له أن الاعتذار كان صادقاً، شكر الرب لمنحه الفرصة العجيبة لإلغاء المباراة. كان يعلم أنه ليس له حقوق وأنه تصرف كالمجنون، وأن الطريقة الوحيدة لحل الأزمة مع بونتارو كانت وفقاً للقواعد. وهذا يعني توراناغا.

كان يسأل نفسه بجنون: ولكن لماذا الاعتذار؟ فكر! يجب أن تتعلم التفكير مثلهم.

ثم تدفقت الحلول إلى دماغه بسرعة. لا بد أن ذلك بسبب أنني هاتاموتو، وبونتارو الضيف، أفسد الوا، الانسجام في منزلي. بإثارة شجار عنيف مع زوجته في منزلي، لقد أهانني وبالتالي فهو مخطئ تماماً ويجب عليه الاعتذار سواء كان يعنيه أم لا. الاعتذار إلزامي من ساموراي إلى آخر، ومن ضيف إلى مضيف...

انتظر! ولا تنس أن وفقاً لعاداتهم، جميع الرجال يُسمح لهم بالثمالة، ومن المتوقع أن يثملوا أحياناً، وعندما يكونون ثملين، فإنهم غير مسؤولين عن أفعالهم في حدود المعقول. لا تنس أنه لا يوجد فقدان لماء الوجه إذا ثملت

بشدة. تذكر كيف كانت ماريكو وتوراناجا غير مباليين على متن السفينة عندما كنت ثملاً. كانوا مستمتعين وليسوا مشمئذين، مثلنا. ألسنت أنت الملام حقاً؟ ألم تكن أنت من بدأ جولة الشراب؟ ألم يكن ذلك تحديك؟

قال بصوت عالٍ: «بلى».

سأل بونتارو وعيناه محمرتان: «ما الخطب يا أنجين سان؟».

- لا شيء. كان خطئي.

هز بونتارو رأسه وقال لا، إنه كان خطأه وحده، وانحنى واعتذر مجدداً. قال بلاكثورن بحسم وهز كتفيه: «الساكي»، هذا لا يمكن تجنبه. بسبب الساكي».

انحنى بونتارو وشكره مجدداً. بادلته بلاكثورن الانحناء ونهض. تبعه بونتارو والحارس. كلاهما انحنى مرة أخرى. وبادلتهما الانحناء مرة أخرى.

في نهاية المطاف استدار بونتارو وتمايل مبتعداً. انتظر بلاكثورن حتى كان بعيداً عن مدى السهم، متسائلاً عما إذا كان الرجل ثملاً كما بدا. ثم عاد إلى منزله.

كانت فوجيكو على الشرفة، داخل قوقعتها المهدبة والمبتسمة. سأل نفسه بينما ألقى عليها التحية وبادلته هي: بماذا تفكرين حقاً.

كان باب ماريكو مغلقاً. وخادمتها تقف بجانبه.

- ماريكو سان؟

- نعم يا أنجين سان؟

انتظر لكن الباب ظل مغلقاً. قال: «هل أنت بخير؟».

سمعها تسعل قليلاً ثم قالت بصوت ضعيف: «نعم، شكرًا. أرسلت فوجيكو رسالة إلى يابو سان وإلى الزعيم توراناجا مفادها أنني مريضة اليوم ولن أتمكن من الترجمة».

- من الأفضل أن تستشير طبيباً.

- شكرًا، لكن سوي سيكون جيدًا. لقد أرسلت لاستدعائه. لقد... لقد لويتُ جانبي فقط. حقاً أنا بخير تمامًا، لا داعي للقلق.

- انظري، أنا أعلم القليل عن الطب. أنت لا تسعين دماً، أليس كذلك؟

- نعم. اصطدمت بخدي فقط عندما انزلقت. حقًا، أنا بخير تمامًا.

قال بعد هنيهة: «اعتذر بونتارو».

- نعم. رأت فوجيكو ذلك من البوابة. أشكرك بصدق لقبولك اعتذاره.

شكرًا لك. وأنجين سان، أنا آسفة جدًا لأنك انزعجت... إنه أمر لا يُغتفر

أن ينزعج انسجامك... أرجوك تقبل اعتذاري أيضًا. لم يكن يجب أن أدع

لساني يفرط في الكلام. كان ذلك غير مهذب... أرجوك سامحني أيضًا.

كان الشجار بسببي. أرجوك تقبل اعتذاري.

- لأنك تعرضت للضرب؟

- لعدم طاعتي لزوجي، ولعدم مساعدته على النوم بسلام، لخدلاني له،

ولمضيفي. وأيضًا لما قلت.

- هل أنت متأكدة من أنه لا يوجد شيء يمكنني فعله؟

- لا... لا، شكرًا يا أنجين سان. إنه فقط لليوم.

لكن بلاكثورن لم يرها لثمانية أيام.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الجزء الثاني قريبًا على مكتبة ..

هي رواية ضخمة

من ١٤٢٩ صفحة

نشرت في مجلدين

شوجن

ثقافتان

نمطان مختلفان للحياة.

تتصادم العوالم عندما يجد الربان الإنجليزي جون بلاكثورن نفسه ضائعاً على شواطئ اليابان في القرن السابع عشر.

بعد أن ضلَّ الإنجليزي بلاكثورن طريقه في عرض البحر، يستيقظ ليجد نفسه في مكان قلما يعرفه الأوروبيون ولم يره سوى عدد أقل - اليابان. دُفِعَ إلى المجتمع المغلق لليابان، حيث الخط الفاصل بين الحياة والموت رفيع كحد السيف. يجب على بلاكثورن التعامل ليس فقط مع شعب أجنبي بعبادات ولغة مجهولة، بل مع مفاهيمه الخاصة عن الأخلاق والحقيقة والحرية. وبينما يؤدي الصراع السياسي الداخلي وصدام الثقافات إلى صراع حتمي لا مفر منه، يتعرض ولاء بلاكثورن وقوة شخصيته لاختبارات العاطفة والخسارة، ليجد نفسه ممزقاً بين عالمين سيتغير كل منهما إلى الأبد.

تتناول شوجن ببراعة الفخامة والواقع القاسي للحياة في اليابان الإقطاعية. لقد أسرت هذه الملحمة العالم لتصبح واحدة من أكثر الروايات مبيعاً على الإطلاق، وكذلك أحد أعلى المسلسلات التلفزيونية تقييماً. شوجن كما وصفتها صحيفة نيويورك تايمز: "ليست مجرد رواية تقرأها.. بل تعيشها".



telegram @soramnqraa

غلاف: محمود هشام

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb